



التراث



لطائف الإشارات

للإمام القشيري



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فجر له وحققه وعلق عليه

د/ إبراهيم بسيوني

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

المجلد الثاني

الطبعة الثالثة

قدّم له وحققه وعلق عليه

الدكتور/ إبراهيم بسيوني

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية



رقم التصنيف

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠



الهيئة المصرية العامة للكتاب

إدارة التراث

رئيس مجلس الإدارة

د . سمير سرحان

المشرف على إدارة التراث ورئيس التحرير

سعيد عبد الفتاح

سكرتير التحرير

أميمة على أحمد

الفلان

جمال قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«... أهل الجنة طابت لهم جناتهم ، وأهل النار أحاط بهم سرادقها ، والحق — سبحانه — مُنَّره عن أن تعود إليه من تعذيب هؤلاء عائدة ، ولا من تنعيم هؤلاء فائدة... جَلَّتْ الأُحدية ، وقَدَّسَتْ الصَّمَدية .

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَيْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَتَرَةٌ فَرَأَيْنَا ، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ خُطْوَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحْنُوْنَا غُفْرَانًا لَهُ مَا قَدَّمَهُ ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجْرُنَا لَهُ رَعْدًا ، وَمَنِ اتَّجَا إِلَى سُدُّوْنَا كَرَّمْنَا آوِيَتَهُ فِي ظِلِّ نِعْمِنَا ، وَمَنْ شَكَا فِينَا غِيلًا ، مَهَّدْنَا لَهُ فِي دَارِ فَضْلِنَا مَقِيلًا »

عبد الكريم القدير

عند

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ يَسَّرْ

تَبَرُّأَنَا مِمَّا مِثْلًا مِنَ الْحَوْلِ وَالْمَنَةِ ، وَتَحَقَّقْنَا بِمَا مِنْكَ
مِنَ الْعُلُولِ وَالْمِنَةِ ، فَلَا تَجْعَلْنَا حُرْمَةً لِّإِسْمَاعِ أَحْكَامِكَ ،
وَارْحَمْنَا بِطُفُفِكَ وَإِكْرَامِكَ ، وَتَجَنَّبْنَا عَنِ غَضَبِكَ عَلَيْهِمْ
فَإِذْ لَنُتَمُّهُمْ ، وَبِكَيْ فِرَاقِكَ وَسَمَتُهُمْ .

عبد الكريم القسري

عند

سورة يونس

السورة التي تذكر فيها التوبة

جرّد الله — سبحانه — هذه السورة عن ذكر « بسم الله الرحمن الرحيم » لِيَعْلَمَ أَنَّهُ يَخْصُ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ ، وَيُفَرِّدُ مَنْ يَشَاءُ وما يَشَاءُ بما يَشَاءُ ، ليس لِصُنْعِهِ سَبَبٌ ، وليس له في أفعاله غَرَضٌ ولا أَرَبٌ ، وَاتَّضَحَ للكافة أن هذه الآية أُثْبِتَتْ في الكتاب لأنها مُنَزَّلَةٌ ، وبالأمر هنالك مُحْصَلَةٌ .

وَمَنْ قَالَ : إنه لم يذكر التسمية في هذه السورة لأنها مفتوحة بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً في الإشارة — ضعيفٌ ، وفي التحقيق كالبعيد ؛ لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل : « لم يكن الذين كفروا » ^(١) وقوله : « ويل لكل همزة لمزة » ^(٢) وقوله : « تبَّتْ يدا أبي لهبٍ وتب » ^(٣) وقوله : « قل يا أيها الكافرون » ^(٤) . . . هذه كلها مغايغٌ للسور . . . وبسم الله الرحمن الرحيم مُثَبِّتَةٌ في أوائلها — وإن كانت مُتَّصِفَةٌ بِذِكْرِ الكفار . على أنه يحتمل أن يقال إنها وإن كانت في ذكر الكفار فليس ذكر البراءة فيها صريحاً وإن تَصَنَّنَتْ تلويحاً ، وهذه السورة أولها ذكر البراءة منهم قطعاً ، فلم تُصَدَّرْ بِذِكْرِ الرحمة .

وقال إذا كان نجرّدُ السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرى أن يُخْشَى أن نجرّد الصلاة عنها يمنع عن كمال الوصلة والاستحقاق .

قوله جل ذكره : ﴿ بِرَأْدَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(١) آية ١ سورة البينة .

(٢) آية ١ سورة الممتزة .

(٣) آية ١ سورة المد

(٤) آية ١ سورة الكافرون

الفراقُ شديداً ، وأشدُّه ألا يُعقبه وصال ، وفراقُ المشركين كذلك لأنه قال : « إن الله لا يفتن أن يشرك به ويفتر ما دون ذلك لمن يشاء »^(١)

ويقال من مُنيَ بفراق أحبائه فبُستت صحبته . وقد كان بين الرسول عليه السلام وبين أولئك المشركين عهد ، ولا شك أنهم كانوا قد وطَّئوا نفوسهم عليه ، فنزل الخير من الشيب بقتة ، وأنهم الإعلام بالفرقة فجأة ، فقال : « براءة من الله ورسوله » ، أى هذه براءة من الله ورسوله ، كما قيل :

فَبِتْ بِمُخِيرٍ — وَالَّذِي مَطْمَئِنُّ وَأَصْبَحَتْ يَوْمًا وَالزَّمَانُ تَقَلَّبَا
وما أشدَّ الفرقة — لاسيما إذا كانت بقتة على غير رقيب — قال تعالى : « وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ »^(٢) وأنشدوا :

وكان سراجُ الوصلِ أزهريتنا فَبِتْ بِرَيْحٍ مِنَ الْبَيْنِ فَانْطَفَأَ
قوله جل ذكره : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾

إِنْ قَطَعَ عَنْهُمْ الْوَصْلَةَ فَقَدْ مَرَبَ لَهُمْ مَدَّةٌ عَلَى وَجْهِ الْمُهْلَةِ ، فَأَمَّتْهُمْ فِي الْحَالِ لِيَتَأَهَّبُوا
لِتَحْتَلَّ مَقَاسَةِ الْبِرَاءَةِ فَيَا يَسْتَقْبَلُونَهُ فِي الْمَالِكِ .

والإشارة فيه : أنهم إن أقبلوا في هذه المهلة عن النى والضلال وجدوا في المال ما فقدوا من الوصال ، وإن أبوا إلا التحدى في ترك الخدمة والحرمة انقطع ما بينه وبينهم من العصمة .

ثم قال : واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله يخزي الكافرين ، والإشارة فيه : إن أصدرتم على قبيح آثارك سقيتم إلى هلاككم بقدمكم . وندتم في عاجلكم على سعيكم ، وحصلتم في آجيلكم على خسرانكم ؛ وما خسرتم إلا في صفتكم ، وما ضرَّ جرؤكم سواكم وأنشدوا :

تَبَدَّلَتْ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْصَرْنَا مَنْ ابْتَنَى عَوْضًا لِلْيَلِ فَلَمْ يَجِدْ

(١) آية ٤٨ سورة النساء (٢) آية ٣٩ سورة مريم

قوله جل ذكره: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ

يَوْمَ الْحُجَّ الْأَكْبَرِ﴾

أَي لِيَسْكُنَ لِإِعْلَامٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِلنَّاسِ بِنَقْضِ عَهْدِهِمْ ، وَإِعْلَانٍ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ مَا أَقْطَعُوا
عَنِ مَا أَوْفَهُمْ مِنَ الْإِيمَالِ^(١) وَمَعْهُدِهِمْ ، وَقَدْ بَرِحَ الْخُلْفَاءُ مِنَ الْيَوْمِ بِأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ وِلَاةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ
مِنْهُمْ بِمَا عَقَدُوا وَفَاءً ، فَلْيَعْلَمِ السَّكَاةُ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ ، وَأَنْشَدُوا :

أَشَاعُوا لَنَا فِي الْحَيِّ أَشْنَعَ قَصِيَّةٍ وَكَانُوا لَنَا سِلْمًا فَصَارُوا لَنَا حَرْبًا

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرَىٰ مِنَ الشَّرِكَينَ

وَرَسُولَهُ﴾ .

مَنْ رَأَىٰ مِنَ الْأَغْيَارِ — شَطِيئَةً مِنَ الْأَثَارِ ، وَلَمْ يَرَ حَصُولَهَا بِتَصْرِيفِ الْأَقْدَارِ قَدْ أَشْرَكَ
— فِي التَّحْقِيقِ — وَاسْتَوْجِبَ هَذِهِ الْبِرَاءَةَ .

وَمَنْ لَا يَحْطُ الْخَلْقُ تَصْنَعًا ، أَوْ طَالَعَ نَفْسَهُ إِعْجَابًا قَدْ جَمَلَ مَا لِلَّهِ لِنَفْسِهِ اللَّهِ ، وَظَنَّ مَا لِلَّهِ
لِنَفْسِهِ اللَّهِ ، فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ مِنَ الشَّرِّ بِاللَّهِ .

قوله جل ذكره: ﴿فَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ

تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي

اللَّهِ وَيَنْشَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ

الْبَرِّ﴾ .

إِنْ عَادُوا إِلَى الْبَابِ لَمْ يَقْطَعْ رَجَاهُمْ ، وَمَدَّ إِلَى حَدٍّ وَضُوحِ الْعُدْرِ لِإِرْجَائِهِمْ . وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ
إِنْ أَصْرُوا عَلَى عُتُوِّهِمْ قَالِي مَالًا يُطِيقُونَ مِنَ الْعَذَابِ مُتَقَلِّبُهُمْ ، وَفِي النَّارِ مُنَاهِمٍ .

قوله جل ذكره: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الشَّرِكَائِ ثُمَّ

لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَلَمْ يُطَافِرُوا عَلَيْكُمْ

أَحَدًا فَأَتَيْتُمُوهُم بِعَهْدِهِمْ إِلَى

مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ لِلنَّاسِ

(١) وردت (الإيمال) والصواب أن تكون (الإمال) لأن الإمال لا يكون إلا من الحق ،
وما أوفاهم ومعهودهم (الإمال) .

مَنْ وَفَّى الْحَقَّ فِي عَقْدِهِ فَرَّزَهُ عَلَى حِفْظِ عَهْدِهِ ؛ إِذْ لَا يَسْتَوِي مَنْ وَقَّاهُ وَمَنْ جَاءَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ .

يريد إذا انسلخ الحرم فاقبلوا من لاعد له من المشركين ، فإنهم — وإن لم يكن لهم عهد وكانوا حرمًا — جعل لهم الأمان في مدة هذه الشهة ، (. . .) ^(١) فبكروا أن يأمر بترك قتال مَنْ أَتَى كَيْفَ يَرْضَى بِقَطْعِ وَصَالٍ مِنْ أَتَى ١٢ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا حِمْيَرَهُمْ وَأَحْصُوا رُءُوسَهُمْ وَأَقْبِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴾ .

أمرهم بمعالجة جميع أنواع القتال مع الأعداء .

وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ؛ فسيبِلُ العهد في مباشرة الجهاد الأكبر مع النفس بالتضييق عليها بالمبالغة في جميع أنواع الرياضات ، واستفراغ الوسع ^(٢) في القيام بصدق المعاملات . ومن تلك الجملة ألا ينزل إساحات الرخص والتأويلات ، ويأخذ بالأشقي في جميع الحالات

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴾ .

حقيقة التوبة الرجوعُ بالكلية من غير أن تترك بقية . فإذا أسلم الكافر بعد شركه ، ولم يقصر في واجب عليه من قسوة فعله وتركه ، حصل الإذن في تخليته سبيله وفكه :

إِنْ وَجَدْنَا لِمَا ادَّعَيْتَ شُهَدَاءَ لَمْ نَجِدْ عِنْدَنَا لِحَقِّ حَدودًا

وكذلك النفس إذا انخست ، وأثار البشرية إذا اندرست ، فلا حرج — في التحقيق —

في المعاملات في أوان مراعاة الخطرات مع الله عند حصول المكشفات . والجلوس مع الله

(١) مشبهة

(٢) وردت (الواسع) والصواب أن تكون الوسع .

أَوَّلَى مِنَ الْإِقْيَامِ بِيَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ تَعَالَى فِيهِ وَرَدَ بِهِ الْغُلُوبُ : « أَنَا جَلِيسٌ مِّنْ ذَكَرْنِي » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ

فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلغَهُ

مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

إِذَا اسْتَجَارَ الْمُشْرِكُ — الْيَوْمَ — فَلَا يَرْدُّ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، فَإِذَا اسْتَجَارَ الْمُؤْمِنُ
طَوَّلَ عَمْرَهُ مِنَ الْفِرَاقِ — مَتَى يُنْتَجَعُ مِنْ مَسَاعِ كَلَامِ اللَّهِ ؟ وَمَتَى يَكُونُ فِي زِمْرَةٍ مِّنْ يُقَالُ لَهُمْ :
« اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ » (٢) .

وإِذْ قَالَ — الْيَوْمَ — عَنْ أَعْدَائِهِ : « فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ » فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ
مَسَاعِ كَلَامِهِ سُوءٌ عَنْ تَعْرِضِهِ حَيْثُ قَالَ : « ثُمَّ أَبْلغَهُ مَأْمَنَهُ » — أَتَرَى أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَوْلِيَائِهِ
— غَدًا — مِنْ فِرَاقِهِ ، وَقَدْ عَاشُوا الْيَوْمَ عَلَى إِيمَانِهِ وَوَفَاقِهِ ۱ ؟ كَلَّا .. إِنَّهُ يَمْنَحُهُمْ بِذَلِكَ ، قَالَ
تَعَالَى : « لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ » (٣) .

ثُمَّ قَالَ : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ » فَإِذَا كَانَ هَذَا يَرَى بِمَنْ لَا يَعْلَمُ فَكَيْفَ يَرَى بِمَنْ
يَعْلَمُ ؟

وَمَتَى نُضَيِّعُ مِّنْ يُنْبِئُ بَيَّابًا وَالْمُعْرُضُونَ لَهُمْ نَعِيمٌ وَافِرٌ ۱ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ

عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ

عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا

اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ

اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

(١) جاء في الرسالة ص ١١١ قال محمد الفراء سمعت النبي يقول : (أليس الله تعالى يقول :
أَنَا جَلِيسٌ مِّنْ ذَكَرْنِي ؟ مَا الَّذِي اسْتَفْتَمُ مِنْ جِبَالَةِ الْحَقِّ ؟) .

(٢) آيَةُ ١٠٨ سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ .

(٣) آيَةُ ١٠٣ سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ .

كيف يكون المغليس من عرفاته كالمخلص في إيمانه ؟

وكيف يكون المحبوب عن شهوده كالسالك في وجوده ؟

كيف يكون من يقول « أنا » كن يقول « أنت » ؟ وأنشدوا :

وأجبابنا شتان : وإننا وناقصُ ولا يستوى قطُّ حُبِّ وباغضُ

قوله : « فاستقاموا لكم فاستقيموا لهم » ، إن تَمَسَّكُوا بحبل^(١) وفائنا أحلناهم
ولاءنا ، وإن زاغوا عن عهدنا أبليناهم بصدتنا ، ثم لم يَرَبَّحُوا في بُعدنا .

« إن الله يحب المتقين » : التَّشَقَّى الذي يستحقُّ عِبةً مَنْ يَتَّقَى ؛ وذلك حين يتقَى حِبةً
نَفْسَهُ ، وذلك بِتَرْكِ حِطَّةٍ والتَّيَامُمِ بِحَقِّ رَبِّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا

فيكم إلَّا ولا ذمَّةٌ يرضونكم

بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرم

فاستون ﴾ .

وَصَفَهُم بِلُؤْمِ الطَّبَعِ فقال : كيف يكونون محافظين على عهودهم مع ما أضمره لكم من
سوء الرضاء ؟ فلو ظَفَرُوا بكم واستولوا عليكم لم يرأعوا لكم حُرْمَةً ، ولم يحفظوا لكم قِرابَةً
أو ذِمَّةً .

وفي هذا إشارة إلى أنَّ الكريمَ إذا ظَفَرَ غَفَرَ ، وإذا قدر ما غَدَرَ ، فبِأَسْرٍ وَجْهَرٍ .

قوله « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم » أى لا عَجَبَ مِنْ طَبِيعِهِمْ ؛ فإنهم في حَقِّنا
كذلك يضلون : يظهرون لباسَ الإيمانِ ويضمِّرونَ الكفرَ . وإِثْمُ ذَلِكَ يَبْشُرُونُ مِمَّا فِي رِئْ
الوفاق ، ويستبطنون عينَ الشقاقِ وسوءَ التفاقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ اشتروا بآياتِ الله ثمنًا قليلًا فصدوا

(١) وودعت (الجبل) وهى خطأ في النسخ .

عن سيده إنهم ساء ما كانوا
يصلون ❦ .

مَنْ رَضِيَ دِينَ اللَّهِ بِطَيْرِ اللَّهِ أَوْ خُصَّ فِي عَقْدَتِهِ ثُمَّ إِذَا خَسِرَ فِي تِجَارَتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ — وهو
عن الله — أُرْ اسْتِنَاعٌ ، وَلَا لَهُ — فِي دُونِهِ سَبِيحَةٌ — اقْتِنَاعٌ ؛ بَقِيَ عَنْ اللَّهِ ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ
عَنْ اللَّهِ . وَهَذَا هُوَ الْخَسِرَانِ الْمَبِين .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَعَدُونَ ﴾ .

كيف يراعى حقُّ المؤمنين من لا يراعى حقُّ الله في الله ؟ أخلاقهم تشابهت في
ترك الحرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ فَأَخْرَأْنَكُمْ فِي الدِّينِ وَفُضِّلَ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

منه : وإن قبلناهم وصلحوا لولائنا فلحمة النسب في الدين بينكم وبينهم وشيجة " ،
وإلا فليكن الأجاب منا على جانب منكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ
عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ
الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّكُمْ
يَتَّقُونَ ﴾ .

إذا جنحوا إلى القدر ، ونكثوا ما قدّموه من ضمان الوفاء بالعهد ، وبسطوا ألسنتهم فيكم
باللوم فاقصدوا من رحي الفتنة عليه تدور ، وغصن الشر من أصله ينشعب ، وهم سادة
الكفار وقادتهم .

وحق القتال إعداد القوة جهراً ، والتبرئ عن الحول والقوة سراً .
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ

(١) أى متبكة متعة .

وَهُوَ إِخْرَاجُ الرُّسُولِ وَهُمْ يَدَّوْنَهُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْخَشَوْهُمْ فَلَهُ أَهَقُ
أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

حَرَضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ — عَلَى مِلَاحَظَةِ أَمْرِ اللَّهِ بِذَلِكَ — لَا عَلَى مَقْتَضَى الْإِنطِلَافِ عَلَى الْحَقِّ
لِأَحَدٍ ، فَإِنَّ مَنْ خَضِبَ لِنَفْسِهِ فِذْمُومُ الْوَصْفِ ، وَمَنْ خَضِبَ لِلَّهِ فَإِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .
وَقَالَ « أَنْخَشَوْهُمْ فَلَهُ أَهَقُ أَنْ تَخْشَوْهُ » : فَالْخَشْيَةُ مِنَ اللَّهِ بِشِيرِ الْوَصْلَةِ ، وَالْخَشْيَةُ مِنَ
غَيْرِ اللَّهِ نَذِيرُ الْفُرْقَةِ . وَحَقِيقَةُ الْخَشْيَةِ نَفْضُ السُّرِّ عَنْ ارْتِكَابِ الزُّجْرِ وَخَالَةِ الْأَمْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ
وَيُخْزِيهِمْ وَيُنَصِّرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ وَيُذْهِبُ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾

هُوَ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْخَاطَرَةِ بِالْمُحْجَةِ بِمَا وَعَدَهُمُ مِنَ الظَّفَرِ وَالنَّصْرَةِ ، فَإِنَّ شُهُودَ يَنْزِي الْعِدُوَّ
مِمَّا يَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مَقَاسَةَ السُّوءِ . وَالظَّفَرُ بِالْأَرْبِ يَذْهِبُ تَعَبَ الطَّلَبِ .

وَشَفَاءُ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِي الْقِيَامِ وَالدرجات ؛ فَهُمْ مِنْ شَفَاءِ صَدْرِهِ
فِي قَهْرِ عَدُوِّهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي نَيْلِ مَرْجُوِّهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي الظَّفَرِ
بِعَطْلِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي لِقَاءِ مَحْبُوبِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي دَرْكِ مَقْصُودِهِ ،
وَمِنْهُمْ مَنْ شَفَاءَ صَدْرِهِ فِي الْبَقَاءِ بِمَحْبُودِهِ .

وَكَلِمَةُ ذَهَابِ غَيْظِ قُلُوبِهِمْ تَخْتَلِفُ أَسْبَابُهُ ، وَتَتَنَوَّعُ أَبْوَابُهُ ، وَفِي ذِكْرِنَا قُلُوبُ
لِيَا تَرْكُنَا ^(١) .

« وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » حَتَّى يَكُونَ اسْتِقْلَالُهُ بِمَحْوُلِ الْأَحْوَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمْ يُعَلِّمْ

(١) توضح هذه العبارة ميل التشديد للإقلاق خشية اللال — كما ذكر في مقدمة كتابه .

اللهُ الذين جاهدوا منكم ولم يَتَّخِذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ
وَلِيَّةً ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُفْتَحُ مِنْهُ بِالْعَمَى — دُونَ التَّحَقُّقِ بِالْمَعْنَى — فَهُوَ عَلَى غَلَطٍ فِي حِسَابِهِ .
وَالَّذِي طَالِبُهُمْ بِهِ مِنْ حَيْثُ الْأَمْرُ صِدْقُ الْمَجَاهِدَةِ فِي اللَّهِ ، وَتَرَكَّ الرُّكُونَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ ،
وَالْتِبَاعُ عَنْ مُسَاكَنَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ . . ثِقَةً بِاللَّهِ ، وَاكْتِفَاءً بِاللَّهِ ، وَتَبَرُّيًّا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ .
وَهَذَا الَّذِي أَمَرَهُمْ أَنْ لَا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَّةً فَالْمَعْنَى فِيهِ : لَا يُشْتَرَا فِي الْكُفَرِ
أَسْرَارَ الْمُؤْمِنِينَ .

وَأَوَّلُ مَنْ يَهْجُرُهُ الْمُسْلِمُ — لثَلَا تَطْلُعَ عَلَى الْأَسْرَارِ — نَفْسُهُ الَّتِي هِيَ أَعْدَى عَدُوِّهِ ،
وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ قَائِلُهُمْ :

كَتَابِي إِلَيْكُمْ بَعْدَ مَوْتِي بَلِيَّةٌ وَلَمْ أَدْرِ أَنِّي بَعْدَ مَوْتِي أَكْتُبُ
وَيَقَالُ : إِنَّ أَبَا يَزِيدَ ^(١) — فِيهَا أُخْبِرَ عَنْهُ — أَنَّهُ قَالَ لِلْحَقِّ فِي بَعْضِ أَوَاقَاتِ مَكَلَشَاتِهِ :
كَيْفَ أَطْلُبُكَ ؟ فَقَالَ لَهُ : فَأَرْقُ نَفْسَكَ .

وَيَقَالُ إِنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ ، بَلْ لَا تَحْصُلُ مِنْهُ شَظِيَّةٌ إِلَّا بِكَى عُرُوقِ الْأَطْلَاعِ وَالْمَطَالِبِ
لِيَأْ بِ الدُّنْيَا وَلِيَأْ بِ الْعُقْبَى وَلِيَأْ بِ رُؤْيَا الْحَالِ وَالْمَقْلَمِ — وَلَوْ بِذَرَّةٍ . وَالْحَرِيَّةُ عَزِيزَةٌ ^(٢) ...
قَالَ قَائِلُهُمْ :

أَتَمَّنِي عَلَى الزَّمَانِ مُحَالًا . أَنْ تَرَى مُقْلَتَايَ طَلْعَةَ حُرٍّ
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ مَا كَانَ لِلشُّرَكَائِ أَنْ يَمُرُّوا
مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

(١) هُوَ أَبُو يَزِيدَ الْبِطْطَايَ كَانَ جَدَّهُ (سُرُوشَانَ) مَجُوسِيًّا وَأَسْلَمَ ، وَهُوَ أَحَدُ إِخْوَةِ ثَلَاثَةِ كَانُوا
جَمَاعًا زُهَادًا وَأَسْمَاءُ أَحْوَالُهُ مَاتَ سَنَةَ ٢٦١ هـ ، قِيلَ سَنَةَ ٢٣٤ (طَبَقَاتُ السُّلَمَى) وَ (رِسَالَةُ الْفَتَوَى) .
(٢) (وَالْحَرِيَّةُ بِرِزْه) هُنَا مَعْنَاهَا مَادَرَةُ الْوُجُودِ .

بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ،
وَفِي النَّارٍ خَالِدُونَ ﴿١﴾

عمارة للمساجد بإقامة العبادة فيها ، والعبادة لا تُقبلُ إلا بالإخلاص ، والمشرِكُ فاقِدُ
الإخلاص ، وشهادتهم على أنفسهم بالكفر دعواهم حصول بعض الحداث بتأثير الأسباب ،
فمن أثبت في عقده جواز ذرَّة في العالم من غير تقديره — سبحانه — شارك أرباب الشرك
في المعنى الذي لزمهم به هذه السَّعة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَصُورُ مُسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَى أُولَئِكَ
أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴾

لا تكون عمارة المساجد إلا بتخريب أوطان البشرية ، فالعابد يُعمرها بتخريب أوطان
شهوته ، والزاهد يُعمرها بتخريب أوطان مُنيته ، والعارف يُعمرها بتخريب أوطان علاقته ،
والموحد يُعمرها بتخريب أوطان ملاحظته ومُسَاكنته . وكل واحد منهم واقف في صفته ؛
فلصاحب كل موقف منهم وصف مخصوص .

وكذلك رتبهم في الإيمان مختلفة ؛ فإيمان من حيث البرهان ، وإيمان من حيث البيان ،
وإيمان من حيث العيان ، وشتان ما هم آهل قائلهم :

لا تعرِّصنْ بِذِكْرِنَا فِي ذِكْرِ كَرِيمٍ لَيْسَ الصَّحِيحُ — إِذَا مَشَى — كَالْمُقْعَدِ

قوله جل ذكره : ﴿ أَجْمَلْتُمْ سَبَايَةَ الْحُلَاجِّ وَعِمَارَةَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ
عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴾

(١) أخطأ الناسخ إذ أنسى الآية : (م فيها خالِدُونَ)

ليس مَنْ قام بمعاملة ظاهره كمن استقام في مواصلة سراره ، ولا مَنْ اقتبس من سراج علوه كمن استبصر بشمس معارفه ، ولا مَنْ نُصِبَ باللب من حيث الخدمة كمن مَكُنَّ من البساط من حيث القرية^(١) ، وليس نعت مَنْ تَكَلَّفَ فَنَاقًا كوصف مَنْ تَحَقَّقَ وَفَاقًا ، بينهما بَوْنٌ بعيدٌ !

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾

في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم
أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَتْكَ هُمُ
الْقَائِمُونَ ﴿

« آمَنُوا » أى شاهدوا بأنوار بصائرهم حتى لم يبقَ في سماء يقينهم سحبٌ رَيِّبٌ ،
ولا في هواه^(٢) مارقهم ضبابٌ شك .

« وهَاجَرُوا » : فلم يَرْجُوا في أوطان التفرقة ؛ فَتَحَصَّصَتْ^(٣) حركاتهم وسكناتهم
بالله لله .

« وَجَاهَدُوا » : لا على ملاحظة غرضٍ أو مطالعة عِوَضٍ ؛ فلم يَلْخَرُوا لأنفسهم — مِنْ
ميسورم — شيئًا إلا آثَرُوا الحقَّ عليه ؛ فَظَفَرُوا بالنعمة ؛ في قياهم بالحق بعد فناءهم
عن الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَبَرِضٍ

وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا يُنْعَمُونَ ﴿ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿

(١) يتدرج القول عليه — حسباً نعرف من أسلوب التشبُّير — من الباب إلى البساط إلى العقوة
أو الساحة ثم النسيئة .

(٢) وردت (هَوَاءٌ) وقد مرَّ معنا (هَوَاءٌ) لتلائم (مَاءٌ) و (سحب) و (ضباب) فضلاً عن أنها
أقرب في الكتابة إليها .

(٣) تحصَّصت أى صارت خالصة لله

البشارة من الله تعالى على قسيتين : بشارة بواسطة المَلَكِ ، عند النفوس :

« تَنْتَرِكُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ » (١) .

وبشارة بلا واسطة بقول المَلَكِ ، إذ يُبَشِّرُهم بِهِمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ ، وذلك عند الحساب .

يُبَشِّرُهم بلا واسطة بِحَسَنِ النَّوَى ؛ فَمُجِئُهُ بِشَارَتِهِمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ، وَأَجْلُ بِشَارَتِهِمْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ ،
وَشَتَانِ مَا هُمَا !

ويقال بالبشارة بالنعمة والجنة لأصحاب الإحسان ، والبشارة بالرحمة لأرباب العصيان ،
فأصحاب الإحسان صَلَحَ أَمْرُهُمْ لِشَهْرَةٍ فَأُظْهِرَ أَمْرُهُمُ لِلْمَلَكِ حَتَّى يَبْشُرَهم بِجَهَنَّمَ ، وَأَهْلُ
العصيان صَلَحَ حَالُهُمْ لِلسَّيْرِ فَتَوَلَّى بِشَارَتِهِمْ — مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةٍ — سِرًّا .

ويقال إن كانت للطبيع إشارة بالاختصاص فَإِنَّ الْعَامِيَ بِشَارَةٌ بِالْغُلَاصِ . وإن كان
للمطيع إشارة بالدرجات فَإِنَّ الْعَامِيَ بِشَارَةٌ بِالنَّجَاةِ .

ويقال إن القلوب بِمَجْبُوءَةٍ عَلَى عَجَبَةٍ مِنْ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ ؛ فَأَرَادَ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — أَنْ تَكُونَ
عَجَبَةُ الْمَبْدَأِ — سُبْحَانَهُ — عَلَى الْخُصُوصِ ؛ فَتَوَلَّى بِشَارَتَهُ بِعَزِيزِ خُطَابِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسْطَةٍ ،
فَقَالَ : يَبَشِّرُهم بِهِمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ « وَفِي مَنَاهِ أُنْشَدُوا :

فَوَلَا تَمْتَحُ مَقْلَتِي بِلِقَائِهِ لَوْ هَبَّتْهَا بَشْرَى بِقَرَبِ إِيَّاهِ

ويقال بِشَرَّ الْعَامِيَ بِالرَّحْمَةِ ، وَلِلْمُطِيعِ بِالرَّضْوَانِ ، ثُمَّ الْكَافَّةُ بِالْجَنَّةِ ؛ فَقَدَّمَ الْعَامِيَ فِي الذِّكْرِ ،
وَقَدَّمَ الْمُطِيعَ بِالْإِثْرِ ، فَالَّذِي كَرِهَ قَوْلُهُ وَهُوَ قَدِيمٌ وَالْإِثْرُ طَوْلُهُ وَهُوَ عَمِيمٌ . وَقَوْلُهُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ أَعَزُّ مِنْ
طَوْلِهِ الَّذِي حَصَلَ . قَدَّمَ الْمَصَاتَةَ عَلَى الْمَطِيعِينَ لِأَنَّ ضَعْفَ الضَّعِيفِ أَوَّلَى بِالرُّفْقِ مِنَ الْقَوَى .

ويقال (قَدَّمَ أَمْرَ الْعَامِيَ بِالرَّحْمَةِ حَتَّى إِذَا كَانَتْ يَوْمُ الْمَرَضِ وَحُضُورِ الْجَمْعِ
لَا يَفْضَحُ الْعَامِيَ) (٢) .

ويقال « يَبَشِّرُهم بِهِمْ بِرَحْمَتِهِ » يُرْسَلُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الدَّرَجَاتِ

(١) آية ٣٠ سورة فصلت

(٢) ما بين القوسين موجود في المأثور أشتباه في موضعه من النص حسب العلامات المبينة ،
ولتأمل مقدار انفساح صدور الصوفية بالسبب للصلاة ، وذلك نتيجة امتلاء قلوبهم بالأمل في المحبوب .

بمعهم وطلعتهم ، ولكن برحمته — سبحانه — وصلوا إلى نعمته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد يتجنبه الله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتخمدني الله برحمته » (١) .

قوله : « لم فيها نعيم مقيم » : قوم نعيمهم عطاه ربهم على وصف التمام ، وقوم نعيمهم لقاء ربهم على نعت الدوام ؛ فالعابدون لم علم عطائه ، والعارفون لم دوام لقائه .

ثم قال : « خالدين فيها أبداً » والكناية في قوله « فيها » كما ترجع إلى الجنة تصلح أن ترجع إلى الحالة ، سباً وقد ذكر الأجر بعدها ؛ فكما لا يقطع عطائه عنهم في الجنة لا يمنع عنهم لقاءه متى شاءوا في الجنة ، قال تعالى : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » (٢) أى لا مقطوعة عنهم نعمته ، ولا ممنوعة منهم رؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذُوا

آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا

الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ

مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

مَنْ لَمْ يَتَّخِجْ بَطَاعَتَهُ لِرَبِّهِ لَا تَسْتَخْلِمُهُ لِمَجْبَةِ نَفْسِكَ .

ويقال من آثر على الله شيئاً يُبَارِكْ له فيه ؛ فَيَبْقَى بِذَلِكَ عن الله ، ثم لا يُبْقِي ذلك معه ، فإن استبقاه بجهد — كيف يستبقى حياته إذا أذن الله في ذهاب أجله ؟ وفي مناه أنشدوا :

مَنْ لَمْ تَزَلْ نِعْمَتُهُ قَبْلَهُ زَالَ مَعَ النِّعْمَةِ بِالْمَوْتِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ

وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

كَادَهَا وَمَا كَانَ رِزْقُكُمْ مِنْهَا بِحَبٍ

(١) الشيخان عن عائشة مرفوعاً : سددوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنه لن يدخل أحدكم الجنة معه ، قالوا ... الخ

(٢) آية ٢٣ سورة الواقعة

إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَقَاتِلُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٠﴾

ليس هذا تخييراً لم ، ولا إذناً في إثارة الخطوطِ على الحقوق ، ولكنه غاية التحذير
والزجر عن إثارة شيء من الخطوط على الدين ، ومرور الأيام حكمٌ عدلٌ يَكشِفُ في العاقبة
عن أسرار التدبير ، قال تأملهم :

سوف ترى إذا انجلى النُبَارُ أفرس تحنك أم حمار ؟

ويقال علامة الصدق في التوحيد قطع العلاقات ، ومفارقة المادات ، وهجران للمهودات
والاكتماء بالله في حوام الحالات .

ويقال مَنْ كَسَدَتْ سَوَى دِينِهِ كَسَدَتْ أَسْوَاقُ حُطُوطِهِ ، ومالم تَحُلْ مِنْكَ مَنَازِلُ
الخطوط لا تَعْمُرْ بِكَ مَسَاجِدُ الْحَقِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾
النصرة من الله تعالى في شهود القدرة ، والمنصور مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عن التوهم
والحسبان ، ولم يَكِلْهُ إلى تدبيره في الأمور ، وأثبتهُ الحقَّ — سبحانه — في مقام الانتقار
متبرئاً عن الحول والمُنَّة ، مُحَقِّقاً بشهود تصاريف القدرة ، يَأْخُذُ الحقَّ — سبحانه —
بِيَدِهِ فيخرجه عن مهواة تدبيره ، ويوقفه على وصف التضرع لقضاء تقديره .

قوله جل ذكره ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُفُكُمْ
فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ
الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ
مُذْبِرِينَ ﴾ .

يعني نَصَرَكُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ حين تَفَرَّقَ أَكْثَرُ الْأَصْحَابِ ، وافتتحت أُنْيَابُ الْكَرَّةِ عن نِجَابِ
الْقَهْرِ فَاضْطَرَبَتِ التَّلَوُّبُ ، وخانت القوى أصحابها ، ولم تُغْنِ عَنْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ، فَاسْتَخْلَصَ اللَّهُ
أَسْرَادَكُمْ — عند صدق الرجوع إليه — بِحُسْنِ السَّكِينَةِ النَّاظِلَةِ عَلَيْكُمْ ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ عَلَى

الأعداء ، وَخَفَّتْ رَايَةُ النَصْرَةِ ، وَوَقَّتْ الْفَائِزَةُ عَلَى الْكَافِرِ ، وَارْتَدَّتْ الْمَرْيَةُ عَلَيْهِمْ
فَرَجَسُوا صَافِرِينَ .

قوله جل ذكره ﴿ ثُمَّ أُنْزِلُ إِلَيْكَ سَكِينَتِي عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ وَأُنْزِلُ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جِزَاءُ
الْكَافِرِينَ ﴾

السَّكِينَةُ تُلْجِئُ الْقَلْبَ عِنْدَ جَرِيَانِ حُكْمِ الرَّبِّ بِنِعْمِ الطَّمَأْنِينَةِ ، وَخَوْذُ آثَارِ الْبَشَرِيَّةِ
بِالْكَلِيَّةِ ، وَالرَّضَاءُ بِالْبَادِي مِنَ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ مَعَارَضَةٍ اخْتِيَارٍ .

وَيَقَالُ الْكِينَةُ الْقَرَارُ عَلَى بَسَاطَةِ الشُّهُودِ بِشَوَاهِدِ الصَّحُوحِ ، وَالتَّائِدُ بِإِقَامَةِ صِفَاتِ الْعِبَادَةِ
مِنْ غَيْرِ حُلُوقٍ مُشَقَّةٍ ، وَبِلَا تَحَرُّكِ عِرْقٍ لِمَعَارَضَةِ حُكْمٍ . وَالسَّكِينَةُ ^(١) الْمُنْزَلَةُ عَلَى « الْمُؤْمِنِينَ »
خَوْذُهُمْ تَحْتَ جَرِيَانِ مَا وَرَدَ مِنَ الْقَيْبِ مِنْ غَيْرِ كِرَاهَةٍ يَنْوَارِعُ الْبَشَرِيَّةَ ، وَاخْتِلَافُ الْحَقِّ
إِلَهِامُهُمْ عَنْهُمْ حَتَّى لَمْ يَسْتَفْزِمُوا رَهْبَةً مِنْ مَخْلُوقٍ ؛ فَسَكَنَتْ عَنْهُمْ كُلُّ إِرَادَةٍ وَاخْتِيَارٍ .

« وَأُنْزِلُ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا » مِنْ وَفُورِ الْيَقِينِ وَزَوَائِدِ الْإِسْتِبْصَارِ .

« وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا » بِالتَّنَطُّوحِ ^(٢) فِي مَنَاهَاتِ التَّفَرُّقَةِ ، وَالسَّقُوطِ فِي وَهْدَةِ ^(٣) ضَيْقِ
التَّذْيِيرِ ، وَحِجَّةِ الْعُقُلِ ، وَالْقَيْبَةِ عَنْ شُهُودِ التَّقْدِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

رَدَمَ مِنَ الْجَهْلِ إِلَى حَقَائِقِ الْعِلْمِ ، ثُمَّ نَقَّلَهُمْ مِنْ تِلْكَ الْمَنَازِلِ إِلَى مَشَاهِدِ الْيَقِينِ ، ثُمَّ رَقَّاهُمْ
عَنْ تِلْكَ الْجُمْلَةِ بِمَا لَقَّاهُمْ بِهِ مِنْ عَيْنِ الْجَمْعِ .

(١) وَرَدَتْ (وَالْكِينُ) وَهِيَ غَلَا فِي النَّسْخِ

(٢) وَرَدَتْ (وَالتَّنَطُّوحُ) بِالْيَدَيْنِ وَهِيَ غَلَا فِي النَّسْخِ .

(٣) جَاءَتْ الرَّوَاةُ فَوْقَ ذَا (نِ) وَاسْتَبْلَكَ بِهَا غَلَا : (مِنْهُ) ، وَالْمَعْوَابُ أَنْ تَأْخُذَ الرَّوَاةُ مَكَانَهَا

بَعْدَ (نِ) وَتَصِيحُ الْكَلِمَةِ (وَهْدَةٌ)

قوله جل ذكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ

فلا يقربوا المسجد الحرام بعد

عامهم هذا﴾

قدموا طهارة الأسرار بماء التوحيد ، فبقوا في قدورات الطنون والأوهام ، فمضوا
قربان المساجد التي هي مشاهد القرب . وأما المؤمنون فطهرهم عن التدنس بشهود الأغيار ،
فطالعوا الحق قرداً فما بيئته من الأمر وبُخِصيه من الحكم .

قوله جل ذكره ﴿وإن خِفَّمْ عَمَلَهُ فَسَوْفَ يُثَبِّتُكُمْ اللَّهُ مِنْ

فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

تَوْفَعُ الْأَرْزَاقِ مِنَ الْأَسْبَابِ مِنْ قَضَائِهَا انْتِلَاقَ بَابِ التَّوْحِيدِ ، فَمَنْ لَمْ يَفِرْدْ مَعْبُودَهُ
بِالْقِسْمَةِ بَقِيَ فِي قَهَرٍ مُرَمَّدٍ .

ويقال مَنْ أَنَاخَ بِعَقْوَةِ كَرَمِ مَوْلَاهُ ، وَاسْتَمَطَرَ سَحَابَ جُودِهِ أَغْنَاهُ عَنْ كُلِّ سَبَبٍ ،
وَكَفَاهُ كُلَّ تَعَبٍ ، وَقَضَى لَهُ كُلَّ سُؤْلِ وَأَرْبٍ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ .

قوله جل ذكره : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا

الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾

مَنْ اسْتَوْجَبَ الْهَوَانَ لَا يَنْجِيكَ مِنْ شَرِّهِ غَيْرُ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْإِذْلَالِ عَلَى صَفَرِهِ ، وَمَنْ
دَاخَنَ عَدُوَّهُ بِفَالْهَرِيِّ أَنْ يَلْقَى سُوءَهُ .

وَمِنْ أَشَدِّ النَّاسِ لَكَ عَدَاوَةً ، وَأَبْهَدِمَ عَنِ الْإِيمَانِ - نَفْسُكَ الْمَحْبُودَةُ عَلَى الشَّرِّ فَلَا تَقْلُعُ إِلَّا بِذِمَّتِهَا
بِعُدِّيَةِ الْمُجَاهِدَاتِ . وَهِيَ لَا تَوْثِقُ مِنَ التَّقْدِيرِ ، وَلَا يَزُولُ شَكْهَاتُهَا ، وَكَذَلِكَ تَخْلُدُ إِلَى التَّدْبِيرِ ^(١) ،

(١) أى تدبير الإنسان الناقض لتدبير الحق

ولا تسكن إلا بوجود المعلوم^(١) ، ولا تقبل منك إلا كاذب المواعيد ، ولتلك قالوا

وأَكْذِبَ النَّفْسَ إِذَا حَدَّثَهَا فَإِنَّ صِدْقَ الْقَوْلِ يَذِرُ بِالْأَمَلِ
قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ ،
وقالت النصارى المسيح ابن الله ،
ذلك قولهم بأفواههم ﴿

لو كان هذا في مخاطب المخلوقين لكان عين الشكوى ؛ والشكوى إلى الأجاب تشير
إلى تحقق الوصلة .

شكا إليهم ما حصل من قبيح أعمالهم ، ولم بين من تشكو منه وبين من تشكو إليه ١١
قوله جل ذكره: ﴿يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
قَبْلُ﴾ ، فأتاكم الله أنى يؤفكون ﴿

الكفار قبلهم جحدوا الربوبية ، وهؤلاء أقرروا بالله ، ثم لما أثبتوا له الولد قضوا
ما أقرروا به من التوحيد ، فصاروا كالكفار قبلهم .

ويحتمل أن تكون مضاعفة قولهم في وصف المعبود بأن عيسى ابنه وعزيراً ابنه كقول
الكفار قبلهم إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ .

ويقال لنا وصفوا المعبود بما يتعالى عن قولهم لم ينفعهم صدقهم في الإقرار بربوبيته
مما أضافوا إليه من سوء القالة . وكل من أطلق في وصفه ما يتقدس — سبحانه — عنه فهو
للأعداء مشاكلاً في استحقاق النعم والتوبيخ .

قوله جل ذكره: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَأْمُورُوا
إِلَّا لِيُصِيبُوا الْإِنَّمَا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سبحانه عما يشركون ﴿

(١) ربما كان التصود بالمعروف هنا ما يقع في نطاق الحس ؛ وتتدبر الحق فهي لا يقع تحت حس .
الإنسان وعلم الإنسان .

كما لا تجوز مجاوزة الحد في وضع القدر لا تجوز مجاوزة الحد في رفع القدر ، وفي الخبر :
 « أَمَرْنَا أَنْ تُنْزَلَ النَّاسَ مَنَازِلُهُمْ »

- فَمَنْ رَأَى مِنَ الْمَخْلُوقِينَ شَيْئاً مِنَ الْإِبْدَاعِ أَنْزَلَكُمْ مِثْلَهُ الْأَرْبَابِ ، وذلك - في التحقيق -
 - شرك ، وما أخلص في التوحيد مَنْ لَمْ يَرْجِعِ الْخَادِعَاتِ بِصِفَاتِهَا (. . .) (١) من الله .
 « وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً » : فَمَنْ رَفَعَ فِي عَقْدِهِ مَخْلُوقاً فَوْقَ قَدْرِهِ
 قد أشرك بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ
 وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُنْفِثَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
 الْكَافِرُونَ ﴾

مَنْ دَامَ أَنْ تَسْتَرْ شَمَاعَ الشَّمْسِ بِدُخَانٍ يُوْجِهُهُ مِنْ نِيرَانِهِ ، أَوْ عَالِجٌ أَنْ يَمْنَعُ حَكْمَ السَّمَاءِ
 بِحِيلَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، أَوْ يُسْقِطَ نَجْمَ الْفَلَكَ بِسَهَامِ قَوْسِهِ - أَظْهَرَ رُغْوَتِهِ نَمَّ لَمْ يَحْطَ بِمَرَادِهِ .
 كذلك مَنْ تَوَلَّى أَنْ سُنَّةَ التَّوْحِيدِ يَطْلُوها وَهَجَّ الشُّبُهَةِ قَدْ خَلَبَ فِي ظَنِّهِ ، وَاتَّخَذَ فِي وَجْهِهِ .
 قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
 الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ
 وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

أَزَاحَ الْعِلَالُ بِمَا أَلَا حَ مِنَ الْحُجَجِ ، وَأَزَالَ الشُّبُهَةَ بِمَا أَفْصَحَ مِنَ النِّهَجِ ؛ فَشَمَّوسُ الْحَقِّ
 طَالِمَةٌ ، وَأَدَلَّةُ الشَّرْعِ لَامَةٌ ، كَمَا ظَلَمُوا :

هُوَ الشَّمْسُ إِلَّا أَنْ الشَّمْسَ غِيْبَةٌ وَهَذَا الَّذِي نَعْنِيهِ لَيْسَ يَنْغِيبُ
 قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كُنْتُمْ آمَنُوا
 بِالْأَحْبارِ وَالرَّهْبَانِ كَمَا كُنْتُمْ آمَنُوا
 بِاللَّهِ بِالْبَاطِلِ وَيُحَدِّثُونَ مِنَ
 سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

العالم إذا ارتفق بأموال الناس عوضاً عما يُعلمهم زالت بركتُ عليه ، ولم يُعْطَ في طريق الزهد نفعه .

والعارف إذا انتفع بخدمة المريد ، أو ارتفق بشيء من أحواله وأعماله زالت آثارُ هيبته ، ولم يُجَدِّ في حكم التوحيد حالته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْقَدَمَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

لم في الآجل عقوبة . والذين لا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة فلم في العاجل حجة . وقليل من عبادِهِ مَنْ تِلْكَ مِنَ الْجَبَابِ فِي مَحْضَرِهِ وَالْعَقَابِ فِي مُنْتَظَرِهِ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُخَوِّعُهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُتُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ فَنُفِقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

لما طلبوا الجاه عند الخلق بالملم ، ويَنفِقُوا بإخراج حق الله عنه شأن وجوههم . ولما أسندوا ظهورهم إلى أموالهم . قال تعالى : « فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُتُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ » .

ويقال : لما (عبسوا) في وجوه الغاة ^(٢) وعقدوا حواجِبَهُمْ وَضَمَّتْ السَّكِيَّةُ عَلَى نَفْسِ الْجَبَاهِ الْمُقْبُوضَةِ عِنْدَ رُؤْيَا الْفُقَرَاءِ ، وَلَمَّا طَرَوْا كَشَحَهُمْ دُونَ الْقُرَاءِ — إِذَا جَالِسُومَ — وَضَمَّتْ لِلْكَوَاةِ عَلَى جُتُوبِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا

(١) محضره أى مضره وطلحه ، ومتنزه أى مستنزه وآجه .

(٢) الغاة م طالبا السطا . ومتنزه

عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ
حَرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴿١﴾

لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ لَا يَدَاوِمُونَ عَلَى مُلَازِمَةِ الْقُرْبِ أَفْرَدَ بَعْضَ الشُّهُورِ بِالْتَفْضِيلِ ،
لِيُخَصِّصَهَا بِاسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ فِيهَا . فَأَمَّا الْخَوَاصُّ مِنْ عِبَادِهِ فَمَجِّعُ الشُّهُورِ لَمْ شَعْبَانُ
وَرَمَضَانُ ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَيَّامِ لَمْ جُمُعَةٌ ، وَجَمِيعُ الْبَقَاعِ ^(١) لَمْ مَسْجِدٌ وَفِي مَعْنَاهُ
أَنشُدْ بَعْضَهُمْ .

يَا رَبُّ إِنِّ جَاهِدِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ . وَكُلُّ أَرْضِي لِي تُغَرُّ طَرَسُوسُ

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قَالَ لِلْعَوَامِّ : لَا تَقْلِبُوا فِي بَعْضِ الشُّهُورِ أَنْفُسَكُمْ ، يَعْنِي بَارِكْتَ الْزُّلَّةَ . وَأَمَّا
الْخَوَاصُّ فَمُأَمَّرُونَ أَلَا يَنْظُرُوا فِي جَمِيعِ الشُّهُورِ قُلُوبَهُمْ بِاحْتِقَابِ النَّفْثَةِ ^(٢) .

وَيَقَالُ : الظُّلْمُ عَلَى النَّفْسِ أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدُ زَمَانَهُ بَيْنَ شَهَوَاتِهِ ، فَيَتَوَرَّدُهُ مَوَاطِنُ
الْهَلَاكِ .

وَيَقَالُ : الظُّلْمُ عَلَى النَّفْسِ بِخِدْمَةِ الْخُلُوفِينَ بَدَلِ طَاعَةِ الْحَقِّ .

وَيَقَالُ : مَنْ ظَلَمَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْمُضَاجَعَاتِ امْتَحِنَ بِمَدَمْرِ الصَّفْوَةِ فِي مَرُورِ الْأَوْقَاتِ .

« وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » : وَلَا سِلَاحَ أَمْضَى عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ تَبَرُّكِكَ عَنْ
حَوْلِكَ وَقَوْلِكَ . .

(١) وَرَدَّتْ (الْبَقَاءُ) وَهِيَ خَطَأٌ لِي التَّخْ

(٢) وَرَدَّتْ (الْمَدَمْرُ) وَالْمَوَابِ أَنْ تَكُونَ (النَّفْثَةُ) ، فَالْنَّفْثَةُ لِقَلْبِ الْوَالِدَةِ لِنَفْسِ

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا لِلنَّسِئِ ^(١) زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، ذُنُوبُهُمْ سِوَاهُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ .

الَّذِينَ ملاحظةُ الأمرِ ومجانبةُ الوزر وتركُ التَّعَدُّمِ ^(٢) بين يدي الله سبحانه — في جميع أحكام الشرع ، فالأجلُّ في الطاعاتِ مضروبة ، والتوفيقُ في عرفانه متَّبِع ، والصَّلاحُ في الأمور بالإقامة على نمت العبودية ؛ فالشهرُ ما سَمَّاهُ اللهُ شهرًا ، والعالمُ والحولُ ما أَعْلَمَ أَنْتَلِقَ أَنَّهُ قَدَرُ مَا بَيْنَهُ شَرْهًا .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ افْعَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلَبْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ .

عَاتِبَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْبِدَارِ عِنْدَ تَوْجِيهِ الْأَمْرِ ، وَاتِّهَازِ فُرْصَةِ الرُّخْصَةِ . وَأَمَرَهُمْ بِالْجِدِّ فِي الْعَزْمِ ، وَالْقَصْدِ فِي الْفَعْلِ ؛ فَالْجَنُوحُ إِلَى التَّكْاسُلِ ، وَالِاسْتِرَوَاحُ إِلَى التَّثَاقُلِ أَمَارَاتُ ضَعْفِ الْإِيمَانِ إِذَا الْإِيمَانُ غَرِيمٌ مُكَلِّزٌ لَا يَرْضَى مِنَ الْعَبْدِ بَغْيُ مِمْلَاةِ الْأَشَقِّ ، وَمَلَابَسَةِ الْأَحَقِّ .

قوله « أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا » : وهل يَحْتَمِلُ بِالْمَابِدِ أَنْ يَخْتَارَ دُنْيَاهُ عَلَى عِقَابِهِ ؟ وهل يَحْسُنُ بِالْعَارِفِ أَنْ يُؤْتِرَ هَوَاهُ عَلَى رِضَا مَوْلَاهُ ؟ وَأَنْشُدُوا

(١) النَّسِئُ = تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، فقد كانوا إذا حل شهر حرام وم يحاربون أسلوه وحرّموا مكانه شهرًا آخر
(٢) أي عدم استيعجال شيء موقوف بأمر الله وشرعه .. هذا ما تنهيه من السباق

أَيْحَلُ بِالْأَحْيَاءِ مَا قَدْ فُلُوا مَضَوْا وَانْصَرَفُوا بِأَلَيْهِمْ قَتَلُوا
 إِنَّ غِيَبَةَ يَوْمٍ لِلزَّاهِدِ عَنِ الْبَابِ تَمَلُّلٌ شَهَوْرًا ، وَغِيَبَةُ لِحَظَةٍ لِلْعَارِفِ عَنِ الْبَسَاطِ
 تَمَلُّلٌ دَهْرًا ، وَأَنْشُوا :

الْإِفْ لَا يَصْبِرُ عَنِ الْفِتْنَةِ أَكْثَرُ مِنْ طَرَفَةِ عَيْنٍ
 وَقَدْ صَبَرْنَا عَنْكُمْ سَاعَةً مَا هَكَذَا فِيلٌ مُحِبِّينَ

قوله جل ذكره ﴿لَا تَنْفِرُوا يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
 وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ
 شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ إِذَا أَعْرَضَ الْعَبْدُ عَنِ الطَّاعَةِ الْإِلَهِيةِ وَرَاحَهُ مِنْ جُنُودِ التَّوْفِيقِ
 مَا يَرْدُّهُ إِلَى الْبَابِ .

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ أَنْ يَسْلُبَهُ حِلَاوَةُ النَّجْوَى إِذَا آتَى .

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الصُّوْدُ يَوْمَ الْوُرُودِ ، وَقِيلَ :

وَأَعْدُونِي بِالْوَصَالِ — وَالْوَصَالُ عَذْبٌ — وَرَمَوْنِي بِالصُّوْدِ وَالصُّوْدُ صَبٌّ

الْعَذَابُ الْأَلِيمُ الْوَعْدُ بِالْفِرَاقِ ، فَأَمَّا نَفْسُ الْفِرَاقِ فَهِيَ تَلْفُزُ ، وَأَنْشُوا :

وَزَعَمْتُ أَنَّ الْبَيْنَ مِثْلَكَ غَدَا هَدَدٌ بِذَلِكَ مَنْ يَبِيشُ غَدَا

قوله : « وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ » يَصْرِفُ مَا كَانَ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ أَشْكَالِهِ ،
 وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَفَرَ بَعْرًا يَشْرَبُ مِنْ مَعِينِهَا ، وَأَنْشُوا :

تَسْقِي رِيَّاحِينَ الْخِفَافِ مَدَامِي وَسَوَايَ فِي رَوْضِ التَّوَاصِلِ يَرْتَعِ

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ

إِذْ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ

إِذْ هُمَا فِي النَّارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ

لَا تَنْصُرَنِي إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ .

من عزيز تلك النصرة أنه لم يستأنس بثانيه الذي كان معه بل رد الصديق إلى الله ،
 ونهاه عن مساكنته إياه ، قال : ما ظنك بآيتين الله ثالثهما ؟
 قال تعالى : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .
 ويقال من تلك النصرة إيقاظه إياه في كشوفاته في تلك الحالة ، ولولا نصرته لنالشي نحت
 سلوات كشفه .

ويقال كن — عليه السلام — أمان أهل الأرض على الحقيقة ، قال تعالى :
 « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ^(١) ، وجهه — في الظاهر — في أمان المنكوبت
 حين نسج خيطة على باب النار فتخلصه من كيدهم .
 ويقال لو دخل هذا النار لا تثنى نسج المنكوبت . . فيعجباً كيف ستر قصة حبيبه —
 صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ١٢

ويقال صحيح ما قالوا : لبقاع دول ، فما خطر بيال أحد أن تلك النار تصير مأوى ذلك
 النبيذ — صلى الله عليه وسلم ١ ولكنه يختص بقسمته ما يشاء كما يختص برحمته
 من يشاء .

ويقال ليست النيران ^(٢) كلها مأوى الحيات ، فمنها ما هو مأوى الأحياب . ويقال خلقت
 قلوب قوم بالعرش فطلبوا الحق منه ، وهو تعالى يقول :

« إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » فهو سبحانه — وإن قدس عن كل مكان —
 ولكن في هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجهين ، وأنشؤا :

يا طالب الله في العرش الرفيع به لا تطلب العرش إن المجد في النار

وفي الآية دليل على تحقيق محبة الصديق — رضوا الله عنه — حيث سماه الله سبحانه
 صاحبه ، وعده ثانيه ، في الإيمان ثانيه ، وفي النار ثانيه ثم في القبر ضميمه ، وفي الجنة
 يكون رفيقه .

(١) آية ٣٣ سورة الأنفال

(٢) النار بجميع على أغوار وهيران

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾

السكينة في الماء من « عليه » تعود إلى الرسول عليه السلام ، وباحتساب أن تكون عائدة إلى الصديق رضى الله عنه ، فإن جُمِلَتْ على الصديق تكون خصوصية له من بين المؤمنين على الأفراد ، فقد قال عز وجل لجميع المؤمنين : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » (١) .

وقال للصديق — على التخصيص — فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلى للناس عامة ويتجلى لأبي بكر خاصة » (٢) .

وإنما كان حزن الصديق ذلك اليوم لأجل الرسول — صلى الله عليه وسلم — إشفافاً عليه .. لا لأجل نفسه . ثم إنه — عليه السلام — نفي جزئه وسلاؤه بأن قال : « لا يحزن إن الله معنا » ، وحزن لا يذهب إلا لِمَعِيَةِ الحق لا يكون إلا « لحق الحق » (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَلَّ كَلِمَةً

الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي

العليا والله عز وجل حكيم ﴾

يريد به النبي صلى الله عليه وسلم . وتلك الجنود وفود زوائد اليقين على أمراده بتجلى الكشوفات .

« وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » بإظهار جميع دينه ، وتحميد سُبُل حَقِّه وبقينه ؛ فرايات الحق إلى الأبد عالية ، ونعويها الباطل واهية ، وحزب الحق منصورون ، ووفد الباطل مقهورون .

(١) آية ٤ سورة الفتح

(٢) يتأيد كلام الفخري من خصوصية أبي بكر بتزول السكينة على قلبه بما يروى عن يوم بدر ، لما قال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم إن تلك هذه العصابة لم تجد في الأرض من بعد ذلك » قال له أبو بكر : دع عنك متاعك ربك فإنه والله منجز لك ما وعدك وهو قوله تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سأنزلهم من فوقهم الغمام فسقط عليهم من تحتها السحاب فغلبوا المشركين وقلبتهم على عقابهم فذهب الله عنهم رجزهم وجعلهم خلائفهم » [سورة الفتح] .

(٣) لأنه ليس حزناً مرتبطاً بحفظ من حظوظ النفس ولكنه لحق الحق

ويقال لما خلا الصديق بالرسول عليه السلام في النار ، وأشرقت على يبرء أنوار حجة :
الرسول عليه السلام ، ووقع عليه شعاع أنواره ، واشتاق إلى الله تعالى لفقْد قراره — أزال
عنه لواجبه بما أخبره من قُربه — سبحانه — فاستبدل بالقلق سكوناً ، وبالشوق أنساً ،
وأنزل عليه من السكينة ما كاشفه به من شهود الهيبة .

ويقال كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — ثانياً اثنين في الظاهر بشبهه^(١) ولكن كان
مُسْتَهْلِكَ الشاهد في الواحد يبرء .

قوله جل ذكره : ﴿ اغْرَوْا خِفَاتًا وَيُقَالًا وَجَاهِدُوا

بَأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أمرهم بالقيام بحقه ، واللبدار إلى أداء أمره في جميع أحوالهم .

« خفانا » يعنى في حال حضور قلوبكم ، فلا يمسكم نصبُ المجاهدات .

« وقالا » إذا رُدِّدْتُم إليكم في مقاساة تعب المكابدات . فَإِنَّ الْبَيْعَةَ أَخَذْتُ عَلَيْكُمْ
في (...) و (...) و (...) .^(٢)

ويقال « خفانا » إذا تحررتم من رِقِّ المطالبات والاختيار ، « وقالا » إذا كان على قلوبكم
ثقل الحاجات ، وأنتم تؤمّنون فضله الحقّ مَا رِبَكُم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ كُنَّا عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا

لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَمَدَّتْ عَلَيْهِمُ

الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا

نَخْرُجُكَ مَعَكُمُ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴾

(١) (يشبهه) هنا مناهما بابان منه ، أى كان له — في الظاهر بمواجهه ، وعلى الحقيقة كان أنشأه بالله .

(٢) (٢) ، (٣) لفشان مشتهتان ، وربما كانتا بمعنى (حضوركم وحيثكم) أو (قربكم وبعدكم) أو نحو

ذلك .. فهكذا نفهم من السياق .

يريد به المتخلفين عنه في غزوة « تبوك » ، يَبْنُ سبَابُهُ أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لِلسَّائَةِ قَرِيبَةً ،
وَالْأَمْرُ هَيْئًا لَمَا تَخَلَّفُوا عَنْكَ ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ غَيْرَ مُتَحَقِّقٍ فِي قَصْدِهِ كَانَ غَيْرَ بَالِغٍ فِي جِهده ،
يَبِشُ عَلَى حَرْفٍ ، وَيَنْصَرِفُ بِحَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتَنَةٌ أَهْلَبَ
عَلَى وَجْهِهِ . وَقَالَ تَمَالَى : « فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَمْ » (١) .

فَإِذَا رَأَيْتَ لِلرَّيْدِ يَتَّبِعُ الرُّخْصَ وَيَجْتَنِعُ إِلَى الْكُسْلِ ، وَيَتَمَلَّلُ بِالنَّوِيلَاتِ . . . فَاعْلَمْ أَنَّهُ
مُنْصَرِفٌ عَنِ الطَّرِيقِ ، مُتَخَلِّفٌ عَنِ السُّلُوكِ ، وَأَنْشِدُوا :

وَكُنَّا الْمَوَلُودُ إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَّ الْوَصَالُ وَقَالَ : كَانَ وَكَانَا
وَمَنْ جَدَّ فِي الطَّلَبِ لَمْ يَرْجَعْ فِي أَوْطَانِ الْفَتْلِ ، وَيُوَاصِلُ السَّيْرَ وَالشَّرَى ، وَلَا يَجْتَنِمُ
مِنْ مَقَاسَةِ الْكَدِّ وَالْعَنَاءِ ، وَأَنْشِدُوا :

ثُمَّ قَطَعْتُ اللَّيْلَ فِي مَهْمَةٍ لَا أَسَدًا أَخْشَى وَلَا ذَبِيحًا
يَنْلَبِئُ شَوْقِي فَاطْوَى الشَّرَى وَلَمْ يَزَلْ ذُو الشَّوْقِ مَطْلُوبًا
قَوْلُهُ : « وَسَيُحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا خُرْجَنَا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ » : يَمِينُ لِلتَّمَلُّلِ
وَالْمُتَأَوَّلِ يَمِينٌ فَاجِرَةٌ تَشْهَدُ بِكَذِبِهَا عَيُونَ الْقَرَّاسَةِ ، وَتَتَفَرَّقُ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، فَلَا تَجِدُ مِنْ
الْقُلُوبِ عَمَلًا .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ عَمَّا أَثَبَّ عَنْكَ لَمْ أَذْنَبْ لَمْ حَتَّى
يَنْتَبِئَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَمَلَّ
الْكَاذِبِينَ ﴾

لَمْ يَكُنْ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَقٌ خَدَّ أَوْ تَمَلُّقٌ مَحْظُورٌ ، وَإِنَّمَا (نَذَرُ) (٢) مِنْهُ تَرْكُ
مَا هُوَ الْأَوَّلَى . قَدَّمَ اللَّهُ ذِكْرَ النَّمُو عَلَى الْإِطْلَابِ الَّذِي هُوَ فِي صُورَةِ الْمَتَابِ بِقَوْلِهِ : « لَمْ
أَذْنَبْتُ لَمْ » .

أَوْ مِنْ جَوَازِ الزَّكَاةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — إِذْ لَمْ يَكُنْ ذَكَرٌ فِي تَبْلِيغِ أَمْرِ

(١) آيَةُ ٣١ سُورَةِ عَمَد

(٢) هَكَذَا فِي (س) وَدُبَّهَا كَانَتْ (بَدْر) فِي الْأَصْلِ أَيْ صَدْرُهُ أَمَّا (نَذَرُ) فَخَطْبُهُ (قُلُ) مِنْهُ تَرْكُ
مَا هُوَ الْأَوَّلَى ، وَكَلَامًا لَا يَرْضَاهُ السِّيَاقُ .

أدعيه شرع (بقول قائله أنشدوا بالغو قبل أن وقف للمعتر)^(١) وكذا سُنَّةُ الأحباب مع الأحباب ، قال قائمهم :

ما حطَّك الواشون عن رتبة عندي ولا مَرَّكَ مُتَغَابُ
كأنهم أُنْتَوُوا — ولم يعلوا — عليك عندي باقى عابوا
ويقال حسناتُ الأعداء — وإن كانت حسنات — فكلردودة ، وسيناتُ الأحباب — وإن كانت سينات — فكللفورة :

مَنْ ذا يُوَاخِذُ مَنْ يَجِبُ يَذْنِيهِ وَلهُ شَفِيعُ فِي التَّوَادِّ مُشَفِّعُ
قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾
المخلص في عقده غير مُؤَيَّرٍ شيئاً على أمره ، ولا يَدْعُرُ مستطاعاً في استغراق وسعته ، وبَذَلٍ جَهْدِهِ ، ومقاساة كَدِّهِ ، واستعمال جَدِّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَوْ تَابَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾
مَنْ رام عن عهدة الإلزام خروجاً أنهز للتأخير والتخلف فرصة لِعَدَمِ إيمانه وتصديقه ، ولا متمسكاً الريبة من قلبه ومِرَّة . أولئك الذين يتقلبون في ريبهم ، ويترددون في شكهم .
قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾
أى لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة ، ولكن سَقِيتْ إرادتهم ، فحصلت دون الخروج بِلَادُهُمْ ، وكذلك قيل :
لو صحَّ منك الهوى أُرْشِدَتْ لِحِيلُ

(١) ما بين الفوسين مثبت كما في (م) وفيه اضطراب تلقى من اللسخ ، وربما كان شاهداً شعرياً معناه : (جاد بالغو قبل الوقوف على المعنى) .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ اقْضُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾

أَلَزَمَهُمُ الْخُرُوجَ مِنْ حَيْثُ التَّكْلِيفِ ، وَلَكِنْ ثَبَّتَهُمْ فِي بَيْتِهِمْ بِالْغُلَّانِ ؛ فَبِالْإِزَامِ
دَعَاهُمْ ، وَيَأْمُرُ التَّكْوِينَ أَقْصَامًا .

قوله جل ذكره: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْتَغُونَكُمُ
الْفِتْنَةَ ، وَفِيكُمْ تَحْمِلُونَهُمْ ، وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ .

أَخْبَرَ عَنْ سَابِقِ عِلْمِهِ بِهِمْ ، وَذَكَرَ مَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ أَنَّ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ ؛ فَقَالَ :
وَلَوْ سَاعَدُوكُمْ فِي الْخُرُوجِ لَكَانَ مَا يُلْحِظُكُمْ مِنْ سُوءِ سِيرَتِهِمْ فِي الْفِتْنَةِ بَيْنَكُمْ ، وَالنِّمِةَ فِيكُمْ ،
وَالسَّيِّئَ فِيمَا يَسُوءُكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا نَالَكُمْ بِتَخْلُفِهِمْ مِنْ قَصْصَانِ عَدَدِكُمْ . وَمَنْ ضَرَرَهُ أَكْثَرُ مِنْ
فَضْلِهِ قَبْلَهُ خَيْرٌ مِنْ وَجُودِهِ ، وَمَنْ لَا يَحْصِلُ مِنْهُ شَيْءٌ غَيْرُ شُرُورِهِ فَتَخْلُفُهُ أَفْضَلُ
مِنْ حُضُورِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا
لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ
أَمْرُ اللَّهِ وَهُوَ كَارِهٌ مِمَّنْ

لَهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا وَفَاقَكُمْ قَدْ اسْتَبَطَنُوا فِيقَكُمْ ؛ أَعْلَنُوا أَنَّهُمْ يُؤَازِرُونَكُمْ وَلَكِنْ
رَامُوا بِكَيْدِهِمْ كَشَوِشَ أُمُورِكُمْ ، حَتَّى كَشَفَ اللَّهُ عَوْرَاتِهِمْ ، وَفَضَحَهُمْ ، حَتَّى تَحْذَرْتُمْ مِنْهُمْ
بِمَا تَحْقِيقُ مِنْ أَسْرَارِهِمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ ائْتِنَّا نِي وَلَا تَفْتِنِّي
أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جِئْتُمُ
لَمْ حِيطَةَ بِالْكَافِرِينَ﴾

أبرزوا قبيحَ ضالمٍ في معرض التخرج ، وراموا أن يُلبسوا على الرسول — صلى الله وسلم على آله — وعلى المسلمين خُبث^(١) سريتهم وسريتهم ، قَبِيحٌ اللهُ أَنْ الذين (...) (٢)
يزعمهم سقطوا فيه بفنلهم ، وكذلك المتجلد بما يهواه متطوح في وادي بلواه ، وسيلقى
في الآخرة من الهوان ما يفني عن الحاجة إلى البرهان .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْأَلُوا وَمَنْ قَرَحُوا ﴾

هكذا صفة الحسود ، يتصاعد أنين قلبه عند شهود الحسنى ، ولا يسر قلبه غير حلول
البلوى ، ولادواء لجروح الحسود ؛ فإنه لا يرضى بشير زوال النعمة ولذا قالوا :

كلُّ المداوة قد رُجى إيمانها إلا عداوة مَنْ عاداك من حَسَدٍ

وإن الله تعالى عجل عقوبة الحاسد ، وذلك : حزن قلبه بسلامة محسوده ؛ فالنعمة
للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

المؤمن لا تلحقه شتاتُ عدوه لأنه ليس يرى إلا مُرادَ وليه ، فهو يتحقق أن ما يناله
مرادٌ مولاه فيسقط عن قلبه ما يهواه ، ويستقبله بروح رضاه فيعذبُ عنده ما كان يصعبُ
من بلواه ، وفي مناه ألتشدوا :

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالِ حَسَدُنَا فَالْجُرْحُ — إِذَا أَرْضَاكُمْ — أَلَمْ

(١) وردت (حيث) وهي خطأ في النسخ

(٢) مشبهة .

(٣) أى جزاء معجل في هذه الدنيا ؛ ضد التشبى اصطلاحاً : نقد (هنا في الدنيا) ، وومد
(في الآخرة) والسبب يؤدي إلى أن الجزاءين نقد .

ويقال شهود جريان التقدير يخفف على العبد تعب كل عسير .

قوله : « هو مولانا » : تعريف للعبد أن له — سبحانه — أن يفعل ما يريد ، لأنه تصرف مالك الأعيان في ملكه ، فهو يُبَدِّي ويُبْجِز ما يريد بحق حكمه .

ثم قال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : وأول التوكل الثقة بوعده ، ثم الرضا باختياره ، ثم نسيان أموركم بما يغلب على قلبك من أذكركه .

ويقال التوكل سكون السر عند حلول الأمر ونهاية التفويض ، وفيها ينساوى الحل والحل ، والنعمة والحننة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَهَمَّ تَرَبَّصُكُمْ أَنْ يَصِيَّبَكُمْ اللَّهُ يُعَذِّبُ مَنْ عِندَهُ أَوْ وَالَيْدِيَا قَرَّبَهُمَا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾

بين الله في هذه الآية الفرق بين المؤمنين وبين الكفار ، فقال قل للذين ينتظرون : أيها الكفار (إن كان^(١)) من شأن المؤمنين وقوع المأثرة عليهم في القتال ، أو أن القتل ينالهم فأى واحد من الأمرين ينالهم فهو لم من الله نعمة ، لأننا إن ظفرتنا بكم فنصر وغنمة ، وعز للدين ورفعة ، وإن قتلنا فشهادة ورحمة ، ورضوان من الله وزلفى . وإن كان القى يصيبنا في الدنيا هزيمة ونكبة ، فذلك موجب للأجر والثوبة ، فإذا لن يستغلبنا إلا ما هو حسنى ونعمة .

وإما أنتم ، فإن ظفرتنا بكم فتمجيل لذلك وحننة ، وإن قتلتم فتوبة من الله وسخطة ، وإن كانت اليد لكم في الحال لخللان من الله ، وسبب عذاب وزيادة قمة .

ويقال « هل ترصدون بنا إلا إحدى الحُسَيْنَيْنِ » إما قيام بحق الله في الحال فنكون بوصف الرضا وهو — في التحقيق — الجنة الكبرى ، وإما وصول إلى الله تعالى في المآل بوصف الشهادة ، ووجدان الزلفى في البقي وهي السكراة المظلى .

(١) سقطت (إن كان) والمعنى يتطليها

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِذَا كُنْتُمْ كُفْرًا
تَاسِقِينَ ﴾

المردود لا يُقبلُ منه توشل^(١) ، ولا يُغَيَّرُ حُكْمُ شِقَاوَتِهِ بِتَكْنِيهِرِ التَّكْلُفِ والتَّصَلُّ .
ويقال تَقَرُّبُ الْعَدُوِّ يوجبُ زِيَادَةَ الْمَقْتَلِ ، وَتَحْيِيْبُ الْحَبِيبِ يَقْتَضِي زِيَادَةَ الْعُطْفِ
عليه ، قال تعالى : « فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . »^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى
وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاذِبُونَ . »

قدوا الإخلاصَ في أموالهم فسدوا الاختصاصَ في أحوالهم ، وَحَرَمُوا الْإِخْلَاصَ فِي عَاجِلِهِمْ
وَفِي مَأْخُذِهِمْ .

قوله : « وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى » : مَنْ أَطَاعَ مِنْ حَيْثُ الْعَادَةِ - مِنْ غَيْرِ أَنْ
تَحْصِلَهُ عَلَيْهَا لَوْعَةُ الْإِرَادَةِ - لَمْ يَجِدْ لَطَاعَتَهُ رَاحَةً وَزِيَادَةً .

ويقال مَنْ لَاحَظَ الْخُلُقَ فِي الْجَهْرِ مِنْ أَعْمَالِهِ ، وَرَكَعَ إِلَى الْكُسْلِ فِي السِّرِّ مِنْ أَوَالِهِ
قَدْ وَبَّسَ بِالْخُلْدَانِ ، وَخَنِمَ بِالْجُرْمَانِ ، وَهَذِهِ هِيَ أَمَلَةُ الْفِرْقَةِ وَالْقَلْبِيَّةِ ، قال تعالى : « وَمَكُرُوا
وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ كَرِهُوا »^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تُحْيِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزَعَهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَمِمَّا
كَفَرُوا ﴾

(١) لا تَسْلِمُ دَانِيَا تَكُونُ (توشل) بدليل ما بيدهما ، والمراد يحتمل كليهما .

(٢) آية ٧٠ سورة الفرقان .

(٣) آية ٤٤ سورة آل عمران

بَيْنَ أَنْ مَا حَسْبُوهُ نِعْمَةٌ وَاعْتَدُوا مِنْ اللَّهِ مِنَّةٌ فَهُوَ — فِي التَّحْقِيقِ — حِجَّةٌ ، وَصِيبُ شَقَاءٍ وَفُرْقَةٍ ، وَإِنَّمَا دَسَّ التَّقْدِيرُ لَهُمْ مُحُومَ الصَّابِ ، فَمَا اسْتَلْقَوْهُ مِنَ الشَّرَابِ ؛ « أَيْحَسِبُونَ أَنْ مَا مَنَعَهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَلِيرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ .

التَّقَرُّبُ بِالْإِيمَانِ الْفَاجِرَةِ لَا يُوجِبُ لِلْقُلُوبِ إِلَّا بَعْدًا عَنِ الْقُبُولِ .

وَيَقَالُ إِنَّ إِنْظَارَ التَّلِيسِ لَا (. . .) (٢) الْأَسْرَارَ بَرْدُ السَّكُونِ ، وَلَا يَشْفِي الْبَصَائِرَ بَرْدُ الثَّقَةِ وَالْيَقِينِ . . . فَمَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَبَدًا ، وَمَا هُوَ كَأَنَّ سَيَكُونُ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَوْ يَخِيدُونَ مَكْجَأًا أَوْ مَكَارَاتٍ أَوْ مَدَّخَلًا لَوُتُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ .

إِنِّ لِلْمَازِقِ (٣) فِي الْخَلَّةِ يَنْسَلُ عَنْ سِلْكِيهَا بِأَضْفِ خَلَّةٍ ، وَإِنْ وَجَدَ مَهْرَبًا آوَى إِلَيْهِ ، وَيَأْمُلُ أَنْ يَنَالَ فُرْصَةً مَا يَتِمَّلُّ بِهَا عِنْدَ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخِفُّونَ ﴾ .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَطْلَاعِ ، يَتَمَلَّقُونَ فِي الظَّاهِرِ مَا دَامَتِ الْأَرْفَاقُ وَاصِلَةً إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ اقْطَعَتْ أَهْلَبُوا كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ .

وَيَقَالُ مَنْ كَانَ رِضَاؤُهُ بِوُجْدَانِ سَبَبٍ ، وَسُخْطُهُ فِي عَدَمِ مَا يَوْصِلُهُ إِلَى نَصِيبِهِ فَهُوَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْوَلَاءِ ، إِنَّمَا هُوَ قَائِمٌ بِحِظِّهِ ، غَيْرُ صَالِحٍ لِلصَّحْبَةِ ، وَأَمَّا لِلتَّحَقُّقِ فَكَمَا قِيلَ :

فَصِيرْتُ إِلَيْكَ فِي طَلَبِ الْمَعَالَى وَسَارَ سِوَايَ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾

(٢) مشكبة .

(١) آية ٥٦ سورة المؤمنون

(٣) مذق فلان في الود أي لم يخلص ، والمذاق الكنوب المزل . والقصود أن من لم يخلص في مودته يتصل بأضف صفة ولا تفل فيه .

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿١٠٠﴾

لَوْ قَضَوْا مَعَ اللَّهِ بِسْمِ الرَّضَا لَأَتَتْهُمْ فَنُونُ الْعَطَاءِ وَتَحْقِيقَاتُ الْمُنَى ، وَلَحَفُوا مَعَ اللَّهِ — عِنْدَ الْوُجْدَانِ (١) — مَا لَهُمْ مِنَ الْأَدَبِ ، مِنْ غَيْرِ مَعَانَةِ تَعَبٍ ، وَلَا مَقَاسَةِ نَصَبٍ .. وَلَكِنَّهُمْ عَرَّجُوا فِي أَوْثَانِ الطَّمَعِ فَوَقَعُوا فِي الْفَلِّ وَالْخَرْبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ (٢)

تَكَلَّمَ الْقَهَّاءُ فِي صِفَةِ الْفَقِيرِ ، وَالْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسْكِينِ لِمَا أَحْتَاجُوا إِلَيْهِ فِي قِسْمَةِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ .. فَأَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ — يَقُولُ : الْمَسْكِينُ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ . وَالْفَقِيرُ الَّذِي لَهُ بُلْقَةٌ مِنَ الْعَيْشِ .

وَيَقُولُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ : الْفَقِيرُ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ ، وَالْمَسْكِينُ الَّذِي لَهُ بُلْقَةٌ مِنَ الْعَيْشِ — أَيْ بِالْعَكْسِ .

وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ اخْتَلَفُوا فِيهِ ؛ فَتَمَّ مِنْ قَالِ بِالْأَوَّلِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالِ بِالْقَوْلِ الثَّانِي ، وَاخْتَلَفَ لَيْسَ كَاخْتِلَافِ الْقَهَّاءِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَشَارَ إِلَى مَا هُوَ حَالُهُ وَوَقْتُهُ وَوُجُودُهُ وَشَرِيحُهُ وَمَقَامُهُ . فَمِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ مَنْ رَأَى أَنَّ اخْتِذَ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ أَوَّلَى ، قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ ذَلِكَ مِلْكًا لِلْفَقِيرِ ، فَهُوَ أَحَقُّ لَهُ بِمَا يَنْطَلِعُ بِهِ عَلَيْهِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالِ : الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ مُسْتَحَقَّةٌ لِأَقْوَامٍ ، وَرَأَوْا الْإِشَارَةَ عَلَى الْإِخْوَانِ أَوَّلَى مِنْ أَنْ يَزَاحِمُوا أَرْبَابَ السَّهْبَانِ — مَعَ احتياجهم أخذَ الزَّكَاةِ — وَقَالُوا : نَحْنُ أَكْثَرُنَا الْفَقْرَ اخْتِياراً . فَكَيْفَ نَأْخُذُ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ ؟

(١) أَيْ عِنْدَ وُجُودِ الصَّمَةِ

(٢) تَلَفَّتِ النَّظَرُ إِلَى أَهَمِّيَّةِ مَوْقِفِ الْقَشِيرِيِّ عِنْدَ اسْتِخْرَاجِ إِشَارَاتٍ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ فُرْصَةً جَيِّدَةً لِكَيْ يُقَارَلَ بَيْنَ نَظَرَةِ الْقَهَّاءِ وَنَظَرَةِ الْمُؤَلَّفَةِ

ثم على مقتضى أصولهم في الجلة — لا في أخذ الزكاة — للفقر مراتب :
 أوّلها الحاجة ثم الفقر ثم للسكنة ؛ فذو الحاجة من يرضى بدينه وتسد الدنيا فقره ،
 والفقر من يكتفى بقباه ويخبر الجنة فقره ، وللسكين من لا يرضى بنير مولا ؛ لا إلى
 الدنيا يلتفت ، ولا بالآخرة يشتغل ، ولا بنير مولا يكتفى ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً ، واحشني في زمرة المساكين » ^(١) وقال صلى الله عليه
 وسلم « أعود بك من الفقر » لأن عليه بقية ^(٢) ؛ فهو يقيته محبوب عن ربه .
 ويمكن أن يقال إن الفقر الذي استماد منه ألا يكون له منه شيء ، والمسكنة المطلوبة
 أن تكون له بقلعة ليتفرغ بوجود تلك البقلعة إلى العبادة ؛ لأنه إذا لم تكن له بقلعة شغلته
 فقره من أداء حقه ، ولذلك استماد منه .

وقوم سمّتهم عن هذا الاعتبار — وهذا أولى بأصولهم — فالفقر الصادق
 عندهم من لا يملك قفله ولا أرض تقيه ولا مطعم يشغله ، فهو عبد لله ، يردّه إلى التمييز
 في أوان العبودية ، وفي غير هذا الوقت فهو مُصْطَلَمٌ عن شواهد ، واحتج بربه ، مُشْتَقٌّ
 عن جلته .

ويقال الفقير من كبرت قلوبه — هذا في العريّة .

والفقير — عندهم ^(٣) — من سقط اختياره ، وتمطلت عنه دياره ، واندرست —
 لاستيلاء من اصطلمه — آثاره ، فكانه لم تبق منه إلا أخباره ، وأشدوا :
 أما الرسوم فكبّرت أنهم رحلوا قريباً

ويقال المسكين هو الذي أسكنه حاله يلب مقصوده ، لا يبرح عن سدّته ، فهو مُتَكَيِّفٌ
 بقلبه ، لا يفلح لحظة عن ربه .

(١) الترمذی ، وابن حبان عن أبي سعيد الخدري والحاکم وقال صحيح الإسناد ، ورواه الطبرانی
 بسند رجاله ثقات من عبادة بن الصامت .

(٢) انشد السهروردي إلى ذلك حين ميز بين الفقير والصوقي فقال إن الفقير يتطلع إلى الأحواض ،
 أما الصوقي فيترك الأشياء فلا لأحواض للوجود بل للأحوال الموجودة فإنه أين وقته ، والفقير له إرادة
 في اختيار فقره ، أما الصوقي فلا إرادة بنفسه ولكن دنیا يوقفه الحق (عوارف الماروف ص ٤٢) .
 (٣) أي عند أولجب الأحوال .

وأما «العاملون عليها» فلي لسان العلم : مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المطلوبة . وعلى لسان الإشارة : أَوَّلَى الناس بالتصاؤن عن أخذ الزكاة مَنْ صدَّقَ في أعماله الله ، فإنهم لا يرجون على أعمالهم عَوْصًا ، ولا يطلبون في مقابلة أحوالهم عَوْصًا ، وأنشدوا :

وما أنا بالباغي على الحب رشوةً قبيحُ هوى يُرجمي عليه ثواب^(١)

وأما المؤلفَةُ قلوبهم — على لسان العلم — فَمَنْ يُسْتَمَالُ قلبه بنوع إِرْطَاقٍ معه ، ليتوفَّر في الجبن نشاطه ، فله من الزكاة سهمٌ استعطافًا لهم ، وبيان ذلك مشهورٌ في مسائل الفقه . وحلشنا أن يكون في القوم^(٢) مَنْ يكون حضوره بسبب طمعٍ أو لنيلِ ثوابٍ أو لرؤية مقامٍ أو لإطلاع حال . . فذلك في صفة العوام ، فأما الخواص فسكاناوا .

من لم يكن بك قائماً عن حظه وعن الهوى والإنس والأحباب
أوتيته صباية جمت له ما كن مفترقا من الأسباب .
فلأن بين المراتب واقفٌ ليمالِ حظَّ أو لحسن مآبٍ^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ وفي الرقاب ﴾

وهم على لسان العلم : المكاتبون ، وشرحه في مسائل الفقه معلوم .
وهؤلاء^(٤) لا يتحررون ولم تبرج على سبب ، أولهم في الدنيا والمقبى أرب ، فهم لا يستغفروهم طلب ، فَمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله : « المكاتبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم ، وأنشد بمضمون :
أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتي طلعةً حرَّ

قوله جل ذكره : ﴿ والغارمين ﴾

وهم على لسان العلم : مَنْ عليهم دينٌ في غير محصية .

(١) البيت للفنّي من بانيه التي أولها : من كن لي أن البياني خضاب

(٢) القوم هنا مقصود بها أرباب الأحوال .

(٣) الأبيات لأبي علي الروزبيري (القم ص ٤٣٥)

(٤) وهؤلاء هنا مقصود بها أيضا أرباب الأحوال .

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق^(١) ، ولهم قبل المعرفة غريم لا يقضى دينه .

قوله جل ذكره : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ .

وعلى لسان العلم : مَنْ سلك سبيل الله وَجِبَ له في الزكاة منهم على ما جاء بيانه في مسائل الفقه .

وفي هذه الطريقة : مَنْ سلك سبيل الله تتوجب عليه اللطافات ؛ فيبذل أولاً ماله ثم جاعته ثم نفسه ثم روحه . . وهذه أول قَدَمٍ في الطريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وابن السبيل ﴾

وهو على لسان العلم : مَنْ وقع في الثروة ، وفارق وطنه على أوصاف مخصوصة .

وعند القوم : إذا تفرَّب العبدُ عن مألوفات أوطانه فهو في قَرَى^(٢) الحق ؛ فالجوع طامه ، والخلوة مجلسه ، والمحبة شرايه ، والأُنسُ شهوده ، والحقُّ — تعالى — مشهوده . قال تعالى : « وسقام رهيم شرايا طهوراً »^(٣) : قوم وعدُّ في الجنة ، ولآخرين نقدُّ في الوقت ؛ اليوم شرابُ المحابِّ وغداً شرابُ الثواب ، وفي معناه أنشدوا :

وَمُقَدِّمِ قَوْمٍ قَدَسِي مِنْ شَرَابِنَا وَأَعْمَى سَقِينَاهُ ثَلَاثًا فَأَبْصَرَ
وَأَخْرَجْنِي لَمْ يَنْطِقْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً أَذَرْنَا عَلَيْهِ الْكَأْسَ يَوْمًا فَأَخْبَرَ

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾

عين العداوة بالمساوية موكَّلة ، وعين الرضا عن المعايب كيلة .

يسطوا اللامعة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ضايحه بما هو أمانة كرمه ، ودلالة فضله ،

(١) أي أن دينهم ليس يقضى أبناً إذ أمرم بيد مالكم .

(٢) القرى = الضيافة والإكرام .

(٣) آية ٢١ سورة الإنسان

قالوا : إنه بحسن خلقه يسمع ما يقال له ، فقال عليه السلام : « المؤمن غير كريم والمنافق حُبٌّ لئيم »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقيل : مَنْ الماقلُ ؟ قالوا : الْقَطَنُ الْمُتَنَاقِلُ . وفي معناه أُنشدوا :

وَإِذَا الْكَرِيمُ أَتَيْتَهُ بِضَيْبَةٍ وَلَقِيْتَهُ فِيهَا تَوَدُّمٌ يُسَارِعُ
فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَمْ تُخَادِعْ جَاهِلًا إِنَّ الْكَرِيمَ - بفضله - يتخادع

قوله جل ذكره : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

أخبر أن مَنْ تَزَيَّنَ لِلخَلْقِ ، وَتَرَبَّأَ إِلَيْهِمْ وَأَدَامَ رِضَاهُمْ ، وَاتَّبَعَ فِي ذَلِكَ هَوَاهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يُسْقِطُ بِهِ عَنِ الْخَلْقِ جَاهَهُمْ ، وَيُشَيِّبُهُمْ فِيهَا تَوَهُمًا أَنَّهُ يَرْضِيهِمْ ، وَالَّذِي لَا يَضِيعُ مَا كَانَ لَهُ ، فَأَمَّا مَا كَانَ لِنَبِيِّ اللَّهِ فَوَبَّالَ لَيْنٍ أَصَابَهُ ، وَمَحَالٌ مَا تَلَبَّاهُ .
ويقال إِنَّ الْخَلْقَ لَا يَصْدُقُونَكَ وَإِنْ حَلَفْتَ لَهُمْ ، وَالْحَقُّ يَقْبَلُكَ وَإِنْ تَخَلَّفْتَ عَنْهُمْ ؛ فَلَا تَسْتَنْتَلِ بِالْخَلْقِ مَحَنَةَ أَنْتَ غَيْرُ مُجْبِرٍ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِقْبَالُ عَلَى الْحَقِّ نَمَةٌ أَنْتَ مُشْكِرٌ عَلَيْهِمْ .
وَالْمُنْبُونُ مَنْ تَرَكَ مَا يَشْكُرُ عَلَيْهِ وَيُؤْثِرُ مَا لَا يُوجِرُ عَلَيْهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ مُخَادِعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنَّهُ نَارٌ فِيهِمْ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْغُرَى الْعَظِيمُ ﴾

(١) لى رواية للترمذى والمصنف من أبى مروة « المؤمن غير كريم والمنافق حُبٌّ لئيم » (والتخريب = التخييد) وفى الحديث : « لا يدخل الجنة من لا خائ »

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ فِي تَوْحِيدِهِ بِإِبْثَابِ مَوْهُومِ اسْتَحَقَّ مَا هُوَ حَقُّهُ : تَجَلَّى
عَقوبته في الحال بالفُرقة ، وفي المآل بالخلود في الحرقة .

فليس كلُّ مَنْ مُنِّي^(١) بمصيبة يعلم ما ناله من المحنة ، وأنشدوا :

غَدَاً يَتَفَرَّقُ أَهْلُ الْمَوَى وَيَكْثُرُ بِالِيٍّ وَمُسْتَرْجِعُ

قوله جل ذكره : ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ
سُورَةٌ تَنْبِئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ،
قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ
مَا يَحْذَرُونَ﴾

قُلُّوا أَنَّ الْحَقَّ — سبحانه — لا يفضحهم ، فَدَلُّوا عَلَيْهِمْ ، وَأَنكَرُوا مَا انْطَوَتْ عَلَيْهِ
سِرَائِرُهُمْ ، فَأَرْنَى^(٢) اللَّهُ — سبحانه — عَنَانٌ لِمَهْلِكِهِمْ ، ثُمَّ هُنَاكَ السَّرْعُ عَنْ فَاقِهِمْ ، فَفَضَّحَهُمْ
عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ ، فَتَنَمَّوْا بِمِجَارِ الْجَبَلِ ، وَكُشِفَ لِأَهْلِ التَّحْقِيقِ مَكَانُ الْإِغْتِبَارِ . وَنَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنْ عَقُوبَةِ أَهْلِ الْإِغْتِرَارِ : « وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ لِلْمَاكِرِينَ »^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
نُحْضِرُ نَفْسًا وَنَلْبَسُ قُلُوبًا لِلَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

مَنْ اسْتَهَانَ بِالَّذِينَ ، وَلَمْ يَحْتَسِبْ مِنْ تَرْكِ حُرْمَةِ الْإِسْلَامِ جِلَّةِ اللَّهِ فِي الْحَالِ نِكَالًا ،
وَسَاءَ فِي الْآخِرَةِ صِرَافًا وَإِذْلَالًا ، وَالْحَقُّ — سبحانه — لَا يَرْضَى دُونَ أَنْ يَذِيقَ الْعَذَابَ
بِأَنَسِهِ ، وَيَسْقِيَ كُلًّا — على ما يستوجبُه — كَأْسَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَقْتَدِرُوا قُدْرَتَكُمْ كُفْرًا عَلَى إِيمَانِكُمْ

(١) وردت (مني) وهي خطأ في النسخ وربما كانت (مع)

(٢) وردت (فأرني) وهي خطأ في النسخ .

(٣) آية ٤٤ سورة آل عمران .

إِنْ تَنَبَّ عَنْ طَاعَةِ مَنْكُمُ تَنْتَبَ طَاعَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا جَرِيمِينَ ﴿١﴾ .

جرّد النور والنداب من علة الجرم ، وسبب الفعل من حجة العبد ؛ حيث أحلّ الأمر على الشبهة . إذ لو كان للوجوب لغوه أو تنزيهه صفة العبد كسوى بينهم عند تساويهم في الوصف ، فلما اشتركوا في الكفر بعد الإيمان ، وعفا عن بعضهم وعذب بعضهم ذلك على أنه يفضل ما يشاء ، ويخص من يشاء بما يشاء (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَمُرُّونَ بِالْمُنْكَرِ﴾^(٣) عن اللزوم .

للمؤمن بالمؤمن يتقوى ، وللمتقاة بالمتقاة يتعاضد ، وطيور السماء على ألاها تقع . فلما تقوى لصاحبه أس^(٤) به قوامه ، وأصل به قيامه ؛ يُبَيِّنُهُ على فساد ، ويُعْمَى عليه طريق رشاده .

وللمؤمن ينصر للمؤمن وَيُبَيِّنُهُ عِيَوْه ، وَيُبَيِّنُهُ لِدِه وَيُبَيِّنُهُ — في عبته — ذنوبه ، وهو على السداد يُنَجِّدُهُ ، وعن الفساد يُبَيِّنُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَيُقِيضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾^(٥) .

عن طلب الخواص من الله تعالى

قوله جل ذكره : ﴿كَلِمَاتٍ لِّتُؤْذِنُوا اللَّهَ فَنَقِضَ عَنْهُمْ﴾^(٦) .

جازام على نسيانهم ، فمضى جزاء النسيان نسياناً . تركوا طاعته ، وآثروا مخالفتَه ، فَتَرَكَهُمْ وما اختاروه لأنفسهم ، قال تعالى : ﴿وَرَكَّبَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٧) .

(١) أخطأ الناسخ إذ أنسى الآية : (بأنهم كانوا مجرمين) .

(٢) هذه لفظة هامة تشير إلى المذهب السكلاي عند القشيري فيما يتصل بوجوب الإنابة أو العزوبة على الله وعدم وجوبها .

(٣) الأس يفتح الألف وضها وكسرهما : أصل البناء .

قوله جل ذكره: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لِلنَّاقِثِينَ وَاللَّائِقَاتِ
وَالْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
هِيَ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝﴾ .

وَعَدَهُمُ النَّارَ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُمُ الْعَذَابُ لِلْعِمَى فِي الْحَاضِرَةِ ، فَوُجِّلَ عَنْهُمْ الْحُرَّةُ ،
وَمُعْجَلُ الْفُرْقَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ
مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا
فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ
بِخُلُقِهِمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ ، وَخُفِّضَ كَلْبِي
خَاضِعًا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ ۝﴾ .

يقال : سلكتم طريقَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَأَهْلِ النِّفَاقِ وَقَدْ كَفَأْنَاكُمْ . ويقال للذين
تقدمكم زادوا عليكم فكأفأناهم كما تكفأه أهل الشقاق والنفاق ؛ في كثرة للدِّقَّةِ وقوةِ
الْعُدُوِّ ، والامتناع في الدنيا ، والاعتقار بالانخراط في سِلْكِ الْهَوَى . . . ولكن لم تَدُمُ
في الراحة مدَّتِهِمْ ، ولم تنزِعْ عنهم يومَ الشِّدَّةِ عُدَّتُهُمْ ، وعما قريبٍ يَلْحَقُ بِكُمْ مَا لِحَقَ
بِالَّذِينَ هُمُ قَبْلَكُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَهَادِجٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ
وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَاللُّؤْلُوكَاتِ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ

لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يُظْلِمُونَ ﴿١٠﴾

أَلَمْ يَنْتَهِ إِلَيْهِمْ خَيْرُ الْقُرُونِ لِلْخَاصِيَةِ ، وَنَبَأُ الْأُمَمِ لِلْغَالِبَةِ كَيْفَ دَرَسْنَا عَلَيْهِمْ جَمْعَهُمْ ،
وَكَيْفَ بَدَّدْنَا شَمْلَهُمْ ؟ قَضَيْنَا فِيهِم بِالْعَدْلِ ، وَحَكَمْنَا بِاسْتِصَالِ الْكُلِّ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ
نَافِخُ نَارٍ ، وَلَمْ يَحْصِلُوا إِلَّا عَلَى عَارٍ وَشَنَارٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنُونَ وَلِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾

يُعَيِّنُ (١) بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الطَّاعَاتِ ، وَيَتَوَاصَوْنَ بَيْنَهُمْ بِتَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ ، فَتَحَابُّهُمْ
فِي اللَّهِ ، وَتَقِيَامُهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ ، وَصِحْبَتُهُمْ لِلَّهِ ، وَعِدَاوَتُهُمْ لِأَجْلِ اللَّهِ ؛ تَزَكُّوا حِظْوَعَهُمْ لِحَقِّ اللَّهِ ؛
وَأَتَمُّوا عَلَى هَوَامِ رِضَاءِ اللَّهِ . أُولَئِكَ الَّذِينَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ فِي الْحَالِ ، وَسَيَرْحَمُهُمُ فِي الْمَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ
عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

وَعَدَهُمْ جَمِيعًا الْجَنَّةَ ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ، وَلَا يَطْلُبُ الْمَسْكَنُ إِلَّا بَرُوءَ الْمُحِبُّوبِ ، وَكُلُّ
مُحِبٍّ يَطْلُبُ مَسْكَنَهُ بِرُوءِهِ مُحِبُّوبُهُ ، وَلَكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي الْحِمَمِ ؛ فَمِنْ مَرْبُوطٍ بِحُظٍّ مُرَدُونٍ
إِلَى الْخَلْقِ ، وَمِنْ مُجَنَّبٍ بِحَقِّ مُوَصُولٍ بِالْحَقِّ ، وَفِي الْجُمْلَةِ الْأَمْرُ كَمَا يُقَالُ :

(١) وَرَدَّتْ (بَيْنَ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

أَجِيرَانًا مَا أَوْحَشَ الدَّارَ بَعْدَكُمْ إِذَا غِيَّبْتُمْ عَنْهَا وَنَحْنُ حُضُورًا
وَيُقَالُ قَوْمٌ يَطِيبُ مَسْكَنَهُمْ بِوُجُودِ حَقَّائِهِ ، وَقَوْمٌ يَطِيبُ مَسْكَنَهُمْ بِشُهُودِ لِقَائِهِ ،
وَأَنْتُمْ :

وَأَيُّ لَأَهْوَى الدَّارَ لَا يَسْتَقِرُّ لِي بِهَا الْوَدُّ إِلَّا أَنْتَ مِنْ دِيَارِكَ
نَمَّ قَالَ : « وَرِضْوَانُ مَنْ اللَّهِ أَكْبَرُ » : وَأَمَلَةُ أَهْلِ الرِّضْوَانِ وَجِدَانُ طَعْمِهِ ؛ فَمِمَّ
فِي رُوحِ الْأَنْسِ ، وَرُوحِ الْأَنْسِ لَا يَتَقَلَّصُ عَنْ رَاحَةِ دَارِ الْقُدُسِ بَلْ هُوَ أَمُّ وَأَعْظَمُ .
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَعَلِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ
وَأَغْلَطْ عَلَيْهِمْ وَأَمْلَأْهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ ﴾

دَعَا نَبِيَّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — كَافَّةً انْتَلَقَى إِلَى حُسْنِ الْخُلُقِ .
قَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « قَوْلَاهُ قَوْلًا لَيْتًا » ^(١) .

وَقَالَ لَنَبِيَّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : « وَأَغْلَطْ عَلَيْهِمْ » ^(٢) وَيُقَالُ إِنَّمَا قَالَ هَذَا بَعْدَ
إِظْهَارِ الْحَقِّ ، وَبَعْدَ مَا أَزَاحَ عُنْدَهُمْ بِأَيْلَمِ الْمَلَكَةِ ؛ فَقِي الْأَوَّلُ أَمْرَهُ بِالرَّفْقِ حَيْثُ قَالَ : « إِنَّمَا
أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ » ^(٣) ، فَلَمَّا أَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا أَمْرَهُ بِالْفَلِظَةِ عَلَيْهِمْ . وَالْجَاهِدَةُ أَوَّلُهَا الْإِنْسَانُ
لِشَرْحِ الْبَرَهَانِ ، وَلِإِضْاحِ الْحَقِّ وَالْبَيَانِ ، ثُمَّ إِنَّ حَصَلَ مِنَ الْعَدُوِّ جَعْدٌ بَعْدَ إِزَاحَةِ الْعُذْرِ ،
فَبِالْوَعْدِ وَالزَّجْرِ ، ثُمَّ إِنَّ لَمْ يَنْجَعِ الْكَلَامُ وَلَمْ يَنْفَعِ الْمَلَامُ فَالْقِتَالُ وَالْحَرْبُ وَبَذْلُ الْوَسْعِ
فِي الْجِهَادِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا
كَلِمَةَ الْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ ﴾

(١) آيَةُ ٤٤ سُورَةِ طه .

(٢) آيَةُ ٩ سُورَةِ التَّحْرِيمِ .

(٣) آيَةُ ٤٦ سُورَةِ سَبَأٍ .

تَسْتَرُوا بِأَيْنَانِهِمْ فَهَتَكَ اللَّهُ أَسْنَانَهُمْ وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ .

قوله : « وَلَقَدْ ظَلَمُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ » : وهى طَعْنُهُمْ فى ثُبُوتِ رَسُولِ اللَّهِ -- صلى الله عليه وسلم . وكلُّ مَنْ وَصَفَ الْمَعْبُودَ بِصِفَاتِ الْخَلْقِ أَوْ أَضَافَ إِلَى الْخَلْقِ مَا هُوَ مِنْ خِصَائِصِ نَسَبِ الْحَقِّ فَقَدْ قَالَ كَلِمَةَ الْكُفْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُمْ أَيْمَانُ مَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

أى أظهروا من شعار الكفر ما دكَّ على جُحْدِهِمْ بقلوبهم بعد ما كانوا يُظهِرون الموافقة والاستسلام ؛ وَهُمْ أَيْمَانُ مَا لَمْ يَنَالُوا مِنْ قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وما سَوَّكَتْ أَنْفُسُهُمْ أَنَّهُ يُفْرَجُ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ، وغير ذلك .

يقال تمنوا زوال دولة الإسلام فأبى الله إلا إعلانه أمرها .

ثم قال : « وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » : أى ما عابوه إلا بما هو أجلّ خصاله ، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للكفاة بما لا عذر لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ يَتُوبَا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَلِمَ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقدة الإصرار عن القلب ، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء .

قوله جل ذكره ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوفَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ فلما آتاهم من فضله يَجِلُّوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُفْرَضُونَ ﴿

منهم مَنْ أَكْدَ الْعَقْدَ مع الله ، ثم تَقَضَّه ، فَلَحِقَهُ شَوْمٌ ذِكْ ، فَبَقِيَ خَالِدًا فِي نِفَاقِهِ .
ويقال تَطَلَّبَ إِحْسَانُ رَبِّهِ ، وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِإِيْرَامِ عَهْدِهِ فَلَمَّا حَقَّقَ اللهُ مَسْئُوْلَهُ وَاسْتَجْلَبَ
مَأْمُوْلَهُ ، فَسَخَّ مَا أَيْْرَمَهُ ، وَاسْلَخَ عَمَّا التَزَمَهُ ، وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِ الْبُيْخُلُ ، فَضَنَّ بِإِخْرَاجِ حَقِّهِ ،
فَلَحِقَهُ شَوْمٌ نِفَاقِهِ ، بَأَنْ بَقِيَ إِلَى الْآبِدِ فِي أَسْرِهِ .

وحدُّ البخل — على لسان العلم — مَعْنَى الْوَاجِبِ . وَيُخَلُّ كُلُّ أَحَدٍ عَلَى مَا يَلِيْقُ بِمَجَالِهِ ،
وَكُلُّ مَنْ آثَرَ شَيْئًا مِنْ دُونِ رِضَا رَّبِّهِ فَقَدْ اتَّصَفَ بِبُخْلِهِ ، فَمَنْ يَبْخُلُ بِمَالِهِ تَزَلُّ عَنْهُ الْبِرْكَةُ
حَتَّى يَثْبُوتَ إِلَى وَارِثٍ أَوْ يَزُولَ بِحَارِثٍ . وَمَنْ يَبْخُلُ بِنَفْسِهِ وَيَتَقَاعَسُ عَنْ طَاعَتِهِ فَتَارِقَةُ الصَّحَةِ
حَتَّى لَا يَسْتَمْتِعَ بِمَجَالِهِ . وَالَّذِي يَبْخُلُ بِرُوحِهِ عَنْهُ يُعَاقَبُ بِالْخُذْلَانِ حَتَّى تَكُونَ حَيَاتُهُ سَبِيلًا لَشِقَاةٍ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَعْقِبْنَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ

يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ

وَمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

أَعْقِبْنَهُمْ يَبْخُلُهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَيُضْحِ أَعْقِبْنَهُمْ اللهُ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَفِي الْجِلَّةِ : مَنْ
تَقَضَّ عَهْدَهُ فِي نَفْسِهِ رِضَا الْوَدِّ مِنْ أَصْلِهِ ، وَكُلُّ مَنْ أَظْهَرَ فِي الْجِلَّةِ خِيْرًا وَاسْتَبْطَنَ شَرًّا فَقَدْ
فَاقَ بَسْطَهُ . وَالْمُنَافِقُ فِي الصَّفِّ الْآخِرِ فِي دُنْيَاهُ ، وَفِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ فِي عِقَابِهِ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ يَلْمُوا أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ

وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

خَوْفَهُمْ بَعْلَهُ كَا خَوْفَهُمْ بِنَفْسِهِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ .

و « سِرَّهُمْ » مَا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللَّهِ .

و « نَجْوَاهُمْ » مَا يَتَسَاءَلُونَ فِي بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَا لِنَفْسِهِمْ عَلَيْهِ إِشْرَافٌ
مِنْ خَوَاطِرِهِمْ ^(١)

(١) يقول التشبُّه في رسالته في معنى « السِّر » هو عمل المشاهدة كما أن الأرواح عمل اللجة
والقلوب عمل للمناويف . وقالوا السِّر مَالِكٌ عَلَيْهِ إِشْرَافٌ ، وَسِرُّ السِّرِّ مَا لَا أُطْلَعُ عَلَيْهِ لِنَفْسِ الْحَقِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

فِي الْمَدَنَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ

اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

عابوا الذين قصرت أيديهم عن الإكثار في الصدقة وجادوا بما وصلت إليه أيديهم ،

فَسَكَرَ اللَّهُ سَخَى مَنْ أَخْلَصَ فِي صَدَقَتِهِ بِمَا عَلِمَ صَدَقَهُ فِيهَا . وَقَلِيلُ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ أَفْضَلُ
مِنْ كَثِيرِ أَهْلِ النِّفَاقِ .

وَلَمَّا أَوْجَدُوا^(١) الْمُسْلِمِينَ بِسَخَرِيَّتِهِمْ وَصَفَ اللَّهُ — سبحانه وتعالى — نَفْسَهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ

فِي وَصْفِهِ — عَلَى التَّحْقِيقِ — وَهُوَ السَّخَرِيَّةُ بِأَحَدٍ . . . تَطْلِيْبًا لِقُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ ، فَقَدْ تَقَدَّسَ
عَنْ ذَلِكَ لَمَرَّةً رُبِيعَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ

اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْفَاسِقِينَ ﴾

خَتَمَ الْقَضَا بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِأَهْلِ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ ، فَلَا تَنْفَعُهُمُ الْوَسَائِلُ ، وَلَا يَنْتَمِشُ

مِنْهُمْ السَّاقِطُ .

وَيَقَالُ مَنْ غَلَبَتْهُ شِقْوَتُنَا لَمْ يَنْفَعِهِ (تَفَرُّعُهُ) ^(٢) وَدَعْوَتُهُ .

وَيَقَالُ صَرِيحُ الْقَدَرَةِ لَا يَنْفَعُهُ الْجُهْدُ وَالْحِيلَةُ .

(١) (أَوْجَدُوا) أَيْ سَبَّحُوا لَهُمْ حَيْظًا وَالْمَا .

(٢) (وَرَدَّتْ) (تَفَرُّعُهُ) بِمَعْنَى مَفْلُجَةٍ وَمَاءٌ سَاقِطٌ وَقَدْ أَكْثَرْنَا (تَفَرُّعُهُ) لِلْمَدَامَةِ لِسَبَاقِ ،
وَلَا نَسْجَمُهَا مَعَ (دَعْوَتِهِ) بِمَعْنَى دَعَايِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَرَحَ الْمَخْلُوقُونَ بِمَقْدَمِ خَلِيفَةِ

رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا

لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ

أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝

استحوذ عليهم سرورهم بتخلفهم ، ولم يملوا أن يبورهم في تأخرهم وما آتروه من راحة

نفوسهم على أداء حق الله ، والخروج في محبة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فزرع الله

الراحة بما عاقبهم ، وسيصلون سبيراً في الآخرة بما قدموه من فراقهم ، وسوف يتحسرون

ولات حين تحسرن .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا

كثيْرًا ۚ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝

بَدَّلَ اللَّهُ مَسْرَعَتَهُمْ بِمَسْرَةٍ ، وَفَرَحَهُمْ بِفَرَاخَةٍ ، وَرَأْحَهُمْ بِعَذَابٍ ، حَتَّى يَكُنْ بِكَافِهِمْ

فِي الْعُقُوبَةِ مَا كُنْ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ كَفَرَ بِرَبِّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ

فَأَعَذَّتْهُمْ مَخْرُجًا فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا

مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا

إِنَّكُمْ رَجِيتُمْ بِالْقَوْمِ أُوَّلَ مَرَّةٍ

فَاعْتَدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ۝

يقول : بعدما ظهرت خيانتهم ، وتقرر كذبهم وفراقهم ، لا تتخذ ع بملقهم ، ولا تتق

بقولهم ، ولا تُسَكِّنْهُمْ مِنْ صُحْبِكَ فَيَا يُظَاهِرُونَهُ مِنْ وَفَاكَ (١) . فإذا وَفَى سِلْكُ الْمُهْدِ

فَلَا يَحْتَمِلُ بَعْدَهُ الشَّدَّ ، وَإِذَا اتَّسَعَ الْخَرْقُ لَا يَنْفَعُ بَعْدَهُ الرَّفْعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا

(١) سقطت الواو من (وفاتك) .

وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ، وَمَاتُوا وَهُمْ غَافِقُونَ ﴿١١﴾

ليس بعد التَّبرُّى التَّولى ، ولا بعد الفراق الرفاق ، ولا بعد الحجة قرية . مضى لهم من
الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة ، أو لرجائهم مساح ، أو لظنهم بتحقيق ، ولكن سَبَقَ لهم القضاء
بالتَّولى ، وفوذ بالله من سوء الخُلعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُحْيِيكَ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ
إِنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِمَا قَالُوا
وَيَزَحِّقَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

يقول لا تحسبن تمكين أهل النفاق من تنفيذ مرادهم ، وتكثير أموالهم إساءة معروف
مِنَّا إليهم ، أو إسباغ الأنعام مِن لَدُنَّا عليهم ، إنما ذلك مَكْرُ بهم ، واستدراج لهم ، وإيهال
لا إيهال . وسيلقون فِيهِ ﴿٢﴾ من قريب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا
بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُو الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ
مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

إِذَا تَوَجَّهَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ بِالْجِهَادِ ، واشتدَّ عليهم حكمُ الإِزام ، تملَّوا إلى السَّعة ﴿٣﴾ ،
وركنوا إلى اختيار الدَّعة واحتالوا في موجباتِ التَّخَلُّفِ ، أولئك الذين خَصَّهم ﴿٤﴾
بمُخْلَانِهِ ، وصرفَ قلوبهم عن ابتغاء رضوانه .

-
- (١) وقع التماسخ في خطأ حين نقل الآية إذ كتب بعد (ورسوله) : (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ
كَالْأَعْمَى وَلَا يُفْقَهُونَ إِلَّا وَهُمْ كَالْوَهْمِ) .
وقد صوبنا حسب الآية (٨٤) .
(٢) وردت (فيه) بالياء ، وهي خطأ في النسخ ، والصواب (فيه) أى عاقبته .
(٣) أى إلى نفسِ وسمهم ومكنتهم .
(٤) اشتبهت علامة التضعيف على التماسخ فظن السكامة (خستهم) بالياء ، وهي غير ملائمة .

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْغَالِبِينَ ﴼ
وطُيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَبِمَا لَا يَتَّقُونَ ﴿١﴾

بَعُدُوا عَنْ بَسَاطَةِ الْمَيَادَةِ فَاسْتَطَابُوا الْقِدْعَةَ ، وَرَضُوا بِالْتَرَجِ فِي مَنَازِلِ الْفِرْقَةِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى يَصِدِّقِ النَّدَمَ لَتَأَبَّلَهُمْ بِالْفَضْلِ وَالْكَرَمِ ، وَلَكِنْ الْقَضَاءُ غَالِبٌ ، وَالتَّكَلُّفُ سَاقِطٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكِنَّ الرُّسُلَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴼ

لَيْسَ مَنْ أَقْبَلَ كَنْ أَعْرَضَ وَصَدَّ^(١) ، وَلَا مَنْ قَبِلَ أَمْرَهُ كَنَّ رُدًّا ، وَلَا مَنْ وَحَدَّ كَنَّ جَحَدًا ، وَلَا مَنْ عَبَدَ كَنَّ عَنَدًا ، وَلَا مَنْ آتَى كَنَّ أَبَى . . . فَلَا جَرَمَ رَجَحَتْ بِجَاهِدِهِمْ ، وَجَلَّتْ رُئُوسُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴼ

تَشِيرُ آيَةُ إِلَى أَنْ رَاحَتِهِمْ مَوْعُودَةٌ ، وَإِنْ كَانَتْ الْأَنْتَابُ^(٢) فِي الْحَالِ مَوْجُودَةً مُشْهُودَةً .

وَيَقَالُ صَادِقُ يَقِينُهُم بِالْأَنْتَابِ يُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ مَقَالَةَ مَا يَلْقَوْنَهُ — فِي الْوَقْتِ — مِنْ الْأَنْتَابِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجِلَّةَ الْمُكَذِّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَةَ الَّذِينَ كَذَّبُوا اللَّهَ ﴼ

(١) وَرَدَتْ (سَدٌ) بِالْهَيْنِ وَالصَّوَابِ (سَدٌ) لِتَلَاثِمِ أَعْرَضَ .
(٢) اَشْتَبَحَتْ عَلَى النَّاسِخِ فَقَطَّهَا (الْأَنْتَابِ) وَالصَّوَابِ الْأَنْتَابِ لِتَعَابُلِ (رَاحَتِهِمْ) ، ثُمَّ لَهَا تَكْرُوتٌ فِيهَا بَعْدَ قَلِيلٍ .

ورسوله سيصيب الدين كفروا منهم
عذاب أليم ❦

وهم أصحاب الأندار - في قول أهل التفسير - طلبوا الإذن في التأخر عن رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك فمقط عنهم الأروم .
أما الذين تأخروا بغير عذر فقد توجه عليهم الأروم ، وهو لم في المستقبل الوعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى
ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ما يُنفقون ﴾
خرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على
المُحْسِنِينَ من سبيل والله غفور
رحيم ❦

قيمة القمري تظهر عند سقوط الأمر ، ولو لم يكن في القلة خير إلا هنا لكني لها بهذا
فضيلة ؛ بقوا في أوطانهم ولم يتوجه عليهم بالجهاد أمر ، ولا بخارقة للنزل امتحان . واكتفى
منهم بنصيحة القلب ، واعتقاد أن لو قدروا لخرجوا .

وأصحاب الأموال امتحنوا - اليوم - بجمعها ثم بحفظها ، ثم ملكتهم محنتها حتى
شقت عليهم النفية عنها ، ثم توجه الأروم عليهم في ترك إيفائها ، ثم ما يقبى - غداً - من
الحساب والمناب يربو على الجميع .

ولما رفع الحرج عن أولئك^(١) بشرط وهو قوله : « إذا نصحوا الله ورسوله »
فإذا لم يوجد هذا الشرط فلخرج غير مرتفع عنهم .

قوله : « ما على المحسنين من سبيل » : المحسن الذي لا تكون للشرع منه مطالبة
لا في حق الله ولا في حق الخلق^(٢) .

(١) في السخنة (هؤلاء) وقد آثرنا أن نضع (أولئك) لينصرف الكلام إلى الطائفة الأولى
أي الضعفاء والمرضى وأصحاب الضرر .
(٢) لأنه قد استوفى جميع المطالبات ولم يبق عليه شيء .

ويقال هو الذي يعلم أَنَّ الحادِثاتِ كُلَّهَا من الله تعالى .

ويقال هو الذي يقوم بحقوق ما رُبط به أمره ؛ فلو كان دليلٌ في حكمه وقصر في علمه - لم يكن محسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾

مَنَعَهُم الفقرُ عن الحراكِ فالتمسوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يحملهم معه وبهي أسبابهم ، ولم يكن في الحال لرسول عليه السلام سعةٌ ليوافق سؤلهم ، وفي حالة ضيق صدره - صلى الله عليه وسلم - حلفَ أنه لا يحملهم ، ثم رآهم صلى الله عليه وسلم يتأهبون للخروج ، وقالوا في ذلك ، فقال عليه السلام : إنما يحملكم الله .

فما رآهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الإجابة أن يحملهم رجعوا عنه بوصف الخيبة كما قال تعالى : « تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ » كما قال قائلهم :

قَالَ لِي مَنْ أَحَبُّ وَالْبَيْنِ قَدْ حَلَّ وَدُمِي مَرِيقٌ لَشَبِيقِ
مَا تَرَى فِي الطَّرِيقِ تَضَعُ بِيَدِي ؟ قُلْتُ : أَبْيَى عَلَيْكَ طَوْلُ الطَّرِيقِ

قوله : « حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ » شقٌ عليهم أن يكونَ على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسببهم شغلٌ فتمنَّوْا أن لو أُرِيجَ هذا الشغلُ ، لا ميلًا إلى الدنيا ولكن لثلا تود إلى قلبه - عليه السلام - من قبلهم كرامةً ، ولهذا قيل :

مَنْ عَفَّ حَفَّ عَلَى الصَّدِيقِ لِقَاؤُهُ وَأَخُو الْخَوَاصِرِ مُنْجِجٌ تَمَلُّوْهُ

ثم إن الحق - سبحانه - لما علم ذلك منهم ، وتمحضت قلوبهم لتعلق بالله ، وخلت عقولهم عن مأكنة مخلوق تدارك الله أحوالهم ؛ فأمر الله رسوله عليه السلام أن يحملهم . . . بذلك جرَّتْ سُنَّتُهُ ، فقال : « وهو الذي يُتَرَلُّ للنبئتِ مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا » (١)

(١) آية ٢٨ سورة الشورى .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا السَّيْلُ عَلَى الدِّينِ يَسْنَأُ ذُنُوكَ

وهم أغنياء ﴾

يريد السيل بالقوة والملاحة على الذين يتأخرون عنك في الخروج إلى الجهاد ولم الأبهة
والمكثنة ، وتساعدكم على الخروج الاستطاعة والقدرة ، فإذا استأنذونكم للخروج وأظهروا^(١)
لم يصدقوا ، فهم مستوجبون للتكفير عليهم ، لأن من صدق في الولاء لا يحنث من مفاسد
العناء ، والذي هو في الولاء عاذق وللمصدق مفارق يتعلل بما لأصل له ، لأنه حرّم الخلوص
فيما هو أهل له ، وكذا قيل :

إِنَّ الْمَوْلَى إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَكَ الْوَصَالَ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

قوله جل ذكره : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

قيل في التفسير : مع النساء في البيوت .

والإسلام يثني على الشجاعة ، وفي الخبر : إن الله تعالى يحب الشجاعة ، ولو على قتل
حية ، وفي مناه أفسدوا .

كَيْبُ الْقَتْلِ وَالْقَتَالِ^(٢) عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْسِنَاتِ جُرُّ الذَّيُولِ
وَمَنْ اسْتَوطن مَرْكَبَ الْكَيْلِ ، وَاكْتَسَى لِبَاسَ الْفَشَلِ ، وَرَكَنَ إِلَى خَارِقِ الْحَيْلِ
حُرِّمَ اسْتِحْقَاقُ الْقُرْبَى . وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ — تَعَالَى — هَوَانَهُ ، وَأَذَاقَهُ خِذْلَانَهُ ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ
حُكْمِ اللَّهِ مَنَاصُ ..

قوله جل ذكره : ﴿ يَغْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ

قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَعْبَارِكُمْ وَسَمِعَى
اللَّهُ عَنْكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ رُجِدُوا إِلَى
عَالِمِ الْقَيْدِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(١) وبما سقطت هنا « المنور » فهي مطوية لسياق .
(٢) وردت (القتل والقتل) والمواب (القتل والقتال) .

أراد إذا تَقَوُّوا بما هم فيه كاذبون، وضلُّوا عما كانوا في خَلْفِهِمْ به يتصفون — فَأَخِيرُوا
 أَنَا عَرَفْنَا اللَّهَ كَذِبَكُمْ فَمَا تَقُولُونَ، واتضحت لنا أَنفُسُكُمْ، وَتَمَيَّزَ — بما أظهره الله لنا —
 سَيِّئُكُمْ وصالحُكم، فإنَّ اللَّهَ تعالى لا يَخْفَى عليه شيءٌ من أحوالكم، وَتَكْفُرُونَ غِبًّا
 أَعْمَالَكُمْ فِي أَجَلِكُمْ (١).

قوله جل ذكره: ﴿سَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
 لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ
 لَأَنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا
 كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

يريد أنهم في خَلْفِهِمْ بِاللَّهِ لَكُمْ أن يدفع السوءَ مِنْ قِبَلِكُمْ، وليس قصدُهم بذلك خلوصاً
 في اعتذارهم، ولا تداً على ما احتقبوه من أوزارهم، إنما ذلك لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ ...
 فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ ليس بِمُنْجِيهِمْ مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم، فَإِنَّ اللَّهَ
 يُبْهِلُ الْعَاصِيَ حَتَّى يَتَوَكَّمْ أَنَّهُ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْهُ، وما ذلك إلا سَكْرٌ حَوِيلَ بِهِ، فإذا
 أذاقه ما يستوجبه عِلِمٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ ما ظنَّه، وما يَنفَعُ ظاهراً منبسطاً، والحال
 — في الحقيقة — يَأْسٌ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُتُوطٌ، وفي معناه قالوا:

وقد حسدوني في قُرْبِ دَارِي مِنْهُمْ وَكَمْ مِنْ قَرِيبِ الدَّارِ وَهُوَ بَعِيدُ ١

قوله جل ذكره: ﴿يَجْلِفُونَ لَكُمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ
 تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى
 عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾

من كان مسخوطاً للحق لا ينفعه أن يكون مرضى الخلق، وليست العبرة بقول غير
 الله إنما المداور على ما سَبَقَ مِنَ السَّعَادَةِ فِي حُكْمِ اللَّهِ.

قوله جل ذكره: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا
 وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

(١) وردت (هب أعمالكم في أعمالكم) والمواب (في آجلكم) لأن الآية تدبر قلوبهم.

جُعِلَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْقَسْوَةِ فَلَمْ تَقْرَعْهَا هَوَايِمُ الصَّفْوَةِ ، وَكَانُوا عَنْ أَشْكَالِهِمْ فِي الْخَلْقَةِ
مُسْتَأَخِرِينَ بِمَا (...) (١) مِنْ سُوهِ الْخَلْقِ ؛ فَهُمْ مِنْ اسْتِغْنَاءِ الْخَلَائِقِ أَبَدٌ ، وَمِنْ
اسْتِجْلَابِ الْهَوَانِ أَقْرَبُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
مَقْرَمًا وَيَتَّبِعُ فِيكُمُ الدَّوَّارَ ،
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴾

خَبَيْتُ عَقَائِدَهُمْ فَانْتَظَرُوا لِلْمَسْلُومِينَ مَا تَمَلَّقتُ بِهِ مِنْهُمْ مِنْ حُلُولِ اللَّحْنِ بِهِمْ ، فَأَمَّا اللَّهُ
إِلَّا أَنْ يَحْبِقَ بِهِمْ مَكْرُهُمْ ، وَلِهَذَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ : إِذَا حَفَرْتَ لِأَخِيكَ قَوْسَعًا قَرِيبًا يَكُونُ
ذَلِكَ مِنْكَ !

وَيَقَالُ مَنْ لَفَّظَ إِلَى وَدَائِهِ يُؤْتَقَى فِي كَثِيرٍ مِنْ تَدْبِيرِهِ وَرَأْيِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَوْمًا يَقُولُ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ
قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَمَلَوَاتِ الرُّسُولِ
أَلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِيُدِّخِلُهمُ اللَّهُ
فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

تَتَوَعَّوْا ؛ فَهُمْ مَن غَشَّ وَلَمْ يَرِجْ ، وَمِنْهُمْ مَن كَصَحَّ فَلَمْ يَحْسِرْ ، فَأَمَّا الَّذِينَ مَذَقُوا
فَهُمْ فِي مَهْوَاةِ هَوَايِمِهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ صَدَّقُوا غَيَّ رَوْحِ إِحْسَانِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ
وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ
رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأُغْفِرْ لَهُمْ غُفْرَانًا ﴾

(١) مشبهة .

لهم جنات تجري تحتهما الأنهار
خالدين فيها أبداً ذلك الفوز
المظيم ﴿

السابقون مختلفون ؛ فمن سابق يصدق قَدَمه ، ومن سابق يصدق هِممه .
ويقال السابق من ساعدته القسمة بالتوفيق ، وأسعدته القضية بالتحقيق ، فسبقت
له من الله رحمة .

ويقال سبقهم بعبادته ثم سبقوا بطاعتهم له .
ويقال جمع الرضاء صفيتهم : السابق منهم واللاحق بهم ؛ قال تعالى : « والسابقون
الأولون من المهاجرين والأنصار ... رضى الله عنهم ورضوا عنه » .
ويقال ليس اللاحق كالسابق ، فالسابق في رَوْح الطلب ، واللاحق في مقاساة
النسب ، ومُساناة النَّسَب ، وأنشدوا :

السَّابِقُ السَّابِقُ قَوْلًا وَفِعْلًا حَذَرُوا النَّفْسَ حَصْرَةَ الْمَسْبُوقِ
ويقال رضائم عن الله قضية رضاء الله عنهم ؛ فلولا أنه رضى عنهم في آزاله ...
ففى وصلوا إلى رضائم عنه ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَمَنُ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
مُتَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا
عَلَى النِّفَاقِ ، لَا تَطْلُمُ ، نَحْنُ
نَطْلُمُ ، سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

تشاكل الخُلص والمُتَافِقُ في الصورة فلم يَتَمَيَّزَا بالمباني ، وإن منافيا في الحقائق واللماني
وتناصر عُلْمُهم من العرفان فَهَكَذَا اللهُ لَنَبِيٍّ أَسْتَارَكُمْ .. فَمَرَقَهُمْ ، وهم بأشرافه عليهم جاهلون ،
وعلى الإقامة في أوطان تفاقم مصروفون ، فلم ينفعهم طول إسماله لهم .

« ستمدهم مرتين » : الأولى في الدنيا بالفضيحة فيما ينلم من الحن والفتن والأمراض ، ولا يحصل لهم عليها في الآخرة عَوْضٌ ولا أَجْرٌ ولا مَسْرَةٌ ، والثانية عذاب القبر .
وقيل المرة الأولى يَقْبِضُ أرواحهم ، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُنْتَحَنُونَ بالعذاب الأكبر .

ويقال المرة الأولى ظَنَّمْ أَنهم على شيء ، والمرة الثانية بَخِيَّة آمَلَمْ وظهروا ما لم يحسبوه لهم .
قوله جل ذكره : ﴿ وَأَخْرَجُوا عَرَضَ الثَّوَابِ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اتَّصَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَلَقَدْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ . وَالْإِقْرَارُ توكيدُ الحقوق فيما بين الخلق في مشاهد الحكم ، ولكن الإقرار بحق الله — سبحانه — يوجبُ إسقاط الجرم في متضى سَنَةِ كَرَمِ الحق — سبحانه ، وفي مناه أَسْمَعُوا :

قيل لى : قد أساءَ فيكَ فلانٌ وسكوتُ الفسى على الضيم عارٌ
قلتُ : قد جاءنى فأحسنَ عُدرا ديةُ الذنبِ عندنا الاعتذار

« خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً » : ففى قوله « وآخر سيئاً » بعد قوله « صالحاً » دليلٌ على أن الزُّلَّة لا تحيطُ ثوابَ الطاعة ؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً .
وكذلك قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » : وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شيء .
فقد يتوب وقد لا يتوب . ولأنَّ قوله صِدْقٌ . . فإذا أخبر أنَّه يجبُ فإنه فعل ، فيجب منه لا يجب عليه^(١) .

ويقال قوله : « خلطوا عملاً صالحاً » : يحتمل مناه أنهم يتوبون ؛ فالتوبة على صالح .
وقوله : « وآخر سيئاً » : يحتمل أنه نقضُهم التوبة ، فنكون الإشارة في قوله : « عسى الله أن يتوب عليهم » أنهم إن قضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زَلَّتْهم فواجبٌ ميتاً أن

(١) واضح حرم التشرى على مقاومة المترة فيما يتصل بى اى وجوب على الله فقد جلت الصمدية من ذلك ، وإن كان يرى أنه يجب منه — سبحانه — الفضل .

توب عليهم ، ولئن بطلت — بنقضهم — توبهم . . . لَمَا اخْتَلَتْ — بفضلنا —
توبتنا عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ
سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ :

تطهرهم من طلب الأعراس عليها ، وزكهم عن ملاحظتهم إياها .
تطهرهم بها عن شح نفوسهم ، وزكهم بها بالأيتكافوا بأموالهم ؛ فَيُزَكِّوْا عَظِيمَ
مِنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يوجدان التجرد منها .
« وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » : إن تأثيرهم بهمتك معهم آمن لهم من
استقلالهم بأموالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَلْمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

تمدح — سبحانه — بقبول توبة الصابين إذ بها يظهر كرمه ، كما تمدح بجلال عزه
ونبهم على أن يعرفوا به جلاله وقدمه .

وكما توحده باستحقاق كبريائه وعظمته تفرد بقبول توبة المبد عن جرمه وزلته .
فكما لا شبهة له في جلاله وجلاله لا شريك له في أفضاله وإقباله ؛ يأخذ الصدقات — قلتُ
أو كثرته ، فقدّر الصدقة وخطرها بأخذه لها لا بكثرتها وقلتها ؛ قلتُ في الصورة
صدقتهم ولكن لما أخذها وقلها جلت بقبوله لها ، كما قيل :

يكون أجلاً — دونكم ، فإذا انتهى إليكم تلقى طيبكم فيطيب

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ ااعْلَوْا قَسَمَ اللَّهِ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَاسْتَدِينُوا إِلَى

عالم الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾

خوفهم برؤيته — سبحانه — لأعمالهم ، فلما عَلِمَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ تَقَامَرُ حالته عن
الاحتشام لأطلاع الحق قال : « ورسوله » ، ثم قال لَمَنْ تَزَلَّتْ رَتْبُهُ : « وللمؤمنون » .
وقد خسر مَنْ لَا يَحْتَمِلُ الحياء ، ولا يردعه الاحتشام ، وسقطَ من عينِ الله مِنْ هَتَاكَ جَلْبَابَ
الحياء ، كما قيل :

إِذَا قُلَّ مَاءُ الْوَجْدِ قَلَّ حِسَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْدٍ إِذَا قَلَّ مَأْوَ
وَمَنْ لَمْ يَنْتَعِ الْحَيَاءُ عَنْ نَهْطِ الْكُرْهُلَاتِ فِي الْعَاجِلِ سِيلِقُ غِبَّ ذِكِّ ، وَخَسِرَانُهُ عَنِ
قَرِيبِ فِي الْأَجَلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَخْرَجُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ زُرْعًا ﴾
إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا تِثْوَبُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾

لَمْ يُصْرَحْ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَهْمُ بِالْيَأْسِ مِنْ غَفْرَانِهِ ، فَوَضَعُوا عَلَى قَدَمِ الْعَجَلِ ،
مُتَبِيلِينَ بَيْنَ الرَّهْبَةِ وَالرَّغْبَةِ ، مُتَرَدِّدِينَ بَيْنَ الْخُوفِ وَالرَّجَاءِ . أَخْبَرَ اللَّهُ — سبحانه —
أَنَّهُ إِنَّمَا يُعَذِّبُهُمْ فَلَا اعْتِرَاضَ يَتَوَجَّهَ عَلَيْهِ ، وَإِنْ رَحِمَهُمْ فَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ :
وَيُشْبِعِي مِنَ الْأَمَالِ وَعَدُّهُ وَمَنْ عَلَى يَتَقَصَّرِي وَعَيْدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا
وَكُفْرًا وَفِرْقَانًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
لَمَّا حَارَبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ قَبْلُ
وَكَيْفَ لَعْنُ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَقَّ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ لِمَنْ لَكَاذِبُونَ ﴾

مَنْ لَمْ يَكُنْ مُخْلِصًا فِي وَلَائِهِ لَمْ يَأْنَسِ الْقَلْبُ بِكَدِّهِ وَعَنَائِهِ ، فَتَوَدَّدَهُ فِي الظَّاهِرِ يَنَادِي
عَلَيْهِ بِالنَّوَاهِ ، وَبِقَوْلِهِ بِالتَّكْلِيفِ شَهَادَةً صِدْقِي عَلَى عَدَمِ صَفَاهِ :

من لم يكن لوصول أهلًا فكلُّ إحسانه ذنوبٌ

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسَسِّ

عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِي يَوْمٍ أَحَقُّ

أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ

أَنْ يَطْهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾

للقيام في أماكن المصائب ، والتزجيج في أوطان أهل الجحود والظنbian — من علامات
للإلاءة مع أربابها ، وسكّانها وقطّانها .

والتباعد عن مساكنهم ، وهجران من يتجّح إلى مساكنهم علمٌ لمن أشرب
قلبه مخالفتهم ، ولشرب سرّه عدلوهم .

« فيه رجال يحبون أن يطهروا » : يطهرون عن اللعاب وهذه رتبة العابدin ،
ويطهرون عن الشهوات والأمانى وتلك صفة الزاهدين ، ويطهرون عن عيبة المخلوقين ،
ثم من شهود أنفسهم بما تصفون وتلك صفة المارفين .

قوله « والله يحب للمطهرين » : أسرارهم^(١) من لساكنة إلى كل مخلوق ، أو ملاحظة
كل محدث مسبوق .

قوله جل ذكره: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسَسِّ

عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِي يَوْمٍ أَحَقُّ

أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ

أَنْ يَطْهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾

القوم الظالمين .

للريد يجب أن يؤسس بنيانه على يقين صادق فيما يستقده ، ثم على خلوص في الرزمة
ألا ينصرف قبل الوصول عن الطريق الذي يسلكه ، ثم على انسلخه من جميع مناه
وشهوانه ، ومآربه ومطالبه ، ثم يبنى أمره على دوام ذكره بحيث لا يعترضه نسيان ،
ثم على ملازمة حق للسليين وتقديم مصالحهم ... بالإتيان على نفسه . والذي ضيغ الأصول

(١) أسرارهم مفقود به لاسم القائل « المطهرين » .

في ابتدائه حرّم الوصول في انتهائه ، والقي لم يُحكّم الأساس في بناؤه سَقَطَ الثَّقَفُ على جبرانه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الْفَى بُنْيَانِهِ ﴾
 في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله
 عليم حكيم ﴿

عروق النفاق لا تُقتلع من عزّ صلتِ اليقين إلا بمنجّل التحقّق بصحيح البرهان ؛ فمن
 أَيْدٍ لإدامة المسير ، ووفقاً لتأمل البرهان وصل إلى تلجج الصدر وروح الرهان .
 ومن أقام على معتاد التقليد لم يستريح قلبه من كدّ التردّد ، وظلمة التجويز ، وجوكان
 انطواظر المشكلة في القلب .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ أَفْهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾
 وأموالهم بأن لم الجنة ، يقاتلون في
 سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً
 عليه حقاً في التوراة والإنجيل
 والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟
 فاستبشروا ببشركم الذي بآبائهم ،
 وذلك هو الفوز العظيم ﴿

لما كان من المؤمنين تسليم أنفسهم وأموالهم لحكم الله ، وكان من الله الجزاء والثواب ؛
 أي هناك عوض ومعوّض ، فلما بين ذلك وبين التجارة من مشابهة أطلق لفظ الاشتراء ،
 وقد قال تعالى : ﴿ هل أدلكم على تجارة ... ﴾ (١) ، وقال : ﴿ فاربحت تجارتهم ﴾ (٢) .
 وفي الحقيقة لا يصح في وصف الحق — سبحانه — الاشتراء لأنه مالكٌ سواه ،
 وهو مالكُ الأعيان كلها . كما أن من لم يستحدث ملكاً لا يقال إنه — في الحقيقة — باع .

(١) آية ١٠ سورة الصدف .

(٢) آية ١٦ سورة البقرة .

وللقال في هذه الآية مجال . . . فيقال : البائع لا يستحق الثمن ، فإذا امتنع عن تسليم البيع ، فكذلك لا يستحق البعد الجزاء الموعود إلا بعد تسليم النفس والمال على موجب أوامر الشرع ، فمن صد أو قوط فغير مستحق للجزاء .

وقال لا يجوز في الشرع أن يبيع الشخص ويشترى شيئاً واحداً فيكون بائناً ومشترياً إلا إذا كان أباً وجداً ولكن ذلك هنا بلفظ الشقة ؛ فالحق بإذنه كانت رحمته بالمعد أم ، ونظره له أبلغ ، وكان للمؤمن فيه من النبطة ما لا يخفى ، فصح ذلك وإن كان حكمه لا يقاس على حكم غيره .

وقال إنما قال : « اشترى من المؤمنين أنفسهم » ولم يقل « قلوبهم » لأن النفس محل الآلات فجعل الجنة في مقابلتها ، وجعل لمن القلب أجل من الجنة ، وهو ما يخص به أوليائه في الجنة من عزيز رؤيته ^(١) .

وقال النفس محل العيب ، والكريم يرضى في شراء ما يزهده فيه غيره .

وقال من اشترى شيئاً لينتفع به اشترى خيراً ما يجده ، ومن اشترى شيئاً لينتفع به غيره اشترى ما زاد على صاحبه لينتفع به منه .

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء — عليهم السلام — : يا بني آدم ، ما خلقتكم لأرحم عليكم ولكن خلقتكم لتزيعوا على .

وقال اشترى منهم نفوسهم فزيعوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسهم ، وأما القلب فمنازله قهراً ، والقهري سنة الأجباب أعز من الفضل ، وفي معناه أشدوا :

يُبَيِّ الحُبُّ على القَهْرِ قو حَمَلُ المَحبوبِ يوماً كَسَجِ
ليس يُشْتَحَنُّ في حَكْمِ المَوَى عاشِقٌ يَطْلُبُ تَأْلِيفَ الحَاجِجِ

وكان الشيخ أبو علي الدقاق ^(٢) رحمه الله يقول : « لم يقل اشترى قلوبهم لأن القلوب وقفت على محبتها ، والوقف لا يشتري » .

(١) أنظر كيف تحمل الجنة للربة الثانية بعد رؤية الم محبوب — عند هذا المعنى .
(٢) القائل هو شيخ الشيرازي ورائده وأستاذة وصهره . وقد أشرنا إلى شيء من سيرته في مدخل هذا الكتاب .

ويقال الطير في الهواء ، والسك في الماء لا يبيع شراؤها لأنه غير ممكن تسليمها ،
كذلك القلب .. صاحبه لا يمكنه تسليمه ، قال تعالى :

« واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه »^(١)

وفي التوراة : « الجنة جنتي والمال مالي فاستروا جنتي بمالي فإن ربحتم فلکم
وإن خسرتم فلي »

ويقال علم سوء خلقك فاشترائه قبل أن أوجدك ، وغالى بشنك لتلا يكون لك حق
الاعتراض عند بلوغك .

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصب لنفسه بحال لأنها ليست له ، والذي اشتراها أدلى بها من
صاحبها الذي هو أجنبي عنها .

ويقال أخبر أنه اشتراها لتلا يدعى العبد فيها ؛ فلا يساكنها ولا يلاحظها
ولا يُعجب بها^(٢) .

قوله : « فيقتلون ويقتلون » سيان^(٣) عندم أن يقتلوا أو يقتلوا ، قال فانهم :

وإن دما أجزيتك شكرا وإن فؤادا خرقته شك حامدا

ويقال قال : « فاستبشروا ببيعكم » ولم يقل بشن مبيعكم لأنه لم يكن منيا بيع ، وإنما أخبر
عن نفسه بقوله « إن الله اشترى من المؤمنين » فجعل ييمه بيعنا ، وهذا مثلا قال في صفة نبيه
-- صلى الله عليه وسلم -- : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وهذا عين الجمع
الذي أشار إليه القوم .

قوله جل ذكره : ﴿ التائبون العابدون ﴾

مدحهم بعد ما أوقع عليهم سبة الاشتراء بقوله « التائبون العابدون ... » ومن رضى
بما اشتراه فإن له حق الرد إذا لم يعلم الغيب وقت الشراء ، فأما إذا كان عالما به

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) لاحظ مدى التواء القشيري — فيما تحصل بالفس — بنالهم أهل الملامة النيسابورية .

(٣) وردت (شان) ومي — حسب ما هو واضح — خطأ في النسخ .

فليس له حقُّ الرُّدِّ ، قال تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » (١) .

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فَوَجَدَ به عيباً رَدَّه على مَنْ مِنْهُ اشتراه ولكنه — سبحانه — اشترى نفوسنا منه ، فإذا أراد الرُّدُّ فلا يرُدُّ إلا على نفسه ، قال تعالى : « ثمَّ رُدُّوا إلى اللَّهِ مولاهم الحقُّ » وكما أنَّ الرُّدَّ إليه فهو رَدُّنا ككان الرُّدُّ عليه .

قوله تعالى : « التائبون » أى الراجعون إلى الله ، فَمِنْ راجع يرجع عن رَلَّتِهِ إلى طاعته ، وَمِنْ راجع يرجع عن منابذة هواه إلى موافقة رضاءه ، وَمِنْ راجع يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه ، وَمِنْ راجع يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جِنِّهِ إلى الاستغراق فى حقائق حَقِّهِ .

ويقال تَائِبٌ يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله ؛ فيجد غداً فنونَ أفضاله ، وصنوفَ لطفه ونواله ، وتائبٌ يرجع من كل غير وضئ إلى ربِّه بربِّه لربِّه بِمَحْوٍ كُلِّ أَرْبٍ ، وعُدْمِ الإحساس بكلِّ طلب .

وتائبٌ يرجع لحَفْظِ نَفْسِهِ من جزيل ثوابه أو حَذَرًا — على نفسه — من أليم عذابه ، وتائبٌ يرجع لأمره برجوعه وإيابه ، وتائبٌ يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجم من أوضاره ، ويخلص من شؤم أوزاره ، وتائبٌ يرجع لكَمًّا سمع أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّتِي وَجَدَ صَالَتَهُ — كما فى الخبر ، وشأن ماها ! وأنشدوا :

أَيَا قَادِمًا مِنْ سَفَرَةٍ الْمَجْرُ مَرَحِبًا أَنَاذِيكَ لَا أَسْأَلُكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

وأما قوله « العابدون » : فهم الخاضعون بكلِّ وجه ، الذين لا تَسْتَعْرِقُهُمْ كرامُ الدُّنْيَا ، ولا تستعبدُهم عظامُ النُّفُي . ولا يكون الصُّدُّ عبداً لله — على الحقيقة — إلا بعد تَجَرُّده عن كلِّ شيء حادث . وكلُّ أحدٍ فهو له عَبْدٌ من حيث الخَلْقَةِ ؛ قال تعالى : « إِنَّ كُلَّ مَنْ فى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا » (٢) . ولكنَّ صاحبَ العبودية خاصٌّ ، وهو عزيز .

(١) آية ٣٢ سورة البخل .

(٢) آية ٩٢ سورة مريم .

قوله جل ذكره : ﴿الْحَامِدُونَ﴾

هم الشاكرون له على وجود أفضاله ، المُتَنَوِّنُون عليه عند شهود جلاله وجهاله .
ويقال الحامدون بلا اعتراض على ما يحصل بقدرته ، وبلا اقتباس عما يجب من طاعته .
ويقال الحامدون له على منحه وبلائه كما يحمدهونه على فضله وعطائه .
ويقال الحامدون إذا اشتكى من لا فتوة^(١) له الملاحون إذا بكى من لا مروءة له .
ويقال الشاكرون له إن أدناهم ، الحامدون له إن أقصاهم .

قوله جل ذكره : ﴿السَّائِحُونَ﴾

الصائعون ولكن عن شهود غير الله ، للمتنعون عن خدمة غير الله ، المكسئون من الله بالله .

ويقال السائحون الذين يسبحون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار ، ويسبحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكير في جوانبها ومناكبها ، والاستدلال بتغيرها على مُنْشِئِهَا ، والتحقق بحكمة خالقها بما يرون من الآيات فيها ، ويسبحون بأسرارهم في السكوت فيجدون رَوْحَ الوصال ، ويبشون بنسيم الأنس بالتحقق بشهود الحق .

قوله جل ذكره : ﴿الرَّاكِعُونَ﴾

الغاضضون لله في جميع الأحوال بخودهم تحت سلطان التجلي ، وفي الظاهر . « إن الله ما تجلّى لشيء إلا خضع له » .

وكما يكون — في الظاهر — رَّاكِعًا يكون في الباطن خاشعاً ، ففي الظاهر بإحسان الحق إليه يُحَسِّنُ تَوَلَّيْهِ ، وفي الباطن كالمليان للمليان للحق بأنوار تجليته .

قوله جل ذكره : ﴿السَّاجِدُونَ﴾

في الظاهر بنفوسهم على إسباط العبودية ، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية .

(١) سأل شقيق البخاري جعفر بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : إن أعطيتنا شكرنا وإن مننا صبرنا ، فقال جعفر : السكاب عندنا بالدينه كذلك تقول ! فقال شقيق : وما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أعطيتنا آثرنا ، وإن مننا شكرنا (الرسالة ص ١١٥) .

والسجود على أقسام : سجد عند صحة القصد فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار ، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تبشير الوصال . وسجود عند الشهود إذا تحيّل الحق قلبه سجدة بقلبه ، فلم ينظر بعده إلى غيره ، وسجود في حال الوجود وذلك بخموده عن كليته ، وفاته عن الإحساس بجميع أوصافه وجملة .

قوله جل ذكره : ﴿الأمرون بالمعروف والنهي عن

المنكر والحافظون لحدود الله

ويشتر المؤمنون﴾

هم الذين يدعون أنخلق إلى الله ، ويحدّونهم عن غير الله . يتواصون بالإقبال على الله وترك الاشتغال بغير الله . يأمرون أنفسهم بالتزام الطاعات يحتملهم إلها على سنن الاستقامة ، وينهون أنفسهم عن اتباع المني والشهوات بترك التمرج في أوطان الغفلة ، وما تعودوه من المساكنة والاعتناء .

والحافظون لحدود الله ، هم الواقفون حيث وقفهم^(١) الله ، الذين لا يتحركون إلا إذا حركهم ولا يسكنون إلا إذا سكنهم ، ويحفظون مع الله أنفاسهم^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن

يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى

قربى من بعد ما تبين لهم أنهم

أصحاب الجحيم﴾

أصل الدين التبرّي من الأعداء ، والتولي للأولياء ، والتولي لا قريب له ولا جيم ، ولا سبب له ولا صديق ؛ إن وآلى فبأمر ، وإن عادى فليزجر .

قوله جل ذكره : ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه

(١) يكون الفعل (وقف) متعدياً مثل : وقف فلانا على الأمر أي أعلمه عليه (الوسيط)

(٢) مراعاة الأنفاس من الأمور التي تشغل بها الصوفية دائماً ، يقول الجنيد :

وما تنفست إلا كنت مع نفسي تجري بك الروح متى في مجاريها

إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٠﴾

لَمَّا أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالْتَّبَرُّيِّ عَنِ الشَّرِكِينَ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَالْإِقْبَاضِ عَنِ الْاسْتِغْفَارِ
لَهُمْ بَيَّنَّ أَنَّ هَذَا سَبِيلُ الْأَوْلِيَاءِ ، وَطَرِيقُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ — عَلَيْهِ
السَّلَامُ — وَإِنْ اسْتَفْزَرَ لِأَيِّهِ فَإِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِ تَحَقُّقِهِ بِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ
أُظْهِرَ الْبِرَاءَةُ مِنْهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ
إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿١١﴾

إِنَّ اللَّهَ لَا يَحْكُمُ بِضَالَالِكُمْ وَذَهَابِكُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ بِاسْتِفْزَارِكُمُ لِلشَّرِكِينَ إِلَّا بَعْدَ مَا بَيَّنَّ
لَكُمْ أَنَّكُمْ مُنْهَوُونَ عَنْهُ ، فَإِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ تُبَيِّنُونَ عَنْ اسْتِفْزَارِكُمْ لَهُمْ فَإِنَّ أَقْدَمَكُمْ عَلَى ذَلِكَ
لَغِيْفَتُهُ ضَلَالَتُهُ عَنِ الْحَقِّ بِفَعْلِكُمْ بَعْدَ مَا بُيِّنَ عَنْهُ . . . هَذَا بَيَانُ التَّفْسِيرِ لِلآيَةِ ، وَالْإِشَارَةُ
فِيهَا أَنَّهُ لَا سَلْبَ لِعِظَامِهِ إِلَّا بِتَرْكِهِ أَحَدَ مِنْكُمْ .

وَيَقَالُ مَنْ أَحَلَّهُ بِسَاطَةِ الْوَصْلَةِ مَا مَنَعِي بَعْدَهُ بِعَذَابِ الْفِرْقَةِ ، إِلَّا لِمَنْ سَلَفَتْ مِنْهُ
تَرْكُ حُرْمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ﴿١٢﴾

الْحَقُّ لَا يَنْتَجِلُ بِوُجُودِ مَمْلُوكَاتِهِ ، وَلَا يُلْحَقُ تَقْصُّ بِعَدَمِ^(١) خَلْقَاتِهِ ، فَتَقَبَّلَ أَنْ أَوْجَدَ
شَيْئًا مِنَ الْخِلَاقَاتِ كَانَ مِلِكًا — وَالْمَلِكُ أَكْثَرُ مَبَالغةً مِنَ الْمَالِكِ — وَهُوَ قُدْرَتُهُ

(١) سقطت الميم من (يعدم) فأثبتناها إذ بدونها يضطرب السياق فالمراد (وجود المملوكات وعدمها) .

على الإبداع ، والممدوم مقدوره ومملوكه ، فإذا أوجده فهو في حال حدوثه مقدوره ومملوكه ، فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدورا له .

« يحى ويميت » يحى مَنْ يشاء يعرفانه وتوحيده ، ويميت مَنْ يشاء بكرانه ووجوده .
ويقال يحيى قلوب العارفين بأتوار للواصلات ، ويميت قوس العايدين بأثار المنازلات .
ويقال يحيى مَنْ أقبل عليه بتفضله ، ويميت مَنْ أعرض عنه بتكبره .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ النَّصْرِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

قِيلَ تَوْبَتُهُمْ ، وتاب على نبيه — صلى الله عليه وسلم — في إذنه للمناقضين في التخلف عنه في غزوة تبوك ، وأما على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هموا بالانصراف (١) لِمَا أصابهم من العُسرة من الجوع والعطش والإعياء (٢) في غزوة تبوك ، كما قال : « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » : وتوبته عليهم أنه تدارك قلوبهم حتى لم تنزع ، وكذا سقاة الحق — سبحانه — مع أوليائه إذا أشرفوا على العطش ، وقاربوا من التلف ، واستمكن اليأس في قلوبهم من النصر ، ووطنوا أنفسهم على أن يدوقوا البأس — يُعْطِرُ عليهم سحاب الجود ، فيعود عود الحياة بعد يئسه طرياً ، ويردُّ الرَّدُّ الأُنْسَ عقب ذبوله غصاً جدياً ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كُنَّا كَمَنْ أَلْبَسَ أَكْفَانَهُ وَقُرْبُ النَّعْشِ مِنَ اللَّحْدِ
فَبَالَ مَا أَرْوَحَ فِي وَحْشَةٍ وَرَدَّهُ الْوَصْلَ إِلَى الْوَرْدِ

(١) وردت (الإنصاف) وليس لها معنى فصولنا ما (الانصراف) فهو التصود .

(٢) وردت (الأعياد) وهي خطأ في النسخ إذ التبت الهزلة على الناسخ .

تبارك الله سبحانه ما (...) ^(١) هو بالسرمد

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خَلَفُوا حتى
إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ
لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَلَبَّ
عَلَيْهِمْ لَبَتُوبَا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴾

لَمَّا صَدَّقَ مِنْهُمْ الْجَهَاءَ تَدَارَكَهُمُ بِالشُّغْلِ وَأَسْفَطَ عَنْهُمْ الْبَلَاءَ ، وَكَذَلِكَ الْحَقُّ يُكَوِّرُ نَهَارَ
الْبُسْرِ عَلَى لَيَالِي الْمُسْرِ ، وَيُطْلِعُ شُمُوسَ الْخَنَةِ عَلَى نَحُوسِ الْفِتْنَةِ ، وَيُبْدِرُ فَكَّ السَّعَادَةِ ^(٢)
فِيصْحَى تَأْثِيرِ طَوَارِقِ التَّكَايَةِ ؛ سُنَّةً مِنْهُ — تَعَالَى — لَا يُبَدِّلُهَا ، وَعَادَةً مِنْهُ فِي الْكُرَمِ
يُجَرِّبُهَا وَلَا يَحُولُهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا
مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِرُسُلِ اللَّهِ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . . كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ
الْمُسْلِمِينَ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَالِ كُونُوا فِي آخِرِ أَحْوَالِكُمْ مَعَ الصَّادِقِينَ ؛ أَيْ اسْتَدْبِعُوا
الْإِيمَانَ . اسْتَدْبِعُوا فِي الدُّنْيَا الصِّدْقَ تَكُونُوا غَدًا مَعَ الصَّادِقِينَ فِي الْجَنَّةِ .
وَيَقَالُ الصَّادِقُونَ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ وَهُمْ أَبْرَ بَكْرٍ وَعَمْرٌ وَهَيْثَانُ وَعَلَى رَضَى اللَّهِ
عَنْهُمْ وَغَيْرُهُمْ .

وَيَقَالُ الصِّدْقُ نَهَايَةُ الْأَحْوَالِ ، وَهُوَ اسْتَوَاءُ السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَذَلِكَ جَزْزِي . وَفِي الزُّبُورِ :
« كَتَبَ مَنْ ادَّعَى حُبِّي وَإِذَا حَبَّةٌ أَهْلِيلُ نَأَمَ عَنِّي » .

(١) مشتقة ، والشطر الثاني من البيت الأخير مضطرب الوزن

(٢) ربما كانت (العنابة) لتتسجم مع (التكاية) لأننا نلاحظ اهتمام القشيري بالموسيقى الداخلية
في تركيب فقرات هذه الإشارة ، وإن كانت « السعادة » مقبولة في السياق .

والصدق — كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال ، وهو أتم أقسامه .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن

حوّلتهم من الأعراب أن يتخلفوا

عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم

عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم

ظلمًا ولا نصبٌ ولا تحمصةٌ في

سبيل الله ولا يطمون موطنًا ينيط

الكَفَّارَ ولا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا

إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ

اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْحَسَنِينَ *

ولا ينقون فقة صغيرة ولا كبيرة ،

ولا يقطعون وادياً إِلَّا كُتِبَ لَهُم

ليجزئهم الله أحسن ما كانوا

يملكون *

لا يجوز لهم أن يؤثروا على النبي — صلى الله عليه وسلم — شيئاً من نفسٍ وروح ،
ومالٍ وقَدَرٍ وأهلٍ ، وليسوا يخشعون على الله وأُتَى ذلك . . ؟ وإِنَّهم لا يرفعون لأجله
خطوةً إِلَّا تَابَ لَهُم بِأَلْفِ خُطْوَةٍ ، ولا ينقلون إليه قَدَمًا إِلَّا لِقَامٌ لُطْفًا وكرماً ، ولا يُقَاسُونَ
فيه عَطَشًا إِلَّا سَقَامٌ من شرابٍ عَابَهُ كاساً ، ولا ينحلون لأجله مشقةً إِلَّا لِقَامٌ لُطْفًا
وإنساناً ، ولا يَنَالُونَ من الأعداء أذىً إِلَّا شَكَرَ اللهُ سَعْيَهُم بما يوجب لهم سعادة البارئين !

قوله جل ذكره : ﴿ وما كانت المؤمنين لينفروا

كافةً قَوْلًا نَفَرَ من كل فرقةٍ منهم

طائفةٌ ليتفقوا في الدين ولينذروا

قومهم إذا رجَعُوا إليهم لعلهم

يَحْذَرُونَ *

لو اشتغل الكل بالتفقه في الدين لتعطل عليهم الماش ، ولحق الكفاية عن ذلك ذلك المطلوب ، فقبل ذلك فرضا على الكفاية .

وقال جل للسليين على مراتب : فوامهم كالرعية للملك ^(١) ، وكتبة الحديث كخزان الملك ، وأهل القرآن كحفاظ الدفاتر وفائس الأموال ، والفتاه بمنزلة الوكلاء للملك إذ الفقيه (. . .) ^(٢) عن الله ، وعلماء الأصول كالقواد وأمراء الجيوش ، والأولياء كأركان الباب ، وأرباب القلوب وأصحاب الصفاه كخواص الملك وجلسائه .

فيشتغل قوم يحفظ أركان الشرع ، وآخرون بإمضاء الأحكام ، وآخرون بإرد على المخالفين ، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقوم مقرضون بحضور القلب وم أصحاب الشهود ، وليس لهم شغل ، يراعون مع الله أنفاسهم وم أصحاب الفراغ ، لا يستغزهم طلب ولا يهزم أرب ، فهم بالله لله ، وم عو عما حوى الله ^(٣) .

وأما الذين يتقربون في الدين فهم الداعون إلى الله ، وإنما يفهم الخلق عن الله من كان يفهم عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا

الَّذِينَ يَكُونُونَ كُفَرًا
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْفَةً ۚ وَعَلِمُوا أَنَّ
اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝ ﴾

اقرب الأعداء إلى المسلم من الكفار ، الذي يجب عليه منازعته هو أعدى عده

(١) في الماش (فائس كلهم خدم للملك) . ولا توجد علامة توضح أنها من التي ، فربما كانت منه وسقطت العلامة ، وربما كانت نونياً من أحد القراء .

(٢) مشتبه أقرب بما تكون إلى (يرفع) أو (يدفع) وترجع الثانية فقد وردت كذلك في سياق مماثل .

(٣) من هذا التصور تدرك شيئاً هاماً عند التفهري وعند الصوفية المجلس سامية ، فهم لا يصورون التصوف مذهباً يسود المجتمع سامية فيكون الناس جميعاً متصوفة ، بل لأن دوره الشئوى الهام في كيان المجتمع محصور في طائفة مخصوصة عند اثرها إلى خروج نطائها ، والتقصود (بالشغل) و (الفراغ) أن يكونوا خالصين لله ، وليس المقصود البطالة من العمل وعدم السعي الرزق .

أى نفسه . فيجب أن يبدأ بمقاتلة^(١) نفسه ثم بمجاهدة الكفار ، قال عليه السلام : « رجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر »^(٢) .

قوله : « وليجدوا فيكم غلظة » من جانبٍ عدوّه قهراً ، وكذلك المرید الذى ينزل عن المالبات الحقيقية إلى ما يطلبه من التأويلات فيفسخ عهده ، وينقض عهده ، وذلك كالرذّة^(٣) لأهل الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَسْمِعْ لَنَا آيَاتَ اللَّهِ فَادْعُ ﴾^(٤) ،
فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً
وم يستبشرون^(٥)

جَعَلَ اللَّهُ — سبحانه — إِنْزَالَ الْقُرْآنِ لِقَوْمٍ شَفَاءً . ولِقَوْمٍ شَفَاءً ؛ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ جَدِيدَةٌ زَادَ شُكُّهُمْ وَتَحَدُّهُمْ ، فَاسْتَعْلَمَ بَعْضُهُمْ حَالَ بَعْضٍ ، ثُمَّ لَمْ يَزِدَادُوا إِلَّا تَشَدُّدًا ؛ قَالَ تَعَالَى : « وَهُوَ عَلَيْهِمْ سَمِيٌّ »^(٦) وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فزَادَتْهُمْ السُّورَةُ إِيْمَانًا فَارْتَقَوْا مِنْ حَدِّ تَأَمُّلِ الْبِرْهَانِ إِلَى رُوحِ الْبَيَانِ ، ثُمَّ مِنْ رُوحِ الْبَيَانِ إِلَى الْعِيَانِ ، فَالتَّجَوُّيزُ وَالتَّرَدُّدُ وَ (. . .)^(٧) وَالتَّحْدِيدُ مُنْتَقَى بِأَجْمَعِهِمْ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، وَتُحْمَسُ الْعُرْفَانُ طَالِعَةً عَلَى أَسْرَادِهِمْ ، وَأَنْوَارُ التَّحْقِيقِ مَالِكَةٌ أَسْرَادِهِمْ ، فَلَا لَهُمْ تَعَبٌ الطَّلَبِ ، وَلَا لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَى التَّنْبِيهِ ،

(١) وودت (مقابلة) والملائم بالندبة للسياق (مقاتلة) هذا المعنى .

(٢) رواه الخطيب في التاريخ عن جابر (س ٣٢٥ - ٧٠ متنبه كثر الهمال بهامش مسند الإمام أحمد هكذا : (قدمتم خير مقدم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . مجاهدة اللبى هواه) .

(٣) وودت (الرد) والصواب أن تكون (الردة) ، وقد أوضح التشيرى ذلك في موضع آخر من الكتاب إذ يقول (وكان المرتد أشد على المسلمين عداوة فكذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيا والمادة ، فهو أشد الناس انكساراً لهذه الطريقة وأبعد عن أهلها) المجلد الأول : س ٧٥ .

(٤) ينبغي أن نلتصق بهذه الآية الآية التى بعدها « وأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً » إلى وجوبهم ، وماتوا وم كلفون » لم ترد في المتن مع أن المصنف يشير إليها في شرحه .

(٥) آية ٤٤ سورة فصلت .

(٦) مشبهة ، ومصحفة في الهمامش بطريقة مهمة وهي في الكتابة هكذا : (التبت) ، ولا نعرف من ألفت العمل كلمة لتشيرى قرية في الخط منها ، وربما كانت (التب) .

ولا عليهم سلطان الفكر . وأَشْمَةُ شمس العرفان مستغرقة لأتوار نجوم العلم ،
يقول قائمهم :

ولما استبانَ الصبحُ أدركَ ضوءه بِإِسْفَارِهِ أنوارَ ضوء الكواكب
قوله جل ذكره : ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ
عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ
وَلَا نَحْمِلُ يَذْكُرُونَ﴾

لم يُخَلِّ الحقُّ — سبحانه — أوطبَ التكليف من دلائل التعريف ، التعريف لم
في كل وقت ينوع من البيان ، والتكليف في كل أوان يضرب من الامتحان ؛ فما لم يزد
لم في إرضاع البرهان لم يتجدد لم من الله إلا زيادة الغلطان والحجة عن البيان .
وأما أصحاب الحقائق فالأغيار في كل عام مرة أو مرتين فلهم في كل نفس مرة ،
لا يخليهم الحقُّ — سبحانه — من زواجر توجبُ بصائر ، وخواطر تتضمن تكليفات
وَأَوَامِرُ^(١) قال قائمهم :

كَأَنَّ رَقِيًّا مَكَ حَلَّ بِمَجْهِي إِذَا رُمْتُ تَهِيلاً عَلَى تَصَبَّيَا
قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ لَّفَرَّ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَأُكُمْ مِنْ
أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ، صَرَفَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ بَأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾

تَقَرُّوا بِخِمَارِ التَّلْيِيسِ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يَعْقُونَ فِي سِرِّ بِنَكَلَتِهِمْ ، والحقُّ أبا إلا أن
فَضَحَّتْهُمْ ، وكما وَصَّيَهُمْ بِرَقْمِ التَّكْرَةِ^(٢) أَطْلَغَ أسرارَ الموحدين على أحوالهم فعرّفهم على
مام عليه من أوصافهم .

قوله جل ذكره : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

(١) التكررة اسم من الإنكار ، يقال : كان في أشد تكرة (الوسط) .
(٢) ذلك لأنهم بقبائحهم بالحق فلما تبدر منهم أشياء تستدعي الزجر أو الأمر لأنهم دائماً يجتاونون الأذى .

عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِ مَا عَزَمْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

جله كم رسولٌ يشارِكُكم في البشرية ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ بِهِ مِنَ الْخُصُوصِيَّةِ الْمَلْبَسَانَهُ لِبَاسَ
الرَّحْمَةِ عَلَيْكُمْ ، وَأَقْنَاهُ بِشَوَاهِدِ الْمَطْفِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى جَنْبِكُمْ ، قَدْ وَكَّلَ هِمَّتَهُ بِشَأْنِكُمْ ،
وَأَكْبَرُ قُوَّتِهِ لِيَمَانِكُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

أَمْرُهُ أَنْ يَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى التَّوْحِيدِ ، ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِجَابَةِ فَكُنْ بِنَا
بِنَمْتِ التَّجْرِيدِ .

ويقال قال له : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ، ثم أمره بأن يقول حَسْبِيَ اللَّهُ
وهذا عين الجمع ، وقوله « قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ » فَرَّقَ . . . بل هو جمع الجمع أى : قُلْ ،
ولكنك بنا تقول ، ونحن التولى عنك وأنت مُسْتَهْلِكٌ فِي عَيْنِ التَّوْحِيدِ ؛ فَأَنْتَ بِنَا ،
وَعَوُّوْا عَنْ غَيْرِنَا .

سورة يونس عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَلِمَةً مَبَاعُهَا يُوَجِّبُ شِفَاءَ كُلِّ عَائِدٍ ، وَضِيَاءَ كُلِّ قَاصِدٍ ، وَعِزَاءَ كُلِّ فَاقِدٍ ، وَبَلَاءَ كُلِّ
وَاجِدٍ ، وَهُدًى كُلِّ خَائِفٍ ، وَسُلُوكَ كُلِّ عَارِفٍ . وَأَمَّا كُلُّ تَائِبٍ ، وَبَيَانَ كُلِّ طَالِبٍ .
قُلُوبُ الْمَارِفِينَ لَا تَفْرَحُ إِلَّا بِسَاعِ بِسْمِ اللَّهِ ، وَكُرُوبُ الْخَائِفِينَ لَا تَبْرَحُ إِلَّا عِنْدَ سَبَاحِ بِسْمِ اللَّهِ .
قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْبَيِّنَاتِ الْحَكِيمِ ﴾ .
الْأَلْفُ مُفْتَاخُ اسْمِ « اللَّهِ » ، وَالْإِلَامُ مُفْتَاخُ اسْمِ « الْغَاطِثِ » ، وَالرَّاءُ مُفْتَاخُ اسْمِ « الرَّحِيمِ » .

أقسم بهذه الأسماء إن هذا الكتاب هو للوعود لكم يوم اليثاق . والإشارة فيه أنا حَقَّقْنَا
لكم للعباد ، وأَعْلَمْنَا لكم عِنانِ الوِداد . . . واقضى زمنَ للعباد ، فالعَصاةُ مُلَقَّاةٌ ، والأَيمُ
بالسرور مُتَلَقَّاةٌ ، فبادروا إلى شَرْبِ كَلَسَاتِ الحُبِّ ، واستقيموا على تَبَجِّجِ الأَحبابِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَكَانَ لِنَاسٍ عِجَابٌ أَن أَوْحَيْنَا
إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنِ أَنْذِرِ
النَّاسَ ﴾ .

تعبجوا من ثلاثة أشياء : من جواز البعث بعد الموت ، ومن إرسال الرسل إلى الخلق ،
ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة من بين الخلق . ولو عرفوا كمال ملكه
لم يُسَكِّروا جوازَ البعث ، ولو علموا كمال ملكه لم يمحذوا إرسال الرسل إلى الخلق ،
ولو عرفوا أن له أن يفعل ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد — صلى الله عليه وسلم —
بالنبوة من بين الخلق ، ولكن سُدَّتْ بَصَائِرُهُمْ فَنَاهَوْا فِي أَوْدِيَةِ الْحَيْرَةِ ، وَغَنَوْا
— من الضلالة — في كل وَهْدَةٍ . وكان الأستاذ أبو علي الدقاق — رحمه الله — يقول :
« جَوَزُوا أَن يَكُونَ لِلنَّحْوِ مِنَ انْخِسَابِ وَلِلْمَوْلُ مِنَ الصَّخَرِ » (١) إِلَهًا مَعْبُودًا ، وَتَعَجَّبُوا
أَن يَكُونَ مِثْلُ مُحَمَّد — صلى الله عليه وسلم — فِي جَلَالَةِ قَدْرِهِ رَسُولًا . . . هذا هو
الضلال البعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ
صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ .

وهو ما قدموه لأنفسهم من طاعتٍ أخلصوا فيها ، وفنون عبادات صدقوا في
التيام بقضائها .

ويقال هو ما قدم الحق لم يوم القيامة من مقتضى العناية بشأنهم ، وما حَكَّم لهم من
فنون إحسانهم ، وصنوف ما أفردهم به من امتنانهم .

ويقال : « قَدَّمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » : هو ما دفعوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان

(١) وردت (الصخر) بالباء وهي خطأ في النسخ .

إرادتهم ، فإن لأقدام الربدن للرفوعة لأجل الله حُرمة عند الله ، ولأيامهم الخالية في حال
توَدُّعهم ، ولأيامهم الماضية في طلبه وهم في حُرقة تحيرهم .. مقادير عند الله . وقيل :
مَنْ يَنْسَ داراً قد تخونها رَبُّ الزمان فإن لست أنسا
وقيل :

تلك المبود تشدها لِتَحُلُّها عندى كما هي عندها لم يُحَلِّ
قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ
عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ
شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَدِئِهِ ذَلِكَ اللَّهُ
رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

لا يحتاج فضله إلى مدّة ، وكيف ذلك ومن جملة أفضاله الزمان والمدة ؟ فَخَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وتلك الأيام أيضاً من جملة ما خَلَقَ الله سبحانه وتعالى .

« ثم استوى على العرش » أى تَوَحَّدَ بِجَلال الكبرياء بوصف الملكوت . وملكنا
إذا أرادوا التجلّى والظهور لِحَسَمِ والرعية برزوا لهم على سرير مُلْكِهِمْ في ألوان مشاهدم .
فأخبر الحقُّ — سبحانه — بما يَحْرُبُ مِنْ قُوَّةِ الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة : استوى
على العرش ، ومنه اتصافه بـ : « الصمدية وجلال الأحدية » ، وأفراده بنمت الجبروت
وعلاه الربوبية ، قدّس الجبارُ عن الأقطار ، والمبودُ عن الحدود .

« يُدَبِّرُ الْأُمُورَ » : أى الحادثات صادرة عن تقديره ، وحاصلة بتدبيره ، فلا شريك
بضده ، وما قضى فلا أحد يرده . « ما من شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَدِئِهِ » : هو الذى يُنْطِقُ مَنْ
يخاطبه ، وهو الذى يخلق ما يشاء على من يشاء إذا التمس يُطالِبُهُ .

« ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ » : تعريف وقوله : « فاعبدوه » : تكليف وخصول التعريف
بشقيقته ، والوصول إلى ما وَرَدَ به التكليف بتوقيفه .

(١) وردت (بنير) الصمدية وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا
 إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ
 وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ
 وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

الرجوع يقتضى ابتداء الأرواح قبل حصولها فى الأشباح ، فإن لها فى مواطن التسييح
 والتقديس إقامة ، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبيه وذويه ،
 كما قيل :

أيا قادمًا من سَفَرٍ المجر مرحبًا أناذيك لا أنساك ماهبَت الصبا

ويقال المطيع إذا رجع إلى الله فله الزئفى ، والثواب والحسن . والعاصى إذا رجع إلى ربه
 فَبَنِمَتِ الإِفلاس وخسران الطريق ؛ فينلقى لباس الغفران ، وحُلَّة الصنح والأمان ، فرجة
 مولاه خير له من نُسكِه وقواه .

قوله : « وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا » : موعودٌ للطيع الفردائسُ المُلَى . وموعودُ العاصى الرحمة
 والرفق . والجنَّة لُفْلُفُ الحقِّ والرحمة وصف الحق ؛ فاللطفُ فِعْلٌ لم يكن ثم حصل ،
 والنَّعْتُ لم يزل ^(١) .

قوله . « إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » : مَنْ كَانَ لَهُ فى جميع عمره نَفْسٌ على وصفٍ ما ابتدأ
 الحقُّ سبحانه به فى الإشارة : تكون لذلك إعادة ، وأشدوا :

كلُّ تَهْوٍ فِيهِ مَاءٌ قد جَرَى فَأِلَيْهِ المَاءُ يوماً سيعودُ

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ
 نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ
 السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ
 إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَعْلَمُونَ﴾

(١) يفرق التثنية فى كتابه (التحبير فى التذكير) الذى قتنا بتحقيقه بين صفات الفعل وصفات القات .

أنوار المتول نجومٌ وهي للشياطين رجوم ، والعلوم^(١) أقار وهي أنوار واستبصار ،
والمعارف شحوس ولها على أسرار المعارف طلوع ، كما قيل :

إِنَّ شمسَ النهار تُعْرَبُ بالليلِ وشمسُ القلوب ليست تَنُيبُ

وكأن في السماء كوكبين شمساً وقرراً ، الشمسُ أبداً بضياءها ، والقمرُ في الزيادة والنقصان ؛
يُسْتَرُ بمحاقه ثم بكل حتى يصير بدرأً بنمت إشراقه ، ثم يأخذ في النقص إلى أن لا يبقى شيء منه
تمام انحساره ، ثم يعود جديداً ، وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدرأً تماماً ، لم يجد أكثر من
ليلةٍ لتمامه مقاماً ، ثم يأخذ في النقصان إلى أن يخفى شخصه ويتم نقصه .

كذلك من الناس من هو مُتَرَدِّدٌ بين قبضه وبسطه ، وصحوه ونحوه ، وزهابه وإياه ؛
لا فناء فيستريح ، ولا بقاء له دوامٌ صحيحٌ ، وقيل :

كَلَّا قُلْتُ قد دنا حلُّ قيدي فكَبَلُونِي فأوثقوا المسَّارَ

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَايَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَقُونَ ﴾

اِخْتَصَّ النهارُ بضياءه ، وانفرد الليلُ بظلماته ، من غير استيجابٍ لذلك ، ومن غير
استحقاق عقاب لهذا ، وفي هذا دليلٌ على أن الردَّ والقبولَ ، واللينَ والوصولَ ، ليست ممتلئةً
بببٍ ، ولا حاصلةً بأمرٍ مُكْتَسَبٍ ؛ كلاً . . . إنها إرادةٌ ومشيئةٌ ، وحُكْمٌ وقضية .

النهارُ وقتُ حضور أهل النقلة في أوطان كسبهم ، ووقتُ أربابِ القربة والوصلة لانفرادهم
بشهود ربهم ، قال قائلهم :

هو الشمس ، إلا أنَّ للشمسِ غيبةً وهذا الذي نفيه ليس ينبغي
والليلُ لأحدٍ شخصين : أما للمُحِبِّ قَوَّتُ الْحَيِّ ، وأما للعاصي قَبْثُ الشكوى .

(١) وردت (العلوم) وهي خطأ في النسخ إذ المقصود نفع من الغاية بين (العلوم) والمعارف .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُغْمِضْنَا بِهِمُ

مِنْ عَمَلِهِمْ خِلَافَةً ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ

الضَّالُّونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ ﴿

أنكروا جواز الرؤية فلم يرجوها ، والمؤمنون آمنوا ^(١) بجواز الرؤية فأملوها .

ويقال : لا يرجون لقاءه لأنهم لم يشاققوا إليه ، ولم يشاققوا إليه لأنهم لم يحبوه لأنهم لم يعرفوه ، ولم يعرفوه لأنهم لم يطلبوه ولن يطلبوه لأنه أورد ألا يطلبوه ، قال تعالى : « وَأَنَّ إِلَىٰ رِيبِكَ الْمُنْتَهَىٰ » ^(٢) .

ويقال لو أراد أن يطلبوه لطلبوه ، ولو طلبوا لم عرفوا ، ولو عرفوا لأحبوا ، ولو أحبوا لاشتاقوا ، ولو اشتاقوا لرجوا ، ولو رجوا لأملوا لقاءه ، قال تعالى : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى » ^(٣) .

قوله تعالى : « وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُغْمِضْنَا بِهِمُ » : أصحاب الدنيا رضوا بالحياة الدنيا فحرموا الجنة ، والجنة ركنوا إلى الجنة ورضوا بها فبقوا عن الوصلة ، وقد علم كل أنس مشربهم ، ولكل أحد مقام .

ويقال إذا كانوا لا يرجون لقاءه فأوام العذاب والفرقة ، فدليل الخطاب أن الذي يرجو لقاءه رآه ، ومآله ومنتهاه الوصلة واللقاء والزلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِعْمَالِهِمْ خَيْرٍ مِنْ

تَحْمِلِهِمُ الْآثَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ ﴿

كما هدام اليوم إلى معرفته من غير خزيمة يهديهم غداً إلى جنته ومثوبته من غير نصيب من المخلقين ولا وسيلة .

(١) من هنا ظهر أن التشبي فيؤمن بجواز رؤية الله في الآخرة ، أما رؤيته في الدنيا فإنه يقول في الرسالة ص ١٧٥ : (الأقوى أنه لا يجوز رؤية الله بالأبصار في الدنيا — وقد حمل الإجماع في ذلك) .

(٢) آية ٤٢ سورة النجم .

(٣) آية ١٢ سورة السجدة .

وقال: أما المطيعون فنورهم يسرى بين أيديهم وهم على مراكب طاعتهم، والملائكة تلقاهم والحق، قال تعالى: «يومَ نحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَنَاءً» (١) نحْشُرهم، والماصون يَبْقَوْنَ منفردين منفردين، لا يقف لهم العابدون، ويتطوحن في مطاحات (٢) القيامة.

والحق — سبحانه — يقول لهم: عبادي، إن أصحاب الجنة — اليوم — في شغل عنكم، إنهم في الثواب لا يتفرغون إليكم، وأصحاب النار من شدة العذاب لا يرقبون لكم معاشير المساكين.

كيف أتم إن كان أشكالكم وأصباغكم سبقوك؟ وواحد منهم لا يهديكم فأنا أهدىكم. لأنني إن عاملتكم بما تستوجبون... فأين الكرم بمحنتنا إذا كنا في الجفاء مثلهم وهجرناكم كما هجروكم؟

قوله جل ذكره: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلامٌ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾

فالتَّهَمُ الثناء على الله، وذلك في حال لقائهم. وتحيتهم في تلك الحالة من الله: «سلام عليكم» «آخر دعواهم أن الحمد لله»: والحمد هاهنا بمعنى المدح والثناء، فينتون عليه ويمجدونه بحمد أبدى مرمدي، والحق — سبحانه — يحيتهم بسلام أزلي وكلام أبدى، وهو عزيزٌ صديٌّ ومجيدٌ أحمدي.

قوله جل ذكره: ﴿ولو يجعلُ الله للناس الشرَّ استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فسدَّ الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾

أي لو أجبناهم إذا دعوا على أنفسهم عند فيظلم وصجَّروهم لتجلنا إهلاكهم، ولكن

(١) آية ٨٥ سورة مريم.

(٢) المطاح والمطاحة: اسما مكان من طاح، وهو المسلك الوعر المهلك.

تَحْمِلُنَا أَلَا نُجِيبُهُمْ ، ویرحمتنا علیهم لا نسمع منهم دعاءهم . وربما يشكو العبدُ بأن الربَّ لا یجیبُ دعاءه ، ولو علِمَ أنه تركَ إجابتهُ لطفًا منه وأنَّ فی ذلك بلاءٌ لأجابه ، كما قيل :

أَتَلَسُّ أَعْرَضُوا عَنَّا بِلا جُرْمٍ وَلَا مَعْنَى
أَسَاءُوا ظَنَّهُمْ فِينَا فَهَلَّا أَحْسَنُوا الظَّنَّ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا

لَجْنَتِهِ أَوْ فَعِيلًا أَوْ فَعَمًّا فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا
إِلَى غُرْمِهِ كُنْثَى زُيْنٍ لِلْمُفْرِقِينَ
مَا كَانُوا يَصْلُونَ ﴾

إذا امتحنَ العبدُ وأصابه الضُّرُّ أزعجته الحالُ إلى أن يرومَ التخلصَ مما ناله ، فيعلمُ أنَّ
غيرَ الله لا ينجيه ، فتحمله الضرورةُ على صِدْقِ الالتجاءِ إلى الله ، فإذا كَشَفَ اللهُ عنه
ما يدعوه لِأَجْلِ شَقَّتِهِ راحةُ الخلاصِ عن تلكِ الحالة ، ورَأَى لَهُ ذَلِكَ الْإِتْيَاعَ ، وصار كأنه لم
يكن في بلاءٍ قط :

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَمَرَ يَوْمًا إِذَا كُنِيَ وَلَمْ يَكُ صُلُوكًا إِذَا مَاتَ وَلَا

وقال بلاءٌ يُلْجِئُكَ إِلَى الْإِتْنَابِ بَيْنَ يَدَيِ مَعْبُودِكَ أَجْدَى لَكَ مِنْ عَطَاءِ بَنِيكَ
ويكفيكَ عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ

قَبْلِكَ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

أخبر الحقُّ سبحانه بإهلاكِ الظالمين ، كما في الظاهر : « لو كان الظلمُ بينًا في الجنة لسلطَ اللهُ
عليه الخراب » . والظلمُ وَضْعُ الشيء في غير موضعه ، فإذا وَضَعَ العبدُ قصده - عند حوائجه -
في الخلوقة ، وتعلَّق قلبه بهم في الاستماعة ، وطلَّب المأمول فقد وَضَعَ الشيء في غير موضعه ،

وهو ظلم ، فعقوبة هذا الظلم خراب القلب ، وهو السداد طريق رجوع ذلك القلب إلى الله ؛
لأنه لو رجع إلى الله لأعانة وكفائه ، ولكنه يُصِرُّ على تعليق قلبه بالخلق فيبقى عن الله ،
ولا ترفع حاجته من غيره ، وكان من قرره وحاجته في مصرّة . فإن صار إلى مضرة الملة
والحاجة إلى التّمسك فذلك محنة عظيمة .

وعلى هذا القياس إذا أحبّ مخلوقاً فقد وَضَعَ محبته في غير موضعها ، وهذا ظلم ؛ وعقوبته
خرابُ روحه لعدم صفاء وده وحبته لله ، وذهاب ما كان يحميه من الأُنس بالله ، إذا بقي
عن الله يَدُيقُه الحقُّ طعم المخلوقين ، فلا له مع الخلق سلوة ، ولا من الحق إلا الجفوة ،
وعدم الصّفة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾
مُعرفناكم بِسِرٍّ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وما أصابهم بسبب ذنوبهم ، فإذا اعتدّتهم بهم نَجَّوْهُمْ ،
ومن لم يَتَّعِزَّ بما صحبه اعتبر به من تبعه .

ويقال أحلناهم من العقوبة ما يعزّيكُم ، ومن لم يَتَّعِزَّ بَمَنْ سَبَقَهُ اعتبر به مَنْ لَحِقَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَاقٍ مِنْهُمَا اتَّخَذَ آيَاتُهُمْ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

قال الذين لَا يَرْجُونَ عِصْيَانَنَا إِنَّمَا
بِقَرَارِهِ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ
لِي أَنْ أَبَدَّلهُ مِنْ تِلْكَ نَفْسِي إِنْ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِيَّائِي أَخْلَفْتُ
إِنْ كَسَبَتْ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴾

إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم تأمركَ به ، أو تُرِيَهُمْ ما لم تُظْهِرْ عليك من الآيات ..
فأخبرهم أنّك غير مُسْتَقْلِلٍ بِكَ ، ولا موكلٍ إليك ؛ فنحن القائمُ عليك ، المصْرَفُ لك ،
وأنت المتَّعِمُ لما نُعْزِبه عليك غير مُبْتَدِعٍ لِمَا يَحْصُلُ مِنْكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ نَوَشاءُ الله ما تَلَوْنَهُ عَلَيْكُمْ
ولا أَدْرَاكُمْ بِهِ نَقْدَ لَيْتِنْتَ فِيكُمْ
عُرْ آتِينَ قِيلَهُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قد عِشْتُ فِيكُمْ زَمَانًا ، وعَرَقْتُ أحوالِي فَيَا تَطْلُبُونَ مِنِّي عَلَيْهِ بِرَهَانًا^(١) ،
فَاأَلْفَيْتُمُونِي (...)^(٢) بل وَجَدْتُمُونِي فِي السَّادِّ مُسْتَعِيًّا ، وَالرَّشَادِ مُسْتَدِيًّا ، فَلَوْلَا أَنَّ
الله تَعَالَى أَرْسَلَنِي ، وَلَوْلَا حِمْلَتْنِي مِنْ تَكْلِيفِهِ أَهْلَتْنِي لَمَا كُنْتُ بِهَذَا الشَّرْعِ آتِيًّا وَلَا لِهَذَا
الْكِتَابِ تَالِيًّا .

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » مَا لَكُمْ تَمَرِّضُونَ ؟ وَلَا لِأَنْفُسِكُمْ تَنْظُرُونَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ أَكْبَرُ مِنْ أَفْعَى عَلَى اللهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُغْلِبُ
الْمُجْرِمُونَ ﴾

الْكُذْبُ فِي الشَّرْعِ قَبِيحٌ ، وَإِذَا كَانَ عَلَى اللهِ فُحْرٌ أَقْبَحُ .
وَمِنْ اللَّفْظَيْنِ عَلَى اللهِ : الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا لَيْسُوا فِيهِ صَادِقِينَ ، وَجَزَائِمُ
أَنْ يُحَرِّمُوا ذَلِكَ أَبَدًا ، فَلَا يَصِلُونَ إِلَى شَيْءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ يَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا
عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهُ بِمَا
لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ذَمُّهُمْ عَلَى مِیَادَةِ مَا لَيْسَ مِنْهُمْ ضَرٌّ وَلَا نَفْعٌ .
فَدَلِيلُ الْخَطْلَابِ يَقْتَضِي أَنَّ يَكُونَ الْمَبْعُودُ مِنْهُ الضَّرُّ وَالنَّفْعُ ، وَمِنْ فَرْطِ غِيَاوَتِهِمْ أَنَّهُمْ

(١) أَيْ لِمَاذَا تَطْلُبُونَ الْآنَ مِنْ بَرَهَانًا عَلَى شَيْءٍ أَنْتُمْ عَرَقْتُمُوهُ عَنْ مِنْ قَبْلِ وَهُوَ صَدَق ؟
(٢) مُسْتَعِيَّة .

انتظروا في المآلِ الشفاعةَ ممن لا يوجدُ منه الضرُّ والنفعُ في الحال . ثم أخبر أنهم يجيرون عما ليس على الوجه الذي قالوا معلوماً ، ولو كان كما قالوا كَلِمُوا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَعْرُبُ عَنْ عِلْمِهِ ^(١) معلومٌ .

ومعنى قوله : « لا يعلم » : خلافه . وَمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالْمَخْلُوقِينَ فِي اسْتِدْفَاعِ الْمَضَارِّ واستعجاب المسارِّ فكالمسالكِ سبيلٌ مِنْ عَيْدَةِ الْأَصْنَمِ ؛ إِذِ الْمُنْشِئُ وَالْمَوْجِدُ لِلشَّيْءِ مِنَ الْعَدَمِ هو الله — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ فَاخْتَلَفُوا ۚ ۝ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ ۚ ۝ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت

من ربك لفُتِحَ بينهم فيما فيه

يختلفون .

وذلك مِنْ زَمَانٍ آتَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَنْ تَحَارَبُوا ، وَالْحَقُّ — سبحانه — سَبَقَ قَضَاؤُهُ بتأخير حسابهم إلى الآخرة ، ولذلك لَا يُجِيبُهُمْ إِلَى مَا يَسْتَسْطِنُونَهُ مِنْ قِيَامِ الْقِيَامَةِ .

وإِنَّمَا اخْتَلَفُوا لِأَنَّ اللَّهَ خَصَّ قَوْمًا بِعَنَانِيهِ وَقَبُولِهِ ، وَآخَرِينَ بِإِهْمَاتِهِ وَإِعْبَادِهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا كَانَتْ بَيْنَهُمْ هَذِهِ الْخَالَفَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلُّ ۖ إِنَّمَا الضَّيِّبُ اللَّهُ فَانظُرُوا ۚ ۝ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴾ .

رَبِّهِ قُلُّ ۖ إِنَّمَا الضَّيِّبُ اللَّهُ فَانظُرُوا

إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ .

أخبر أنه — عليه السلام — فِي سِتْرِ السَّيِّئَةِ وَخَفَاءِ الْأَمْرِ عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ لِقِصَاصِ عِلْمِهِ عما سيحدث ، فهو فِي ذَلِكَ بِمَنْزِلَتِهِمْ ، إِلَّا فِي مَوَاطِنِ التَّخْصِصِ بِأَنْوَارِ التَّرِيفِ ، فَكَمَا أَنَّهُمْ

فِي الْإِنْتَظَارِ لِمَا يَحِثُّ فِي الْمُسْتَأْنَفِ فَهُوَ أَيْضًا فِي إِنْتِظَارِ مَا يَوْجِدُ — سبحانه — مِنْ الْقَادِرِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَبَيْنَهُمْ أَنَّهُ يَشْهَدُ مَا يَحْصِلُ — سبحانه — وَمِنْهُ ، وَهُمْ مُنْطَوِّحُونَ

فِي أَوْدِيَةِ الْجَهَنَّمَ ؛ يُجَلِّوْنَ الْأَمْرَ مَرَّةً عَلَى الدَّهْرِ ، وَمَرَّةً عَلَى النَّحْمِ ^(٢) ، وَمَرَّةً عَلَى الطَّبَعِ . .

وَكُلُّ ذَلِكَ حَيْرَةٌ وَهَمٌّ .

(١) وودت (عله) وهي خطأ في النسخ .

(٢) المقصود بالنجم هنا الطالع والحظ من نحس وسعد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَدْفَأْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ
ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ
فِي آيَاتِنَا قُلُوبٌ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ
رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

يعنى إذا أصابهم ضرٌّ ومحنة فرحنهم وكشفنا عنهم ، أحوال الأمر على غيرنا ، وتوهموه
بما هو سوانا مثل قولهم : مُطْرِنًا بنوء كذا ، ومثل قولهم إن هذه سعادة نَحْمُ أو مساعدة دولة
أو تأثيرُ فلَكٍ أو خيراتُ دهر .

فهذا كان مكرهم أما مكر الله — سبحانه — بهم فهو جزاؤهم على مكرهم . والإشارة
في هذا أنه ربما يكون للريد أو الطالب حجة أو فقرة . . . فإذا جاء الحق بكشف
أو تبطل أو إقبال فمن حقهم ألا يلاحظوها فضلاً عن أن يساكنوها^(١) ، لأنهم إذا لم يرتقوا
عن ملاحظة أحوالهم إلى الغيبة بشهود الحق مكر الله بهم بأن شنتهم في تلك الأحوال من
غير تركٍ عنها أو وجود زيادة عليها ، وهذا مكرهم بقواصمهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهِيَ الَّتِي يُسِيرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
حَتَّى إِذَا كُنْتَ فِي ظُلُمٍ وَجْهٍ
بِهِمْ يَرْجِعُ طَبِيعٌ وَفَرَحُوا بِمَا جَاءَتْهَا
رِيحٌ طَافِيفٌ وَجَلَدَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا
مِنْ هَٰذَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

يريد أنهم يصيحبون في النعم يبرون أنيالهم ، ثم يمسون يكون ليلاً لهم . وقد يبيتون
وبالهجة مكثتهم ثم يصحبون وخفايا التقدير أهلكتهم ، وأنشدوا :

(١) نفهم من هذا أن (الملاحظة) أخف من (اللبا كنة) وكتاتبا من آتت الطريق ، يلح التشيرى
دائماً على التحذير منها ، وقد بالغ أهل الالامة في توضيح أضرارها — كما تفيد بذلك النصوص التي رواها
عنهم في (رسالته) .

أَقْتَرْنَا زَمَانًا وَالْعَيُونُ قَوْرَةٌ وَأَصْبَحَتْ يَوْمًا وَالْجَفَرُونَ سَوَاقِلُ

فإذا رجعوا إلى الله بإخلاص السماء يجود عليهم بكشف البلاء .

فلما أُنْجِمُوا بِالْإِجَابَةِ لِسَطِّهِمْ إِذَا هُمْ إِلَى غَيْرِهِ ^(١) يَرْجِعُونَ، وعلى مناهجهم - في تهمدهم بسلوكهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَتَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ بِبَنِينَ فِي الْأَرْضِ

بَنِينَ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَنَيْنَاكُمْ

عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ

إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُبُّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

تَسْلُونَ ﴾

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَنَيْنَاكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » معناه : « نَمَتُّكُمْ أَيَّامًا قَلِيلًا ، ثُمَّ تَلْقَوْنَ ^(٢) غَيْبًا

فَكَمْ وَتَبْدَأُونَ تَقْسُونَ عَذَابًا طَوِيلًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ

مِنْ السَّمَاءِ فَخُتِلَتْ بِهِ نَبَاتٌ الْأَرْضِ

فَمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا

أَخْلَقَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ

وُطُنٌ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ فَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أَمْرٌ نَالِيًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

كَانَ لَمْ تَقْنِ بِالْأَمْسِ كُنْكَ نَفْصُلُ

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

شِبْهَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِالْمَاءِ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ يَنْبُتُ بِهِ النَّبَاتُ وَتَخْضَرُّ الْأَرْضُ وَتُظْهِرُ الْخَلْقَ ،

وَيُوطِنُ أَرْبَابُهَا عَلَيْهَا أَنْفُسَهُمْ ، فتصيبهم جائحة سماوية بقتة ، وتصير كأن لم تكن .

كنكك الإنسان بعد كمال منته وتعام قوته واستجماع الخصال المحمودة فيه تخضرته البنية ،

وكنكك أموره المنتظمة تبطل وتختل بوفاته ، كما قيل :

(١) وردت (هيرم) والأكثر ملازمة السياق أن تكون (هيرم) .

(٢) وردت (يلقون) وهي خطأ في النسخ لعدم اتفاقها مع أسلوب الخطاب .

فَقَدْ نَاهُ لَمَّا نِمَّ وَاخْتَمَّ بِاللَّيْلِ كَذَلِكَ كَسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ
وَمِنْ وَجْهِ تَشْبِيهِ الْأَحْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِالْمَاءِ لِلتَّزَكِّيِّ مِنَ السَّمَاءِ أَنَّ لِلطَّرِّ لَا يَنْزِلُ بِالْحَيَاةِ ،
كَذَلِكَ الدُّنْيَا لَا تَسَاعِدُهَا إِلَّا الْقِسْمَةُ .
ثُمَّ إِنَّ لِلطَّرِّ إِنْ كَانَ لَا يَجِيءُ إِلَّا بِالتَّقْدِيرِ فَقَدْ يُسْتَسْقَى . . كَذَلِكَ الرِّزْقُ — وَإِنْ كَانَ
بِالْقِسْمَةِ — فَقَدْ يُلْتَمَسُ مِنَ اللَّهِ وَيُسْتَعْطَى .

وَمِنْهَا أَنَّ لِلْمَاءِ فِي مَرَضِهِ سَبَبُ حَيَاةِ النَّاسِ ، وَفِي غَيْرِ مَرَضِهِ سَبَبُ خَرَابٍ لِلْوَضْعِ ،
كَذَلِكَ الْمَالُ لِمُسْتَحْتَقِهِ سَبَبُ سَلَامَتِهِ ، وَاتِّفَاعِ الْمُتَصَلِّينَ بِهِ ، وَعِنْدَ مَنْ لَا يَسْتَحْتَقُهُ سَبَبُ طُغْيَانِهِ ،
وَسَبَبُ بِلَادٍ مَنْ هُوَ مُتَصِلٌ بِهِ ، كَمَا قِيلَ : نَيْمُ اللَّهِ لَا تُعَابُ وَلَكِنَّهُ رَجَعَا اسْتَجَبَ عَلَى إِنْسَانٍ ،
وَكَمَا قِيلَ :

يَادُولَةٌ لَيْسَ فِيهَا مِنْ الْمَالِ شَيْئَةٌ زَوْلَى فَا أَنْتِ إِلَّا عَلَى الْكَرَامِ بَيْئَةٌ

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ بِمَقْدَارٍ كُنَّ سَبَبَ الصَّلَاحِ ، وَإِذَا جَاوَزَ الْحَدَّ كُنَّ سَبَبَ الْغُرَابِ . .
كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا كَانَ بِقَدَرِ الْكَفَايَةِ وَالْكَفَافِ فَصَاحِبُهُ مُنَمَّمٌ ، وَإِذَا زَادَ وَجَلَّوَزَ الْحَدَّ
أَوْجَبَ الْكُفْرَانَ وَالطُّغْيَانَ .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ مَا دَامَ جَارِيًا كَانَ طَيِّبًا ، فَإِذَا طَالَ مَكْنُهُ تَغَيَّرَ . . كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا أَتَقَفَ
صَاحِبُهُ كَانَ مَحْجُودًا ، فَإِذَا ادَّخَرَهُ وَأَمْسَكَ كَانَ مَمْلُوكًا مَذْمُومًا .

وَمِنْهَا أَنَّ الْمَاءَ إِذَا كَانَ طَاهِرًا كَانَ حَلَالًا يَصْلَحُ لِلشُّرْبِ وَيَصْلَحُ لِلطَّهْرِ وَلِإِزَالَةِ الْأَذَى ،
وَإِذَا كَانَ غَيْرَ طَاهِرٍ فَطَاهِرٌ فَبِالْمَكْسِ . . كَذَلِكَ الْمَالُ إِذَا كَانَ حَلَالًا ، وَبِكِهِ لَوْ كَانَ حَرَامًا .

وَيَقَالُ كَمَا أَنَّ الرَّبِيعَ تَنَوَّدُ أَشْجَارُهُ ، وَتَطْهَرُ أَنْوَارُهُ ، وَتُخْضَرُ رِبَاعُهُ ، وَتَزِينُ بِالْأَنْبَاتِ
وَهَازِهِ وَبَلَاغِهِ ، لَا يُؤْمَنُ أَنْ تُصِيبَهُ آفَةٌ مِنْ غَيْرِ ارْتِقَابٍ ، وَيَتَقَلَّبُ الْحَالُ بِمَا لَمْ يَكُنْ
فِي الْحِسَابِ . كَذَلِكَ مَنْ النَّاسِ مَنْ تَكُونُ لَهُ أَحْوَالٌ صَافِيَةٌ ، وَأَعْمَالٌ بِشَرِّهَا مُتَلَوِّصَةٌ زَاكِيَةٌ ؛
غُصُونُ أَهْلِهِ مُتَدَكِّئَةٌ ، وَرِيَاضُ قُرْبِهِ مَوْفَقَةٌ . . ثُمَّ تُصِيبُهُ عَيْنٌ فَيَنْبِلُ عَوْدُ وَصَالِهِ ، وَتُفْسِدُ أَبْوَابُ
عَوَائِدِ إِقْبَالِهِ ، كَمَا قِيلَ :

عَيْنٌ أَصَابَتْكَ إِنْ الْعَيْنَ صَافِيَةٌ وَالْعَيْنُ تُسْرِعُ أَحْيَانًا إِلَى الْخَسْرِ

قوله جل ذكره : ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيُنْزِلُ

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

دعاهم إلى دار السلام ، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام ؛ وهو اعتناق أوامره والالتزام عن زواجه . والدعاهم من حيث التكليف ، وتخصيص الهداية لأهلها من حيث التشريف .

وقال الدعاهم تكليف والهداية تريف ؛ فالتكليف على العموم والتريف على الخصوص .

ويقال التكليف بحق سلطانه ، والتريف بحكم إحسانه .

ويقال الدعاهم قوله والهداية طوره ؛ دَخَلَ السَّكَنُ تَحْتَ قَوْلِهِ ، وانفرد الأولياء بتخصيص طوره . دار السلام دار الله لأن السلام اسم من أسماءه .

ويكون السلام بمعنى السلامة فهي دار السلامة أى أهلها سالمون فيها ؛ سالمون من الفرقة وسالمون من الفرقة ؛ سلموا من الحرة فحصلوا على لذة عطائه ، وسلموا من الفرقة فوصلوا إلى عزيز لقاؤه .

ويقال لا يصل إلى دار السلام إلا من سَلِمَتْ نَفْسُهُ عَنِ السُّجُودِ لِلصَّنَمِ ، وَسَلِمَ قَلْبُهُ عَنِ الشُّرْكِ وَالظُّلْمِ .

ويقال تلك الدار درجات ؛ والتي سَلِمَ قَلْبُهُ عَنِ حَبَّةِ الْأَغْيَارِ دَرَجَتُهُ أَعْلَى مِنْ دَرَجَةِ مَنْ سَلِمَتْ نَفْسُهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَضَارِ .

ويقال قوم سلمت صدورهم من الغل والحسد والحقد ؛ وَسَلِمَ الْخَلْقُ مِنْهُمْ ؛ فليس بينهم وبين أحد محاسبة ، وليس لهم على أحد شيء ؛ فالسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمحسن من سلم الخلق بأجمعهم من قلبه .

«انصراط المستقيم» : طريق المسلمين ، فهذا للعوام بشرط علم اليقين ، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين ، ثم طريق المحسنين وهو طريق خاص الخواص بشرط حق اليقين ؛ فهؤلاء بنور العقل أصحاب البرهان ، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب

البيان ، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف^(١) كالبيان ، وهم الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم :
« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » .

قوله جل ذكره : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَ وَزِيَادَةً » .

« أحسنوا » : أى يَحْمِلُوا وأحسنوا إذ كانت أفعالهم على مقتضى الإذن .

ويقال « أحسنوا » : لم يَقْصُرُوا فى الواجبات ، ولم يَحْمِلُوا بالمتنويات .

ويقال « أحسنوا » : أى لم يَبْقَ عليهم حق إلا قاموا به ، وإن كان حق الحق فَمِنْ غير تقصير ، وإن كان من حق الخلق فأداءه من غير تأخير .

ويقال « أحسنوا » : فى المال كأحسنوا فى الحال ، فاستدما بما فيه واستقاموا ، والحسن الذى لم يه الجنّة وما فيها من صنوف الثم .

ويقال الحسن فى الدنيا توفيق يهوام^(٢) ، وتحقيق بتمام ، وفى الآخرة غفران مُعَجَّل ، وعبان على التأييد^(٣) مُحْصَل .

قوله : « وزيادة » : فعلى موجب الظهر وإجماع السلف النظر إلى الله . ويحتمل أن تكون « الحسى » : الرؤية ، « والزياة » . دوامها . ويحتمل أن تكون « الحسى » : القاء ، « والزياة » : البقاء فى حال القاء .

ويقال الحسى عنهم لامقطوعة ولا ممنوعة ، والزياة لم لا عنهم محجوبة ولا مسلوقة .

قوله جل ذكره : « وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَدَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ »

أولئك أصحاب الجنة هم فيها

خالدون ﴿ ٢٠ 〉

لا يقع عليهم غيرُ الحجاب ، ويكبه حديث الكفيل حيث قال : « وجوه يومئذ عليها غيرة » .

(١) (المعرفة بالوصف) استلزام هام جداً ، حق لا يظن أن (البيان) يستلزم من (الافان) الصدية ، وإنما يقتصر الأمر على (مرقان الأوصاف) الإلهية كالجلال والجلال والكرم . . إل آخره .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « خير العمل أدومه وإن قل »

(٣) (التأييد) معناه إلى الأبد فهم فى الجنة خالدون أبداً ، وستأتى لفظة (التأييد) فى القربة أيضاً بعد قليل .

« والذلة التي لا تصيبهم أى لا يردوا من غير شهيد إلى رؤية غيره ، فهم فيها خاللون
في فنون أفضالهم ، وفي جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جِزَاءً مِثْلَهُ
بِمِثْلِهِمْ وَرَهُهُمْ ذَلَّةٌ مُلَمَّةٌ مِّنَ اللَّهِ
مِنْ عِلْمِهِمْ كَانُوا أُغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ
قَطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

والذين كسبوا السيئات وعملوا الزلات لم جزاء سيئة مثلاً ، والباء في « بمثلها » :
صلة أى لواحد واحد .

« وترهتهم ذلة » : هو تأييد العقوبة .

« ما لهم من الله من علم » أى ما لهم من عنايه من علم ، سيئوا ذل المجلب ،
ومنوا بتأييد العذاب ، وأصابهم هوان البعاد . وآثار المجلب على وجوههم لأثمة فإن
الأميرة تدل على السرية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاءً ثُمَّ
لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ
وَشُرَكَائِكُمْ ، فَزَيْلًا يَنْهَمُونَ وَقَالُ
شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ لِإِنَّا تَعْبُدُونَ •
فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن
كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴾

يجمع بين الكفار والأصنام التي عبدوها من دون الله ، فنقول الأصنام : ما أمرناكم
بعبادتنا . فيدعون على الشياطين التي أطاعوها ، وعلى الأصنام التي أمرتهم أن يعبدوها ،
وقول الأصنام : كفى بالله شهيداً ، على أننا لم نأمركم بذلك ، إذ كننا جاداً . وذلك لأن
الله يُحييها يوم القيامة ويُنطقها .

وفي الجملة ... يتبرأ بعضهم من بعض ، ويندق كلٌّ وبالِ فعله .
 وفائدة هذا التبريد أنه ما ليس لله فهو وبالٌ عليهم ؛ فاشتغلهم — اليوم — بذلك
 محال^(١) ، ولم في المآل — من ذلك — وبالٌ ..

قوله جل ذكره : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ
 مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ
 الْحَقُّ ، وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴾

إنما يقفون على خسراتهم إذا ذاقوا طعمَ هوانهم ؛ فإذا رُدُّوا إلى الله لم يجدوا
 إلا البعدَ عن الله ، والطردَ من قِبَلِ الله ، وذلك جزاء من آثر على الله غيرَ الله .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
 وَالْأَبْصَارَ ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ
 مِنَ اللَّيْتِ وَيُخْرِجُ اللَّيْتَ مِنَ
 الْحَيِّ ، وَمَنْ يَدْبُرُ الْأُمُورَ فَيَقُولُونَ
 اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

كما توحَّد الحقُّ — سبحانه — بكونه خالقاً تفرَّد بكونه رازقاً ، وكالا خالقٍ سواء
 فلا رازقٍ سواء .

ثم الرزق على أقسام : فلاشباح رزق : وهو لقوم توفيق الطاعات ، ولآخرين
 خذلان الزلات . وللأرواح رزق : وهو لقوم حقائق الوصلة ، ولآخرين — في الدنيا —
 الغفلة وفي الآخرة العذاب والمهلة .

« أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ » : فيشكل بعض الأبصار بالتوحيد ، وبعضها يعميها
 من التحقيق .

(١) المحال هنا معناها ما محذور به عن وجهه (أنظر هنا للمنى في الوسيط) .

« ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن .

« فسيقولون الله : ولكن قلنا ... لا عن بصيرة ، ولطفاً ... لا عن تصديق سريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَإِذَا بَدَأَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ ﴾

ما يكون من موضوعات الحق ، ومتعلقات الإرادة ، ومتنولات المشيئة ، ومجئسات التقدير ، ومصرفات القدرة — فهي أشباح خلوية ، وأحكام التقدير عليها جارية .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

سبق لهم الحكم ، وصدق فيهم القول ؛ فلا يلحقه تحويل ولا قوله تبديل ، فإن العلل^(١) لا تتغير الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُو أَنْ تَخْلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ قُلِ اللَّهُ يَدْعُو أَنْ تَخْلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُفَكِّهُونَ ﴾

كشفت قبيح ما افطوت عليه عقائدكم من عبادتهم ما لا يصح منه الخلق والإعادة ، وأثبت أن المعبود من الخلق والإعادة .

قوم جعلوا له في الإيجاد شركاء بدعوى القدر ، وقوم منعوا جواز قدرته على الإعادة . وكل هذا جنوح إلى الكفر وذهاب عن الدين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ أَمَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَلْتَمِذُ لَهَا ؟ فَمَا لَا تَحْكُمُ بِهِ أُولَئِكَ بِمُنْزِلَةِ رَبِّكَ فَاعْلَمُوا ﴾

(١) أي — حسب مذهب الفسري — أحكام الله السابقة لا تتغير لمة ، غير أننا لا نستبعد أنها (الحيل) جمع حيلة ، فليس بتدبير الإنسان يتغير الحكم السابق في الأزل .

لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ فَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١﴾

الحقُّ اسمٌ من أسمائه سبحانه ، ومعناه أنه موجود ، وأنه ذو الحق ، وأنه مُحِقُّ الحقِّ .
والحقُّ من أوصاف المخلوق ما حَسُنَ فعله وصَحَّ اعتقاده وجزا التلق به .

« والله يهدي للحق » : أى إلى الحق هدايته . وهداه له وهداه إليه بمعنى ؛ فَمَنْ هَدَاهُ
الْحَقُّ لِلْحَقِّ وَهَدَاهُ عَلَى الْحَقِّ ، وَعَزَّزَهُ مِنْ هَدَاهُ الْحَقُّ إِلَى الْحَقِّ لِلْحَقِّ ، قَالَه نَصِيبٌ
وَمَا لَهُ حَقٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ
الظَّنَّ لَا يُفْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

الظَّنُّ : يَأْتِي الْيَقِينَ ، فَإِنَّهُ تَوْجِيحٌ أَحَدُ طَرَفَيْ الْحُكْمِ عَلَى الْآخَرِ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ .
وَأَرْبَابُ الْحَقَائِقِ عَلَى بَصِيرَةٍ وَقَطْعٍ ؛ فَالظَّنُّ فِي أَوْصَافِ الْحَقِّ مَطْلُوعٌ ، وَالْقَطْعُ
— فِي أَوْصَافِ النَّفْسِ — لِكُلِّ أَحَدٍ مَطْلُوعٌ . وَالْعَبْدُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي الْحَالِ خَالِيًا عَنْ
الظَّنِّ إِذْ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ غَيْبَ نَفْسِهِ فِي مَا كَفَهُ .

وَفِي صِفَةِ الْحَقِّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ عَلَى قَطْعٍ وَبَصِيرَةٍ ؛ فَالظَّنُّ فِي اللَّهِ مَطْلُوعٌ ، وَالظَّنُّ
فِي مَا مِنْ اللَّهِ غَيْرُ مَحْمُودٍ . وَلَا يَجُوزُ بَوَاحٍ مِنَ الْوُجُوهِ أَنْ يَكُونَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِهِ سَبْعَانَهُ — فِيمَا
يَعُودُ إِلَى صِفَتِهِ — عَلَى الظَّنِّ ، كَيْفَ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا أَمْرُ نَبِيِّهِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَنْ
يَقُولَ : « ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » ^(١) ؟ وَكَأَقْلَانَا ^(٢) :

طَلَعَ الصَّبَاحُ فَلَاتَ حِينَ سَرَّاجٍ . وَأَتَى الْيَقِينَ فَلَاتَ حِينَ حَبَّاجٍ
حَصَلَ الَّذِي كُنَّا نَقُولُ نَيْلُهُ مِنْ عَقْدِ أَلْوَيْهِ وَحُلُّ رَنَاجٍ

(١) آية ١٠٨ سورة يوسف .

(٢) الشعر هنا للتشبيهِ نفسه كما يستفاد من عبارة .

والبعد قَوْضَ بِالذُّنُو خِيامه والوصلُ وَكَدَّ سَجَلَه بِسِلَاجٍ^(١)
قَدْ حَانَ عَهْدُ السُّرُورِ فِهَيْلَا لمواجم الأحراف بالإزجاج

قوله جل ذكره: ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترى
من دون الله ولكن تصديق الذي
بين يديه وتفصيل الكتاب لاربي
فيه من رب العالمين﴾

اعلمت بصائرهم فلا يزدادون بكثرة سماع القرآن إلا عى على عى، كما أن أهل الحقيقة
ما زادوا إلا هدى على هدى، فسبحان من جل سماع خطابه لقوم سبب تحييرهم، ولآخرين
موجب تبصيرهم

قوله جل ذكره: ﴿أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة
مِثْلِهِ وادعوا من استعلم من دون
الله إن كنتم صادقين﴾

كلت الترائع، وسندت نيران الفصاحة، واعترف كل خطيب مصقع بالعجز من
معارضة هذا الكتاب، فلم يتعرض لمعارضته إلا من اخضع في فائه.

قوله جل ذكره: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا به
ولم يأتهم تأويله كنظرك كذب
الذين من قبلهم فانظر كيف كان
عاقبة الظالمين﴾

قابلوا الحق بالكذب لتقصير علومهم عن التحقيق، فالتحقيق من شرط التصديق،
وإنما يؤمن بالغيب من لوح — سبحانه — قلبه حقائق البرهان، وصرف عنه
دواعي الريب.

(١) السجل = الدلو المطوية، والسنج = جل يشد في أسفل الدلو المطوية (المنجد).

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ كَفِرَ﴾

لَا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْفَاسِدِينَ ﴿١٠﴾

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَمِنْهُمْ الَّذِينَ كَفَلَ الْحَقُّ أَبْصَارَ قُلُوبِهِمْ بِنُورِ الْيَقِينِ ، وَالَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَمِنْهُمْ الَّذِينَ دَسَمَ قُلُوبَهُمْ بِالْمَسَى فَنَزَلُوا — بِالضَّلَالَةِ — عَنِ الْهُدَى . . . تِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ فِي الْعَالَمِينَ ، وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ

وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ

وَأَنَا بِرَبِّي مِمَّا تَكْفُرُونَ ﴿١١﴾

بَرِّحَ الْخَلْفَاءَ ، وَاسْتَبَانَ الْخَفَائِقَ ، وَامْتَازَ^(١) الطَّرِيقَانَ ، فَلَا الْحَسَنُ يُجْرِمُ الْمُسِيءَ مُعَاقِبٌ ، وَلَا الْمُسِيءُ يُجْرِمُ الْحَسَنَ مُعَاقِبٌ ، كُلٌّ عَلَى حِدَّتِهِ بِمَا يَسْلُكُ وَعَلَى مَا يَنْفَعُهُ مُحَاسَبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ السَّمْعَ وَلَوْ كَانُوا

لَا يَسْمَعُونَ ۖ ﴿١٢﴾

مَنْ اسْتَمَعَ بِشَكْلِهِ أَزْدَادًا فَيَتَخَلَّفُهُ بِزِيَادَةِ تَصَرُّفِهِ ، وَمَنْ اسْتَمَعَ الْحَقُّ بِتَفَضُّلِهِ — سُبْحَانَهُ — اسْتَفَى فِي إدْرَاكِهِ عَنْ تَعَمُّلِهِ . وَالْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — يُسْمِعُ أَوْلِيَاءَهُ مَا يَنْجِيهِمْ بِهِ فِي أَسْرَارِهِمْ ، فَإِذَا سَمِعُوا دَعَاءَ الْوَاسِطَةِ^(٢) تَابَلَوْهُ بِالْقَبُولِ لِمَا سَمِعُوا لَمْ مِنْ اسْتِغَاةِ الْحَقِّ . وَمَنْ عَدِمَ اسْتِغَاةَ الْحَقِّ لَوَاهٍ مِنْ حَيْثُ التَّفَهِيمِ لَمْ يَزِدْهُ سَمَاعُ الْخَلْقِ إِلَّا جَعَلَهُ عَلَى جَعْدٍ ، وَلَمْ يَحْظَ بِهِ إِلَّا بُعْدًا عَلَى بُعْدٍ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي

الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ۖ ﴿١٣﴾

مَنْ سُدَّتْ بَصِيرَتُهُ بِالْغَفْلَةِ الرَّغْبِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ إدْرَاكُ الْبَصَرِ إِلَّا حِجْبَةً عَلَى حِجْبَةٍ ، وَمَنْ

(١) (امتاز) هنا معناه اتمتع الفرق بينها .

(٢) التصود بالواسطة التي عليه الصلاة والسلام .

لم ينظر إلى الله بالله ، ولم يسمع من الله بالله ، فصاروا العمى والصمم ، « فإنها لا تسمى الأبصار
ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » (١) وقال عليه السلام فيما أخبر عن الله : « فني يسمع
وفي يبصر » (٢)

وأشد تألمهم :

تأمل بين الحق إن كنت ناظراً إلى منظر منه إليه بسود

قوله جل ذكره : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ
النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

فني عن نفسي ما يستحيل تقديره في نفسي ، وكيف يوصف بالظلم وكل ما يتوهم أن
لو قلته كان له ذلك ؟ إذ الحق حقه وللك ملكه . ومن لا يصح تقدير قبس منه
— أتى يوصف بالظلم جوازاً أو وجوباً ؟

قوله جل ذكره : « وَيَوْمَ يُخْرَجُ الَّذِينَ كَانُوا
إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَزَلَّلُونَ بَيْنَهُمْ
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُتَّقِينَ » .

الأيام والشهور ، والأعوام والدهور بعد مضيتها في حكم اللحظة لمن فكر فيها ،
ومنى يكون لها أثر بعد تقضيها ؟ والآتي من الوقت قريب ، وكان قدر للناسي من الدهر
لم يهتد .

قوله جل ذكره : « وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ تُتَوَفَّيْنِكَ فَآلَيْنَا مَرِجَهُمْ ثُمَّ
اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ » .

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

(٢) « حتى أحبه فلماذا أحبته كمنه التي يبصر بها وبسمه الذي يسمع به ، وبده التي يطش بها .
— حديث قدسي رواه البطاري عن أبي هريرة ، وأحمد عن عائشة .

معناه أن خبره صدق ، ووعده ووعيدته حق ، وبعد النشر حشر ، وفي ذلك الوقت
مطالبة وحساب ، ثم على الأعمال ثواب وعقاب ، وما أسرع ما يكون للمؤمن
شاهداً موحداً !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُ
رَسُولُهُ فَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَمَا يَظْلُمُونَ ﴾ .

لم يخل زماناً من شرع ، ولم يخلو شرعاً من حكم ، ولم يخلو حكماً مما يتقبه من
ثواب وعقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

الاستعجال بهجوم الموعود من أملاك أصحاب التكذيب ، فأما أهل التحقيق فليس
لم لوارد يرد عليهم اشتغال قبل وجوده ، أو استعجال على حين كونه ، ولا إذا
فرد استعجال لما تضمنه حكمه ؛ فهم مطروحون في أسر الحكم ، لا يتحرك منهم
— باختيارهم — عرق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ،
إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ .

المملوك متى يكون له ملك ؟

وإذا كان سيد البرايا — عليه الصلاة والسلام — لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ..
فمن نزلت رتبته ، وقاصرت حالته متى يملك ذرة أو تكون باختياره وإثاره شمة ؟
طالع الذي لم يكن ^(١) — في التحقيق ، وفردة الجبار بنت الملوك .

(١) الذي لم يكن) يقصد بها الحادث من إنسان وحيوان وعين وائر .. الخ .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا أَكُمُ عَذَابُهُ يَآئَاتٍ
أَوْ نَهَارًا تَمَاقَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
الْمُجْرِمُونَ﴾

مَنْ عَرَفَ كَيْلَ الْقُدْرَةِ لَمْ يَأْمَنْ نَجَاةَ الْأَخْذِ بِالشَّدَةِ ، وَمَنْ خَافَ الْبَلَاءَ لَمْ يَسْتَلْذِ الشُّبُهَاتِ .
وَيَقَالُ مَنْ تَوَسَّدَ النُّفْلَةَ أَقْبَلَتْهُ نَجَاةُ الْعُقُوبَةِ ، وَمَنْ اسْتَوْطِنَ مَرْكَبَ الْأُزْلَةِ عَثَرَ فِي
وَهْدَةِ الْحَقَّةِ .

قوله جل ذكره: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَنْتُمْ بِهِ الْآلَانَ
وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾
بعد انتهاك سِتْرِ التَّيْبِ لَا يُقْبَلُ تَضَرُّعُ الْمَعَاذِيرِ .
وَيَقَالُ لَاحِقَةٌ بِعَدِ إِزَاحَةِ الْعَلَّةِ ، وَلَا عَذْرَ بَعْدَ وَضُوحِ الْحُجَّةِ .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ
الْظُلْمِ هَلْ تُخْجَرُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ﴾
لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا نَجْرَ مَا مَنَعَتْ ، وَلَا يَحْصِدُ زَارِعٌ غَلَّةً إِلَّا مَا مَنَعَهُ زَرْعٌ ، وَفِي مَعْنَاهُ ظَلَمُوا:
سَنَنْتَ قَبْلَنَا سَنَنًا قَدَفَ الْبَلَاءِ عَقِبَهُ
يَصِيرُ عَلَى أَهْوَالِهَا مَنْ يَرَى يَوْمًا رَبَّهُ (١)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَتَقُولُ هُوَ قُلْ: إِي
وَدَى إِنَّهُ لَخَلْقٌ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾
صَرَخَ بِالْإِخْبَارِ عِنْدَ اسْتِخْبَارِهِمْ ، وَأَعْلَمَ بِمَا يَزِيلُ الشُّبُهَةَ عَمَّا التَّبَسُّعُ عَلَى جُهَاِلِهِمْ ، وَأَكْدَّ
إِخْبَارَكَ بِمَا تَذَكَّرَهُ مِنَ الْقَسَمِ وَالْيَمِينِ ، مُضَافًا ذَلِكَ إِلَى مَا تُنْفِئُهُ مِنَ التَّيْبِينِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ

(١) الشطر الثاني من هنا البيت مطبوس غير واضح ، ولكنتا اكنتاه حسبما ورد النص
في موضع سبق .

نُصْحُكَ ، ولا يُؤْتَرِ فِيهِمْ وَعُظُّكَ .. كيف لا ؟ وقد جُرِّعُوا شَرَابَ الْحُبَّةِ ، وَوُيِّمُوا بِكَيِّ
الْفُرْقَةِ ؛ فلا بصيرة لهم ولا (. . .)^(١) ولا فهم ولا حصافة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَذُو أَنْ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَّتْ مَا قَى
الْأَرْضِ لَا فَنَاءَ لَهُ وَأَسْرُوا النَّعْمَةَ
لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُتِيَ بَيْنَهُمُ بِالْقِسْطِ
وَمَا لَا يُظْلَمُونَ ﴾

لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا سَرَفٌ^(٢) ، ولا يحصل فيها سَبَقٌ لهم من الوعيد خَلْفَ .
ولاندامة تنفعهم وإن صدَّقوها ، ولا كرامة تنالهم وإن طلبوها ، ولا ظلم يجرى عليهم
ولا خيف ، كلا . . . بل هو الله العَدْلُ في قضائه ، القَرْدُ في علائه نبهت كبريائه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ قُلُومًا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَلَّا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

الحادثات بأسرها لله مِلْكًا ، وبه ظهوراً ، ومنه ابتداء ، وإليه انتهاء ؛ فقولُه حقٌّ ،
ووعده صدقٌ ، وأمره حتمٌ ، وقضاؤه باتٌ . وهو البَلِّ ، وعلى ما يشاء قوىٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ رُجْعُونَ ﴾

يحيي القلوبَ بأنوار المشاهدة ، ويميت النفوسَ بأنواع المجاهدة ، فنفوسُ العابدين تَلْقَاهَا
فنونُ المجاهدات ، وقلوبُ العارفين شرقها عيونُ للشاهدات .
ويقال يحيي مَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ ، ويميت مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ .

ويقال يحيي قلوبَ قومٍ بحمِلِ الرِّجَاءِ ، ويميت قلوبَ قومٍ بِوَسْمِ الْقَنُوطِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ

(١) مثلية .

(٢) السرف هنا معناها مجاوزة الحد .

رَبِّكُمْ وَشِفَاءُ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى
وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾

الموعظة لكافة .. ولكنها لا تنجح في أقوام ، وتنفع في آخرين ؛ فَمَنْ أَصْحَى إِلَيْهَا
بَسَمِعَ سِرَّهُ انْصَحَ نَوْرُ التَّحْقِيقِ فِي قَلْبِهِ ، وَمَنْ أَسْمَعَ إِلَيْهَا بَنَتْ غَيْبَتُهُ مَا تَصِفُ
إِلَّا بِدَوَامِ حُجَّتِهِ .

ويقال الموعظة لأرباب النية لِيَسْتَوُوا ، والشِّفَاءُ لأصحاب الحضور ليطيَّبوا .
ويقال « الموعظة » : للسَّوَامِ ، « الشِّفَاءُ » : للخواص ، « والهدى » : لخاص الخاص ،
« والرحمة » : لجميمهم ، ويرحمته وصلوا إلى ذلك .

ويقال شفاء كلِّ أحدٍ على حَسَبِ دَافِعِهِ ، فشفاء المذنبين بوجود الرحمة ، وشفاء اللطيفين
بوجود النعمة^(١) ، وشفاء العارفين بوجود القرينة ، وشفاء الواجدين بشهود الحقيقة .

ويقال شفاء العاصين بوجود النجاة ، وشفاء اللطيفين بوجود المرحلات ، وشفاء العارفين
بالتقرب والمناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِئْسَ الْفِرْعَاسُ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ .

« الفضل » : الإحسان الذي ليس بواجبٍ على فاعله ، « والرحمة » : إرادة النعمة وقيل
هي النعمة .

والإحسان على أقسام وكذلك النعمة ، ونعمُ الله أكبر من أن تحصى .
ويقال الفضل ما أتاح لهم من الظهورات ، والرحمة ما أراح عنهم من الآفات .
ويقال فضل الله ما أكرمهم من إجزاء الطاعات ، ورحمته مَعْصِيَتُهُمْ بِهِ مِنْ ارْتِكَابِ
الزَّلَّاتِ . ويقال فضل الله دوام التوفيق ورحمته تمام التحقيق .

(١) نظم من مذهب التشيخي أن (الرحمة) من أوصاف القات ، و (النعمة) من أوصاف اللعل . .
فتأمل كيف يرتبط مصير (المذنبين) بوصف من أوصاف ذاته ، ولاحظ كيف يفتح الصوفية بذلك
أبواب الأمل أمام التائبين .

ويقال فضل الله ما يخص به أهل الطاعات من صنوف إحسانه ، ورحمته ما يخص به أهل الزلات من وجوه عقوباته .

ويقال فضل الله الرؤية ، ورحمته إيقاظهم في حالة الرؤية .

ويقال فضل الله المعرفة في البداية ، ورحمته المغفرة في النهاية .

ويقال فضل الله أن أقامك بشهود الطلب ، ورحمته أن أشهدك حقاً بحكم البيان إلى أن تراه غداً بكشف البيان .

قوله : « فبذلك فليفرحوا » أي بما أهلهم له ، لا بما ينكفون من حرّ كلهم وسكناتهم ، أو يصلون إليه بنوع من تكلفهم وتصلهم . « هو خير مما يجمعون » : أي ما تتحشون به من الأحوال الزاكية خير مما يجمعون من الأموال الوافية .

ويقال الذي لك منة — في سابق التسمية — خير مما تنكفئ من صنوف الطاعة والخدمة .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ؟ ﴾ .

يعتفهم ويقرهم^(١) على ما ابتدعوه من التحليل والتحریم ، ويظنّ كذبهم فيما تقولوه من نسبتهم ذلك إلى إذن وشرع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

هنا على جهة التهويل والتنظيم لما أسلفوه من الكذب .

(١) قرع فلانا أي أوجه بالهم والعتاب (المحيط)

ثم قال : « إِنَّ اللَّهَ لَنَرِيكَ فَضْلِي عَلَى النَّاسِ » في إسهالٍ مِنْ أَجْرَمَ ، والصَّغْنَةُ لَيْسَ لَمْ يُجْزِم .
 قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَسْمَعُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ لَّا تُشْفَقُ الذَّرَقُ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

خَوْفَهُمْ بما عرفتهم من اطلاعه عليهم في جميع أحوالهم ، ورؤية ماسيفلونه من فنون أعمالهم . والعلم بأنه يرام يوجب استحياءهم منه ، وهذه حال المراقبة ، والسبب إذا علم أن مولاه يراه استحيى منه ، وترك متابعه هواه ، ولا يحوم حول ما نهاه ، وفي منته أُنشدوا :

كَأَنَّ رَقِيًّا مِنْكَ حَالٌ بِمَجْهِي إِذَا رُمْتُ تَسِيلًا عَلَى تَصَعُّبًا
 وَأُنْشَدُوا :

أَعَاتَبُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي كُلِّ خَصَلَةٍ تَعَاتَبَنِي فِيهَا وَأَنْتَ مُقِيمٌ
 « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ » : وكيف يخفى ذلك عليه ، أو يتقاصر علمه عنه ، وهو منشئ وموجد ؟ وبمض أحكامه الجائرة مخصصة ، وإنما قال : « إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » : رَدُّهُ إِلَى كِتَابَتِهِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ — لئلا اكتفاهم في الامتناع عما نُهِوا عنه — يرويته وعلمه .
 قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا أَنْ أُولِيَهُ اللَّهُ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الوليُّ على وزن فاعل مبالغة من الفاعل ، وهو مَنْ تَوَكَّلْتَ طاعته ، من غير أن يتخطاها عصيان .

ويجوز أن يكون فعل بمعنى مفعول كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول ؛ فيكون الوليُّ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ إِحْسَانُ اللَّهِ وَأَفْضَالُهُ ، ويكون بمعنى كونه محفوظًا في عامة أحواله من المحن .

وأشدُّ الحزن ارتكابُ للمعصية فيمصه الحقُّ — سبحانه — على دوام أوقاته من الزلاّت .

وكما أن النبيَّ لا يكون إلا مصوماً فالوليُّ لا يكون إلا محفوظاً .

والفرق بين المفوظ والمصوم أن المصوم لا يُلْمُ بِذَنْبِ الْبَيْتَةِ ، والمفوظ قد تحصل منه هنأت ، وقد يكون له — في النمرة — زلاّت ، ولكن لا يكون له إصرار : « أولئك الذين ينوبون من قرىب » ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

حسن ما قيل إنه « لا خوف عليهم » : في الدنيا ، « ولا هم يحزنون » : في الآخرة . ولكن الأولى أن يقال إن الطوائف منهم لا خوف عليهم في الحال — لأن حقيقة الخوف توقع حدوثه في المستقبل ، أو ترقب محبوب يزول في اللئاف . . . وهم يحكم الوقت ؛ ليس لم تطلع إلى المستقبل . والحزن هو أن تلطم حزونة في الحال ، وهم في رَوْح الرضا بكل ما يجري فلا تكون لهم حزونة الوقت . فالوليُّ لا خوف عليه في الوقت ، ولا له حزن بحال ، فهو بحكم الوقت .

ولا يكون ولياً إلا إذا كان موقفاً لجميع ما يلزمه من الطاعات ، مصوماً بكل وجه من جميع الزلاّت . وكل خصلة جيدة يمكن أن يُعْتَبَر بها فيقال هي صفة الأولياء . ويقال الوليُّ من فيه هذه الخصلة .

ويقال الوليُّ من لا يقتصر في حق الحق ، ولا يؤخر القيام بحق الخلق ؛ بطبع لا لحرف عقاب ، ولا على ملاحظة حسن مآب ، أو تطلع لاجل اقتراب ، ويقضى لكل أحد حقاً براه واجباً ، ولا يقتضى من أحد حقاً له ، ولا يلتزم ، ولا يتصرف ^(٢) ولا يشت ولا يهتد ، ولا يقلد أحداً مئة ، ولا يرى لنفسه ولا لما يعمله قدراً ولا قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

هذه صفة الأولياء ؛ آمنوا في الحال ، وآتوا الشرع في اللال . ويقال « آمنوا » أي ناموا

(١) آية ١٧ سورة النساء .

(٢) أي إذا اساء إليه أحد لم يطلب من عتوق إنصافاً ، وإنما عفا وتسامل ، تاركا الأمر لله .

بقلوبهم من حيث المعارف . « وكنوا يتقون » : استقاموا بنفوسهم بأداء الوظائف .
ويقال « آمنوا » بتلقى التعريف . « واثقوا » : بالتقوى عن المحرمات بالتكليف .

قوله جل ذكره : ﴿ لَّهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

القيام بالأمر يدل على الصحة ؛ فإذا قاموا بما أمروا به ، واستقاموا بِتَرْكِ مَا زُجِرُوا عَنْهُ
بِشْرَهُمُ الشَّرِيعَةِ بِالْفُرُوجِ عَنْ عَهْدَةِ الْإِثْمِ ، وَبِشْرَهُمُ الْحَقِيقَةِ بِاسْتِجَابِ الْإِكْرَامِ ، بِمَا
كُشِفُوا بِهِ مِنَ الْإِعْلَامِ .. وهذه هي البُشْرَى فِي عَاجِلِهِمْ . وَأَمَّا الْبُشْرَى فِي آجِلِهِمْ : فَالْحَقُّ
— سبحانه — يتولَّى ذَلِكَ التعريف ، قَالَ تَعَالَى : « يَشْرَهُمُ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ »^(١)
ويقال البشارة العُظْمَى مَا يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ ظَفَرِهِمْ بِنَفْسِهِمْ بِسُقُوطِ مَا رُبِّهِمْ ، وَأَيُّ
مُلْكٍ أَمَّ مِنْ سُقُوطِ الْمَآرَبِ ، وَالرِّضَا بِالسَّكَاةِ^(٢) ؟ هذه هي النعمة العُظْمَى ، وَوَجِدَانُ هَذِهِ
الْحَلَاةِ هُوَ الْبُشْرَى الْكُبْرَى .

ويقال الفرق بين هذه البشارة التي لم وبين البشارة التي للخلق أن التي للخلق عِدَّةٌ^(٣)
بالجليل ، والَّتِي لَمْ تَقَدْ وَمَحْصُولٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

العبدُ مادام متفرِّقًا يضيِّقُ صدره ويستوحش قلبه بما يسمع ويشهد من الأغيارِ
وَالْكَفَّارِ مَا تَقَدَّسُ عَنْهُ صِفَةُ الْحَقِّ ، فَإِنْ صَارَ عَارِقًا زَالَتْ عَنْهُ تِلْكَ الصِّفَةُ لِتَحَقُّقِهِ بِأَنَّ
الْحَقَّ سَبْحَانَهُ وَرَاءَ كُلِّ طَاعَةٍ وَزَلَّةٍ ، فَلَا لَهُ — سبحانه — مِنْ هَذَا اسْتِيْحَاشٍ ، وَلَا بِذَلِكَ
اسْتِشْنَاسٌ .

(١) آية ٢١ سورة التوبة .

(٢) السَّكَاةُ هُنَا مِثْلُهَا الْوَاتِقُ ، فَلَا يَطْلَعُونَ إِلَى زِيَادَةٍ أَوْ تَنْقِصٍ .

(٣) عِدَّةٌ = وعد ، وتذكر ما قلناه في هامش سابق عن الوعد والتعد .

ثم يتحقق العارف بأنَّ المجرى لطلاعةِ أربابِ الوفاق — اللهُ ، والمنشئُ لأحوالِ أهلِ الشَّقَاقِ — اللهُ . لا يبالى الحقُّ بما يجرى ولا يبالى العبدُ بشهود ما يجرى ، كما قيل :

بنو حقٍّ قضوا بالحقِّ صِرَافًا فَتَعَتُ الْخَلْقُ فِيهِمْ مَسْتَارًا

قوله جل ذكره ﴿إِنَّا فَعَرْنَا مِنْ فِي السَّوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْبَسِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

للهُ مَنْ فِي السَّوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ مِلْكًا ، ويبدى عليهم ما يريد حكمًا جزمًا ؛ فلا تقبوله علةٌ ، ولا موجبَ لُذَّةٍ زَلَّةٍ ، كلا ... إنها أحكامٌ سابقةٌ ، لم توجِبْها أجرامٌ لاحقةٌ ، ولا طاعاتٌ وعبادتٌ صادقةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾

الليلُ لأهلِ النَفْطَةِ بَعْدُ وَغِيبةٌ ، ولأهلِ النِّدَمِ ^(١) توبةٌ وأوبةٌ ، وللحجين زُلْفَةٌ وقربةٌ ؛ فالليل بصورته غير مؤثري ، لكنه وقت القربة لأهل الوصلة كما قيل :

وكم لظلامِ الليلِ عندي من يَدٍ ^(٢) تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانُوِيَةَ نَكَنِبُ

قوله جل ذكره : ﴿عَالِمُوا أَخَذَ اللَّهُ لَهُ سَبَابَاتِهِ هُوَ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَ كَم مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ، أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(١) وردت (القوم) وهي خطأ في النسخ إذ لا معنى لها هنا والمناسِب (النديم) .

(٢) وردت (مرید) وهي خطأ في النسخ .

الولادة بعض الوالد ، والمصلحة تحيل عن البعوضة ، كقصة الله نفسه عن ذلك بقوله « سبحانه » .

ثم إنه لم يحيل لم العقوبة — مع قبيح قائلهم ومع قدرته على ذلك — تليها على طريق الحكمة لمبادء .

ولا يجوز في وصفه الولادة لتوحيده ، فلا قسم له ، ولا يجوز في منه التثنية أيضاً لتفريده وأنه لا شبيه له .

قوله : « هو النقي » : الثني نقي الحاجة ، وشهوة المباشرة حاجة ، ويتعالى عنها سبحانه .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

لَا يُفْلِحُونَ ﴾

ليس لهم مقام فيه استمتاع ، إنما هي أيام قليلة ثم تتبعها آلام طويلة ، فلا قدم لم بعد ذلك ترفع ، ولا قدم ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنزَلُ عَلَيْهِمْ كِتَابًا نُورًا إِذْ قَالَ

لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ

مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلِيَ اللَّهُ

تَوَكَّلْتُ فَأَنجِيكُمْ أَمْرًا وَسُرَّكَاهُكُمْ

ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرًاكُمْ عَلَيْكُمْ

حُجَّةٌ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ﴾

أنزل الله هذه الآية على وجه التسلية لئلا — صلى الله عليه وسلم — يَأْ كُنْ يَسْ مِنْ مقامات الشدة من قومه ، فإن أيام نوح — وإن طال — فاقبشت كثيراً إلا وقد زالت ، كما قيل :

وَأَحْسَنُ عَوْدٍ فِي النَوَائِبِ أَنَهَا إِذَا هِيَ نَابَتْ لَمْ تَكُنْ خَلَا

ثم بين أنه كان يتوكل على ربه مهما فعلوا . ولم يحتمل عبداً — ما وثق بربه — من كل ما نزل به . ثم إن نوحاً — عليه السلام — قال : إني توكلت على الله ، وهذا عين التفرقة ،

وقال نبيّهُ صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ » ^(١) وهذا عين الجمع فبانت المزية
وظهرت الخصوصية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ
إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ السَّالِفِينَ ﴾

إذا كان عمله لله لم يطلب الأجر عليه من غير الله ، وهكذا سنته في جميع أوليائه الله .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَتَبَيَّنْهُ وَمَنْ مَعَهُ
فِي الْغُلُقِ وَجِئْنَا مِنْ خَلْفِهِ وَأَخْرَقْنَا
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

أغرق قومه بأمواج القطر ، وفي الحقيقة أغرقهم بأمواج الأحكام والقدرة ، وحفظ نوحاً
— عليه السلام — وقومه في السفينة ، وفي الحقيقة نجّاهم في سفينة السلامة . كان نوح في سابق
حكمه من المحروسين ، وكان قومه في قديم قضائه من جملة المفرقين ، فجرت الأحوال
على ما جرت به القسمة في الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ
فَجَاءَهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا
بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَّبَتْ
فَطَمَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَكَبِّرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا
مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ
وَمَلَكِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾

نص عليه — صلوات الله عليه وسلامه — أنبه الأولين ، وشرح له جميع أحوال
 الغابرين ، ثم فضله على كاتمهم أجمعين ، فكانوا نجوماً وهو البدر ، وكانوا أهلآ وهو
 البحر ، ثم به انتظم عقدهم ، وبنوده أشرق نهارهم ، وبظهوره ختم عددهم ^(١) ، كما قيل :

يَوْمٌ وَحَسْبُ الْعَهْرِ مِنْ أَجَلِهِ حَيْثُ غَدُّ وَلْتَمَتِ الْأَرْضُ

قوله جل ذكره : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا

إِنَّ هَذَا لَيْسَ حُرُوبِينَ ﴾

ما زآدم الحق سبحانه بياناً إلا ازدادوا طغياناً ، وذلك أنه تعالى أجرى سُنَّتَهُ
 في المردودين عن معرفته أنه لا يزيد في الحجج هتأ إلا يزيد في قلوبهم عمى ، ثم خفي عليهم
 قصود النبيين صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم يسعوه فاذا تأمرون : نظروا من حيث كانوا لم يعرفوا
 طمعاً غير ما ذاقوا ، وكذا صفة من أقصته السوايق ، وردته المشينة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا أحيئنا لنتلذثنا تمّا وجدنا

عليه آلهنا وتكون لكما الكبرياء

في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾

ركنوا إلى تقليد آلهم فيما عليه كانوا ، واستحبوا استدامة ما عليه كانوا . . . فلحقهم
 شؤم العقيدة وسوء الطريقة حتى توهموا أن الأنبياء عليهم السلام إنما دعّوهم إلى الله لتكون
 لهم الكبرياء على عباد الله ، ولم يعلموا أنهم إنما دعّوهم إلى الله بأمر الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر

علم ﴾

لما استعان في استدفاع ما استقبله بنير الله لم يلبث إلا يسيراً حتى تبارأ منهم وتوعدهم

(١) قارن ذلك بما يقوله الملاح في طواصينه وبما يقوله أصحاب « نظرية الانسان الكامل » عن
 الحقيقة المحمدية لتلحظ مدى اعتدال هذا الامام الذي التفت في نظريته لشخصية الرسول عليه صلاة
 الله وسلامه .

بقوله : لأفعلن ولأفعلن ، وكذلك قصارى كل حجة وولاية إذا كانت في غير الله فإنها تنول إلى المدواة والبقضة ، قال تعالى : « الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَقْبُوا مَا أَنتُمْ مُلْقُونَ ﴾ فلما أقبلوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبيطه إن الله لا يوصلح عمل المفسدين ﴿

أمرهم أمراً يظفّر به بطلانهم ليدخل الحق على ما أتوا به من التوبة ، فلذلك قال موسى عليه السلام : « إن الله سيبيطه » ؛ فلما التفت عصا موسى — جميع ما جاءوا به من جبالهم وعصيتهم — حين قلبها الله حية .. علموا أن الله أبطل تلك الأعيان وأفناها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

من جملة ما أحقّه أن السحرة كن عندهم أنهم ينصرون فرعون ويحيبونه فكانوا يقيمون بعزته حيث قالوا « بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون » وقال الحق شخصياته . بعزتي إنكم لتلعبون ، فكان على ما قال تعالى دون ما قالوه ، وفي معناه قالوا : كم رمتني بأشهم صابيات وتصدت لها ينهم فطاشا

قوله جل ذكره : ﴿ لَمَّا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةُ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَقْتُلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُرْسِفِينَ ﴾ .

أهل الحقيقة في كل وقت قليل عددهم ، كبير عند الله خطرهم .

(١) آية ٦٧ سورة الزخرف .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾

بَيِّنَ أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ مِنْ حَيْثُ الْأَقْوَالِ... بَلْ لَا يَدْفَعُ فِيهِ مِنْ صَدَقِ الْأَحْوَالِ قَصْدًا .
وَحَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ تَوَسُّلٌ تَدْبِيعُهُ مُتَّصِلٌ، ثُمَّ يَعْلَمُ أَنَّهُ بِفَضْلِهِ — سَبِيحَانَهُ — يُحْصَلُ نَجَاتُهُ ،
لَا بِمَا يَأْتِي بِهِ مِنَ التَّكَلُّفِ — هَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ (١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا وَإِنَّا لَا تَجْمَعُنَا

فِتْنَةً أَقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

تَبَرُّأْنَا بِمَا مِثْلًا مِنَ الْحَوْلِ وَالْمُنَّةِ ، وَتَحَقُّقُنَا بِمَا مِنْكَ مِنَ الطُّولِ وَالْيَتَةِ .
فَلَا تَجْمَعُنَا هَرَمَةً لِسَهَامِ أَحْكَامِكَ فِي عَقُوبَتِكَ بِاتِّفَاقِكَ ، وَارْحَمْنَا بِطُفُفِكَ وَإِكْرَامِكَ ،
وَنَجِّنَا بِإِيمَانٍ عَصَبَتْ عَلَيْهِمْ فَأَذَلَّتْهُمْ ، وَبِسُكُونٍ فَرَّاقَكَ وَتَحَمَّهُمْ

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ يَبُوتَا وَاجْعَلُوا

بَيْتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

مَهْدًا إِلَيْهِمْ لِمَبَادِنَا بِحُكْمٍ وَهِيَ فُؤُوسُهُمْ ، وَلِمَعَارِفِنَا مَنَازِلَ وَهِيَ قُلُوبُهُمْ ، وَلِحُبَّتِنَا مَوَاضِعَ
وَهِيَ أَرْوَاحُهُمْ ، وَلِمَشَاهِدِنَا مَعَاهِدَ وَهِيَ أَسْرَارُهُمْ ؛ فَنُفُوسُ الْمَاجِدِينَ بِبُيُوتِ الْخِدْمَةِ ، وَقُلُوبُ
الْمَعْرِفِينَ أَوْطَانُ الْحَشَةِ ، وَأَرْوَاحُ الْمُجِيسِينَ مَشَاهِدُ الْحُبِّ ، وَأَسْرَارُ الْمُوحِدِينَ مَنَازِلُ الْهَيْبَةِ (٢)

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ
وَمَلَائِكَتَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُنَّ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ

(١) أَيْ يَفْقَهُ عَنِ التَّوَكُّلِ بَرُؤِيَّةَ الْوَكِيلِ . . . كَمَا يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ الْهَوَاسِيُّ (ت ٢٩٩)
(٢) هَذِهِ الْفَقْرَةُ هَامَةٌ لِي تَوْضِيحِ الْمَسْكَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ وَتَرْتِيبِهَا وَوِطْأَتِهَا فِي الْمَرَاثِمِ الرَّسْمِيَّةِ — لِي مَذْهَبِ
هَذَا الصَّرْفِ .

على أموالهم واشدُّد على قلوبهم
فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب
الآليم * .

لما نكس من إجابتهم حين دعاهم إلى الله دعا عليهم بإزالة السحطة وإذاعة الفرقة . ومن
للعلم أن الأنبياء — عليهم السلام — من حَقَم المصصة ، فإذا دعا موسى عليهم بمنزل هذه
الجلَّة لم يكن ذلك إلا يؤخذ من قِيلَ الله تعالى في الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيَا
وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ ﴾ .

الاستقامة في الدعاء ترك الاستعجال في حصول المقصود ، ولا يسقط الاستعجال من
القلب إلا بوجودان السكينة فيه ، ولا تكون تلك السكينة إلا بحسن الرضاء بجميع ما يبدو
من الغيب

ويقال ينبغي له : أن يستقل بالله ^(١) ما أمكنه ، فعند هذا يقل دعاؤه . ثم إذا دعاه
بإشارة من الغيب — في جوازه — فلو اجب ألا يستعجل ، وأن يكون ساكن الجأش .

ويقال من شرط الدعاء صينق الافتقار في الابتداء ، ثم حسن الانتظار في الانتهاء ، وكان
هذا الرضاء بمرئان الأقدار بما يبدو من المسار والمضار .

ويقال الاستقامة في الدعاء سقوط التقاضى ^(٢) على الغيب ، والجلود عن الاستعجال بحسن
الثقة ، وجميل الظن .

ويقال في الآية تنبيه على أن للأمور آجالاً معلومة ، فإذا جاء الوقت فلا تأخير للمقسم
في الوقت المعلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاوِزًا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ وَالتَّحِيرِ ﴾

(١) الاستقلال بالاعتماد به وعدم النظر إلى النفس أو الأعيان .

(٢) التقاضى على الغيب معناه النظر إلى ما يأتي من الغيب بين التعليل أو التكثير ، البطء أو السرعة ..
في ذلك إتمام لحظوظ النفس في حقوق الحق .

فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَيْتًا
وَعَدُوا حَتَّى إِذَا ذَرَكَهُ الْفَرَقُ ،
قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾

حَمَلَتْ الْعِزَّةُ فِرْعَوْنَ عَلَى تَقْطِيعِ الْبَحْرِ عَلَى إِرْمٍ ، فَلَمَّا تَحَقَّقَ الْمَلَاكُ حَمَلَتَهُ
ضُرُورَةُ الْحِيلَةِ عَلَى الْاسْتِعَاذَةِ ، فَلَمْ يَنْفَعِهِ ذَلِكَ لِفَوَاتِ وَقْتِ الْاِخْتِيَارِ .
وَيُقَالُ لِمَا شَهِدَ صَوْلَةَ التَّقْدِيرِ أَفَاقٌ مِنْ سُكْرِ الْغَلْطَةِ (١) ، لَكِنْ : « بَعْدَ شُهُودِ
الْبَيِّنَاتِ لَا يَنْفَعُ التَّخَاضُعُ وَالْاِبْتِغَاءُ » .

قوله جل ذكره : ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

... أَجْمَدُ طَوْلِ الْإِمْهَالِ ، وَالْإِصْرَارِ عَلَى ذَنْبِ الْأَصَالِ ، وَالرَّكْضِ فِي مِيدَانِ
الْاِغْتِرَارِ ، وَاقْتِضَاءِ وَقْتِ الْاِعْتِنَارِ ١٩ هَيْهَاتَ ١ لَقَدْ اسْتَوْجِبْتَ أَنْ تُرَدَّ فِي وَجْهِكَ ،
فَلَا تُعْذِرُكَ قَبُولُ ، وَلَا لَكَ إِلَى مَا تَرُومُهُ وَصُولُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالْيَوْمَ تُنْجِيكَ بِيَدِنَا لَنَكُونَ
لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ، وَلِإِنَّ كَثِيرًا مِنَ
النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَفَاقِلُونَ ﴾

لَنُشْهِرَنَّ تَعْدِيكَ ، وَنُظْهِرَنَّ — لِنُنْصَبِرَ — نَادِيكَ ، لَنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ
عِزَّةً ، وَتَزَادُ حِينَ أَفْقَتَ أَتَقَا وَحْشَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِمْبَاً
صِدْقٍ وَرِزْقَانِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، فَا
اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ

(١) نصح أن تكون كذلك ، ونصح أن تكون (الغلطة) بالطاء ، وهي قسوة القلب من الكفر والنداء ،
ولا نسبهم أيضاً أن تكون : أفاق من سكر (الغلطة) .

يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا

فيه يختلفون ﴿

أَذَلْنَا لِمِ الْأَيْمَنِ ، وَأَكْثَرْنَا لَهُمِ الْإِسْلَامَ ، وَأَكْرَمْنَا لِمِ الْقِسَامِ ، وَأَتَحْنَأْ لِمِ
فَنَوْنَ الْحَسَنَاتِ ، وَأَذَمْنَا لِمِ جَمِيعِ الْخَطِيئَاتِ . . . فَلَمَّا قَالُوا النِّعْمَةَ بِالْكَفَرَانِ ،
وَأَصْرُوا عَلَى الْبَغْيِ وَالْمُدُونِ أَذَقْنَاهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، وَسَدَدْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ مَا فَتَحْنَا لَهُمْ
مِنَ التَّكْرِيمِ وَالْإِيجَابِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ حَادَّ عَنْ طَرِيقِ الْوَفَاقِ ، وَجَنَحَ إِلَى جَانِبِ الشَّقَاقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا

إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الْقَدِينَ يُرِيبُونَ

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُتَعَرِّينَ ﴿

ما شك — صلى الله عليه وسلم — فيما عليه أنزل ، ولا عن أحدٍ منهم سأل ،

وإنما هذا الخطابُ على جهة التهويل ، والمقصودُ منه تنبيهُ القوم على ملازمة نهج السبيل .

ويقال صفة أهل الخصوص ملاحظة أنفسهم وأحوالهم بعين الاستنصار .

ويقال فإن تَنَزَّلَتْ منزلة أهل الأدب في تركِ الملاحظات قُلْ عَنْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ

فَهَلْ يَلْقَانَا أَحَدًا مِنْزِلَتِكَ ؟ وَهَلْ خَصَصْنَا أَحَدًا بِمِثْلِ تَخْصِيصِكَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا

بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿

ما كل منهي عنه ، وكان قبيحاً قبل الشروع كان قبيحاً ، فلا بد من ورود الأمر به

حتى نكون منه طاعة وعبادة . وإنما لم يُعَزَّ في صفته — صلى الله عليه وسلم — التَّكْذِيبُ

بِآيَاتِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ نَهَى عَنْهُ لَا لِكُونه قبيحاً بالفعل ^(١) حتى يقال كيف نهى عنه وكان ذلك

بعيداً منه ؟

(١) يفهم القشيري هنا بقول المترجم : إن التبيح ما رآه العقل قبيحاً والحسن ما رآه العقل حسناً .
ويرى القشيري التهويل على الصريح في هذا الخصوص — كما هو واضح من إشارته .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

فلأعداء حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ بِالْعَقَابِ ، والأولياء حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ بِالنَّوَابِ ؛
فالكلمة أَزَلِيَّةٌ ، والأحكام سابقة ، والأعمال في المسأَلِ على مَرِّ الْأَوَاقِتِ على موجب
القضية لاحقة ، فالذين نصيبهم من التَّسْمَةِ الشَّقَوَةُ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِنْ شَاهَدُوا كُلَّ دَلَالَةٍ ،
وعاينوا كلَّ مَعْجَزَةٍ .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا
إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِيَابَهُ لِنُظْهِرَ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ .

قَوْمُ يُونُسَ تَدَارَكْتُهُمُ الرَّحْمَةُ الْأَزَلِيَّةُ فَمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوْفِيقٍ تَضَرَّعَ ، فَكُشِفَ
عَنْهُمْ الْغِيَابُ ، وَصَرَّفَ عَنْهُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَقُوبَةِ بِمَا عَايَنُوا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ ؛
فَبَرَحْتَهُ وَصَلُوا إِلَى تَضَرُّعِهِمْ ، لَا بِتَضَرُّعِهِمْ وَصَلُوا إِلَى رَحْمَتِهِ (١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ
كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُنْكِرُ النَّاسَ
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

كيف يتمنى عليه سبحانه مرادٌ — والذي يبقى شيءٌ عن مراده ساءٌ أو مغلوبٌ ؟ والذي
يستحق جلال المِرَّةِ لَا يَفُوتُهُ مَطْلُوبٌ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

(١) أي أن عمل الإنسان لا يكفي وحده الوصول إلا إذا ارتبط بتوفيق الله وفضله .

لا يمكن حل^(١) الإذن في هذه الآية إلا على معنى المشيئة ؛ لأنه فكافة بالإيمان ،
والذي هو مأمور بالشئ لا يقال إنه غير مأذون فيه . ولا يجوز حل هذه الآية على معنى
أنه لا يؤمن أحدٌ إلا إذا أبلغه الحق إلى الإيمان واضطره — لأن موجب ذلك ألا يكون
أحد في العالم مؤمناً بالاختبار ، وذلك خطأ ، فدل على أنه أراد به إلا أن يشأ الله أن
يؤمن هو طوعاً . ولا يجوز يقتضى هذا أنه يريد من أحد أن يؤمن طوعاً ثم لا يؤمن ؛
لأنه يبطل قاعدة الآية ، فصَحَّ قول أهل السنة بأن ما شأه الله كان وما لم يشأ لم يكن^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِي إِلَيْتُ وَالنُّجُومِ

مَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الأداة — وإن كانت ظاهرة — فإِذَا تُنْفِي إِذَا كَانَتْ البصائر مسدودة ، كما أن

الشموس — وإن كانت ظاهرة — فإِذَا تُنْفِي إِذَا كَانَتْ الأبصار عن الإدراك بالمعى
مرحودة ، كما قيل :

وما انتفاع أخى الدنيا بعقله إذا استوت عند الأنوار والظلم ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ

خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاتَنَظَرُوا

إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

تَنَفَّى أَلْفَافِ أَنْوَارِ الْحَقِيقَةِ تَمَنَّيَ فِي تَسْوِيلِ ، واستناد إلى غير تحصيل ، وتباد

في تضليل .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ نُتِجِي رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا

كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى : « علينا » هاهنا معناها « منا » ،

(١) وردت (حول) وهي خطأ في النسخ .

(٢) هذا نموذج طيب لوقف الشكوى مشكلاً سلباً — بالنسبة لفضيلة اختيار الإنسان .

فلا شيء يجب على الله لكونه إلهاً مَلِكاً ، فيجب الشيء من الله — لصدقه — ولا يجب عليه — لِعِزَّةِهِ (١) .

وكما لا يجوز أن يدخلَ نبيٌ من الأنبياء — عليهم السلام — في النار لا يجوز أن يُخلدَ واحدٌ من المؤمنين في النار لأنه أخبر أنه يُنَجَّى الرسل والمؤمنين جميعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنِ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

إن كنتم في غطاء الرِّيب فأننا في ضياء من الغيب ، إن كنتم في ظلمة الجهل فأننا في شمس الوصل ، إن كنتم في سدة الضلالة فأننا في خلعة الرسالة وعلى أنوار الهداية .
ويقال قد تميزنا على مفرق الطريق : فأقم وقسم في وحدة الموج ، وأنا ثابتٌ على سواها (٢) التَّهَجُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

أى أخلص قلبك للدين ، وجرد قلبك عن إثبات كل ما لحقه قهر التكوين ، وكن مثلاً من الزيف والبدع ، داخلاً في جملة من أخلص في الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴾

(١) تأمل هذا التخريج حتى يسلم مذهب الكلبي مع ظاهر النص العراقي .

(٢) وردت (سوء) وهي خطأ في النسخ .

لا تبتد ما لا تنفعك عبادته ولا تُضرك عبادته ، وتلك صفة كل ما يعبد من دون الله .
 واستماعة الخليلي بالخلق تحقيق الوقت بلا طائل ؛ فمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً كيف
 يستعين به من هو في مثل حاله ؟ وإذا انضاف الضيف إلى الضيف ازداد الضيف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَضْرُؤَ مَا كَاشَفَ
 لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ
 لِقَضَائِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

كما تفرّد بإبداع الضر واختراعه فلا شريك يُعَصِّدُهُ .. كذلك توحّد بكشف الضر
 وصرفه فلا نصير يُنَجِّدُهُ .

ويقال هوّن على المؤمن الضر بقوله : ﴿ وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَضْرُؤَ مَا كَاشَفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ حيث أضافه إلى نفسه،
 والحفظ يُستلْزَمُ من كف من نجبه .

وفرق بين الضر والخير بإضافة الضر إليه فقال : وإن يسألك الله بضرّ ، ولم يقل :
 وإن يردك بضرٍ — وإن كان ذلك الضر صادراً عن إرادته — وفي ذلك من حيث
 اللفظ دقة .

ويقال : عذّب الضر حيث كان فمه ؛ فلما أوجب مقاساة الضر من الحرب أبدل مكانه
 السرور والطرب .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَنْتَعِلُ لِنَفْسِهِ
 وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
 وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾

من استبصر ربيح رُشد فيه ، ومن ضلّ فقد زاغ عن قصده ؛ فهذا بلاء اكتسب .
 وذلك ضياء وشفاء اجتلب .

قوله جل ذكره: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ وَاصِرٌ

حَقٌّ يَحْكُمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ

الْحَاكِمِينَ﴾

قِفْ عند جريان أحكامنا، وانسلخْ عن مرادك بالكلية، ليُجرى عليك ما يريد،
والله أعلم بالصواب .

السورة التي يذكر فيها هود عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه كلمة استولت على عقول قوم قَبَضَتْهَا ، وعلى قلوب آخرين فَجَرَدَتْهَا ، فالتى
بَصَّرَتْهَا فبنور برهانه ، والتى جَرَدَتْهَا فبقهر سلطانه .. ضالِّمْ سَلَكٌ سَبِيلٌ يَحْتَسِبُهُ واستدلالة
فَسَكَّنَ لَنَا طلعت نجومُ عقله تحت ظلال إقباله ، وغَارِفُ تَعَرُّضٍ إِلَى وصاله فطاح لَنَا لاحت
لَمْعَةٌ مِنْ هَدًى بِالْإِعْلَامِ باستحقاق جلاله .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ يَكْتُبْ أَهْلَكُتْ آيَاتُهُ ثُمَّ

فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية .

واللام إشارة إلى لُطْفِهِ بأهل التوحيد .

والراء إشارة إلى رحمته بكافة البرية .

وهى فى معنى القسم : أى أقسم بانفرادى بالربوبية ولطفى بمن عَرَفَنِي بالأحدية ،
ورحقى على كافة البرية — إِنَّ هَذَا الْكِتَابُ أَهْكُتْ آيَاتُهُ .

ومعنى « أَهْكُتْ آيَاتُهُ » : أى حُفِظَتْ عن التبديل والتنكير ، ثم فُصِّلَتْ ببيان نفوت
الحقِّ فيها يتصف به من جلال الصمدية ، وتبَيَّنَ به الخلقُ من أحكام العبودية ، ثم ملاح لقلوب
الموحدين والمحبين من لطائف القربة ، فى علاجهم البشرى بما وَعَدَهُمْ به من عزيز لقائه
فى آجلهم ، وخصائصهم التى امتازوا بها عَنْ سِوَاهُمْ .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ .

أى فصلت آياته ألا تعبدوا إلا الله .

ويقال معناه في هذا الكتاب ألا تعبدوا إلا الله، إني لكم منه «نذير» مبين بالفرقة، «وبشير» بدوام الوصلة، (فالفرقة بل في عاجله واحداً) ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾
استغفروا ربكم أولاً ثم توبوا إليه بعده .

والاستغفار طلب المغفرة ، يعنى قبل أن تتوبوا اطلبوا منه للمغفرة بحسن النظرة ، وحسن الرجاء والثقة بأنه لا يتخلد الماصى فى النار ، فلا محالة يخرجكم منها . . فابتدئوا باستغفاركم ، ثم توبوا بترك أوزاركم ، والتنقى عن إصراركم .

ويقال استغفروا فى الحال مما سلف ، ثم إن التمس بركة أخرى فتوبوا .

ويقال استغفروا فى الحال ثم لا تعودوا إلى ارتكاب الزلة فاستدبوا التوبة — إلى مالكم — مما أسلفتم من قبيح أعمالكم .

ويقال «استغفروا» : الاستغفار هو التوبة ، والتنقى من جميع الذنوب ، ثم «توبوا» من توبم أنكم نجابون بتوبنكم ، بل اعلوا أنه يجيبكم بكرمه بأعمالكم .

ويقال «الاستغفار» : طلب حظوظكم من عفونا . . فإذا ضلتم هذا فتوبوا عن طلب كل حظ ونصيب ، وارجعوا إلينا ، واكنفوا بنا ، واضمن بما تحوزونه من التجاوز عنكم أو غير ذلك مما يخرجكم به .

قوله جل ذكره: ﴿يَسْتَعِظُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

أى نعيثكم عيشاً طيباً حسناً مباركاً .

ويقال هو إعطاء الكفاية مع زوال الحرص .

ويقال هو القناعة بالموجود .

(١) هذه عبارة لما أنها راثمة نتيجة خطأ فى النسخ ، أو أن بها اضطراباً فى الكتابة أقدمها المنى .

ويقال هو ألا يفرجه إلى مخلوق ، ولا يجمل لأحد عليه مِنَّةٌ (لا سيما للناس^(١)) .

ويقال هو أن يوقه (لاصطناع للعروف إلى المستحقين .

ويقال هو أن يُقَضِّى على يديه^(٢)) حوائج الناس .

ويقال هو ألا يُلِمَّ في حال شبابه بَرَّةً ، وألا يتصف بأنه عن الله في غفلة .

ويقال هو أن يكون راضياً بما يجري عليه من نَوْعِي العسر والبسر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ

تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ

يَوْمٍ كَبِيرٌ ﴾

من زادت حسناته على سيئاته أعطاه جزاء ما قُضِيَ له من الطاعات ، ومن زادت سيئاته على حسناته كافأه بما يستوجبه من زيادة السيئات . . . هذا بيان التفسير .

ويقال مَنْ قَضَلَهُ بحسن توفيقه أوصله إلى ما يستوجبه من لطفه وزيده . .

ويقال هو أن يستر عليه فضله حتى لا يلاحظ حاله ومقامه ، بل ينظر إلى نفسه ، وما منه وما له . . . يَعْنِي الاستعقار والاستصغار .

ويقال هو أن يرقيه عن التعرُّج في أوطان البشرية إلى طاعات شهود الأحدية ، ويُثْقِيه عن (. . .) البشرية ، والنكسر بما يبدو من مفاجآت التقدير .

ويقال هو ألا يُوحِشَهُ شيء بما يجري في الوقت .

ويقال هو أن يُحَقِّقَ له ما نسمو إليه هِمَّتُهُ ، ويُبَكِّنُهُ فوق ما يستوجبه محله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(١) ما بين القوسين في أعلى الصفحة ومكتوب بخط رديء جداً .

(٢) ما بين القوسين في هامش الصفحة بخط حسن ومن هذا وذاك يضح أن النسخة تبين لها أن تراجع بواسطة قارئين مختلفين .

(٣) مشبهة .

تقطع الدعوى عند الرجوع إلى الله ، وتتقوى الظنون ، ويحصل اليأس من غير الله بكل وجه ، ويبقى العبدُ بنعتِ الاضطرار ، والحقُّ يُجْرى عليه ما سبقت به القسمة من أنواع الأهلار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا

منه أَلَا جِنَّ يَسْتَفْشُونَ بَيَاهِمَ يَعْلَمُ

مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بذات الصدور ﴾

أَي يَسْتَرُونَ مَا تَطَوَّى عَلَيْهِ عَقَائِدُهُمْ ، وَيُضْمِرُونَ لِرَسُولٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَلِلْمُؤْمِنِينَ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَ ، وَالْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — مُطَّلَعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَيَعْلَمُ خَائِيَا صُدُورِهِمْ ، فَلْيَسْتَفْشُوا لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ، وَكُلَّ اللَّهِ — سُبْحَانَهُ — يُطَّلِعُ رُسُولُهُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — عَلَى مَا تُخْفَوْنَ إِمَّا بِتَعْرِيفِ الْوَحْيِ ، أَوْ بِإِشْهَادِ لِقُوَّةِ نُورِهِ ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ كَانُوا مَخْصُوصِينَ بِالْفَرَسَةِ ، فَكُلُّ مُؤْمِنٍ لَهُ بِقَدَرِ حَالِهِ مِنَ اللَّهِ هَدَايَةٌ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ » (١) وَلَقَدْ قَالَ قَاتِلُهُمْ .

أَبَعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بِنُورِ اللَّهِ ؟ كُلُّ مَا فِي الْفُؤَادِ قَلْبِي بَادٍ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مِنْ حَاجَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

رِزْقُهَا ﴾

أَرَأَيْتَ الْقُلُوبَ مِنْ جَبَرَةِ التَّقْسِيمِ ، وَالْأَفْكَارَ مِنْ نَصَبِ التَّنْكِيرِ فِي بَابِ الرِّزْقِ حَيْثُ قَالَ : « إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » فَسَكَنَتْ الْقُلُوبُ لَمَّا تَحَقَّقَتْ أَنَّ الرِّزْقَ عَلَى اللَّهِ .

ويقال إذا كان الرزق على الله فصاحبُ الحياتِ في غَلَطٍ من حسابهِ . ثم إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ

(١) رواه الترمذى والطبرانى .

ورواه القشيري في رسالته (ص ١١٥) هكذا : أخبرنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال أخبرنا أحمد ابن علي الرازي قال أخبرنا محمد بن أحمد بن السكن قال حدثنا موسى بن داود قال حدثنا محمد بن كثير الكوفي قال حدثنا عمرو بن قيس عن علي بن أبي سعيد قال قال رسول الله (ص) : « واتقوا ... » .

يُنَّ أَنَّ الرِّزْقَ الَّذِي « عَلَيْهِ » مَالِحُهُ فَقَالَ : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » ، وَمَا كَانَ فِي السَّمَاءِ لَا يَوْجِدُ فِي السُّوقِ ، وَلَا فِي التَّطَوُّافِ فِي التَّرَبِّ وَالشَّرْقِ ^(١) .

وَيَقَالُ الْأَرْزَاقُ مُخْتَلِفَةٌ فَرِزْقُ كُلِّ حَيَوَانٍ عَلَى مَا يَلِيقُ بِصِفَتِهِ .

وَيَقَالُ لِلنَّفُوسِ رِزْقٌ هُوَ غِنَاءُ طَرِيقَةِ الْخَلْقِ ، وَقَلُوبُ رِزْقٍ وَهُوَ ضِيَاءُ مُوجِدِهِ الْحَقِّ .

وَيَقَالُ لَمْ يَقُلْ مَا يَشْنِهُهُ أَوْ مَقْدَارُ مَا يَكْفِيهِ بَلْ هُوَ مَوْكُولٌ إِلَى مَشِيتِهِ ؛ فَمِنْ مَوْسَعٍ عَلَيْهِ وَمِنْ مُقْتَرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا

كُلٌّ فِي كِتَابٍ مبین ﴾

قِيلَ أَرَادَ بِهِ أَصْلَابَ الْأَبَاءِ وَأَرْحَامَ الْأُمَّهَاتِ ، أَوِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ . وَيَقَالُ مُسْتَقَرُّ الْمَرْبِ بَابٌ شَيْخُهُ كَمُسْتَقَرِّ الصَّبِيِّ بَابٍ وَالِدِهِ . وَيَقَالُ مُسْتَقَرُّ الْعَابِدِينَ الْمَسَاجِدُ ، وَمُسْتَقَرُّ الْعَارِفِينَ الْمَشَاهِدُ ، فَالْمَسَاجِدُ مُسْتَقَرُّ قُفُوسِ الْعَابِدِينَ ، وَالْمَشَاهِدُ مُسْتَقَرُّ قُلُوبِ الْعَارِفِينَ .

وَيَقَالُ مُسْتَقَرُّ الْمَحَبِّ رَأْسُ مَسْكَةٍ مَحْبُوبَةٍ لَهِ يَشْهَدُ عِنْدَ عُبُورِهِ .

وَيَقَالُ الْمَسَاجِدُ لِلْعَابِدِينَ مُسْتَقَرُّ الْقَدَمِ ، وَالْمَشَاهِدُ لِلْعَارِفِينَ مُسْتَقَرُّ الْهَيْمِ ، وَالْفُقَرَاءُ مُسْتَقَرُّ سُدَّةِ الْكَرَمِ .

وَيَقَالُ الْكُلُّ لَهُ مَتَوًى وَمُسْتَقَرٌّ ، أَمَّا الْمَوْحِدُ فَإِنَّهُ لَا مَتَوًى لَهُ وَلَا مُسْتَقَرٌّ وَلَا مَتَوًى وَلَا مَنْزِلَ .

وَيَقَالُ النَّفُوسُ مُسْتَوْدَعُ التَّوْفِيقِ مِنْ اللَّهِ ، وَالْقُلُوبُ مُسْتَوْدَعُ التَّحْقِيقِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ .

وَيَقَالُ الْقُلُوبُ مُسْتَوْدَعُ الْمَعْرِفَةِ وَالْمَعْرِفَةُ وَدِيعةٌ فِيهَا . وَالْأَرْوَاحُ مُسْتَوْدَعُ الْمَحَبَّةِ فَالْمَحَابُّ وَدَائِعُ فِيهَا . وَالْأَسْرَارُ مُسْتَوْدَعُ الْمَشَاهِدَاتِ فَالْمَشَاهِدَاتُ وَدَائِعُ فِيهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(١) قَدِيدُو لَوْحَةُ الْأَوَّلِ أَنَّ كَلَامَ التَّشْبِيرِ لَا يَنْتَظِمُ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » وَلَكِنَّ الرَّاقِعَ أَنَّهُ يَضِدُّ بِذَلِكَ رِزْقَ الرَّاغِبِ لَا رِزْقَ الظَّوَاهِرِ .

وَأَحْسَنُ الْأَعْمَالِ مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ ، وَلَمْ يَقُلْ أَكْثَرَ عَمَلًا .

ويقال أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشد إخلاصاً فيه .

ويقال أحسنهم عملاً أيدئهم عن ملاحظة أعماله .

ويقال أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بين الاستمنار .

ويقال أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عَوْضًا .

ويقال أحسن الأعمال ما غلبَ عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المبود .

قوله : « ليلوكم » الابتلاء من رِقَبِهِ تعريفُ الملائكة حال من ينليه في الشكر عند اليُسْرِ والصبر عند السُّرِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ سَبْعُونَ مِثْقَلًا مِنْ

بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

استبعدوا الشَّرَّ لِنَقْصِ علومهم من التحقق بكال قدرة الحق ، ولو عرفوا ذلك لأيقنوا

أن البعث ليس بمخاص في الإيجاد ولا بمستحيل في التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ

مِدْوَدَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِئُهُ ؟ أَلَا يَوْمَ

يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ

مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يقول : إن أمهلنا ، وأخرنا عليهم العذاب لا يَرْهَوْن ، بل يستعجلون العقوبة . ولئن

عَجَّلْنَا لهم العقوبة لا يتوون ولا يستغفرون . . . استولى عليهم الجحَلُ في الحالين ، وجمعت

بصائرهم عن شهود التقدير والإيمان بالنيب في النوعين . ويوم يأتيهم العذاب فلا مناص

ولا منجاة ولا مراح لهم منه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً

ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ﴾

تَكْدُرُ ما صنام من النَّمِّ ، وَكَلْبُرُ ما أُتِيجَ من الإحسان واليَتَنَ حَالُ مَمْهُودَةٍ وَخُطَّةٍ
 طَمَعَةٍ ، فَلَا أَحَدَ إِلَّا وَلَهُ مِنْهَا خُطَّةٌ^(١) فَتَنْ لَمْ يَرْجِعْ بِالتَّأْسَفِ قَلْبُهُ ، وَلَمْ يَتَضَاعَفْ فِي كُلِّ قَسْرِ
 تَلَهُّهُ وَكَرْبِهِ فِي دِيوانِ التَّسَيُّانِ ، وَأَثْبَتَ اسْمَهُ فِي جِلَّةِ أَهْلِ الْمَهِجَرَانِ . وَمَنْ اسْتَمْسَكَ بِمِرْوَةٍ
 التَّضَرُّعِ ، وَاعْتَكَفَ بِمَقْوَةِ التَّنْذِلِ ، اسْتَقَى كَلَسَاتِ الْحَسْرَةِ حُلًّا بِدَنْهِلِ طَاعَتِهِ لِلْحَقِّ
 بَنَتِ الرَّحْمَةَ ، وَجَدَّدَ لَهُ مَا انْدَسَ مِنْ أَحْوَالِ الْقَرِيَةِ ، وَأَطْلَعَ عَلَيْهِ شَمْسَ الْإِقْبَالِ بِدَنِ الْأَبْوَالِ
 وَالْغَيْبَةِ ، كَمَا قِيلَ

تَفَشَّعَ غَيْبُ الْمَهِجَرِ عَنْ قَرِّ الْحُبِّ . وَأَشْرَقَ نَوْرُ الصَّبَحِ فِي ظِلَّةِ التَّيِّبِ

وَلَيْسَ لِلْأَحْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ خَطَرٌ فِي التَّحْقِيقِ ، وَلَا يَدُ زَوَالِهَا وَتَكْدُرُهَا مِنْ جِلَّةِ الْمَنْ
 عِنْدَ أَرْبابِ التَّحْصِيلِ ، لَكِنْ الْحَمْنَةُ الْكَبْرَى وَالرَّزِيَّةُ الْعَظِيمَةُ ذُبُولُ غَضَبِ الْوَصَالِ ، وَتَكْدُرُ
 مَشْرِبِ الْقَرَبِ ، وَأَقُولُ شَوَارِقَ الْأُنْسِ ، وَمَوَدَّةَ بَصَائِرِ أَرْبابِ الشُّهُودِ . . . فَسَدَ ذَلِكَ
 قَوْمَ قِيَامَتِهِمْ ، وَهَنَّاكَ تَسْكُبُ الْعَبْرَاتِ . وَيَقَالُ إِذَا نَفَقَ فِي سَاحِلَتِ هَوْلَاءِ غَرَابِ الْبَيْنِ
 ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ نَوَاحُ أَسْرَارِهِم بِالْوَيْلِ ، وَمِنْ جِلَّةِ مَا يَيْتُونُ مِنْ نَحْبِهِمْ مَا قَلْتُ .

قَوْلَا لَنْ سَلَبَ الْفَوَادِ فِرَاقَهُ وَلَقَدْ عَوَّدَنَا أَنْ يُبَاحَ حِتَابُهُ
 بَعْدَ الْفِرَاقِ . . . فَبِالْأَيِّ هُوَ بَيْنَا هَلَّا رَحِمْنَا مَنْ دَنَا إِزْهَابَهُ ؟
 عَهْدِي بِمَنْ جَعَلَ الْهَوَى أَزْمَانُكُمْ نَاً بِالصَّبَابَةِ — لَا يَتَضَيَّقُ نَبَاطُهُ .
 وَالْآنَ مَدُّ بَحَلِّ الزَّمَانِ بَوَصَلَنَا ضَاقَ الْبَسِيطَةُ . حِينَ دَامَ فِرَاقُهُ .
 هَلْ تَرْجِيئِي مِنْ وَصَلِ عَزْكِ رَجْعَةً تَحْنُو عَلَى قَرَرِ يَنْدُومِ عِاقَبَهُ ؟
 إِنْ كَانَ ذَاكَ كَأَنْزُومٍ فَاخْتِيرُوا أَتَى لَهُ أَنْ يَمُودَ شُرُوقُهُ^(٢) ؟

قوله جل ذكره: وَلَنْ أَذْقَاهُ نَعْمَاءَ بَدَ

(١) (الخطبة) يهضم الحاء = الأمر والمجاء ، و (والخطبة) بكسر الحاء ما يحتطه الإنسان لنفسه من
 قدر معلوم من الأرض ونحوها .

(٢) الأبيات في هذا النسب وصلتنا مضطربة الورد سبب الخط . مطبوعة الكلمات في كثير من المواضع
 وقد تدخلنا فيها بقدر يسع بإظهار المعنى وتناسق السياق .

ضَرَاءَ سَتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿١٠﴾

إذا كشفنا الضَّرَّ عنهم رَحْمَةً مِنَّا عَادُوا إِلَىٰ تَنكِيمِهِمْ بَدَلًا مِّنْ أَن يُتَّقِرُوا إِلَيْنَا ، وَأَسَاءُوا
بِمُخْلَعِ عَنَادِهِمْ بَدَلُ أَن يَقُومُوا بِشُكْرِنَا ، وَكَلَّا أَتَعْنَاهُمْ مِنْ إِمَائِنَا أَمِنُوا لِمُكْرِنَا ، وَلَمْ يَخَافُوا أَنَّا
نَأْخُذُهُمْ بِمَا كَفَرْنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴾ .

الإنسان في الآية السابقة اسم جالس .

وإلا للاستثناء منه ، وقيل معنى « لكن » ، يريد إذا أذقناهم نعمة بعد الشدة بطروا ،
إلا المؤمنين فإنهم بخلاف ذلك ، أى لكنَّ الذين آمنوا بخلاف ذلك ، فإنهم صبروا على
على ما به أمروا ، وعاصوه زُجروا ، ولما قُتِلَتْ طاعتهم ومغافرتهم الزلات .. فلهم مغفرة وأجر ،
مغفرة لعصيتهم ، وأجرٌ على إحسانهم . والفريقان لا يستويان ، قال قتادبة .

أَحِبَّائُنَا كُتِلْنَا وَافِرٌ وَنَاقِصٌ وَلَا يَسْتَوِي قَطُّ حُبٌّ وَبَافِضٌ
قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا كُنْتُمْ تَارِكِي بَعْضَ مَا يُوْحَىٰ
إِلَيْكَ ﴾ .

اقترحوا عليه أن يأتي بكتاب ليس فيه سبُّ آلِهِمْ ، وَيَيْنَ اللَّهُ — سبحانه — له
ألا يترك تبليغ ما أُنْزِلَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ كَرَاهَتِهِمْ ، وَلَا يُبَدِّلُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَضَاقَ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا
أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ
إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
وَكِيلٌ ﴾ .

وهنا على وجه الاستبعاد ؛ أى لا يكون منك ترك ما أُوْحِيَ إِلَيْكَ ، ولا يضيق صدرك

بما يبدو من الغيب .. ومن شرح الله بالتوحيد صدره ، ونور بشهود التقدير سره — متى يلحظه ضيق صدره أو استكراه أمره ؟ ثم قال : « إنا أعت ذنير والله على كل شيء وكيل » : أى أنت بالإرسال منصوب ، وأحكم التقدير عليك مجراؤه .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فأتوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ مُقَرَّبَاتٍ وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

في الآية بيان أن المكلف مَرَّاحُ الْعِلَّةِ لِأَنَّهُ قِيمٌ لَهُ مِنَ الْبَرهَانِ وَأَهْلٌ لَهُ مِنَ التَّحْقِيقِ .
وَأَنَّ الْإِيْعَانَ بِالْوَاسِطَةِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآلَهُ — وَاجِبٌ لِأَخْصَ بِهِ مِنَ الْمَجْزَاتِ الَّتِي
أَوْضَحَهَا الْكِتَابُ الْمُتَوَلَّى وَالْقُرْآنُ لِلْمُقَصِّلِ الَّذِي عَمِزَ الْكُفْرَانُ عَنْ مَعَارِضِهِ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فاعملوا أَلَمْ آتَاكُمْ أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُشْكُونَ﴾.

يعنى فإن لم يستجيبوا لكم يعنى إلى الإتيان بمنزله — وهم أهل بلاغة — فتحققوا أنه من قبيل الله، وليس على سنة التحقير. (....) ^(١) إنما العنى فى بصائر من ضلوا عن الحق، وتاهوا فى سدة الخيرة.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا
نُوفِ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهَا فِيهَا وَمَنْ فِيهَا
لَا يَخْشَى﴾ .

مَنْ قَتَعَ مِنْهُمْ بِدُنْيَا الدَّعَاةِ صِفْهُا وَسَمَّا عَلَيْهِ فِي الِاسْتِمَاعِ بِأَيَّامِ فِيهَا ، وَلَكِنْ عَقِبَ الْكَلَامَا سِرِّي زَوَالَمَا ، وَيَذُوقُ بِمَدِّ عَمَلِهَا حَنْظَلَهَا .

(۱) مقدمة .

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا ، وَبِاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ خَابَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وظهرت لهم — بخلاف ما احتسبوا — آلامهم ، حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ ، وحق بهم سوء حللهم .

قوله جل ذكره: ﴿أَقْنِ كَانٍ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلَوْهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحَّةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرَّةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فيه إضمار^(١) ومنه أفن كان على بيينة كن ليس على بيينة . . لا يستويان .
والبَيِّنَةُ لأقوام برهان العلم ، ولآخرين بيان الأمر بالقطع والجزم ؛ يُشْهِدُهُمُ الْحَقُّ مَا لَا يَطْلُعُ عَلَيْهِ خَيْرُهُمْ ، كَمَا قُلْتُ :

لَيْلٍ مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَا
فَالنَّاسُ فِي الظُّلَّةِ مِنْ لَيْلِهِمْ وَنَحْنُ مِنْ وَجْهِكَ فِي الضُّوءِ وَالشَّاهِدُ

فَالَّذِي يَتْلُوهُ هُوَ مُشَاهِدٌ ، وَفِي الْخَبَرِ «أُولِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَ اللَّهِ»^(٢) .
عَلَّ تَعَالَى : «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَمْ تَفْقَهُمْ بَسْإِسْمِ اللَّهِ» .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . . . ﴾ الآية .

(١) إضمار هنا مستعمل لما يسمى في علم البلاغة بإيجاز الحذف .
(٢) سقطت بقية الخبر من النسخ .

مَنْ ادَّعى على الله حالاً لم يكن متحققاً بها فقد افترى على الله كذباً ، واستوجب الموت ، وعقوبته ألا يُزَوَّقَ بركة في أحواله ، ثم إنه يكشف للشهداء عيوبه ، فيفضحه بين الخلق ، والشهداء قلوب الأولياء ، ومن شهد القلوب عليه بالرد فهو غير مقبول عند الحق

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾
الآية .

هذا من جملة صفات للفترين على الله الكذب ، ومن صدَّهم عن السبيل أن يظهروا من أنفسهم أحوالاً تُخلُّ بأحكام الشريعة ، ولا يروون ذلك كبيرة في الطريقة ، ويؤمنون المستضعفين من أهل الاعتراض عليهم أن لهم في ذلك رخصة ، فيضلون ويضلون . ومن جملة صدَّهم عن السبيل تفريرهم بالناس ، وإيقاعهم في الغلط ، ويرتقون بشيء مما في أيديهم من حطام الدنيا ، ولا يستحيون من أخذ شيء لا يستوجبونه بأى وجه حق ، ويدهأهون في دين الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ... ﴾
الآية .

من هذه صفاتهم لا يبرحون في تجارتهم ، ولا يلحقون غاية طلبوها ، فيبقون عن الحق ، ولا يبارك لهم فيها اعتاضوا من محبة الخلق .. خسرت صفقتهم ، وبأرت بضاعتهم ، لقوا الهوان ، وذاقوا اليأس والحerman .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾
الآخسرون .

لا محالة أنهم في الآخرة أشدَّ خساراً ، وأوفر — من الخيرات — نقصاناً .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا ﴾ .

الإخباتُ التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار ، ومن علامته الذبول تحت جريان اللقادر بدوام الاستغاثة بالسر .

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى...﴾

والبصير والسميع... الآية

مثَلُ الكافر في كفره كالأعمى والأصم ، ومَثَلُ المؤمن في إيمانه كالسميع والبصير

— هذا بيان التفسير .

والإشارة فيه أن الأعمى مَنْ عَمِيَ عن الإبصار بِسِرِّهِ ، والأصمُّ الذي طَرَسَ بِسَمْعِ قلبه ؛ فلا باستدلاله شَهِدَ سرَّ قَديره في أفعاله ، ولا بنور فِراسَةِ توهم ما وقف عليه من مكشَفات الغيب لقلبه ، ولا بِسَمْعِ القبولِ استجَابَ لدواعي الشرِّية ، ولا بِحُكْمِ الإنصافِ انقَادَ لما يَوجِبُ عليه من مطالبات الوقت مما يلوح لِسِرِّهِ من تلويحات الحقيقة .

وأما البصير فهو الذي يشهد من الحق أفضاله بعلم اليقين ، ويشهد صفاته بعين اليقين ، ويشهد ذاته بحق اليقين ، والغائبات له حضور ، وللسنورات له كشف . فالذي يسمع قَصِيَّتَهُ ألا يسمع هواجس النَّفْسِ ولا وساوس الشيطان ؛ فيسمع من دواعي العلم شرعاً ، ثم من خواطر التعريف قِدرًا ، ثم يكشف بمُطاب من الحق سِرًّا^(١)

فهؤلاء لا يستويان ، ولا في طريق يلتقيان :

رَاحَتْ مُرَّةٌ وَرُحْتُ مُرَبًّا فَمِنَ التَّغَاةِ مُشْرِقٌ وَمُغْرِبٌ ١٢

قوله جل ذكره: ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي

لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنْ لَا تُعْبُدُوا

إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَتَخَفُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمِ أَلِيمٍ ۝

كان نوحٌ عليه السلام أطول الأنبياء عُمرًا وأشدَّهم بلاءً ، وسُمي نوحًا لكثرة نوحه على نفسه . . . وسبب ذلك أنه مرَّ بكلِّ قال : ما أقبحه ! فأوحى الله إليه أَنْ أخلقُ أَنْتَ أَحْسَنَ من هذا . فأخذ يبكي وينوح على قسه كلَّ ذلك النوح . فكيف بحالٍ مَنْ لم يذكر يوماً ممّا مضى من عمره في مدة تكليفه — ولم يحصل منه شيء كثير من ولاية ؟ !

(١) تنبيه هذه الإشارة في بيان أحكام « السماع » عند الصوفية .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
مَا تَرَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَكَ
إِلَّا تِبْكَمَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادْيَ
الرَّأْيِ وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ
فَضْلٍ بَلْ تَنْظُرُونَ كَاذِبِينَ﴾ .

أنكروا صحة كونه نبياً لما شكته لإمام في الصورة ، ولم يسلوا أن المبينة بالسريرة
لا بالصورة .

ثم قال : « وما تَرَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِادْيَ الرَّأْيِ » : نظروا إلى أتباعه نظراً
استصغاره ، وتسببوا إلى قِلَّةِ التحصيل .. وما استصغر أحدٌ أحداً من حيث رؤية الفضل عليه
إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وأذاقه ذُلَّ صغاره ، فبالماضي يحصل الامتياز لا بالمباقي :

ترى الرجل النحيف قزوينه وفي أنوابه أسد مصور
فإن أك في شراكم قليلاً فإني في خياريكم كثير

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى
بَيِّنَةٍ تَمُنُّونَ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِّنْ
عِندِهِ فَمُتَيْتُمْ عَلَيْكُمْ أَلْأَنْزِلُكُمْ مَّا
وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ﴾ .

الصَّحِيحُ لَا خَلْقَ فِي ضِيَاءِهِ لِيَكُونَ النَّاطِلِينَ عِبَانًا ، وَالسَّيْفُ لَا خَلْقَ فِي مَضَائِهِ
لِيَكُونَ الضَّالِّينَ صِبْغَانًا . . . وكيف لبشر من قدرة على هداية مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ —
ولو كان نبياً؟^(١)

هيبت لا ينفع مع الجاهل نصيح ، ولا ينفع في المصير وعظ

(١) الأفضل أن تكون (ولو كان نبياً) جثة اعتراضية تلي (لبشر) حتى يستقيم التركيب . ولكننا
أثبتنا أنها جاء في (س) .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْبَهُونَ﴾ .

سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — أَلَا يَطْلُبُوا عَلَى رَسُولِهِمْ أَجْرًا ، وَأَلَا يُؤْمَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ قَدْرًا ، عَمَلُهُمْ اللَّهُ لَا يَطْلُبُونَ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ . فَمَنْ سَلَكَ مِنَ الْعُلَمَاءِ سَبِيلَهُمْ خَيْرٌ فِي زَمَرَتِهِمْ ، وَمَنْ أَخَذَ عَلَى صَلَاحِهِ مِنْ أَحَدٍ عَوَضًا ، أَوْ اكْتَسَبَ بِسَعَادَةِ جَاهًا لَمْ يَرَّ مِنَ اللَّهِ إِلَّا هَوَانًا وَصَفَلَاءً .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَصْغُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

مَجَالِسَةُ الْقُرَاءَةِ الْيَوْمَ — وَهِيَ مَجْلَسُهُ الْحَقُّ غَدًا — أَجْدَى مِنْ مَجَالِسَةِ قَوْمٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْ أَهْلِ الرَّدِّ .
وَمَنْ طَرَدَ مَنْ قَرَّبَهُ اللَّهُ وَأَدْنَاهُ اسْتَوْجِبَ الْخِزْيَ فِي دُنْيَاهُ ، وَالصَّفَارَ فِي عَقْبَاهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خِزَانٌ مِنَ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾
لَا تَخْطِئُ خَطِيئَةً عَمَّا أَبْلَغْتَ مِمَّا حَمَلْتُ مِنْ رِسَالَتِي ، وَلَا أُنْعِدِّي مَا كُفِّتُ بِهِ ، وَلَا أُزِيدُ عَمَّا أَمَرْتُ ، وَلَنْ أَخْرَجَ عَنِ الْقِيَامِ أَنْبَاءُيَ ، بَلْ أَنْتَصِبُ بِشَاهِدِي فَيَا أَقَامُونِي .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ سَبَّحَانَهُ فِي أَنْوَابِهِمْ وَلَا يَرَامُ إِلَّا مَنْ قَارَبَهُمْ فِي مَعْنَاهُمْ . اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَحْوَالِهِمْ ، وَفِي الْجُمْلَةِ : طَيْرُ السَّمَاءِ عَلَى الْأَفْهَامِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلُوا يَا نُوحُ قَدْ جَاءَ لَنَا فَاكْزَرْتُ
جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

أوضح لهم من البراهين مالوا أمعنوا النظر فيه ثم لم اليقين ، ولكنهم أصروا على
الجلود ، ولم يمتنعوا من الموعود بشير المشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

أقر بالعبودية ، وتبرأ عن الحول والقوة ، وأحال الأمر على المشيئة . ولقد أنصف من
لم يجاوز حده في الدعوى . والأنبياء عليهم السلام — وإن كانوا أصحاب التحدى للناس
بمعجزاتهم فهم معترفون بأنهم موقوفون عند حدودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أُوْدْتُ أَنْ
أَنْصَحَ لَكُمْ ، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ
رُجْعُونَ ﴾

من لم يساعده تعريف الحق — بما له بحكم النجاة — لم ينفعه نصيح الخلق في النهاية .
ويقال من لم يؤسسه الحق لوصول في آزاله (١) لم ينفعه نصيح الخلق في حاله
ويقال من سبق الحكم له بالضلالة أتى ينفعه النصيح وبسط الدلالة ؟
ويقال من لم تساعده قسمة السوابق لم ينفعه نصيح الخلق .

قوله : « إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » : من المحال اجتماع الهداية والغواية ؛ فإذا أراد
الله بجوم الغواية لم يصح أن يقال إنهم من أهل الهداية .

ثم بين المعنى في ذلك بأن قال « هُوَ رَبُّكُمْ » ليعلم المالمون أن الرب تعالى له أن يفعل
بعباده ما شاء بحكم الربوبية .

(١) أى بما سبقته به القصة — حسب تغيير القشيري في مواضع أخرى .

قوله جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِّي افْتَرَيْتُهُ

فَقُلْ أَعْرِضُوا عَنْهُ عَالِمُونَ﴾

ومهما وصفتوني فإني أجيب الله... وكلُّ مُطالِبٍ يفعله دون فعلٍ صاحبه .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَوْحِي إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ

قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

عَرَفَهُ الْحَقُّ أَنَّهُ غَفِيٌّ عَنْ إِيْمَانِهِمْ ، فَكَشَفَ لَهُ أَحْكَامَهُمْ ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ قَدْ سَبَقَ

الْحُكْمُ بِشِقَائِهِمْ ، فَضَدَّ ذَلِكَ دَعَا عَلَيْهِمْ نُوحٌ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — بِالْإِهْلَاكِ .

وَيَقَالُ لَمْ يَدْعُ عَلَيْهِمْ مَا دَامَ لِمَطْمَعٍ فِي إِيْمَانِهِمْ مَسَاغٌ ، فَلَمَّا حَصَلَ الْعَكْسُ نَطَقَ

بِالْتَّمَسِ هَلَاكِهِمْ .

قوله جل ذكره: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا

وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الْدِّينِ نَظَلُّوا إِلَيْهِمْ

مُفْرَقُونَ﴾

أَيُّ قَوْمٍ — بِشَرِّطِ الْعِبُودِيَّةِ — بِصْنَعِ السَّفِينَةِ بِأَمْرِنَا ، وَتَحَقُّقِ شَهَادَتِنَا ، وَأَنَّكَ بِرَأْيٍ

مِنَّا . وَمَنْ عَظِمَ إِطْلَاقُهُ عَلَيْهِ لَمْ يَلَاظِ نَفْسَهُ وَلَا غَيْرَهُ ، لَا سَبَاقَ وَقَدْ تَحَقَّقَ بِأَنَّ الْمُجْرِيَّ

هُوَ سَبَّاحُهُ .

وَقَالَ لَهُ : وَاعِ حَدَّ الْأَدَبِ ، فَمَا لَمْ يَكُنْ لَكَ إِذْنٌ مِنَّا فِي الشَّفَاعَةِ لِأَحَدٍ فَلَا تُخَاطِبُنَا فِيهِمْ .

وَيَقَالُ سَبَقَ لَمْ الْحُكْمُ بِالْفَرَقِ — وَأَمْوَاجُ بَحْرِ التَّقْدِيرِ تَتَلَاظِمُ — فَكُلٌّ فِي بَحَارِ الْقُدْرَةِ

مُفْرَقُونَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ بِحُكْمِهِ فَحَلَّهُ فِي سَفِينَةِ السَّنَايَةِ .

وَيَقَالُ كَانَ قَوْمُ نُوحٍ مِنَ الْفَرَقِ فِي بَحَارِ التَّقَطُّرَةِ ، وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا غَرَقِي فِي بَحَارِ الْقُدْرَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ وَكَلِّمْهُ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ

قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنِّي تُخِشُّونَ

مِنِّي فَأَنَا تُخِشُّ مِنْكُمْ كَمَا تُخِشُّونَ﴾

لما تحقّق بما أمر الله به لم يأت به عند إمضاء ما كُلف به بما سيع من القيل ، ونظر إلى الموعد بطرف التصديق فكان كشاهد له قبل الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ فسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

لا طاعة لخلق في مقاساة تقديره -- سبحانه -- إلا من تحمل عنه فضله ما يحمله بحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ﴾

طال انتظارهم لما كان يتوعدّهم به نوح عليه السلام على وجه الاستبعاد ، ولم يزد هم تطاول الأيام إلا كفرًا ، وصمًا على عقد تكذيبهم .

ثم لما أتاهم الموعد لإلهم بنّة ، وظهر من الوضع الذى لم يُحيوه فأر الماء من التنور المسجور ، وجادت السماء بالمطر المعبور ^(١) .

« قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين » : استيقاظ التناسل .

ويقال : قد يؤتى الخنزير من مأمته ؛ فإن إبليس جاء إلى نوح — عليه السلام — .

وقال : احملى في السفينة فأبى نوح عليه السلام ، فقال له إبليس : أما علمت أنى من للنظرين إلى يوم معلوم ، ولا مكان لي اليوم إلا في سفينتك ؟

فأوحى الله إلى نوح أن يحمله معه .

ويقال لم يكن لابن نوح معه مكان ، وأمر يحمل إبليس وهو أصعب الأعداء !

وفى هذا إشارة إلى أن أسرار التقدير لا تجري على قياس الخلق ؛ كأنه قيل له : يا نوح . . . ابنك لا تحمله ، وعدوك فأذخه ، فآله سبحانه فقال لما يريد ^(٢) .

(١) أى الجارى .

(٢) فى هذه الإشارة تلبيح إلى قاعدة فى مذهب القشيري أن أفعال الله لا تخضع لما ألف الناس من مقاييس دنية .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾

وما آمنَ معه إلا قليلٌ ﴿﴾

«إلا من سبق عليه القول» بالثبوت . وفيه تريف بأن حكم الأزل لا يردُّ ، والحق سبحانه — لا يَنَارُغُ ، والجبار لا يُخَاصَمُ ، وأن من أقصاه دبه لم يَدْنِهِ تَقْيِيهُ ولا يَرُدُّ ولا وَعَقْل .

«وما آمن معه إلا قليل» ولكن بآرك الحق — سبحانه — في الدين نَجَامٌ من نُسُلِهِ ، ولم يدخل خَلَلٌ في السكونِ بعد هلاكِ مَنْ أَهْلَكَ مِنْ قَوْمِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِّمَهَا

وَمِرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿﴾

عَرَفَ أَنْ نَجَاتِهِ مِنَ التَّطَرُّقِ لَمَّا تَقَاطَرَتْ لَيْسَتْ بِالْجَلِيلِ — وَإِنْ تَوَعَّتْ وَكَثُرَتْ ، بِاسْمِ اللَّهِ سَلَامَتُهُ ، وَتَوَكَّلِهِ عَلَى اللَّهِ نَجَاتُهُ وَرَاحَتُهُ ، وَتَفَضُّلُهُ — سبحانه — صَلَاحُهُ وَعَاقِبَتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمِنْ نَجْوَىٰ نَجْوَىٰ بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ

يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ

الْكَافِرِينَ ﴿﴾

وكان في معزل بظاهره ، وكان في سرِّ تقديره أيضاً بمعزل عما سبق لنوح وقومه من سابق

فضله . فحينما نطق بِلِسَانِ الشَّقَّةِ وقال : «يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين» — لم

يقُلْ له : ولا تكن مع الكافرين ؛ لأن حالته كانت مُلْتَبِسَةً عَلَى نُوحٍ إِذْ كَانَ ابْنُهُ يَنَاقِضُهُ —

فَقِيلَ له : يا نوح إنه مع الكافرين لأنه في سابق حُكْمِنَا مِنَ الْكَافِرِينَ .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَتَصِفِّيٰ مِنْ

لَاءِ قَالَ لَا عَلِيمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ

إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ

فَكَانَ مِنَ الْمُنْفَرِقِينَ ﴿﴾

أَخْطَأَ مِنْ وَجِبِينَ : رَأَى الْهَلَاكَ مِنَ الْمَاءِ وَكَانَ مِنَ اللَّهِ ، وَرَأَى النِّجَاةَ وَالْعِصْمَةَ مِنَ الْجَبَلِ
وَمَا مِنْ اللَّهِ ، قَالَ لَهُ نُوحٌ : لَا عَلِيمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . قِيلَ أَرَادَ لَا مَعْصُومَ الْيَوْمَ مِنْ اللَّهِ .
وَقِيلَ لَا أَحَدَ يَعْقِمُ أَحَدًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، لَكِنْ مَنْ رَحِمَهُ رَبُّهُ فَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَهُ عَاصِمٌ
وَهُوَ اللَّهُ .

ولقد كان نوح — عليه السلام — مع ابنه في هذه المخاطبات فجاءت أمواج الماء وحالت
بينهما وصار من المفترقين ، فلا وعظه ونصحه نفعاه ، ولا قوله وتذكيره نجيّاه وخلّصاه .
ويقال احتمل أن لو قبل له يا نوح عرفنا العالم بسطائك ولا عليك إن عرف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ
أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

فلما غرق ابن نوح سَكَنَ الْمَوْجُ وَنَضَبَ^(١) الْمَاءُ وَأَقْلَمَتِ السَّمَاءُ ، وَكَأَنَّهُ كَانَ الْمَقْصُودُ
مِنَ الطُّوفَانِ أَنْ يَغْرِقَ ابْنَ نُوحٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — وَقِيلَ :
عَجِبْتُ لِمَسَى الدَّهْرُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا اقْتَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي
مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ
فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
الْجَاهِلِينَ ﴾

(١) وردت (نضب) بالصاد ، وهي خطأ في النسخ ، والمراد (نضب) الماء أي غار وانحصر ، فهي
ملائمة لإفلاح السماء أي إساكها من المطر .

خاطَبَ الحقَّ — سبحانه — في باب إِيَّاهُ ، واستعطفَ في السؤال فقال :

« إن ابني من أهلي » : فقال له : **لأنه ليست من أهل الوصلة قِسَّتُهُ** — وإن كان من أهلك نسباً ولحبةً ، وإنَّ خطيأك في بابهِ **عَمَلٌ غَيْرُ مَالِحٍ** ، أو إنه أَيْضاً **عَمَلٌ غَيْرُ مَالِحٍ** ^(١) .
« فلا تأسأَن ما ليس لك به علم » : أي سَأَرْتُ غَيْبِي في حل أوليائي وأعدائي ، فلا يَئُمُّ مِرٌّ قَدِيرِي .

قوله : « إني أعظك » : وذلك لِحُرْمَةِ شَيْخُوخته وَكَرْبِهِ ، ولأنه لم يَسْتَجِبْ له في وَلَدِهِ ، فتَدَارَكَ بِحُسْنِ الخُطَابِ قَلْبَهُ .

وقيل إن ابن نوح بَقِيَ من الزلْجاجِ رَيْباً وَقْتَ اشتغال أبيه بافْخَاذِ السفينة ، فلما ركب نوحُ السفينةَ دَخَلَ ابنُهُ في البيتِ الِذي أَخْضَعَهُ من الزلْجاجِ ، ثم إن الله تعالى سَلَطَ عليه البَوْلَ حتى امتلأَ بَيْتُ الزلْجاجِ من بَوْلِهِ ؛ فَفَرَّقَ السَّكَلُ في ماء البحر ، وغرق ابنُ نوحٍ في بَوْلِهِ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا مَفْرَأَ مِنَ الْقَدَرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَنْفِرْ لِي وَتَرْجِفِي أُرْكُنِي مِنَ الْخُلَسَرِ ﴾

نَسِيَ نوحٌ — عليه السلام — حديثَ ابنه في حديثِ نفسه ، فاستعاذَ بفضله واستجارَ بِلطْفِهِ ، فوجدَ السلامةَ من رَبِّهِ في قوله جل ذكره :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأَمْرٌ وَسْتَعْتَمُّهُمْ ثُمَّ يَتَّخِذُونَ مِنَّا عِذَابَ آلِيمٍ ﴾

طَهَّرَ وَجْهَ الأرضِ من أعدائِهِ ، وحفظَ نوحاً عليه السلام من بَلَاءِهِ ، هو ومن معه من أصدقائه وأقربائه .

(١) وحل هذا الرأي تكون نجات قوم نوح بسبب علمهم المالح لا بسبب قربانهم له .

والأُمُّ التي أَخْبَرَتْ أَنَّهُ سَيَمَتُّهُمْ ثُمَّ يَكْسِبُهمُ الْعَذَابُ ثم الذين ليسوا من أهل السعادة .

قوله جل ذكره : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ

مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ

من قبل هذا ، فاصبرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ

لِلْمُتَّقِينَ ﴿

أَعْلَمْنَاكَ بهذه الجملة ، وأنبأناك بهذه القصص لما خصصناك من غير أن تتعلمه من شخص ،
أو من قراءة كتاب ؛ فَإِنَّ قَابَلَكَ قَوْمَكَ بالتكذيب فاصبرْ ، فَمَنْ قَرِيبٌ تَتَغَلَّبُ
هذه الأمور .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ

اعبدوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿

كَلَّمَ الْأَنْبِيَاءَ — عليهم السلام — بالذهاب إلى الخلق لا سيما وقد عاينوا — بالحق —
مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنْ فَتْرَةِ الْمَلَأْ ، وَلَكِنَّهُمْ تَحَمَّلُوا ذَلِكَ حِينَ أَمَرَهُمُ الْخَلْقُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِمْ فَرَضُوا ،
وَأُظْهِرُوا الدَّلَالَةَ ، وَأَذَوْا الرِّسَالَهَ ، وَلَكِنْ مَا زَادَ النَّاسُ إِلَّا فِتْرَةً عَلَى فِتْرَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ

أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿

لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ — عليهم السلام — إِلَّا وَاتَّخَذَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ فِي الْجَمْعَةِ
أَجْرًا إِلَّا مِنْ اللَّهِ وَلَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ قُومُوا

إِلَيْهِ بِرُسُلِهِ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ تَذَرَارًا

وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا

بُحُورَيْنِ ﴿

استغفروا ربكم ثم توبوا إليه بعد الاستغفار ، من توبكم أن نجاتكم باستغفاركم .
بل تحققوا بأنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضل ربكم ؛ فبفضله وبتوفيقه توصلتم إلى
استغفاركم لاستغفاركم ، وصلتم إلى نجاتكم ، ويرحمته أهلكم إلى استغفاركم ، وإلا لكان وصلتم
إلى توبكم ولا إلى استغفاركم .

والاستغفار قرع باب الرزق ، فإذا رجع العبد إلى الله بحسن تضرعه ، فتح عليه أبواب
رحمته ، ويسر له أسباب نعمته .

ويقال يُزَلُّ على ظواهركم أمطار النعمة ، وعلى ضرائركم سرائركم يُزَلُّ أنواع المنة ،
وزيدكم قوة على قوة ؛ قوة تحصلون بها توسعة أنواع الرزق ، وقوة تحصلون بها تحسب
أنصاف الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا هُوَذَا مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِ الْكِتَابِ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ
لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ما زادم هود عليه السلام بطلا في الآية وإيضاحاً في المعجزة إلا زادم الله تعالى عسى
على عسى ، ولم يزدكم بصيرة ولا هدى ، ولم يزدوا في خطايهم إلا بما ذلوا على قوط
جهالتهم ، وشدة ضلالتهم بعد إطنابهم وانهايم^(١) ، وقالوا :

﴿ إِنْ قَوْلُ إِلَّا عَرَاكِ بِغَضِ الْكِتَابِ
يَسُوءُ قَالِ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا
أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وكيف ظنوا أن آلهتهم تمس أعداءهم بسوء وهي لا تضر أعداءها ولا تنفع أوليائها ؟
فهؤلاء النوايل عليهم مُستولية . ثم إن هوداً عليه السلام أفصح عن فضل ربه عليه ؛
وصرح بإخلاصه وحسن يقينه فقال : إني بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ، ثم قال :

﴿ مِنْ دُونِهِ ، فَكِيدُونِي جِئْتُمْ
ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴾ .

(١) يقال نهب فلان أي تناوله بلسانه وأخطأ له القول .

فَلَمْ يَجْتَنِبْ مَعَهُمْ إِلَى تَضَرُّعٍ وَاسْتِغْثَاءٍ ، وَلَا رَاوَدُهُمْ فِي سَلَمٍ وَاسْتِهْمالٍ ، وَلَمْ يَتَّصِفْ
فِي ذَلِكَ بِرُكُونٍ إِلَى حَوْلِهِ وَمُلْتَهُ ، وَلَمْ يَسْتَبِدْ إِلَى جِدِّهِ وَقُوَّتِهِ بَلْ قَالَ :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ
مِمَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

أَخْبَرَ أَنَّهُ بِمَوْعِدِ اللَّهِ لَهُ بِتَنْصُرِهِ وَاقْتَى ، وَأَنَّهُ فِي خُلُوصِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ وَفِي صِفَاءِ مَعْرِفَةِ
(غَيْرُ مُفَارِقٍ) ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا قَدْ أَهْلَكْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ
بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴾ .

أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ قُلْ لَمْ : إِنْ تَوَلَّوْا وَلَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَقَدْ بَلَّغْتُ مَا حُمِّلْتُ مِنْ رِسَالَتِي ،
وَإِنِّي وَاقْتُ بِأَنَّ اللَّهَ إِذَا أَهْلَكَكُمْ يَأْتِ بِأَقْوَامٍ آخَرِينَ سِوَاكُمْ أَطْوَعَ لَكُمْ مِنْكُمْ ، وَإِنْ
أَفْنَاكُمْ مَا اخْتَلَّ مُلْكُهُ ؛ إِذْ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — بِوُجُودِ الْأَغْيَارِ لَا يَلْحَقُهُ زَيْنٌ
— وَإِنْ وَحَدُوا ، وَيَقْدِمُ لَا يَمْسُهُ شَيْءٌ — وَإِنْ جَحَلُوا وَالْحَمْدُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ
عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ .

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِإِهْلَاكِهِمْ نَجَّيْنَاهُ هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِرَحْمَتِنَا ، وَلَمْ يَقُلْ بِاسْتِغْثَائِهِ النِّجَاةَ
بِوَسِيلَةِ نُبُوَّتِهِ ، أَوْ بِجَسَامَةِ طَاعَتِهِ وَرِسَالَتِهِ بَلْ قَالَ : « بِرَحْمَةٍ مِنَّا » ؛ لِيَمْلِكَ الْكَافَّةُ أَنْ

(١) بعد (معرفة) يوجد بيان مما يدل على سقوط خبر أن وقد أكلنا النقص بكلمة ملائمة من عندنا
نتفق مع السيلاني والنفسي حسبنا نظم من طريقة القشيري .

الأنبياء — عليهم السلام — ومن دوتهم عتيقُ رحمة ، وغريقُ ميتة ، لا لاستحقاقٍ أحدي
ولا لواجبٍ على الله في شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتِلْكَ آيَاتُ الَّتِي نُرِيهِمْ
وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ

جبارٍ عَنِيذٍ ﴾

في إنزالِ قصصهم تسلية للرسول — صلى الله عليه وسلم وآله — فيما كان يقامى من
العناء ، وللمؤمنين فيما بنوا من حسن البلاء ، والعدة بتبديل — ما كانوا يلقونه من
الشدة — بالرجاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَلَيْنَا لَكُنُوزَهُمْ
أَلَّا يَبْذُلُوا لِمَا دُونَهُمْ هَوَاهُ ﴾

أخبر أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، أمّا في هذه الدنيا فبالاستئصال بأليم الشدة وماتعة
من اللذة ، ثم ما يلقونه في الآخرة من تأييد العقوبة . ويقاوم عن رحمة الله أصعب من صنوف
كل تلك الهنة ^(١) ، وكما قيل :

تَبَدَّلَتْ وَتَبَدَّلْنَا وَاحْصَرْنَا لِيَنْ أَتْبَغَى هَوَاهُ لَيْلَى فَلَمْ يَجِدْ

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِلَى مُنَادٍ أَخَاهُ صَاحِبًا قَالَ يَقُومِ
اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ
فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَاحِبُ تُدْعَى كُنْتَ
فِينَا مَرْجُوءًا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ

(١) وردت (الهبة) وهي خطأ في المصحح كما هو واضح .

تَصَبَّهَ مَا يَصْبُدُ أَكَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ
 عَمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرِيبٌ * قَالَ يَا قَوْمِ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي
 وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ قَمَنَ يَنْصُرُنِي مِنَ
 اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
 تَخْصِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ
 آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ
 وَلَا تَسْوَها يَسُوءُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ
 قَرِيبٌ * فَخَرُّوا قَعَالِ تَتَّعُوا
 فِي حَارِكِ ثَلَاثَةَ أَلْيَمٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
 مَكْنُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَيَّحِينَآ
 صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ مَنَّا
 وَمِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ رَأَوْا رُكْبَةً مِنَ
 الْمَازِي * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
 فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ * كَأَن
 لَّمْ يَمْنُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ نَمُودًا كَفَرُوا
 رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ النُّمُودِ

عَقِيبَ مَا مَضَىٰ مِنْ قِصَّةِ عَادَ كَرَقِصَةِ نَمُودَ ، وَنَمُودِهِمْ قَوْمِ صَالِحَ ، وَقَدْ انْخَرَطُوا
 فِي النَّارِ فِي سِلْكِ مَنْ سَبَقَهُمْ ، فَلَكِحَتِ الْعُقُوبَةُ بِجَمِيعِهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ قَابِلُوا نَبِيِّنَ — عَلَيْهِ
 السَّلَامُ — بِالتَّكْذِيبِ ، وَلَمْ يَقِفُوا عَلَىٰ مَا نَبَّهَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، وَأَصْرُوا عَلَىٰ
 الْإِقْرَارِ أَنَّهُمْ فِي شَأْنِهِ لَفِي شَكٍّ مَرِيبٍ .

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ صَالِحًا لَمْ يَرْجَعْ — فِي التَّبْلِيغِ — عَلَىٰ تَقْصِيرٍ .

وَبَعْدَ تَرْدِّهِمْ وَامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِنَابَةِ ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَىٰ تَرْكِ الْإِجَابَةِ حَقِّ عَلَيْهِمْ

ما توعدهم به من عذاب غير مكنوب ، ونجى فيهم — عليه السلام — ، ونجى من اتبعه من كل عقوبة .. سته منه — سبحانه — في انجاء اوليائه امضاها ، وعادة في تطفه ورحته بالمستحقين اجرها .

قوله جل ذكره ﴿ ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى
 قالوا سلاما قال سلام فاكتب ان
 جلع يعجل خنيذ • فلما رأى ايدىهم
 لا تصل اليه تكبرهم واوجس
 منهم خيفة قالوا لا تحف انا ارسلنا
 الى قوم لوط ﴾

أخبر أن الملائكة أتوا إبراهيم — عليه السلام — بالبشارة ، وأخبر أن إبراهيم — عليه السلام — أنكرهم ، ولم يعرف أنهم ملائكة . فيحمل أنه — سبحانه — أراد أن تكون تلك البشارة فجأة من غير تنبيه لتكون آتم وأبلغ في إيجاد السرور ، ولا سببا وقد كانت بعد نرف لأنه قال : فأوجس منهم خيفة .

ويقال إن إبراهيم — عليه السلام — كان صاحب النبوة والخلة والرسالة فلا بد أن تكون فراسته أعلى من فراسة كل أحد ، ولكنه في هذه الحالة لم يعرف الملائكة ليتم أن الحق — سبحانه وتعالى — إذا أراد امضاه حكم يمد على من أراد عيون الفراسة ، وإن كان صاحب الفراسة هو (خليل)^(١) الله ، كما ساء الفراسة على نبيها — صلى الله عليه وسلم — في قصة الإفك إلى الوقت الذي نزل فيه الوحي ، وكذلك التبس على لوط — عليه السلام — إلى أن تبين له الأمر .

وتكلموا في هذه « البشرى » ما كانت ؛ فقيل كانت البشارة بإسحاق ، وبأنه سيولد له ولد من نسله وملائته ؛ قال تعالى : « ومن وراء إسحاق يعقوب » .

ويقال : الامة قومه — حيث كانوا مرسلين بإهلاك قوم لوط — عليه السلام .

(١) سقطت كلمة (خليل) فأثبتنا ما لحاجة السياق إليها .

ويقال بشارة بالخطِّ وتعلم الوصلة .

ويقال إن الخُلة والحبّة بناؤهما كتمان السرّ؛ فَيَعْلَمُ أَنَّهُمْ أُرْسِلُوا بِبِشَارَةِ مَا وَلَمْ يَكُنْ
لِلنَّاسِ إِعْلَامٌ ، قَالَ تَعَالَى :

• بين المحبين قولٌ لست أفهمه •

وقال إن تلك البشارة هي قولهم : « سلاماً » وأن ذلك كان من الله ، وأى بشارة أنتم من سلام الحبيب ؟ وأى صباح يكون مُقْتَتِعاً بسلام الحبيب فصباحٌ مبارك ، وكذلك الميت بسلام الحبيب فهو مبارك .

قوله : « فإلْبَثُ أَنْ جَاءَ بِعَجْلٍ حَنِيفٍ » : لَأَتَوْهُمْ أَضْيَافًا قَامَ بِحَقِّ الضِّيَافَةِ ، قَسَمَ خَيْرٌ مَا عِنْدَهُ مِمَّا شَكَرَهُ الْحَقُّ عَلَيْهِ حَيْثُ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : جَاءَ بِعَجْلٍ سَيِّئٍ^(١) . وَالْحَمْدُ تَوْجِبُ اسْتِكْثَارَ الْقَلِيلِ مِنَ الْحَبِيبِ وَاسْتِقْلَالَ مَا مِثْلُكَ الْحَبِيبِ ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ إِذَا تَزَلَّ الضَّيْفُ فَلَوَاجِبُ الْمَادَّةِ إِلَى تَقْدِيمِ الشُّفْرَةِ^(٢) ، مِمَّا حَضَرَ فِي الْوَقْتِ .

قوله : « فَمَا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكْرَمَ » تمام إحسان الضيف أن تتناول يَدَهُ مَا يُقَدَّمُ إِلَيْهِ مِنَ الطَّعَامِ ، وَالامْتِنَاعُ عَنْ أَكْلِ مَا يُقَدَّمُ إِلَيْهِ مَسْئُودٌ فِي جَمَلَةِ الْجَوَاءِ مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ الظَّرْفِ ^(٣) . وَالْأَكْلُ فِي الدَّعْوَةِ وَاجِبٌ عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ .

« وأوجس منهم خيفة » : أى خاف أنه وقع له خللٌ في حاله حيث امتنع الضيفانُ عن أكل طعامه ؛ فأوجس الخيفة لهم لا منهم .

وقبل إن الملاكمة في ذلك الوقت ما كانوا يتزلون جبراً إلا العقوبة ، فلما امتنعوا عن الأكل ، وعلم أنهم ملاكمة خلف أن يكون قد أرسِلوا العقوبة قومه .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَمْرُهُ قَائِمَةٌ﴾ ، فَضِيحَةٌ ،
قَبَشْرُنَاهَا بِاسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ

(١) آية ٢٦ سورة القاريات .

(٢) السفرة = طعام يصنع للمسافر ، أو المائدة وما عليها من طعام (الوسيط) .

(٣) الطرف : (يقال ظرف فلان ظرفاً كان كيما حاذقاً ، والطرف في اللسان ، البلاغة ، وفي الوجه الحسن ، وفي القلب الذكاء) الوسط .

إِسْحَاقَ يَتَقَوَّبُ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا
أَلَيْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَتْلَى شَيْخًا
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا :
أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟ رَحْمَةُ اللَّهِ
وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ
حَمِيدٌ مُبَجَّدٌ *

كانت امرأته قائمةً بخدمة الأضياف ، فضحكت تَعْجَبًا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهَا فِي هَذِهِ
السَّنِ وَلَدٌ .

وقيل كان سرورها بالسلامة . ويحتمل أنها ضحكت تَعْجَبًا مِنْ امْتِنَاعِ الضَّيْفَانِ عَنْ
الْأَكْلِ . أَوْ تَعْجَبَتْ مِنْ كَوْنِ الْمَلَائِكَةِ فِي صُورَةِ الْبَشَرِ لَمَّا عَلِمَتْ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ . ويحتمل
أَنَّهُ ضَحِكَتْ لِاسْتَبْشَارِهَا بِالْوَلَدِ وَقَدْ بُشِّرَتْ بِاسْتِحْقَاقِهِ وَمِنْ وَرَائِهِ يَتَقَوَّبُ ، ثُمَّ أَفْصَحَتْ عَمَّا
يَنْطَوِي عَلَيْهِ قَلْبُهَا مِنَ الْعَجَبِ فَقَالَتْ : « أَلَيْدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَتْلَى شَيْخًا ؟ إِنَّ هَذَا
لَشَيْءٌ عَجِيبٌ » ١

فَأَحَالَ الْمَلَائِكَةُ خُلُقَ الْوَلَدِ عَلَى التَّقْدِيرِ : « قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟ » فزال موضعُ
العجب ، وَقَالُوا : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » فَبَقِيَ الدِّعَاءُ فِي شَرِيفَتِنَا بِآخِرِ
الآيَةِ حَيْثُ يَقُولُ الدَّاعِي : كَمَا صَلَّيْتَ وَبَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِهِ ؛ نَبِّئْ لِمَنْكَ حَمِيدٌ مُبَجَّدٌ .
وَالْبَرَكَةُ الزِّيَادَةُ ؛ فَقَدْ انْصَلَّ النَّسْلُ مِنَ الْخَلِيلِ ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْهُمْ — وَهُمْ خَلَقُوا كَثِيرًا ،
وَالْعَرَبُ مِنْ أَوْلَادِ إِسْمَاعِيلَ — وَهُمْ أَلْبَمُ الْغَفِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ
وَجَلَّتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾
لَمَّا كَانَتْ مُرَاجَسَتُهُ مَعَ اللَّهِ فِي أَمْرِ قَوْمِ لُوطٍ بِحَقِّ اللَّهِ لَا لِحَظِّ نَفْسِهِ سَلَّمَ لَهُ الْجِدَالَ ، وَهَذَا
يَدُلُّ عَلَى عُلْوِ شَأْنِهِ حَيْثُ تَجَاوَزَ عَنْ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾

والإشارة فيه أنه كان يقابل ما وُردَ على ماله ونفسه وولده بالاحتمال ، ولما كان حقُّ
الحقِّ في حديث قوم لوط أخذَ في الجدالِ إلى أن أبانَ له سلامةَ لوط — عليه السلام —
وقال الله سبحانه : —

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ
جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابُ
غَيْرُ مُرْدُوذٍ ﴾

يا إبراهيم أعرض عن هذا فإنَّ الحكمَ بعنايهم قد نزلَ ، ووقتُ الانتقامِ منهم
قد حصل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ
وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ
عَصِيبٌ ﴾

أى أنه حزن بسبب خوفه عليهم أن يجزى عليهم من قومه ما لا يجوز في دين الله ؛
فذلك الحزن كان لحقَّ الله لا لتصيبٍ له أو حفظٍ لنفسه ، ولذلك حُجِدَ عليه لأنَّ مَقَاسَةَ الحزنِ
لحقَّ الله محمودٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ
كَانُوا يُعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ
هَؤُلَاءِ بَنَاتُ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ
مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾

قوله « هَؤُلَاءِ بَنَاتُ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » : قيل إنه أراد به نساء أُمته ، فنبى كُلُّ أمةٍ
مثل الوالد لأولاده في الشفقة والنصيحة .
ويقال إنه أراد بناتِه مِنْ صُلْبِهِ .

« أليس منكم جل رشيد » يرتدى جليلب اللبسة ، ويؤثر حق الله على ما هو مقتضى البشرية ، ويرعى حق الضيافة ، ويترك مصيبة الله ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَتَدْعُلَيْنَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ

حَقِّ وَأَنْتَ لَتَسْمَعُنَّ مَا نُرِيدُ ﴾

أصروا على عصيتهم ، وزهدوا في المأذون لهم شرعاً ، وانجروا إلى ما قدم إلى الهوى طبعاً ، وهذه صفة البهائم ؛ لا يدعها عقل ، قال تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل »

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى

رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾

لو أن لي قوة فأنعمكم عن ارتكاب المصيبة ؛ فإن أم^(١) الأشياء على الأولياء ألا يجزئ من المصيبة ما ليس لله فيه رضا .

ويقال : لو كان لي قدرة لإيصال الرحمة إليكم — مع ارتكابكم للمعصية — كرحمتكم وتجاوزت عنكم .

ويقال لو أن لي قوة لهديتكم إلى الدين ، ولعصمتكم عن ارتكاب المخالفات .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا فُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ

يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ

مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْهَيْكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ

إِلَّا أَمْرًا تَكُ^(٢) أَنْتَ سَمِيعُهُمَا أَصَابَهُمْ ﴾

لما خاف به الأمر كشف الله عنه السر فعرف إليه الملائكة وقالوا : لا عليك فإنهم لا يصلون إليك بسوء ، وإننا نرسل ربك جئنا لإهلاكهم ، فخرج أنت وقومك من بينهم ، واعلم أن من شاركهم في عملهم بنوع فله من العذاب حصة . ومن جعلهم أمراً لك القى كانت تدل القوم على تلك لفظة الناحشة ، وإن العقوبة لاحقة بها ، مدركة لها .

والإشارة منه أن الجسارة على الزلل وخيبة العاقبة — ولو بد حين ، ولا ينفع المرء اتصافه بالأنبياء والأولياء إذا كان في الحكم والقضاء من جملة الأشقياء .

(١) أفضل التفضيل هنا مأخوذ من الميم ، أي (فإن أكثر ما يسبب لهم للأولياء) .

(٢) معنى من (فأسر بأهلك) منصوب .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ
قَرِيبٌ﴾ .

ما هو كائنٌ قَرِيبٌ ، والبعيدُ ما لا يكون . وإنَّ مَنْ أَقْدَمَ على عَظْوٍ نَم حُوسِبَ
عليه — ولو بعد دَهورٍ خاليةٍ وأعوامٍ غيرِ محصورةٍ ماضيةٍ — تصور له الحالُ كأنه وقتُ
مُبَاشَرَتِهِ لتلك الرَّقَّةِ .

قوله جل ذكره : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ
مُّنْصَوِّدٍ﴾ .

سُنَّةُ اللَّهِ في عبادِهِ قلبُ الأحوالِ عليهم ، والانتقالُ مِنْ سِتِّاتِ الحُدُوثِ ، أمَّا الذي
لا يزول ولا يحول فهو الذي لم يزل ولا يزال بنعوته الصّدية .
وإنَّ مَنْ عاش في السرورِ دَهرًا ثم تبدلَ يُسرُهُ عُسرًا فَكُنَّ لَمْ يَرَقْ قطُ خيرًا ، والذي
عاش طولَ عمره ثم أُعْطِيَ يُسرًا فَكُنَّ لَمْ يَرَقْ عُسرًا .
قال تعالى : « وَتَقَلَّبَ أَقْدَانُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَأَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ » (١) .

قوله جل ذكره ﴿مُشَوِّمَةً﴾ عند ربك وما هي مِنْ
الظالمينِ بعبادِ .

ذكر سبحانه ما نالهم من العقوبة على عصيانهم ، ثم أخبر أنَّ تلك العقوبةَ لاحقةٌ بمن سَلَكَ
سبيلهم تحذيرًا لمن لم يتبَّعهم إذا عرف طريقهم ، كما قيل :

وَمَنْ يَرْكَبْ وَلَمْ يَتَّبِعْ بِعَدِي فَإِنَّ لِكُلِّ مَعْصِيَةٍ عِقَابًا

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَخَذُوا مِيثَاقًا بَالِ يَوْمِ
أَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

(١) آية ١١٠ سورة الأنعام .

وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ
إِنِّي أُرَآكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٌ * وَيَأْتُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَنْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ *

أخبر سبحانه عن قصتهم ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، وما نالهم من البلاء العظيم .
وفي الظاهر لم كانت أجرامهم كاليسيرة ، ولقد فهم يدون أمثالها صغيرة ، ولا يقولون
لأنها كبيرة ، وإن ذلك تطفيف في المكيال .

وليس قَدَّرُ الأجرام^(١) لأعيانها ، ولكن لخالفه الجبار عَظُمُ شأنها ، قال تعالى :
« وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ »^(٢) .

ولما أن قال لم شعيب :

« بَقِيَةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ » .

يعنى التقليل من اللاليل أجدى من الكثير المَقْبِيهِ للوَالِ لم يقابلوا نصيحته لم
إلا باليناد والتمادى فها هو دائمٌ من الجحد والكنود .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ

أَنْ تَنْزِلَ مَا يَبْعِدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ

تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ

الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ .

استوطنوا مركب الجهل ، واستحلوا مشرب التقليد ، وأعقوا قلوبهم من استعمال
الفكر ، واستبصار طريق الرشـد .

(١) جمع (جرم) وهو الذنب .

(٢) آية ١٥ سورة النور .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
رَّبِّنِي وِرْقَتِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ .

الْبَيِّنَةُ نُورٌ تَسْتَبِيرُ بِهِ مَا خَفِيَ عَلَيْكَ تَحْتَ غِطَاءِ الْخَفَلَةِ .

والرزق الحسن ما به دوام الاستقلال ، وما ذلك إلا مقتضى عنايته الأزلية ، وحسنُ
توليهِ لشأنك — في جميع ما فيه صلاحك — من إتمام النعمة ودوام العصبة .

وقيل الرزق الحسن ما تنفني صاحبه لظلمته ، ولم يصبه نصبٌ بسببه .

وقيل الرزق الحسن ما يستوفيه بشهود الرزق ويحفظه عند التتم بوجوه الرزاق .

ويقال الرزق الحسن ما لا يُنسى الرزاق ، ويحمل صاحبه على التوسعة والإففاق .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلَأَ لَكُمْ
مَا أَنْتُمْ عَنْهُ﴾ .

يمكن للواعظ أو الناصح أن يساهل المأمور في كل ما يأمره به ، ولكن يجب
الآتي به ما ينهيه عنه ؛ فإنَّ الإتيان بجميع الطاعات غير ممكن ، ولكنَّ التجرد عن جميع
المحرّمات واجبٌ .

ويقال مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حُكْمٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي الْمَنَعِ عَنِ الْهَوَىٰ لَمْ يَكُنْ لَهُ حُكْمٌ عَلَىٰ غَيْرِهِ فَيَأْخُذُ بِهِ
إِلَيْهِ مِنَ الْهَدَىٰ .

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ .

مَدَارُ الْأَمْرِ عَلَى الْأَغْرَاضِ الْمَقْضِيَةِ حَسَنُ الْقَصْدِ بِالْإِصْلَاحِ ؛ فَيَقْرَنُ اللَّهُ بِهِ حَسَنُ التَّيْسِيرِ ،
وَمَنْ أَنْطَوَى عَلَى قَصْدٍ بِالسُّوءِ وَكَلَّ الْحَقَّ بِشَأْنِهِ التَّعْوِيقَ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ .

حَقِيقَةُ التَّوْفِيقِ مَا يَنْفَقُ بِهِ الشَّيْءُ ، وَفِي الشَّرِيعَةِ التَّوْفِيقُ مَا تَنْفَقُ بِهِ الطَّاعَةُ ، وَهُوَ قُدْرَةُ
الطَّاعَةِ ، ثُمَّ كُلُّ مَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ مِنْ تَوْفِيرِ الدَّوَاعِي وَفَنُونِ الْمُنْهَبَاتِ يُدْخِلُ مِنَ
جَمَلَةِ التَّوْفِيقِ — عَلَى التَّوَسُّعِ .

والتوفيقُ باللهِ ومن الله ، وهو — سبحانه — بإعطائه منفصلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

التوكل تفويض الأمر إلى الله ، وأمارته تركُ التدبير بشهود التقدير ، والثقة بالموعد عند
عدم الموجود . ويقين ذلك بانتفاء الاضطراب عند عدم الأسباب .

ويقال التوكلُ السكون ، والثقةُ بالمضمون .

ويقال التوكلُ سكون القلب بمضمون الربِّ

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُومُ لَا يَجْعَلُ لَكُمْ شِقَاقَ أَنْ

يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ

قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ

لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ .

تورثكم عنها لفتكم إياي فإيا أدهوكم إليه من طاعة الله أن يلحقكم من أليم العقوبة ما أصاب من

قدّمكم من الذين سرّتم على مناجيهم ، وما عهدكم بيمينهم عن تحقّتهم كيف حلّت بهم العقوبة ،
وكيف أنهم ما زادتهم كثرة النصيحة إلا غلوا في ضلالتهم ، وغتوا في جبايتهم ، وكما قيل .

وكم صفت في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتّصح

قوله جل ذكره : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ

إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

الاستغفار هو التوبة .

ومعنى قوله « ثم توبوا إليه » أى توبوا ثم لا تنقصوا توبتكم ؛ فهو أمرٌ باستدامة

التوبة ؛ فإذا لم يتصل وفاء المآل بصفاء الحال لم يحصل قبول ، وكان لم يكن ليا سلف
حصول .

« إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ » : برحم الصاة ويودهم .

ويقال برحمهم ولذلك يودونه ؛ فالودود يكون بمعنى المودود كحبيب بمعنى محبوب . والرحمة

تكون للملأى لأن المطيع بوصف استحقاقه الثواب على طاعته ، ثم ليس كل من يحب
السلطان في عمل الأكابر ، فالأصغر من الجند قد يحبون ذلك ، وأنشدوا :

ألا رب من يدنو ويذم أنه يودك ، والثاني أود وأقرب

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَعُهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ

وإنا لراك فينا ضيقًا ، ولولاه طك

لرجائك وما أنت علينا بعزيز ﴾ .

لاحظوا شعيباً بين الاستعصار فحرموا فهم ماني الخياط ، وأقرأوا على أنفسهم
بالجهل ، وأحالوا إغفاءهم إياه من الأذى على حشمتهم من رهط وعشيرته ، فتابهم عليه :—

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أُصْغِرُ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ

وَأَتَّخِذَ بَعْضَكُمْ بَعْضًا آلِيًا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ رَبِّي

بِمَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ .

أترؤن من حق رهطى ملا ترؤن من حق ربى ؛ وإن ربى يكافنكم على أعمالكم بما
تستوجبون في جميع أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَا قَوْمِ ائْتِلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ

إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ

وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا

جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

الصَّيْغَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ

جَانِبِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْتَبُوا فِيهَا إِلَّا

بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا يَبِغِدُ ثَوْدٌ ﴾ .

أرخی لم ستر الإهمال فلما أصرُّوا على تماديهم في النوايا حلت بهم العقوبة ، وصاروا
وكان لم يكن بينهم نافخ نارٍ ، ولا في حيارٍ الظالمين ديارٌ ، قال تعالى : « فاعتبروا
يا أولى الأبصار »

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ

مبين * إلى فرعون وملئيه ﴾

كُرِّر قصة موسى عليه السلام تنخيباً لشأنه ، وتنظيماً لأمره ، وتنبيهاً على علو قدره عند الله
وعلى مكانة الآيات التي أرسله بها ، ومجزاة الباعرة ، وبراهينه القاهرة ..

ويقال أصبُ عدوُّ قهرهٗ أولاً نفسه ، وقد دله — سبحانه — على ذلك لما قال : إلهي !
كيف أطلبك ؟

فقال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلي .

فَنَبَّهَهُ إِلَى استنصاره لنفسه ، وانكاره لله بقلبه ، فزادت صوته لما صار مصوباً عن
شهود فضل نفسه ، والسلطان الذي خصه به استولى على قلوب مَنْ رآه ، كما قال : « وَأَقْبِتُ
عَلَيْكَ حُبَّةَ مَيِّ » ^(١) فأراده أحدٌ إلا أخيه ، ثم إنه لم يأخض في الله ضعفٌ ، مثلاً لطم وجهه
فرعون — وهو رضيع — كما في القصة ، ولطم وجهه ملكٌ للوث لما طالبه بقبض روحه ..
كما في الخبر ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه لما رجع من سماح الخطاب عند المعاتبة ، وأقسم
بالجسارة على سؤال الرؤية ، وقتل القبطي لما استعان به مَنْ واقفه في العقيدة ، وقال الله إن هي
إلا فتنتك ^(٢) لما أخبره الحق بما عمله قومه من عبادة العجل بحكم الضلالة ... فني جميع
هنا بمجاوز الله عنه لما أعطاه من السلطان والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ

فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدَمُ قَوْمَهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ

لِلوَرْدِ ﴾

(١) آية ٣٩ سورة طه .

(٢) آية ١٥٥ سورة الأعراف .

رضوا بمناجبة فرعون ، فاستحقوا ما استحقه . لم يشعروا بخطيئهم ، وكانوا يحسبون أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا . وإنا ما أوردنا النارَ فهو إمامهم ، وسيطون ما أمابهم من الغرسان حين لا ينفع تضرعهم وبكلاؤهم ولا ينقطع عنايتهم وعناؤهم ، وتغلب خسارتهم وشقاؤهم — وذلك جزاء من كفر بمحبوبه ، وأسرف في مجاوزة حدوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

يُنْسِئَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾

يَتَّبِعُوا فِي عَاجِلِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، وفي آجِلِهِمْ مِنَ الْفُتْرَانِ وَالْجَنَانِ . والذي لم في الحال من الفرقة أعظم — في التحقيق — من الذي لم في المآل من الحُرقة ، وهذه صفة من استحقه الله بالعنة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ

مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

لم يكن في جملة من هُصِّلَ عليه من الأنبياء — عليهم السلام — من أكثر منه تبجيلا ، ولا فيمن ذكره من الأمم أعظم من أمته تفضيلا ، فكما تقدَّم على الأنبياء — عليهم السلام — تقدَّمت أمته على الأمم ، قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

فَاغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمْ جَاءَ أَمْرُ

رَبِّكَ وَمَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَنْبِيْهِ ﴾

لا يجوز الظلم في وصفه ، فتصرَّفه في ملكه بحق إلهيته — مطلق — بحكم بحسب إرادته ومشيئته ، ولا يتوجه حق عليه ، فكيف يجوز الظلم في وصفه ؟

ويقال هذا الخطاب لو كان من مخلوق مع مخلوق لأشبه المنذر ، ولكن في صفته لا يجوز المنذر إذ الخلق خلقه ، والملك ملكه ، والحكم حكمه .

(١) الآية ١١٠ سورة آل عمران .

قوله جل ذكره: ﴿وَكُنْكَ أَهْلُكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ

وَهِيَ غَالِمَةٌ لِّنَّاسٍ أَخَذَهُ أُخْتُ أَبِيهِ شَدِيدٌ﴾

إِنَّ الْحَقَّ — سبحانه — يميل ولكن لا يميل، ويحكم ولكن لا يميل، وهو لا يسأل عما يميل.

وقيل إذا أخذ النفوس بالتوفيق فلا سبيل للخذلان إليها، وإذا أخذ القلوب بالتحقيق فلا طريق للحرمان عليها. قال تعالى: ﴿إِنْ يَطْلُبْ رَبُّكَ لِشَيْءٍ﴾.

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّنَّاسٍ خَافَ عَذَابَ

الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ

وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾

مشهود يشهده مَنْ حُشِرَ من جميع انطلاقت في ذلك اليوم.

ويقال الأيام ثلاثة: يومٌ مفقودٌ وهو أمس ليس بيدك منه شيء، ويومٌ مقصودٌ وهو غدٌ لا تنوي أن تمرَّكه أم لا، ويومٌ مشهودٌ وهو اليوم الذي أنت فيه؛ فالمفقود لا يرجع، والمقصود ربما لا تبلغ، والمشهود وقتك وهو معرضٌ للزوال.. فاستغله فيما ينفع.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددٍ﴾

الْأَجَلُ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ لِكُلِّ (...)^(١)، وَالْأَجَلُ عَلَى مَا عَلَيْهَا الْحَقُّ — سبحانه —

وَأَرَادَهَا جَارِيَةً؛ فَلَا طَلْبُ يُقَدَّمُ أَوْ يُؤَخَّرُ وَقَتًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وَكُنْكَ لِمَا يَصِلُ وَقْتُ، فَلَا طَلْبَ مَعَ رَجَاءِ الْوَصُولِ، وَلَا طَلْبَ مَعَ خَوْفِ الزَّوَالِ، وَلَقَدْ قِيلَ:

عَيْبُ السَّلَامَةِ أَنَّ صَاحِبَهَا مُتَوَقِّعٌ لِقَوَائِمِ الظُّهْرِ

وَفَضِيلَةُ الْبُلُوِّ تَرْقُبُ أَهْلِهَا عَقِبَ الْبَلَاءِ — مَسْرَّةُ الدَّهْرِ

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِآذَنِهِ

فَنَهُمُ شَقِيِّ وَصِيدٍ﴾

(١) آية ١٢ سورة البروج.

(٢) مثلية.

الشفق من قُسِمَ له الحرمانُ في حاله ، والسعيد من رُزِقَ الإيمان في مآله .

ويقال الشفاء على قسمين : قومٌ شَقَّوهم غير مؤيد ، وقومٌ شَقَّوهم على التأييد ، وكذلك القول في السعادة . الشفق من هو في أسر التدبير وليسان جريان التقدير ، والسعيد من رَجَعَ من ظلمات التدبير ، وحصل على وصف شهود التقدير .

ويقال الشفق من كان في رق العبودية غلظاً أن منه طاعاته ، والسعيد من تحرر عن رق البشرية وعلم أن الحادثات كلها لله سبحانه .

وأما الأشقياء — على التأييد — فهم أهل الظلود في مقتضى الوعيد ، والسعداء — على التأييد — من قال الله تعالى في صفتهم : « لم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَمْ فِيهَا

زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا كَالَّذِينَ

كُفِرُوا فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾

« إلا ما شاء ربك » أن يزيد على مدّة السموات والأرض .

« إلا ما شاء ربك » أن ينقلهم إلى نوع آخر من العذاب غير الزفير والشيق .

« إلا ما شاء ربك » ألا تلحقهم تلك العقوبة قبل أن يُدْخِلَهُم النار ، فلا استثناء لبعض

أوقاتهم من العقوبة لا قبل إدخالهم فيها ولا بعده .

« إلا ما شاء ربك » من إخراج أهل التوحيد من النار فيكون شَقَّوهم غير مؤيد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾

فيه إشارة إلى أن الذي يحصل لم يحصل بمشيئته لا باستحقاق عمل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ الْخَالِدِينَ

فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ يُحْتَوَذُ ﴾

لم اليوم جَنَّاتُ العُرقية ، ولم غداً جَنَّاتُ اللّاتوية .

والكفّار اليوم في عقوبة العُرقية ، وغداً في عقوبة اللّاتوية .

« فَعَالٌ لَّا يَزِيدُ » فلا استثناء لبعض أوقات أهل الجنة من أول أمرهم قبل دخولهم الجنة أو بعده . أو يحتمل أنه يزيد على مدة السموات والأرض .

وفى قوله « عطلة غير مجنود » — أى عطلة غير مقطوع — دليل على أن تلك النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَبْعِدُ هَؤُلَاءِ

مَا يَصْدُونَ إِلَّا كَمَا يَبْعِدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ

قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ

مَنْقُوصٍ ﴾

لا يريد أنه عليه السلام فى شك ، ولكنه أراد به تحقيق كونهم مضاعفين لأبائهم ، كما تقول : لا شك أن هذا نهارٌ .

وقال الخطاب له والمراد به لأمتي .

« وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ » : تجزيهم على الظير بخير وعلى الشر بضر^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاسْتَخْلَفَ

فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ دِيَارَهُمْ وَلَّىٰ شَكٌّ

مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾

اختلفوا فى الكتاب الذى أوتى ، وهو التوراة .

واختلفوا فى كونه وسولاً ، فحين مُصَدِّقٍ وَمِنْ مُكْتَدِبٍ .

ثم أخبر أنه — سبحانه — حَكَمَ بتأخير العقوبة ، ولولا حكمه لسجل لهم العقوبة .

وفائدة الآية من هذا التعريف التخفيف على المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فإيا كان

(١) لم يقل التشبهي : وعلى الشر بضر ، وإنما استعمل (الشر) تأديباً من ناحية ، ولأنه — حسب

منهجه الكلامي — لا ينسب (الشر) لله ، من ناحية أخرى ، وكما سترى بعد قليل فى تفسيره للحسنه والسنة

يلقاه من قومه من التكذيب ، ففي سماع قصة الأشكال — وبفسهم من بعض — سلوة ،
ولقد قيل :

أَجْرُنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِّلْغَرِيبِ لَسِيبٌ
قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ كَلَامَنَا لَيُؤْفِقُنُهُمْ رَبُّكَ
أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَمْشُونَ خَبِيرٌ ﴾

أعاد ذكر الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب ، وكرر ذلك في القرآن في كثير من
المواضع إبلاغاً في التحذير ، وتنبيهاً على طريق الاعتبار بحسن التفكير .

ثم إن الجزاء على الأعمال ممجّل ومؤجل ، وكلٌّ من أعرض عن النفلة وجنح إلى وصف
التيفظ وجدّد في معاملاته — عاجلاً — الرّيح لا أنظران ، وأجلاً الزيادة لا نقصان ،
وما يجده المرء في نفسه أتمّ مما يدركه بطله بشواهد يراهه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابِ مَعِكَ

وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَمْشُونَ بَصِيرٌ ﴾

يحمل أن تكون السبيل في الاستقامة سبيل الطلب ؛ أي سلّ من الله الإقامة لك
على الحق .

ويحمل أن تكون الإقامة في الأمر بمعنى أقام عليه .

وحقيقة الاستقامة على الطاعة المتداومة على القيام بحقّها من غير إخلال بها ، فلا يكون
في سلوكه نهج الرفاق انحراف عنه .

ويقال المستقيم من لا ينصرف عن طريقه ، يواصل سيره بمسراه ، ووزعه بتقواه ،
ويتابع في ترك هواه .

ويقال استقامة النفوس في نفي الرّلة ، واستقامة القلوب في نفي الغفلة ، واستقامة الأرواح
بنفي العلاقة ، واستقامة الأسرار بنفي الملاحظة (١) .

استقامة العايدین ألا يدخروا نفوسهم عن العبادة وألا يخلوا بأدائها ، ويقضون عسيرها
ويسيرها . واستقامة الزاهدين ألا يرجوا من دنياهم قليلاً ولا كثيراً . واستقامة التائبين

(١) تهنأ هذه البارة عند تحديد الألفاظ التي تميم الملكات الباطنة حسب مذهب الشيرازي .

أَلَا يَلْبُوا بِمَقْوَبَةٍ زَلَّةٍ قَبْدَعُونَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا... وعلى هذا النحو استقامة كلِّ أحدٍ .
قوله « ومن تاب ملك » : أى فَلْيَسْتَقِمْ أَيْضًا مِنْ مَلِكِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَرْكُنَا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَنَسُكُمُ النَّارَ وَمَالَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

لا تعملوا أعمالهم ، ولا ترضوا بأفعالهم ، ولا تمدحوم على أعمالهم ، ولا تتركوا الأمر
بالمرء لم ، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم ، ولا تسكنوم بقلوبكم ، ولا تخالطوهم ،
ولا تشارروهم ... كل هذا يحتمله الأمر ، ويدخل تحت الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا
مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ
السَّيِّئَاتِ فَذَكَرْنَا لَكُمْ ﴾

أى استغفرني جميع الأوقات بالعبادات ، فإنَّ إخلالكَ لحظَةً مِنَ الزَّمانِ بِفَرْضٍ تُوَدِّعُهُ ،
أَوْ قُلُّ تَأْتِيهِ حَسْرَةٌ عَظِيمَةٌ وَخُصْرَانٌ مُبِينٌ .

قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » الحسنات ما يبيد بها الحق ، والسيئات ما يذنبها
العبد ، فإذا دخلت حسناته على قبائح العبد محنتها وأبطلتها .

ويقال حسنات القرية تذهب بسيئات الزمة .

ويقال حسنات الندم تذهب بسيئات الجورم .

ويقال (السكاب)^(١) الصبرة تذهب العثرة^(٢) .

ويقال حسنات الرفان تذهب سيئات المصيان .

ويقال حسنات الاستغفار تذهب سيئات الإصرار .

ويقال حسنات العناية تذهب سيئات الجناية .

ر - " حسنات العفو عن الإخوان تذهب الحقد عليهم .

ويقال حسنات الكرم تذهب سيئات القلدم .

(١) هكذا مصوبة في المأخوذ وهي أصوب مما جاء في المتن (ارتكاب) .

(٢) وردت (المصرة) بالسين والأصوب (العثرة) لأنها تتسجم مع السياق .

ويقال حسنُ الظنِّ بالناسِ يُذهِبُ سوائَهُمْ بِكُمْ^(١) .

ويقال حسناتُ الفضلِ من الله تُذهِبُ سيئاتِ حسابِ الطاعةِ من أنفسكم .

ويقال حسناتُ الصدقِ تُذهِبُ سيئاتِ الإعجابِ .

ويقال حسناتُ الإخلاصِ تُذهِبُ سيئاتِ الرياءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

المُحْسِنِينَ ﴾

الصبرُ تَجَمُّعُ كلِّ سَلَاةٍ التَّعَدِيرِ من غَيْرِ تَمِيسٍ .

ويقال الصبرُ حُسْنُ الإِقْبَالِ عَلَى مَبَاقَةِ الْأَمْرِ وَمُقَاوَلَةِ الزَّجْرِ .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » المُحْسِنُ : الْعَامِلُ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الْأَجْرَ عَلَى الصَّبْرِ وَالطَّاعَةِ بِفَضْلِهِ — سَبَّحَانَهُ — لَا يُلَاسِخُ حَقَّ عَمَلِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ

أُولَؤُلَا قَبِيحٌ يَتَّبِعُونَ ﴾

فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْهَيْنَا مِنْهُمْ

وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ

وَكَانُوا بِجُرْمِينَ ﴾

منه لم يكن فيكم من هؤلاء الذين كانوا يتبعون عن التَّبَاعِ إِلَّا قَلِيلٌ .

وقيل منه لم يكن فيمن قبلكم من الأمم من يَنْهَى عَنِ الْفُسَادِ ، وَيَحْفَظُ الدِّينَ ، وَيُطِيعُونَ

أَنْبِيََاءَهُمْ — إِلَّا قَلِيلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُثْبِتَكَ الْفِرْيَاطَ بِظُلْمٍ

وَأَهْلِكَ مُضْلِحِينَ ﴾

أَيُّ لَمْ يُمْسِكْ اللَّهُ أَحَدًا كَانَ مُضْلِحًا وَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ ظُلُمًا .

(١) وما يقصد التشبُّه من هذه البشارة الحث على الصلح عن شرار الناس .

ويقال معناه : لو أهلك الله أهل القرى وهم مصلحون لم يكن ذلك ظمناً من الله؛ لأن النكاح ملكه ، والخلق عبيده .

ويقال « المصلح » من قام بحق ربه دون طلب حظه .

ويقال : « المصلح » من أقر نجاته على هلاكه .

ويقال مصلحٌ تُصْلِحُ نَفْسَهُ طاعته ، ومصلحٌ تُصْلِحُ قَلْبَهُ معرفةُ سيِّده ، ومصلحٌ تُصْلِحُ سِرَّهُ مشاهدَةُ سيِّده .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَمَعَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾

وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿

لو شاء لجمعهم أديابَ الوقتِ ثم لا يوجيئونَ لملكك شيئاً ، ولو شاء لجمعهم أديابَ الخلافِ ثم لا يوجيئونَ لملكك شيئاً .

ثم قال : « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ » لأنه كذلك أراد بهم .

« إِلَّا مَنْ رَجَعَ رُبُّكَ » في سابقِ حكمه فخصهم عن الخلافِ في حاصلِ أمورهم ، وأقامهم به ، ونصيهم له ، وأثبتهم في الوقتِ والمحبةِ والتوحيدِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَنَسِيتُ كَلِمَةً رَبُّكَ لِأَسْلَأَنَّ بِهِمُ مِنَ

الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمِينَ ﴾

أى لا تبديلَ لقوله ، ولا تحويلَ لملكه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَنَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ

مَا نَسِيتُ بِهِ نَوَازِكَ ﴾

سكنَ قلبه بما قصَّ عليه من أنباءِ المرسلين ، وعرفه أنه لم يترك أحداً إلى أهلِ القى رقاه إليه ، ولم يُنعمْ على أحدٍ بمثل ما أنعم عليه .

ويقال قصَّ عليه قصصَ الجميع ، ولم يذكر قصته لأحدٍ ترميقاً له وتخصيصاً . ويقال لم يكن ثباتُ قلبه بما قصَّ عليه ولكن لاستقلال قلبه بمن كان قصص عليه ، وفرق بين من يقل بما يسمع وبين من يستقل بمن منه يسمع ، وأشدوا :

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدْتَنِي حِينَئِذَا فَرَدْتَنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَى

مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ وانتظروا
إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿

إن الذين يمجحون التوحيد ، ويؤثرون على الحق غير الحق ، ولم يُصدّقوا الوعيد ،
يوشكُ أَنْ يَنْعَسَبَ عَلَيْهِمُ الْاِنتِقَامُ فيفترقون في بحار العقوبة ، ويسقطون في وهاد الهوان ،
فلا يولاهم انتهاء ، ولا يذللهم اقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ

يَرْجِعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ
وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

حتى عن قلوبهم العواقب ، وأخفى دونهم السوابق ، وألزمهم القيام بما كلفهم في الحال ،
قال : « فاعبده » فَإِنَّ تَقَسُّمَ الْقُلُوبِ وَتَرْجَمَ الظُّنِّ وَخِيفَ سُوهُ الْعَاقِبَةِ .. فتوَكَّلْ عليه أى
استند في البلاء عنك بِحُسْنِ الظَّنِّ ، وجعل الأمل ، ودوام الرجاء .

« وما ربك بغافل عما تعملون » : أحاط بكل شيء علماً ، وأمضى في كل أمر حكماً .

السورة التي يذكر فيها يوسف عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسم ^(١) مِنْ وَسْمٍ ؛ قَمَنْ وَسَمَ ظَاهِرَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ ، وَسِرَّائِرَهُ بِمُشَاهَدَةِ الرِّبُوبِيَّةِ فَقَدْ نَجَحَتْ
مَهْمَّتُهُ إِلَى الْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، وَأُزْلِفَتْ وَتَبَّعَتْهُ مِنَ الْمَنَازِلِ السَّيِّئَةِ .

أو أن الاسم مشتق من السَّيِّئَةِ أو من السُّوءِ

(١) ربما كان القشيري في شرحه لى (الاسم) متأثراً بالجو العام للسورة ، وما حدث لكل من يوسف
ولخوته من آفات .

وقدّم الله — سبحانه — اسم الله في هذا المحل على اسمه الرحمن والرحيم على وجه البيان والحكم ، فبرحمته القدسية وصل العبد إلى معرفته الإلهية .

والإشارة من الباء — التي هي حرف التضمين والالتصاق — إلى أن « به » عَرَفَ مَنْ عَرَفَ ، و « به » وقف مَنْ وقف ؛ فالتواصل إليه محمولٌ بإحسانه ، والتوافق دونه مربوطٌ بمخدراته .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَتَى الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾

التخاطبُ بالحروف المنفردة غير المنظومة سُئِلَ الأجاب في سِرِّ الهجاب ؛ فالقرآن — وإن كان المقصود منه الإيضاح والبيان — ففيه تلويح وتصريح ، ومُفَضِّلٌ ومُجْمَلٌ ، قال قائلهم :

أبكى إلى الشرق إن كانت منازلُكم مما إلى الغربِ خوفَ القيل والقيل

وقال وقت فهوُمُ اخلُتُ عن الوقوف على أسرارِهِ فيها خاطب به حبيبه — صلى الله عليه وسلم ، فهم تعبوا به وأمنوا به على الجملة ولكنه أفرد الحبيب بفهمه ، فهو سرُّ الحبيب عليه السلام بحيث لا يطلع عليه الرقيب ، يقول قائلهم :

بين المحبين سرُّ ليس يُغشيه قولٌ ، ولا قلمٌ للخلق يحكيه

وفي إززال هذه الحروف المقطعة إشارة : وهي أن مَنْ كان بالمثل والصحو استنبط من اللفظ البسير كثيراً من المعاني ، ومن كان بالنبية والمهر يسمع الكثير فلا يفهم منه البسير ؛ ذلك لكمال عقله وهذا تمام فهمه ؛ فأُزِلَ اللهُ هذه الحروف التي لا سبيلَ إلى الوقوف على معانيها ، ليكون للأجاب فُرْجَةٌ حيناً لا يقفون على معانيها يعمد السبيل إليها فلا تتوجه عليهم مُطالِبَةٌ بالفهم ، وكان ذلك لاهتماماً بأحوالهم إذا كانوا مستترقين في عين الجمع ، ولذا قيل : استراح من العقل له ^(١) .

وقوله تعالى : « تلك » يحتمل أن يكون إشارة إلى أن هذا خبرُ الوعد الذي وعدناك .

(١) مكثنا في (س) ونوجد أنها (استراح من لا عقل له) والعقل هنا معناه الوعي .

وقيل هذا ترميزنا : إليك بالتخصيص ، وإفرادنا لك بالتقريب — قد حققناه لك ؛
فهذه الحروف بيانٌ للإيجاز ولتحقيق الموعود .

والإشارة من « الكتاب للبين » ما هنا إلى حكمه السابق له بأن يُرْفَقَهُ إلى الرتبة التي
لا يبلغها غيره ، وقد قال تعالى : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا . . » ^(١) أى حين كلمنا
موسى عليه السلام ، وأخبرناه ببلوغ قدرك ، ولم تكن حاضراً ، وأخبرناه بأننا نبطلُك هذا
للقام الذى أنت فيه الآن . وكذلك كلٌّ من أوحينا إليه ذكرنا له قصتك ، وشرحناه
خلقتك ، فالآن وقت تحقيق ما أخبرنا به ، وفي مناه أنشوا :

سَقِيَا لِمَهْدِكَ الذى لو لم يكن ما كان قلبي للصباية مهديا
قال الله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر » يعنى بعد التوراة « أن الأوصى
يرثها عبادى الصالحون » ^(٢) يعنى أمة محمد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴾ .

فى إزال الكتاب عليه ، وإرسال الرسول ^(٣) إليه — تحقيق لأحكام الهبة ، وتأكيده
لأسباب الوصلة ؛ فإنَّ منْ عَدِمَ حَقِيقَةَ الوصول استأنس بالوصول ، ومنْ بَقِيَ عن شهود
الأحباب كَسَلَى بوجود الكتاب ، قال قائمهم :

وَكُتُبُكَ حَوْلَى لَا تَفَارِقُ مُضْجِي فَنِيهَا شَفَاةٌ لِّلَّذِى أَنَا كَانِمٌ .
قوله جل ذكره : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ
بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾

« أحسن القصص » : خلوة عن الأمر والنهى الذى سماه يوجب اشتغال القلب بما هو
يُمرُّ من لوقوع التفسير .

« أحسن القصص » : فيه ذكر الأحباب .

(١) آية ٤٦ سورة القصص . (٢) آية ١٠٥ سورة الأنبياء .
(٣) (الرسول) هنا مقصود به القرآن الكريم أو جبريل — كما هو واضح من السياق .

« أحسن القصص » : لأن فيه عفو يوسف عن جنابك لإخوته .

« أحسن القصص » : نكسا فيه من ذِكْرِ تَرْكِ يوسف لامرأة العزيز وإعراضه عنها عندما راودته عن نفسه .

« أحسن القصص » : بالإضافة إلى سألوه أن يقص عليهم من أحوال الناس .

« أحسن القصص » : لأنه غير مخلوق^(١) .

ويقال لنا أخيره الله — سبحانه — أن هذه القصة أحسن القصص وجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لنفسه مزايا وزوائد لتخصيصه ؛ فَعَلِمَ أن الله تعالى لم يرقَ أحداً إلى مثل ما رَقاه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قِبَلِهِ لَمَنِ

النافلين ﴾

أى القاصيين من فهم هذه القصة . أى ما كنت إلا من جملة النافلين عنها . قبل أن أوحينا إليك بها ، أى إنك لم تعمل إلى معرفتها بكذك وجهدك ، ولا بطلبك وجهده . . . بل هذه مواهب لا مكاسب ؛ فبطلاننا وجهدها لا بصلانك ، وبتفضيلنا لا بتملكك ، وبإتقاننا لا بتكلفك ، وبنا لا بك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّي

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾

لما ذكر يوسف — عليه السلام — رؤياه لأبيه عليم يعقوب — عليه السلام صدق تعبيره ، ولذلك كان التذكر ليوسف مدة غيبه ، وحين تناولت كل يد ذكره حتى قالوا : « تالله تضاد ذكر يوسف » قال : « إني أعلم من الله ما لا تعلمون » فهو كان على ثقة من صدق رؤياه

فإن قيل : فإذا كان الصبي^١ لا حكم لفعله فكيف يكون حكم لرؤياه ؟ وما الفرق ؟

(١) القرآن غير مخلوق . . هذا أصل من الأصول الكلامية الهامة عند الأشاعرة — ومنهم الشيعى .

فيقال : إن الفعل يتعمد يحصل فيكون مفعلاً لتقصير فاعله ، أما الرؤيا فلا تكون بتعمد منه فتنسب إلى قصاص .

ويقال إن حق السر السكتان ولو كان على من هو قريب منك ؛ فإن يوسف لما أظهر سر رؤياه على أبيه اتصل به البلا .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾

فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ

لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠﴾

إذا جاء القضاء لا ينفع الوعظ والحذر ؛ فإن النصيحة والحذر لا يزيدان على ما نصحه يعقوب ليوسف عليهما السلام ، ولكن لما سبق التقدير في أمر يوسف عليه السلام حصل ما حصل .

ويقال إن يوسف خالف وصية أبيه في إظهار رؤياه إذ لو لم يظهرها لما كادوا له ، فلا جرم بسبب مخالفته لأبيه — وإن كان صبيها صغيرا — لم يعرف من البلايا .

ويقال لما رأى يوسف في منامه ما كان تأويله سجود الإخوة له رأى ما تعبيره : وسجود أبيه وخالته حيث قال تعالى : « والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » ؛ فدخل الإخوة الحسد^(١) أما الأب فلم يدخله إلا بنفسه لفرط شقة الأبوة .

ويقال صدق تعبيره في الإخوة فسجدوا له حيث قال : « وخرؤ له سجداً » ولم يسجد الأب ولا خالته حيث قال : « ورفع أبويه على العرش » فإن يوسف صامتا عن ذلك مراعاة لحشة الأبوة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَانَكَ يَجْتَبِيكَ وَكَانَكَ يَعْلَمُكَ ﴾

من تأويل الأحاديث

أى كما أكرمك بهذه الرؤيا التى أرا كما يجتبيك ويحسن إليك بتحقيق هذه الرؤيا ، وكما أكرمك بوعده النعمة أكرمك بتحقيقها .

ويقال الاجتناء ما ليس للمخلوق فيه أثر ، فإي حصل للعبد من الخيرات — لا بشكلفه ولا بتممه — فهو قضية الاجتناء .

(١) وردت (الحد) والمواب أن تكون الحسد (انظر توضيح ذلك بعد قليل صفحة ١٧٠) ودخل الأب كل بنفسه ولم يكن بقله ، وكان سبه شدة الإشتاق على ولده .

ويقال من الاجنباء المذكور أن عصمة عن ارتكاب ما واودته امرأة العزيز عن نفسه .
 ويقال من قضية الاجنباء إسبالة السر على فعل إخوته حيث قال : « وقد أحسن في إذ
 أخرجني من السجن » ، ولم يذكر خلاصه من البشر . ومن قضية الاجنباء توفيقه لسرقة العفو عن
 إخوته حيث قال : « لا تريب عليكم اليوم »

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُكَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾
 أى لتعرف قدر كل أحد ، وتقف على مقدار كل قائل بما تسمع من حديثه . . لا من
 قوله بل لحديثه كيستك وفرط فراستك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُؤَيِّدُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ
 كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ
 إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
 حَكِيمٌ ﴾

من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة ، ومن إتمام النعمة صونها عن السلب والتغيير ،
 ومن إتمام النعمة التحرر^(١) منها حتى تسهل عليك السليحة بها .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي يُسُفَ وَإِخْوَتِهِ
 آيَاتٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

يعنى لكل ذى محنة حتى يعلم كيف يصبر ، ولكل ذى نعمة حتى يعلم كيف يشكر .
 ويقال في قصتهم كيفية العفو عن الزلة ، وكيفية التخلية لأهل الجفاء عند اللقاء .
 ويقال في قصتهم دلالات لطف الله سبحانه بأوليائه بالعمسة ، وآيات على أن الحجة
 (. . .)^(٢) من المحنة .

ويقال فيها آيت على أن من صدق في وجاهه يُخَنِّصُ — يوماً — ببلاته .

(١) (التحرر) من النعمة التوق منها ، وإذا افترضنا أنها قد تكون (التحرر) إزاء فناءها ألا يكون
 العبد أسيراً للنعمة حتى يسأل عليه أن يجود بها . . . وكلاماً صحيح مقبول في السياق .
 (٢) مشقة

قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحِبُّ إِلَيَّ
أَيْنَتَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

مَرْفُوعاً عَلَى مَا سَتَرُوهُ مِنَ الْحَسَدِ، وَلَمْ يَحْثَالُوا فِي إِخْرَاجِ ذَلِكَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِالْوَقِيعَةِ فِي أَبِيهِمْ حَقِّ
قَالُوا: «إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» .

وَيَقَالُ لَمَّا اعْتَرَضُوا بِقُلُوبِهِمْ عَلَى أَبِيهِمْ فِي تَقْدِيمِ يَوْسُفَ فِي الْحَبَةِ عَاقِبِهِمْ بِأَنْ أَمْلَهُمْ^(١) حَقِّ
بَسَطُوا فِي أَبِيهِمْ لِسَانَ الْوَقِيعَةِ فَوْصَفُوهُ بِلَفْظِ الضَّلَالِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ الذَّهَابِ فِي حَدِيثِ
يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَلَمَّا حَسَدُوا يَوْسُفَ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِيهِمْ لَهُ لَمْ يَرْضَ — سَبْحَانَهُ —
حَتَّى أَقَامَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا لِيَقُولُوا أَنَّ الْحَسَدَ لَا يَسُودُ .
وَيَقَالُ أَطْوَلُ النَّاسِ حُرْماً مَنْ لَاقَى النَّاسَ عَنْ مَرَارَةٍ ، وَأَرَادَ تَأْخِيرَ مَنْ قَدَّمَهُ اللَّهُ أَوْ
تَقْدِيمَ مَنْ أَخَّرَهُ اللَّهُ ، فَإِخْوَةُ يُوسُفَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَرَادُوا أَنْ يَجْلُوهُ فِي أَسْفَلِ الْجُبِّ
فَرَفَعَهُ اللَّهُ فَوْقَ السَّرِيرِ !

قوله جل ذكره: ﴿اقْتُلُوا يَوْسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا
يَمْلِكُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾

أَيُ يَمْحُلُ لَكُمْ إِقْبَالَ أَبِيكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّا قَبْلَ : مَنْ مَطْلَبَ الْكُلِّ فَاتَهُ الْكُلُّ ؛
فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ إِقْبَالُ يَعْقُوبَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — بِالْكَلْبَةِ — عَلَيْهِمُ قَالَ تَعَالَى :
« فَنُؤَلِّهِمْ عَنْهُمْ » .

وَيَقَالُ كَانَ قَصْدُهُمْ أَلَّا يَكُونَ يَوْسُفُ أَمَامَ عَيْنِهِ قَالُوا : إِمَّا الْقَتْلُ وَإِمَّا الْغَنَى ، وَلَا يَأْسُ
بِمَا يَكُونُ بَعْدَ أَلَّا يَكُونَ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَنِيهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾

عَظَّمُوا بِالْحَرَامِ ، وَعَلَّقُوا التَّوْبَةَ بِالتَّوْبَةِ وَالْعَزَمَ ، فَلَمْ يَبْجُ مَا أَجْلُوا مِنَ التَّوْبَةِ مَا عَظَّمُوا
مِنَ الْخَطِيئَةِ .

(١) وردت (أملهم) وهي خطأ في النسخ لأن الله لا يهمل ولكن يهل ، والسياق يقتضي (الإمهال) .

وقال لم تَلَبْ فَوَسَّهم بأن يذهبوا عن باب الله بالكلفة فذُبروا لِحَسْرَةِ الرجوع قبل ارتكاب مادعته إليه فَوَسَّهم ، وهذه صفة أهل القرآن بالله (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَاتِلْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ يَلْتَقَفَهُ بَعْضُ السَّيْلَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ .

إخوة يوسف — وإن قاتلوه بالجفاء — منعَتهم شقَّةُ النَّسَبِ وحرمةُ القِراةِ من الإقدام على قتله ؛ فقالوا لا تقتلوه وغيَّبوا شخصه .

وقال إنما سألهم على إلقاءه مرادهم أن يخلو لم وجه أبيهم ، فلما أرادوا حصول مرادهم في تقييده لم يبالوا في تضييعه .

وقال لما كان المعلوم له — سبحانه — في أمر يوسف تبليغه إياه تلك الفترة التي ألقى الله في قلب قائلهم حتى قال : « لا تقتلوا يوسف » .

ثم إنه — وإن أبله في الحال — سهل عليه ذلك في جَنَبِ مَارَظِهِ إليه في المآل (٢) ، قال قائلهم :

كَمْ مَرَّةٍ خَفْتُ بِكَ الْمَكَارَ خَارَكَ اللهُ — وَأَنْتَ كَلِمَ
قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ .

كلامُ الحسود لا يُسمع ، ووعده لا يُقبل — وإن كانا في مَعْرُضِ النَّصِيحِ ؛ فَإِنَّهُ يُطْعَمُ الشَّهْدَ وَيَسْقَى الصَّلْبَ .

وقال العَجَبُ من قبول يعقوب — غليه السلام — ما أبدى بنوه له من حفظ يوسف عليه السلام وقد تفرَّسَ فيهم قلبه فقال ليوسف : « ويكيكوا لك كيذا » ولكن إذا جاء القضاء فالبصيرةُ تصيرُ مسبوقةً .

(١) وأضح من هنا وما جاء في السياق أن القشيري — بتساعه الصول الأصيل — ينظر إلى إخوة يوسف نظرة خالية من التعامل عليهم .

(٢) كما جاء في صحيح القشيري أصحاب الإرادة : إن لقيم اليوم في الله شدة ، فلكم غدا مشوبة . وكأما يوضح لأهل الجدل : إن مقاييس المر والخير الإنسانية خاطئة ظهيرة .

ويقال من قِيلَ على محبوبه حديث أعدائه لَقِيَ ما لَقِيَ يعقوبُ في يوسف .
عليهما السلام — من بلائه .

قوله جل ذكره ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

يقال أطمحوا يعقوب عليه السلام في تمكينهم من يوسف بما فيه راحة نفس في اللعب ،
فطابَتْ نفسُ يعقوب لإذهابهم إياه من بين يديه — وإن كان يشقُّ عليه فراقه ، ولكنَّ
الحبَّ يُوْثِرُ راحةً محبوبه على محبة نفسه .

ويقال لما رَكَنَ إلى قولهم : « وإنا له لحافظون » — أَيْ مِنْ قِيَلِهِمْ ^(١) — حتى قالوا :
« وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » ؛ فَمَنْ أَسْلَمَ حَبِيبَهُ إِلَى أَعْدَائِهِ غُصَّ بِنَحْسِهِ
بِلائه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ
وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّيْبُ وَأَنْتُمْ
عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ .

يَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ لَأَنِّي لَا أَصْبِرُ عَنْ رَوْيَتِهِ ، وَلَا أَطِيقُ عَلَى فُرْقَتِهِ ... هذا إذا كان
الحال سلامته .. فكيف ومع هذا أخاف أن يأكله الذئب ؟

ويقال لنا خاف عليه من الذئب امتحِنَ بحديث الذئب ، ففي الخبر ما معناه : إِنَّمَا يُسَلِّطُ
عَلَى ابْنِ آدَمَ مَا يَخَافُ . وكان من حقه أن يقول أَخَافُ اللَّهُ لَا الذَّيْبُ ، وَإِنْ كَانَتْ مَحَالٌّ
الأنبياء عليهم السلام — محروسةً من الاعتراض عليها .

ويقال لما جرى على لسان يعقوب — عليه السلام — من حديث الذئب صار كالتلقين
لهم ، ولو لم يسموه ما اهْتَدَوْا إِلَى الذَّيْبِ ^(٢) .

(١) يرجع التشديد ما أصاب يعقوب من بلاء إلى وكونه إلى حفظ يوسف من قبل الخلق ؛ وأنه الطمان
الدعوى مع أن الحفظ لا يكون إلا بالله .

(٢) تنيد هذه التعلية في إثبات كرامة الأولياء ، وما يجري على ألسنتهم من تلوين بما قد يحدث في المستقبل
على وجه الإجمال .

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا لَيْتَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذْنَا لَخَالِصُونَ﴾ .

لحق إخوة يوسف عليه السلام ما وصفوا به أنفسهم من الخسران حيث قالوا :
« إِنَّا إِذْنَا لَخَالِصُونَ » : لأنَّ مَنْ بَاعَ أَخًا مِثْلَ يَوْسُفَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الثَّمَنِ حَقِيقٌ أَنْ يُقَالَ
قَدْ خَسِرْتَ صَفَقَتَهُ .

ويقال لما عدوا القوة في أنفسهم حين قالوا : « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » خُذُوا حَتَّى فُتِلُوا^(١) .
ويقال لما ركنَ يعقوبُ — عليه السلام — إلى قولهم : « وَنَحْنُ عُصْبَةٌ » لِقَى مَا لَقِيَ .
قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْلُوهَ فِي غَايَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

الجوابُ فيه مُقَدَّرٌ ، وممناه فلما ذهبوا بيوسف وعزموا على أن يلقوه في البئر فلو
ما عزموا عليه . أو فلما ذهبوا به وألقوه في غَايَةِ الْجُبِّ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ، فيكون الواو صلة .
والإشارة فيه أنه لما حَلَّتْ بِهِ الْبُلَى عَجَّلْنَا لَهُ التَّعْرِيفَ بِمَا ذَكَّرْنَا مِنَ الْبُشْرَى ، ليكون
محولاً بالتعريف فيها هو متَّحِلٌّ لَهُ مِنَ الْبَلَاءِ الْعَنِيفِ .

ويقال حين أقطعت على يوسف عليه السلام مراعاة أبيه حَصَلَ لَهُ الْوَحْيُ مِنْ قِبَلِ مَوْلَاهُ ،
وكذا سُنَّتُهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَفْتَحُ عَلَى فُؤُوسِ أَوْلِيَائِهِ بَابًا مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا فَتَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَبْوَابَ
الصَّفَاءِ ، وفنون لطائف الولاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَةً يَبْكُونَ ﴾ .
تَمَكُّنُ الْكَذِّابِ مِنَ الْبِكَاةِ بِحَقِّ خِلَافِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَاهَهُ ، وفي الخبر : إِذَا كُنَّ نَفَاقُ
الرَّءِ مَلَكَ عَيْنَهُ حَتَّى يَبْكِيَ مَا شَاءَ .

ويقال : لَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ وَإِنْ جَعَلُوا عَلَى يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدِّدُوا عَلَى
مَا فَعَلُوا ، فَعَلَامُ الْبِكَاةِ لِنَدَمِهِمْ — وَإِنْ لَمْ يُظْهَرُوا لِأَبِيهِمْ — وَتَقَوُّوا عَلَى الذَّنْبِ .
قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَبْرِهِ بِدُخَانٍ كَذِبٍ ﴾ .

(١) قد كانت من دعوى النفس .

لم يُزَيَّرْ تَزْوِيرٌ قَالِهِمْ فِي إِجْبَابِ تَصَدِيقِ يَعْقُوبَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ لِسَكْنِهِمْ بِلْ أَخْبَرَهُ
قَلْبُهُ أَنَّ الْأَمْرَ بِخِلَافِ مَا يَقُولُونَهُ فَقَالَ :

﴿ بِلْ سَوَّلْتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا
فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى
مَا تَصِفُونَ ﴾ .

قَطَعَ عَلَى الْجَمْعَةِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ عَلَى التَّفْصِيلِ . . وَهَكَذَا تَرَعُ قُلُوبَ الصَّادِقِينَ عَوَاقِبُ
الْأُمُورِ عَلَى وَجْهِ الْإِجْبَالِ ، إِلَى أَنْ تَتَضَحَّحَ لَمْ قَاصِيَهَا فِي الْمُسْتَأْنَفِ .

وَيَقَالُ عَوَاقِبُ عَلَى مَا فَعَلُوهُ بِأَنْ أَغْفَلُوا عَنْ تَمْزِيقِ قَبِيصِهِ حَتَّى عِلْمُ يَعْقُوبَ تَقَوُّلَهُمْ
فِيهِ وَصَفُوا .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى
دَنُورَهُ قَالَ يَا بَشْرُ إِنَّا هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ
بِضَاعَةٍ وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَسْلُونُ ﴾ .

لَيْسَ كُلُّ مَنْ طَلَبَ شَيْئًا يُعْطَى مَرَادَهُ . فَقَطَّ بِلْ رُبَّمَا يُعْطَى فَوْقَ مَأْمُولِهِ ؛ كَالسَّيَّارَةِ كَانُوا
يَقْنَعُونَ بِوُجُودِ الْمَالِ فَوَجَدُوا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَيَقَالُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ وَجَدَ شَيْئًا كَانَ كَمَا وَجَدَهُ السَّيَّارَةُ ؛ نَوْهُوا أَنَّهُمْ وَجَدُوا عَبْدًا مَمْلُوكًا
وَكُنْ يُونُسَ — فِي الْحَقِيقَةِ — حُرًّا (١) .

وَيَقَالُ لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى خُلَاصَ يُونُسَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مِنْ الْجُبِّ أَوْجَعَ خَوَاطِرَ
السَّيَّارَةِ فِي قَصْدِ السَّفَرِ ، وَأَعْدَسَهُمُ الْمَالُ حَتَّى احْتَاجُوا إِلَى الْاِسْتِغْنَاءِ لِیَصِلَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
إِلَى الْخُلَاصِ ، وَلِهَذَا قِيلَ : أَلَا رَبُّ تَشْوِيشٍ يَقَعُ فِي السَّالَمِ وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ سَكُونٌ وَاحِدٌ .
كَأَقِيلَ : رَبُّ سَانِعٍ لَهُ قَاعِدٌ .

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ
وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

لَمْ يَمُرُّوا خَسْرَانَهُمْ فِي الْحَالِ وَلَكِنَّهُمْ وَقَفُوا عَلَيْهِ فِي الْمَالِ .

(١) أَيْ رُبَّمَا تَكُونُ حَقِيقَةُ التَّمَعُّبِ أَصْلَحَ مِنْ ظَاهِرِهَا .

ويقال قد يُباع مثل يوسف عليه السلام بثمان بخص ، ولكن إذا وقعت الحاجة إليه فتمد ذلك يعلم ما يلحق من العنين .

ويقال لم يمتشوا من يوسف — عليه السلام — يوم باعوه بثمان بخص ، ولكن لما قال لهم : أنا يوسف — وقع عليهم الحبل ، ولهذا قيل : كفى للقمر الحياه يوم القاه .

ويقال لما خروا له سجداً علموا أنّ ذلك جزاء مَنْ باع أخاه بثمان بخص .

ويقال لما وصل الناس إلى رفق يوسف عاشوا في نعمته ، واحتجوا إلى أن يفرّوا بين يديه في مقام القلّ ثلثين « سنّاً وأهلكنا الضّر » ، وفي مناه أشدوا :

ستمع بي وتذكرني وتطلّبي فلا نجد

ويقال ليس العجبُ بمن يبيع مثل يوسف — عليه السلام — بثمان بخص إنما العجبُ من (....) ^(١) مثل يوسف — عليه السلام — بثمان بخص ، لا سبباً وكانوا فيه من الزاهدين « انظر لا غاية له ، وكذا العجب لا نباه له » ^(٢) .

ويقال ليس العجبُ بمن يبيع يوسف — عليه السلام — بثمان بخص ، إنما العجبُ بمن يبيع وقته الذي أعزّه من الكبريت الأحمر بمرضى حقير من أعراض الدنيا .

ويقال إن السيرة لم يعرفوا قيمته فزهدوا في شرائه بديارم ، والذين وقفوا على جماله وشيء من أحواله غلوا — بمصر — في ثمنه حتى اشتروه بزمته بديارم ودينانير مائة — كما في القصة ^(٣) ، وفي مناه أشدوا :

إن كنتُ عندك يا مولاي مطرَحاً فند غيرة محمول على الخدق ^(٤)

قوله جل ذكره : وقال الذي اشتراه من مصر

(١) هنا كلمة في الكتابة هكذا (بجل) ولا نرى كيف نعرفها إلى إجماع ينجم الحق .

(٢) ما بين القوسين ورد هكذا في (م) وفيه التباس ناشئ عن سوء النسخ .

(٣) يقال إن البرز اشتراه بزمته ووقاً وحريراً ومكناً .

(٤) تسمية النفس ج ٢ ص ٢١٦ ط عيسى الحلي

(٥) الخلق جمع حذقة وهي السواد المستدير وسط العين .

لأمرأته أَكْرِمِي مِثْلَهُ عَسَى أَنْ
يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴿١٠﴾

لما نودى على يوسف في مصر بالبيع لم يَرْضَ الحقُّ — سبحانه — حتى أصابته
الضرورةُ وَنَسَّهْمُ الفاقةُ حتى باعوا من يوسف — عليه السلام — جميعَ أملاكهم ، ثم باعوا
كلُّهم منه أَنْفُسَهُمْ — كما في القصة — وفي آخر أمرهم طلبوا الطعام ، فصاروا بأجمعهم
عبيدَهُ ، ثم إنه عليه السلام لما مَلَكَكُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ فَأَعْتَقَهُمْ (١) ؛ فَلَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ بِمِصْرَ
يَوْمَ نُودِيَ فِيهِ عَلَيْهِ بِالْبَيْعِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ بِمِصْرَ يَوْمًا آخِرَ وَقَدْ مَلَكَ جَمِيعَ أَمْلاكِهِمْ ،
وَمَلَكَ رِقَابَ جَمِيعِهِمْ ؛ فَيَوْمَ يَوْمِهِ ، قَالَ تَعَالَى : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » يَوْمَئِذٍ
شَتَانُ يَوْمَئِذٍ !

ثم إنه أعنتهم جميعاً ... وكنا الكرم إذا قدر غفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ ﴾

أَرَادَ مِنْ حَسَدِهِ أَنْ لَا تَكُونَ لَهُ فَضِيلَةٌ عَلَى إِخْوَتِهِ وَضُوئِهِ ، وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مُلْكُ
الْأَرْضِ ، وَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ لَا مَا أَرَادَ أَعْدَاؤُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾

أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْجَبِّ ، وَأَرَادَ اللَّهُ — سبحانه — أَنْ يَكُونَ
يُوسُفُ عَلَى سِرِّهِ لِلَّهِ ؛ فَكَانَ مَا أَرَادَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

(١) في القصة « وبلغ من أهل مصر في سبي القحط الطعام بالدرام والدينار في السنة الأولى حتى لم يبق
مهم شيء منها ثم بالي والجواهر في الثانية ثم بالدواب في الثالثة ثم بالبئيد والإماء في الرابعة ثم بالدور
والغار في الخامسة ثم بالولاد في السادسة ثم برقابهم في السابعة حتى استرقهم جميعاً ثم اعتق أهل مصر وود
عليهم أملاكهم » السلي ج ٢ ص ٢٢٨ .

وأرادوا أن يكون يوسف عبداً لمن ابتاعوه من السبوة ، وأراد الله أن يكون عزيزاً
مصر — وكان ما أراد الله .

ويقال البرزة لا ترى من الحق في الحال ، وإنما الاعتبار بما يظهر في سرِّه قدره في المال .
قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

من جملة الحكم الذي آتاه الله قُوْدُ حُكْمِهِ على نَفْسِهِ حتى غَلَبَ شهوته ، وامتنع عما
رَاوَدَتْهُ تلك المرأة عن نَفْسِهِ ؛ ومن لا حكم له على نفسه فلا حكم له على غيره .

ويقال إنما قال : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أى حين استوى شبابه واكتملت قُوته ، وكان
وقت استيلاء الشهوة ، وتوفر دواعي مطالبات البشرية — آتاه الله الحكم الذى حبسه على
الحق وصبرته عن الباطل ، وعَلِمَ أَنَّ ما يقبض اتباع الفئات من هواجس التهم أشدَّ مَقاساةً من
كلِّفة الصبر في حال الامتناع عن دواعي الشهوة . . فَأَتَرَ مَشَقَّةَ الامتناع على لَدَوِّ الاتباع .
وذلك الذى أشار إليه الحق — سبحانه — من جيل الجزاء الذى أعطاه هوامداه بالتوفيق
حتى استقام في التقوى والورع على سَوَاءِ الطريق ، ظَلَّ تعالى : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سُبُلَنَا ^(١) : أى الذين جاهدوا بسلوك طريق المماثلة لنهدينهم سُبُلَ الصبر على الاستقامة
حتى تبيين لهم حقائق المواصله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ
وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ
قَالَ مِمَّا أَفْعَى إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَآئِ
إِنَّهُ لَا يَهْدِي الضَّالِّينَ ﴾

لما غَلَّقَتْ عليه أبوابَ المكن فتحَّ الله عليه باب المعصية ^(٢) ، فلم يُضِرَّهُ ما أغلقَ به
إكراهه بما فتح .

(١) آية ٦٩ سورة المشكوت .

(٢) نلفت النظر إلى جمال عبارة التشبيهي الناتج من المقابلة بين (الإخلاص) و (الفتح) .

وفى التفسير أنه حفظ حرمة الرجل الذى اشتراه ، وهو العزيز .

وفى الحقيقة أشار بقوله : « إنه ربى » إلى رب الحق تعالى : هو مولاي الحق تعالى ، وهو الذى خلّصنى من الجُب ، وهو الذى جعل فى قلب العزيز لى عملاً كبيراً فأكرم متواى فلا يبنى أن أُقِيمَ على عصيانه — سبحانه — وقد غررى بمجمل إحسانه .

ويقال إن يوسف عليه السلام قال لما : إن العزيز أمرنى أن أنفقه . « عسى أن ينقنا » فلا أخوته فى حُرْمَتِهِ بظهور الغيب .

ويقال لما حفظ حرمة المخلوق بظهور الغيب أكرمه الحق سبحانه بالإمداد بالعصمة فى الحال ومكّنه من مواصلها فى المال على وجه الحلال .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كُفِّرَتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كُنْتُ لَسَفِيرَ هِنِ السَّوءِ وَالْفَحْشَاءِ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

مالمس بفعل الإنسان مما يعتريه — بغير اختياره ولا يَكْسِبُهُ — كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف ، فلم يكن « المم »^(١) منه ولا منها زَلَّةٌ ، وإنما الزَلَّةُ من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما كُفِّرَتْ ، فأما نفسُ المم فليس مما يَكْسِبُهُ العبد .

ويقال اشتركا فى المم وأُفِرْدَ — يوسف عليه السلام — بإشهاد البرهان .

وفى تعيين ذلك البرهان — ما الذى كان ؟ — تكلفٌ غيرُ محمودٍ إذ لا سبيل إليه إلا بالتَجَرُّبِ المقطوع به .

وفى الجملة كان البرهانُ تبريقاً من الحق إياه بآية من آيات صُنْعِهِ ، قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »^(٢) .

(١) وأضح أن التشبى يهدف إلى نفي كل شبهة عن يوسف ولها يلجأ إلى تأويل لفظة « المم » التى أشرك فيه وأمرأة العزيز كما يغير ظاهر اللفظ .
(٢) آية ٥٣ سورة فصلت .

وقوله : « كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء » صَرَفَ عنه السوء، حتى لم يوجد منه العزمُ على ذلك الفعل — وإن كان منه همٌ — إلا أن ذلك لم يكن جُرمًا كما ذكرنا .
والصَّرَفُ عن الطريق بعد حصول الهم — كشفٌ ، والسوء للصروفُ عنه هو العزمُ على الزنا والفحشاء أو نفسُ الزنا ، وقد صرفهما الله تعالى عنه .
قوله « إنه من عبادنا المُخلصين » : لم تكن نجاتُهُ في خلاصه ، ولكن في صرفِ السوء عنه واستخلاصه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾

استبقا، هذا ليهرَّب ، وهذه لفظة التي كانت تطلب .
ولم يفر يوسف — عليه السلام — أن قَدَّتْ قَيْصَهُ وهو ليكسُ دنياء بعد ماصحٌ عليه قَيْصُ تقواه .
ويقال ^(١) لم تَقْصِدْ قَدْ القَيْصِ وَإِنَّمَا تَعَلَّقْتَ بِهِ لِتَحْيِيهِ عَلَى فُضْهَآ ، وكان قصدُها بقاء يوسف — عليه السلام — معها ، ولكن صار فعلُها وبِالْأَعْلَى نَفْسِهَا ، فكان بلاؤها من حيث طَلَبَتْ راحَتَهَا وشفاها .
ويقال تولد انخراقُ القَيْصِ من قبضها عليه وكان في ذلك انفضاح أمرها ؛ لأن قَبْضَهَا على قَيْصِهِ كان مزجوراً عنه . . . لِيُظْمَرَ أَنَّ الْفَاسِدَ شَيْخُ فَاسِدٌ .
ويقال لئلا استيلاء الهوى عليها لم تعلم في الحال أنها تقدت قَيْصَهُ من ورائه أو من قُدَامِهِ ..
كذلك صاحبُ البلاد في الهوى مسلوبُ التمييز ..
ويقال لما لم تَصِلْ ولم تتمكن من مرادها من يوسف خَرَقَتْ قَيْصَهُ لِيَكُونَ لها في إلحاقها الذَّنْبُ على يوسف — عليه السلام — حُجَّةٌ ، فَقَلَبَ اللَّهُ الْأَمْرَ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ عَلَيْهَا حُجَّةً ، وليوسف دَلَالَةٌ صدق ، قال تعالى : « وَلَا يَبْقَى الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ^(٢)

(١) فيما يلي من إشارات تلاحظ أن التشبیه قد جعل من امرأة العزيز رمزا للطالب الدنيا وأسير الهوى ومن يوسف رمزا مقابل ذلك .
(٢) آية ٤٣ سورة ظلم .

قوله تعالى : « وَأَلْفَيْهَا سِيدَهَا لَيْ الْبَابِ » : لَمَّا فَتَحَا الْبَابَ وَجَدَا سِيدَهَا لَيْ الْبَابِ ،
والإشارة فيه إلى أن ربك بالمرصاد ، إذا خَرَجَ الْعَبْدُ عَنْ الْقِي هو عليه من التكليف في الحال
وقم في ضيق السؤال .

ويقال قال : « أَلْفَيْهَا سِيدَهَا » ولم يقل سِيدَهَا لِأَن يَوْسُفَ فِي الْحَقِيقَةِ كَانَ حُرّاً وَلَمْ يَكُنِ
الْمَرْزُوقَ لَهُ سِيداً .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا
إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

شَفَّلَتْهُ بِإِغْرَائِهَا إِيَّاهُ بِيُوسُفَ عَنْ نَفْسِهَا بِأَن سَجَّتْ إِلَى هَذَا الْكَلَامِ .
ويقال لقننه حديث السجن أو العذاب الأليم لثلاث يقصد قوله ؛ ففي عين ما سَعَتْ بِهِ نَظَرَتْ
له وَأَبَقَتْ عَلَيْهِ .

ويقال قالت ما جزاء من فعل هذا إلا السجن فإن لم ترض بذلك ، وستزيد ؛ فالعذاب
الأليم يعنى الضرب المبرح . . كأنما ذكرت حديث العقوبة بالتدرج .
ويقال أوقعت السجن الذي يبقى مؤثلاً في مقابلة الضرب الأليم المعجل لِيُعْلَمَ أَنَّ السَّجْنَ
الطويل — وإن لم يكن فيه في الظاهر ألم — فهو في مقابلة الضرب الشديد الموجع ؛ لأنه —
وإن اشتد فلا يقابله .

ويقال قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ؟ » فَنَزَّكَرُ الْأَهْلَ مَا هُنَا غَايَةُ تَرْجِيحِ الْحَمِيَّةِ
وَتَذَكُّرِ بِالْأَنْفَعَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ هِيَ رَأَوْدَتِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِيدٌ
شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قِيصُهُ قَدْ
مِنْ قُبُلٍ قَدْ نَدَّتْ وَهُوَ مِنْ
الْكَاذِبِينَ » وَإِنْ كَانَ قِيصُهُ قَدْ
مِنْ دُبُرٍ فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنْ
الصَّادِقِينَ » فَلَمَّا رَأَى قِيصَهُ قَدْ مِنْ

ذُبُّرٌ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ إِنَّ كَيْدَكُنِ
عَظِيمٌ .

أَفْصَحَ يَوْسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمِرْمَا إِذْ لَيْسَ لِلْعَادَى حُرْمَةٌ يَجِبُ حِفْظُهَا ، فَلَمْ يُبَالِ أَنْ
هَتَكَ سِتْرَهَا فَقَالَ . « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » فَلَمَّا كَانَ يَوْسُفُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
شَاهِدٌ أُنْطِقَ اللَّهُ الصَّبِيَّ الصَّمِيرَ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْ أَوَانَ النُّطْقِ ^(١) . وَلِهَذَا قِيلَ إِذَا كَانَ الْعَبْدُ صَادِقًا
فِي نَفْسِهِ لَمْ يُبَالِ اللَّهُ أَنْ يُنْطِقَ الْحَجَرَ لِأَجْلِهِ .

قَوْلُهُ : « فَلَمَّا رَأَى قَيْصَهُ قَدْ مِنْ ذُبُّرٍ . . . » لَمَّا أَفْصَحَ الْأَمْرُ وَاسْتَبَانَ الْحَالُ وَظَهَرَتْ
بِرَاءَةُ سَاحَةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ الْعَزِيزُ : « إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ » : دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الزَّانَا
كَانَ مُحَرَّمًا فِي شَرْعِهِمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَوْسُفُ أُعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي
لَذُنُوبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

لَمْ يُرِدْ أَنْ يَنْهَكَ سِتْرَ امْرَأَتِهِ فَقَالَ لِيَوْسُفَ : أُعْرِضْ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا :
« وَاسْتَغْفِرِي لَذُنُوبِكِ » : دَلٌّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي شَرْعِهِمْ عَلَى الزَّانَا حُدٌّ — وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا
حَيْثُ عَدَّهُ ذَنْبًا .

وَيَقَالُ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَهْلًا لِلْبَلَاءِ ؛ لِأَنَّ الْبَلَاءَ مِنْ صِفَةِ أَرْيَابِ الْوَلَاءِ ، فَأَمَّا الْأَجَانِبُ
فَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ وَيُخَلِّ سَبِيلَهُمْ — لَا لِكِرَامَةٍ تَحُلُّهُمْ — وَلَكِنْ لِحِفَاظَةِ قَدْرِهِمْ ، فَهَذَا يَوْسُفُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَرَى السَّاحَةَ ، وَظَهَرَتْ لِسُكُلٍ سَلَامَةُ جَانِبِهِ وَابْتِلَى بِالسَّجْنِ . وَامْرَأَةُ
الْعَزِيزِ فِي سَوْءِ فِعْلِهَا حَيْثُ قَالَ : « إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنِ » ، وَقَالَ لَهَا : « وَاسْتَغْفِرِي لَذُنُوبِكِ » ..
ثُمَّ لَمْ تَنْزِلْ بِهَا شَطِيئَةً مِنَ الْبَلَاءِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَقَالَ يَسُوءُ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ

(١) قِيلَ هُوَ صَبِيٌّ فِي الْمَهْدِ وَهُوَ ابْنُ خَالِهَا . وَمِنْ قَوْلِهِ شَهَادَةٌ لِأَنَّهُ أَدَّى مَوْدَى الْعِبَادَةِ لِي أَنْ تَبْتَ
بِهِ قَوْلَ يَوْسُفَ وَجَلَّ قَوْلُهَا (التَّوْبَةُ ج ٢ ص ٢١٨) .

تَرَاوُدُ قَتَاَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَفَعَهَا حُبًّا
إِنَّا تَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ ❊

إنَّ الهوى لا ينسكتم ، ولا تكون المحبة إلا وأبيع لما لسان عدول ، فلما تحققت محبتها
ليوسف بسطت النسوة فيها لسانَ اللامة .
ولما كانت أحسنَ منهن قِيمةً — فقد كنَّ من جملة خَدَمِهَا — كانت أسرعَ إلى اللامة .

قوله جل ذكره : ❊ فَلَمَّا نَجِمَتْ بِمَكْرِهِمْ أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِمْ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مَكَنَّاتٍ
وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا
وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّ عَلِيمًا فَلَمَّا رَأَتْهُ
أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ❊ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ
الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ
نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ
لَيُبْغِثَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ❊

أرادت أن يقلب عليهن استحقاقُ اللامة ، وتنفي عن نفسها أن تكون لها (١) أهلاً ،
فعلت بهن ما عيلت ، فلما رأينه تَغَيَّرْنَ وَتَحَيَّرْنَ ونطقن بخلاف التمييز ، قلن : « ما هذا
بشراً » : وقد كان بشراً ، قلن « إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ » : ولم يكن ملكاً .

قوله : « فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ » : أَثَرَتْ رُؤْيَاهُنَّ لَهُ فِيهِنَّ فَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ بدل الثمار ،
ولم يشرن ، وضمنن بذلك عندهما فقالت : أَلَمْ أَقُلْ لَكُنَّ ؟ أَتَنْتُنَّ لَمْ تَتَالَكُنَّ حَتَّى قَطَّعْتُنَّ
أَيْدِيَكُنَّ ؟ فكيف أصبر وهو في منزلي ؟! وفي مناه أنشدوا :

(١) أى أهلاً للامة .

(أنت عند الخصام عدوى :) (١)

ويقال (٢) إن امرأة العزيز كانت أتم في حديث يوسف — عليه السلام — من النسوة فأثرت رؤيته فبين ولم تؤثر فيها ، والتغير صفة أهل الابتداء في الأمر ، فإذا دام المعنى زال التغير ؛ قال أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — لمن رآه يبكي وهو قريب العهد في الإسلام : هكذا كنّا حتى قست القلوب . أى وقّرت (٣) وصلبت . وكذا الحريق أول ما يطرح فيها للماء يُسمع له صوت فإذا تعود شرب الماء سكن فلا يُسمع له صوت .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾
 مما يدعوني إليه ، وإلا تصرف عني
 كيدهن أصب إليهن وأكن من
 الجاهلين ﴿

الاختبار مقرون بالاختيار ، ولو تمّ العافية بدل ما كان يدعى إليه لكان يُعاقب ،
 ولكن لما قال : « السجن أحب إليّ مما يدعوني إليه » طوّب يدي ما قال .

ويقال إن يوسف عليه السلام نطق من عين التوحيد حيث قال : « وإلا تصرف عني
 كيدهن أصب إليهن » قد علم أن نجاته في أن يصرف — سبحانه — البلاء عنه لا بتكليفه
 ولا بتجنّبه .

ويقال لما آثر يوسف — عليه السلام — لحوق المشقة في الله على لذّة نفسه آثره عصره
 حتى قيل له : « تأفّف لقد آثر الله علينا » (٤)

قوله جل ذكره : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ ﴾
 كيدهن إنه هو السميع العليم ﴿

(١) بقية البيت مضطربة في الكتابة ، ومطبوعة في بعض المواضع .

(٢) القشيري هنا مستفيد من رأى استاذہ أبي علي الدقاق .

(٣) انظر رأى الدقاق في رسالة القشيري في معنى التلون والتمكين ص ٤٤)

(٤) وقرت = أصابها التل .

(٤) آية ٩١ من سورة يوسف .

لما رجع إلى الله بصلى الاستغاثه تداركه الله سبحانه بوشيك الإفاته... كذالك
ما اقبر لأحد - في الله تعالى - قدم إلا روحه بكرمه وتولاه ينعمه - إنه هو « السبع »
لأقوال السائلين ، « المليم » بأحوالم .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا
لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَاتٍ ﴾

لما سجن يوسف - عليه السلام - مع ظهور برائة ساحته اقله على امرأته أن يهتك
سترها حول الله ملكة إليه ، ثم في آخر الأمر حكّم الله بأن صارت امرأته بعد مقاسمتها
الضرر... وهذا جزاء من صبر .

ويقال لما ظلم يوسف عليه السلام بما نسب إليه أنطق الله تلك المرأة حتى قالت
في آخر أمرها بما كان فيه هتك سترها ، فقالت : « الآن حصص الحق أنا وادوته
عن نفسه » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَحَلِّ مِمَّ السَّجِنَ قَتِيَانِ
قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَأَيْتُ أُعْصِرُ خَمْرًا
وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَأَيْتُ أُجْلَى فَوْقَ
رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتُنًا
بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لصحة السجن أثر يظهر ولو بعد حين ؛ فإن يوسف عليه السلام لما قال لصاحبه
أذكرني عند ربك فأناشد الشيطان ذكر ربه فبقى يوسف في السجن زماناً ، ثم إن خلاصه
كان على لسانه حيث قال : فأرسلوا إلى يوسف وقيل له : « يوسف أيها الصديق أفتنأ... »
الآية « فالصحة تغطي بر كتابها وإن كانت تغطي » .

قوله : « إنا نراك من المحسنين » : الشهادة بالإحسان للمحسن ذرية ، بها يتوسل
إلى استجلاب إحسانه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمُ طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ
إِلَّا نَبَأُكُمْ بَأْتَاوَلَهُ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ
ذَلِكَ مَا عَلَتْنِي رُبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ
قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
مُكْذِبُونَ ﴾

التَّيَبُّتُ فِي الْجَوَابِ دُونَ التَّسْرِعِ مِنْ أَمَارَاتِ أَهْلِ الْمَسْكَارِ ، كَيُوصَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَدَمًا
أَنْ يَجِيبَهُمَا وَلَمْ يُسْرِعِ الْإِجَابَةَ فِي الْوَقْتِ .

وَيَقَالُ لَنَا آخِرُ الْإِجَابَةِ عَمَلٌ قَلْبِيهَا بِالْوَعْدِ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ تَقْدَرُ فَلَيْكِنْ وَعْدٌ .
وَيَقَالُ لَنَا فَانْصَحُوا بِسْؤَالِهِمْ قَدَّمَ عَلَى الْجَوَابِ مَا اقْتَرَحَهُ عَلَيْهِمَا مِنْ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ :
« ذَلِكَ مَا عَلَتْنِي رُبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ ... » ثُمَّ قَالَ :

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِبِرَاهِمٍ
وَإِسْحَاقَ وَيَسْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ
نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ ، وَالْإِطْعَاءِ إِلَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ أَجَابَهُمَا فَقَالَ :

﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ مَنْفَرَقُونَ
خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *
مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ
سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ إِلَهُكُمُ إِلَّا هُوَ أَمَرَ
أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الْفَرْقُ الْقَدِيمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هكذا كاد يوسف عليه السلام ألا يسكت حين أخذ في شرح التوحيد وذكر المعبود،
وفي الخبر: مَنْ أَحَبَّ شَيْئًا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكَ
فَيَسْتَقِي رَبَّهُ سَخَرًا وَأَمَّا الْآخَرُ
فَيُصَلِّبُ فَنَّا كُلُّ الطَّيْرِ مِنْ رَأْسِهِ
قُضِيَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ فَتَسْتَفْتِيَانِ﴾

اشتركا في السؤال واشتركا في الحكم وفي دخول السجن، ولكن تباينا في المآل؛
واحد صليب، وواحد قرب ووهب... وكذا قضايا التوحيد واختيار الحق؛ فَمَنْ مَرْفُوعٌ:
فوق السَّكَاةِ مَطْلَعُهُ، ومن مدفون: تحت التراب مضجعه.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي
عند ربِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ
فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سَنِينَ﴾.

يتبين أن تعبير الرؤيا — وإن كان حقا — فهو بطريق غريبة الظن دون القطع.
ثم إنه عاتب يوسف عليه السلام لأنه نسي في حديثه مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِ حِينَ قَالَ: «اذْكُرْنِي
عند ربِّكَ».

ويقال إنه طلب من بشر عوضا على ما عَّلَهُ، وفي بعض الكتب المنزلة: يا ابن آدم،
عَلَّمَ جَهَنَّمَ كَمَا عَلَّمْتَ جَهَنَّمَ.

ولما استعان بالخلوق طال مكثُهُ في السجن، كذلك يجازي الحق — سبحانه — مَنْ
يُعَلِّقُ قَلْبَهُ بِمَخْلُوقٍ.

قوله ذكره: ﴿وَقَالَ النَّبِيُّ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ
يَسْتَانِيْنَ يَا كُلُّهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ
سُنْبُلَاتٍ خَضَرٍ وَأُخْرَى يُرْسَاتٍ

يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن
كنتم الرؤيا تفسرون *

كان ابتداء بلاء يوسف — عليه السلام — بسبب رؤيا رآها ففسرها وأظهرها ، وكان
سبب نجاته أيضا رؤيا رآها الملك فأظهرها ، ليعلم أن الله يفعل ما يريد ؛ فكما جعل بلاءه في
إظهار رؤيا جعل نجاته في إظهار رؤيا^(١) ؛ ليعلم الكافة أن الأمر بيد الله فعل ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا أَضَلَّتْ أَحْلَامُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
الْأَحْلَامِ بِمَالَيْنِ ﴾ .

حال الرؤيا لا يختلف بالخطأ في التعبير ، فإن القوم حكموا بأن رؤياه أضلَّتْ أحلام فلم
يفسروه ذلك ، ولم يؤثِّر في صحة تأويلها .

قوله : « وما نحن بتأويل الأحلام بمالين » : من طلب الشيء من غير موضعه لم
ينل مطلوبه ، ولم يستعد بمقصوده .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ
أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾

لما كان للعلم لله والمحكوم أن يوسف عليه السلام يكون في ذلك الوقت هو من يفسر
الرؤيا — قبض القلوب حتى خفي عليها تعبير تلك الرؤيا ، ولم يحصل للملك تلج الصدر
إلا بتعبير يوسف^(٢) ، ليعلم أن الله — سبحانه — إذا أراد أمرا سهَّل أسبابه .

ويقال : إن الله تعالى أفرد يوسف عليه السلام من بين أشكاله بشيئين : بحسن الخلق
وبزيادة العلم ؛ فكان جهله سبب بلاءه ، وصلو علمه سبب نجاته ، لتعلم مرة العلم على
غيره ، لهذا قيل : العلم يعطى وإن كان يبغى .

(١) هدف التشير إلى أنه مهيد هو أن القاميس الإنشائية نسبية ولا تؤدي حتما إلى الصواب ،
وبالتالي لا ينبغي تطبيقها على ما يجري في الكون من تصاريح إلهية .
(٢) يصلح هذا التصور — على نحو ما — لتفسير كرامات الأولياء .

وقال إذا كان العلم بالرؤيا يوجب الدنيا فالعلم بالمولى أولى أن يوجب المعنى ، قال تعالى :
 « وَإِذَا رَأَيْتَ نَمْرًا رَأَيْتَ نَمْرًا وَمَلَكًا كَبِيرًا » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ تَزِدُّونَ سَمْعَ سَنِينَ دَابَّاً قَا
 حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سَعْتِهِ إِلَّا قَلِيلًا
 مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ .

لم يقدم الدعاء إلى الله تعالى على تعبير منه الرؤيا كما فعل في المرة الأولى ، لأن هذا السائل
 هو الذى دعه في المرة الأولى . فإما أنه قد قيل في المرة الثانية ، وإما أنه لم يقبل فيجس
 منه فأمله .

وصاحب الرؤيا الثانية كان التملك وكان غائباً ، والوعظ والدعاء لا يكونا إلا في الشاهدة
 دون المفاينة .

وقال بمحتمل أن يكون قد تفرس في الفتيلين قبول التوحيد فإن الشباب ألبس قلباً ،
 أما في هذا الموضع فقد كان التملك أصلب قلباً وأفظأ جانباً ؛ فذلك لم يدعه إلى التوحيد لئلا
 تفرس فيه من النيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ التَّيْلُ اتَّبَعْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ
 الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ
 مَا هَٰؤُلَاءِ النُّسُوءُ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
 إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ .

أراد عليه السلام ألا يلاحظه الملك بين انطية فيسقطه عيه من قلبه ؛ فلا يؤثر فيه
 قوله ، فذلك توفت حتى يظهر أمره للملك وتكشف برأه صاحبه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا رَاوْدُنَّ يَوْمَئِذٍ ﴾

٤٠ (١) آية ٢٠ سورة الإنسان .

مَنْ نَفَّيْهِ فَلَنْ يَكُونَ مُحِبًّا لِلَّهِ عَلَيْهِ

مِنْ سُوَّةٍ ﴿١﴾

الحقائق لا تنكسر أصلاً ولا بد من أن تبين... ولو بعد حين.

نسب يوسف إلى ما كان منه بريئاً، وأُتْبِ على ذلك مدة، وكان أمره في ذلك خجياً. ثم إن الله تعالى دَفَعَ عنه التهمة ووضعه عنه المظنة، وأطلق عذالته، وأظهر حاله، عما فرق به سره (١)؛ فَقُلْنَا: «عاش الله ما علمنا عليه من سوء».

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ

الْحَقُّ أَنَا رَاودُتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّ

لِكَ الصَّادِقِينَ ﴿٢﴾

لما كانت امرأة العزيز غير تامة في محبة يوسف تركت ذنبها عليه وقالت لزوجها: «ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم» ولم يكن ليوسف عليه السلام ذنب. ثم لما تناهت في محبته أفرقت بالذنب على نفسها فقالت: «الآن حصص الحق...» فالتفاني في الحب يوجب منك السر، وقلة المبالاة بظهور الأمر والسر (٢)، وقيل:

لِقُلِّ مَن شَاءَ مَا شَاءَ فَلَنِي لَا بَالِي

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٣﴾

إنما أراد الله أن يظهر براءة ساحة يوسف، لأنه علم أنهم يستحقون العقوبة على ما يبسطون فيه من لسان الملامة وذكر القبيح، ولم ير يوسف أن يصيهم بسبه — من قيل الله — عذاب

(١) السرايل = التقييس.

(٢) من هذه الإشارة نستطيع بطريق غير مباشر أن نعرف موقف القشيري من قضية عامة وهي:

هل يفصح المحب الزواله عن حبه المكثون أم يكتم؟ وهل تنتظر له شططاته في هذا الموقف أم لا؟

شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْأَوْلِيَاءِ : أَنْ يَكُونُوا خَصَمَ أَنْفُسِهِمْ ، وَلِهَذَا قِيلَ : الصَّوْفِيُّ دَمُهُ
هَدَرٌ وَمِلْكُهُ مَبَاحٌ^(١) — وَلِلَّهِ تَال :

﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ
بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾

لَمَّا تَمَدَّحَ بِقَوْلِهِ : « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كَأَنَّهُ نُوْدِي فِي سِرِّهِ . وَلَا حِينَ مَمَتَّ ؟
قَالَ : « وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي ! »^(٢)

وَيُقَالُ : قَوْلُهُ « لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » بَيَانٌ لِلشُّكْرِ عَلَى مَا عَصَاهُ اللَّهُ ، وَقَوْلُهُ :
« وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي » بَيَانٌ لِلْعُدْرَةِ لَمَّا قَصُرَ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، فَاسْتَوْجِبَ شُكْرَهُ زِيَادَةَ الْإِحْسَانِ ،
وَاسْتَحَقَّ بِمَذْهَبِهِ الْعَفْوَ .

وَالْعَفْوُ بَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اتَّقُونِي يَا أَسْتَخْلَصُهُ
لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾

لَمَّا اتَّضَعَتْ لِلْمَلِكِ طَهَارَةً فَعَلَهُ وَنَزَاهَةً حَالَهُ اسْتَحْضَرَهُ لَاسْتَصْنَاءَهُ لِنَفْسِهِ ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ
وَمَجَّعَ بَيَانَهُ رَفَعَ مَحَلَّهُ وَمَكَانَهُ ، وَضَمَّنَهُ يَرَّهَ وَإِحْسَانَهُ ، قَالَ : « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ »
قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي
حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

إِنَّمَا سَأَلَ ذَلِكَ لِيَضَعَ الْحَقَّ مَوْضِعَهُ ، وَلِيَصِلَ نَصِيبُ الْفُقَرَاءِ إِلَيْهِمْ ، فَطَلَبَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى
فِي ذَلِكَ ، وَلَمْ يَطْلُبْ نَفْسِيًّا لِنَفْسِهِ .

وَيُقَالُ لَمْ يَقُلْ إِنِّي حَسَنٌ جَمِيلٌ بَلْ قَالَ : إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ أَيْ كَاتِبٌ حُسْبُ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ
الْفَضْلَ فِي الْمَعْنَى لَا فِي الصُّورَةِ .

(١) هَذَا تَعْرِيفُ الصَّوْفِيِّ عِنْدَ سَهْلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الشُّشْتَرِيِّ (الرِّسَالَةُ ص ١٣٩) .

(٢) هَذَا تَعْوِذٌ لِمَا تَوَدَّ دَهْوَى النَّفْسِ وَمَحَارِبَةِ اهْتِرَاقِهَا عَلَى الدَّوَامِ ، وَعَدَمِ الْإِطْمِئْنَانِ إِلَى مَعَالِمِهَا .

قوله جل ذكره: ﴿وَكُنْكَ مَكَأً لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ
يَقْبُورًا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ﴾.

لَمْ تَكُنْ لَهُ دَوَاعِي الشَّهَوَاتِ مِنْ نَفْسِهِ مَكْنَهُ اللَّهُ مِنْ مُلْكِهِ — قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ
يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا» (١) — قَالَ: «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ إِنَّمَا يُوقَى عِبَادَهُ مِنَ الْإِطْلَافِ بِفَضْلِهِ لَا بِعُظَمِهِ،
وَبِرَحْمَتِهِ لَا بِخِدْمَتِهِمْ؛ فَقَالَ: «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ» ثُمَّ يَرِقُّ هَمُّهُمْ عَمَّا أُولَامَ مِنَ النَّفْسِ فَقَالَ:
﴿وَلَا تُجِرُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

رُيِّسَ لَمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّقْوَى وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى.

قوله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَاسْتَلَوْا عَلَيْهِ
فَصَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾.

عَرَفَ يُوسُفُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — إِخْوَتَهُ وَأَنْكَرُوهُ، لِأَنَّهُمْ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ فِي رِقٍّ الْمُبْدِيَةِ
لَمَّا بَاعُوهُ، بَيْنَا يُوسُفَ — فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ — كَانَ قَاعِدًا بِمَكَّانِ الْمَلِكِ. فَمَنْ طَلَبَ الْمَلِكُ فِي
صِفَةِ الْعَبِيدِ مِثْلَ يَرْفِهِ؟

وَكُنْكَ مَنْ يَتَّقِدُ فِي صِفَاتِ الْمُبْعُودِ مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ... مِثْلَ يَكُونُ عَارِفًا؟
هِيَاتُ هِيَاتٍ لِمَا يَحْسِبُونَ؛

وَيَقَالُ لِمَا أَخْفَوْهُ ضَارَ خَفَاؤُهُ حِجَابًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِمْ لِهَؤُلَاءِ، كُنْكَ الْعَامِ... بِخَطَائِلِهِمْ.
وَزَلَّاتِهِ تَقَعُ غَبْرَةً عَلَى وَجْهِ مَعْرِفَتِهِ.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَمَّا جَاهَزَهُمْ بِمِجَارِيمٍ قَالَ اتَّقُوا

(١) آية ٦٣ سورة الشورى.

بأنه لكم من أيكم الآترون أتى
أوفى الكيل وأنا خير المتزولين *

الحب غيور ؛ فلما كان يعقوب عليه السلام قد تسلى عن يوسف برؤية ابنه بنيامين غار يوسف أن ينظر إليه يعقوب (١).

وقال تلطف يوسف في استحضار بنيامين بالترغيب والترهيب ، وأما الترغيب ففي ماله الذى أوصله إليهم وهو يقول : « ألا ترون أتى أوفى الكيل » وفي إقباله عليهم وفي إكرامه لهم وهو يقول : « وأنا خير المتزولين » .
وأما الترهيب فبمنع المال وهو يقول :

* فإن لم تأتونى * فلا كَيْلَ لكم
عندى ولا تَقْرَبُون *

أى فإن لم تؤمنونى عليه فلا كَيْلَ لكم عندى ، وأمنع الإكرام والإقبال عنكم .
قوله جل ذكره : * ظالوا سَوَادُهُ عَنْهَا وَإِنَّا لَنَاقِلُونَ *
لما علم يوسف من حلم أنهم باعوه بشمن يخسر عليهم أنهم يأتونه بأخيهم طمعاً في إيفاء الكيل ، فلن يصعب عليهم الإتيان * .

قوله جل ذكره : * وقال لِبَنِيَّاهُ اجْلِسُوا بَضَاعَتِهِمْ
فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَرْفَعُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا
إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ *

يَجْعَلُ بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ - فِي بَابِ الْكَرَمِ - أَمْ مِنْ أَنْ لَوْ وَهَبَهَا لَهُمْ جَهْرًا ؛ لَأَنَّهُ
يَكُونُ حِينَئِذٍ فِيهِ تَقْلِيدٌ مِنْهُ بِالْوَجْهِ ، وَفِي تَمْلِكِهَا لَهُمْ بِإِشَارَةِ تَجَرُّدٍ مِنْ تَكْلُفٍ تَقْلِيدٍ
مِنْهُ بِالْخَاصَّةِ (٢) .

ويقال علم أنهم لا يستحلون مَالَ الْفَيْرِ قَدَسٌ بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ، لَكِنْ إِذَا رَأَوْهَا
ظَالُوا : هَذَا وَقَفَ فِي رِحَالِنَا مِنْهُمْ بِتَقْلِيدٍ ، ظُلُوجُ عَلَيْنَا رَدُّهَا عَلَيْهِمْ . وَكَانُوا يَرْجِعُونَ بِسَبَبِ
ذَلِكَ شَامُوا أَمْ أَبَوًا .

(١) وكذلك فإن لمع غيرة على عبده المؤمن أن يسكن سواء .

(٢) وكذلك نمرة الحق تأتي في خفاء ... وقل من يظن إليها .

قوله جل ذكره : ﴿ قَلْبًا رَجُوعًا إِلَىٰ أُولِي الْأَرْحَامِ ﴾

﴿ مَنَعَ مَنَا الْكَيْلُ فَأَرْسَلْنَا مِنْهُ آخَانًا ﴾

﴿ نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

لم يمنع يوسف منهم الكيل ، وكيف منع وقد قال : « أَلَا نَرُونَ أَنَّ أَهْلَ الْكَيْلِ ؟ »

ولكنهم تجاوزوا في ذلك تفخيلاً للأمر حتى تسحق نفسُ يعقوب عليه السلام بإرسال

بنيامين معهم .

ويقال أرادوا بقولهم : « مَنَعَ مَنَا الْكَيْلُ » في المستقبل إذا لم تحمله إليه .

ويقال إنهم تَلَفَّفُوا في القول ليعقوب — عليه السلام — حيث قالوا : « آخَانًا » إظهاراً

لشفقتهم عليه ، ثم أَكْدُوا ذلك بقولهم : « وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا أُلُوبٌ وَلَا عَلَىٰ الْأَعْيُنِ عِلْمٌ قَدْ آتَيْنَا الْكَيْلَ ﴾

﴿ عَلَيَّ أَخِي مِنْ قَبْلُ ؟ ﴾

مَنْ عَرَفَ غِيَابَاتَهُ لَا يَلَاظُ الْأَمَانَةَ ، ولذا لم تَسْكُنْ نَفْسُ يعقوب بضاهم لِيَا سَبَقَ

إليه من شأنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالِقَ الْيَمِّ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

﴿ الرَّاحِمِينَ ﴾

« الله خير حافظاً » : يحفظ بنيامين فلا يصيبه شيء من قِيَلِهِمْ .

ولم يقل يعقوب فالقه خير مَنْ يَرُدُّهُ إِلَيَّ ، ولو قال ذلك لعله كان يردّه إليه سريعاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُذُ هَذِهِ ﴾

﴿ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾

﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَنَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَاكَ ﴾

﴿ كَيْلُ بَعِيرٍ ﴾

بين يوسف — عليه السلام — أنه حين علمهم لم يحتج إلى عَوْضٍ بأخذه منهم ،

فَلَمَّا بَاعَهُمْ وَجَمَعَ لَمْ الْكَيْلَ مَا أَخَذَ مِنْهُمْ مَنًى ، وَالْإِشَارَةَ مِنْ هُنَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ » .

وَكُلُّ مَنْ خَطَا لِلدِّينِ خَطْوَةً كَفَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَجَزَاهُ ، فَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ رَوْحِ الطَّاعَةِ وَاللَّذَةِ الْعِيشِ مِنْ حَيْثُ الْخُلُوعَةِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لِنَأْتِيَنَّهُ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ : اللَّهُ عَلَى مَا هُوَ قَوْلٌ وَّكِيلٌ ﴾

إِنَّ الْخَدَرَ لَا يُفْتَى مِنَ الْقَدَرِ . وَقَدْ عَمِلَ يَعْقُوبُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مِنْهُمْ فِي بَابِ بَنِيَامِينَ مَا أَمَكْنَهُ مِنَ الْإِحْثِيَاظِ ، وَأَخَذَ الْمِثْقَالَ وَلَكِنْ لَمْ يَفُتِّ عَنْهُ اجْتِهَادُهُ ، وَحَصَلَ مَا حَكَمَ بِهِ اللَّهُ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أُلْحِمَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ تَفْرِيقَهُمْ فِي الدَّخُولِ لِمَلٍّ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَقَعُ بَصَرُهُ عَلَى يُوسُفَ ، فَإِنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدُهُمْ قَدْ يَرَاهُ الْآخَرُ ^(١) .

وَيَقَالُ ظَنُّ يَعْقُوبَ أَنَّهُمْ فِي أَمْرِ يُوسُفَ كَانُوا فِي شِدَّةِ الْغَنَاءِ بِشَأْنِهِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ لِمَسْكَاةٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ أَبُوهُمْ ﴾

(١) نَحْسَبُ أَنَّهُ دِيمَا كَانَ الْأَمْرُ بِتَفْرِيقِهِمْ مَرَدَهُ إِلَى أَنَّهُ فِي الْجَمَاعَةِ تَحْتَ الْمَسْئُولِيَةِ الْفَرْدِيَةِ إِذَا تَذَوَّبَ فِي السَّيَّانِ الْجَمَاعِيِّ ، بَيْنَمَا يَكْبُرُ الشُّعُورُ بِالمَسْئُولِيَةِ إِذَا كَانُوا أَحَادًا ، وَقَدْ قَالُوا لِيَعْقُوبَ مِنْ قَبْلِ (لَنْ أَسْأَلَهُ الْقَدْرَ وَنَحْنُ عَصَبَةٌ) .

مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
لَذَوُّ عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩٥﴾

إن لم يحصل مقصود يعقوب عليه السلام في المال حصل مراده في الحال ، وفي ذلك القدر
لأرباب القلوب استقلال .

ويقال على الأصغر حفظ إشارات الأكابر ، والقول فيها يأمرهم به هل فيه فائدة أم لا -
تركة للأدب .

ويقال إذا كان مثل يعقوب عليه السلام يثير على أولاده ، وينبغي به حصول مراده ..
ثم لا يحصل مراده علم أنه لا ينبغي أن يعتقد في الشيوخ أن جميع ما يريدون يتفق كونه
على ما أرادوا ؛ لأن الذي لا يكون إلا ما يريد ، واجباً وما أرادته فهو كائن . . هو الله
الواحد القهار

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ
أَخُوهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩٦﴾

حديث المحبة وأحكامها أقسام : اشتاق يعقوب إلى لقاء يوسف عليها السلام فبقي سنين
كثيرة ، واشتاق يوسف إلى بنيامين فزرق رؤيته في أوجز مدية .
وهكذا الأمر ؛ فهم موقوف به ، ومنهم صاحب بلاه .

ويقال لئن سخطت^(١) عين يعقوب عليه السلام بفارقة بنيامين فلقد قرئت عين يوسف
بلقاءه . كذا الأمر : لا تغرب الشمس على قوم إلا وتطلع على آخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جُلُّ السُّقَايَةِ
فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْنَاهَا
الْمِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿١٩٧﴾

(١) سخطت العين أي لم تفرح

احتل بنيامين ما قبل فيه من السرقة بعدما التقي مع يوسف .

ويقال : ما نسب إليه من سوء الحال هان عليه في جنب ما وجد من الوصال .

ويقال لأن نسب يوسف أخاه للسرقة فقد تعرّف إليه بقوله : إني أنا أخوك — سرّاً ، فكان متحلاً لأعباء اللامة في ظاهره ، محملاً بوجودان السكرامة في سرّه ، وفي معناه أشدوا :

أجِدْ اللامة في هوائك لذيذةً حُبّاً لذكرك فليكني اليوم

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَأْتِيهِمْ قَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ لِتُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا بِسَارِقِينَ ﴾

يعني حسن سيرتنا في سير المعاملة يدلّكم على حسن سيرتنا في الحالة .

ويقال لو كنّا لسرق متاعكم لما رددناه عليكم ولما وجدتموه في رحالنا بعد أن غيبنا عنكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾

تجاسر إخوة يوسف بجرّان جزاء السرقة عليهم ثقة بأنفسهم أنهم لم يباشروا الزلّة ، وكان بنيامين شريكهم في براعة السّاحة ، فلما استخرج الصّاع من وعائه بسط الإخوة فيه لسان اللامة ، وبقي بنيامين^(١) فلم يكن له جواب كأنه أقرّ بالسرقة ، ولم يكن ذلك صدقاً إذ أنه لم يسرق ، ولو قال : لم أفعل لأفشي سرّ يوسف عليه السلام الذي احتال معهم ذلك لأجله حتى يبقيه معه ، فسكت لسان بنيامين ، وتحقق بلحال قلبه .

ويقال لم يستصعب اللامة — وإن كان بريئاً — مما قرّن به ، ولا ينسّر سوء الحالة بالكاشفين بعد حسن الحالة مع الأحباب .

ويقال رى بما أظهرت عليه المقالة ، ولكن حصل له بذلك صفاء الحالة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ

(١) يصلح بنيامين — كما يصوره القشيري — نموذجاً لواحد من أهل اللامة ، لو دققتا النظر في إشارات القشيري بمده .

من قبلُ قاسرها يوسفُ في نفسه
ولم يُبدها لهم قال أنتم شرُّ مكاناً ،
والله أعلم بما تصفون ﴿١٠﴾ .

كان بئيلين بريثا مما رُمي به من السرقة ، فأنقذهم الله تعالى حتى رَمَوْا يوسف عليه
السلام بالسرقة ، واحدٌ بواحدٍ ليُظلمَ العالمون أن الجزاء واجبٌ .
وقال كان القُرْحُ بالقدح أوجع ما يتخذه يوسف منهم ^(١) ؛ حيث قالوا :
« إن يسرى قد سرى » أخ له من قبل « قد كان ذلك أشدَّ تأثيراً في قلبه من
الجهلاء الأول .

ويقال إذا حَقَّقَ عليك الملكُ فلا تأمنَ غيبه — وإن طالبت المدة — فإن يوسف عليه
السلام حَقَّقَ عليهم فلحقوا في المستأف منه ما ساءهم من حبس أخيه ، وما صاحبهم من الغلج
من أيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً
كبيراً فخذ أحدهما مكانه — إنا
نراكَ من المحسنين ﴾ .

لم تنفعهم كثرةُ التفصُّل ، وما راموا به من ذكر أيهم ابتلاه التوسُّل ، ولم ينفعهم ما قيل
منهم حين عرَّضُوا عليه أن يأخذَ أحدهم في البدل . . كذلك فكلُّ مُطالِبٍ بفضل نفسه :
لا تزِدْ ولازدةً وزدَ أخرى ؛ فلا الأب يُؤخذُ بكلِّ الولد ، ولا القريبُ برضى به عوضاً عن
أحد ؛ فذلك قال يوسف عليه السلام :

﴿ قال ماذا الله أن تأخذَ إلا من
وتجدنا متاعنا عنده إنا إذا
لفالليون ﴾ .

توهوا أن الحديث معهم من حيث سامعة الأموال ، فعرَّضُوا أنفسهم كي يؤخذَ واحدٌ
منهم ببدل أخيه ، ولم يطلوا أن يوسف عليه السلام كادهم في ذلك ، وأن مقصوده من

(١) القُرْح = الجرح ، والقَدَح = البيب في عرض هيرك .

ذلك ما استكن في قلبه من حب لأخيه ، وكلا .. أن يكون عن المحبوب بذلك أو يقوم مقام أحد .. وفي معناه أشدوا :

إذا أوصلتنا الله كما نديننا آيينا وقلنا : أنت أولى إلى القلب
وقيل :

أحب لي وبغضت إلى الله ما لله من ذنوب

قوله جل ذكره : ﴿ فلما استياسوا منه خلصوا نجيا ﴾

قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم

قد أخذ عليكم ميثقا من الله

ومن قبل ما قرأتم في يوسف قلن

أبرح الأرض حيي يأذن لي أبي

أو يحكمكم الله لي وهو خير

الحاكمين *

لما علموا أن يوسف عليه السلام ليس يبرح عن أخيه خلا بعضهم ببعض فعملت فيهم الخيلة ، وعلموا أن يعقوب في هذه الكثرة يتجدد له مثلاً أسلفوه من تلك الفعلة ، فلم يرجع ، أكبرهم إلى أبهم ، وتناهى إلى يعقوب بحيرهم ، فاتهمهم وما صدقهم ، واستخونهم وما استوثقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ارجعوا إلى أبيكم فتولوا يا أيها الإنس ﴾

أينك سرق وما شهدنا إلا بما عملنا

وما كننا لنغيب حافطين *

كان لهم في هذه الكثرة حجة على ما ظنوه ، ولكن لم يسكن قلب يعقوب عليه السلام إليها ، فإن تعين الجرم في المرة الأولى أوجب التهمة في الكثرة الأخرى .

قوله جل ذكره : ﴿ واسأل القرية التي كننا فيها والعير ﴾

التي أقبلنا فيها وإننا لصادقون *

ما ازدادوا إمامة حجة إلا ازداد يعقوب — عليه السلام — في قولهم شبهة .

ويقال : في مسأله الأطلال أخذ لقلب الأجلب ، وسأله لأسرارهم .. وهنا الباب
عما لشرح فيه مجال .

قوله جل ذكره ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَى الْأُلْبَابَ آلُ يَاقِينَ ﴾
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَنِي
بِهِمْ جَمِيعًا ﴿

جاء إلى قُرْبٍ خلاصه من الصبر بالصبر .
ويقال لما وعد من نفسه الصبر فلم يمس حتى قال : « يا أسفا على يوسف ، ليعلم أن عزم
الأجلب على الصبر منقوض غور محفوظ ^(١) » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفًا عَلَى يُوسُفَ
وَأَبَيْصَرَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ
كَعُظْمٍ ﴾

تولى عن الجميع — وإن كانوا أولاده — ليعلم أن الحبة لا تبقى ولا تذر .
ويقال أراد إخوة يوسف أن يكون إقبال يعقوب عليهم بالكلية فأعرض ، وتولى عنهم ،
وفاتهم ما كان لهم ، ولما قيل : مَنْ طَلَبَ السُّكْلَ لَاقَهُ السُّكْلُ .
ويقال لم يجد يعقوب مساعداً لنفسه على تأسفه على يوسف فتولى عن الجميع ، وانفرد
بإظهار أسفه ، وفي معناه أنشدوا :

فريدٌ عن الخللان في كل بلغة إذا عظم للطلب قلل المساعدة

ويقال كان بكاء داود عليه السلام أكثر من بكاء يعقوب عليه السلام ، فلم يذهب بصراً
داود وذهب بصراً يعقوب ؛ لأن يعقوب عليه السلام بكى لأجل يوسف ولم يكن في قدره

(١) يوضح التشرى هنا المعنى في رسالته حيث يقول : [وأعلم أن الصبر على شربين : صبر المابدين
وصبر المحبين ، فصر المابدين أحسنه أن يكون عفوفاً وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً ، وفي هذا
المعنى سمى الأستاذ أباً على التفات يقول : أصبح يعقوب وقد وعد من نفسه — صبر جميل — ثم لم يمس
حتى قال . يا أسفا على يوسف] الرسالة من ٩٥ .

يوسف أن يحفظ بصره من البكاء لأجله ، وأما داود فقد كان يبكي لله ، وفي قدرة الله — سبحانه — ما يحفظ بصرَ الباكي لأجله .

سمعتُ الأستاذ أبا علي الملقب — رحمه الله — يقول ذلك ، وقال رحمه الله : إن يعقوبَ بكي لأجل مخلوق فذهب بصره ، وداود بكي لأجل الله فبقى بصره .

وسمعتُ — رحمه الله — يقول : لم يقل الله : « عَيَّ يَعْقوب » ولكن قال : « وَايَيْسَتْ عَيْنَاهُ » ، لأنه لم يكن في الحقيقة عَيَّ ، وإنما كان حجاباً عن رؤية غير يوسف ^(١) .

وقال كان ذهابُ بصرِ يعقوب حتى لا يحتاج إلى أن يرى غير يوسف ، لأنه لا شيء أشدَّ على الأحباب من رؤية غير المحبوب في حال فراقه ، وفي مناه أشدوا :

لَا تَيْقِنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرُكُمْ أَغْضَتْ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

وسمعتُ الأستاذ أبا علي الملقب رحمه الله يقول : كان يعقوب عليه السلام يتسلَّى برؤية بنيامين في حال غيبة يوسف ، فلما بقي عن رؤيته قال : « يَا أَسْنَأُ عَلَى يَوْسُفَ » أي أنه لما سيجَّ من النظر كان يتسلَّى بالأثر ، فلما بقي عن النظر قال : يَا أَسْنَأُ عَلَى يَوْسُفَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَقًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْمَالِكِينَ ﴾

المالكين

هددوه بأن يصير حرقاً — أي مريضاً مشرقاً على الملأ — وقد كان ، وخوفوه بما لم يبال أن يصيبه حيث قالوا « أَوْ تَكُونَ مِنَ الْمَالِكِينَ » .

ويقال أطيب الأشياء في الملأ ما كان في حكم الهوى — فكيف يخوفُ بالملأ من كان أحب الأشياء إليه الملأ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

شكا إلى الله ولم يشك من الله ، ومن شكا إلى الله وصل ، ومن شكا من الله انفصل .

(١) هذا نموذج من التذوق نفس التراقي لا يظن إليه إلا أبواب التذوق العموي .

ويقال لنا شكاً إلى الله وَجَدَ انْخَلَفَ مِنْ اللَّهِ .

ويقال كان يقوبُ — عليه السلام — مُتَحَمِّلاً بنفسه وقلبه ، ومستريحاً عموماً بِسِرِّهِ
وروحه ؛ لأنه عَلِمَ مِنْ اللَّهِ — سبحانه — صِدْقَ حَالِهِ فقال : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ،
وفي معناه أُنشِدُوا :

إِذَا مَا نَحْنُ النَّاسُ رَوْحًا وَرَاحَةً تَمَنَّيْتُ أَنْ أَشْكُرَ إِلَيْكَ فَتَسَمَّعَا

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَنِي إِدْرِيسَ اصْبِرُوا فَتَحَصُّوا مِنْ يَوْسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ
لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
الْكَافِرُونَ ﴾

كان يقوب عليه السلام يبيت بنه في طلب يوسف ، وكان الإخوة يخرجون بطلب
للسيرة وفي اعتقادهم هلاك يوسف .. وكلُّ إنسانٍ وعده .

ويقال قوله « فتحصصوا من يوسف وأخيه » أمرٌ بطلب يوسف بجميع حواسهم ؛
بِالْبَصَرِ لِمَلَأَهُمْ قُبْحٌ عَلَيْهِ أَهْمُهُمْ ، وَبِالسَّمْعِ لِمَلَأَهُمْ يَسْمَعُونَ ذِكْرَهُ ، وَبِالْشَّمِّ لِمَلَأَهُمْ يَجِدُونَ
رِيحَهُ ؛ وقد تومَّ يقوب أنهم مثله في إرادة الوقوف على شأنه . ثم أحلَّم على فضل الله حيث
قال : « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ويقال لم يكن ليغوب أحدٌ من الأولاد بمكان يوسف ، فَظَهَرَ مِنْ قَلْبِهِ الصَّبْرُ عَلَيْهِ
مَا ظَهَرَ ، وَأَتَتْ غَيْبَةَ الْبَاقِينَ مِنَ الأولاد في طلب يوسف على حضورهم عنده .. فَشَتَّانَ بَيْنَ
حَالِهِ مَعَهُمْ وَبَيْنَ حَالِهِ مَعَ يَوْسُفَ ! واحدٌ لم يَرَهُ قَابِضَةً عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ بِفِرْقَةٍ ، وآخرون
أَمَرُهُمْ — يَنْخِيلُوهُ — رَشَقِيَّتِهِمْ هه (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ ظَنَّا أَنْ دَخَلْنَا عَلَيْهِ ظُلُمًا تَظُنُّوا أَنَّا بِلُيُوثٍ كَذِبٌ
مَسَّاءَ وَأَصْلَحْنَا الْفُرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ

(١) هنا لفظة ذكية إلى أننا قد نحب ونهلك في حب من لا نراه أحياناً .. فإذا صح هذا بالنسبة لطارق
مثلاً فكيف بالنسبة لبارتينا وخالفتنا ؟ !
ثم إنَّ التَّعَرُّبَ وَالْإِبْهَامَ بِرَبِّطَانِ بِالْإِجْتِهَادِ الْإِلَهِيِّ وَحْدَهُ .

مَرْجَاةٌ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ بِمِزَانٍ لِّلنَّاصِدِقِينَ ﴿١٧﴾

لما دخلوا على يوسف خاطبوه بذكر الضرِّ، ومقاساة الجوع والفقر، ولم يذكروا حديث يوسف عليه السلام، وما لأجله وجههم أبوم.

ويقال استلطفوه بقولهم: «مَسْنَأُ وَأَهْلُنَا الضَّرُّ» ثم ذكروا بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم.

ويقال لَمَّا طَالَمُوا فَرَحَ نَظْفُوا بِقَدَرِهِمْ فَقَالُوا: وَجَنَّا بِبِضَاعَةِ مَرْجَاةٍ — أَى رَدِيئَةٍ — وَلَمَّا شَاهَدُوا قَدَرَ يَوْسُفَ سَأَلُوا عَلَى قَدَرِهِ فَقَالُوا: أَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ.

ويقال طَالَمُوا كَيْلًا يَلِيْقُ بِفَضْلِكَ لَا يَفْقَرُنَا، وَيَكْرِيكَ لَا يَعْذِرُنَا، ثُمَّ تَرَكُوا هَذَا الْإِسَانُ وَقَالُوا: «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا»: نَزَكُوا أَوْضَعَ مَنَزِلٍ؛ كَأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا لَمْ نَسْجِبْ مِمَّا لَمْ يَبِيعْ وَالشَّرَاءُ فَقَدْ اسْتَحَقْنَا بِذَلِكَ الْمَطَاءَ، عَلَى وَجْهِ الْمَكَافَاةِ وَالْجَزَاءِ.

فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ قَالُوا وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا وَكَانُوا أَنْبِيَاءَ — وَالْأَنْبِيَاءُ لَا تَحِلُّ لَهُمُ الصَّدَقَةُ؟

فَيَقَالُ لَمْ يَكُونُوا بَعْدَ أَنْبِيَاءَ، أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي شَرْعِهِمْ كَانَتْ الصَّدَقَةُ غَيْرَ مُحَرَّمَةٍ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ.

ويقال إِنَّمَا أَرَادُوا أَنَّ مِنْ وَرَائِنَا مَنْ يَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ.

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ

وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾

افترضوا بحضرة يوسف عليه السلام وقالوا: «فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلُ» ففهمهم ووقفهم عند أحدم فقال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟ يعنى إِنَّمَا مَنْ عَامَلَ يَوْسُفَ وَأَخَاهُ. بمثل مما لم تكن فلا ينبغي له أن يتجاسر في انططاب كتجاسركم.

ويقال إِنَّمَا يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ كَلَامُكُمْ، وَأَكْثَرُكُمْ خُطَابِكُمْ، فَمَا كَانَ فِي حَدِيثِكُمْ إِلَّا ذِكْرُ ضُرُورَتِكُمْ... أَفَلَا يَنْظُرُ بِيَالِكُمْ حَدِيثُ أَخِيكُمْ يَوْسُفَ ۝ ١٩ وَذَلِكَ فِي بَابِ التَّنَابِ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَقُوبَةٍ

ولما أخجلهم حديث العتاب لم يَرْضَ يوسف حتى بسط عندهم فقال : « إذ أنتم جاهلون » (١).

قوله جل ذكره : « ﴿ قَالُوا أَإِذَاكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا يُوسُفُ قَالَ :

أَنَا يُونُسُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ

لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ »

في الابتداء حين جهلوه كانوا يقولون له في الخطاب : « يَا أَيُّهَا الْمَرْزُوقُ » فلما عرفوه قالوا : « إِنَّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هَذَا يُوسُفُ » ؛ لأنه لما ارتفعت الأجنية سقط التكلف في المخاطبة ، وفي معناه أشدوا :

إِذَا صَفَّتِ الْمَوَدَّةُ بَيْنَ قَوْمٍ وَدَامَ وَدَادُهُمْ قَبِيحَ الثَّنَاءِ

ويقال إنَّ التفاضل والتفارق بين يوسف وإخوته سببًا للتواصل بينه وبين يعقوب عليها السلام ؛ فالإخوة خبره عرفوه قبل أن عرّفه أبوه ليعلم أن الحديث بلا شك .

ويقال لم يقدموا على أبيهم في استحقاق الظفر عن يوسف ومعرفة ، بل إتهموا - وإن عرفوه - فلم يلاحظوه بعين المحبة والاطمئنان ، إنما كان غرضهم حديث الميرة والطعام فقط ، فقال : « أنا يوسف وهذا أخي » : يعني إلى كَأَنَّهُ لِيُثَلِّلَ هَذَا لَا لِمُسْكَمٍ ؛ ولذا قال : « أنا يوسف وهذا أخي » ، ولم يقل وأنتم إخواني ، كأنه أشار إلى طرف من العتاب ، يعني ليس ما عاملتموني به ففعل الإخوة .

ويقال هوّن عليهم حال بداهة (٢) الخجلة حيث قال « أنا يوسف » بقوله : « وهذا أخي » ، وكأنه شتّهم بقوله : « وهذا أخي » كما قيل في قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى » إنه سبحانه شتّل موسى عليه السلام باستماع : « وما تلك بيمينك يا موسى » بمطالعة المصاحف في عين ما كوشف به من قوله : « إني أنا الله » .

(١) واضح أن التفسير يطبق فكرة القبح والبسط في هذه الإشارة .

(٢) بمثابة الخجلة = مناجاتها

ثم اعترف بوجودان الجزاء على الصبر في مفاصلة الجهد والسناء فقال : « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

وسمعت الأستاذ أبا علي الفتاحي - رحمه الله - يقول لما قال يوسف : « إنه من يتق ويصبر » أحال في استحقاق الأجر على ما عمل من الصبر . . . فأنطقهم الله حتى أجابوه بلسان التوحيد فقالوا : « تالله لقد آتاك الله علينا » بمعنى ليس بصبرك يا يوسف ولا بتقواك ، وإنما هو بإيثار الله إليك علينا ؛ فيه قدمت علينا بحمدك وتقواك . فقال يوسف - على حجة الانتقاد للحق : « لا تريب عليكم اليوم » ؛ فأسقط عنهم اليوم ، لأنه لما لم يرق تقواه من نفسه حيث نبهوه عليه نطق عن التوحيد ، وأخبر عن شهود التقدير ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قالوا تالله لقد آتاك الله علينا

وإن كنا غافلون ﴾

اعترفوا بالفضل ليوسف - عليه السلام - حيث قالوا : لقد آتاك الله علينا ، وأكّدوا إقرارهم بالقدر بقولهم « تالله » وذلك بعد ما جعلوا فضله بقولهم : « ليوسف وأخوه أحب إلى أيتنا منا » ونحن عصبه إن أبانا لفي ضلال مبين » ، وهكذا من جحد فلأنه ما شهد ، ومن شهد فما جحد .

ويقال لما اعترفوا بفضله وأقرّوا بما اتصفوا به من جرمهم بقولهم : « وإن كنا غافلون » وجدوا التجاوز عنهم حين قال يوسف :

﴿ قال لا تريب عليكم اليوم يغفر

الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾

أسرع يوسف في التجاوز عنهم ، ووعد يعقوب لم بالاستغفار بقوله : « سوف أستغفر لكم ربي » لأنه كان أشد حبا لهم فتابهم ، وأما يوسف فلم يرم أهلًا للتلاب فتجاوز عنهم على الوهلة ، وفي مناه ألدوا :

ترك التلاب إذا استحق أخ منك التلاب خريسة المجر

(١) خلاصة رأى الحق أنه ليس بسل الإنسان يصل ولكن بفضل الله واختياره ، وحتى مزا الإنسان فهو أيضا يتم بفضل الله واختياره . . . وذلك أصل من أصول المذهب الشيعي كما وضع في مواضع متفرقة .

ويقال أصابعهم — في الحال — من الخبطة ما ظم مقام كل عقوبة ، ولما قيل :
كفى للمتصّر الحياه يوم القاء .

قوله جل ذكره : ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾

البلاء إذا همّ همّ مرّة ، وإذا زال زال بالتسويج ؛ حلّ البلاء يعقوب مرّة واحدة حيث قالوا : « فأكله القتب » ولما زال البلاء .. فأولاً وجدّ ربح يوسف عليه السلام ، ثم قبض يوسف ، ثم يوم الوصول بين يدي يوسف ، ثم رؤية يوسف .
ويقال لما كان سبب البلاء والى قبض يوسف أراد الله أن يكون به سبب الخلاص من البلاء^(١) .

ويقال علم أن يعقوب عليه السلام — لما يلحقه من قوط السرور — لا يطيقه عند أخذ القميص فقال : « فألقوه على وجه أبي » .

ويقال القميص لا يصلح إلا لباس إلا قبض الأحباب فإنه لا يصلح إلا لوجودان ربح الأحباب .

ويقال كان المي في العين فأمر بإلقاء القميص على الوجه ليجه الشفاء من المي .

ويقال لما كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في الإلقاء على العين التي في الوجه ، وفي معناه أنشوا :

وما بات مطوياً على أديمية عقيب النوى إلا فنى ظل مغرماً

وقوله « وأتوني بأهلكم أجمعين » : لما علم حزن جميع الأهل عليه أراد أن يشترك في الفرح جميع من أصابهم الحزن .

(١) ويضاف إلى ذلك أن عدم تمزق قميص يوسف كان دالة على براءة القتب ، وأن تمزقه من دبر كان دالة على براءة يوسف من جهة زناها ، وبهذا وذلك يمكن أن يكون قبض يوسف مراً لموجبات كثيرة في القصة .

ويقال عليمٌ يوسفُ أن يعقوبَ لن يطيقَ على القيام بكفايةِ أمور يوسف فاستحضره ،
إبقاءً على حاله لا إخلالاً لقدره وما وَجِبَ عليه من إجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَ الْمِيرَ قَالَ أَبُوهُ إِنِّي
لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ .

مادام البلاء مُقْبِلًا كان أمرُ يوسفَ وحديثه — على يعقوب — مُشْكَلًا ، فلما زالت
الحنة بعثت بكل وجه حاله .

ويقال لم يكن يوسف بعيداً عن يعقوب حين ألقوه في البُلبُ ولكن اشقبه عليه خبره
وحالُه ، فلما زال البلاء وَجَدَ ريحه وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً — من مصر إلى كنعان .

ويقال إنما اغرد يعقوبُ عليه السلام بوجودان ريح يوسف لانفراده بالأسف عند فقدان
يوسف . وإنما يجد ريح يوسف مِنْ وَجَدَ على فراق يوسف ^(١) ؟ فلا يعرف ريحَ الأحباب
إلا الأحبابُ ، وأما على الأجانب فهذا حديثٌ مُشْكِلٌ . . إذ أنى يكون للإسان ريح ؟! .
ويقال لفظ الريح هاهنا توسع ^(٢) ، فيقال هُبْتُ رياحُ فلانٍ ، ويقال إني لأجدُ ريحَ الفتنة . .
وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَئِنْ تَفْنَدُوا ﴾

تَفَرَّسَ فيهم أنهم يسطون لسان الملامة فلم ينجع فيهم قوله ، فزادوا في الملامة فقالوا : —

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾

قروا كلامهم بالشم ، ولم يمتشوا أباهم ، ولم يرأعوا حقّه في المخاطبة ، فوضفوه بالضللال
في الحجة .

ويقال إن يعقوب عليه السلام قد تعرّف من الريح نسيبَ يوسف عليه السلام ، وخبر
يوسف كثر حتى جاء الإذن للرياح ، وهذه سنة الأحباب : مسامحة الديار ومخاطبة الأهل ،
وفي معناه أنشدوا :

(١) لاحظ الجبال في أسلوب التشبُّير في (يجد) ريح يوسف و (وجد) على فراقه .

(٢) كلمة (توسع) يستخدمها التشبُّير بمعنى (يجاز) — ذلك الاصطلاح البلاغي المعروف .

وَإِنِّي لَأَسْهَدُ الرِّيحَ لَيْسَ بِكُمْ
وَأَسْأَلُهَا حَلُّهُ السَّلَامَ إِلَيْكُمْ فَإِنْ هِيَ يَوْمًا بَلَغَتْ فَأَجِيبُوا

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بِصُورٍ﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿

لَوْ أَنِّي قَبَيْضُ يُوسُفَ عَلَى وَجْهِ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْعَمِيَانِ لَمْ يَرْتَدَّ بِصُورِهِ ، وَإِنَّمَا رَجَعَ
بِصُورِهِ بِقُبُوبِ بَقِيضِ يَوْسُفَ عَلَى الْخُصُوفِ ؛ فَإِنْ بَصَّرَ بِقُبُوبِ ذَهَبٍ لَفَرَّاقَ يَوْسُفَ ، وَلَمَّا
جَاءُوا بِقُبُوبِهِ أَنْطَقَ لِسَانَهُ ، وَأَوْضَحَ بَرَاهِنَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ » عَنْ حَيَاةِ يَوْسُفَ ، وَفِي مَنَاهِ أَنْشَدُوا :

وَجْهَكَ الْمَأْمُولُ حُبَّتْنَا يَوْمَ يَأْتِي النَّاسُ بِالْحُجُجِ

قوله جل ذكره: ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾

كُلُّ إِنْسَانٍ وَهْمُهُ ؛ وَكَمَّ بِقُبُوبِ وَيُوسُفَ عَلَيْهَا السَّلَامُ فِي السَّرُورِ وَالِاسْتَبْشَارِ ، وَأَخَذَ
إِخْوَةَ يَوْسُفَ فِي الْاعْتِنَادِ وَطَلَبِ الْاسْتِغْفَارِ .

وَيُقَالُ إِخْوَةُ يَوْسُفَ — وَإِنْ سَلَكْتَ مِنْهُمْ الْجُفُوءَ كُلُّوْا أَبَاهُمْ بِلِسَانِ الْإِنْسَابِ لَتَقْدِمَ
شَفَقَةُ الْأَبُوِّ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنَ الْخَطِيئَةِ .

وَيُقَالُ يَوْمٌ بِيَوْمٍ ؛ الْيَوْمَ الَّذِي كَانَ يَعْقُوبُ مُحْزُونًا بِغِيبةِ يَوْسُفَ فَلَا جَرَمَ الْيَوْمَ كُلَّ
يَعْقُوبَ مَسْرُورًا بِقُبُوبِ يَوْسُفَ ، وَكُلَّ الْإِخْوَةَ فِي الْخَطِيئَةِ عَمَّا عَمِلُوا بِيُوسُفَ .

قوله جل ذكره: ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

وَعَدَهُمُ الْاسْتِغْفَارَ لِأَنَّهُ لَمْ يَفَرِّغْ مِنْ اسْتِغْفَارِهِ إِلَى الْاسْتِغْفَارِ .
وَيُقَالُ لَمْ يَجِبْهُمْ عَلَى الْوَهْلَةِ لِيَدْلُمُ عَلَى مَا قَدْ مُوَا مِنْ سُوءِ الْفَعْلَةِ ؛ لِأَنَّ يَوْسُفَ كَانَ غَائِبًا

وقتئذ ، فوعدم الاستغفار في المسأفة — إنا رضى عنهم يوسف حيث كان الحق أكثره
له ، ولو كان كله ليعقوب لوهمهم على الفور .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ
أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ لِنَزِيلِ مِنْ رَبِّكَ إِنَّكَ أَنْتَ
الرَّقِيبُ ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبُيُوتُ الْمُنِيرَاتُ ۝ ﴾

اشتركوا في الدخول ولكن تباينوا في الإيواء ، فانفرد الأبوان به ليُعْلِمَها عن الجفاء ،
فكذلك غداً إنا وصلوا إلى النفران يشتركون في وجود الجنان ، ولكنهم يتباينون في بساط
القربة فيختص به أهل الصفاء دون من اتصف اليوم بالاستواء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْمَرْثِ وَخَرُّوا لَهُ
سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ
رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا
رَبِّي حَقًّا ۝ ﴾

أوقف كلًا بحله ، فرقع أبويه على السرير ، وترك الإخوة نازلين بأما كنهم .
قوله : « وخرُّوا له سُجَّدًا » : كان ذلك سجود تحية ، فكذلك كانت عادتهم . ودخل
الأبوان في السجود — في حق الظاهر — لأن قوله « وخرُّوا » إخبار عن الجميع ، ولأنه
كان عن رؤياه قد قال : إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ،
وقال هاتنا : « هذا تأويل رؤيى من قبل قد جعلنا ربى حقا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ
السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَدٍ
أَنْ تَرَوُا شَيْئًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَنْفَى وَيُنْفِى
إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾

شهد لإحسانه فَشَكَرَهُ .. كُنْتُكَ مَنْ شَهِدَ النِّعْمَةَ شَكَرَ ، وَمَنْ شَهِدَ النُّعْمَ حَمَدَ ^(١)
وَذَكَرَ حَدِيثَ السَّجَن — دُونَ الْبَثَر — لَطُولُ مَدَةِ السَّجَن وَقَلَّةُ مَدَةِ الْبَثَر .

وقيل لأن فيه تذكرةً بِجُرْمِ الْإِخْوَةِ وَكَاتُوا بِخَطْبُون . وقيل لأن « السَّجَن أَحَبُّ إِلَى
مَا يَدْعُونِي إِلَيْهِ » . وقيل لأنه كَانَ فِي الْبَثَرِ مَرْفُوقًا بِهِ وَالْمَبْتَدَى بُرْقُوقُ بِهِ وَفِي السَّجَنِ فَقَدْ
ذَكَرَ الرُّفُقَ لِنُصْوَةِ حَالِهِ ؛ فَالضَّعِيفُ مَرْفُوقٌ بِهِ وَالْقَوِيُّ مُشَدَّدٌ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ ،
وَفِي مَعْنَاهُ أَتَشَدُّوا :

وَأَسْرَرْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَّيْتَنِي يَقُولِي يَحِلُّ النُّعْمَ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ
تَجَافَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا إِلِي حِيلَةَ وَغَادَرْتَ مَا غَادَرْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
وَفِي قَوْلِهِ : « وَجَاهُ بَيْتٍ مِنَ الْبَيْتِ » إِمَّا شَارَةً إِلَى أَنَّهُ كَأَسْرَرٍ بِرُؤْيَا أَبِيهِ سُرَّ بِإِخْوَتِهِ —
وَأَنَّ كَانُوا أَهْلَ الْجَفَاءِ ، لِأَنَّ الْأَخُوَّةَ سَبَقَتْ الْجَفْوَةَ ^(٢) .

قوله : « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » أَظْهَرَ لَمْ أَمْرٌ بِمَا يَشْبَهُ الْعَمَلِ ،
فَقَالَ كَانَ الَّذِي جَرَى مِنْهُمْ مِنْ تَزَاغَاتِ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ بِهَذَا حَتَّى قَالَ : « بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ،
يَعْنِي إِنْ وَجَدَ الشَّيْطَانُ سَبِيلًا إِلَيْهِمْ ، فَقَدْ وَجَدَ أَيْضًا إِلَيَّ حَيْثُ قَالَ : « بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » .
ثُمَّ نَطَقَ مِنْ عَيْنِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ : « إِنْ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ » فَلَطَفَهُ عَصَمَهُمْ حَتَّى
لَمْ يَقْتُلُونِي ..

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي
مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾

مِنْ حَرْفٍ تَبْعِيضٍ ؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ — بِالْكَسْرِ — اللَّهُ وَحْدَهُ .
وَيُقَالُ الْمُلْكُ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ قَسَمَانِ : مُلْكُهُ فِي الظَّاهِرِ مِنْ حَيْثُ الْوِلَايَةُ ، وَمُلْكُهُ عَلَى
نَفْسِهِ حَتَّى لَمْ يَعْمَلْ مَعَهُ مِنْ الرِّزَالَةِ .

(١) أَيْ إِنْ (الْجَد) أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنْ (الشُّكْرِ) .. وَهَكَذَا تَرَى الْبَحْوثَ الصُّوفِيَّةَ الْهَنَةَ .
(٢) رُبَّمَا يَرَى الْقَتْبَرِيَّ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى أَنْ يَشِيرَ إِلَى أَنَّ الْحَقَّ — سُبْحَانَهُ — يُفَضِّلُ بِكْرَهُ عَلَى عِبَادِهِ
— حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ مِنْهُمْ جَفْوَةٌ — لِأَنَّهُمْ عِبَادُهُ أَوَّلًا .. وَلِذَا هَذَا يَشِيرُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ :
« عِبْدِي .. إِنْ لَمْ تَكُنْ لِي .. فَأَنَا لَكَ »

ويقال ليس كلُّ مُلْكٍ المخلوقين الاستيلاء على الخلق ، إنما المُلْكُ — على الحقيقة — صفاته الخُلُقِيَّة .

قوله : « وعلمنى من تأويل الأحاديث » : للتأويل للخواص ، وتفسير التنزيل للعوام ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

« فاطر السموات والأرض » — هذا ثناء ، وقوله : « توفَّنِي » — هذا دعاء .

فَقَدَّمَ الثَّناء على الدَّعاء ، كنهك صفة أهل الولاء .

ثم قال : « أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، هذا إقرارٌ يَقْطَعُ الْأَسْرَارَ عَنْ الْأَغْيَارِ .

ويقال معناه : الذى يتولَّى فى الدنيا والآخرة برفاقه أَنْتَ ، فليس لى غيرك فى الدارين .

قوله : « توفني مسلماً » : قيل علم أنه ليس بعد السكال إلا الزوال فسأل الوفاة .

وقيل من أمارات الاشتياق تحي الموت على بساط السواقي ^(٢) مثل يومف عليه السلام أنفى فى الحب فلم يقل توفنى مسلماً ، وأقيم فيمن يزيد ^(٣) فلم يقل توفنى مسلماً ، وحسب فى السجن سنين فلم يقل توفنى مسلماً ، ثم لما تم له المُلْكُ ، واستقام الأمر ، ولقيَ الإخوة سجدةً ، وأنفى أبويه منه على العرش قال :

« توفني مسلماً » ، فعلم أنه كان يشتاق لقاتله (مبجانه) .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق — رحمه الله يقول . قال يوسف ليعقوب : عَلِمْتُ أَنَا نلتقى فيما بعد الموت . . فلم يكن كل هذا البكاء ؟

(١) تصلح هذه العبارة لتوضيح الفرق — فى نظر التشيى — بين كفى التأويل والتفسير .

(٢) هذه العبارة والاستشهاد عليها من قصة يوسف أوردتها التشيى ملهوين لشيوخه الدقاق فى الرسالة ص ١٦٤ .

(٣) (أقيم فيمن يزيد) لم ترد فى النسخ السابق بالرسالة . ومعناها : نودى عليه لياع كالعبيد بعد إخراجهم من البئر .

فقال يعقوب ، يا بُنَيَّ إِنَّ هَناكَ طَرِيقًا ، خِفْتُ أَنْ اسْلُكَ طَرِيقًا وَأَنْتَ تَسْلُكُ طَرِيقًا ،
فقال يوسف عند ذلك : « تَوْفَّنِي مَسَلًا » .

ويقال إن يوسف — عليه السلام — لما قال : توفني مسلماً ، فلا يبعد من حال يعقوب
أن لو قال : يا بني دَعْنِي أَشْتَنِي بِلِقَاكَ مِنَ الْإِثْمِ مُنِيتُ بِهِ فِي طَوْلِ فِرْعَانَ ، فلا تُسَيِّعْنِي
— بهذه السرعة — قَوْلَكَ : تَوْفَّنِي مَسَلًا .

قوله جلَّ ذَكَرَهُ . ﴿ ذَلِكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا
أَمْرًا وَمَا يَمْسُرُونَ ﴾ .

تبيّن للكافة أن مثل هذا البيان لهذه القصة على لسان رجلٍ أئى لا يكون
إلا بتعريفٍ سماوى

ويقال كونُ الرسولِ — صلى الله عليه وسلم — أُمِّيًّا فِي أَوَّلِ أَحْوالِهِ علامةٌ شَرَفِهِ وَعُلُوِّ
قَدْرِهِ فِي آخِرِ أَحْوالِهِ ، لأنَّ صِدْقَهُ فِي أَنَّ هَذَا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ إِنَّمَا عُرِفَ بِكَوْنِهِ أُمِّيًّا ، ثُمَّ أُنِى
يمثل هذه القصة من غير مدارسة كتاب .

قوله جلَّ ذَكَرَهُ : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ
بِآمَنِينَ ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم ، وصادق حُكْمِهِ حِكْمَتَهُ فِيهِمْ .

ويقال معناه : أَقَمْتُكَ شَاهِدًا لِإِرَادَةِ إِيمَانِهِمْ ، وَشِدَّةِ الْجُرْمِ عَلَى تَحْقِيقِهِمْ بِالَّذِينَ ،
وإِقَامَتِهِمْ . ثُمَّ إِنِّ أَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَكْثَرُكُمْ ، وَأَخْبَرْتُكَ بِذَلِكَ ، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ تَعْدِيقِي
بِذَلِكَ ، وَفَرَضْتُ عَلَيْكَ إِِرَادَتِي كَوْنِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ إِيمَانِهِمْ .

قوله جلَّ ذَكَرَهُ : ﴿ وَمَا نَسَأُ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرِ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذَكَرُ الْمُعَلِّينَ ﴾

هذه سنةُ الله — سبحانه — مع أنبيائه حيث أَمَرَهُمْ بِالْأَيْمَانِ عَلَى تَبْلِغِ الرِّسَالَةِ

عَوْسًا وَلَا أَجْرًا ، وَكَذَلِكَ أَمَرَ لِلطَّالِمِ — الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — بِالْأَخْذِ بِمَا خَلَقَ عَوْسًا عَلَى دَعَائِهِمْ إِلَى اللَّهِ ، فَمَنْ أَخَذَهُمْ حَظَمَانِ النَّاسِ لَمْ يُبَارَكْ لِلْمُسْتَمِعِ فِيهَا بِسَمْعٍ مِنْهُ ، فَلَا لَهُ أَيْضًا بَرَكَةٌ فِيهَا بِأَخْذِ مَنْهُمْ فَتَنْقَطِعَ بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

مُسْرِضُونَ ﴾ .

الآيَاتُ ظَاهِرَةٌ ، وَالْبَرَاهِينُ بَاهِرَةٌ ، وَكُلُّ جِزْءٍ مِنَ الْخَلْقَاتِ شَاهِدٌ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ ، وَلَكِنْ كَمَا أَنَّ مَنْ أَخْمَصَ عَيْنَهُ لَمْ يَسْتَمِعْ بِضَوءِ نَهَارِهِ فَكَذَلِكَ مَنْ قَصَرَ فِي نَظَرِهِ وَاعْتَبَارِهِ لَمْ يَحْظَ بِحَقَائِقِهِ وَاسْتَبْصَارِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ

مُشْرِكُونَ ﴾ .

الشِّرْكُ الْخَلْقِيُّ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ دُونِهِ — سُبْحَانَهُ — مَمْبُودًا ، وَالشِّرْكُ الْخَلْقِيُّ أَنْ يَتَّخِذَ بَقَلْبِهِ عِنْدَ حَوَائِجِهِ مِنْ دُونِهِ — سُبْحَانَهُ — مَقْصُودًا .

وَيُقَالُ شِرْكُ الْعَارِفِينَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ مَشْهُودًا ، أَوْ يَطَالِعُوا سِوَاهُ مَوْجُودًا ^(١) .

وَيُقَالُ مِنَ الشِّرْكِ الْخَلْقِيِّ الْإِحَالَةُ عَلَى الْأَشْكَالِ فِي تَجَنُّبِ الْأَحْوَالِ ، وَالْإِخْلَادُ إِلَى الْاِخْتِيَارِ وَالْاِحْتِيَالِ ^(٢) عِنْدَ تَزَاوُلِ الْأَعْفَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ

اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ

لَا يَشْعُرُونَ ﴾

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ اغْتَرَّ بِطُولِ الْإِمَهَالِ أَلَّا يُبْتَلَىٰ بِالِاسْتِصْصَالِ ، أَفَأَمِنَ مَنْ اغْتَرَّ بِطُولِ السَّلَامَةِ أَلَّا يَقُومَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(١) أَيْ (مَوْجُودًا) عَلَى الْحَقِيقَةِ .

(٢) (الْاِحْتِيَالُ) مَتَاعًا الْقِيُومَ إِلَى الْحِيلَةِ أَيْ التَّدْبِيرِ الْإِنْسَانِي بَلْ يَلْبِثُ إِسْقَاطَ التَّدْبِيرِ وَالْقِيُومَ إِلَى التَّعْدِيرِ الْإِلَهِيِّ .

ويقال الناشئة حجبٌ من القسوة يحصل في القلب، لا يزول بالتضرع ولا ينشع بالتخشع
ويقال الناشئة من العذاب أن نزول من القلب سرعة الانقلاب إلى الله تعالى، حتى إذا
تمادى صاحب النقلة استقبله في الطريق ما يوجب قنوطه من زواله، وفي معناه أشدوا :

قُلْتُ لِنَفْسِي إِنْ أُرِدْتِ رَجُوعًا فَارْجِي قَبْلَ أَنْ يَدُ الْعَرِيقُ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى

بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله

وما أنا من المشركين ﴾

« البصيرة » : البقينة التي لا مَرِيَّةَ فيه ، والبيان الذي لا شك فيه . البصيرة يكون
صاحبها مُلَاطِفًا بالتوفيق جَهْرًا ، ومُكَاشِفًا بالتحقيق سِرًّا .

ويقال البصيرة أن تطلع شمسُ العرفان ، فتندرجُ فيها أنوارُ نجومِ العقل .

قوله « أنا ومن اتبعني » أي ذلك سبيلٌ وسبيلٌ من اقتدى بهدي فهو أيضاً على بصيرة

قوله جل ذكره : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً

نُوحِي إِلَيْهِمْ قَوْلَ أَهْلِ الثُّرَى أَلَمْ

يسيروا في الأرض فينظروا كيف

كان عاقبة الذين من قبلهم ؟

ولدارُ الآخرة خيرٌ للذين اتقوا

أفلا تعقلون ﴾ .

تعبجوا أن يبعث الله إلى الخلق بشراً رسولاً ، فبين أنه أجرى سُنَّتَهُ — فيمن تقدم
من الأمم — ألا يكون الرسولُ إليهم إلا بشراً ، فلما أن جحدوا جوازَ بَشَرَةِ الرسولِ أصلاً ،
أو أنهم استكروا أن يبعث بشراً رسولاً .

ثم أمرهم بالاستدلال والتفكير والاعتبار والنظر فقال : « أفلم يسيروا في الأرض ؟ »

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

قَدْ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مَن
تَّشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ *

حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ كَذِبُوا — والظن هاهنا بمعنى اليقين — فعند ذلك جاءهم نصرنا ؛ والرسل بالنجاة ولأقوامهم بالهلاك ، وَلَا مَرَدٍّ^(١) لبأسنا ويقال حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين^(٢) شيئاً من الأحوال إلا بعد بأسهم منها ، قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ »^(٣) ؛ فكأنه يُزِلُّ المطر بعد اليأس فكذلك يفتح الأحوال بعد اليأس منها والرضا بالإفلاس عنها .

قوله جل ذكره : * لقد كان في قصصهم عبرة لأولي
الالباب ، ما كان حديثاً يُفترى
ولكن تصديقاً الذي بين يديه
وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة
لقوم يؤمنون * .

عبرة بها للسلوك في بسط العدل كما بسط يوسف عليه السلام ، وتأمينهم أحوال الرعية
كما فعل يوسف حين أحسن إليهم ، وأعتقهم حين ملكهم .
وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى ؛ فإن يوسف لما ترك هواه رَفَاهُ الله إلى ما رَفَاهُ .
وعبرة لأهل الهوى فيها في اتباع الهوى من شدة البلاد ، كما رَأَتْ العزیز لما تبعت هواها
لَقِيَتْ الضَّرَّ وَالْفَقْرَ .
وعبرة للمهالك في حضرة السادة ، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا مَلِكٌ مُلْكُ العزیز ،
وصارت زليخا امرأته حلالاً .

(١) سقطت الدال من (لا مرد) فأُتِيَتْهَا .

(٢) وودت (المرتدين) وهي خطأ في النسخ فالكلام عن أحوال (المريدين) ، كذلك فإن الله لا يفتح
على (المرتدين) شيئاً لهم مغنوب عليهم .
(٣) آية ٢٨ سورة الشورى .

وعبرةٌ في العفو عند المنتدرة ، كيوسف عليه السلام حين تجاوز عن إخوته .
وعبرةٌ في ثمرة الصبر ، فيعقوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يومًا بقلعه يوسف عليه السلام^(١) .

السورة التي يذكر فيها « الرعد »

بسم الله الرحمن الرحيم
« بسم الله » كلمةٌ سمعناها يُورثُ لقومٍ طلباً ثم طرباً ، ولقومٍ حزناً ثم هرباً ، فمن سمع بشاهد الرجاء طلب وجود رحمة فأذنه لما طرب ، ومن سمع بشاهد الريبة حزن من خوف عقوبته ثم إليه هرب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكُتُبَ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾
أقسم بما تدل عليه هذه الحروف من أمثاله إن هذه آيات الكتاب الذي أخبرت أني أنزل عليك

فألف تشير إلى اسم « الله » ، واللام تشير إلى اسم « اللطيف » ، والميم تشير إلى اسم « المجيد » ، والراء تشير إلى اسم « الرحيم » . فقال بسم الله اللطيف المجيد الرحيم إن هذه آيات الكتاب الذي أخبرت أني أنزله على محمد — صلى الله عليه وسلم . ثم عطف عليه بالواو قوله تعالى : « والذي أنزل إليك من ربك الحق » هو حق وصدق ، لأنه أنزله على نبيه — صلى الله عليه وسلم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
أي ولكن الأكثر من الناس من أصناف الكفار لا يؤمنون به ، فهم الأكثر عدداً ، والأقلون قدراً وخطراً

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْشَى ﴾

(١) أحسن التفسيرى إذ جل خاتمة السورة بمنابة خلاصة دقيقة لها ، وأوضح البيرة الاستفادة من دور كل سطحية فيها .

ذَكَرَ عَلَى صِفَاتِهِ وَذَاتِهِ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ آيَاتِهِ ، وَمَنْ جَلَّتْهَا رَفَعُ السَّمَوَاتِ وَلَيْسَ تَحْتَهَا عِمَادٌ يَشُدُّهَا ، وَلَا أَوْتَادٌ تُحْمِسُهَا . وَأَخْبَرَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ أَنَّهُ زَيْنُ السَّيِّئَةِ بَكَوْا كِبَاهَا ، وَخَصَّ الْأَرْضَ بِجَوَانِيهَا وَمَنَاكِيْهَا .

«أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ» : أَيْ احْتَوَى عَلَى مُلْكِهِ احْتَوَاهُ قُدْرَةٌ وَتَدْبِيرٌ . وَالْعَرْشُ هُوَ لِلْمَلِكِ حَيْثُ يَقَالُ : إِنَّكَ عَرْشُ فُلَانٍ إِذَا زَالَ مُلْكُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَصَحَّ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ﴾

كُلٌّ يَجْرِي فِي فَلَكَ . وَيَدُلُّ كُلُّ جِزْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ قِيلَ مُلْكٌ فِي مُلْكِهِ فِيمَا مَشْتَرَكٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَهْلَآءَ وَمِنْ كُلِّ الثَّرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

بَسَطَ الْأَرْضَ وَدَحَاها ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاها ، وَفَجَّرَ عِيُونَهَا ، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا ، وَجَعَلَ بِحُلَاهَا ، وَتَوَعَّجَ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ مَا جَلَّ الْبَحْرَ قَرَارَهَا ، وَأَنْبَتَ أَشْجَارَهَا ، وَصَنَّفَ أَزْهَارَهَا وَمَخَارِجَهَا ، وَكَوَّرَ عَلَيْهَا لَيْلَهَا وَنَهَارَهَا . ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، وَنُفِّضَ لِمَنْ يَشَاءُ عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

فَقَبْ سَيْخٍ^(١) وَمِنْ حَجَرٍ وَمِنْ دُمَلٍ . . . أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَأَزْوَاجٌ مُتَنَقَّةٌ . وَزُرُوعٌ وَنَبَاتٌ وَأَشْجَارٌ أَشْجَاتٌ ، وَأَصْلُ السَّكَلِ وَاحِدٌ ، فَأَجْزَاؤُهَا مُتَمَاثِلَةٌ ، وَأَبْغَضُهَا مُشَاكَلَةٌ ، وَلَكِنْ جَلَّ بِبَعْضِهَا غَدَاً^(٢) ، وَبِبَعْضِهَا قَشْراً ، وَبِبَعْضِهَا حُصْنًا ، وَبِبَعْضِهَا جَنْدًا ، وَبِبَعْضِهَا أَزْهَارًا ، وَبِبَعْضِهَا أَوْرَاقًا . . . نَمِ السَّكَلُ وَاحِدٌ ، وَإِنْ كَانَ لِسَكَلٍ وَاحِدٍ طَبِيعٌ خُصُوصٌ وَشَكْلٌ خُصُوصٌ ، وَلَوْ أَنَّ خُصُوصٌ وَقَشْرٌ خُصُوصٌ مَعَ أَنَّهَا تُسَقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ، إِذْ يَصِلُ إِلَى كُلِّ جِزءٍ مِنَ الشَّجَرِ مِنَ الْمَاءِ مِقْدَارُهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، « وَتُفَضَّلُ بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجِّبْ قَوْلَهُمْ أَئِنَّا

كُنَّا تَرَابًا أَئِنَّا لَنِ خَلَقْنَا جَدِيدًا ،
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ
النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وَإِنْ تَعَجَّبَ — يَأْمُرُ — لِقَوْلِهِمْ هَذَا مَوْضِعٌ يَتَعَجَّبُ مِنْهُ الْخَلْقُ ، فَالْمَعْجَبُ لَا يَجُوزُ فِي صِفَةِ الْحَقِّ^(٣) ، إِذْ أَنَّ التَّعَجُّبَ الْاسْتِغْنَاءَ وَالْحَقُّ لَا يَسْتَعِينُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا أَثَبَتَ مَوْضِعَ التَّعَجُّبِ لِلْمَخْلُوقِ ، وَحَسَنَ مَا قَالُوا : « إِنَّمَا تَعَجَّبُ مِنْ حُجُبٍ » لِأَنَّ مَنْ يَنْتَلِ عَيْنَ الْبَصِيرَةِ لَا يَتَعَجَّبُ مِنْ شَيْءٍ .

وَقَوْمٌ أَطْلَقُوا الْفِظَ بِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَوَاقِفَةِ أَيْ إِنَّكَ إِنْ تَعَجَّبَ فَهَذَا عَجَبٌ مَوَاقِفَتِكَ لَهُ . وَإِطْلَاقُ هَذَا — وَإِنْ كَانَ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى حَالَةٍ لَطِيفَةٍ — لَا يَجُوزُ ، وَالْأَدَبُ السَّكُوتُ عَنْ أَمْثَالِ هَذَا . وَالْقَوْمُ عَبَّرُوا عَنْ ذَلِكَ فَقَالُوا : أَعْجَبُ الْعَجَبِ قَوْلُ مَا لَا يَجُوزُ فِي وَصْفِهِ الْمَعْجَبُ . . . وَإِنْ تَعَجَّبَ .

وقوله تعالى : « أَئِنَّا كُنَّا تَرَابًا أَئِنَّا لَنِ خَلَقْنَا جَدِيدًا » : اسْتِغْنَاءُ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ — مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِإِتْلَاقِ الْأَوَّلِ وَهِيَ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ — مَوْضِعُ التَّعَجُّبِ ، إِذْ هُوَ صَرِيحٌ

(١) السَّيْخُ الْمَكَانُ يَظْهَرُ فِيهِ الْمَلْحُ وَتَتَوَخَّعُ فِيهِ الْأَقْدَامُ (الْوَسِيطُ) .

(٢) الْغَدَاةُ مِنَ الْعُشْبِ يَلْقَاهُ وَرَيْه (الْوَسِيطُ) .

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى مَا فِي الْآيَةِ (فَعَجَّبَ قَوْلَهُمْ . . .) .

في اللناقضة ، وكان القومُ أصحابَ تمييزٍ ونحصيل ، فقبِلُ مثل هذا بدعو إلى العجب . ولكن
 لولا أن الله — سبحانه — لبَسَ عليهم كما قال : « فَأَعْشَيْنَاهُمْ فِيهِ لَيَبْصُرُون » (١) —
 وإلا ما كان ينبغي أن يخفى عليهم جواز هذا مع وضوحه (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ
 خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

الكناية في : « له معقبات » راجعة إلى العبد ، أي أن الله وَكَّلَ بكل واحدٍ منهم
 معقباتٍ وهم الملائكة الذين يقبب بعضهم بعضاً بالليل والنهار يحفظون هذا المكلف
 وذلك (٣) من أمر الله ، أي من البلاء الذي يقدره الله . يحفظونهم بأمر الله من أمر الله ،
 وذلك أن الله — سبحانه — وَكَّلَ لكل واحدٍ من الملائكة يدفون عنهم البلاء
 إذا ناموا وغفلوا ، أو إذا اتعبوا وقاموا ومشوا . . . وفي جميع أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ أَفَّاكَ لَا يُفِّرُ مَا بَقِيَمْ حَتَّى يَنْفِرُوا
 مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ
 سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ
 مِنْ قَالَ ﴾

إذا غيروا ما بهم إلى الطاعات غير الله ما بهم منه من الإحسان والنعمة ، وإذا كانوا
 في نعمة فغيروا ما بهم من الشكر لله تغير عليهم ما من به من الإنعام فيسلبهم ما وهبهم من
 ذلك ، وإذا كانوا في شدة لا يغير ما بهم من البلاء حتى ينهروا ما بأنفسهم ، وإذا أخذوا
 في التضرع ، وأظهروا العجز غير ما بهم من المحنة بالتبديل والتحويل .
 ويقال إذا غيروا ما بأنفسهم من الله كَرَّ غير الله ما بقولهم من المخطوط فأبدلهم به النسيان

(١) آية ٩ سورة يس .

(٢) هنا وضع التاسخ علامة على سقوط مساحة من النص ، ومن المؤسف أنه لا يوجد استدراك
 لذلك في هامش ويقع في هذه المساحة تفسير للآيات من (٥ إلى ١٠) من السورة .

(٣) في النسخة (وهذا) ولكننا آثرنا أن نجعلها (وذلك) حتى تزيد السياق إيضاحاً ونعنع اللبس
 إذ ربما يظن أن (وهذا) الثانية مبتدأ .

والنعمة ، فإذا كان المبد في بسطةٍ وتعريبٍ ، وكشفٍ بالقلب وترقب . . . فله لا يُفتر ما بأنفسهم بترك أدبٍ ، أو إخلال بحقٍّ ، أو إلام بذنبٍ .

وقال لا يَكْفُ ما أتاهه للمبد من النعمة الظاهرة أو الباطنة حتى يترك ويُبَيِّر ما هو به من الشكر والحمد . فإذا قابل النعمة بالكفران ، وأبدل حمضاً^(١) باللبان وما يطبخ به من العصيان . أبدل الله تعالى ما به من النعمة بالمرمان والخلجان ، وصلب ما كان يعطيه من الإحسان .

وقال إذا توالى الهنُّ وأراد المبدُ زوالها فلا يصل إليه النقص^(٢) منها إلا بأن يغير ما هو به ، فيأخذ في السؤال بعد السكوت ، وفي إظهار الجزع بعد السكون ، فإذا أخذ في التضرع غير ما به من الصبر^(٣) .

قوله : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له » : يقال إذا أراد الله بقوم بلاءً وفننةً فما تملَّقت به الشيعة لا محالة يجري .

وقال إذا أراد الله بقوم سوءاً (. . .)^(٤) أعينهم حتى يسلوا ويختاروا ما فيه بلاؤهم ، فهم يشنون إلى هلاكهم بأنفسهم ، ويسعون — في الحقيقة — في دَمِيم كما قال قائلمهم :

إلى حَسْبِي مَشَى قَدِي إِذَا قَدَّمِي أَوَّلَقَ دِي

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

ويفش السحاب النقال ﴿

كما يريهم البرق — في الظاهر — فيكونون بين خوفٍ وطمعٍ ؛ خوفٍ من إحباس للطر وطمعٍ في مجيئه . أو خوفٍ للمسافر من ضرر يجي للطر ، وطمعٍ للمقيم في فقه . . . كذلك يريهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من الواجبات ثم القوامع ثم كالبرق في الصفاء ، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة .

(١) وودت (حصول) وقد آثرنا أن تكون (حضور) القلب حتى تتقابل (اللسان) .

(٢) يقال نقض فلان من مرته أى يرى منه (الوسيط)

(٣) سيود التشيرى إلى الإجابة عن سؤالين : متى يجوز للمبد أن يشكو ويتضرع ؟ وهل هذا آية نفاذ صبره أم علامة ضعفه إزاء القوة الإلهية ؟ . . . عند حديثه عن أيوب في سورة الأنبياء .

(٤) مشبهة وديماً كانت لفظة بمعنى (أعمى)

« خوفًا » : من أن ينقطع ولا يبق ، « وطعمًا » : في أن يدوم فيه قل صاحبه من المحاضرة إلى المكشفة ، ثم من المكشفة إلى المشاهدة ، ثم إلى الوجود ثم دوام الوجود ثم إلى كمال الخلود .

ويقال « يريكم البرق » : من حيث البرهان ، ثم يزيد فيصير كأقار البيان ، ثم بصير إلى نهار الرضوان . فإذا طلعت شمس التوحيد فلا خفاء بعدها ولا استتار ولا غروب لتلك الشمس ، كما قيل :

هي الشمس إلا أن للشمس غيبةً وهذا القى نغمه ليس ينيب
ويقال تبدو لم أنوار الوجال فيخافون أن تهن^(١) عليهم ليالي الفرقة ، فقلًا نخلو
فرحة الوصول من أن تعقبها موجة الفراق^(٢) ، كما قيل :

أي يوم سررتني بوصولي لم^(٣) تدعني ثلاثة بصمود^(٤) !

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ ﴾^(٥) الثَّقَالَ

إذا انتاب السحابة في السماء ظلام في وقت فإنه يعقبه بعد ذلك ضحك الرياض ، فما لم
تَبْكِ السماء لا يضحك الروض ، كما قيل :

ومأمّم فيه السماء تبكي والأرض من تحتها صرّوس
كذلك تنشأ في القلب سحابة الطلب ، فيحصل للقلب تردد الخاطر ، ثم يلوح وجه
الحقيقة ، فتضحك الروح لقنون راحت الأفس ، وحنوف أزهار القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيُسِيحُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ

من خيفته ﴾

أي الملائكة أيضًا تسبح من خوفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَبُّ السَّعَادَاتِ يُصِيبُ بِهَا مَنْ

(١) مصوبة هكذا في الماشي . والممن يتقبلها ويرفض (ممن) التي ل المت .

(٢) وردت (القرآن) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (كم) (٤) وردت (المسحاب) بالمعاد وهي خطأ .

يشاء ، وهم يُعَكِّدُونَ في الله وهو

شديدُ المحالِ ﴿

قد يكون في القلب حنين وأنين ، وزفير وشهيق - والملائكة إذا حصل لهم على قلوب
المريدين - خصوصاً - اطلاعٌ سيكون دماً لأجلهم ، لا سيما إذا وقعت لواحد منهم فترة ،
والفترة في هذه الطريقة الصواعق التي يصيب بها من يشاء ، وكما قيل :

ما كان ما أوكئت من وصلنا إلا سراجاً لاح^(١) ثم انطفأ

قوله جل ذكره : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من

دونه لا يستجيبون لهم يتوهمون ﴾

كَيْسِطُ كَفِيَّةٍ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ

وما هو بَيِّنَاتِهِ ﴿

دواعي الحق تصير لأئمة في القلوب من حيث البرهان فمن استمع إليها يسمع الفهم ،
استجاب لبیان العلم - وفي مقابلتها دواعي الشيطان^(٢) التي تهف بالمبدئين الملعونين ، فمن
أصغى إليها يسمع الغفلة استجاب لصوت^(٣) التي ، ومنها دواعي النفس وهي قائمة للعبد بزمَام
الخطوط ، فمن ركن إليها ولا حظها وقع في هوان الحجاب .

ودواعي الحق تكون بلا واسطة ملك ، ولا بدلالة عقل ، ولا بإشارة علم ، فمن أمسمه
الحق ذلك استجاب لا محالة لله بأفقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾

هواجس النفس ودواعيها تدمر - في الطريقة - إلى الشريك ، وذلك بشهود شيء
منك ، وحسبان أمر لك ، وتخرج في أوطان الفرق ، والسعي عن حقائق الجعفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وهو يسجد من في السموات

(١) وردت (راح) بإزاء الحق ولا يتقبلها فاختارنا (لاح) لأنها أقرب في الحق والخط .

(٢) وردت (السلطان) وهي خطأ في النسخ .

(٣) وردت (لمصوت) والراء زائدة كما هو واضح .

وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلَامًا بِالْفُتُوِّ وَالْأَصَالِ ﴿١﴾

المؤمن يسجد لله طوعاً ، وإذا نزل به ضرر أُلْجِأَ إلى أن يتواضع ويسجد ، وذلك معنى سجوده كرهاً — وهذا قول أهل التفسير . والكافر يسجد طامساً مختاراً ، ولكن لما كان سجوده لطلب كشف الضر قال تعالى : إنه يسجد كرهاً وعلى مقتضى هذا كلٌّ مَنْ يَسْجُدُ لا يتناول عرضاً أول كشف محنة .

ويقال السجود على قسمين : ساجدٌ بنفسه وساجدٌ بقلبه ؛ فسجود النفس مهود^(١) ، وسجود القلب من حيث الوجود . . وفرق بين من يكون بنفسه ، وواجد بقلبه .

ويقال الكل يسجدون لله ؛ إما من حيث الأفعال بالاختيار ، أو من حيث الأحوال بنعت الافتقار والاستبشار : سجود من حيث الدلالة على الوحدةانية ؛ فكل جزء من عين أو أثر قَلْبِ الوحدةانية شاهد ، وعلى هذا للمعنى لله ساجد . وسجود من حيث الشهادة على قدرة الصانع واستحقاقه لصفات الجلال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

قُلْ اللَّهُ قُلْ أَطَاعْتُمْ مَنْ دُونَهُ أَوَّلِيهِ

لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

سَلِّمُوا — يا محمد — مَنْ مَوْجِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَقْدَرُهَا ، وَخَتَرُ مَا يَمِثُّ فِيهَا وَمَدِيرُهَا ؟ فَإِنْ أَسْكَنْتَهُمْ مِنَ الْجَوَابِ مَا اسْتَكَنَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَهْلِ قُلْ اللَّهُ مَنْشِئُهَا وَمَجْرِئُهَا .

ثم قال : « أَطَاعْتُمْ مَنْ دُونَهُ أَوَّلِيَاءَ » : يعنى الأصنام ، وهى جادات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، ويلتحق فى المعنى بها كل مَنْ هُوَ مَوْسُومٌ بِرَقْمِ الْحَدُوثِ ، فَمَنْ عُلِقَ قَلْبُهُ بِالْحَدُوثِ ثَانٍ سَاوٍ — مِنْ وَجْهِ — مَنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، قَالَ تَعَالَى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُ مِمَّنْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »^(٢) .

(١) أى السجود فى الصلوات العادية بالنية للكافة ، وأما سجود الذناب فلخاصة .

(٢) آية ١٠٦ سورة يوسف .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾

الأعمى من على بصيرة فشاوة وحجة ، والبصير من كحل الحق بصيرة سره بنور التوحيد . . لا يستويان !

ثم هل تستوى ظلمات الشرك وأنوار التوحيد ؟ ومن جملة النور الخروج إلى ضياء شهود التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ جَاءَ اللَّهُ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ

فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

أى لو كان له شريك لوجب أن يكون له نِدْمَاءٌ ، وفي جميع الأحكام له مواز ، ولم يُجَدِّ حينئذ التمييز بين فعليهما .

وكذلك لو كان له نِدْمٌ . . فإن إثباتهما شينين اثنين يوجب اشتراكهما في استحقاق كل وصف ، وأن يكون أحدهما كصاحبه أيضاً مستحقاً له ، وهذا يؤدي إلى ألا يُعرف المخل . . وذلك محال .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ

الْقَهَّارُ ﴾

« كل شيء » تدخل فيه المخلوقات بصفاتها وأفعالها ، والمخاطب لا يدخل في الخطاب .

« وهو الواحد » : الذى لا خَلْفَ عنه ولا يَدُلُّ (١) ، الواحد الذى في فضله منزّه عن

فضل كل أحد ، فهو الكافي لكل أحد ، ويستعين به كل أحد .

« والقهار » : الذى لا يبرى بخلاف حكمه — فى ملكه — نفس .

قوله جل ذكره : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

(١) وردت (يدل) بإلفاء ومعنى خطأ في النسخ .

يَقْدَرُهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُون عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِثَاءَ
حَلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ،
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُثًّا وَأَمَّا الْمُتَنَفِّعُ
النَّاسُ فَيَمْسِكُهُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ
يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٢٠﴾

هذه الآية تشتمل على أمثال ضربها الله لتشبيه القرآن المنزل بالماء المنزل من السماء ،
وشبهه القلوب بالأودية ، وشبهه وساوس الشيطان وهواجس النفس بالزبد الذي يطو الماء ،
وشبهه الخلق^(١) بالمجواهر الصافية من الخشب كالذهب والفضة والنحاس وغيرها ، وشبهه
الباطل بخبث هذه الجواهر . وكان أن الأودية مختلفة في صغرها وكبرها وأن بقدرها تحتل للاء
في القلة والكثرة — كذلك القلوب تختلف في الاحتمال على حسب الضعف والقوة . وكان أن
السيْل إذا حصل في الوادي يظهر الوادي فكذلك القرآن إذا حصل حفظه في القلوب نفى
الوساوس والهوى عنها ، وكان أن الماء قد يصحبه ما يكرهه ، ويخلص بعضه مما يشوبه —
فكذلك الإيمان وفهم القرآن في قلوب المؤمنين حين تخلص من زعغات الشيطان ومن
الخواطر الرديئة ، فالقلوب بين صافٍ وكثير .

وكان أن المجواهر التي تتخذ منها الأواني إذا أذيت خلعت من الخشب كذلك الحق
يتميز من الباطل ، ويبقى الحق ويضمحل الباطل .

ويقال إن الأنوار إذا تلاكأت في القلوب نقت آثار السكفة ، ونور^(٢) البقيع ينفي ظلمة
الشك ، والعلم ينفي تمهالجهل ، ونور المعرفة ينفي أثر النكرة ، ونور الشهادة ينفي آثار البشرية ،

(١) مكنا في الصورة وترجيح أنها (الحق) ليقابل (الباطل) كما تتأيل المجواهر الصوفية الخشب —
وزيد من قوة هذا الترجيح ما سأتى به قليل عند (التمييز بين الحق والباطل) .
(٢) وردت (ونور) ومن خطأ في النسخ .

وأنوار الجلم تنفي آثار التنفرة . وعند أنوار الحقائق تلتقي آثار المخلوط ، وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تنفي سدة القليل من حيث حسابان أثر الأغيار .

ثم الجواهر التي تتخذ منها الأواني مختلفة فإنها يتخذ من الذهب وآخر من الرصاص ، إلى غيره . كذلك القلوب تختلف ، وفي الظهور : إن لله تعالى أواني وهي القلوب ، و فزاهد قاصدٌ ومحِبٌ واحدٌ ، وعابدٌ يخافُ وموحدٌ عارفٌ ، ومنعبدٌ متعففٌ ومنهجٌ متصوفٌ ، وأنشدوا :

أوانيها شئى القنون وإنما تُسقى بماء واحدٍ من مَنهلٍ

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالَّذِينَ

لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ وَلَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ
لَهُمْ سُورُ الْحُسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَيَبَسَ الْمَيَادُ ﴾

« الحسنى » (١) :- الوعد بقبول استجابتهم ، وذلك من أجل الأشياء عندهم ، فلا شيء أعزُّ على المحبِّ من قبول محبوبه منه شيئاً .

أما الذين لم يستجيبوا له ولو أنَّ لهم جميع ما في الأرض وأفقره تحداً لا يقبل منهم ، ولم سور الحساب ، وهو المناقشة في الحساب ، ثم مأوام جهنم ودوام العذاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَنَنْتَ بِأَنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ

مِن رَّبِّكَ الْحَقَّ كَذَبًا هُوَ أَهْمِي
إِنَّا بَشَرٌ كَرُّ أُولَ الْأَلْبَابِ ﴾

استفهام في معنى النفي ، أى لا يستوى البصير والضرير ، ولا للقبول بالمرحود بالمحبة ، ولا التوكل بالتردد بالعرض للتمذيب ، ولا القى أقصيناه عن شهودنا بقلبي هديناه

(١) يرى النسخ أن (الحسنى) هنا صفة للمصدر أى استجابوا الاستجابة الحسنى .

(٢) خطأ النسخ إذ جعلها (أظم) .

بوجودنا . إنما يَنْعِظُ مَنْ عقله له تشریف ، دون مَنْ عقله له سببُ إقصاء وتعنيف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ (١) يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ

وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾

الوفاء بالمهد باستدامة العرفان ، والوفاء بشرط الإحسان ، والتوفى من ارتكـب العـصيان
بذلك أُبرِمَ العـقـدُ يوم الميثاق والضمان .

وميثاق قومٍ ألا يعبدوا شيئاً سواه ، وميثاق قومٍ ألا يسألوا سواه

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ

الْحِسَابِ ﴾ (٢)

الذين يصلون بالإيمان به بالإيمان بالأنبياء والرسل .

ويقال الذين يصلون أناسهم بعضاً ببعض ؛ فلا يتخللها نفسٌ لغير الله ، ولا بنير الله ،
ولا في شهود غير الله .

ويقال يصلون سيرهم سيراً في إقامة العبودية ، والتبرئ من الحلول والقوة .

وقوله : « وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » : الخشية للعلم يُوقَفُ المؤمن عن الرِّكْضِ في ميادين الهوى ،
وزملم يُجَرُّ إلى استدامة حكم الثَّقَى .

وقوله : « وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ » هو أن يبدو من الله ما لم يكونوا يحسبون

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾

الصبر يختلف باختلاف الأغراض التي لأجلها يصبر الصابر ، فالعَبَاد يصبرون لخوف
المقوبة ، والزهاد يصبرون طمعاً في الثبوتية ، وأصحاب الإرادة هم الذين صبروا ابتغاء وجه
ربهم ، وشرطُ هذا النوع من الصبر رَفَضُ ما يمنع من الوصول ، واستدامة التوفى منه ،

(١) أخطأ الناسخ إذ حملها (والذين) .

(٢) هذه الآية مستدركة في مامضى الورقة بعد أن سقطت من النص .

فيدخل فيه ترك الشهوات ، والتجرد عن جميع الشواغل والعلاقات ، فيصبر عن العلف والزلة .
وعن كل شيء يشغل عن الله .

ومما يجب عليه الصبر الوقوف على حكم تمرز الحق ، فإنه - سبحانه - ينفض على
الكافة من المجتهدين ، ويتمرز - خصوصاً - على اللريدين ، فيمنحهم الصبر في أيام
إرادتهم ، فإذا صدقوا في صبرهم جاد عليهم بتحقيق ما طلبوا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سرّاً
وَعَلَانِيَةً ﴾ .

الأغنياء ينفقون أموالهم . والعبياد ينفقون نفوسهم ويتحملون صنوف الاجتهاد ،
ويصبرون على أداء الفرائض والأوراد . وللريدين ينفقون قلوبهم فيسرعون إلى أداء الفرائض
والأوراد . ويصبرون إلى أن يوح علم من الإقبال عليهم . وأما المحبون فينفقون أرواحهم ..
وهي كما قيل :

أَلَسْتُ لِي خَلْقًا ؟ كَفَى شَرَفًا فَا وَرَاءَكَ لِي قَصْدٌ وَمَطْلُوبُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ
لَهُمْ عُقُبَى النَّارِ ﴾

يعاشرون الناس بحسن الخلق ، فيبدأون بالإحسان ولا يطلبون الانتصاف ، وإن
عاملهم أحد بالجفاء قابلوه بالوفاء ، وإن أذنب إليهم قوم اعتذروا بهم ، وإن مرضوا
عادوهم .

قوله جل ذكره : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ
عُقُبَى النَّارِ ﴾

يَمُ النعمة عليهم بأن يجمع بينهم وبين مَنْ يحبون محبتهم مِنْ أَقاربهم وَأزواجهم ،
وقد ورد في الخبر : « المرءُ مع مَنْ أَحَبَّ » فَمَنْ كَانَ حُبُّهُ أُمَّتَهُ وَأَقْرَبَهُ خَيْرَ مَعِهِمْ ،
وَمَنْ كَانَ الْيَوْمَ بَقْلَهُ مَعَ اللَّهِ ، فَهُوَ قَدْ مَعَ اللَّهِ ، وفي الخبر : « أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَنِي » ،
وهذا في العاجل ، وَأَمَّا فِي الْأَجَلِ ، ففي الخبر : « الْفُقَرَاءُ الصَّابِرُونَ جُلَسَاءُ اللَّهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ
بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ
سُوءُ الْعَارِ ﴾

مَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ تَقَضَّى عَهْدَ الْإِسْلَامِ فِي الظَّاهِرِ ، وَمِنْ رَجَعَ إِلَى أَحْكَامِ الْعَادَةِ بَعْدَ
سُلُوكِهِ طَرِيقَ الْإِرَادَةِ ، قَدْ قَضَى عَهْدَهُ فِي السَّرَّاءِ ... فَبَعْدَ مُرْتَدِّ جَهْرًا ، وَهَذَا
مُرْتَدِّ سِرًّا ، وَلِلْمُرْتَدِّ جَهْرًا عَقُوبَتُهُ قَطْعُ رَأْسِهِ ، وَالْمُرْتَدِّ سِرًّا عَقُوبَتُهُ تَطْعُ سِرًّا .
وقوله : « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » ، هُوَ تَقْضَى قَوْلُهُ : « يَصْلُونَ مَا أَمَرَ
اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » .

ويقال تقض المهد هو الاستماعة بالأغيار ، وَتَرْكُ الْأَكْتِفَاءِ بِاللَّهِ الْجَبَّارِ .
ويقال تَقْضُ الْمَهْدُ الرُّجُوعُ إِلَى الْإِخْتِبَارِ وَالْتِدْبِيرِ بَعْدَ شَهْدِ الْأَنْدَارِ ، وَمُلَاحَظَةُ
التَّقْدِيرِ .

ويقال تقض المهد يَتَرَكُ نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَمُودُ إِلَى مَا قَالِ يَتَرَكُهُ .
قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَيَقْدِرُ ﴾

يُبْسِطُ الرِّزْقَ لِلْأَغْنِيَاءِ وَيُطَالِلُهُمْ بِالشُّكْرِ ؛ وَيُضَيِّقُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَيُطَالِلُهُمْ بِالصَّبْرِ

وَعَدَ الزَّيَادَةَ لِلشَّاكِرِينَ ، ووعدَ لِلصَّابِرِينَ . لِلأَغْنِيَاءِ الْأَمْوَالُ بِمَزِيدِهَا ، وَلِلْفُقَرَاءِ التَّجَرُّدُ فِي الْهَارِنِ عَنْ طَرَفِهَا وَتَلِيدِهَا .

قوله حل ذكره : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

فَرِحَ الْأَغْنِيَاءُ بِزَكَاهِ أَمْوَالِهِمْ ، وَفَرِحَ الْفُقَرَاءُ بِصَفَاءِ أَحْوَالِهِمْ .

« وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » قَلِيلٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ ؛ فَأَمْوَالُ الْأَغْنِيَاءِ — وَإِنْ كَثُرَتْ — قَلِيلَةٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا وَعَدَهُمْ مِنْ وَجُودِ أَفْضَالِهِ ، وَأَحْوَالُ الْفُقَرَاءِ — وَإِنْ صَفَتْ — قَلِيلَةٌ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا وَعَدَهُمْ مِنْ شُهُودِ جَمَالِهِ وَجَلَالِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾

« يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ » : وَمَنْ الَّذِينَ لَمْ يَشْهَدُوا مَا أُعْطِيَ نَبِيِّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — مِنَ الشَّوَاهِدِ وَالْبُرْهَانِ حَتَّى (. . .) ^(١) الزَّيَادَةَ .

« وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » : وَمَنْ الَّذِينَ أَبْصَرُوا بِمِیُونِ أَسْرَارِهِمْ مَا خُصَّ بِهِ مِنَ الْأَنْوَارِ فَسَكَنُوا بِنُورِ اسْتِبْصَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

قَوْمٌ اطْمَأْنَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، وَفِي الذِّكْرِ وَجَدُوا سَلَوَتَهُمْ ، وَبِالذِّكْرِ وَصَلُوا إِلَى صَفْوَتِهِمْ . وَقَوْمٌ اطْمَأْنَنَتْ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ فَذَكَرَهُمُ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — بِطَلْفِهِ ، وَأَثْبَتَتْ الطَّمَأْنِينَةُ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى وَجْهِ التَّخْصِیصِ لَهُمْ .

(١) مثلية .

ويقال إذا ذكروا أن الله ذكّرهم استروحت قلوبهم . واستبشرت أرواحهم ، واستأنست أسرارهم ، قال تعالى : « ألا يذكر الله لطمثت قلوبهم ، لئلا نالت بذكره من الحياة ، وإذا كان العبد لا يطمئن قلبه بذكر الله ، فذلك لجلال قله ، فليس قله بين القلوب الصحيحة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ

لَهُمْ وَحَسَنُ مَا لَهُمْ ﴾

طابت أوقاتهم وطابت قلوبهم .

ويقال طوبى لمن قننه الحق : طوبى

طوبى لهم في الحال ، وحسن المآب في المآل .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ

مِنْ قَبْلِكَ أُمَمٌ لِّتُلَوْا بِهِمْ الذِّكْرَ

أَوْحِينَا إِلَيْكَ

لئن أرسلناك بالنبوة إليهم فلقد أرسلنا قبلك كثيراً من الرسل . لئن أصابك منهم بلاء فلقد أصاب من قبلك كثير من البلاء ، فأصبر كما صبروا وتوَجَّر كما أوجروا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَكَبَّرُ ﴾

لئن كفروا بنا فآمن أنت ، وإذا آمنت فلا تبال بمن جحد ، فإنك أنت المقصود من البرية ، والمخصوص بالسالة المحبة .

ولو كان يجوز في وصفنا أن يكون لنا غرض في أفعالنا .

ولو كان الغرض في الخلقة فأنت سيد البشر ، وأنت المخصوص من بين البشرية بحسن الإقبال ^(١) ، فهذا مخلوق يقول في مخلوق :

(١) هذه أقصى درجة في تصور الشخصية الرسول صلوات الله عليه . في نظر هذا المصنف . فلو أن ذلك الموال اجت آخر من عرب أو الجليل عن « الإنسان السكّال » . لشغف الفرق الخائل بين الانبجاهين .

وَكُنْتُ أَخْرَجْتُ أَوْ تَلَايَ لَوْ قَدْ فَكَانَ الزَّمَنُ وَتَكَ وَالسَّلَامُ
وَكُنْتُ أَطَالِبُ الدُّنْيَا بِحُبٍّ فَكُنْتُ الْخَلْبُ... وَاقْطَعِ الْكَلَامَ

قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ
أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ
الْمَوْتُ بِلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾

لو كان شيء من المخلوقات يظهر بغيرنا في الإيجاد لكان يحصل بهذا القرآن ، ولكن
للشيء الله ، والتغير والشر جملة من الله ، والأمر كله لله . فإذا لم يكن شيء من الحدثان
بالقرآن — والقرآن كلام الله العزيز — فلا تكون قوة من التفي والإثبات للمخلوق .. فإن
ذلك محال .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ
اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾

• مناه أفلم يعلم الذين آمنوا ، ويقال أفلم يأسوا من إيمانهم وقد علموا أنه من يهديه الحق
فهو المهدي ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا
كَفَرُوا قَارِئًا أَوْ يَمُوتُ قَرِيبًا مِنْ
دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

يعني شؤم كفرهم لا يزال واصلاً إليهم ، ومقتضى^(١) صلهم لاحق بهم أبداً .
قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ
فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾

(١) من (انقضى) والتماس أن يوقع على الجاني مثل ملحق .

أُنزل هذه الآية على جبة الفلسفة لرسول - صلى الله عليه وسلم - عما كان يلاقه منهم .
وكما أن هؤلاء في التكذيب جرّوا على نهجهم فنحن أَدَمَّتْما سُنَّتْنا في التعذيب معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَنُحْيِيهِ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا
كَتَبَتْ ﴾

الجواب فيه مضمّن ؛ أى أفن هو يُجَرِّى ومنشئ الخلق والمُطَّلِعُ عليهم ، لا يَنْقُضُ عليه منهم
شيء ؛ كَمَنْ ليس كمنك ؟ لا يستويان غداً أبداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجِئُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ قُلُوبِكُمْ قُلْ يُثَبِّتُكُمْ
أَمْ تُثَبِّتُونَهُ بِمَا لَا يَلْبِثُ فِي الْأَرْضِ
أَمْ بظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾

قُلْ لَمْ أَرَوْى أى تأثير منهم ، وأى نفع لكم فيهم ، وأى ضرر لكم منهم ؟ أقولون
ما يعلم الله بخلافه ؟ وهذا معنى قوله : « مالا يعلم » .

قوله جل ذكره : ﴿ يَلْزُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْرُهُمْ
وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمِنْ يُضْلِلِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

أى قد تبين لكم أن ذلك من كيد الشيطان ، وزين للذين كفروا مكروهم ، وصاروا
مصدودين عن الحق ، مسدودة عليهم الطُّرُقُ ، فَإِنَّ مَنْ أَضَلَّهُ حُكْمُهُ - سبحانه - لا يهديه
أحد قطعا .

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا
تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ .

النَّضْلُ أى الصفة ، فصفا الجنة التي وعد المتقون هي أنها جنة تجري من تحتها الأنهار ،
وأكلها دائم وظلها دائم ، أى أن اللذات فيها متصلة . وإنما لم تجت معجزة وموجلة ، فالمرحلة

ما ذكره الله — سبحانه — في نص القرآن ، والمعلقة الوقت ^(١) . . . والدرجت — من حيث البسط — فيها منصلة ، وفضحت الأنس لأربابها لا مقطوعة ولا ممنوعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِكِتَابِ يَرْحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ .

يريد بهم مؤمنى أهل الكتاب الذين كانوا يفرحون بما ينزل من القرآن لصدق قبيهم .
﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾

أى الأحزاب الذين قالوا كان محمد يدعو إلى إله واحد ، فالآن هو ذا يدعو إلى إلهين لما نزل : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ ^(٢) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَهِي أَدْعُو وَإِلَهُ مَائِي ﴾ .

قل يا محمد : « إنما أمرت أن أعبد الله » . والعبودية المبادرة إلى ما أمرت به ، والمحاضرة ^(٣) مما جرئت عنه ، ثم التبرئ عن الحول والمئة ، والاعتراف بالطول والمئة .
وأصل العبودية التليام بالوظائف ، ثم الاستقامة عند رَوْح الطائف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنَّ أُتِيتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّمَّا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ .

أى حُكْمًا ببيان العرب ؛ لأن الله تعالى أرسل الرسل في كل وقتٍ كُلاً بلسان قومه ليبتدوا إليه .

وقال من صفات الرب الشجاعة والسخاء ومراعاة الأمام ، وهذه الأشياء مندوب إليها في الشريعة .

(١) أى جنة أرباب الأحوال . . . هنا فى هذه الدنيا

(٢) آية ١١٠ سورة الإسراء . ومنهم كتب بن الأثرى والسيد والسابق وأشياهم .

(٣) وردت (المحاضرة) بالفاء وهى خطأ فى النسخ كما هو واضح من السياق .

« ولئن اتبعت أهواءهم » : أي، ولئن وانضمهم ، ولم تنضم بالله ، ووَقَّصْتَ على قلبك حشةً من غير الله — فَمَا لَكَ من واقعٍ من الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

أي أرسلنا رسلًا من قبلك إلى قومهم ، فلم يكونوا إلا من جنك ، وكما لكم أزواج وذرية كانت لهم أزواج وذرية ، ولم يكن ذلك فادحًا في صحة رسالتهم ، ولا تلك العلاقات كانت شاذة لهم .

وقال ابن من اشتغل بالله فكثرة المال وتراكم الأشتال لا تؤثر في ماله ، ولا يضره ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

أي لكل شيء أجل مثبت في كتاب الله وهو المحفوظ ، وله وقت قسيم له ، وأنه لا إخلال لأحد على علمه ولا اعتراض لأحد على حكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِي وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ .

المشيئة لا تتعلق بالمحوث ، والمحو والإثبات متصلان بالمحوث .

فصفات ذات الحق — سبحانه — من كلامه وعلمه ، وقوله وحكمه لا تدخل تحت المحو والإثبات ، وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله ، المحو يرجع إلى المدم ، والإثبات إلى المحدثات ، فهو يمحو من قلوب الأعداء حب الدنيا ويُنْثِي بذهاب الزهد فيها ، كما في خبر الشيخ : « عَزَقْتُ نَفْسِي مِنَ الدُّنْيَا فَاسْتَوَى عِنْدِي حَبْرُهَا وَذَهَبُهَا » (١) .

(١) سأل النبي (ص) حارثة . اسأل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عرفت نفسي من الدنيا ، فخرجنا هذا الحديث في هامش سابق .

ويعفو عن قلوب المارقين المخطوطة ، ويثبتُ بدلها حقوقه تعالى ، ويعفو عن قلوب
الموحدين شهود غير الحق ويثبت بدله شهود الحق ، ويعفو آثار البشرية ويثبت أنوار
شهود الأحدية .

ويقال يعفو المارقين عن شواهدهم ، ويثبتهم بشاهد الحق .

ويقال يعفو العبد عن أوصافه ويثبت بالحق فيكون محواً عن الخلق مثبناً بالحق للحق .
ويقال يعفو العبد فلا يمرى عليه حكم التدبير ، ويكون محواً بحسب جريان أحكام التدبير ،
ويثبت سلطان التصديق والتقليب بإدخال ما لا يكون فيه اختيار عليه على ما يشاء .

ويقال يعفو عن قلوب الأجانب ذكر الحق ، ويثبت بدله غلبات الغفلة وهو أرحم الناس .

ويقال يعفو عن قلوب أهل الفترة ما كان يلوح فيها من لوامع الإرادة ، ويثبت بدلها
الرجوع إلى ما خرجوا عنه من أحكام العامة .

ويقال يعفو أوصار الزلة عن نفوس الماصين ، وآثار المصيان عن ديوان المذنبين
(ويثبت) ^(١) بدل ذلك لوعة الندم ، وانكسار الحسرة ، والحدود عن متابعة الشهوة .

ويقال يعفو عن ذنوبهم السيئة ، ويثبت بدلها الحسنة ، قال تعالى : « فأولئك يبدل الله
سيئاتهم حسنات » .

ويقال يعفو الله فضلة الشباب ويثبت ضعف للشيب .

ويقال يعفو عن قلوب الراغبين في مودة أهل الدنيا ما كان يحملهم على إثارة محبتهم ،
ويثبت بدلاً منه الزهد في محبتهم والاشتغال بمشربهم .

ويقال يعفو الله ما يشاء من أيام صفت من الغيب ^(٢) ، وليل كانت مضادة بالزلة والقرية
ويثبت بدلاً من ذلك أياماً هي أشد ظلاماً من الليالي الخناس ^(٣) ، وزماناً يحمل سعة الدنيا
عليهم نحاس .

(٢) سقطت هذه الجملة من النسخ .

(٢) من (اللب) يكون المعنى أن الأيام التي كانت تمنح لهم من النيب صافية . ولكننا لا نستبعد أنها
قد تكون (النيب) على معنى خلو تلك الأيام من كل كدورة بدليل المعالجة التي وردت فيها بعد .

(٣) جمع خندس أى شديد للسواد .

ويقال يحو المارقين بكشف جلاله ، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله .

ويقال يحوم إذا تحيل لهم ، ويثبتهم إذا تعزز عليهم .

ويقال يحوم إذا رُدَّهم إلى أسباب التفرقة لأنهم يصرون بنمت الافتقار والانكسار ، ويثبتهم إذا تحيل لقلوبهم فيصرون بنمت الاستبشار ، ويشهدون بحكم الافتخار .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعنده أم الكتاب ﴾

قيل اللوح المحفوظ الذي أثبت فيه ما سبق به علمه وحكمه مملا بتدليل ولا تغيير فيه .
ويقال إنه إشارة إلى علمه الشامل لكل معلوم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مَا زُرَيْتَكَ بَعْضَ الَّذِي تَعْدُمُ
أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَأُنْمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ
وعلينا الحساب ﴾

نفى عنه الاستعجال أمرا ، و (. . .) ^(١) في قلوبهم أنه يوشك أن يجبل الموعود جبراً .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا تَأْتِي الْأَرْضَ
نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ
لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
الحساب ﴾

في التفسير : يموت العلماء ، وفي كلام أهل المعرفة يموت الأولياء ، الذين إذا أصاب
الناس بلاء ومحنة فزعوا إليهم فيدعون الله ليكشف البلاء عنهم .

ويقال هو ذهب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى الله .
ويقال : في كل زمان لسان ينطق عن الحق سبحانه ^(٢) ، فإذا وقعت فترة سكن ذلك
اللسان — وهذا هو النقصان في الأطراف الذي تشير إليه الآية ، وأشد بعضهم :
طوى المصران ما تشراه مني وأبلى جدتي ثمر وطى

(٢) يصل ذلك بفكرة القطب والأوتاد والأبدال

(١) مثلية .

أَوَانِي كُلِّ يَوْمٍ فِي انْتِفَاسٍ وَلَا يَبْقَى مَعَ التَّنْقِصَاتِ شَيْءٌ

وَيَقَالُ يَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَيْ يَنْتَحِلُ الْمَدَائِنَ وَأَطْرَافَ دِيَارِ الْكُفَّارِ ، وَاتَّشَرَّ الْإِسْلَامُ ،
قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۖ ﴾ (١) .

وَيَقَالُ يَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا بِخَرَابِ الْبِلَادِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ ﴾ (٢)
وَقَالَ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٣) فَوَعْدُ الْحَقِّ خَرَابُ الْعَالَمِ وَفَنَاءُ أَهْلِهِ ، وَوَعْدُهُ حَقٌّ لِأَن
كَلَامَهُ صِدْقٌ ، وَاللَّهُ بِحِكْمٍ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا نَاقِضَ لِمَا أَمَرَهُ ، وَلَا مُعْزِمَ لِمَا نَقَضَهُ ،
وَلَا قَابِلَ لِمَنْ رَدَّهُ ، وَلَا رَادَّ لِمَنْ قَبِلَهُ وَلَا مُزِيلَ لِمَنْ أَهْلَكَهُ ، وَلَا مُدِلَّ لِمَنْ أَعَزَّهُ .
« وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » : لِأَنَّهُ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ .

وَيَقَالُ « سَرِيعُ الْحِسَابِ » فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلِيَّةَ إِذَا أَلَمُوا بِشَيْءٍ ، أَوْ عَمُوا الْمَرْجُورَ
مُؤْتَبِرُوا فِي الْوَقْتِ ، وَطَوَّلُوا بِحَسَنِ الرَّجَى .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَهُ

الْمَكْرُ جَيْمًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ

فَسْرٍ وَسَيَعْلَمُ الْكَارُؤِينَ عَقَبَى الْمُنَارِ ۖ

مَكْرُهُمْ إِنْظَارُ الْمَوَاقِفَةِ مَعَ إِسْرَارِ الْكُفْرِ ، وَمَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ تَوَهُُّهُمْ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ
فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَحَسْبَانَهُمْ (٤) أَنَّهُمْ سَنَانُ أَحْوَالِهِمْ ، وَظَنُّهُمْ أَنَّهُ لَا يَبْقَى بِهِمْ مَكْرُهُمْ ، وَنَخْلَتُهُ
إِلَيْهِمْ - مَعَ مَكْرِهِمْ - مِنْ أَعْظَمِ مَكْرِهِمْ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلًا

قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

وَمَنْ يَمْنُنْ بِهِمْ عِلْمَ الْكِتَابِ ۖ

(١) آيَةُ ٢٨ سُورَةِ النَّحْلِ .

(٢) آيَةُ ٨٨ سُورَةِ التَّحْسِينِ .

(٣) آيَةُ ٢٦ سُورَةِ الرَّحْمَنِ .

(٤) وَوَرَدَتْ (وَحَسْبَانَهُمْ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي النُّسخِ .

وَبِالْأَسْمَاءِ تَكْنِيهِمْ عَائِدٌ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ لِّكَ بِصِدْقِكَ . « ومن علم الكتاب »
هو الله سبحانه وتعالى عنده علمُ جميع المؤمنين . فاعلمنى كفى بالله شهيداً فضله علم الكتاب
وكفى بالمؤمنين شهيداً ؛ إذ المؤمنون يعلمون ذلك .

السورة التي يذكر فيها إبراهيم عليه السلام

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بسم الله معناه بالله ؛ فقلوب المارقين بالله إشراقها ، وقلوب الواهين بالله احتراقها ،
لهؤلاء (...)^(١) محبته ، ولهؤلاء شوقاً إلى عزيز رؤيته .

وأصحاب الوصول قالوا : بالله . . فوصل من الطالبين مَنْ وصل

قوله جل ذكره : ﴿ الْوَكَلْتُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ

النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ يَا ذَا

رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

أقص هذه الحروف : إِنَّهُ لَكِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ إِلَى
نور العلم ، وَمِنْ ظُلُمَاتِ الشُّكِّ إِلَى نور اليقين ، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير ،
ومن ظلمات الابتلاء^(٢) إِلَى نور الاتباع ، ومن ظلمات دَعَاوَى النَّفْسِ إِلَى نور معارفِ
القلب ، ومن ظلمات التفرقة إِلَى نور التجمع — يَا ذَا رَبِّهِمْ ، وبإرادته ومشيئته ، وسابق
حُكْمِهِ وقضائه إِلَى صراط رحمته ، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ وَكَانَ الْعَاقِبَةُ مِنَ

الْكَافِرِينَ ﴾

عَرَفَ الْخَلْقَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .

(١) مثنية .

(٢) وردت (الاجتهاد) بالهزة وفي خطأ من النسخ .

قَمْنٌ عَرَفَ فَهُ لِلآبِ الْحَمِيدِ ، وَمَنْ جَعَدَ فَهُ الْمُنَابِ الشَّدِيدِ ؛ وَذَلِكَ الْمُنَابِ هُوَ
جَهْلُهُ بِأَنَّهُ — سَبَّاحُهُ — مَنْ هُوَ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحْيُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى
الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْتَغُونَ بَرْءًا أَوْلَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ عَظِيمٍ ۖ ﴾

ثم ذكر ذمهم أخلاقهم ، قال : هُمُ الَّذِينَ يُؤَرِّوْنَ الْيَسِيرَ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا عَلَى الْخَطِّ
مِنْ نِعَمِ الْآخِرَةِ ، وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ جُبْحِهِمْ ، وَيَبْتَغُونَ لَدُنَّ عِوَجًا بِكَثْرَةِ جَهَنَّمِ ، أُولَٰئِكَ لَمْ
فِي الدُّنْيَا الْفِرَاقَ وَهُوَ أَشَدُّ عَقُوبَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ الْإِحْتِرَاقَ وَهُوَ أَجْلُ مَحْنَةٍ وَمُصِيبَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ
قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ۖ ﴾

إِنَّمَا كَانَ كُنْهَكَ لِيَكُونَ أَكْثَرُ فِي إِلْزَامِ الْحُجَّةِ ، وَأَتَى يَنْفَعُ ذَلِكَ إِذَا لَمْ يُوَفَّقُوا لِسُلُوكِ
الْمَصْجَرِ ؟ فَأَهْلُ الْمَدَايِرِ ظَرَوْا بِالْمُنَايَةِ السَّابِقَةِ ، وَأَصْحَابُ الْغَوَايَةِ وَقَعُوا فِي ذُلِّ الْعَادَاةِ ، فَلَا
اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ فَيَا يَصْنَعُ ، وَلَا يُسَالُّ عَمَّا يَفْعَلُ أَوْ لَمْ يَفْعَلُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۖ ﴾

أَخْرِجْ قَوْمَكَ بِدَهْوَتِكَ مِنْ ظُلُمَاتِ شَكَمِهِمْ إِلَى نُورِ الْيَقِينِ ، وَمَنْ إِشْكَالِ الْجَهْلِ إِلَى رَوْحِ
الْعِلْمِ . وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ؛ مَاسَلَفَ لَهُمْ مِنْ وَقْتِ اللَّيْتِاقِ ، وَمَا رَفَعَ عَنْهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ فِي سَابِقِ
أَحْوَالِهِمْ .

ويقال ذَكُرْتُمْ بِآيَامِ اللَّهِ وَهِيَ مَا سَبَقَ لَهُوَ أَحْمَهُم مِنَ الصَّفْوَةِ وَتَعْرِيفِ التَّوْحِيدِ قَبْلَ حُلُولِهَا
فِي الْأَشْبَاحِ :

مَقِيًّا لَهَا وَلَطِيْفًا وَلِحَسَنًا وَبِهَاتِمَا

أَيُّمَ لَمْ (.)^(١)

ويقال ذَكُرْتُمْ بِآيَامِ اللَّهِ وَهِيَ الَّتِي كَانُ الْعَبْدُ فِيهَا فِي كَتَمِ الْعَدَمِ ، وَالْحَقُّ يَتَوَلَّى عِبَادَهُ قَبْلَ
أَنْ يَكُونَ لِلْعِبَادِ فِعْلٌ ؛ فَلَا جُهْدَ لِسَابِقِينَ ، وَلَا عَنَاءَ وَلَا تَرَكَّ لِلْمُقْتَصِدِينَ ، وَلَا وَقَعَ مِنَ الظَّالِمِ
لِنَفْسِهِ ظَلَمٌ^(٢) .

إِذَا كَانَ مُتَعَلِّقُ الْعِلْمِ مُتَنَاوِلُ الْقُدْرَةِ ، وَالْحَكْمُ عَلَى الْإِرَادَةِ . . . وَلَمْ يَكُنْ لِلْعَبْدِ اخْتِيَارٌ فِي
تِلْكَ الْأَيَّامِ .

قوله : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » .

« صَبَّارٌ » : رَاضٍ بِحُكْمِهِ وَاقِفٌ عِنْدَ كَوْنِ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَسْرُهُ .

« شَكُورٌ » : عَجِيزٌ^(٣) بِشُهُودِ التَّمَنُّعِ عَنْ اسْتِفْرَاقِهِ فِي ظُهُورِ حَقِّهِ . . . هُنَا وَاقِفٌ مَعَ
صَبْرِهِ وَهَذَا وَاقِفٌ مَعَ شُكْرِهِ ، وَكُلُّ مُلَزَمٌ بِعَدَّةٍ وَقَدَرِهِ . . . وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، مُقَدَّسٌ
فِي نَفْسِهِ مُتَنَزِّعٌ بِجَلَالِ قُدْرَتِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوكُمْ صُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُوكُمْ صُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

(١) بَيِّنَةُ الْكَلَامِ ظَامِنَةٌ فِي الْكِتَابَةِ وَالْمَعْنَى ، وَتَجَرُّ الْمَطْلَبَةُ أَنْ تَتَّخِذَ حُرُوفَهَا .

(٢) يُشِيرُ الْقَشِيرِيُّ بِذَلِكَ إِلَى الْآيَةِ ٣٣ مِنْ سُورَةِ فَاطِرٍ : « فَتَمَّ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » .

(٣) فَلَا زَوْلَ الْمَجَابِ إِلَّا إِذَا تَجَرَّدَ الْعَبْدُ عَنْ شُهُودِ التَّمَنُّعِ ، وَشَاهَدَ التَّمَنُّعَ ، وَمَنْ شَاهَدَ التَّمَنُّعَ اسْتَبْتَلِ السَّرَّاءَ وَالْقَرَّاءَ بِلَا تَمَيِّزٍ .

تَذَكَّرُوا مَا سَلَفَ مِنَ الْقَمَرِ يَوْجِبُ تَجْدِيدَ مَا سَبَقَ مِنَ الْحَبَةِ ، وَفِي الظُّهْرِ :

« جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا » ، فَخَلَقَ أَمْرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

بِتَذَكُّرِ قَوْمِهِ مَا سَبَقَ إِلَيْهِمْ مِنْ فَنُونِ إِضَامِهِ ، وَلَطَائِفِ إِكْرَامِهِ . . . وَفِي بَعْضِ السُّكُتِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : « عِبْدِي ، أَنَا لَكَ حُبٌّ فَبِحَقِّ حُبِّكَ كُنْ لِي حُبًّا »

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ

لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لِلشَّدِيدِ ﴾

إِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ إِعْطَائِي وَإِنْ كَفَرْتُمْ بِإِعْطَائِي لَأَعَذِّبَنَّكُمْ الْيَوْمَ بِأَمْنِيَّاتِي ، وَغَدًا بِفِرَاقِي وَهَجْرَانِي .

لَنْ هَرَقْتُمْ وَصَالِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مِنْ وَجُودِ نَوَالِي إِلَى شُهُودِ جَمَالِي وَجَلَالِي ^(١) .

وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ وَجُوهَ تَوْفِيقِ الْعِبَادَةِ لَأَزِيدَنَّكُمْ بِتَحْقِيقِ الْإِرَادَةِ .

وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ شَهَادَاتِي لَأَزِيدَنَّكُمْ بِشُهُودِ أَوْصَائِي .

وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ صُنُوفَ إِعْطَائِي لَأَزِيدَنَّكُمْ بِشُهُودِ إِكْرَامِي ثُمَّ إِلَى شُهُودِ إِفْدَائِي .

وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ مَخْصَصَ نِعَائِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مُنْتَظَرَ آلَائِي .

وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ مَخْصُوصَ نِعَمِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مَأْمُولَ كَرَمِي .

وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ مَا سَخَّرْنَاكُمْ مِنْ عَطَائِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مَا وَعَدْنَاكُمْ مِنْ لِقَائِي .

وَيُقَالُ لَنْ شَكَرْتُمْ مَا لَوَّحْتُ فِي سِرَائِرِكُمْ زِدْنَاهُمْ مَا أَلْبَسْنَا مِنَ الْعَصَةِ لَفُطَاهِرَكُمْ .

وَيُقَالُ لَنْ كَفَرْتُمْ نَعَمْتِي بِأَنْ تَوَهَّمْتُمْ اسْتِحْقَاقَهَا ^(٢) لَجَرَّعْنَاكُمْ مَا تَسْتَمِرُّونَ مَذَاقَهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ

فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَنَفِيٌّ

حَمِيدٌ ﴾

(١) أَيْ إِذِ الْوُجُودِ وَالْعِبَادَةِ — بِهَذَا الصُّورِ — يَرْتَبِطَانِ بِالْأَوْصَافِ لَا بِالْأَعْيَانِ ، فَتَدْبُرُ الصَّدِيقَةُ مِنْ أَنْ يَسْتَكْفِرَ الْعَبْدُ مِنَ الْفَوَاتِ .

(٢) أَيْ يُلْقِي أَنْ تَنْظُرُوا لِأَعْمَالِكُمْ بَيْنَ الْإِسْتِغْفَارِ وَأَنْ مَا تَتَلَوْنَ مِنْ نَمَةِ نَفْسٍ مِنَ اللَّهِ وَلَيْسَ نَظِيرُ أَعْمَالِكُمْ .

إن اجتمعتم أنتم ومن عاصدكم ، وكل من غلب عنكم وحضركم ، والذين يقتنون أنركم
 — على أن تكفروا بالله جميعاً ، وأخذتم كل يوم شركاء قطيعاً — ما أوجهن ليرثنا شيئاً ،
 كالو شكرتم ما جعلتم بملكنا زينة . ولحق بنوعه ووصف جبروته علي ، وعن العالم
 بأمره غنى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ
 رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ
 فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا
 بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا
 تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝ ﴾

استفهام في معنى التقرير . أخيره أنه لما جاءهم الرسل قابلوهم بالسكود ، وطاعوهم بالجوده
 وردوا أيديهم في أفواههم ، وحدوا سبيلاً أسلم في الكفر ، وبنوا على الشك والريبة
 قواهم ، وأسوا على الشرك والقي مذاهبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِئُوا
 السَّوَآتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيُبْرِئَكُمْ
 لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى
 أَجْلٍ مُسَمًّى ۝ ﴾

استفهام والمراد منه توبيخ ونفي . سبحانه لا يتحرك نفس إلا بتصريره .

وكيف يبصر جلال قدره إلا من كمل بنور بره ؟

ثم قال : « يدعوك لينفركم من ذنوبكم » : ليس العجب من تكلف لسيده المشاق
 وتعمل ما لا يطلق ، وألا يوجب من خدمة أو يمنح إلى راحة .. إنما العجب من سيد عزيز
 كريم يدعو عبده لينفركه وقد أخطأ ، ويعامله بالإحسان وقد جفا .

والقى لا يَكُفُّ من النداء ، ولا يؤثر ضده سيده على راحة نفسه فلا يَحْتَمِلُ هذا إلا على قسمة بالشقاء سابقة . . وإن أحكم الله برؤيه صادقة . ثم أخبر أنهم ظفروا برسولهم :

﴿ ظفروا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا
تريّمون أن تصدّونا عما كان يصد
آبائونا فأتونا بسلطانٍ مبين ﴾

نظروا إلى الرسل من ظواهرهم ، ولم يعرفوا سرّاتهم ، ومالوا إلى تقليد أسلافهم ، وأمسروا على ما اعتادوه من شقاقهم وخلاتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت لم رُسُلُهم إن نحن إلا بشرٌ
مثلكم ولكن الله يَبْنِي على من
يشاء من عباده ، وما كان لنا أن
نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله
وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾

قالت لم الرسل ما نحن إلا أمثالكم ، والفرق بيننا أنه — سبحانه — من علينا بتعريفه ، واستخلفنا بما أفرَدنا به من تشريفه . والذى أقرّحتم علينا من ظهور الآيات فليس لنا إلى الإتيان به سبيل إلا أن يُظهِرَهُ الله علينا إذا شاء بما شاء — وهو عليه قدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد
هدانا سُبُلَنَا وَكَفَّيْرُنَّ عَلَى
مَا آذَيْنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

« ما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد رقنا من حدِّ التكليف بالبرهان إلى وجود روح البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان ، فكفانا من مهال الشان . « وما لنا ألا نتوكل على الله » : وقد حقّق لنا ما سبق به الضمان من وجود الإحسان ، وكفاية ما أظلمنا من الامتنان . « ما لنا ألا نتوكل على الله » ولم نخرج إلى التقاضى على الله فبا وعدنا الله .

قوله : « ولنصبرن على ما آتيتونا » : والصبر على البلاء يكون إذا كان نيل رؤية النبي، وفي معناه أشعوا :

يستقمون بلاياهم كأنهم لا يأسون من الدنيا إذا قبلوا
قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم
لنخرجنكم من أرضنا أو لنعوذن
في ملتنا فأوحى إليهم ربهم
لنهلكن الظالمين ﴾

لما عجز الأعداء عن معاوضة الأنبياء عليهم السلام في الإتيان بمثل آياتهم أخذوا في الجفاء
مهم بأنواع الإنذار ، والتهديد بفنون البلاء من الإخراج عن الأوطان ، والشريد في البلدان .
وبسط الله على قلوبهم بوحده نصره ولقائه ما أظلم من الأمر ، ومكن لهم من ساكن أعدائهم
بما قوى قلوبهم على الصبر على مقاساة بلائهم فقال :

« لنهلكن الظالمين » ، وقال :

﴿ وَلَنُفَكِّنَنَّكُمْ مِنَ
بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَارِ
وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

« وخاف وعيد » : أى خاف مقامه في محل الحساب فعداً فأناوب إلى نفسه على
وجه التخصيص .

ويقال خاف مقامى أى هاب اطلاعى عليه ، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل ، والثانى
تحقيق المراقبة في العاجل .

قوله جل ذكره : ﴿ واستمعوا وخاب كل جبار عنيد ﴾

الاستفتاح طلب الفتح ، والفتح القضاء ، واستمعوا حلول القضاء مثل قولهم : دإن كان هنا
هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ^(١) وغيره فلما نزل بهم البلاء ، وتحقق لهم

(١) آية ٢٢ سورة الأنفال .

الأمر لم ينفعهم تضرعهم وبكاؤهم ، ولم تُقبل منهم صدقتهم ، فندموا حين لا ندامة ،
وجزعوا بعدما عَدِمُوا السلامة .

ويقال : « واستفتحوا » : بفتح الهمزة ، ولام الزيادة ، واسم إصرار قومهم سألوا النصره
عليهم من الله كقول نوح — عليه السلام : « رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
دِيلًا » ، وقول موسى عليه السلام : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ »^(١)
فأجابهم الله بإهلاكهم .

ويقال إذا اشتد البلاءُ وَصَدَّقَ الدَّعَاءُ قُرْبَ النَّجَادِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَيْنِ وِرَاءِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ
مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ • يتجرعه ولا يكادُ
يُسيغه •

لفظ « وراء » يقع على ما بين يديه وعلى ما خَلْفَ ، والوراء ما توارى عليك أي
استتر ، يريد هنا الكافري بأنه المذاب فيما بين يديه من الزمان ، وعلى ما خَلْفَهُ أي لأجل
ما سلف من الماضي من قبائح أفعاله ، وَيُسْقَى مِنَ النَّارِ ما يشربه جرعة بعد جرعة ،
فلمصوغته ومماراته لا يشربه مرة واحدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
وَمَا هُوَ بِمُعَيِّنٍ ﴾ وَمِنْ قَدَائِهِ عَذَابٌ
غَلِيظٌ •

يرى العذاب — من شدته — في كل عضو ، وفي كل وقت ، وفي كل مكان . وليس
ذلك الموت ؛ لِأَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَمُوتُونَ ، ولكنه في الشدة كالوت . ثم « مِنْ وِرَاءِهِ عَذَابٌ
غَلِيظٌ » : وهو الخلود في النار ، وهذا جزاء مَنْ اغْتَرَّ بِأَيَّامٍ ظَلَالٍ سَاعِدَتِهِ الْمَشِيئَةُ فِيهَا ،
وانتدع فلم يشر بما يليها .

(١) الآية ٨٨ سورة يونس .

قوله جل ذكره: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ
كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ
عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهَا كَيْدًا
عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
الْبَعِيدُ﴾

أى وفيما يُثَلَّى عليك — يا محمد — مَثَلٌ لأعمال الكفار في تلاشيها ، وكيف أنه
لا يُقْبَلُ شَيْءٌ منها كَرَمَادٍ في يومٍ عاصف ، فإنه لا يَبْقَى منه شَيْءٌ — كذلك أعمالهم .
ومن كان كذلك فقد خلب في الدارين ، وحلَّ عليه الويل .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحُكْمِ الحق ، أى له ذلك بحق ملكه ، وخلقهما بقوله
الحق ؛ فجعل كلَّ جزء منهما على وحدانيته دليلاً ، ولئن أراد الوصول إلى ربه سبيلاً .
ثم قال : إِنَّ يَشَأْ يُنْهِكُمْ بِالْإِفْئَاءِ ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ في الإنشاء ، وليس ذلك عليه
بعزيز ... وأنى ذلك وهو على كل شَيْءٍ قدير ؟

قوله جل ذكره: ﴿وَيَرْزُقْهُ اللَّهُ جَمِيعًا ، قَالِ الضُّعَفَاءُ
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ
تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّقْتُونَ عَلَيْنَا مِنْ
عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾

لم يكونوا عن الحق — سبحانه — مستترين حتى يظروا له ، ولكن مناه صارت
معارفهم ضرورية فخلصوا في مواطن لم يكن لنور الله فيها حكم ، فصاروا كأنهم ظهروا لله .
قال الضعفاء للذين استكبروا : «إنا كنا لكم تبعاً» توهموا أن يرفضوا عنهم شيئاً من العناء ،
فأجابهم المتكبرون : «إنا جميعاً في العذاب مشتركون ، ولو أمكننا أن نرفع عنكم من

الغلاب ، وقدرنا على أن نهد نكم إلى طريق النجاة لنجيناكم مما شكركم ، وأجيناكم إلى ما سألتم ، ولكنكم لستم اليوم لنا بمصرخين ، ولا نحن لكم بمخشين ، ولا لما تدعوننا إليه مستجييين ...

فلا تلوومونا ولوموا أنفسكم ، ولات حين ملام ! إنما ينفع لومُ النفس فيما تتعامله من الإساءة في زمان للهلكة وأوقلت التكليف ؛ فإن أبواب التوبة مفتوحة ، ولكن لمن لم يقزع روحه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْبَبُونَ فِيهَا سَلَامٌ ﴾

الصلوات جنت تجري من تحتيها
الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم
يحبتهم فيها سلام

ذلك الذي مضى ذكره صفة الكفار والأعداء . وأما المؤمنون والأولياء ، فقال : « وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا » والإيمان هو التصديق ، « وعملوا الصالحات » تحقيق التصديق . وينتقل في جملة الأعمال الصالحة ما قل أو كثر من وجوه التفسيرات حتى القدر تبطله (١) عن الطريق .

و « تحببهم فيها سلام » — وكذلك قال تعالى : « لم دار السلام » ، فالوصف العام والتحية لهم من الله السلام .

ويقال إن أحوالهم متفلوة في الرتبة ؛ قوم سيلوا من الاحتراق ثم من الفراق ثم من الغلاب ثم من الحجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلَّةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ • تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

كل طيبة كشجرة طيبة أصلها
ثابت وفرعها في السماء • تؤتي
أكلها كل حين بإذن ربها

(١) أساطير الأذى أي نخاء وإهانة

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ * وَمِثْلُ كُلِّ خَيْفَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَيْفَةٍ اجْتَنُتْ مِنْ فَوْقِ
الْأَرْضِ مَلَمَّا مِنْ قَرَارِ ﴿١﴾

هذا مثل ضرب به الله للإيمان والمعرفة به سبحانه ، فشبهه بشجرة طيبة ، وأصل تلك الشجرة
ثابت في الأرض وفروعها باسقة وثمراتها وافية . تؤتي أكلها كل وقت ، وينتفع بها أهلها
كل حين .

وأصل تلك الشجرة المعرفة ، والإيمان مُصَحَّحًا بِالْأَدَةِ والبراهين ، وفروعها الأعمال
الصالحة التي هي الفرائض وبجانبه المعاصي .
والواجب صيانة الشجرة مما يضرُّ بها مثل كشف القشر وقطع العروق وإملاق النسن (١)
وما جرى مجراه .

وأوراق تلك الشجرة القيام بأداب العبودية ، وأزهارها الأخلاق الجميلة ، وثمارها حلوة
الطاعة ولاة الخدمة .

وكما أن الثمار تختلف في الطعم والطبع والرائحة والصورة . كذلك ثمرات الطاعات ومعاني
الأشياء التي يجدها العبد في قلبه تختلف من حلوة الطاعة وهي صفة الماهدين ، والبسط الذي
يجده العبد في وقته وهو صفة المارقين ، وراحة في الضمير وهو صفة المريدين ، وأنس يناله
في سرِّه وهو صفة المحبين . وقلقي واحتياجي يجدهما ولا يعرف سببهما ، ولا يجد سبيلا إلى
سكونه وهو صفة المشتاقين . إلى ما لا يفي بشرحه نطق ، ولا يستوفيه تكلف قول . وذكر
من أنواع ولوامع ، وطوارق وشوارق ، كما قيل .

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظهِرُ كَيْفَانَا وتُخَيِّرُ عن جمع
ثم إن ثمرات الأشجار في السنة مرة ، وثمرات هذه الشجرة في كل لحظة كذا كذا مرة .
وكما قال الله تعالى في ثواب الجنة : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » كذا لطائف هذه الشجرة

(١) أي إذهاب الفاسد منه .

لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وقلوب أهل الحقائق عنها لأمسروقة ولا محجوبة ، وهي في كل وقت ونفس تبدو لهم غير محجوبة .

وثمرات الشجرة أشرف الثمار ، وأنوارها أطفأ ، وأنترف الأضرار ، وإشارات أهل هذه القصة والأنظار في مراتبهم وسماتهم كالريحين والنور .

وقال الكلمة الطيبة هي الشهادة بالإلمية ، وقرسول --- صلى الله عليه وسلم --- بالنبوة . وإنما تكون طيبة إذا صدرت من سر مخلص .

والشجرة الطيبة المعروفة ، وأصلها ثابت في أرض غير سبخة ، والأرض السبخة قلب الكافر والمنافق ، فالإيمان لا يثبت في قلبيهما كما أن الشجرة في الأرض السبخة لا تثبت . ثم لا بد للشجرة من الماء ، وماء هذه الشجرة دوام العناية ، وإنما تورق بالكفاية ، وتورّد بالمداية .

وقال ماء هذه الشجرة ماء النسر والحياء والتلفيف والحسرة والأمانة والخشوع وإسبال^(١) السموع .

وقال ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب اختلاف أحوالهم ؛ فبها التوكل والتفويض والتسليم ، والمحبة والشوق والرضا ، والأحوال الصافية الواقية ، والأخلاق المالية الزكية . ومثل كلمة خيثة كشجرة خيثة هي كلمة الكفر ، وخبثها ما يحجبها من نجاسة الشرك ، فخبثت الكلمة لصورها عن قلب هو مستقر الشرك ومنبعه .

والشجرة الخبيثة هي الشرك اجتنبت من فوق الأرض ؛ لأن الكفر متناقض منزه ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف ، ولا علة مقتضية ، إنما هو شبه وأباطيل وضلال ، تقتضى وساوس وتسويلات ماله من قرار ، لأنها حاصلة من شبه وأداة وأصول فاسدة .

قوله جل ذكره : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ

(١) أسبلت العين = سال دسها (الوسيط ج ١ ص ٤١٧) .

الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة
ويُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ويضِلُّ اللهُ
ما يشاء ﴿

بالتول الثابت وهو البقاء على الاستقامة ، وترك العوج .

وقال التول الثابت هو الشهادة الضرورية عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة .

وقال التول الثابت هو ينطق القلوب لا يذكر اللسان .

وقال التول الثابت هو قول الله العزيز القديم الذي لا يجوز عليه الفناء والبطول^(١)
فهو بالثبوت أوثق من قول العبد ؛ لأن قول العبد أثرٌ ، والآثار لا يجوز عليها الثبوت والبقاء
وإنما يكون باقياً حكماً ثابتاً للعبد لقول الله ؛ وهو حكمه بالإيمان وإخباره أنه مؤمن
وتسبته بالإيمان . وقول الله لا يزول ؛ ففي الدنيا يثبتهُ حتى لا يدعه تمتره ، وفي الآخرة
يثبتهُ يرسله من الملائكة ، وفي القيامة يثبتهُ عند السؤال والحاسبة وفي الجنة يثبتهُ لأنه لا يزول
حد العبد لله ، ومرفعه به . وإذا تنوعت عليه الظروف وورع إليه — سبحانه — دعاه ثبتته
حتى لا يجيد عن التهج للستقيم والدين القويم .

وقال إذا دعتهُ الوسوسُ إلى متابعة الشيطان ، وصيرته الهواجسُ إلى موازنة النفس
فالحق يثبتهُ على موازنة رضاه .

ويقال إذا دعتهُ دواعي المحبة من كل جنس كمحبة الدنيا ، أو محبة الأولاد والأقارب
والأموال والأحباب أطاعه الحقُّ على اختيار النجاة منها ، فيترك الجميع ، ولا يتحسُّ
إلا دواعي الحقِّ — سبحانه كما قيل :

إذا ما دَعَتْنَا حاجةً كي نردَّنا أينما وقلنا : مطلبُ الحقِّ أولاً

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُوا نِعْمَةَ اللَّهِ
كَفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾

(١) بطل الشيء بطلوا وبطلانا = ذهب ضياعاً (الوسيط ج ١ ص ٦١) .

وضعوا الكفران عمل الشكر ، فاستعملوا النعمة للكفر ، بدلاً من استعمالها فيما كان ينبغي لها من الشكر . واستعمال النعمة في المعصية من هذه الجملة ، فأعصاه العبد كلها نعم من الله على العبد ، فإذا استعمل العاصي نعمة في إثمة بدلاً من أن يستعملها في الطاعة فقد بدل النعمة كفرًا ، وكذلك إذا أودع النظرة قلبه مكان المعرفة ، والعلاقة فيه مكان الاتصال إليه ، وعلق قلبه بالأغيار بدل الثقة به ، ولطخ لسانه بذكر المخلوقين ومدحهم بدل ذكر الله واشتغال بغير الله دون العناية في ذكره . . . كل هذا تبديل نعم الله كفرًا . وإذا كان العبد منقطعاً إلى الله ، مكفياً من قبل الله . . وجد في فراغه مع الله راحة عن الخلق ، ومن إقباله عليه — سبحانه — كفاية ، فإذا رجع إلى أسباب التفرقة ، ووقع في بحار الاشتغال ومعاملة الخلق ومدحهم وذمهم قد أحل قومه دار البوار ، على معنى إقصاءه قلبه وتفتته وجوارحه في اللذة من الخلق ، والمضرة في الحال ، وشأنه كما قيل :

ولم أرَ قبل من يُفارقُ جنةً ويرجع بالتفليل بابَ جهنم

قوله جل ذكره : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَلْسَ الْقَوَارِ ﴾
وهي الجحيم المصبل . . وعنايتها للفرقة لا المروعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجِئُوا اللَّهَ أُنَادًا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّمَا مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾

سبيله قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّمَا مَصِيرُكُمْ

إلى النار

رضوا بأن يكون مسؤولهم مبدؤهم ، ومتحورهم مقصودهم ، فاضلوا عن سبيل الاستقامة ، وتأنوا عن مقر السكينة ، وسيلقون غضباً^(١) ما عنصروا يوم القيامة كما قيل :

قد تركناك والذي تريد فسي أن تعلم فتعودا

قل تمتعوا أيماً قليلاً فأيلم السرور قصار ، وتمتع الخلقة سريرة الاقضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِّلْبَادِئِ الدِّينِ آمَنُوا يَتَّبِعُوا

(١) وودت (هـ) وقد آثرنا أن تكون (هـ) ليقوى المعنى أى غافة ما صنعوا .

للصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرّاً
وعلانيةً مِمَّن قَبِلُوا أَن يَأْتِيَهُمْ
لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالاً ﴿٣٧﴾

جعل الله راحة العبد — اليوم — بكلمها في الصلاة ؛ فأبها عمل المناجاة ، قال الرسول
صلى الله عليه وسلم : « أَرِحْنَا يَا بَلالُ بالصلاة » ^(١) والصلاة استفتاح باب الرزق ، قال تعالى :
« وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْبِرْ عَلَيْهَا لَا سَأْفَكَ رِزْقًا » ^(٢)

وفي الصلاة بيت ^(٣) العبد أسراذه مع الحق ؛ فإذا كان لقاء الإخوان — كما قالوا —
مَسَلَّةٌ لم فكيف بمناجاتك مع الله ، ونشر قصتك بين يديه ؟ كما قيل :
قُلْ لِي بِالسَّنةِ التَّنَفُّسُ كَيْفَ أَنتَ وَكَيْفَ حَالُكَ ؟

« وينفقوا مما رزقناهم » : أمرهم بأنفاق اللسان على ذكره ، وإنفاق البدن على طاعته ،
والوقت ^(٤) على شكره ، والقلب على عرفانه ، والروح على حبه ، والسر على مشاهدته ..
ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، وإنما يطالبك بأن تحضر إلى الباب ، وتقف على البساط
بالشاهد اقلَى آتاك .. يقول العبد المسكين : لو كان لي نفس أطوع من هذه لَأَتَيْتُ بها ،
ولو كان لي قلب أشدُّ وهه من هذا لَجِدْتُ به ، وكنفك بروحي ورسري ، وقيل :

بفديك بالروح صَبُّ لَوْ أَنَّ لَهُ أَغْزَ مِنْ رُوحِهِ شَيْئًا فَدَاكَ بِهِ
« من قبل أن يأتي يوم لا يبيع فيه ولا خلال » : وفي هذا للمعنى أنشأوا :

قُلْتُ لِنَفْسٍ إِنِّي أُرِدْتُ رَجوعاً فلرجى قبل أن يُسدَّ الطريق

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

(١) سبق تمهيد هذا الحديث الشريف .

(٢) آية ١٣٢ سورة طه .

(٣) وردت (بيت) والمعنى يتنفس (بيت) .

(٤) وردت (الوقت) وهي — كما هو واضح — خطأ في النسخ .

الثمار رزقاً لكم وسخر لكم
 الفلك تجري في البحر بأمره
 وسخر لكم الأنهار • وسخر لكم
 الشمس والقمر دالّين وسخر لكم
 الليل والنهار ﴿١﴾

في الظاهر رفع السماء فأعلّاهما، والأرض من تحتها دحلاها، وخلق فيها بحاراً، وأجرى
 أنهاراً، وأنبت أشجاراً، وأثبت لها أنواراً وأزهاراً، وأمطر من السماء ماء منيراً • وأخرج
 من الثمرات أدناناً، ونوع لها أوصافاً، وأفرد لكل منها طعاماً مخصوصاً، ولإدراكه
 وقتاً معلوماً .

وأما في الباطن فسواء القلوب زينت بمصابيح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد،
 وقرّ المرقان . وسرج في القلوب يجرى الخوف والرجاء، وجعل بينهما برزخاً لا يبيتان؛
 فلا الخوف، يقلب الرجاء ولا الرجاء يقلب الخوف، كما جاء في النظم: «لو وزنا لا اعتدلا»^(١)
 — هذا لعمام المؤمنين، فأما لخواص فالتبسط والبسط، وتخلص الخواص فالمعية والأنس
 والبقاء والفناء .

وسخر لهم الفلك في هذه البحار ليمهروها بالسلامة، وهي فلك التوفيق والمصبة،
 وسفينة الأنوار وألحفظ . وكذلك ليالى الطلب للردين، وليالى الطرب لأهل الأنس من
 المحبين، وليالى الحرب^(٢) للثائين، وكذلك نهار الموفين باستغنائهم عن سراج العلم عند
 متون نهار اليقين .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَإِنْ
 تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

ما تمت إليه هممكم، وتعلق به سؤالكم، وخطر تحقيق ذلك ببالكم، أفلنناكم

(١) أودعه السراج في ليله من ٩١ (قال صلى الله عليه وسلم: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لا اعتدلا)
 (٢) ربما يقصد التشبیه بالحرب هنا جهاد الثائب مع نفسه، وإظهار الحزن والتأسف .

فوق مَا تَزْمُنُونَ^(١) ، وَأَعْطَيْنَاكُمْ أَكْبَرَ مَا تَرْجُونَ^(٢) ، قُلْ تَعَالَى : « ادموني استجب لكم » .

وقرأ بعض القراء^(٣) : « من كُلُّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، فَيَتَوْكَّلُ قَوْلُهُ : كُلِّ ، ويجهل مَا سَأَلْتُمُوهُ (مَا) لَنَنِي أَى كُلِّ شَيْءٍ عَالِمٌ سَأَلُوهُ .

كذلك جز أن يكون المعنى ، قل يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني — وهذا لأصحاب الزلات . علم قصور لسان المصطفى وما يمنه من التعليل وما يقبض على لسانه إذا تذكر ما حله من الزلات ، فأعطاه غفرانه ، وكفاه حشة السؤال ، والتفضل ؛ فقال : غفرت لكم قبل أن تستغفروني .

ولكن متى ينظر على قلب العبد ما أحله الحق — سبحانه — من العرفان ؟ وكيف يكون ذلك الحديث ؟ .. قبل أن كان له إمكان ، أو معرفة وإحسان ، أو طاعة أو عصبان ، أو عبادة وعرفان ، أو كان له أعضاء وأركان ، أو كان العبد شيئاً أو شيئاً أو أنراً .. لا يل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنتنا

قوله جل ذكره : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

إن الإنسان لظلم كفتلر)

كيف يكون شكركم كفاه نعمة .. ؟ وشكركم تزد يسر ، وإنعامه وافر غزير .

وكيف تكون قطرة الشكر بجموار بحار الإيمان ؟

إن نعمة علوكم من تفصيلها متقاصرة ، وقهولكم من تفصيلها متأخرة .

(١) وودت (تؤمنون) وحى — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فأكبرنا تؤمنون .

(٢) وودت (ترجون) وحى — كما هو واضح — لا يستقيم بها السياق فأكبرنا ترجون .

(٣) لا يهتم القمعي بالقرامات إلا نادراً ، وحيثما وجد ذلك بجلا لإشارة ناعمة قصورية

وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه الحق^(١) وفنون البلايا من مقدوراته لا نهاية له . . .
فكيف يأتي الحصر والإحصاء على مالا يتناهى ؟
وكما أن النفع من نعيه فالدفع أيضاً من نعمة .
ويقال إن التوفيق لشكر من جملة ما ينم به الحق على العبد فإذا أراد أن يشكره لم يمكنه
إلا بتوفيق آخر فلا يبقى من النعم إلا ما يشكر عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ
نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ لِيُؤْتِنَنَّهُمْ أَزْوَاجًا
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي
فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾

كما سأل أن يجعل مكة بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبه محلاً آمناً ؛ أي لا يكون فيه شيء
إلا بالله . « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » : والصنم ما يعبد من دونه ، قال تعالى :
« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه »^(٢) نصم كل أحد ما يشغله عن الله تعالى من ماله ولذته
وجاوه وطاعة وعبادة .

ويقال إنه لما بنى البيت استعان بالله أن يجرده من ملاحظة نفسه وفعله .
وقال إنه — صلى الله عليه وسلم — كان متردداً بين شهود فضل الله وشهود رفق
نفسه ، فلما لقي من فضله وجوده قال من كمال بسطه : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » .
ولما نظر من حيث قرر نفسه قال : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » .
ويقال شاهد غيره فقال : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » ، وشاهد فضله ورحته
ولطفه فقال : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » .

(١) وردت (الحسن) وهي خطأ في النسخ .

(٢) سقطت (وإذ) من النسخ .

(٣) آية ٢٣ سورة المجانية .

قوله جل ذكره: ﴿فَنَسِيتُ فَاذْهَبْ وَمِنْ عَصَائِي فَانْكَرْ﴾

غفور رحيم

« فانه مني : أى موافق لى ومن أهل ملئى ، ومن عصائى خالفنى وعصاك .

قوله : « فانك »^(١) غفور رحيم : طلب الرحمة بالإشارة ، أى فارحمهم .

وقال : « ومن عصائى » . . ولم يقل : من عصاك ، وإن كان من عصاء فقد عصى الله ، ولكن اللفظ إنما لطلب الرحمة فيما كان نصيب من ترك حقه ، ولم ينتصر لنفسه بل قابلهم بالرحمة .

ويقال إن قولنا صلى الله عليه وسلم فى هذا السبب أتم فى معنى العفو حيث قال : اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون ، وإبراهيم — عليه السلام — عرض وقال : « فانك غفور رحيم » .

ويقال لم يبرز السؤال لأنه بدء الأدب^(٢) فقال : « ومن عصائى فانك غفور رحيم » .

قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ

غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ وَبَنَّا

لِقِيَمِائِهَا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ

النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ

الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾

أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله : « إني أسكنت . . . » وإنما رأى الرقيق

هم فى الجوار لا فى المبكر فقال : « عند بيتك الحرم » ثم قال : « ليقموا الصلاة » :

أى أسكنهم لإقامة حقك لا لطلب حظوظهم .

ويقال أكننى أن يكونوا فى ظلال عنايته عن أن يكونوا فى ظلال نعمته .

(١) أخطأ للتاسخ إذ جعلها « فان الله غفور رحيم » .

(٢) تنيد منه الإشارة فى النواحي البلاغية حيث استبدل التعبير بالأسلوب الإنشائي بالأسلوب الخبري .

ثم قال : « هاجل أفندت من الناس نهوى إليهم » أى ليشغلوا بعبادتك ، وأقم قومي — ما يقول — بكفائتك ، « وارضهم من الثرات » : فإن من قام بحق الله أطم الله بصفه قومه ، واستجاب الله دعاهم فهم ، وصارت القلوب من كل بر وبحر كالجوبة على حبة تلك النسبة ، وأولئك المتصلين به ، وسكان ذلك البيت .

ويقال قوله : « بواد غير ذى زرع » : أى أسكنهم بهذا الوادى حتى لا تتعلق بالأغيار قلوبهم ، ولا تشتغل بشئ وأفكرهم وأسرأهم ؛ فهم مطروحون ببيائك ، مصونون بحضرتك ، مرتبطون بمحبتك ؛ إن راعيتهم كعبيتهم وكانوا أعز خلق الله ، وإن أقصيتهم ونفيتهم كانوا أضغف وأذل خلق الله .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

استأثرت بعلم الغيب فلا يعزبُ عن علمك معلوم ، وحالى لا تخفى عليك ، فهى كما عرفت ، أفت تعلم سرى وعلمى .. ومن عرف هذه الجلة استراح من طوارق الأغيار ، واستروح قلبه عن ترجر الأفكر ، والتقسر في كون الحوادث من الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الْعَدَّاءِ ﴾

أسمعه بمنحه الولد على الكبر ، ويلتحق ذلك بوجوه من المعجزات ؛ فحمد عليه . ولما كان هذا القول عقيب سؤاله ما قدم من ذكر نعمته — سبحانه — عليه ، وإكرامه بأنواره ، وهذا يكون بمعنى الملق^(١) ، ويكون استدعاء نعمة بنعمة ، فكانه قال : كما أكرمتنى بربية الولد على الكبر ، فأكرمنى بهذه الأشياء التى سألتها .

وقال الإشارة فى هذا أنه قال : كما مننت على فوهبتى على الكبر هذه الأولاد

(١) الملق = الدعاء والتضرع (الوسيط) .

فَأَجِزْنَا أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ لَنَكُونَ النِّعْمَةُ كَامِلَةً . وفي قوله : « إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ » .. إشارة إلى هذه الجملة .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾
رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿

في قوله : « رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ .. » إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة ، فعناء اجعل صلاتي ، واجعلني واتلّق بمعنى ، فإذا جعله مقِيمَ الصَّلَاةِ فعناء أن يجعل له صلاة .
وقوله : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » : أى اجعل منهم قوماً يُصَلُّونَ ، لأنه أخبره في موضع آخر بقوله : « لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » ^(١)

ثم قال : « رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ » وهذا قبل أن يعلم أنه لا يؤمن .
ويقال إن إجابة الدعاء ابتداءً فضل منه . ولا ينبغي للعبد أن يتكبر على دعاء أحد وإن كان عليّ الشأن ، بل يجب أن يعلق العبد قلبه بالله ؛ فلا دعاء أتمّ من دعاء إبراهيم عليه السلام ، ولا عناية أتمّ من عنايته بشأن أبيه ، ثم لم ينفعه ولا شفع الله له .
ويقال لا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه أو يقطع رجاءه في ألا يستجيب الله دعاءه ، فإن إبراهيم الخليل عليه السلام دعا لأبويه فلم يُسْتَجَبْ له ، ثم إنه لم يترك الدعاء ، وسأل حيناً لم يُجَبْ فيه . فلا غضاظة على العبد . ولا تناله مدّة إن لم يُجِبْهُ مولاه في شيء ؛ فإن الدعاء عبادة لا بدّ للعبد من فعلها ، والإجابة من الحقّ فضل ، وله أن يفعل وله ألا يفعل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾

هذا وعيد للظالمين وتسلية للمظلومين ؛ فالظالمون إذا تحقق بأنه — سبحانه — عالم بما يلاقيه من البلاد هانت على قلبه مقاساته ، وحق عليه عمله .

(١) آية ١٢٤ سورة البقرة .

والظلم على وجوه ؛ ظلم على النفس بوضع الرُّلَّة مكان الطاعة ، وظلم على القلب بتسكين
الخطاير الرديئة منه ، وظلم على الروح بحملها محبة المخلوقين .

ويقال من جهة الظالمين الشيطان ، فالعبد المؤمن مظلومٌ من جهته ، والحق — سبحانه —
يتصف له منه غداً ، وذلك إن لم يَتَّعِمَهُ اليوم ، ودَفَعَهُ عن نفسه بالمجاهدة وترك وساوسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

الْأَبْصَارُ ﴾ مُبْطِلِينَ مُتَعَمِّينَ... الآية ﴿

وهنا لغوام من المؤمنين ، علَّق ظوهِهم بالانتقام منهم في المستقبل ، وأما الغواص فاذا
علموا أنه — سبحانه — عالمٌ بهم ومحالمٌ فإنهم يعفون ويكتفون بذلك ، وأما خواص
الغواص فاذا علموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالغو عن ظلمهم حتى يستغفروهم ، كما قال النبي
— صلى الله عليه وسلم — : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » ، وفي معناه أنشدوا :

ومارضوا بالغو عن ذى زلة حتى أنالوا كفةً وزدادوا

وأما أصحاب التوحيد فاذا علموا أنه المنشئ ، وألا يخترع سواه فليس بينهم وبين أحدٍ
محاسبة ، ولا مع أحدٍ معاتبة ، ولا منه مطالبة ، لأنهم يعدّون إثبات الغير في الظن
والحسبان شيراً كافراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا

إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُنْجِبْ دَهْوَتَكَ

وَنُنَبِّئِ الرَّسَلَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا

أَفَسَمَّ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ

زَوَالٍ ﴿

أفسدوا في أول أمورهم ، وقصّروا في الواجب عليهم ، ولم يكن للخلل في أحوالهم
جبران ، ولا لنزهم قبول تصحّ الحجة عليهم ، فانفضح المجرم منهم ، وخاب السكافر ،
وحقّ الحكم عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَفْسَنَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ ضَلُّنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾

أحطنا بهم العقوبة ، وأشهدناكم ذلك بما اعتبرتم ، وجريتم على منهجهم ، وفضلتم مثل
فعلهم ، وإيماننا لكم اغتررت . . فانتظروا منا ما عاملناكم به جزاء لكم على ما أسلفتم .
ويقال إن معاشره أهل الهوى والنسق وبجاورتهم مشاركة لهم في فعلهم ، فيستقبل
فاعل ذلك استقبالهم ، ومن سلكهم ينخرط في التردى نحو هذه هلاكه مثلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ يَخْلَفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

أى لا تحسبه يخلف رسله وعده ؛ لأنه لا يخلف الوعد لصدقه في قوله ، وله أن يذهبهم
بما وعدم لحقه في ملكه ، وهو « عزيز » لا يصل إليه أحد ، وإن كان ولياً . « ذو انتقام »
لا يفته أحد وإن كان (.)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتُ بَوَازِئًا ذَوَاتًا أُوحِدَ الْفَلَاحُ ﴾

لا يختلف عينها وإنما تختلف صورتها ، وكذلك إذا انكسرت النجوم ، وانثقت السماء
يقال ما بدّل عينها وإنما بدّل الأزمان والسكان على الناس باختلاف أحوالهم في السرور والحزن ؛
كمن صار من الرخاء إلى البلاء يقول : تغيّر الزمان والوقت . . وكذلك من صار من البلاء
إلى الرخاء .

ويقال إن آدم لما قتل أحد أبنيه الآخر قال :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مُتَبَرِّقٌ قَبِيحٌ

وفى هذه القصة^(٢) من كان صاحب بسط فرد إلى حال القبض ، ومن كان صاحب أس

(١) وردت لفظة مكنا (سباً قوماً) .

(٢) يشير القشيري إلى (بالصفة) إلى الحياة الصوفية .

فصار صاحب حجاب — يصحُّ أن يقال بدل له الأرض ، قال بعضهم :

ما الناس بالناس ألقى عهدي بهم ولا البلاد بتلك التي كنت أعرفها
وكذلك العبد للريد إذا وقعت له وقعة أو فترة كانت الشمس له كاشفة ، وكانت الأرض
به راجفة ، وكان النهار له ليلا ، وكان الليل له ويلا ، وكما قيل :

فما كانت الدنيا بسهل ولا الضحا يطلقي ولا ماء الحياة ببارد

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ
فِي الْأَصْفَادِ • سَرَّاهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ
وَتَقَشَّاهُمْ النَّارُ • لِيَجْزِيَ
اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ
سَرِيعُ الْحِسَابِ • .

الأصفاذ الأغلال . الأصفاذ نجيمهم ، والسلاسل تقيدهم ، والقطران سراويلهم ، والحميم
شُرْبهم ، والنار هيمعة بهم . . وذلك جزاء من تخالف إلهه .

قوله جل ذكره : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ
وَلِيُحْطُوا أَنَّهُ هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ • .

الحجج ظاهرة ، والأمارات لأئمة ، والدواعي واضحة ، وللهمة منسمة ، والرسول عليه
السلام مُبَلِّغٌ ، والمنكبين من القيام يحق التكليف مساعد . ولكن القسمة سابقة ،
والتوفيق عن القيام ممنوع ، والربُّ — سبحانه — قال لما يريد ، قَمْنٌ اعتبر نجا ،
ومن غفل تردى . والله الأمر من قبل ومن بعد ، والله أعلم .

السورة التي يذكر فيها الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزيد في شكل الباء من بسم الله وليس زيادتها علة ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الإِثْبَاتَ وَالْإِسْقَاطَ بِلا علة ؛ فلم يَقْبَلْ من قَبيلِ لاسْتِحْقَاقِ علة ، ولا رَدٌّ من رَدِّ لاسْتِجَابِ علة . فَإِنْ قِيلَ الْعِلَّةُ فِي إِسْقَاطِ الْأَلْفِ مِنْ بَسْمِ اللَّهِ كَثْرَةُ الِاسْتِمَالِ فِي كِتَابَتِهَا أَشْكِلَ أَنَّ الْبَاءَ مِنْ بَسْمِ اللَّهِ زِيدَ فِي كِتَابَتِهَا وَكَثْرَةُ الِاسْتِمَالِ مُوجُودَةٌ . فَإِنْ قِيلَ الْعِلَّةُ فِي زِيَادَةِ شَكْلِ الْبَاءِ بِرُكَّةِ أَفْضَالِهَا بِاسْمِ اللَّهِ أَشْكِلَ بِمَحْذُفِ أَلْفِ الْوَصْلِ لِأَنَّ الِاتِّعَالَ بِهَا مُوجُودٌ ، فلم يَبْقَ إِلَّا أَنَّ الإِثْبَاتَ وَالنَّفْيَ لَيْسَ لَهَا علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ

مبين ﴾ .

أسمعهم هذه الحروف مُقَطَّعةً على خلاف ما كانوا يسمعون الحروف المنظومة في الخطاب ، فأعرضوا عن كل شيء وسمعوا لها . ونبههم القرآنُ إلى أن هذه التي يسمعونها آياتُ الكتاب ، فقال لهم لما حضرت ألبابهم ، واستعدت لسماع ما يقول آذانهم : « تلك آيات الكتاب وقوآنٍ مبين » .

ووصف القرآن بأنه مبين ؛ لأنه يُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ما يسكن قلوبهم ، والمريدين ما يقوى رجاءهم ، وللمحسنين ما يبيح اشتياقهم ، وللمشاكين ما يثير لواعج أسرارهم ، ويبيِّنُ للصغفاني — صلى الله عليه وسلم — تحقيقَ ما مَنَعَ قَـوْرَهُ بعد سؤاله . . ألم تر إلى ربك قال لموسى عليه السلام : « لن تراني » بعد سؤاله : « رب أرني أنظر إليك » ^(١)

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف

قوله جل ذكره : ﴿رَبَّنَا يُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا
مُسْلِمِينَ﴾ .

إذا عرفوا حالم وحال المسلمين يوم القيامة لمعوا كيف شقوا ، وأى كأس رشقوا .
ويقال إذا صارت المصارف ضرورةً أحرقتْ نفوسَ أقوام العقوبة ، وقطعتْ
قلوبهم الحسرة .

ويقال لو عرفوا حالم وحال المؤمنين لعلُّوا أن العقوبة بأهلها لهم حاصلة لقوله
تعالى بعدئذ :

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَشْتَبُوا وَيَلْعَبُوا
الْأَمَلُ سَوْفَ يَلْعَبُونَ﴾ .

قيمة كل امرئٍ على حسب هِمَّتِه ؛ فإذا كانت الهمة مقصورةً على الأسكل والتمتع
بالصفة البهيمية لا يحاسبُ ، وعلى العقل لا يُطالبُ ؛ فالتكليف ينبه التشريف ؛ وغداً
سوف يلعبون .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِ إِلَّا وَلَهَا
كِتَابٌ مُعْلُومٌ * مَا تَسْمِعُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ .

الآجال معلومة ، والأحوال مقسومة ؛ والمشيئة في الكائنات ماضية ، ولا تخفى على
الحق خافية .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ
إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ .

الجنون معني يوجب إسناد ما ينكشف للعقل من التحصيل على صاحبه ، فلما كانوا
بوصف التباس الحقائق عليهم فهم أوّلَى بما وصفوه ^(١) ، فهم كما في التلّ : رَمَتْنِي
بِدَائِمِهَا وَأَنْسَلَتْ .

(١) لأنهم ليسوا عتلاء ولا تحصيل لهم .

قوله جل ذكره : ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ

من الصادقين * مَا نُزِّلُ الْمَلَكَةَ

إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾

اقترحوا عليه الإتيان بالملكة بعد ما أُنْزِحت العلة عليهم بما أُيِّد به معجزاته ، فيتوجب اللوم عليهم لسوء أدبهم . وأخير الحق — سبحانه — أنه أجرى عادته أنه إذا أظهر المللكة لأبصار بني آدم فيكون ذلك عند استبصارهم ؛ لأنه تصوير المعرفة ضرورية . وفي المعلوم أنه لم يكن ذلك الوقت أنْ هَلَكَ هَلَاكِهِمْ ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ فِي أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ سبحانه في المستأنف .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

لحافظون﴾ .

أُنْزِلَ التوراة وقد وَكَّلَ حفظها إلى بني إسرائيل بما استفظوا من كتاب الله ، فحفظوا وبَدَّلُوا ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ وأُخْبِرَ أَنَّهُ حَافِظُهُ ، وَإِنَّمَا يَحْفَظُهُ بِقِرَائِهِ ؛ فَطُوبَى الْقُرَّاءِ خَزَائِنُ كِتَابِهِ ، وَهُوَ لَا يَضِيحُ كِتَابَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ

الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ

إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * كُنْكَ

تَلْكُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ *

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ

الْأَوَّلِينَ﴾ .

أُخْبِرَ أَنَّهُ كَانَتْ عَادَتُهُمُ التَّكْذِيبَ ، وَأَنَّهُ أَدَامَ سُنَّتَهُ مَعَهُمْ فِي التَّمْذِيبِ . ثُمَّ قَالَ : «كَذَلِكَ سَلَكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ» : وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ لِأَنَّهُ أَزَاحَ قُلُوبَهُمْ عَنْ شُهُودِ الْحَقِيقَةِ ، وَسَدَّ — بِالْجُرْمَانِ — عَلَيْهِمْ سُلُوكَ الطَّرِيقَةِ ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ الْآيَاتِ عَيَانًا مَا أَزْدَادُوا

إلا متوًّا وطنيانا ، وأنَّ مَنْ سَبَقَ لَهُ الْحُكْمُ بالشَّقاء فلا يزداد على عمر الأيام
إلا ما سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنْ السَّمَاءِ
فَطَلُوا فِيهِ سُرُجُونَ ﴾ * لقولوا
إِنَّمَا سَكَّرْنَا أَبْصَارُنَا بِلَوْ هُنَّ قَوْمٌ
مَسْخُورُونَ ﴿

مَنْ عَلَيْهِ التَّقْدِيرُ كلُّ بَأْسٍ التَّكْلِيفُ مدعوا ، وبَأْسُ التَّكْوِينِ مقضياً .. فحق ينفع فيه
النصح ؟ ومتى يكون للوَحْظِ فيه مبالغ ؟ كلا . . . إن البصيرة له مسدودة ، و (. . .)^(١)
الغفلان يقدِّمونه مسدودة ، فهو يحمل النصيحة له على الوقبة ، والحقيقة على الغديبة .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْ قَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا

لِلنَّازِلِينَ ﴿

بروجاً أى نهبوماً هي لها زينة ، ثم تلك النجوم للشياطين رجوماً .

﴿وَحِفْظُهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَاجِمٍ ﴾
إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ
مبين ﴿ .

إذا دام الشياطين أن يسترقوا السمع كانت النجوم لها رجوماً

كذلك قلوب نهبوم وهي للعلوف وهي في الوقت ذاته رجوم على الشياطين ، فلو دنا إبليسُ
وجنوده من قلب وليٍّ من الأولياء أحرقتَه بل محقته نهبوم عقليه وأقارُ عليه وشعوسُ توحيديه .
وكأنَّ نجوم السماء زينةً للنازلين إذا لاحظوها قلوبُ المارفين إذا نظر إليها ملائكة
السماء على زينة .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا

رِوَاسِيَ ﴿

(١) مثلية وهي في الخط هكنا (متغلب) وربما كانت (متعالت) بمعنى امتثال وقبول .

النفوس أرض عبادة العابدين ، وقلوبُ المارفين أرض للعرفة وأرواحُ اللشنتين أرض
الحبة ، وانغروف والرجاء لها رواسي . وكذلك الرغبة والرهبة .

ويقال من الرواسي التي أنبتنا في الأرض الأولياء فيهم ثبت الناس إذا وقع بهم الفزع .
ومن الرواسي العلماء الذين بهم قوامُ الشريعة ، فملأه الأصول هم قوامُ أصلِ الدين ، والفتاها
بهم نظامُ الشرع ، قال بعضهم :

واحسرتنا من فراق قوم هم المصابيحُ والأمنُ والمُزَنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

موزون ﴿

كما أنبت فنوًا من النبات ذات أنوار^(١) أنبت في القلوب صنوفًا من الأنوار^(٢) ، منها
نور اليقين ونور العرفان ، ونور الحضور ونور الشهود ، ونور التوحيد . . إلى غير ذلك
من الأنوار .

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ ﴾

لَسَمَ لَهُ بَرَازِقِينَ ﴿

سببُ عيش كل واحدٍ مختلفٌ ، فميشُ المرادين من إقباله ، وعيش المارفين التجمل
بأنفاله^(٣)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾

وما نُفَرِّقُ لَهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿

خزائنه في الحقيقة مقدوراته ، وهو — سبحانه — قادر على كل ما هو مرسوم بالمحسوث .

ويقال خزائنه في الأرض قلوبُ المارفين باقة ، وفي الخزانة جواهر من كل صنف ؛
فخاتق المقل جواهر وضعها في قلوب قوم ، ولطائف العلم جواهر بدائع المعرفة ، وأسرار المارفين

(١) أنوار النبات جمع نووة وهي الزهرة البيضاء .

(٢) أنوار القلوب جمع نور .

(٣) وردت (أفضاله) وقد رجحنا (أفضاله) لأنها أدق في المعنى ، وإن كان كلامنا صحيحا

مواضع سره ، والنفوس خزائن توفيقه ، والقلوب خزائن تحقيقه ، واللسان خزائن ذكره .

ويقال من عرف أن خزائن الأشياء عند الله تقاصرت خطاه عن التردد على منازل الناس في طلب الإزفاق منهم ، وسعى في الآفاق في طلب الأرزاق منها ، فاطمأنت أمهه عن الخلق ، مفرحاً قلبه لله متجرداً عن التعلق بغير الله .

قوله : « وما نزل إلا بقدر معلوم » : عَرَفَ القِسْمَةَ مَنْ استراح عن كد الطلب ؛ فإنَّ المعلوم لا يتغير ، والمقسوم لا يزيد ولا ينقص ، وإذا لم يجب عليه شيء لأحد فبقدرة على إجابة العبد إلى طلبه لا يتوجب عليه شيء .

ويقال أراح قلوب القوم من تحصيل اللذة من الأغنياء مما يعطونهم ، وأراح الأغنياء من مطالبة الفقراء منهم شيئاً ، فليس للغير صرف القلب عن الله سبحانه إلى خلق واعتماد منه لأحد ، إذ الملك كله لله ، والأمر بيد الله ، ولا قادر على الإبداع إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من

السماء ماء ﴾

كما أن الرياح في الآفاق مدمات المطر كذلك الآمال في القلوب ، وما يقرب العبد مما يتوارد على قلبه من مبشرات الخواطر ، ونسيم النجاة في الطلب يحصل ، فيستروح القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية والعلف .

قوله جل ذكره : ﴿ فأسقيناهم كوه وما أنتم له بغافلين ﴾

أسقاه إذا جعل له الشئ ؛ كذلك يحصل الحق — سبحانه — لأوليائه طافاً معلومة في أوقات محدودة ؛ كما قال في وصف أهل الجنة : « ولم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً » .

كذلك يحصل من شراب القلوب لكل ورداً معلوماً ، ثم قضاي ذلك تختلف : فمن شراب يسكر ، ومن شراب يخضر ، ومن شراب يزيل الإحساس ، كما قيل :

فصحوك من لظى هو الصحو كله وسكرتك من لظى يبيع لك الشراب

ويقال إذا هبت رياح التوحيد على الأسرار كنست آثار البشرية ، فلا للأغيار فيها أثر ، ولا عن الخلائق لهم خبر .

ويقال إذا هبَّت رياح القرب على قلوب العارفين عطَّرتْها بنفحات الألس ، فَيَسْقُونَ
في سيمائها على الدوام ، وفي مناه أنشدوا :

وهبَّتْ شمال آخر الليل قَرَّةً^(١) ولا ثوبَ إلا بُرْدَةً وردائيا
وما زال يَرْدِي لينا من ردائها إلى الحولِ حتى أصبح البُرْدُ باليا

ويقال إذا هبَّت رياح العناية على أحوال عبداً علَّتْ مَسَاوِيهَ مناقِبِهِ ومثالبُ عاصمته .
قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ
الوارثون ﴾ .

نحْيي قلوبهم بالمشاهدة ، ونُمِيت نفوسهم بالمجاهدة .

ويقال يحْيِيهم بأن نَفْسِيهِمَ بالمشاهدة ، ونُمِيتُهُمَ بأن نَأْخُذَهُمَ عن شواهدهم .

ويقال يحْيِي المريدِينَ بِذِكْرِهِ ، ويمِيت الغافِلِينَ بهجره .

ويقال يحْيِي قوماً بِمُوافَقَةِ الأَمْرِ في المطامع ، ويمِيت قوماً بِمُتَابَعَةِ الشهوات .

ويقال يحْيِي قوماً بأن يلاطفهم بلطف جهله ، ويمِيت قوماً بأن يحجِّبهم عن أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ .

العارفون مستقدمون بِهَمِّهِمْ ، والعايدون مستقدمون بِقَدَمِهِمْ ، والثائبون بتدبيرهم .

وأقوام مستأخرون بقدَمِهِمْ وهم العصاة ، وآخرون مستأخرون بهوسهم وهم الراضون
بفضائل الحالات .

ويقال المستقدمون الذين يسارعون في الطهيرات ، والمستأخرون المتكاسلون عن الطهيرات .

ويقال المستقدمون الذين يستجيبون خواطرَ الحقِّ — من غير ترجيح إلى تفكير ،

والمستأخرون الذين يرجعون^(٢) إلى الرُّخْصِ والتأويلات .

ويقال المستقدمون الذين يأتون على مراكب التوفيق ، والمستأخرون الذين تنبطلهم

مشقة الخذلان .

(١) قُرَّة أي باردة .

(٢) وردت (يرجعون) وهي خطأ في النسخ — حسبما نعرف من رأى التشييع في مثل هذا الموقف ،

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِمَشْرِعِهِمْ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

يبت كلاً على الوصف الذى خرجوا من الدنيا عليه : فمن منفرد القلب بربه ، ومن مُتَوَسِّلٍ فى أودية التفرقة ، ثم يحاسبهم على ما يستوجبونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ وَالْجَلْنَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ۝ ﴾ .

ذَكَرَهُمْ بِخُسْنِهِمْ لئلا يُعْجِبُوا بِحَالِهِمْ .

ويقال القية فى القرية لا بالتربة ؛ والنسب تربة ولكن التمت قرية .

« وَالْجَلْنَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ » - وإذا انطلقت النار صارت رماناً لا يجمىء منها شيء ، والطين إذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، كذلك المدو^(١) لما انطلق ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة لم ينجر بعده ، وأما آدم - عليه السلام فلما اغترَّ جَبَرَهُ ماء الضيافة ، قال تعالى : « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبِّهِ . . . »^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ

بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رَوْحِى

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ

يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ ﴾ .

أظهرهم بهذا القول ، وفى عين ما أظهرهم سترهم .

ويقال ليست العبرة بقولهم ، إنما الاعتبار بالمعنى التى أودعها فيها .

(١) يحمى إبليس . (٢) آية ١٧٢ سورة طه .

ويقال للملائكة لا حظوه بين الغلظة فاستصغروا قدره وحاله ، ولهذا يحجوا من أمر الله — سبحانه — لم بالسجود له ، فكشف لهم شظية مما اختص به فسجدوا له .
قوله : « إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين » : وكذا أمر من حجب عن أحواله
أدعى التبرئة ويبقى في ظلة الخيرة .

ويقال بخيل بسجدة واحدة ، وقال : أَشْتَكِي أَنْ أَسْجُدَ لغير الله . ثم من شقاوته
لا يبالي بكثرة معاصيه ، فإنه لا يعصى أحداً إلا وهو سبب وسواسه ، وداعيه إلى الزلل . .
وذلك هو عين الشقوة وقضية الخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ

مع الساجدين • قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ
لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ
مَسْنُونٍ • قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ • وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ •

سأله ومعلوم له حاله ، ولو ساعدته المعرفة فقال : قُلْ لِي مَا لَكَ ؟ وما منعك ؟ وَمَنْ
منَعَكَ حتى أقول . أنت .. حيث أشقيتني ، وبقرتك أغويتني ، ولو رحمتني ، لهديتني
وفي كنف عصمتك آويتني ... ولكنَّ الحرمان أدركه حتى قال : « لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لبشرٍ »
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
• قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ • إِلَى يَوْمِ
الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ •

ولما أبعد الحق — سبحانه — عن معرفته ، وأفرده باللعنة استنظره إلى يوم القيامة
والبحث ، فأجاب . وظنَّ الآمين أنه حصل في الخير مقصوده ، ولم يعلم أنه أراد بذلك تصديبه
عذاباً شديداً ، فكأنه كان في الحقيقة مكرراً — وإن كان في الحال في صورة إجابة السؤال
بما يُشبهُ اللطف والبر .

وبعض أهل الرجاء يقول : إن الحق — سبحانه — حينما يهين عدوه لا يردُّ دعاه

في الإيهال ولا يمنه من الاستظار ؛ فلتؤمن — إذ أمره الاستغفار والسؤال بوصف الافتقار — أولى ألا يقطع من رحمة ، لأن إظهار العيين زيادة شقاه له لا لتحقيق عظامه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

الباء في : « بما أغويتني » بلاء القسم ، ولم يكن إغواؤه إياه مما يجب أن يقسم به لولا قرط تجبه . ثم هوف المعنى صحيح ، لأن الإغواء مما ينفرد الحق بالقدره عليه ، ولا يشاركه فيه أحد ، ولكن العيين لا يعرف الله على الحقيقة ، إذ لو عرفته لم يدع إلى الضلال ، لأنه لو قدر على إضلال غيره لاستبق على الهداية نفسه . وعند أهل التحقيق إنه يقول جميع ذلك حذساً وهو لم يعرف الله — على الحقيقة — قط .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا عِبَادَةَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ قال هذا صراطاً على مستقيم ﴿

الإخلاص هو تصفية الأعمال عن النين وعن الآفات المانعة من صلح الأعمال . وقد علم العيين أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لما تحقق من عناية الحق بشأنهم .
« قال هذا صراط على مستقيم » تهديد ، كما تقول : أفضل ما شئت . . وهذا طريق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ مَبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾

السلطان المحبة ، وهي لله على خلقه ، وليس للمبدو حجة على مخلوق ، إذ لا تتمدى مقرته محله ، فلا تسلط — في الحقيقة ^(١) — للمخلوق على مخلوق بالتأثير فيه .

« إن عبادي ... » : إذا سمى الله واحداً عبداً فهو من جملة الخواص ، فإذا أضافه إلى نفسه فهو خاص الخواص ، وهم الذين يحرم عن شواهدهم ، وحفظهم وصاتهم عن أسباب التفرقة

(١) تلاحظ أن القشيري يكثر في هذا الموضوع من قوله (في الحقيقة ، وعلى الحقيقة . . وبحو ذلك) والسبب في ذلك راجع إلى أن ظاهر النصوص أن لا يلبس إرادة وضلا ، ولكن — في الحقيقة — كل شيء مرده إلى الحق سبحانه .

وجردهم عن حوثهم وقوتهم ، وكان الثأب عنهم في جميع تصرفاتهم وحالاتهم ، وحفظ عليهم آداب الشرع ، وألبسهم صدار الاختيار في أوان أداء التكليف ، وأخدمهم عنهم باستهلاكهم في شهوة ، واستغراقهم في وجوده . . . فأى سبيل للشيطان إليهم ؟ وأى يد لهم عليهم ؟

ومن أشبهه الحق حقائق التوحيد ، ورأى العالم مصرفاً في قبضة التقدير ، ولم يكن نبياً للأغيار . . ففي يكون لعين عليه تسلط ، وفي سنده قنوا :

جسودى فيك قدس وعقل فيك نهوس
فم آدم إلا ك ومن في البيت إبليس^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ جِهَنَّمُ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ •
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ
جُزْءٌ مَقْسُومٌ • ﴾

اجتمعوا اليوم في أصل الضلالة ، ثم الكفر بكل مختلفة ، ثم يضمنون غداً في العقوبة
وم زمر مختلفون ، لكل ذكر من درجات جهنم قوم مخصوصون .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهْيُونَ • ﴾

المتقي من وقاه الله بفضله لا من اتقى يتكلفه ، بل إنه ما اتقى يتكلفه إلا بعد أن وقاه
الحق — سبحانه — بفضله . هم اليوم في جنات ولما درجات بعضها أرفع من بعض ، كما
أنهم غداً في جنات ولما درجات بعضها فوق بعض .

اليوم تقوم درجة حلاوة الطلعة وتوفيق الطاعة ، ولقوم درجة البسط والراحة ،
ولآخرين درجة الرجاء والرغبة ، ولآخرين درجة الأنس والقربة ، قد علم كل أنس شرهم
ووزم كل قوم مذهبيهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْخُلُوا بِسَامِئِينَ • ﴾

(١) هذا البيت لعلاج (الطواحين ص ٤٢) والديوان المعلقة رقم ٢٨ ومناها : أنى لو نجت
لغيرك — حيا أمرنى — فأنا لجد ، ولكن — نظراً لمرئى بك — فإن جسودى حين قدس ،
لأننى أعلم أنه لا يستحق السجود على الحقيقة إلا أنت ، فأنا راض باستقال لتك نفسك لئلا تال لإرادتك .

معناه : يقال لهم : « أدخلوها » ، وأَجَلْ ذَلِكَ ولم يقل مَنْ الذى يقول لهم . ويرى قومٌ أن الملكَ يقول لهم : أدخلوها .

ويقال إذا وافوا اللجنة وقد قطعوا المسافة البعيدة ، وقاسوا الأمور الشديدة قَيْنَ حَقِّهم أن يدخلوا اللجنة ، خاصةً وقد علموا أنَّ اللجنة مُباحةٌ لهم ، ولعلمهم لا يقيمون حتى يقال لهم ويقال بمحتمل أنهم لا يدخلونها بقول الملك حتى يقول الحقُّ : أدخلوها ، كما قالوا :

ولا أَلْبَسُ الثَّمِيَّ وغيرُكَ مُلْبِسٌ ولا أَقْبِلُ الدُّنْيَا وغيرُكَ واهِبٌ

قوله : « بسلام آمنين » : بمعنى السلامة ، وهى الأمان ، فيأمنون أنهم لا يخرجون منها ويقال كما لا يخرجون من اللجنة لا يخرجون عما هم عليه من الحال ؛ فأرويةٌ لهم وما هم فيه من الأحوال الوافية — مدينةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَزَعْنَا مَافِ صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴾ .

أمرُ الخليل عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال : « وطَّهْرَيْتِي » ^(١) ، وأمرُ جبريل عليه السلام حتى غَسَلَ قلبَ المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فطَهَرَهُ ^(٢) . وتولَّى هو سبحانه بنفسه تطهيرَ قلوبِ العاصين ، فقال : « وَزَعْنَا مَافِ صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ » ^(٣) وذلك رفقاً بهم ، فقد يصنع الله بالضعيف ما يتعجب منه القوى ، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبهم ، فتولَّى ذلك بنفسه رفقاً بهم .

ويقال قال : « مافِ صدورهم » ولم يقل مافِ قلوبهم لأن القلوب فى قبضته بقلبه ، وفى الخبر : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » : يريد بذلك قدرته ، فاستعمل لفظ الإصبع قلبك توسعاً . وقيل بين إصبعين أى نعمتين

قوله جل ذكره : ﴿ إِخْرَأْنَا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾

قابل بعضهم بعضاً بالوجه ، وحفظ كل واحدٍ عن صاحبه سرِّه وقلبه ، فالنفوس متقابلة

(١) آية ٢٦ سورة الحج .

(٢) أنظر كتاب (المراج) لتفسيرى فيه تفصيل ذلك

(٣) من على بن الحسين أن هذه الآية نزلت لى أبى بكر وعمر وعلى رضوا الله عنهم وأن الظل ظل الجاهلية الذى كان بين تيم وعد وبين هائم فلما أسلوا محابروا .

ولكنَّ القلوبَ غيرُ متقابلة ؛ إذ لا يشتغل بعضهم ببعض ، قال تعالى : « واعلموا أنَّ اللهَ يحول بين المرء وقلبه »^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ .

أى لا يلحقهم نصبٌ ، لا ينفوسهم ولا يقلوبهم . وإذا أرادوا أمراً لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكان إلى مكان ، ولا يحار أبصارهم ، ولا يلحقهم دَهْشٌ ، ولا يتغير عليهم حالٌ عما هم عليه من الأمر ، ولا تشكل عليه صفة من صفات الحق .

« وما هم منها بمخرجين » أى لا يلحقهم^(٢) ذلُّ الإخراج بل هم بدوام الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ نَبِّأْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

لما ذكر حديثَ للتقين والملم من علوِّ الميزة انكسرت قلوب العاصين ، فتدارك الله قلوبهم ، وقال لنبيه — صلى الله عليه وسلم — أخبر عبادى العاصين أنى غفور رحيم ، وأنى إن كنتُ الشكورُ الكريمُ بالمطيعين فأنا الغفورُ الرحيمُ بالعاصين .

ويقال من سَمِعَ قوله : « أنى أنا » بسمع التحقيق لا يبق فيه مساغٌ لسباع المنفرة والرجة ؛ لأنه يكون عندئذٍ مُحْتَطَقاً عن شاهده ، مُسْتَهْلِكاً فى آيئته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ .

العذابُ الأليمُ هنا هو الفراق ، ولا عذابٌ فوق الفراق فى الصعوبة والألم^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . إذ دَخَلُوا عليه فقالوا سلاماً .

الأجرُ منهم . كيف كانت فتوة الخليل فى الضيافة ، وقيامه بحقِّ الضيفان ، وكان الخليلُ

(١) آية ٢٤ سورة الأنفال .

(٢) هنا وقع التباسٌ فى خطأ التكرار إذ أعاد كتابة عبارات سابقة مما ورد بعد (لا يلحقهم نصب ... إلخ) :

(٣) أى أن عذاب الفراق يفوق فى نظر المصوفية — عذاب الإحراق .

عليه السلام يقوم بنفسه بخدمة الضيفان ، فلما سلوا من جانبهم ورد عليهم وأنقشوا عن تناول طعامه :

﴿ قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَبِطْنُونَ ﴾ .

وَبِطْنُونَ أى خائفون ، فَإِنَّ الإِسَاءَةَ عَنْ تَنَاوُلِ طَعَامِ الْكِرَامِ مَوْضِعٌ لِّلرَّيْبِ . وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ خَافَ أَنْ يَكُونُوا نَزَلُوا لَتَعْدِيبِ قَوْمِهِ إِذْ كَانُوا بِجَرَمِينَ . وَلَكِنْ سَكَنَ رَوْعُهُ حَتَّى مَاتُوا قَالُوا لَهُ :

﴿ قَالُوا لَا تَوَيْلَ لَّنَا نُبَشِّرُكَ

بِغَلَامٍ عَلَيْهِمْ ﴾ .

فليس لك موضعٌ للوَيْلِ لكن موضعٌ للفرَجِ ؛ فَإِنَّا جِئْنَاكَ مُبَشِّرِينَ ، وَإِنْ كُنَّا لَنفِيرٍ مُّعَذِّبِينَ .

فمن « نبشركم بغلامٍ عليهم » : أى يمشى حتى يعلم ، لأن الطفل ليس من أهل العلم ، وكانت بشايرهم بالوَلَدِ وبقاء الولد هى العجب فقال :

﴿ قَالَ أَبَشِّرْتَنِي عَلَى أَنْ مَسِّنِي

الْكِبَرُ قِيمٌ تُبَشِّرُونَ ﴾ قَالُوا

بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ

الْقَانِطِينَ ﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ

رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾

قَالَ أَبَشِّرْتَنِي وَقَدْ مَسَّنِي الْكِبَرُ ؟ وَإِنَّ الْكِبَرُ قَدْ فَاتَهُ الْوَقْتُ الْبَقِي يُفْرَحُ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ . بِمَاذَا تَبَشِّرُونِي وَقَدْ طَلَعْتُ فِي السَّنِّ ، وَعَنْ قَرِيبٍ أُرْتَعِلُ إِلَى الْآخِرَةِ ؟ قَالُوا : بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنْ جُلَّةٍ مَّنْ يَقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ ، وَلَا يَقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ ضَالًّا .

قَالَ : كَيْفَ أَخْطَأْتُكُمْ فِي قَوْلِهِمْ أَنِّي أَقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّي ؟

فَلَمَّا فَرَّغَ قَلْبُهُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ ضَرَرٌ مِنْهُمْ سَأَلَهُمْ عَنْ حِلْمٍ :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ •
 قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ •
 إِلَّا آكَلُ لُوطٌ إِنَّا لَنَكْتُبُكُمْ أَجْمَعِينَ •
 إِلَّا أَمْرًا تَقْدَرْنَا عَلَيْهِ أَلَيْسَ •
 الْعَاكِرِينَ •

قال ما شأنكم ؟ وإلى أين قصدكم ؟

قالوا : أُرْسِلْنَا لعذاب قوم لوط ، ولننجيَ أهلَهُ إِلَّا أَمْرًا لِمُشَارَكَتِهَا معهم فِي الْفَسَادِ ،
 وكانت تدل قومهُ على أضيافِهِ ، فاستوجبت العقوبة .

فلما وافى المرسلون من آكل لوط أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر ، وتفرس فيهم
 على الجلة أنهم جاهدوا الأمر عظيم ، قالوا : بل جئتكم بما كان قومك يشكون فيه من
 تدبيرنا إليهم ، وآتيناك الحق ، أى بالحكم الحق :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ
 وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ
 أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ •

فأسر بأهلك بعد ما مضى شيء من الليل ، وامن خلفهم ، وقدمهم عليك ، واتبع
 أدبارهم ، ولا يلتفت منكم أحد لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب ، وإنا ننقذك وأهلك
 إِلَّا أَمْرًا تَكُ ، فإنا نعدبها لمشاركتها مع قومك في المصيان . « وامضوا حيث تؤمرون » :
 فلكم السلامة ولقومكم العقوبة .

« وقضينا إليه ذلك الأمر » أى علفناه وعرفناه : « أَنْ دَارَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ » ؛ أى أنهم
 مهلكون ومُستأصلون بالعقوبة .

ثم لما نزل لللاصكة بلوط عليه السلام قال لقومه إن هؤلاء أضيافى ، فلا تتعرضوا لهم
 تنفضحوني ، واتقوا الله ، وفردوا مخالفة أمره ولا تخجلوني . قال قومهُ : ألم ننهك عن أن
 تحيي أحدًا ، وأمرناك ألا تنعم منّا أحدًا ؟ فقال : هؤلاء بنائى يعنى نساء أمتى . وقال قوم :

أراد بناءه من صلبه ، عَوَّضَهُنَّ عَلَيْهِمْ لثَلَاثِيُوا بِنَظَرِ النَّفْطَةِ الْفَتَحَاءِ ، فَلَمْ تَجْعَلْ فِيهِمْ نَصِيحَةً ، وَلَمْ يَقْلَمُوا عَنْ خِيَتِ قَصْدِهِمْ .

فَأَخْبِرَهُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا يَخَافُ عَلَيْهِمْ ، وَسَكَنُوا مِنْ رَوْعِهِ حِينَ أَخْبِرُوهُ بِمُحَقِّقَةِ أَمْرِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا أُرْسِلُوا لِلْعُقُوبَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَعَنَّاكَ إِنَّمَا لِنُكَرَّهَهُمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ ﴾

أَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ تَخْصِيصًا لَهُ فِي شَرَفِهِ ، وَتَفْضِيلًا لَهُ عَلَى سَائِرِ الْبَرِيَّةِ ، قَالَ وَحْيَانُكَ — يَا مُحَمَّد — إِنَّمَا لِنُكَرَّهَهُمْ بِمَعْصِيَتِهِمْ وَسُكْرَةِ غَفْلَتِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، وَإِنَّهُمْ عَنْ شِرْكِهِمْ لَا يَقْلَمُونَ .

وَيُقَالُ أَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَقْتِهِ حَيَاةً أَشْرَفَ مِنْ حَيَاتِهِ — إِنَّهُمْ فِي خَائِرِ سُكْرِهِمْ ، وَغَفْلَةِ ضَلَالَتِهِمْ لَا يَتَرَفَّقُونَ عُقُوبَةً ، وَلَا يَتَخَفُونَ سَوْأًا .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرَقِينَ ﴾ فَجَعَلْنَا

عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حَبِيرًا

مِنْ سَجَّيْلٍ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لِلْمُتَوَسِّينَ * وَإِنَّا لَنَكْسِلِبِلْ مُقِيمٍ

إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .

بَاتُوا فِي حَبُورٍ وَسُرُورٍ ، وَأَصْبَحُوا فِي مَحَنَةٍ وَثُبُورٍ ، وَخَرَّتْ عَلَيْهِمْ سَفُوفُهُمْ ، وَجَعَلْنَا مُدَّتَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ عَالِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا لَمْ يُبْقِ عَيْنًا وَلَا أُنْرًا ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِمَنْ أَعْتَبَرَ ، وَدَلَالَةٌ ظَاهِرَةٌ لِمَنْ اسْتَبْصَرَ ، « وَإِنَّا لَنَكْسِلِبِلْ مُقِيمٍ » لَنْ شَاءَ أَنْ يَغْتَبِرَ

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّينَ ﴾ (١)

جاء في التفسير « المتوسسين » ، والفراصةُ خَاطِرٌ يَحْصُلُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسَارِضَ مَا يَخَالِفُهُ عِنْدَ ظُهُورِ بَرَاهِينِ عَلَيْهِ ، فَيَخْرُجُ مِنَ الْقَلْبِ عَيْنٌ مَا يَقَعُ لِصَاحِبِ الْفَرَاصَةِ . مُشْتَقٌّ مِنْ فَرِيسَةٍ

(١) آخر النسخة تسير هذه الآية عند النقل فوضها بعد الآية ٨٦ (إن ربك هو الخالق العظيم) وقد صححت هذا الوضع .

الأسد إذ لفريسته يتهر . والحق — سبحانه — يُطْلِعُ أوليائه على ما خفى على غيرهم .
 وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التنفس في جميع الأشياء وفي جميع الأوقات ؛ بل يجوز أن
 تُسدَّ عليه عيونُ الفراسة في بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام ؛ فَنَبَّيْنَا — صلى الله
 عليه وسلم — كان يقول لما نثته — رضى الله عنها — في زمان الإفك : « إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ
 فَنَوَيْتُ إِلَى اللَّهِ » . وكأبراهيم ولوط — عليهما السلام — لم يعرفا الرسل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴾

• فانتقمنا منهم وإني لآيماهم
 مبین • ولقد كذب أصحاب الحجر
 المرسلين • وآتيناهم آياتنا فكانوا
 عنها معرضين • وكانوا يخفون
 من الجبال بيوثا آمنين • فأخذتهم
 الصيحة مُصْبِحِينَ • فأتواهم
 ما كانوا يكسبون •

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، وكان شعيب — عليه السلام — مبعوثا لهم فكذبوه ،
 فانتقمنا منهم .

قوله : « وإني لآيماهم مبین » . . . « لآيماهم مبین » : أى بطريق واضح من
 قصده (. . .) (١) .

وكذلك أخبر أن أصحاب الحجر (٢) — وهم عمود — كذبوا المرسلين إليهم ، وأنهم
 أعرضوا عن الآيات التي هي المعجزات كساقه صالح وغيرها ، وأنهم كانوا أدخلوا إلى الأرضين
 وكانوا مُقْتَرِنِينَ بطول إهمال الله لإيماهم من تأخير العقوبة عنهم ، وكانوا يخفون من الجبال
 بيوثا ، ويظنون أنهم على أنفسهم آمنون من الموت والعذاب .

(١) مثقبة .

(٢) الحجر واد بين المدينة والقصم .

ثم أخبر أنهم أخذتهم الصيحة على بقة ، ولم تغر عنهم حيلهم لما حلّ حينهم .
قوله جل ذكره : ﴿ وما خلَقْنَا السموات والأرضَ
وما بينهما ﴾ .

دلت الآية على أن أكساب العباد مخلوقة لله لأنها بين السموات والأرض .
﴿ إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴾
« إلا بالحق » : أى وأنا محق فيه ويقال « بالحق » : بالأمر العظيم الكائن إن
الساعة لآتية بمعنى القيامة .

﴿ فاصفح الصفح الجليل ﴾

يقال الصفح الجليل الذى تذكر الزلة فيه .
ويقال الصفح الجليل سحب ذيل الكرم على ما كان من غير عقد الزلة ، بلا ذكر
لما سلف من الذنب ، كما قيل :

تعالوا نصطليح ويكون منيا

(.....)^(١)

ويقال الصفح الجليل الاعتذار عن الجرم بلاعد الذنوب من المجرم ، والإقرار بأن
الذنب كان منك لا من الملقى ، قال تأملهم :

(وتذنبون فنفسى ونفتنر)

قوله جل ذكره : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ .

« هو الخلاق العليم » إذ لا يصح الفعل بوصف الانتظام والاتساق من غير عالم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني
والقرآن العظيم ﴾ .

أكثر المفسرين على أنها سورة الفاتحة ، وسميت مثاني لأنها نزلت مرتين : مرة بمكة

(١) الفصل الثانى مطبوس غير واضح .

ومرة بالمدينة ، ولأنها شئ في كل صلاة يشكر ، من « التثنية » وهي التكرير ، أولاً
بعضها يضاف إلى الحق وبعضها يضاف إلى الخلق . . ومعنى هذا مذكور في كتب
التفسير^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا
بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾ .

لم يُسَلَّمْ له إشباع النظر إلى زهرة الدنيا وزينتها .
ويقال غر على عينيه — صلى الله عليه وسلم — أن يستعملها في النظر إلى المخلوقات .
ويقال أدبه الله — سبحانه — بهذا التأديب حتى لا يعبر طرفة من حيث الاستئناس به .
ويقال أمره بحفظ الوفاء لأنه لما لم يكن اليوم سبيل لأحد إلى رؤيته^(٢) ، فلا تمدن عينيك
إلى ملاحظة شئ من جملة ما هو قائم ، كما قال بعضهم :

لَمَّا تَيَقَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرُكُمْ أَغْمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

ويقال شَتَّانَ يَنَّهُ وَبَيْنَ مُوسَى — عليه السلام — قال له : لن تراني ولكن أنظر إلى
الجبيل ، ونبينا — صلى الله عليه وسلم — منعه من النظر إلى المخلوقات بوصف هو تعلم
النظر فقال : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » .

ويقال إذا لم يسلم له إشباع النظر بظاهره إلى الدنيا فكيف يسلم له السكون بقلبه إلى
غير الله ١٩

ويقال لما أَمِرَ بِقَضَى بَصَرِهِ عما يستمتع به الكفار في الدنيا تَأَدَّبَ — عليه السلام —
فلم ينظر لِبَلَّةِ المراج إلى شئ مما رأى في الآخرة ، فأثني عليه الحق بقوله : « مَارَاغَ الْبَصَرِ » .
وما طنى « وكان يقول لكل شئ ورآه : « التحيات لله » أى الملقاة لله .

(١) يرى بعضهم أنها سبع سور وهي الطوال ، واختلف في السابعة قبل الأنفال وبرادة لأنها لحكم
سورة بدليل عدم التنسية بينهما ، وقيل سورة يونس . أو أسباع القرآن .
(٢) الضجر في (رؤيته) يعود إلى الحق سبحانه ، والمقصود حفظ العين — من قبيل الوفاء —
لكي لا تمايز سواء سبحانه فيها بعد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾

أذبه حتى لا يتغير بصفة أحد ، وهذه حال التمكن .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أى أُنْزِلْ لَمْ جَانِبِكَ . وكان عليه السلام إذا استعانت به الوليدة^(١) في الشفاعة إلى موالها يعضي منها .. إلى غير ذلك من حسن خُلُقِهِ — صلوات الله عليه — وكان في الغدير : إنه كان يخدم بيته وكان في (مهنة)^(٢) . وتوَلَّى خدمة الوفد ، وكان يقول : سيد القوم خادمهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾

لأن لم يكن بنفسه وكان قائماً بحمته — سبحانه وتعالى — سَلَّمَ له أن يقول : إني وأنا . وفي الغدير : أن جابراً دَقَّ عليه الباب ، قال : مَنْ ؟ قال : أنا .. فقال النبي عليه السلام : **«أنا أنا»** .. كأنه كررها^(٣)

ويقال : قُلْ لأحدٍ لاسهلا لك فينا ، سَلَّمنا أن تقول : إني أنا ، لما كُنْتَ بنا ولنا .

قوله جل ذكره ﴿ كَأَنَّا أَزَلْنَا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾

أى قل إني أنالكم مُنْذِرٌ بصفاب كالغذاب الذي عَذَّبنا به المتقين ، وهم الذين قاسموا بالله لنبيه في قصة صالح عليه السلام . وقيل هم من أهل الكتاب الذين اقتسموا كتاب الله ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه .

ويقال إني لكم نذير أخوفكم عقوبة المتقين الذين اقتسموا الجبال والطرق بمكة في الموسم ، وصدروا الناس . وكان الواحد منهم يقول لِمَنْ مَرَّ به : لا تُؤْمِنْ بِحَمْدِ فَإِنَّهُ سَاحِرٌ ، ويقول الآخر : إنه كاهن ويقول ثالث : إنه مجنون ، فهم بأقسامهم :

﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾^(٤)

(١) الوليدة = الجارية ، قال طرفة :

فذا لك كذا ذاك وليدة مجلس ترى وبها أذيال سحل مدد

(٢) عن الأسود بن يزيد : قال سئلت عائشة رضى الله عنها ما كان النبي (ص) يعض في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إليها (رواه البيهقي) .

(٣) الحديث جاء منطرب الكتابة في التسخين وقد صحته كأورد التروى لى رؤى الصالحين ط بيروت ص ٣٥١

(٤) عشرين ج عنة وأصلها عضوة أى جزء ، وعضوة قلة من عصى الشاة إذا جعلها أعضاء وأجزاء وأقساماً .

خفيتموا القول فيه ، فقال بعضهم إنه شعر ، وقال بعضهم إنه سحر ، وقال بعضهم إنه كيان . . . إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَأَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمِينَ * عما كانوا يعملون ﴾

العوالم يسألهم عن تصحيح أعمالهم ، والخواص يسألهم عن تصحيح أحوالهم .
وقال يسأل قوماً عن حركات ظهورهم ، ويسأل آخرين عن خطرات سرائرهم . ويسأل الصديقين عن تصحيح الماني بفعلهم ، ويسأل المدّعين عن تصحيح الدعاوى تعنيقاً لهم .
ويقال سماع هذه الآية يوجب لقوم ألسناً وسروراً بحيث علموا أنه يكلمهم ويُسَمِّعُهُمْ خطاباً لأشقيائهم إليه ، ولا تحبّب في ذلك فالخلق يقول في مخلوق :
من الخيرات البشري وقد جلسها إذا ما انتهت أحدى وثلة أو تُعيدّها
فلا أسعد من بشر يرف أن مولاه غداً سيكلّمه .

قوله جل ذكره : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾

كنّ بنا وقُلْ بنا ، وإذا كنت بنا ولنا فلا نهمل حساباً لنبرنا ، وصرّح بما خاطبناك به ،
وأفصح عما نحن خصصناك به ، وأعلن عبقناك :
فسيح^(١) باسم من تهوى ودعنا من الكُفَى فلا خير في اللذات من بعدها ستر

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَبْرِينَ * الذين يعملون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾

الذين دفعنا عنك عادية^(٢) شرهم ، ودرونا عنك سوء مكرهم ، ونصرتك بموجب

(١) الأصل في البيت (فصرح) والتصرّح يقابل (الكناية) .

(٢) وردت (عادية) بالعين ، واللام لسياق (عادية) بالعين . حيث يقال (دفعت عنك عادية فلان أي ظله وشره) : الوسيط ص ٩٠ .

عنايتنا بشألك . . فلا عليك فما يقولون أو يضلون ، فما المعنى إلا لك بالنصر والظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَسِمُ أَلَيْكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾

بما يقولون • فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ •

وقال : « يضيّق صدرك » ولم يقل يضيّق قلبك ؛ لأنه كان في عمل الشهود ، ولا راحة للؤمن دون لقاء الله ، ولا تكون مع اللقاء وحشة .

ويقال هوّن عليه ضيق الصدر بقوله : « وقد نعلم » ويقال إن ضاق صدرك بسماع ما يقولون فيك من ذمك فلانفع^(١) بلسانك في رياض تسييحنا ، والتناء علينا ، فيكون ذلك سبباً لزوال ضيق صدرك ؛ وسأله لك بما تذكر من جلال قدرنا وقدسنا ، واستحقاق مرئنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

قف على بساط المبودية معتقاً للخدمة ، إلى أن تجلس على بساط القربة ، وتطالب بأداب الرصة .

ويقال التزيم شرائط المبودية إلى أن ترتقي بل تكني بصفات الحرية .

ويقال في « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »^(٢) : إن أشرف خصالك قبل ذلك بحق المبودية .

(١) وودت هكذا ورجع أنها في الأصل (ظفر) فهي أكثر ملازمة للمعنى . جاء في رسالة التصبري ص ١١١ (وفي الخبر المشهور عن الرسول صلى الله عليه وسلم : إذا رأيتم رياض الجنة فارتضوا فيها ، فقبل له : وما رياض الجنة ؟ فقال : مجالس الذكر .

(٢) عن الملازمة بين المبودية واليقين ينقل التصبري عن شيخه الشافعي قوله : « البداة لمن له علم اليقين ، والمبودية لمن له عين اليقين والمبودية لمن له حق اليقين » الرسالة ص ٩٩ .

السورة التي يذكر فيها النحل

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

ألف الوصل في « بسم الله » لم يكن لها في التحقيق أصل ، جُلبت الحاجة إليها للوصل بها إلى النطق بالسأكن ، وإذ وقع ذلك أنفعا عنها أسقطت في الإدراج ، ولكن كان لها بقاء في الخط وإن لم يكن لها ظهور في اللفظ ، فلما صارت إلى « بسم الله » أسقطت من الخط كذلك .. وكذلك من ازداد محبة استأخر^(١) رتبة .

ويقال أى استحقاق لواد عمرو حتى ثبتت في الخط ؟ وأى استحقاق إلى الألف في قولهم قتلوا وفعلوا ؟ وأى موجب لحذف الألف من السنوات ؟ طاحت العلى في الفروق ، وليس إلا اتفاق الوضع .. كذلك الإشارة في أرباب الرد والقبول ، قال تعالى « إن ربك فعل لما يريد »^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أُنِىْ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

صفة أنى الماضى ، والمراد منه الاستقبال لأنه بشأن ما كانوا يستعجلونه من أمر الساعة ، والمعنى « سياتى » أمر القيامة ، والكائنات كلها والحادثات بأمرها من جملة أمره ؛ أى حصل أمر تكوينه وهو أمر من أموره لأنه حاصل بتقديره وتيسيره ، وقضائه وتدبيره ؛ فإ يحصل من خير وشر ، وضع وضر ، وحلو ومر .. فذلك من جملة أمره تعالى .

« فلا تستعجلوه » وأصحاب التوحيد لا يستعجلون شيئاً باختيارهم لأنهم قد سقطت عنهم الإرادات والمطالبات ، وهم خادعون تحت جريان تصرف الأقدار ؛ فليس لهم إيتاء ولا اختيار فلا يستعجلون أمراً ، وإذا أمّلوا شيئاً ، أو أخبروا بمحصل شيء فلا استعجال لهم ، بل شأنهم

(١) إن صح نقل هذه السكنة عن الأصل فلربما قصد القشيري منها استحقاق عن الظهور ، وازداد ذولاً ، وبسماً عن التظاهر والهموى .

(٢) آية ١٠٧ سورة هود .

التأني والثبات والسكون . وإذا بدأ من التقدير حكم فلا استعمال لم لما يريد عليهم ، بل يتقبلون مغالطة التقدير بوجه ضاحك ، ويستقبلون ما يبدو من الغيب من الرد والقبول ، والمنع والشرح بوصف الرضاء ، ويحمدون الحق — سبحانه وتعالى — على ذلك .

« سبحانه وتعالى عما يشركون » : تعالى عما يشركون يريهم ، والكفار لم ييسر لهم حتى أنه لا سكن لقلوبهم من حديثه .

قوله جل ذكره : ﴿ يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ۝ ﴾ .

ينزل الملائكة على الأنبياء — عليهم السلام — بالوحي والرسالة ، وبالتعريف والإلهام على أسرار أرباب التوحيد وهم المحدثون . وإزالة الملائكة على قلوبهم غير مردود لكنهم لا يؤمنون أن يسلكوا بذلك ، ولا يحوّلون رسالة إلى الخلق .

ويُراد بالروح الوحي والقرآن ، وفي الجملة الروح ما هو سبب الحياة ؛ إما حياة القلب أو حياة الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَلْقًا ۚ ﴾ تعالى عما يشركون ۝

خَلَقَهَا بِالْحَقِّ ، وَيَحْكُمُ فِيهَا بِالْحَقِّ ، فَهُوَ مُحِقٌّ فِي خَلْقِهَا لِأَنَّهُ ذَلِكَ ، ويدخل في ذلك أمره بتكليف الخلق ، وما يقبُ ذلك التكليف من الخسر والنشر ، والثواب والعقاب .

« تعالى عما يشركون » : قدسياً وتقديراً له عن أن يكون له شريك أو معه ملك

قوله جل ذكره : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۝ ﴾ .

تعرّف إلى العقلاء بكمال قدرته حيث أخبر أنه قدر على تصوير الإنسان على ما فيه من التركيب العجيب ، والتأليف اللطيف ؛ من نقطة مائة الأجزاء ، متشكلة في وقت الإنشاء ، مختلفة الأعضاء وقت الإظهار والإبداء ، والخروج من الخفاء . ثم ما ركّب فيه من تمييز وعقل ،

وَيُسِرُّهُ النُّطْقَ وَالْفِعْلَ ، وَالتَّدْبِيرَ فِي الْأُمُورِ ، وَالْإِسْتِيلَاءَ عَلَى الْحَيَوَانَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّسْخِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءًا

وَمَنَافِعَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

ذَكَرَهُمْ بِمَا تَفْضُلُ عَلَيْهِمْ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا لِحَيَوَانَاتِ مِنَ النَّعْمِ ، وَمَا لَمْ فِيهَا مِنْ وَجْهِ
الِاسْتِنَاعِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، كَالْجَلْرِ وَكَالْفَرِّ عَلَيْهَا وَقَطْعِ اللَّسَانَاتِ ، وَالتَّوَسُّلِ عَلَى ظُهُورِهَا إِلَى
مَآرِجِهِمْ ، وَمَا لِنَفْسِهَا وَلَهْرُهَا مِنَ الْمَنَافِعِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَىوْنَ وَحِينَ

تَسْرَحُونَ ﴾ وَنَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ

لَمْ تَكُونُوا بِالنَّفْسِ إِلَّا يَشْقَى الْأَنْفُسَ

إِنْ رَئَيْتُمْ لِرُءُوفٍ رَحِيمٍ ﴾ .

النَّفْسُ لَهُ جَمَالٌ بِمَالِهِ ، وَلِلْقُدْرَةِ لَهُ اسْتِقْلَالٌ بِمَالِهِ . . وَشَتَّى مَا مَا ! فَالْأَغْنِيَاءُ يَنْجَلُونَ

بِأَنْعَامِهِمْ حِينَ يُرْجَىوْنَ وَحِينَ يَسْرَحُونَ ، وَالْفُقَرَاءُ يَسْتَقِلُّونَ بِمَوْلَاهُمْ حِينَ يَصْبَحُونَ وَحِينَ
يَمْسُونَ . أُولَئِكَ نَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ جَمَالُهُمْ ، وَهَؤُلَاءِ يَحْمِلُ الْحَقُّ عَنْ ظُلْمِهِمْ أَثْقَالَهُمْ .

« لَمْ تَكُونُوا بِالنَّفْسِ إِلَّا يَشْقَى الْأَنْفُسَ » : قَوْمٌ أَحْوَالُهُمْ مَقْلَعَةُ الشَّدَائِدِ ، يَصِلُونَ سِيرَهُمْ
بِسُرَّامٍ ، وَقَوْمٌ فِي حِلِّ مَوْلَاهُمْ ، يَمِيدُونَ عَنْ كَدِّ التَّدْبِيرِ ، مَسْتَرْجَىوْنَ بِشُهُودِ التَّقْدِيرِ ،
رَاضُونَ بِاخْتِيَارِ الْحَقِّ فِي السَّيْرِ وَالْيَسْرِ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِشَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا

وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فَالنَّفُوسُ فِي سَجَلِهَا كَالْغَوَابِ ، وَالتَّلَوُّبُ مُتَقَنٌّ عَنِ التَّمَنُّيِّ فِي الْأَسْبَابِ . « وَيَخْلُقُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ » : كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَجِدُونَ فِي الْآخِرَةِ مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا أَذْنَ
سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَكَذَلِكَ أُرِيدُ بِالْحَقَاقِقِ يَجِدُونَ — الْيَوْمَ — مَا لَمْ يَخْطُرُ
قَطْرًا عَلَى بَالٍ ، وَلَا قَرَأُوا فِي كِتَابٍ ، وَلَا تَلَقَّوْهُ مِنْ أَسَاطِذَ ، وَلَا إِحَاطَةً بِمَا أَخْبَرَ الْحَقُّ أَنَّهُ

(١) يُطْلَقُ لِلْقُدْرَةِ عَلَى الْأَوَّلِ اسْتِغْلَاحَ (مُتَعَدِّلٌ) وَعَلَى الثَّانِي (مَحْمُولٌ) .

لا يعلم تفصيله^(١) سواء . . . وكيف يعلم من أخبر الحق^٢ — سبحانه — أنه لا يعلم؟

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَىٰ أَقْدَقِ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ

وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمِينَ﴾ .

قوم هدام السبيل ، وعزهم الدليل ، نصرف عن قلوبهم خواطر الشك ، وعصمهم عن الجحود والشرك ، وأطلع في قلوبهم شمس العرفان ، وأفردم بنور البيان . وآخرون أضلهم وأغواهم ، وعن شهود الحجج أعمام . وفي سابق حكمه من غير سبب أضلهم وقصمهم^(٣) ، ولو شاء لمرتهم وهداهم .

قوله جل ذكره : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ

نُفُوسٌ * يُنْزِلُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ

وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

أنزل للعرش وجل به سقيا النبات ، وأجرى العادة بأن يديم به الحياة ، وينبت به الأشجار،

ويخرج القار ، ويخرج الأنهار .

ثم قال : « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » ثم قال بعده بآيات : « لقوم يعقلون » ،

ثم قال بعده : « لقوم يذكرون » . وعلى هذا الترتيب تحصل المعرفة^(٤) ، فأولاً التفكر ثم العلم

ثم التذكر ، أولاً يضع النظر موضعه فإذا لم يكن في نظره خلل وجب له العلم بالحقالة ، ولا فرق

بين العلم والقل في الحقيقة ، ثم بعده استدامة النظر وهو التذكر .

وقال إنما قال : « آيات لقوم يعقلون » : على الجمع لأنه يحصل له كثير من العلوم حتى يصير

(١) وردت (تفصلي) وهي خطأ من النسخ .

(٢) (قسم) = فهم وذلم . على أننا لا نسجد — جميعاً — نعرف من كتاب التشيرى بالمحوس على الوسيط العقلي — أنها ربما كانت (أقام) أى سرهم وأذلهم (انظر آية سورة القصص الجزء الثالث) .

(٣) هذه نقطة هامة إذا أردنا أن ندوس منهج المعرفة عند الصوفية عموماً ، والتشيرى بخاصة

عارفاً ، وكل جزء من العلم تحصل له آية ودليل ، فلما لم حتى يكون عارفاً بربه آيأت ودلائل ، لأن دليل هذه المسألة خلاف دليل تلك المسألة ؛ فبدليل واحد يعلم وجه النظر ، وبأدلة كثيرة يصير عارفاً بربه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾

الليل والنهار طرفا الليل ، والناس في الأفعال مختلفون : فوفق ونحنول ؛ فالوفق يجري وقته في طاعة ربه ، ونحنول يجري وقته في متابعة هواه .

المايد يكون في قرص يقيه أو تقلي يديه ، والعارف في ذكره وتحصيل أوراده بما يود على قلبه فيؤله ، وأما أرباب التوحيد فهم مُحْتَطِفُونَ من الأحيان والأوقات بنبلة ما يرد عليهم من الأحوال كما قيل :

لستُ أدري أطلال كَيْسٍ أَمْ لَا كيف يدري بذاك مَنْ يَتَقَلَّى ؟
لو تَفَرَّغْتُ لاسْتَطَقْتُ لَيْسِي ورعيت النجومَ كنتُ مُخْجَلًا

قوله جل ذكره : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

هنا في الظاهر ، وفي الباطن نجوم العلم وأقلر المعرفة وشموس التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا ذَرَأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ خُفْلًا أَلْوَانَهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴾

أقوامُ سُخِّلَ لهم في الأرض الرِّياضَ والنِّياض^(١) ، والودور والقصور ، والمسكن والمواطن ، وغنون الثَّمِ وصنوف القِسَمِ . وآخرون لا يقع لهم طير على وكر ، ولا هم في الأرض شَيْءٌ ؛ لا ديارَ تملكهم ، ولا علاقةَ تُمسِكُهُمْ — أولئك ساداتُ الناس وضياء الحق .

(١) للرياض جمع غينة وهي الموضع يكثر فيه الشجر ويشت .

قوله جل ذكره: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا كُلًّا مِنْهُ
لَحْمًا طَرِيًّا وَنَسَخَّرُ جَوْا مِنْهُ حَلِيَّةً
نَلْبَسُوهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِلَّهِكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾

سخر البحر في الظاهر ، وسهّل ركوبه في الفلك ، وبَسَّرَ الاتِّماع بما يستخرج منه من
الحلّي كاللؤلؤ والذّرّ ، وما يُقْتَلُ به من السمك وحيوان البحر .
ومن وجوه المعاني خلق صنوفاً من البحر ، قومٌ قرّنى في بحار الشغل وآخرون في بحار
الحزن ، وآخرون في بحار اللهو .. فالسلامة من بحر الشغل في ركوب سفينة التوكل ، والنجاة
من بحر الحزن في ركوب سفينة الرضا ، والسلامة من بحر اللهو في ركوب سفينة الذكر ،
وأُنشد بعضهم ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ
وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِمَنْ يَهْتَدُونَ﴾ .
الرواسي في الظاهر الجبال ، وفي الإشارة الأولياء الذين هم غياث الخلق ، بهم يرحمهم ،
وبهم يغيثهم .. ومنهم أبدال ومنهم أوتاد ومنهم القطب . وفي الخبر : « الشيخ في قومه كالنبي
في أمته » وقال تعالى : « وما كان الله ليغيثهم وأنت فيهم » ^(٢) ، كما قال تعالى : « ولولا رجال
مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوّلوا » ^(٣) ، وأُنشد بعضهم :

واحصرتنا من فراق قوم هم المصاييح والأمن والمزن

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ .
الكواكب نجوم السماء ومنها رجوم للشياطين ، والأولياء نجوم في الأرض . وكذلك
العلماء وهم أئمة في التوحيد وهم رجوم للكفار ولللّاحدين .

(١) سقط الشاهد الشرعي من النسخ . (٢) آية ٣٢ سورة الأنفال .

(٣) آية ٢٥ سورة التّحج .

ويقال فرق بين مجرم يهتدى بها في فجاج الدنيا ، ومجرم يهتدى بهم إلى الله تعالى .
 قوله جل ذكره : ﴿ أَفَنُخْلِقُكُمْ لَّا يُخْلِقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

تدل هذه الآية على نفي التشبيه بينه — سبحانه — وبين خلقه . وصفات التدم لله
 مستحقة ، وما هو من خصائص الخلدان وسمات الخلق يتقدس الحق — سبحانه — عن
 جميع ذلك . ولا تشبه ذات القديم بنوات المخلوقين ، ولا صفاته بصناتهم ، ولا حكمه
 بحكمهم ، وأصل كل ضلالة التشبيه ، ومن قبح ذلك وفساده أن كل أحد يتبرأ منه
 ويستكف من اتعاله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

لوجودات لا تحصى لها لنفائس علومكم عنها ، وما هو من نعم الدفع^(١) فلا نهاية له . وهو
 غفور رحيم حيث يتجاوز عنكم إذا عجزتم عن شكره ، ويرضى بمرثمتكم (....)^(٢) لكم
 من شكره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَافْقِهِ يَلْمُ مَائِرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .
 ما تُسِرُّون من الإخلاص وملاحظة الأشخاص . فلا يخفى عليه حساب ، وما تعلنون
 من الوفاق والشقاق ، والإحسان والمعيبان . والآية توجب تخويف أولي الزلات وتشریف
 أصحاب الطاعات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ .
 أخبر أن الأصنام لا يصح منها الخلق لكونها مخلوقة ، ودلت الآية على أن من وجدته
 له سمة الخلق لا يصح منه الخلق ، وأخلق هو الإيجاد ، فني الآية دليل على خلق الأعمال .

(١) من تصور الإنسان أنه لا يشتر إلا بهم النج ، ولكن نعم الدفع التي لا تنامى لا يكاد
 الإنسان يشتر بها البتة وبالتالي لا يفكر عليها . . وما أكثرها !
 (٢) مشبهة .

قوله جل ذكره : ﴿أَمْرَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَبَانٌ يُخْفُونَ﴾ .

لأنَّ مَنْ لَحِقَهُ وَصْفُ التَّكْوِينِ لَا يَصِحُّ مِنْهُ الْإِبْحَادُ . وفي التحقيق كُلُّ مَنْ عُلِقَ قَلْبُهُ
بشئٍ ، وتَوَكَّمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ بظَنِّهِ ، وإِنَّمَا التَّوْحِيدُ تَجْرِيدُ الْقَلْبِ عَنْ
حِسَابِ شَقِيَّةٍ مِنَ النَّفْسِ وَالْإِبْطَاتِ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِيَّاتِ وَالْمَخْلُوقَاتِ .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ
مُسْتَكْبِرُونَ﴾ .

لَا تَقْبَلُ لِقَاتَهُ جَوَازًا أَوْ جَوْبًا ، وَلَا شَيْءَ لَهُ وَلَا شَرِيكَ . . . وَمَنْ لَمْ يَنْتَهَقْ بِهِذِهِ الْجِلَّةِ
قَطْعًا ، وَبِشَهَادَةِ الْبَرَاهِينِ لَهُ تَفْصِيلًا فَهُوَ فِي دَرَكَاتِ الشُّرْكِ وَأَقْبَعُ ، وَعَنْ حَقَائِقِ التَّوْحِيدِ بِعِزْلٍ ،
قَالَ تَعَالَى فِي صِفَةِ الْكَافِرِ : « قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » ، أَيْ فِي أَشْرِكِ الشُّرْكِ وَغَطَاءِ
الْكُفْرِ ، ثُمَّ لَيْسَ فِيهِ انْتِصَافٌ لَطَلَبِ الْعِرْفَانِ ؛ لِأَنَّ الْمَلَّةَ — رَيْنَ أَرَادَ الْمَرْفَعَةَ — مُنَاحَةً ،
وَأَدَلَّةَ الْخَلْقِ لِأَثْمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ .

فِيضْضَحُّهُمْ وَيُبَيِّنُ فَنَاقَهُمْ ، وَيُعْلِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ كُفْرَهُمْ وَشَفَاقَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ .

دَلِيلُ الْخُطَابِ أَنَّهُ يَجِبُ لِلتَّوَاضِعِينَ لِلتَّخَاشُعِينَ ، وَيَكْفِيهِمْ فَضْلًا بِشَارَةَ الْحَقِّ لَهُمْ
بِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ فِيكُمْ قَالُوا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

لِيَقْفَهُمْ شَوْمُ تَكْذِيبِهِمْ ، فَأَمْرُوا عَلَى إِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ تَنْجَحْ

إلى الإقرار بالحق ، فَلَبَسُوا عَلَى مَنْ يَسْأَلُهُمْ ، وَقَالُوا : هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ أَوْ كَذِيبُ الْمَجْمُوعِ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا .

قوله جل ذكره : ﴿لِيَجْزِيَ أُولَٰئِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُضِلُّهُمْ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّقُوا﴾ .

لَمَّا سَمَوْا فِي الدُّنْيَا لَنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّقُوا أَعْمَالَهُمْ ، وَفِي الْآخِرَةِ سَحَلُوا مَعَهُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ .

اتَّصَفُوا بِالْمَكْرِ غَاقٍ بِهِمْ مَكْرُهُمْ ، وَوَقَعُوا فِي حُزْنِهِمْ لَنَبِيِّهِمْ ﷺ ، وَاجْتَرَأُوا بِطُولِ الْإِسْمَالِ ، فَأَنْعَمَ الْمَذَابُ مِنْ مَأْمَنِهِمْ ، وَاسْتَفْلَوْا يَلَهُمْ فَتَقَنَّ عَلَيْهِمْ أَطِيبَ عَيْشِهِمْ :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ بُنِيَ أَرْوَاحَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْمَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

الَّذِي وَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنَ الْإِيمَانِ فَنَعِمَ الْعُقُوبَةُ ، وَفَلَكَ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي التَّوَسُّعِ فِي الْخَطِّابِ .

وَهُوَ سَبَّحَانَهُ يَكْشِفُ اللَّيْلَ بَيِّنَةً ثُمَّ يَأْخُذُ لِلْمَاكِرِ بِمَا يَلِيقُ بِمَكْرِهِ ، وَفِي مَنَاهِ قَالُوا :

وَأَمْسَتْهُ فَأَتَانَحَ لِي مِنْ مَأْمَنِي مَكْرًا ، كُنَّا مِنْ يَأْمَنِ الْأَيَامَا

قوله جل ذكره : ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْإِغْوَى الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ .

في الدنيا عاجلٌ بلائهم ، وبين أيديهم أجله . وخسرة^(١) الفليس تضاعف إذا ما حوسب ، وشاهد حايته .

« قال الذين أوتوا العلم .. : يُسَبِّحُ الكافرين قولَ المؤمنين ، ويبيِّنُ للكافة صدقهم . ويقع النسمُ على جاهلهم^(٢) . وأما اليومُ فعليهم بالصبر والتحمل ، وعن قريب يكشف الظنَّ ، وأشدُّ بهمهم :

خليئٌ لو دارت على رأسي الرُّحى من الذُّلِّ لم أجزع ولم أتكلَّم
وأطرقتُ حتى قيل لا أعرفُ الجفا ولكنني أفصحتُ يومَ التكلَّم

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تتوفاهم لللائكة ﴾ ظالي
أفهم فألقوا السلمَ ما كنَّا نمتلُ
من سوءِ بلى إنَّ اللهَ عليمٌ بما كنتم
تعملون * فادخلوا أبوابَ جِهم
خالدين فيها فليُبشِّرْ مشوى
التكبريين * .

١ « ظالي أنفسهم » : يوتكأب للمعنى وهم الكفار .

« فألقوا السلم » : اقتادوا واستسلموا لحكم الله .

« ما كنَّا نعمل من سوء » : جحدوا وأنكروا ما عملوا من المخالفات .

« بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون » : هكنا قالت لهم لللائكة ، ثم يقولون لهم : « ادخلوا أبواب .. » : وكذلك الذين قصو قوسهم بإعراضهم عن الطاعات إذا نزلت بهم الوفة يأخذون في الجزع والنزع ، ثم لا تطيب قوسهم بأن يُقرُّوا بتفاصيل أعمالهم عند الناس ، فبا يتعلق بإرضاء خصومهم لما أخلوا من معاملاتهم ، ثم الله يؤاخذهم الكبير والصغير ، والتقيير والتطهير ، ثم يبقون أبدًا في وبال ما أحقبوه ، لأن شؤم ذلك يلحقهم في أخراهم .

(١) وودت (مرة) بالهم (وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٢) وودت (جاهدم) بالبدال ، وربما كانت في الأصل (جاسدم) ، فالجمل والمجدد من صفات الكافرين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا خَيْرًا ، الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ
وَلَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ ﴾ .

أما للسُّلُوكِ فإذا وودوا عليهم ، وسألهم عن أحوال محمد — صلى الله عليه وسلم ، وعما
أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ ، قالوا : دينه حقٌّ ، واللهُ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْحَقَّ .. والَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي الدُّنْيَا يُجِزُّونَ
الْغَيْرِ فِي الْآخِرَةِ .

ويقال في هذه الدنيا حسنة ، وهي ما لم من حلاوة الطاعة بصفاء الوقت ويصحُّ أن تكون
تلك الحسنة زيادةً التوفيق لم في الأعمال ، وزيادة التوفيق لم في الأحوال .
ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُوفَّقَهُم بِالْإِسْتِقَامَةِ عَلَى مَا مِمَّ عَلَيْهِ مِنَ الْإِحْسَانِ .
ويصح أن يقال تلك الحسنة أن يُبْلِّغَهُمْ مَنَازِلَ الْأَكْبَرِ وَالسَّادَةِ ،
قال تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا » (١)

ويصح أن تكون تلك الحسنة ما يتعدى منهم إلى غيرهم من بركات إرشادهم للريدين ،
وما يجري على من اتبعهم بما أخفوه وتلموه منهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لأن يتدى
بهذاك رجل خير لك من حمر النعم » (٢) .

ثم قال : « وَلَهُمُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ » ، لأن ما فيها باق ، وليس فيها خطر الزوال . ولأن
في الدنيا مشاهدة وفي الآخرة معاناة (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ

(١) آية ٢٤ سورة الحج .

(٢) سبق يخرج هذا الحديث .

(٣) تهم من هنا أن المائدة أعلى درجة من المشاهدة ، وتهم كذلك أن المشاهدة — وهي تتم
في هذه الدنيا — هي أقصى درجات المراج الوحي عند أصحاب وحدة الشهود ، وكل قول بما يريد من
ذلك خروج عن أصول هذا المذهب ، وقد نرى كثير من الباحثين على الثلاثة والأديان والمذاهب ،
في هذا الحسوس .

تحتها الأنهار لم فيها ما يشاءون
كذلك يجزى الله المتقين ﴿

كما أن الإرادات والمسمّ تختلف في الدنيا فكنك في الآخرة ، وفي الخبر : « من كان بحالة لقي الله بها » فمن يريد يكتفى من الجنة بورودها ، ومن يريد لا يكتفى من الجنة دون شهود رب الجنة .

ويقال إذا شاموا أن يعودوا إلى ما ظهروا من قصورهم ، وما وجدوا في ذلك من محبة اللعين (١) في سائر أحوالهم وأمورهم يعلم ذلك ، ومن شاء أن تدمر رؤيته ، وثأبده سماع خطابه فلم يشاءون فيها ولدينا مزيد ، وهو ما لم ينظر ببال أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين تزفأهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ .

يقبض أرواحهم طيبة . أو يقال « طيبين » حال .

والأسباب التي تطيب بها قلوبهم وأرواحهم مختلفة ، فمنهم من طاب وقته لأنه قد فُتِرَتْ ذنوبه ، وسُتِرَتْ عيوبه ، ومنهم من طاب قلبه لأنه سَلِمَ عليه محبوبه ، ومنهم من طاب قلبه لأنه لم يَنْتَه مطاوعه .

ومنهم من طاب وقته لأنه يعود إلى نوابه ، ويصل إلى حُسن ما به .

ومنهم من يطيب قلبه لأنه أمين من زوال حاله ، وحظي بسلامة ماله (٢) ، ومنهم من يطيب قلبه لأنه وصل إلى أفضاله ، وآخر لأنه وصل إلى لطف جماله ، وثالث لأنه خُصَّ بكشف جماله — قد عَلِمَ كلُّ أناسٍ مشربهم .

ويقال « تزفأهم الملائكة » طيبة نفوسهم أي طاهرة من التندُس بالخطائيات ، وطاهرة قلوبهم عن العلاقات ، وأسرارهم عن الالتفات إلى شيء من المخلوقات .

(١) العين مقصود به إبليس .

(٢) وردت (ماله) والملائكة هنا أن تكون (ماله) .

قوله تعالى : « سلام عليكم » إخطاراً بالجنة ، منهم من يخاطبه بذلك الملك ، ومنهم من يُكاشفه بذلك الملك .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فأصابهم سيئلت ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزون ﴿

القوم ينتظرون مجيء الملك لأنهم لم يعرفوه ولم يستعدوا كونه . ولكن لما كانوا يستعجلون متقدين أن الرسل غير صادقين ، ولما سلّوا^(١) مسلّك أضرابهم من للتقديمين — عوملوا بمثل مالقى أسلافهم ، وما كان ذلك من الله ظلاماً ، لأنه ينصرف في ملكه من غير حكم حاكم عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾

خَبِثَتْ قُصُودُهُمْ فَمَا ظَلَوْا عَلَى وَجْهِ التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ ، وَغَلَبَتْ عَلَى نَفْسِهِمْ ظُلُمَاتُ جَهْلِهِمْ وَجَهْدِهِمْ ، وَانْكَشَفَ عَنْهُمْ صِدْقُهُمْ فِي أحوالهم .

وقولهم : « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . . » يشبه قولهم : « أنظم من لو يشاء الله أطعمه »^(٢) . ولا خلاف أن الله لو شاء أن يطعمهم لكان ذلك .

(١) وودت (سكنوا) وهي غلطاً من النسخ .

(٢) آية ٤٧ سورة يس .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

فَنَهَىٰ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَنَهَىٰ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَنَهَىٰ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ

عَلَيْهِ الصَّلَاةَ فَجِئُوا فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١﴾

لم يتخلر زماناً من الشرع توضيحاً لحجته، ولكن فرقهم في سابق حكمه ؛ فريقياً هدام،
وفرقياً حبيبهم (١) وأمامهم (٢).

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ تَحَرَّيْنا مِنْ عَلى هَدايم فإن الله

لا يَهْدِي مَنْ يَضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ

ناصريين ﴿٢﴾

أزيمهم الوقوف على حدّ العبودية في إرادة هدايتهم ومرفقهم حقائق الربوبية فقال :
إِنَّكَ وَإِنْ كُنْتَ بِأمرنا فحريصاً على هدايتهم ؛ فإن من قَسَمْتُ له الضلال لا يجرى عليه
غير ما قَسَمْتُ له .

ويقال من ألبسته صدار الضلال لا تزرعه وسيلة ولا شفاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنصَرُوا بِاللَّهِ جِهَةً أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ

اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ عَلَىٰ وَعْدٍ عَلَيْهِ حَقًّا

وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

القسم يؤكد الخبر، ولكن بين الكذب توجب ضعف قوله ؛ لأنه كلما زاد في جحد الله
أزحاد القلب فقرة من قوله .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيُعَلِّمَ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٤﴾

(١) وودت (حجبهم) وهى خطأ في النسخ إذ ربما كانت التقطان فوق الباء فتحة في الأصل وتوم
الناسخ أنها تقطان .

(٢) وودت (وأمامهم) والمضى والسياق يرفضها ويتقبل (وأمام) .

إذا بين الله حديق ما ورد به الشرع في الآخرة بكشف الغيب زاد اختضاع أهل
التكذيب فيكون في ذلك زيادة لم في التعذيب .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ
نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

فيكون بالسمع علم تعلق قوله بما يفعله . وتخله قوم على أن معناه أنه لا يتعسر عليه
فعل شيء أواده ، فالآية على القولين جميعاً .

والذي لا يحتاج في فعله إلى مادة يخلق منها لا يفترق إلى مدة يقع الفعل فيها .

وبدل الآية على أن قوله ليس بمخلوق ؛ إذ لو كان مخلوقاً لكان مقولاً له : كن ، وذلك
القول يجب أن يكون مقولاً له بقول آخر . . . وهذا يؤدي إلى أن يتسلسل ما يحصل إلى
مالا نهاية له ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَلَنَجْزِيَنَّ الْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴾ .

من هاجر عن أوطان السوء — في الله — أبداً له الله في جوار أوليائه ما يكون
له في جوارهم مودة على الزيادة في صفاء وقته . ومن هجر أوطان الفلّة مكفه الله من مشاهد
الوصلة . ومن فارق مجالسة المخلوقين ، واقطع قلبه إليه — سبحانه — باستدامة ذكره —
فكما في الخبر : « أنا جالس من ذكرني » . وبداية هؤلاء التروم نهاية أهل الجنة ؛ ففي الخبر
« الفقراء الصابرون جلساء الله يوم القيامة » . ويقال القلب مظلوم من جهة النفس لما تدعوه
إليه من شهواتها ، فإذا هجرها أورث الله القلب أوطان النفس حتى تنقاد لما يطالب به القلب

(١) كلام الله ليس بمخلوق — هنا أصل هام من أصول المذهب الأشعري الذي يعتمد التشعري من
أعظم أنصاره . وقد ناقش هذه القضية بإسهاب في كتابه القيم : « شكايه أهل السنة بحكاية ما نالهم من
الحنّة » . وانظر أيضاً كتابنا (الإمام التشعري : تصوفه وأدبه — فصل : التشعري متكلماً) :

من الطاعة ، فبعد ما تكون أوطان الزُّلَّة بدواعي الشهوة تصير أوطان الطاعة لسهولة أدائها .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

الصبرُ الوقوفُ بحسب جريان القضاء ، والتوكل التوقُّ بالله بحسب الرجال .

ويقال صبروا في الحال ، وتوكلوا على الله في تحقيق الآمال .

ويقال الصبر نصْبُ كسائر المنصور ، والتوكل الثقة في الله في استدفاع المهدور .

ويقال الصبرُ تَجَرُّعُ ما يُسْقَى ، والتوكل الثقة بما يرجو .

ويقال إنما يَتَوَكَّلُونَ على الصبر بما حققوا من التوكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ

إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

تعجبوا أن يكون من البَشَرِ رُسُلًا ، فأخبر أن الرسل كلهم كانوا من البشر ، وأن فيمن سبق من أقرم بذلك . « وأهل الذكر » هم العلماء ، والملاء غنفلون : فالملاء بالأحكام إليهم الرجوع في الاستفتاء من قِبَلِ العوامِ فَمَنْ أَشْكِلَ عليه شيء من أحكام الأمر والنهي يرجع إلى الفقهاء في أحكام الله ، ومن أشبه عليه شيء من علم السلوك في طريق الله يرجع إلى المارفين بالله ، فالفقيه يوقِّع عن الله ، والعارف ينطق — في آداب الطلب وأحكام الإرادة وشرائط مصتها — عن الله ، فهو كما قيل : (أليس حقًا نطقت بين الوري فاشتهرت ، كلشفا يعلم ما من عليها فجرت ، فهي عنه به عينيه قد ظهرت)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ

الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي إن البيانَ إليك ، فأنت الراسطة بيننا وبينهم ، وأنت الأمين على وحينا .

(١) ما بين القوسين نقلناه كما هو من النص ، وربما كان شاهداً شامراً منطرب الكتابة .

قوله جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَاحْشَوْهُمْ يَوْمَ يُصْعِقُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

المبدء في جميع أحواله عرصةٌ لبيهم التقدير، فينبغي أن يستشر الخوف في كل نفس من الإساءة بها، والألم يأمّن مكر الله في أي وقت، وأكثر الأسمّة تصل في الموطاة نفوسهم وقلوبهم على ما عودهم الحق من عوائد اللئنة، ولكن كما قيل:

يَا رَاقِدَ اللَّيْلِ مَسْرُوراً بِأَوَّلِهِ إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقُنَ أَسْحَاراً^(١)

قوله جل ذكره: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ

شَيْءٍ يَتَّبِعُونَ ظِلَّاهُ عَنِ الْعَيْنِ

وَالشَّيْءُ لَإِنْ سَجَدًا فَهُمْ حَاظِرُونَ﴾

كل مخلوق من عين أو أثر، من حجر أو مدبر أو غير فله — من حيث البرهان — ساجد، ومن حيث البيان على الوحداية شاهد .

قوله جل ذكره: ﴿وَقُلْ يَسْجُدْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ

وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .

ذلك سجود شهادة لا سجود عبادة، فإذا امتنعت عن إطاعة الشهادة لقوم ظالة، فقد شهد كل جزء منهم من حيث البرهان والدلالة .

قوله جل ذكره: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ

مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

يخافون الله أن يُنزلَ عليهم عذاباً من فوق رهوسهم .

(١) كان عبد الحميد الككوف كثيراً ما ينتقل بهذا البيت في قصصه (الحيوان ج ٦ ص ٥٠٨) .

« ويضلون ما يؤمرون » لا يصبونه ولا يحميهم عن طاعته .

ويقال خيرُ شيءٍ للعبد في الدنيا والآخرة الخوف ؛ إذ يمنحه من الزَّلة ويحميه على الطاعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخَفُوا إِنِّي مِتُّنِ

إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَأَيُّ فَارِهِيُونَ .

وله ما في السنوات والأرض ﴾

الحاجة إلى إثبات صانع واحد داعية ، وما زاد على الواحد (فلا . . .)^(١) فيه مساوية .

ويقال إثبات الواحد ضرورة ، وقُدرةُ الاثنين محصورة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي وَاصِبًا أَفَنِيَ اللَّهُ تَتَقُونَ ﴾

له الدين خالصاً وله الدين دائماً وله الدين ثابتاً ، فالطاعة له واجبة . فلا تنفوا غيره ، وأطيعوا شرعه بخلاف هواكم ، وعبدهوا وحده ، واستجيبوا له في السرِّ والعلانية .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

النعمة ما يقرب العبد من الحق ، فأمّا ما لا يوجب النسيان والطفيلان ، والغفلة والمصيان فأولى أن يكون عبدة .

ويقال ما للعبد فيه نعم ، أو يحصل به لشر منع فهو على أصح القولين نعمة ؛ سواء كان دينياً أو دنيوياً ، فالعبد مأمور بالشكر على كل حال . وأكثر الناس يشكرون على نعم الإحسان ، « وقليل من عبادة الشكور »^(٢) على كل حال .

وفائدة الآية قطع الأسرار عن الأغيار في حالتي البشر والبشر ، والثقة بأن الخير والشر ، والنعم والضرر كلاهما من الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوُونَ ﴾

إذ ليس لكم سواء ؛ فإذا أظلت العبد هواجهم الاضطراب التجأ إلى الله في استدفاع

(١) بقية الكلمة مشتبهة .

(٢) آية ١٣ سورة سبأ .

ما منه من البلاد ثم إذا من الحق عليه ، وجاد عليه بكشف بلائه صار كأن لم يمه سوء ،
أو أصابه هم كما قيل :

«كأن الفنى لم يمر يوماً إذا اكسى ولم يك صلوكاً إذا ما تمولا»^(١)

وقال :

﴿ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ
إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

الخطاب علم ، وقوله « منكم » : لأن القوم منهم

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَسَّعُوا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

في هذا تهديد أى أنهم سوف يندمون حين لا تنفع لهم ندائهم ، ويستندون حين لا يقبل لهم عذر . . . وَمَنْ ذَرَعَ شَرًّا فَلَنْ يَحْصُدَ إِلَّا جَزَاءَ عَمَلِهِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَمْلِكُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
قُلْ تِلْكَ أَعْيُنُكُمْ أَلَمْ تُبْصِرُوا فَمَا تَعْلَمُونَ ﴾

أى يجعلون لما لا يملكون — وهى أصنامهم التى ليس لها استحقاق العلم — نصيباً من
أرزاقهم ، فيقولون هذا لم وهذا لشركائنا .

« تالله » أقسم أنهم سيلتقون عقوبة فعلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَمْلِكُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
قُلْ تِلْكَ أَعْيُنُكُمْ أَلَمْ تُبْصِرُوا فَمَا تَعْلَمُونَ ﴾

من فرط جهلهم وصفوا المعبود بالولد ، ثم زاد الله فى خفلاتهم حتى قالوا : للالهة بنات
الله . وكانوا يكرهون البنات ، فرضوا الله بما لم يرضوا لأنفسهم . ويلتحق هؤلاء فى استحقاق

(١) تقول أى نال له .

الدم كلُّ من آثر حظَّ نفسه على حقِّ مولاه ، فإذا فعل ماله فيه نصيبٌ وغرضٌ كان مضموم الوصف ، ملوماً على ما اختاره من الفعل .

ثم إنه عابهم على قبيح ما كانوا يفعلونه وينصفون به من كراهة أن تولد لهم الإناث فقال :

﴿ وَإِلَّا بُشِّرْ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ نَقْلٌ
 وجهه مُسَوِّدًا وهو كظيم • يتوَكَّرُ
 من القوم من سوء ما يُبشِّرُ به أُنْثَىٰكَ
 على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ
 أَلَا سَكَّةَ مَا يَعَكُّونَ ﴾

استولت عليهم رؤية انطلق^(١) ، وملكتهم الحيرة ، فحَفِقُوا على البنات مما يلحقهم عند تزويجهم وتمكين البطلان فيهن . . . وهذه نتائج الإقامة في أوطان التفرقة ، والنية عن شهود الحقيقة .

ثم قال : « أيسر على هون » أي ييسر المولود إذا كان أنثى على مدَّة ، « أم يدسه في التراب » لموت ؟ وتلك الجفوة في أحوالهم جعلت — من قسوة قلوبهم في أحوالهم — العقوبة أشدَّ مما كانت بتجليلها لهم . وجعلهم فرط غيظهم ، وفقد رضائهم ، وشدة خنقهم على من لا ذنب له من أولادهم — من أهل النار في دَرَكَاتِ جهنم ، ونكدُ عليهم الوقت ، واستولت الوحشة .. ونودى الله من السَّلْ السَّوَدِ !

قوله جل ذكره : ﴿ فَذَيْنِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَدِ

وَقَدْ مَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ •
 ولو يؤاخذ الله النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ
 ما تركَ عليها من دَابَّةٍ وَلَكِنْ

(١) أي نشئت رؤيتهم حين لم ينظروا إلى الحائق واستبدلوا ذلك بأن نظروا لمطلوق . . . وهذه صفة هل التفرقة والنية — كما سيأتي بعد .

يُؤْخِرُهُم إِلَى الْيَوْمِ مَتًى فَإِذَا جَاءَهُ
الْجَبَلُ لَا يَنْتَصِرُونَ سَاعَةً
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٠﴾

مَثَلُ السُّوءِ الْكَفَّارِ الَّذِينَ يَجْعَلُوا تَوْحِيدَهُ فَلَهُمْ صِفَةُ السُّوءِ .
وَلَهُ صِفَاتُ الْجَلَالِ وَنُصُوتُ الْعِزِّ ، وَمِنْ عَرَفَتْهُ بِنَمَتِ الْإِلَهِيَّةِ نَمَتَ سَعَادَتِهِ فِي الْفَارَيْنِ ،
وَتَسَجَلَتْ وَاحِدَتُهُ ، وَتَنَزَّاهُ مِيرُهُ عَلَى الدَّوَامِ فِي رِطَافِ عِرْفَانِهِ ، وَطَرِبَتْ رُوحُهُ أَوَّلًا
فِي هَيْجَانِ وَجْدِهِ .
أَمَّا الَّذِينَ وَجَّهُوا بِالشَّرِكِ فِي عَقُوبَةِ مُجَبَّلَةٍ وَهَمُومِ مُخَصَّلَةٍ . « وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ . . . »
أَيُّ لَوْ عَالَمِهِمْ بِمَا اسْتَحَقُّوا عَاجِلًا لَحُلَّ الْاِسْتِصَالُ بِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْحُكْمَ سَيَقُ بِأَمْرِهِمْ ،
وَسَيَقْفُونَ غَيْبَ أَعْمَالِهِمْ فِي مَا لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَجْعَلُونَ اللَّهُ مَا يَكْفُرُونَ ﴾ وَتَصِفُ
الْاِسْتِصَالُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحَسَنَ
لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴿٤١﴾
اِغْتَدَعُوا لِمَا لَانَ لَهُمُ الْعَيْشُ ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ يَنْجُونَ ، وَمَا يُؤْمَلُونَ بِهِمْ بِحَيْطُونٍ ؛ فَحَسَنَتْ
فِي أَعْيُنِهِمْ حَالُ صِفَاتِهِمْ ، وَيَوْمَ يُكْشَفُ النَّظَارُ عَنْهُمْ يَضُوفُونَ بِنَوَاحِدِ الْحَسْرَةِ عَلَى أَنْطَلِ
الْطَّبِيعَةِ ، فَلَا تَسْمَعُ مِنْهُمْ دَعْوَةً ، وَلَا تَعْلُقُ بِأَحَدِهِمْ رَحْمَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ تَأْتِيهِمْ لَقْدَأْرُسُكُنَا إِلَى أَمْرِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾
فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَبُورِثِهِمْ
الْيَوْمَ وَلَمْ عَذَابُ الْيَمِّ ﴿٤٢﴾ .

أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى حِجَةِ التَّنْصِيَةِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ مَنْ
تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ كَانُوا فِي سُلُوكِ الضَّلَالَةِ ، وَالْاِنْخِرَافِ فِي سِلْكِ الْإِهْلَاقِ كَمَا كَانُوا مِنْ قَوْمِهِ ،
وَلَكِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ - لَمْ يَجْزِ عَنْهُمْ . وَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ لَأَمَّتْهُ ، وَكَانَ وَلِيًّا لَهُمْ ، فَبُورِثَهُ
وَلِيًّا هَوْلَاءَ . وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَاللَّهُ وَلِيُّهُمْ ، وَالْكَافِرُونَ لَا مَوْلَى لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب

إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه

وهدى وحده ليقوم يؤمنون ﴾ .

أنت^(١) الواسطة بيننا وبين أوليائنا ، ولك البرهان الأعل والنور الأوفى ؛ تُبَيِّنُ عَنَّا
وتُؤَدِّي مَنَّا ، فأنت رحمة أرسلناك لأولياتنا . . فَمَنْ تَبِعَكَ اهْتَدَى ، وَمَنْ عَصَاكَ
فَفي هَلَاكِهِ سَى .

قوله جل ذكره : ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به

الأرض بعد موتها إِنَّ في ذلك لآية

لقوم يسمعون ﴾ .

أحيا بماء التوفيق قلوب المابدين بَجَنَحَتْ إلى جانب الوفاق ، وأحيا بماء التحقيق أرواح
المعارفين فاستروحت على بساط الوصال ، وأحيا بماء التجريد أسرار الموحدين فتحررت
من رِقِّ الأَثَارِ ، وانفردت بمضائق الانصال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ لَكُمْ في الأنعام لَعِبْرَةٌ لِّسِيِّكُمْ

عَمَّا في بَطُونِهِ من بين فَرَقٍ وَدَمٍ

لَبَنًا خَالِصًا سَائِمًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ .

سَخَّرَهَا لَكُمْ ، وهياها للارتفاع بلحمها وشحمها ، وجلبها وشعرها ودرمها ،
وأصلها ونسبها . ثم عجيب ما أظهر من قدرته من إخراج اللبن - مع صفائه وطعمه ونفعه -
من بين الروث^(٢) والدم ، وذلك تقدير العزيز العليم . والذى يقدر على حفظ اللبن بين الروث
والدم يقدر على حفظ للمعرفة بين وخشة الزُّلَّةِ من وجوها المختلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ

تَتَخَنُّونَ مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا

إِنَّ في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾

(١) وردت (آية) وهي خطأ في النسخ .

(٢) الفرث والروث بقايا الطعام .

مَنْ عَلَى الْعِبَادِ بِمَا خَلَقَ لَمْ مِنْ فَنُونَ الْإِنْتِفَاعِ بِشِمَارَاتِ النَّخِيلِ كَالْقَمَرِ وَالرُّطْبِ وَالْيَابِسِ ..
وغير ذلك .

والرزق الحسن ما كان حلالاً . ويقال هو ما أتاك من حيث لا تحسب ، ويقال هو
الذى لا نيةً لمخلوق فيه ولا تبعاً عليه .

ويقال هو ما لا يسمى الله مكتسباً في حال اكتسابه .

ويقال هو ما لا ينسب الله فيه مكتسباً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْحِ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي

مِنَ الْجِبَالِ بَيْوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ

وَمَا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ

الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا

يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ ﴿

أوحى إلى النحل : أراد به وحي إلهام .. ولما حفظ الأمر وأكل حلالاً ، طاب ما كله
وجعل ما يخرج منه شفاء للناس .

ثم إن الله — سبحانه — عرَّفَ الخلق أنَّ التفضيل ليس من جهة القياس والاستحقاق ؛
إذ أن النحل ليس له خصوصية في القامة أو الصورة أو الزينة ، ومع ذلك جعل منه السِّلَ
الذى هو شفاء للناس .

والإنسان مع كمال صورته ، وتعلم عقله وفطنته ، وما اختلف به الأنبياء عليهم السلام
والأولياء من اختصاص جعل فيهم من الوحشة ما لا يخفى .. فأى فضيلة للنحل ؟ وأى ذنب
للإنسان ؟ ليس ذلك إلا اختياره — سبحانه .

ويقال إن الله — سبحانه — أجرى سُنَّتَهُ أَنْ يُخَفِّيَ كُلَّ شَيْءٍ عَزِيزٍ فِي شَيْءٍ حَقِيرٍ ؛

فجعل الإبريسم^(١) في النود وهو أضف الحيوانات ، وجعل العسل في النحل وهو أضف الطيور ، وجعل الدرقي الصدف وهو أوحش^(٢) حيوان من حيوانات البحر ، وكذلك أودع الذهب والفضة والنهروذج في الحجر ... كذلك أودع المعرفة به والمحبة له في قلوب المؤمنين وفيهم من يصي وفيهم من يحطى^(٣) .

قوله جل ذكره . ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يَرْدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

خَلَقَ الإنسانَ في أحسن تركيب ، وأملح ترتيب ، في الأعضاء الظاهرة والأجزاء الباطنة ، والنور والضياء ، والفهم والدكاء . وَرَزَقَهُ من العقل والتفكير ، والطم والتبصر ، وفتون للناقب التي خُصَّ بها من الرأى والتدبير ، ثم في آخر عمره يجعله إلى أَرْدَلِ العمر مردوداً ، ويرى في كل يوم أَلَمًا جديدًا .

ويقال « منكم من يرد إلى أَرْدَلِ العمر » : وهو أن يرد إلى الخذلان بعد التوفيق ؛ فهو يكون في أول أحوال عمره مطيعاً ثم يصير في آخر عمره عاصياً .

ويقال أَرْدَلِ العمر أن يرغب في عتفوان شبابه في الإرادة ، ويسلك طريق الله مدة ، ثم تقع له فترة ، فينسخ عقد إرادته ، ويرجع إلى طلب الدنيا . وعند التوفيق هذه ردة في هذا الطريق .

ويقال أَرْدَلُ العمر رغبة الشيخ في طلب .

ويقال أَرْدَلُ العمر حُبُّ المرء للرياسة .

(١) الإبريسم = أحسن الحبر (مرب) (الوسيط - ١ ص ٢) .

(٢) هنا مستأما أجبر الحيوان ، من قولهم بات وحشاً أى جاثماً لم يأكل شيئاً خلا جوفه (الوسيط ج ٢ ص ١٠٠٩) .

(٣) يلسم اتجاه القسري في هذه الإشارة مع السياق القرآن . . إذ يأتي بعد قليل : « والله فضل بضم على بض في الرق » .. وفضل الله بلا حة .

ويقال أرذل العمر اجتماع الظالم على الرجل وألا يُرثي خصومة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ فَضْلُ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ
فِي الرِّزْقِ فَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَأْدِي
رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ
فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾

أرزاق المخلوقات مختلفة ؛ فَمِنْ مَصْنُوعٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَمِنْ مُوسَّرٍ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ،
وَمِنْ أَرْزَاقٍ هِيَ أَرْزَاقُ النُّفُوسِ ، وَأَرْزَاقُ الْقُلُوبِ وَأَرْزَاقُ الْأَرْوَاحِ ، وَأَرْزَاقُ
لِلْأَسْرَادِ ؛ فَأَرْزَاقُ النُّفُوسِ لِقَوْمِ بَتُوفِيقِ الطَّاعَاتِ ، وَلِآخَرِينَ بِخِفْلَانِ الْمَالِ . وَأَرْزَاقُ
الْقُلُوبِ لِقَوْمِ حُضُورِ الْقَلْبِ بِاسْتِدَامَةِ الْفِكْرِ ، وَلِآخَرِينَ بِسَيْلَاءِ الْخُفَّةِ وَدَوَامِ الْقِسْوَةِ . وَأَرْزَاقُ
الْأَرْوَاحِ لِقَوْمِ صِفَاءِ الْحُبِّ ، وَلِآخَرِينَ لِاشْتِفَالِ أَرْوَاحِهِمْ بِالْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَفْكَالِهِمْ ، فَيَكُونُ
بِلَاؤُهُمْ فِي مُحِبَّتِهِمْ لِأَمْثَلِهِمْ . وَأَرْزَاقُ الْأَسْرَادِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمُشَاهَدَةِ الْحَقِّ ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ
يَكُنْ مِنْ هَذِهِ الْجَمْعَةِ فَلَيْسَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَسْرَادِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾

شَقَّلَ الْخَلْقَ بِالْخَلْقِ لِأَنَّ الْجِنْسَ أَوَّلَى بِالْجِنْسِ . وَلَمَّا أَرَادَ الْحَقُّ — سبحانه — بقاء
الْجِنْسِ هَيَأَ سَبَبَ التَّنَاسُلِ وَالتَّنَاسُلِ لَاسْتِيفَاءِ مِثْلِ الْأَصْلِ . ثُمَّ مَنَّ عَلَى الْبَعْضِ بِخَلْقِ الْبَنِينَ ،
وَابْتَلَى قَوْمًا بِالْبَنَاتِ — كُلُّهُ بِتَقْدِيرِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَقْبَابًا بِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِشَعْرِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

والرزق الطيب لبدي ما يستطيه نفسه ، وآخر ما يستطيه مبره .
فهم من يستطيه مأكولاً ومشروباً ، ومنهم من يستطيه خفوةً وصفوةً ... إلى غير
ذلك من الأرزاق .

« أفتالباطل يؤمنون » ، وهو حسيان حصول شيء من الأغيار ، وتعلق القلب بهم استكفاه منهم أو استنطاقاً لمفهوم أو استجلاباً لمحبوب .

« وبنعمة الله هم يكفرون » والنعمة التي كفروا بها هي الثقة بالله ، وانتظار الفرج منه ، وحسن التوكل عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسبون من دون الله ملا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾

وَمَنْ يَتَمَلَّقُ بِشَخْصٍ أَوْ بِسَبِّ مُضَاهٍ^(١) لِعِبَادِ الْأَصْنَامِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَضَعُ وَقْتَهُ فَبِهَا لَا يُعِينُهُ ، فَارْزُقْ ، مِنْ اللَّهِ — فِي التَّحْقِيقِ — مُقَدَّرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تفسرُوا اللهَ الأمثالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

كَيْفَ تُفَسِّرُ الْأَمْثَالَ لِمَنْ (لَا)^(٢) يَسَاوِيهِ أَحَدٌ فِي الْذَاتِ وَالصِّفَاتِ وَأَحْكَامِ الْأَصْنَافِ ؟ وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْحَقِّ مِنْ حَيْثُ الْخَلْقُ^(٣) وَقَعَ فِي ظِلْمَاتِ النَّشِيءِ ، وَبَقِيَ مِنْ مَعْرِفَةِ الْمَعْبُودِ .

قوله جل ذكره : ﴿ صَرَّبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ رِزْقِناهُ مُنًى رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

شِبْهَ الْكَافِرِ بِالْعَبْدِ الْمَلُوكِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَلَا مِلْكٌ لَهُ فِي الشَّرْعِ ، وَالْمُؤْمِنِ الْمُخْلِصِ بَيْنَ رِزْقِهِ الْخَيْرَاتِ وَوَقْتِهِ إِلَى الطَّاعَاتِ ثُمَّ وَعْدِهِ الثَّوَابِ وَحُسْنِ الْمَالِ عَلَى مَا أَفْقَهُ .

(١) في الهامش هكذا ، بينما هي في النص (مضاه) ، والصواب ما جاء في الهامش أي مماثل .

(٢) سقطت (لا) والمضارع يظلمها .

(٣) أي من حيث صفاته بالخلق ، ومناظرته بالمدخل .

ثم نفى عنها المساواة إذ ليس مَنْ كان بنفسه ، ملاحظاً لأبناء جنسه ، متبادياً في حسابان
مفاليطة كمن كان مدركاً برئه مصطلماً^(١) عن شاهده ، غائباً عن غيره ، والمجري عليه
ربه ولا حول له إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا
أَبْكُمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ
يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ؟ ﴾

هذا المثل أيضاً للمؤمن والكافر ؛ فالكافر كالباطل الأبكم الذي لا يجيء منه شيء ،
ولا يحصل منه نفع ، والمؤمن على الصراط المستقيم يتبرأ عن حوله وقوته ، ولا يعترف
إلا بطله — سبحانه — وميته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ،
وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴾

استأثر الحق — سبحانه — بلم النبيات ، وسرها على الخلق ؛ فيخرج قوماً في الصلاة
ثم ينقلهم إلى صفة الولاية ، ويقيم قوماً برقم المداوة ثم يردم إلى وصف الولاية . . فالمواقب
مستورة والغوايم مبهمة ، والتخلق في غفلة عما يراد بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أَمَا نَكُمُ
لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّنْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(١) الاجتهاد : لغة قلبه قد هلى القول ليستلها بقوة سلطانه وقهره (البحر ص ٥٠) .

خَلَقَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ شَاوَرَهُمْ ، وَأَتَيْنَهُمْ — عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي أَرَادَهُ — دُونَ أَنْ يُحَرِّمَ ، وَلَمْ يَطْلُبُوا بِمَاذَا سَبَقَ حُكْمُهُمْ . . أَبَا لِسَادَةِ خَلْقِهِمْ أَمْ عَلَى الشَّقَاوَةِ مِنَ الْعَدَمِ أَخْرَجَهُمْ مِنْ بَطْنِ أُمّهَاتِهِمْ؟ فَلَا صَلَاحَ أَنْفُسِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَلَا صِفَةً رُبِّهِمْ عَرَفُوا ثُمَّ بِحُكْمِهِ الْإِلَهَامِ هَدَاهُمْ حَتَّى قَبِلَ الصَّبِيُّ نَدَى أُمّه وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّمَهُ تَعْرِيفٍ أَوْ تَخْوِيفٍ أَوْ تَكْلِيفٍ أَوْ تَعْنِيفٍ .

« وَجِلَّ لَكُمْ السَّمْعَ » : لَتَسْمَعُوا خُطَابَهُ ، « وَالْأَبْصَارَ » لَتُبْصِرُوا أَعْصَالَهُ ، « وَالْأَنْفُسَ » لَتَعْرِفُوا حَقَّهُ ، ثُمَّ لَتَشْكُرُوا عَظِيمَ إِعْصَامِهِ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحَوَاسِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسْتَغْرَاتٍ فِي جَوْءِ

السَّمَاءِ مَا يُصَيِّكُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الطَّائِرُ إِذَا حَاقَتْ فِي الْمَوَاءِ يَبْقَى كَالْوَاقِفِ وَلَا يَسْقُطُ ، وَقَدْ قَامَتْ إِلَهْلَاةٌ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ — صَبِيحَانَهُ — مُتَفَرِّدٌ بِالْإِبْجَادِ ، وَلَا يَفْرُجُ حَادِثٌ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلَالَةٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ صَبِيحَانَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ

سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُودِ الْأَعْنَامِ

بُيُوتًا تَسْكُنُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ

إِقَامَتِكُمْ ، وَمِنْ أَصْوَانِهَا وَأَوْبَارِهَا

وَأَشْمَارِهَا أَثَنَاءَ مَا كُنْتُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ .

لِلنَّفُوسِ وَطْنٌ ، وَلِلْقُلُوبِ وَطْنٌ . وَالنَّاسُ عَلَى قَسَمَيْنِ مُسْتَوِطِنٌ وَمَسَافِرٌ : فَكَأَنَّ النَّاسَ بِنَفْسِهِمْ يَخْتَلِفُونَ فَكَذَلِكَ يَتَلَوَّهْمُ ، فَالْمُرِيدُ أَوْ الطَّالِبُ مَسَافِرٌ بِقَلْبِهِ لِأَنَّهُ يَسْكُونُ ، وَيَبْرَحُ مِنْ دَرَجَةٍ إِلَى دَرَجَةٍ ، وَالْمَارِفُ مَقِيمٌ وَمُسْتَوِطِنٌ لِأَنَّهُ وَاصِلٌ مُتَمَكِّنٌ وَالطَّرِيقُ مَنَازِلٌ وَمَرَاحِلُ ، وَلَا تَقْطَعُ تِلْكَ الْمَنَازِلُ بِالنَّفُوسِ وَإِنَّمَا تَقْطَعُ بِالْقُلُوبِ ، وَالْمُرِيدُ سَائِلٌ وَالْمَارِفُ وَاصِلٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا

وجعل لكم من الجبال اكسافاً
وجعل لكم سراًبيل قبيك الحر
وسراييل قبيك بأسمك كذلك يُسم
نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴿

في الظاهر جعل لكم من الأشجار والسقوف ومحوها غللاً . . كذلك جعل في ظل عنايته
لأوليائه مثوىً وقراراً .

وكما سترَ ظواهركم بسراييل قبيك الحر وسراييل قبيك بأسم عودكم - كذلك ألبس
سراوتكم لباساً يلفكم به في السراء والضراء ، ولباس المصمة يحميكم من غائلته ، وأظلمكم
بظلال التنويق مما يحصلكم على ملازمة عبادته ، وكماكم بحلل الوصل مما يؤهلكم
قربته ومحبته .

قوله : « كذلك يتم نعمته عليكم . . » ، إتمام النعمة بأن تكون عاقبتهم محنومة بالخير ،
ويكفيهم أمور الدين والدنيا ، ويصونهم عن اتباع الهوى ، ويُسدّد لهم حتى يؤثروا ما يوجب
من الله الرضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ
الْمُبِين ﴾ .

إذا بلغت الرسالة فاجعلنا إليك ^(١) حكم الهداية والضلالة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَغْرِفُونَ نَسَمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُفْسِكُونَهَا
وَكَثُرُ السَّكَافِرِينَ ﴾ .

يَسْتَوْفُونَ إِلَى الطاعة ، فإذا فطروا أَعْيَبُوا بها ^(٢) .

(١) وردت (إيسم) والخطاب موجه إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فالصواب (إليك) .

(٢) في هذا المبدد يتنزل القصيرى عن شبيهه المطلق قوله (لما دخل الراسطى نيسايور سأل أصحاب أبي
حنان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ .

فقالوا : كان يأمرنا بالقيام بالطاعات ورؤية التقصير فيها .

فقال : ملا أمركم بالنية منها برؤية ملتصقها وبجرها ؟ (الرسالة ص ٣٤ .

وقال يستغيثون ، فإذا أجابهم قصروا في شكره .

وقال إذا وقعت لم عنة استجاروا بهم ، فإذا أزال عنهم تلك المحن سوا ما كانوا فيه من الشدة ، وطلخوا إلى قبيح ما أسلفوه من أعمالهم التي أوجبت لهم تلك الحالة .
وقال يرفون في حال توبتهم ففتح ما كانوا فيه في حال زلتهم ، فإذا قضوا توبتهم صلوا كأنهم لم يعرفوا تلك الحالة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ نَبْتَلُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَيْئاً ﴾
ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعجبون .

إذا كان يوم الحشر سأل الرسل عن أحوال أممهم ، فن نطق بصيغة أكرم ، ومن لم يبدل بصيغة لا تراعى له حرمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ﴾
فلا يصف عنهم ولا هم ينظرون .
أى يشدد عليهم الأمر ولا يسهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾
قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كننا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون .

نمنا أن يفتقروا من إخوانهم الذين طشروهم ، وحلوم على الزلة ، فيتبرأون من شركائهم ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وتضيق صدورهم من بعض .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ ﴾
عنهم ما كانوا يفترون .

استسلموا لأمر الله وحكمه ، ويومئذ لا تضرع منهم يري ، ولا عنة — يصرخون من ويلها — عنهم تكشف

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نَبِّئْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

تأني — يوم القيامة — كل أمة مع رسولها ، فلا أمة كذبه الأمة فضلاً ، ولا رسول كرسولنا صلى الله عليه وسلم رتبة وقدرًا .

« ونزلنا عليك الكتاب » أي القرآن تبياناً لكل شيء ، فيه للؤمنين شفاء ، وهو لهم نضياء ، وعلى الكافرين بلاء ، وهو لهم سبب عنة وشقاء .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

العدل ما هو صواب وحسن ، وهو قبيض الجور والظلم .

أمر الله الإنسان بالعدل فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين خلقه ؛ فالعدل الذي بينه وبين نفسه منعه عما فيه هلاكها ، قال تعالى : « ونهى النفس من الهوى » (١) ، وكأل عدله مع نفسه كي عروقي طمعه .

والعدل الذي بينه وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضا مولاه على ما سواه ، والتجرد من جميع المزاجير ، وملازمة جميع الأوامر .

والعدل الذي بينه وبين الخلق يكون ببذل النصيحة وترك إغواية فيما قل (٢) أو أكثر ، والإنصاف بكل وجه وألا تثنى إلى أحد بالقول أو بالفعل ، ولا يلهم أو العزم .

(١) آية ٤٠ سورة التناجات .

(٢) وردت ١ كل بالكاف وهي خطأ من الناسخ .

وإذا كان نصيبُ العوامِ يَدُلُّ الإِنصافَ وَكَفَّ الأذى فَإِنَّ صفةَ الخواصِّ تَرَكُّ
الاتصافَ، وإِسداءُ الإنعامِ، وتركُ الانتقامِ، والصبرُ على تحمُّلِ ما يُصيبُكَ من البلوى .

وأما الإحسانُ فيكونُ بمعنى العلمِ — والعلمُ مأمورٌ به — أى العلمُ بمحدثِ نفسه، وإثباتِ
مُحدثِهِ بصفاتِ جلالهِ، ثم العلمُ بالأُمورِ الدينيةِ على حسب مراتبِها . وأما الإحسانُ فى الفعلِ
فالمُحسنُ منه ما أمر الله به، وأُذِنَ لنا فيه، وحُكِمَ بمدحِ فاعله .

ويقالُ الإحسانُ أن تقومَ بكلِّ حقٍّ وَجَبَ عليك حتى لو كان لطيفٍ فى مِلِكِكَ ،
فلا تقصر فى شأنهِ .

ويقالُ أن تَقضى ما عليك من الحقوقِ وألا تَقْتَصِرَ على حقٍّ من أحدٍ .

ويقالُ الإحسانُ أن تتركَ كُلَّ ما لَكَ عندَ أحدٍ، فأما غير ذلك فلا يكونُ إحسانًا . وجاء
فى الظهير : « الإحسانُ أن تعبدَ اللهَ كأنك تراه » وهذه حالُ المشاهدةِ التى أشار إليها التوم .

قوله : « وإِيتاءُ ذى القربى » إعطاءُ ذى القرباةِ، وهو صلةُ الرَّحمِ، مع مُقاساةِ ما منهم من
الجورِ والجفاءِ والحسرةِ .

ينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ : وذلك كُلُّ قبيحٍ مزجورٍ عنه فى الشريعةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ

وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا

وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ

اللَّهَ يَلْمِ مَا تَعْمَلُونَ ﴾

يُفْرَضُ على كافَّةِ المسلمين الوفاءُ بعهدِ اللهِ فى قبولِ الإسلامِ والإيمانِ ، فحُبُّ عليهم
استدامةُ الإيمانِ . ثم لِكُلِّ قومٍ منهم عهدٌ مخصوصٌ عاهدوا اللهَ عليه ، فهم مُطَالَبُونَ
بالوفاءِ به ؛ فإِذَا هُدِ عَهْدُهُ أَلَا يَرْجِعْ إِلَى الدُّنْيَا ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَى ما تَرَكَ مِنْهَا فَقَدْ تَقَضَّى عَهْدَهُ
وَلَمْ يَفِ بِهِ . والى ما بعدَ عاهدِهِ فى تَرْكِ الهوى . والمريدُ عَاهَدَهُ فى تَرْكِ العادةِ ، وآثَرَهُ بكلِّ وجهٍ .
والعارفُ عَهْدَهُ التَّجَرُّدَ ، وإنْ كُتِرَ ما سِوَاهُ . والمحِبُّ عَهْدَهُ تَرْكُ نَفْسِهِ مَعَ كُلِّ وجهٍ ^(١) .

(١) إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » .

وللوحّد عهدُه الانتحاه^(١) عنه ، وإفراذه إياه بجميع الوجوه واللبد منهي^٢ عن قصير عهده ،
مأمور^٣ بالرفاء به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَظَتْ غَزَلُهُمْ مِنْ
بَدَنِهِمْ فَمَثَلُوا وَكُنْتُمْ لَكِبًا ﴾^(٤)
دَخَلًا يَنْفَكُ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ
مِنْ أَرَبٍ مِنْ أُمَمٍ ۖ

مَنْ نَقَظَ عَهْدَهُ أَفْسَدَ بَآخِرَ أَمْرِهِ أَوَّلُهُ ، وَهَدَمَ بِفَيْدِهِ مَا أَسَّسَهُ ، وَقَلَعَ بِيَدِهِ مَا غَرَسَهُ ،
وَكُنْ كَنْ قَطَعْتَ غَزْلَهَا مِنْ بَدَنِ قُوَّةِ أَنْكَائِهَا^(٥) ، أَى مِنْ بَدَنِ مَا أَمْرَتْ قَتْلَهُ .

وَإِنَّ السَّالِكَ إِذَا وَقَفَ لَهُ قَفْرَةٌ ، وَالْمُرِيدَ إِذَا حَصَلَتْ لَهُ فِي الطَّرِيقِ وَقْفَةٌ ، وَالْعَارِفَ إِذَا
حَصَلَتْ لَهُ حُجْبَةٌ^(٦) ، وَالْمُهَبَّ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ فَرْقَةٌ — فَهَذِهِ يَحْنُ عَظِيمَةٌ وَمَصَائِبُ لُجْبَةٌ ،
فَكَاقِبِلْ :

فَلَا بُدَّ لَكَ عَلَى الْهَلَالِ تَأَسُّفًا خَوْفَ الْكَسُوفِ عَلَيْهِ قَبْلَ تَمَامِهِ

فَا هُوَ إِلَّا أَنْ تُكْشَفَ كُمُتُهُمْ ، وَيَنْطَلِقَ — فِي الْبَلَاءِ الظُّلُمَاءُ — سِرَاجُهُمْ ، وَيَنْشَقَّتْ مِنْ
السَّمَاءِ ضِيَاءُ نَجْمِهِمْ ، وَيَصِيبُ أَزْهَارُ قَسِيمِهِمْ وَوَبِيعَ لِعَصَارِهِمْ فِيهِ بَلَاءٌ شَدِيدٌ ، وَعَذَابٌ
أَلِيمٌ . فَإِنَّ الْحَقَّ — سِيحَانَهُ إِذَا أَرَادَ بِقَوْمٍ بَلَاءً فَكَأَيُّ قَوْلٍ : « وَقَلْبٌ أَقْنَسَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
كَأَيُّ مَنَاقِبِهِ أَوْلَمَرَةٍ^(٧) » فَإِنَّ أَثَارَ سُلْطَانِ الْمُلُوكِ مُوجِبَةٌ ، وَقِصَّةُ إِعْرَاضِ السُّلْطَانِ مُوَحِّشَةٌ
وَكَا قَبِلْ :

وَالصَّبْرُ يَحْسُنُ فِي الْوِطَانِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ — فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ

(١) التفسير مستفيد من قول بعض المصنفين : الحجة عو الهب بصفاته وإثبات الحبيب بذاته .

« الرسالة ص ١٥٨ »

(٢) أَنْكَائًا جَمْعُ نَكَتٍ وَهُوَ مَا يَنْكَتُ قَتْلَهُ ، وَقِيلَ مِنْ رِبْطَةٍ ، وَكَانَتْ حَقْلًا تَعْرِى وَجَوَارِبًا مِنْ
الْعَدَاةِ إِلَى الظَّهْرِ ثُمَّ تَأْمُرُهُنَّ فَيَنْتَضِينَ فَرُجْلَهُنَّ .

(٣) وَرَدَّتْ (حُجْبَةٌ) وَهِيَ خَطَأٌ فِي السَّلَخِ ، وَقَدْ اخْتَرْنَا (حُجْبَةٌ) لِأَنَّهَا أَقْرَبُ إِلَى السَّلَاقِ ، وَمِثَابَةٌ
فِي الْكُتَابَةِ لِكَلِمَةِ (حُجْبَةٌ) حَيْثُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَحْدِثَ الْإِتْيَاسُ فِي حَرْفِ الِيمِ عِنْدَ التَّنْقِيلِ .

(٤) آيَةُ ١١٠ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

هناك تنسكب النيرانُ، وتُسَقَّ الجيوبُ، وتُلْعَمُ الحدودُ، وتُسَلُّ العِشارُ، وتُخَرَّبُ
للنازلُ، وتُسودُّ الأبوابُ، وينوحُ النائحُ :

وَأَنَّى الرَّسُولُ فَأَخَذَ سِيرَ أَنَّهُمْ رَحَلُوا قَرِيْبًا
رَجَعُوا إِلَى أَوْطَانِهِمْ فَبَرَى لَمْ دَعَى صَيْبًا
وَتَرَكْنَ نَزْلًا فِي الضَّلُوعِ وَزَوَّعْنَ فِي رَأْسِ مَشْيَا

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

بلاء كل واحد على ما يليق بحاله ؛ فمن كان بلاءه يحدث النفس أو يبقاه عن هواه ،
ويجزماته لكرامته في عقبائه فاسمُ البلاء في صفته مَجَازٌ ، وإنما هذا بلاء العوام . ولكن بلاء
السيكرام غيرُ هذا فهو كما قيل :

مَنْ لَمْ يَبْتَ - وَالْحُبُّ يَلُ ، فَوَادِهِ لَمْ يَذَرِ كَيْفَ تَفَتَّتْ الْأَكْبَادُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَلَسَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ،

وَلَكِنْ يُبَلِّغُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ
يَشَاءُ وَلَنْتَأَلَّنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَسْلُونَ ﴾

ليست واقعة القوم بخسرانٍ يُصِيبُهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ ، أَوْ مِنْ جِهَةِ تَقْصِيرِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ
وَلِيَأْخِضِيَهُمْ مِنْ أَحْوَالِهِمْ . . فهذه - لعمري - وجوهُ وأسبابُ ، ولكن سِرَّ القصةِ
كما قيل :

أَنَاصَبُ لَيْنٍ هَوَيْتُ وَلَكِنْ مَا أَحْزَانِي بِسوءِ رَأْيِ الْمَوَالِي ؟

قوله : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَلَسَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً » : لو شاء الله سَعَادَتَهُمْ كَرَحِيمِهِمْ ، وَعَنِ الْعَامِي
خَصَمَهُمْ ، ويدوامُ الذِّكْرِ - بِذَلِكَ الْفَلْخَةِ - أَلْهَمَهُمْ . . وَلَكِنْ سَبَقَتْ الْقِسْمَةُ فِي ذَلِكَ ،
وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالُوا :

شَكَا إِلَيْكَ مَا وَجَدَ مَنْ خَالَه فَبِكَ الْبَلَاءُ
حَيْرَانٌ . . لَوْ شِئْتَ احْتَدَى ظِلَانٌ . . . لَوْ شِئْتَ وَرَدَ

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَنَجَّدُوا إِيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ
فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا
السَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

أبعدكم عدم صدقكم في إيمانكم عن تحقيق بربهاكم ، لأنكم وقستم على حد
التردد دون القطع والتأمين ، فأفضى بكم ترددكم إلى أوطان شرركم ، إذ الشك في الله
والشرك به قرينان في الحكم .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَدْلِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

لا تغفلوا على التيام بحق الله والوفاء بعده عوضاً يسيراً عما تنفعون به من حطام دنياكم
من حلالكم وحرامكم ، فإن ما أعد الله لكم في جناته — بشرط وفائكم لإيمانكم —
يوفي ويبرو على ما تميلون به من حظوظكم .

قوله جل ذكره: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ
وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

الذي عندكم عرضٌ حلت فاني ، والذي عند الله من ثوابكم في ما ليكم نعمٌ مجموعة ،
لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ويقال ما عندكم أو ما منكم أو ما لكم أفضالٌ معلولة وأحوالٌ مدخولة^(١) ، وما عند الله
ثوابٌ مقيمٌ ونعيمٌ عظيمٌ

ويقال ما منكم من موارفكم ومحابكم آثارٌ متعاقبة ، وأصنافٌ متناوبة ، أعيانها غير باقية
وإن كانت أحكامها غير بالغة^(٢) ، والذي يتصف الحق به من رحمة بكم ومحبة لكم وثباته
عليكم فصفت أزية ونعوت سرمدية .

(٢) لأنها منكم فلا ومن الله تمكثها .

(١) أي مصابة بالفساد

وقال ما عندكم من اشتياقكم إلى لقاءنا فمعرضُ الزوال ، وقابلُ للاقتضاء ، وما وصفتنا به أنفسنا من الإقبال لا يتناهى وأفضلُ لا تنفى ، كما قيل :

ألا طال شوقُ الأبرار إلى لقاءى وإنى للقائم كَأَشَدُّ شوقاً

قوله : « ولنجزيَن الذين صبروا . . . » : جزاء الصبر الفوزُ بالطُّلعةِ ، والظفرُ بالبُنيةِ . وما لُحِمَ في الطُّلباتِ بِمُتَنَفٍّ : فَمَنْ صَبَرَ عَلَى مَقاساةِ مُشَقَّةٍ في الله . فَيَوْزُوهُ وَثَوَابُهُ عَظِيمٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ ، قَالَ تَمَالَى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (١) .

وَمَنْ صَبَرَ عَنْ اتِّبَاعِ شَهْوَةِ لَأْجَلِ اللَّهِ ، وَعَنْ ارْتِكَابِ هَفْوَةٍ عَنَافَةِ اللَّهِ فِجْزَاؤُهُ كَمَا قَالَ تَمَالَى : أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْفَرَقَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيَلْقَوْنَ فِيهَا نَجْيةً وَسَلَامًا » (٢) .

وَمَنْ صَبَرَ نَحْتِ جَبْرِيَانِ حُكْمِ اللَّهِ ، مُتَحَقِّقًا بِأَنَّهُ يَحْمِلُ آيَةَ مَنْ اللَّهِ قَدْ قَالَ تَمَالَى : « إِنْ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴾ .

الصَّالِحُ مَا يَصْلُحُ لِلْقَبُولِ ، وَالَّذِي يَصْلُحُ لِلْقَبُولِ مَا كَانَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ . وَقَوْلُهُ « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا » : فِي الْحَالِ ، « فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً » : فِي الْمَالِ ؛ فَصَفَاهُ الْحَالِ بِسُتُوجِبِ وَفَاءَ الْمَالِ ، وَالْمَعْمَلُ الصَّالِحُ لَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِ إِيْمَانٍ ، وَقَدْ قَالَ : « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

وَيَقَالُ « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » أَيْ مُصَدِّقٌ بِأَنِّ إِيْمَانَهُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ لَا بِسَمْعِهِ الصَّالِحِ . وَيَقَالُ « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » أَيْ مُصَدِّقٌ بِأَنِّ عَمَلَهُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَإِنْشَائِهِ وَإِيْدَانِهِ . قَوْلُهُ « فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً

(١) آية ١٠ سورة الزمر .

(٢) آية ٧٥ سورة الفرقان .

(٣) صبر البديع مع الله أشد أنواع الصبر ويكون — كما يقول عمرو بن عثمان : بالكتاب مع الله ، وتلقى بلائه بالرجب والدعة .

وصبر الله مع البديع للشيخ الفياض بقوله : فاز الصابرون بجز العادون لأنهم نالوا من الله تعالى سعيته . (الرسالة ص ٩٣) .

طيبة : « الفاء للتعقيب ، « ولنجزئهم ... » الواو للمطف في الأولى مُعْجَل ، وفي الثانية مؤجَّل ، ثم ماتلك الحياة الطيبة فإنه لا يَعْرِفُ بالنطق ، وإنما يعرف ذلك بالثبوت ، وقوم قالوا إنه النجوى ، وقوم قالوا إنه التساعة ، وقوم قالوا إنه الرضا ، وقوم قالوا إنه النجوى ، وقوم قالوا إنه نسيم القرب ... والكل صحيح ولكل واحد أهل .

ويقال الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب ، وفي مناه قالوا :

نحن في أكل السرور ولكن ليس إلا بكم تيم السرور
حبيب ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم تحبب ونحن حضور

ويقال الحياة الطيبة للأولياء ألا تكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مطالبة ، وفرق بين من له إرادة فترفع وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً^(١) ، الأولون قائمون بشرط المبودية ، والآخرون معتقون بشرط الحرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

شيطان كل واحد ما يشغله عن ربه ، فمن تسلطت عليه نفسه حتى شغلت عن ربه ولو بشهود طاعة أو استحالة عبادة أو ملاحظة حال — فذلك شيطانه . والواجب عليه أن يستعين بالله من شر نفسه ، وشر كل ذي شر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .

وعلى ربهم يتوكلون ﴿ ﴾ .

أنى يكون للشيطان سلطان على العبد والحق — سبحانه — متفرد بالإبداع ، متوحد بالاختراع ؟ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ ﴾ .

والذين هم به مشركون ﴿ ﴾ .

(١) في هذا الصدد يقول التصفي في رسالته : « والمريد — على موجب الاستحقاق — من له إرادة كالإمام من له علم لأنه من الأسماء المشتقة ، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له ، فمن يجرد عن إرادته لا يكون مريداً . (الرسالة ص ١٠١) .

إنما سلطانه على الذين هم في غطاء غفلهم ، وسر ظنونهم ومشتبهاتهم فأنما أصحاب التوحيد فانهم يرون الحادثات بالله ظهورها ، ومن الله ابتداءها ، وإلى الله ماؤها وانهاؤها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ

أَعْلَمُ بِمَا يُبَدِّلُ قُلُوبًا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْقَرٍ

بَلْ أَكْثَرُكُمْ لَا يَعْلَمُونَ • قُلْ نَزَّاهُ

رُوحُ الْقُدُّوسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ

لُتَّبَيِّنَ الْغَيْبَ آمَنُوا وَهُدًى

وَبُشْرَى الْمُسْلِمِينَ •

ما ازدادوا في طول مدتهم إلا شكا على شك ، وجعدا على جعد ، وجروا على منهاجم في التكذيب ، فلم يصدقوه صلى الله عليه وسلم ، وما زادوا في ولايته إلا شكا وموئبة :

وكذا للول إذا أرادَ قطيعةً ملَّ الوصال وقال كلَّ وكانا

قوله : ﴿ قُلْ نَزَّاهُ رُوحُ الْقُدُّوسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ : رد على فرط جهلهم بربهم ، وبعيد

وتبهم عن التحصيل ، فلما كانوا متفرقين في شهود ذلك ردوا في حين التعريف إليه يذكر لك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ

بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِثُونَ إِلَيْهِ

أَعْمَى وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مَبِينٌ •

لم ينسوح الرسول — صلى الله عليه وسلم — من تكذيبهم ، وخفاء حاله وقدره عليهم .. وأى ضرر يلحق من كانت مع السلطان مجالسته إذا خفيت على الآخر من الرعية حاله ؟

ثم إنه أقام الحجة في الرد عليهم حيث قال : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِثُونَ إِلَيْهِ أَعْمَى وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مَبِينٌ ﴾ : فحين فرط جهلهم توهموا أن هذا القرآن — الذي عجز كافة الخلق

عن معارضته في فصاحته وبلاغته — مقولٌ وحاصلُ باتصاله بمن هو أعجبُ النطق^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

إِنَّ مَنْ مَنَعَتْ الشَّلَاةُ قَسَمَتُهُ لَمْ تَعْلُقْ مِنَ الْحَقِّ — سبحانه — بهِ رَحْمَتُهُ ، وَمَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ فِي عَاجِلِهِ إِلَى مَرْفَعَتِهِ لَا يَهْدِيهِ اللَّهُ فِي آخِرِهِ إِلَى جَنَّتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا يَعْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ

لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ

مُكْذِبُونَ ۝

هذا من لطائف المايرض ؛ إذ لما وصفوه — عليه السلام — بالافتراء أنار الحقُّ

— سبحانه — في الجواب ، قال : لَسْتُ أَنْتَ الْمُفْتَرِىَ إِنَّمَا الْمُفْتَرِىَ مَنْ كَذَبَ مَبُودَهُ وَجَبَلَ تَوْحِيدَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ

إِلَّا مِنْ أَكْثَرِ وَقْلِهِ مُطْمَئِنٌّ

بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ

صُدْرًا فَلَهُمْ عَذَابٌ مِّنْ اللَّهِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝

إذا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ عَبْدِهِ بقلبه ، وإخلاصَهُ في عَقْدِهِ ، ولحقته ضرورة في حاله خَفَّتْ عنه حُكْمُهُ ، وَدَفَعَ عنه عَنَاءَهُ فَلَا يَلْفُظُ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ إِلَّا مُكْرَمًا — وهو مُوَحَّدٌ ، وهو مستحقُّ الْعُدْرَةِ فَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى^(٢) ... وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم ،

(١) أرادوا به غلاماً كان لحويطب اسمه عائش أو يسيث وكان صاحب كتب ، أو هو جبر غلامٌ روى لعمرو بن الحفصري وكان يقرأ التوراة والإنجيل ، أو سلمان الفارسي . . . وكلمهم إمامهم .
(٢) ومن أمثال ذلك عمار بن ياسر الذي جرت كلمة الكفر على لسانه مكرهاً وهو مستند الإيمان ، وأتى رسول الله وهو يسكى ، فجعل الرسول يمسح عليه ويقول : « إن عادوا لك صدق لم يمانك » .
وكان يقول عنه : « إن عماراً ملئاً إيماناً من قرنه إلى قدمه واغتنط الإيمان بلباسه ودمه »

وتجردوا للوحي طريق الله ثم عَرَضَتْ لَهُمْ أسبابٌ ، وانفتحت لهم أَعْدَانُهُ ؛ كأن يكون لهم بعض الأسباب اشتغالاً أو إلى شيء من العلوم وجوعاً ... لم يكن ذلك قادحاً في صحة إرادتهم ، ولا يُعَدُّ ذلك فسقاً لمهودم ، ولا ينفى بذلك عنهم سِمَةَ الْقَصْدِ إلى الله تعالى .

أَمَّا « مَنْ شَرَحَ بالكفر صدراً » : فرجع باختياره ، ووضع قدماً — كان قد رَفَعَهُ في طريق الله — بِحُكْمِهِ هَوَاهُ فقد نَقَضَ عَهْدَ إِرَادَتِهِ ، وَفَسَخَ عَقْدَهُ ، وهو مستوجب (...)^(١) إلى (...)^(٢) تتداركه الرحمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

السالك إذا آتَرَ (المحظوظ)^(٣) على المحقوق بَقِيَ عن الله ، ولم يبارِكْ لَهُ فيها آتَرُهُ على حقِّ الله ، ولقد ظفروا :

قد تركناكَ والذي تريد فمضى أَن نَعْلَمَ فتعود

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَمِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَتَتِمَّ وَأَبْصَارُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَاظُونَ ﴾ .

إنما نادى في غفلته ، ولم يتدارك حاله بِلَاذِمَةِ حَسْرَتِهِ ، ازداد قسوةً على قسوة ، ولم يستمتع بما هو فيه من قوة ، وكما قال جل ذكره :

﴿ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾
﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

م في الآخرة محجوبون ، ويُنْزَلُ البعد موسومون .

(١) مثلية .

(٢) مثلية

(٣) سقطت هذه اللفظة والسياق يتطلبها ، فأبقيتها حسبما نعرف من أسلوب التشبیه في العبارة بين حظوظ النفس وحقوق الحق .

قوله جل ذكره ﴿لَمْ يَنْزِلْ إِلَيْكَ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ
مَا فَتِنُوا﴾ ثم جاهدوا وصبروا إن
ربك من بغيها لغفور رحيم ﴿

ومن صبر حين عزم الأمر ، ولم ينجح إلى جانب الرخص ، وأخذ في الأمور بالاشق
أكرم الله حقه ، وقرب مكانه ، ولقاء في كل حلق بالزيادة ، وبحث صفته حين خسر أشكاله ،
وتقدم على الجلة وإن قل احتياله .

قوله جل ذكره : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُودِلٍ مِنْ
نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَاعِلَتْ
وَم لَا يَظْلَمُونَ﴾ .

غداً كل مشغول بنفسه ، ليس له فراغ إلى غيره . وعزيز عبد لا يشتغل بنفسه ، قال
صلى الله عليه وسلم : « من كان بحال لقي الله بها » . إنما يكون الفراغ غداً من كل اليوم
طرا ، ويجادل عن نفسه من كان له اليوم اهتمام بنفسه . وللو من لأنفس له ، قال تعالى : « إن
الله اشترى من المؤمنين أنفسهم »^(١) اشتراها الحق منهم ، وأودعها عندهم ، فليس لهم فيها
حق ، وإنما يراهم فيها أمر الحق .

قوله جل ذكره : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً
مطمئنةً يأتونها رزقاً رءوساً من كل
مكان فكفرت بأنهم الله فأذاقها
اللهُ لباسَ الجوع والخوف بما كانوا
يصنعون﴾ .

فراغ القلب من الأشغال عظيمة ، فإذا كفر عبد بهذه النعمة بأن فتح على نفسه
باب الهوى ، وانجرف في فساد الشهوة ، شوَّش الله عليه قلبه ، وسلبه ما كان يجده من صفاء
وقته ؛ لأن طوارق النفس توجب هزوب شوارق القلب ، وفي الخبر : إذا أقبل الليل من

(١) آية ١١١ سورة التوبة

هاهنا أدير التهاؤ من هاهنا . وكذلك القلب إذا اقطع عنه معبود ما كان الحق أناته له أصابه عطش شديد ولهب عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾

فأخذتم العذاب وهم ظالمون .

كما جاءهم الرسول جبراً فإنه تنادى إليهم من قِبل خواطرهم إشارات تترى ^(١) ، فن لم يستجب لتلك الإشارات بالوفيق والإعتق ^(٢) أخذه العذاب من حيث لا يشعر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً ﴾

واشكروا نعمة الله إن كنتم لله

تائبون .

الحلال الطيب ما يتناوله العبد على شريعة الإنف بشهادة الذكر على قضية الأدب في ترك الشبهة ^(٣) ، وحقيقة الشكر على النعمة النبية عن شهود النعمة بالاستغراق في شهود النسيم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ ﴾

وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

يُبَاحُ تناولُ المحرمات عند هجرهم الضرورات حسب بيان الشرع ، ولا يُرَخَّصُ في ذلك إلا على أوصاف مخصوصة ، ويُقَدَّرُ ما يَسُدُّ الرَّمَقَ ، كذلك عند استهلاك العبد بطلبات الحقيقة لا بد من رجوعه إلى حال الصحو بقدر ما يؤدي الفرض الواجب عليه ، ثم لا يُمكن من التبرع في أوطان التفرقة والتبيز بد مضي أوقات الصحو من أجل أداء الشرع ^(٤) ، كما قيل :

(١) تترى أي تتابع ، وربما كانت (سرا) لتقابل جبراً

(٢) أي إلتاق النفس وتحميها من وق الشهوات .

(٣) ووردت (الشبهة) والصواب — حسب ما يقول التشبهي في مواضع مماثلة — أن تكون (الشبهة)

(٤) هذه هي حالة الفرق الثاني التي تستغل حالة جمع الجمع ، وفيها يرد العبد إلى الصحو عند أوقات

الفرائض ويكون وجهه لله بقله لا بهيبه بالبد

فَإِنْ تَكُ مِنْهُ غِيبةً بَعْدَ غِيبةٍ فَإِنْ إِلَيْهِ بِالْجُودِ لِيَأِي

قوله جل ذكره: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ

الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ

لَتَقْتُولُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ

يَقْتُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ

لَا يَغْلِبُونَ ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

الصدق في كل شيء أولى^(١) من الكذب، وكثير من أقوالهم في الاعتراض عَيَّنَتْ^(٢) من الكذب .

والصديق لا يكذب صريحاً ، ولا يتداول أقوال كاذب مبين . وصاحب الكذب تظهر عليه المذقة لما هو فيه من الزفة ، وله في الآخرة عذاب أليم^(٣) .

قوله جل ذكره: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ حَادَّوْا حَرَمَنَا مَا قَصَصْنَا

عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا تَكُنْ أَتَمُّ وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظُنُّونَ﴾ .

يَبَيِّنُ أَنَّهُ أَوْضَحَ لِمَنْ تَقَدَّمَ لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، فَفَهُمْ مَنْ أَمَّا بِمَا أَمَرَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ ..
وَكُلُّهُمْ مُوَلِّينَ بِمَا اسْتَوْجِبَهُ ، فَمَنْ أَسْلَحَ قَلْبُهُ قُرْبَةً ، وَمَنْ عَصَى رَدَّهُ وَحِجَّتَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿لَهُمْ إِنْ رِئَاكَ فَذَيْنَ عَمِلُوا السَّوْءَ

بِجَهَانَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْضِ ذُنُوبِهِمْ

وَأَسْلَمُوا إِنْ رِئَاكَ مِنْ بَعْضِهَا

لَتَنُودُوا رِئَاكَ﴾ .

(١) وودعت (أولا) وهي خطأ في النسخ

(٢) عيّنات جمع عينة وهي نموذج من أصل الشيء ومادته (الوسيط)

(٣) فَنَّا هنا بمعنى إصلاحات طليقة نظراً لانتهاك الحظ ووداعته ، ووجود بعض حروف تيسير الطليقة .
من تليها كما هي في الرسم .

إِذَا نَدَبُوا عَلَى قَيْحٍ مَا قَدَّرُوا ، وَأَسْفُوا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا أَسْلَفُوا فِيهِ أَمْرُوا ، وَحَمَّا
صَدَّقُوا عِبَرَتِهِمْ أَثَارَ عَثَرَتِهِمْ — نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ بِالرَّحْمَةِ ، فَغَابَ عَلَيْهِمْ إِذَا أَسْلَعُوا ، وَنَجَّاهُمْ
إِذَا نَصَرَعُوا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ لِرَاحِمٍ كُنْ أُمَّةً قَانِتًا فِيهِ حَنِيفًا
وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾ .

قيل آمن بالله وحده فقام مقام الأمة ، وفي التفسير : كُنْ مَلَأًا — للخير — أمة .

ويقال اجتمع فيه من الاتصال الممودة ما يكون في أمة متفرقة .

ويقال لَمَّا قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِكُلِّ مَا رَآهُ : « هَذَا بَشَرٌ » وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى الْخَلْقَاتِ مِنْ حَيْثُ
هِيَ بَلْ كَانَ مُسْتَهْلِكًا فِي شَهَادَةِ الْحَقِّ ، وَرَأَى الْكُونَ كُلَّهُ بِاللَّهِ ، وَمَا ذَكَرَ حِينَ ذَكَرَ غَيْرَ
اللَّهِ . كَذَلِكَ كَانَ جَزَاءَ الْحَقِّ فَقَالَ : أَنْتَ الَّذِي قَوْمُ مَقَامِ الْكُلِّ ، فِي الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ مِنْكَ
عَلَى الدَّوَامِ قَنِيَّةٌ عَنِ الْجَمِيعِ .

و « الحنيف » : المستقيم في الدين ، أو اللائل إلى الحق بالكليّة ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْنِبْهُ وَهَدَاهُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ .

الشَّاكِرُ فِي الْحَقِيقَةِ — مَنْ يَرَى عَجْزَهُ مِنْ شُكْرِهِ ، وَيَرَى شُكْرَهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ،
لِيَتَحَقَّقَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لَشُكْرِهِ ، وَهُوَ الَّذِي وَزَنَهُ الشُّكْرَ ، وَهُوَ الَّذِي
اجْتَبَاهُ حَتَّى كَانَ بِالْكَلِيَّةِ لَهُ — سُبْحَانَهُ .

« وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » أَيْ تَحَقَّقَ بِأَنَّهُ عِبْدُهُ ، وَأَنَّهُ رَقَّاهُ إِلَى عِلِّ الْأَكْبَرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا
فِي الْآخِرَةِ لَنِينَ الصَّالِحِينَ ۝ ﴾ .

الحَسَنَةُ الَّتِي آتَاهُ اللَّهُ هِيَ دَوَامُ مَا آتَاهُ حَتَّى لَمْ تَنْقَطِعْ عَنْهُ .

(١) الحنيف — في اللغة — من الأشد = اللائل والمستقيم (ابن الانباري في كتاب الاضداد)

ويقال هي اظلة . ويقال هي النبوة والرسالة .

ويقال آتيناها في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية ، ولم تكن فيه لتغير بقية .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ أَنْ آتَيْتَ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

« ملّة إبراهيم » أى الكون للخلق ، والامتحاء ^(١) عن شاعده . نفسه ؛ فكان نبينا
— صلى الله عليه وسلم — فى اتباعه إبراهيم مؤثرياً بأمر الله . وكانت ملّة إبراهيم — عليه
السلام — الخلق والسفاهة والإيثار والوفاء ، فاتبه الرسول صلى الله عليه وسلم وزاد عليه ،
قد زاد على الكفاة شأنه ، وبنات مزيته .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ
اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴾

قوم حرّموا العمل فيه وقوم طهروه معصية منهم ، وقيل جل الجمعة لم قالوا : لا يريد
إلا يوم السبت . . فهذا اختلافهم فيه .

والإشارة من ذلك أنهم حللوا ^(٢) عن موجب الأمر ، ومالوا إلى جانب هوام . ثم أنهم
لم يراعوها حتى رعايتها فصول سبب عصياتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالِغِ
أَحْسَنِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِدِينَ ﴾

(١) وودعت (الامتحاء) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) وودعت (جادوا) وهى خطأ فى النسخ .

الدخول إلى سبيل الله بحث^(١) الناس على طاعة الله ، وزجرهم عن مخالفة أمر الله .
والله أعلم بالحكمة ألا يخالف بالفضل ما يأمر به الناس بالنطق .

والموعظة الحسنة ما يكون صادراً عن علم وصواب ، ولا يكون فيها تعنيف .

« وجادلهم بالتي هي أحسن » : بالحجة الأقوى ، والطريقة الأوضح . قال تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »^(٢) : فشرط الأمر بالمعروف استعمال ما تأمر به ، والالتزام بما تنهى عنه^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُرِيقْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾

إذا جرى عليكم ظلم من غيركم وأودتم الانتقام . . فلا تتجاوزوا حدَّ الإذن بما هو في حكم الشرع .

« ولئن صبرتم » : فذكرتم الانتصاف لأجل مولاكم فهو خير لكم إن فعلتم ذلك .
والأسباب التي قد يترك لأجلها المرء الانتصاف مختلفة ؛ فمنهم من يترك ذلك طمعاً في الثواب غفلاً فإنه أوفر وأكثر ، ومنهم من يترك ذلك طمعاً في أن يسقط الله بخصومه ، ومنهم من يترك ذلك لأنه مكتنف بعل الله تعالى بما يجري عليه ، ومنهم من يترك ذلك لكره نفسه ، وتحرره عن الأخطار والاستحبابه المفوق عند الظفر ، ومنهم من لا يرى لنفسه حقاً ، ولا يستند أن لأحد هذا الحق فهو على عقد لإرادته يترك نفسه ؛ فليكنه مباح ودمه هدر . ومنهم من ينظر إلى خصمه — أي المتسلط عليه — على أن فعله جزاء على ما عمله هو من مخالفة أمر الله ، قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كبت أيديكم ويعفو عن كثير »^(٤) . فاشتغاله باستغفاره عن جرّمه يمنه عن انتصافه من خصمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

(١) وردت (بحيث) وهي خطأ في النسخ .

(٢) آية ٨٨ سورة هود .

(٣) أي تكون أنت قدوة فيما تدعو إليه من أوامر وما تنهى عنه من زواجر .

(٤) آية ٣٠ سورة التورى .

« واصبر » تكليف ، « وما صبرك إلا بالله » : تعريف . « واصبر » لتحقيق بالعبودية
« وما صبرك إلا بالله » إخباراً عن الربوبية .

« ولا تحزن عليهم .. » أى طالع التقدير ، فالأنجيل له خطراً عندنا لا ينبغي أن يوجب
أُتْرَافِكْ ؛ فَنُ أَسْقَطْنَا قَدْرَهُ فَاسْتَصَغِرَ أَمْرَهُ . وإذا عرفت أفرادنا بالإنجيل فلا يضيق
قلبك بشدة عداوتهم ، فوَنَّا ضَمَّنَّا كِفَايَتَكَ ، وَأَلَا نُشِيتُهُمْ بِكَ ، وَالْأَنْجِيلَ لَمْ سَيِّلاً إِلَيْكَ .

قوله جل ذكره : **﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ ﴾**

إن الله معهم بالنصرة ، ويحيطهم بالإحسان والبسطة .

« الذين اتقوا » رؤية النصرَةِ مِنْ غَيْرِهِ ، والذين هم أصحاب التبرى من الخوَلِ والقوة .
والحسن الذى يبذل الله كأنه يراه ، وهذه حل المشاهدة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«... أهل الجنة طابت لهم حداثتها ، وأهل النار أحاط بهم سرادقها ، والحق — سبحانه — مُنزَهٌ عن أن تعودوا إليهم من تعذيب هؤلاء عابدة ، ولا من تنعم هؤلاء فأبدة .. جَلَّتْ الأُحدية ، وتقدَّست الصمدية . . .»

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ هَـبَرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَفَرَةٌ فِرَاقِنَا ، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ حُطْوَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحُونَا غَفَرْنَا لَهُ مَا قَدَّمَهُ ، وَمَنْ وَقَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجَزَلْنَا لَهُ رَغَدًا ، وَمَنْ التَّجَأَ إِلَى مَدُونِ كَرَمِنَا آوَيْنَاهُ فِي ظِلِّ نَيْمِنَا ، وَمَنْ شَكَا فِينَا غَلِيلًا ، مَهَّئْنَا لَهُ فِي دَارِ فَضْلِنَا مَقِيلًا »

عبد الكريم القسبري

عند

سورة الكهف

السورة التي يذكر فيها بنو إسرائيل (١)

قوله تعالى وتقدس : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

كلمة ما تحمها هابداً إلا شكر عصيته ، وما حمها مالك إلا وجد رحته ، وما تحققها عارف إلا تقطر قلبه بلسم قربته ، وما شهدها موحد إلا تقطر منه لحرف فرقه .

قوله جل ذكره : ﴿ سبحان الذي أمرى بعبيده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بركننا حوله لئلا نرى من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾

افتتح السورة بذكر الثناء على نفسه فقال : ﴿ سبحان الذي ... ﴾ : الحق سبحانه سبَّح نفسه بعزيز سلطان ، وأخبر عن استحقاقه لجلال قدره ، وعن توحده بكونه نعوته .

ولما أراد أن يعرف العباد ما خص به رسوله — صلى الله عليه وسلم — ليلة المراج من علو ما رقله إليه ، وعظم ما لقاه به أزال الأعجوبة بقوله : ﴿ أمرى ﴾ ، ونفى عن نبيه خطر الإهجاب بقوله : ﴿ ببسمة ﴾ ، لأن من عرف ألوهيته واستحقاقه لكل العز فلا يتعجب منه أن يضل ما يضل . ومن عرف عبودية نفسه ، وأنه لا يتبكت شيئاً من أمره فلا يعجب بحاله . فالآية أوضحت شيئين اثنين : نفى التعجب من إظهار فضل الله عز وجل ، ونفى الإهجاب في وصف رسول الله عليه السلام .

ويقال أخير من موسى عليه السلام — حين أكرمه بإجماعه كلامه من فخر واسعة —

(١) يقول السيوطي في الإعتان : « وتسمى أيضاً سورة الإسراء ، وسورة سبحان وسورة بنو إسرائيل » الإعتان ط الحلي سنة ١٩٥١ ص ١٨٠ . ٥٤ .
أما القاضي البيناوي (ص ٢٧٠) فيقول : سورة بنو إسرائيل أو سورة « أمرى »

فقال : « ولما جاء موسى ليقائنا » ^(١) ، وأخبر عن نبينا صلى الله عليه وسلم بأنه « أسرى عبده »
وليس من جله بنفسه كمن أسرى به ربه ، فهنا مُحْكَلٌ وهذا محمول ، هنا بنمت الفرق
وهنا بوصف الجمع ، هنا مُريدٌ وهذا مرادٌ .

ويقال جل المراج بالليل عند غَفَقَةِ الرُّقَبَاءِ وَغَيْبَةِ الأجانب ، ومن غير ميعاد ، ومن
غير تقديم أَهْبَةِ واستعداد ، كما قيل : ^(٢)

ويقال جل المراج بالليل ليظهرَ تصديقَ مَنْ صَدَّقَ ، وتكذيبَ مَنْ تَعَجَّبَ وكَذَّبَ
أو أنكر وجحد .

ويقال لما كان تبعده صلى الله عليه وسلم ونهجده بالليل جعلَ الحقُّ سبحانه المراج بالليل
ويقال :

لِسَةِ الوَصْلِ أَصْقَى من شهودٍ ودهورٍ سواها

ويقال أرسه الحقُّ — سبحانه — لينلِمَ أهلُ الأرضِ منه العيادة ، ثم رَكَدَ إلى السماء
لينلِمَ الملائكةُ منه آدابَ العيادة ، قال تعالى في وصفه — صلى الله عليه وسلم — : « ما زاغ
البصر وما طمى » ^(٣) ، فما التفتَ يمينًا ولا شمالًا ، وما طمع في مقامٍ ولا في إكرامٍ ؛ فجردَ
عن كلِّ طلبٍ وأَرَبَ .

قوله : تزيه من آياتنا : كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كشفًا بالذات .

ويقال من الآيات التي أراها له تلك الآية أنه ليس كمثل — سبحانه — شيء في جلالة
وجله ، وعزِّه وكبريائه ، ومجده وفضائه

ثم أراه من آياته تلك الآية ما عرَفَ به صلوات الله عليه — أنه ليس أحدٌ من المخلوق
مثله في نبوته ورسالته وعلوِّ حالته وجلال رتبته .

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) هذا شاهد شمرى مضطرب في الكتابة ، وأكثر أجزائه سلامة هو : « والناس مما نحن فيه محمول .

(٣) آية ١٧ سورة النجم .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَخَفُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا﴾

أرسل موسى عليه السلام بالكتاب كما أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولكن نبيتنا - صلوات الله عليه - كان أوفى - سماعاً ، فإن الشمس في طلوعها وإسرافها تكون أقرب من طلعت له من جفاتها .

قوله جل ذكره : ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾

أى يا ذرية من حملنا مع نوح - على النداء . . إنه كان عبداً شكوراً .

والشكور الكثير الشكر ، وكان نوح قد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وكان يضرب في كل (. . .)^(١) كما في القصة - سبعين مرة ، وكان يشكر . كما أنه كان يشكر الله ويصبر على قومه إلى أن أوحى الله إليه : أنه لن يؤمن إلا من قد آمن ، وأمر حين دعا عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً »^(٢) .

ويقال الشكور هو الذى يكون شكره على توفيق الله له لشكره ، ولا يتقلص عن شكره لنعمة .

ويقال الشكور الذى يشكر بآله ، بنفقه في سبيل الله ولا يدخره ، ويشكر بنفسه فيستعملها في طاعة الله ، ولا يُبقي شيئاً من الخدمة يدخره ، ويشكر بقلبه ربه فلا تأتى عليه ساعة إلا وهو يذكركه .

قوله جل ذكره : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ

(١) مشقة .

(٢) آية ٢٦ سورة نوح ويكون المراد أنه لم يدع بلعلاهم نتيجة تفاد صبره أو عدم شكره بل حسب أمره الله ، ولو وضنا الفاصلة بعد (وأمر) يكون المعنى : إلا من قد آمن وأمر بالآمان . وهذا التأويل لا يتعارض مع اللذم العام للشكوى ، فكل من عذبه بأمر الله وتوفيقه .

لَتَفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ

عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٠﴾

القضاء هاهنا بمعنى الإعلام ، والإشارة في تعريفهم بما سيكون في التشتات منهم وما يستقبلهم ، ليزدادوا يقيناً إذا لقوا ما أخبروا به ، وليكون أبلغ في لزوم الحجّة عليهم ، وليحترزوا من مخالفة الأمر بحجدهم ، وليعلموا أن ما سبق به القضاء فلا محالة يحصل وإن ظنّ التباعد منه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهَا ﴾ بئسنا عليكم

عباداً لنا أولى بأسٍ شديدٍ فجاسوا

خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ﴿١١﴾

إن الله سبحانه يبدئ أقواماً لآحوالٍ مخصوصة حتى إذا كان وقت إرادته فيهم كان هؤلاء موجودين .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾

وأمددناكم بأموالٍ وبنين وجعلناكم

أكثر نفراً ﴿١٢﴾

يدل على أنه مقدّر أعمال العباد ، ومدير أفعالهم ، فإن انتصارهم على أعدائهم من جهة أكابهم ، وقد أخبر الحق أنه هو الذي تولاه بقوله : ﴿ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ... ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ

أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ

لِيَسْئَلُوا وَجوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا

لِلْمَسْجِدِ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَلِيُتَبَرَّأ مَا عَمَلُوا تَبَرَّأ ﴿١٣﴾

إِنْ أَحْسَنْتُمْ فَنَوَابِغَكُمْ كُتِبَتْ ، وَإِنْ أَسَاءْتُمْ فَعَذَابُكُمْ جَلِيلٌ — وَالْحَقُّ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَمُودَ إِلَيْهِ
مِنْ أَفْعَالِ عِبَادِهِ زَيْنٌ أَوْ يُلَحِقَهُ شَيْئٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ عَسَىٰ وَرَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾

كلمة « عسى » فيها ترجية وإطعام ، فهو — سبحانه — وقفهم على حد الرجاء والأمل ،
والظنوف والرجل .

وقوله « عسى » : ليس فيه تصريح بغيرانهم ورحمتهم ، وإنما فيه للرجاء موجب قوياً ؛
فيلطفه وعد أن يرحمكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾

أَيُّ إِنْ عُدْتُمْ إِلَى الزَّلَّةِ عُدْنَا إِلَى الْعُقُوبَةِ ، وَإِنْ اسْتَقَمْتُمْ فِي التَّوْبَةِ عُدْنَا إِلَى إِدَامَةِ الْفَضْلِ
عَلَيْكُمْ وَلِلتَّوْبَةِ .

ويقال إِنْ عُدْتُمْ إِلَى نَقْضِ الْعَهْدِ عُدْنَا إِلَى تَشْدِيدِ الْعَذَابِ .

ويقال إِنْ عُدْتُمْ لِلْإِسْتِجَارَةِ عُدْنَا لِلْإِجْلَاءِ .

ويقال إِنْ عُدْتُمْ إِلَى الصَّفَاءِ عُدْنَا إِلَى الْوُفَاءِ .

ويقال إِنْ عُدْتُمْ إِلَى مَا يَلِيقُ بِكُمْ عُدْنَا إِلَى مَا يَلِيقُ بِكُومِنَا .

« وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا » ، لأنهم (. . .) ^(١) وهم ناس كثير فنهه جهنم
ومن يسكنها من الكافرين .

و « حَصِيرًا » أَيُّ عَجَسًا وَمَصِيرًا . ظَلُومُنْ — وَإِنْ كُنَّا صَاحِبَ ذُنُوبٍ وَإِنْ كَانَتْ
كَبِيرَةً — فَإِنْ مَنَّا خَرَجَ مِنْ دُنْيَانَا عَلَى إِعَانَةٍ فَلَا مَحَالَةَ يَصِلُ يَوْمًا إِلَى غَفْرَانِهِ .

(١) هنا يباين في النسخة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي الْقَى هِىَ أَقَوْمٌ

وَيُشِيرُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ ﴾

القرآن يدل على الحق والصواب . و « أقوم » : هنا بمعنى المستقيم الصحيح كما كبير بمعنى الكبير ، فالقرآن يدل على الحق والصواب ، ولكن الخلل من جهة الاستدلال لا الدليل ، إذ قد يكون الدليل ظاهراً ولكن المستدل معرض ، وبآداب النظر يُخل ، فيكون العيب في قصوره لا في قصور الدليل (١) .

القرآن نورٌ ؛ مَنْ استضاء به خَلَصَ مِنْ ظُلُمَاتِ جَهَنَّمَ ، وخرج من غمار شكّه . وَمَنْ وَهَمَتْ عَيُونُهُ فَظَنَّهُ النَّبَسُ رُشْدَهُ .

وقال الطوكُ ضَرَرَهُ أَشَدُّ مِنَ نَمَى ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَى يَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ يُبْصِرُ فَيَتَّبِعُ ظَنَّهُ ، وَلَكِنْ الْأَحُولُ يَتَوَكَّمُ الشَّيْءَ شَيْئِينَ ، فَهُوَ بِتَحْيِيلِهِ وَحِسَابِهِ يَمَارَى مَنْ كَانَ سَلْبًا . . . كَذَلِكَ الْمُبْتَدِعُ إِذَا سَلَكَ طَرِيقَ الْجِدْلِ ، وَلَمْ يَضَعْ النَّظَرَ مَوْضِعَهُ بَقِيَ فِي ظُلُمَاتِ جَهَنَّمَ ، وَصَالٍ بِبَاطِلٍ دُفِعَ إِلَى خَصْمِهِ ، كَأَقِيلٍ :

بأطرافِ المسائل كيف يأتى — ولا أذرى لعمرك — مُبْطِلُوهَا ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالْشَّرِّ دَعَاهُ بِالْخَيْرِ

وَكَانَ الْإِنْسَانُ حَصُولًا ۝ ﴾

من الأدب فى الدعاء ألا يسأل العبدُ إلا عند الحاجة (٢) ، ثم ينظر فإن كان شئ لا يعنيه ألا يترصّض له ؛ فإن فى الخير (٣) : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » . ثم من آداب الداعى إذا سأل من اتفق حاجته ورأى تأخيراً فى الإجابة ألا يتهم الحق — سبحانه — ويجب أن يعلم

(١) هذا نموذج مثير لأللوب التشبىرى الجليل .

(٢) وردت (تجمعه) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت (الخير) بالياء

أن الطير في ألا يجيبه ، والاستمجال — فيها يختاره العبد — غير محمود ، وأولى الأشياء
السكون والرضا بحكمه سبحانه ، إن لم يساعده الصبر وسأل فالواجب ترك الاستمجال ،
والثقة بأن المقسوم لا يفوته ، وأن اختيار الحق للعبد خير له من اختياره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا
آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً
لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا
عَدَّةَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ
فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾

جعل الليل والنهار علامة على كمال قدرته ، ودلالة على وجوب وحدانيته ؛ في تعاقبهما
وتناوبهما ، وفي زيادتهما وتقصصهما .

ثم جعلهما وقتاً صالحاً لإقامة العبادة ، والاستقامة على معرفة جلال إلهيته ؛ فالعبادة شرطها
الدوام والاتصال ، والوظائف حقها التوفيق والاختصاص
ولو وقع في بعض العبادات تقصير أو حصل في أداء بعضها تأخير تداركه بالتفويض حتى
يتلافى التقصير .

ويقال من وجوه الآيات في الليل والنهار إفراذ النهار بالضياء من غير سبب ، وتخصيص
الليل بالظلام بغير أمر مكتسب (١) ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ
مُبْصِرَةً ﴾ : وهو اختلاف أحوال القمر في إشراقه وحاقه ، فلا يبقى ليلتين على حال واحدة ،
بل هو في كل ليلة في منزل آخر ، إما بزيادة أو بنقصان .

وأما الشمس فخالها الدوام . . . والناس كذلك أوصافهم ؛ فأرباب التمسكين الدوام
شرطهم ، وأصحاب التلويح التنقل (٢) حَقُّهم ، قال تعالى : ﴿

ما زلت أنزل من وداذك منزلاً تسخير الألباب دون نزوله

(١) أي أن أعماله عظمته لا تخضع لعل أو سبب ، أو حجة أو كسب .

(٢) يقصد بالتنقل هنا التغلب في الأحوال . . . وليس بالتنقل من مكان إلى مكان .

قوله جل ذكره : ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانَهُ طَائِرَةٌ فِي عُنُقِهِ
وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا﴾

أُزِمَ كُلُّ أَحَدٍ مَا لَيْسَ بِجَيِّدِهِ . فالذين هم أهل السعادة أُسْرِجَ لهم مركب التوفيق ،
فيسير بهم إلى ساحات النجاة ، والذين هم أهل الشقاوة أُرْكِبَهم مَطَيَّةُ الْخِذْلَانِ فَأَقْعَدَتْهُمْ عَنْ
النَّهْوضِ نَحْوَ مَنْهَجِ الْإِغْلَاصِ ، فَوْصُوا فِي وَهْدَةِ الْهَلَاكِ .

قوله جل ذكره : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ
عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾

مَنْ سَاعَدَتْهُ الْعَنَابَةُ الْأَزَلِيَّةُ حَفِظَ عِنْدَ مَعَامِلَاتِهِ مَا يَكُونُ وِيْلًا عَلَيْهِ يَوْمَ حِسَابِهِ ، وَمَنْ
أَبْلَاهُ بِحُكْمِهِ رَدَّهُ وَأَمَهَّلَهُ ، ثُمَّ تَرَكَهُ وَعَمَلَهُ ، فَإِذَا اسْتَوْفَى أَجَلَهُ عَرَفَ مَاضِيَّتَهُ وَأَمَلَهُ ، وَيَوْمَئِذٍ
يُحْكَمُ فِي حَالِ نَفْسِهِ ، وَهُوَ لَا حَالَةَ يَحْكُمُ بِنَفْسِهِ بِاسْتِحْقَاقِهِ لِعَذَابِهِ عِنْدَمَا يَتَحَقَّقُ مِنْ قَبِيحِ أَعْمَالِهِ ..
فَكَمْ مِنْ حَسْرَةٍ يَتَجَرَّعُهَا ، وَكَمْ مِنْ خِيبَةٍ يَتَلَقَّاها !
وَيَقَالُ مَنْ حَاسِبُهُ بَكْتَابِهِ فَكْتَابُهُ مُلَازِمُهُ فِي حِسَابِهِ فَيَقُولُ : رَبِّ ! لَا تَحَاسِبْنِي بِكْتَابِي ..
وَلَكِنْ حَاسِبْنِي بِمَا قُلْتَ : إِنَّكَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ .. لَا تَمَامِلْنِي بِمَقْنَضِي كِتَابِي ؛
فِيهِ بَوَارِي وَهَلَائِي

قوله جل ذكره : ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

فَضَايَا أَعْمَالِ الْعَبْدِ مَقْصُورَةٌ عَلَيْهِ ؛ إِنْ كَانَتْ طَاعَةً فَضَايَاهَا لِأَصْحَابِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ
رِزْقًا فَلَاوَاهَا لِأَرْبَابِهَا . وَالْحَقُّ غَنَى مُقَدَّسٌ ، أَحَدِي مُتَرَدِّدٌ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا
مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نُنْصِرَ رَسُولًا﴾

كُلُّ مُطَالِبٍ بِجَرِيرَتِهِ . وَكُلُّ نَفْسٍ نَحْلُ أَوْزَارِهَا لَا وِزْرَ نَفْسٍ أُخْرَى .. وَمَا كُنَّا

مفذين حتى نبعث رسولا : دل ذلك على أن الواجبات إنما تتوجه من حيث السمع ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾

إذا كثُر أهل الفساد غلبوا ، وقُلَّ أهل الصلاح وقعدوا ؛ فندد ذلك (يفسر) ^(٢) الله . الخلق ببلائه ، ولا يكون للناس ملجأ من أولياته ليتركوا في بابهم ، ولا فيهم من ينهل إلى الله فيسمع دعاؤه ، فيخترم ^(٣) أوليائه ، ويبقى أرباب الفساد ، وعند ذلك يشتد البلاء ، وتظلم الحن إلى أن ينظر الله تعالى إلى الخلق نظر الرحمة والميعة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ يَرْبُكَ بَذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

في الآية تسلية للظالمين إذا استبطلوا هلاك الظالمين ، و (...) ^(٤) قصر أيديهم عنهم . فإذا فكروا فيما مضى من الأمم أمثالهم وكيف بنوا مشيدا ، وأثروا بعيدا . . فبادوا جميعا ، يلمون أن الآخرين — عن قريب — سينخرطون في سلكهم ، ويُمَتَحِلُون بمثل شأنهم . وإذا أغلَّتْهُمُ سَحْبُ الوحشة فاعوا إلى ظلُ شهود التقدير ، فتزول عنهم الوحشة . وتطيب لهم الحياة ، وتحصل الهيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَدْموماً مَدْحوراً ﴾

(١) نظن أن التشيرى يريد بذلك أن يرد على بعض أهل الكلام الذين يقولون إن الله يذب الناس على نوبهم حتى ولو لم يبعث لهم رسولا لأن عقل الانسان مطالب بالتكليف قبل سماع الرسل .
(٢) ووددت (يسر) بالعين والصواب أن تكون بالتين لأن السياق يتطلب ذلك .
(٣) ووددت (فيحترم) بالحاء والسيناق يتطلب أن الله (يحترم) أوليائه أى يأخذهم إليه .
(٤) مشبهة ، وترجح أنها كلمة تؤدي إلى معنى (وأحسوا) قصر أيديهم عن الظالمين .

مَنْ رَضِيَ بِالْمُحَظِّ الْخَلِيسِ مِنْ عَاجِلِ الدُّنْيَا بَقِيَ عَنْ نَفِيسِ الْآخِرَةِ ، ثُمَّ لَا يَحْظِلُ إِلَّا بِقَدَرِ مَا اشْتَمَهُ ، ثُمَّ يَكُونُ آتِسَ مَا بِهِ قَلْبًا وَأَشَدُّ مَا يَكُونُ بِهِ سَكُونًا . . ثُمَّ يُحْتَسِفُ عَنْ نَعْمَتِهِ ، وَلَا يَخْصُ شَيْءٌ مِمَّا جَمَعَ مِنْ كَرَامَةٍ ، وَيَنْمُنُ مِنْ قُرْبِهِ فِي الْآخِرَةِ . . وَلَقَدْ قِيلَ :

يَا غَافِلًا عَنْ سَمَاعِ الصَّوْتِ إِنَّ لَمْ تَبَادِرْ فَهُوَ الْفَوْتُ
مَنْ لَمْ تَزَلْ نَعْمَتُهُ عَاجِلًا أَزَالَهُ عَنْ نَعْمَتِهِ الْمَوْتُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾

علامة مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ — عَلَى الْحَقِيقَةِ — أَنْ يَسْعَى لَهَا سَعْيَهَا ؛ فإِرَادَةُ الْآخِرَةِ إِذَا تَجَرَّدَتْ عَنِ الْعَمَلِ لَهَا كَانَتْ مَجْرَدَ إِرَادَةٍ ، وَلَا يَكُونُ السَّعْيُ مَشْكُورًا . قوله : « وَهُوَ مُؤْمِنٌ » : أَيْ فِي الْمَالِكِ كَمَا أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ . وَيُقَالُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ أَنَّ نَجَاتَهُ بِفَضْلِهِ لَا بِسَبَبِهِ . « فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا » أَيْ مَقْبُولًا ، وَمَعَ الْقَبُولِ يَكُونُ التَّضْعِيفُ وَالتَّكْثِيرُ ؛ فَكَأَنَّ الصَّدَقَةَ يُرِيهَا كُنْكَ طَاعَةُ الْمُبْدِي يُكْثَرُهَا وَيُقَمَّهَا .

قوله جل ذكره ﴿ كَلَّا نَبْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

بِجَازِي كَلَّا بِقَدَرِهِ ؛ فَلِقَوْمٍ نَحَاءَ وَلِقَوْمٍ دَرَجَاتٍ ، وَلِقَوْمٍ سَلَامَةٌ وَلِقَوْمٍ كَرَامَةٌ ، وَلِقَوْمٍ مَنُونَةٌ ، وَلِقَوْمٍ قَرِينَةٌ .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّا نُنْزِلُ الْكِتَابَ فَتُلُونَا بِمَعْشَرٍ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

التَّفْضِيلُ عَلَى أَقْسَامٍ ، فَالْمُبَادَا فَضْلٌ بِمَعْشَرٍ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ رُكَّاءُ أَعْمَالِهِمْ ، وَالْعَارِفُونَ فَضْلٌ بِمَعْشَرٍ عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ فِي صِفَاتِ أَحْوَالِهِمْ ، وَرُكَّاءُ الْأَعْمَالِ بِالْإِخْلَاصِ ، وَصِفَاتُ الْأَحْوَالِ

بالاستخلاص ، وقومٌ تفاضلوا بصدقِ التَّقدم ، وقومٌ تفاضلوا ببلوغِ الهِمِّ ، والتفضيل في الآخرة أكبر : فالتميُّزُ تفاضلهم بالدرجات ، قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ لَتَرَوْنَ أَهْلَ عَلِيِّينَ كَمَا تَرَوْنَ السُّكُوبَ الْفَرَّى فِي أَفْقِ السَّمَاءِ وَإِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ مِنْهُمْ »

وأهلُ الحضرة تفاضلهم بملامتهم من الأُنس بنسبِ القرية بما لا بيانَ بصفه ولا عبارة ، ولا رمز يدرکه ولا إشارة . منهم من يشهد ويراه مرة في الأسبوع ، ومنهم من لا يضيف من الحضرة لحظة ، فهم يجتمعون في الرؤية ويتفاوتون في نصيب كلِّ أحد ، وليس كلُّ مَنْ يراه يراه بالعين التي بها يراه صاحبه ، وألشد بعضهم ^(١) :

لَوْ يَسْمَعُونَ — كَمَا سَمِعْتُ حَدِيثَهَا خَرُّوا لِرِزَّةِ رُكْعَتَا وَسُجُودَا

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَحْمِلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْتَعَدَ

مَذْمُومًا مَخْفُولًا ﴾

الذي أشرك بالله أصبح مذمومًا من قِبَلِ الله ، ومُخْفُولًا من قِبَلِ (مَنْ) ^(٢) عَبْدَهُ

من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفَقَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

وَالَّذِينَ إِحْسَانًا إِيَّاهُ يَبْلُغُونَ عِنْدَكَ

السَّكِينَةَ أَحَدُهَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ

لَهَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْنَاهَا وَقُلْ لَهَا

قَوْلًا كَرِيمًا ﴾

أمرٌ بإفراده — سبحانه — بالعبادة ، وذلك بالإخلاص فيما يستعمله العبدُ منها ، وأن

يكون مغلوبًا باستيلاء سلطانِ الحقيقةِ عليه بما يحفظه عن شهودِ عبادته ^(٣)

وأمرٌ بالإحسان إلى الوالدين ومراعاةِ حقِّهما ، والوقوف عند إشارتهما ، والقيام بحُدُمتيهما ،

(١) البيت لكبير صاحب عزة .

(٢) سقطت (مَنْ) والسياق يتطلبها ، والحذفان ناجم عن أن أي مبدود خير الله لا يملك أن يبدده فلما ولا يدفع عنه شرًّا .

(٣) خلاص البدي في التحقق يحفظه عن التصغير في أمور التسمية .

وملازمة ما كان يعود إلى رضاها وخمس عشرتها ورعاية حُرمتيها ، وألا يبدى شواهد الكسل عند أوامرها ، وأن يبدل المكتنة فيها يعود إلى حفظ قلوبها . . . هذا في حال حياتها ، فأما بعد وفاتها فيصدق الدعاء لها ، وأداء الصدقة عنها ، وحفظ وصيتها على الوجه الذي قعلاه ، والإحسان إلى من كان من أهل ودّها ومعارفها .

ويقال إن الحق أمر المبادء بمراعاة حقّ الوالدين وما من جنس العبد . . فمن عجز عن القيام بحقّ جنسه أتى له أن يقوم بحقّ ربه ؟

قوله جل ذكره : ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة
وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي﴾
صغيراً

انخفض لهما جناح الذلّ بحسن المداراة ولين المنطق ، والبدار إلى الخدمة ، وسرعة الإجابة ، وترك اللّزيم بمطالبهما ، والصبر على أمرهما ، وألا تدخّر عنهما ميسوراً .

قوله جل ذكره : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾
تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين
غفوراً

إذا علم الله صدق قلب عبده أمده بحسن الأجادة وأكرمه بمجمل الامتداد^(١) ، ويسر عليه السير من الأمور ، وحفظه عن الشرور ، وعطف عليه قلوب الجمهور .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَنْتَ ذَا الْقُرْنَيْنِ﴾
واين السليل ولا تبذر تبذيراً

إيتاه الحق يكون من المال ومن النفس ومن القول ومن الفعل ، ومن نزل على اقتضاء حقّه ، وبذل الكل لأجل ما طال به من حقوق . فهو التأم بما ألزمه الحق سبحانه بأمره .

(١) أي الاستقامة والاستمرار دون وقفة أو فترة — وتلك من أعظم المنن في نظر القشيري ، وقد قال الرسول (ص) : « خير العمل أدومه وإن قل » .

والتبذيرُ مجاوزةُ الحدِّ عمَّا قدره الأمرُ والإذنُ . وما يكون لحظُ النَّفسِ — وإن كان محسمةً — فهو تبذيرٌ ، وما كان له — وإن كان الوفاء بالنَّفسِ — فهو تصديرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الْمُبْتَلِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾

إنما كانوا إخوانَ الشَّيَاطِينِ لأنهم آفَقُوا على هَواهم ، وَجَرَوْا في طريقهم على دواعي الشَّيَاطِينِ ووساوسهم ، ولمَّا أفضى بهم ذلك إلى المعاصي فقد دعاهم إخوانُ الشَّيَاطِينِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفِّرُنَّ فِيهِمْ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهُمَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيِّسُورًا ﴾

إن لم يُسَاعِدْكَ الإِمْكَانُ على ما طالبوكَ من الإحسان فاصبرْ فهم عنك بوعده جميل إن لم تُسَعِّفْهم بنقدٍ جليل . وَإِنَّ وَعْدَ الْكَرَامِ أَهْنًا مِنْ قَدِّ الْقَتْلِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْمِلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾

لَا تُجْمِلْكَ عَنِ الإِعْطَاءِ فَتُكْذِبَ (٢) ، وَلَا تُسْرِفْ فِي الْبَنَلِ بِكَفَرَةٍ مَا تُسَدِّى ، وَأَسْلُكُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ طَرِيقًا وَسَطًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

إِذَا بَسَطَ لَا تَبْقَى قَاطِعٌ ، وَإِذَا قَبَضَ اسْتَنْفَدَ كُلَّ طَاقَةٍ (٣) .

(١) وردت (الأيام) وقد أنبتنا (القام) فيها هوى المني وتستقيم الغاية .

(٢) تكذبي أى تبطل ، قال تعالى : « وأعطى قليلاً وكدى » .

(٣) واضح أن التشيرى يوجه الإشاره إلى رزق الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ لَهُمْ نَزْدٌ أَوْ نَكاحٌ وَلَا يَكُنْ لَهُمْ نَزْدٌ وَلَا يَكُنْ لَهُمْ نَكاحٌ ﴾

مَنْ عَرَفَ أَنَّ الرَّاغِبَ هُوَ اللَّهُ خَفَّ عَنْ قَلْبِهِ مِمَّ الْعِيَالِ (١) — وَإِنْ كَثُرُوا ، وَمَنْ خَفَى عَلَيْهِ أَنَّهُ قَسَمٌ — قَبْلَ الْخُلُقِ — أَرْزَأَهُمْ تَطَوُّعٌ فِي مَنَاحِلَ مَغَالِيطَةٍ ، فَيَقَعُ فِيهَا بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ ثُمَّ لَا يَكُونُ غَيْرَ مَا سَبَقَ بِهِ التَّقْدِيرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنْ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ .

تَرْجِيحُ (٢) الزَّوَاجِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْفَوَاحِشِ لِأَنَّهُ فِيهِ تَضْيِيقُ حُرْمَةِ الْحَقِّ ، وَهَتَكَ حُرْمَةَ الْخُلُقِ ، ثُمَّ لَمَّا فِيهِ مِنَ الْإِحْلَالِ بِالنَّسَبِ ، وَإِفْسَادِ ذَاتِ الْبَيْنِ (٣) مِنْ مَقْتَضَى الْأَنْفَةِ وَالنَّضْبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنْ كَانَ مَنصُورًا ﴿

لَا يَجُوزُ قَتْلُ نَفْسٍ زَوَّجَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَلَا لِلرَّءِ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ أَيْضًا بِغَيْرِ الْحَقِّ . وَكَأَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ بِالْمَدِيدِ وَمَا يَقُومُ مَقَامَهُ مِنَ الْأَلَاتِ مُحَرَّمٌ فَكَفَكَ الْقَصْدُ إِلَى هَلَاكِ الرَّءِ مُحَرَّمٌ . وَمَنْ أَتَمَّكَ فِي مَخَالَفَةِ رَبِّهِ فَقَدْ سَعَى فِي هَلَاكِ نَفْسِهِ . « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا » : أَيْ تَسَلَّطًا عَلَى الْقَاتِلِ فِي الْاِقْتِصَاصِ مِنْهُ ، وَعَلَى مَعْنَى الْإِشَارَةِ : إِنْ النَّصْرَةُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ ، وَمَنْصُورُ الْحَقِّ لَا تَنْكَسِرُ رِسَالَتُهُ ، وَلَا تَطْلُبُ سَهَامُهُ (٤) .

(١) وردت (التيال) بالهاتف وهي خطأ في النسخ .

(٢) ترجيح = زاد وتقل .

(٣) وردت (البين) وهي خطأ في النسخ .

(٤) وردت (شهامه) بالشيء وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مَالَ الْيَنِيمِ إِلَّا الْبَاقِيَ مِنْ

أَحْسَنَ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا

بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝

لَمْ يَكُنِ الْيَنِيمُ مِنْ يَتَمَّ بِشَأْنِهِ أَمَرٌ — مَبْعَاهُ — الْأَجْنِي الْأَيُّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَنِيمِ
سَبَبٌ أَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَهُ ، وَيَقُومَ بِشَأْنِهِ ، وَأَوْصَاهُ فِي بَابِهِ ؛ فَالْصَّبِيُّ قَاعِدٌ بِصِفَةِ الْفَرَاغِ وَالْمُؤْنَى ^(١) ،
وَالْوَلِيُّ صَاعِدٌ بِمَقَاسَةِ الْمَنَاءِ .

فَأَمْرُ الْحَقِّ — مَبْعَاهُ — لَوْلَى أَحْطَى لَصَبِيٍّ مِنْ شَقِيَّةِ آلِهِ عَلَيْهِ فِي حَالِ حَيَاتِهِ ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا

بِالْقِسَاصِ السِّتْمِ فَكُنْ خَيْرٌ

وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝

كَأَنَّهُ تَدْلِيلٌ نَدَانٍ ، وَكَأَنَّهُ تَجَازَى ، وَكَأَنَّهُ تَكِيلٌ يُكَالُ كَيْلٌ ، وَكَأَنَّهُ تَكُونُونَ يَكُونُ
عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ ذَكَرَ وَفَرَّاهُ ، وَمَنْ خَلَّ خَانُوا مَعَهُ ، وَأَشْدُّوا :

أَسَانَا فَاذْهَبُوا .. عَدَلٌ بِالْحَقِّ وَلَوْ عَدَلْنَا لَخَلَصْنَا مِنَ الْمِحْنِ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ

السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ

كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝

إِذَا غَلَبَتْ عَلَيْكَ جُحُوزَاتُ الظُّنُونِ ، وَلَمْ يُطْلَمَكِ الْحَقُّ عَلَى الْيَقِينِ فَلَا تَتَكَلَّفِ الرُّقُوفَ
عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ بَرَهَانٍ ، وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَحْكَامِ الْوَقْتِ فَارْجِعْ إِلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ
لَا حَاجَ لِقَلْبِكَ وَجْهًا مِنَ الدَّلِيلِ عَلَى حَقِّهِ الْإِتِّبَاسِ فَكَيْلٌ عَلَيْهِ إِلَى اللَّهِ ، وَقِفْ حِينَمَا وَقَفْتَ .

(١) المؤني = الخفض والذمة

(٢) ما يقوله القشيري في حالة اللزوم يتصرف — كما هو واضح — على حالة المريد بالنسبة لشيعته ؛
فالرديد يجد من شيعته مالا يجد من غيره ، ذلك يربى الأرواح وهؤلاء يربون الأتباع .

ويقال الفرق بين من قام بالعلم وبين من قام بالخلق أَنَّ العلماء يعرفون الشيء أولاً ثم يعلمون بعلومهم ، وأصحابُ الحقِّ يَجْرِي عليهم بحكم التصريف شيء لا يعلم به على التفصيل ، وبعد ذلك يُكشَف لم وجهه ، وربما يجري على ألسنتهم شيء لا يدرون وجهه ، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه ، ودليل ما نطقوا به من شواهد العلم ^(١) .

قوله : « إن السمع والبصر . . . » هذه أمانة الحق — سبحانه — عند العبد ، وقد تقدم في بابها بما أوضحته ببراہین الشريعة .

ومن استعمل هذه الجوارح في الطاعات ، وصاتها عن استعمالها في المخالفات فقد سلم الأمانة على وصف السلامة ، واستحق للمدح والكرامة . ومن دَسَّسَ بالمخالفات فقد ظهرت عليه الخيانة ، واستوجب لللامة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾

الخَيْلَاء والتجبر ، وللمدح والتكبر — كل ذلك نتائج الغيبة عن الذكر ، والمحبة عن شهود الحق ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا نَجَّى لشيء خضع له — بذلك وَرَدَ الظهور . فأما في حال حضور التلبس واستيلاء الفكر وسلطان الشهود . فاقطب مُطَرِّقٌ ، وحُكْمُ الهيبة غَالِبٌ . ونعتُ المسحر وصفةُ ائِزْهَر وأسببُ التفرقة — كل ذلك ساقط .

والناسُ — في الخلاص من صفة التكبر — أصنافٌ : فأصحابُ الاعتبار إذ عرفوا أنهم مخلوقون من نطفة أمشاج ، وما نحله أباؤهم مما يترشح من مسامهم من بقايا طامامهم وشرابهم .. تطوَّروا عن التضييق والتدينق ^(٢) ، وَيَبْعُدُ عن قلوبهم قيامُ أخطارٍ للأشياء ، ولا ينظر على داخلهم إلا ما يزيل عنهم التكبر ، وينزع عنهم لباس التجبر .

(١) من هذه الوصية وما جاء بعدها يتضح رأي التشيخي في التفرقة بين المعرفة عند أرباب العلوم والمعرفة عند أرباب الحقائق ، ويندب التشيخي في « رسالته » إلى أن باستطاعة كبار شيوخ أهل هذه الطريقة أَنْ يُفَشِّحُوا في مسائل الفقه إثناءً يُضَمِّدُ به حق لو كان أحدم أمياً (أنظر الرسالة ص ١٩٨ وقصة شيان الراعي مع الشافعي وابن حنبل) .

(٢) دقق البخيل = بالغ في التضييق في النفقة

وأما أرباب الحضور فليس في طالع الحق إلا انخاس النفس ، وفي مناه قالوا :

إذا ما بدا لي تعاطفته فأصدر في حال من لم يرد

قوله جل ذكره : ﴿ سُبْحَانَكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ

مَكْرُوهًا ۖ ذَكَرَكَ عَمَا أُوْحِي إِلَيْكَ

رُبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا ۚ آخِرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ

مَلُومًا مَدْحُورًا ۖ ﴾

إذا سَمِعْتَ الأقدامَ بِمَحْضٍ ساحتِ الشهود ، وعَطِرتِ الأسرارُ بنسيم القُربِ نَجْدَتِ
الأوقاتُ عن الحجة ، واستولى سلطان الحقيقة ، فيحصل التيقُّنُ من هذه الأوصاف اللدنية .

وقال تعالى تنبيهه : « ذَكَرَكَ عَمَا أُوْحِي إِلَيْكَ رُبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ » : بالوحي والإعلام ،
ولأوليائه تريف بحكم الإلهام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَفَاصِلَكُمْ رُبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَأَخَذَ

مِنَ اللَّامِ إِذَا نَأَىٰ عَنْكُمْ تَتَّبِعُونَ

قَوْلًا عَظِيمًا ۖ ﴾

جَوِّزُوا أَنْ يَكُونََ اللَّهُ — سبحانه — وَلَدٌ ، وَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَوْا حَتَّى جَعَلُوا
لَهُ مَا اسْتَكْفَوْا مِنْهُ لِأَنفُسِهِمْ ، فَمَا زَادُوا فِي تَمَرُّدِهِمْ إِلَّا عُتُوًّا ، وَفِي طَنِيَّتِهِمْ إِلَّا غُلُوءًا ،
وَعَنِ قَبُولِ الْحَقِّ إِلَّا نُبُوءًا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مِنْهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ

إِذَا لَا يَلْتَمِسُ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۖ ﴾

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوءًا

كَبِيرًا ۖ ﴾

يَبَيِّنُ أَنَّهُ لَوْ كَانَ الصَّانِعُ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ لَجَرَىٰ بَيْنَهُمْ تَضَادٌّ وَتَمَانُعٌ ، وَصَحَّ عِنْدَ ذَلِكَ
فِي صِفَتِهِ الْعَجْزُ ، وَذَلِكَ مِنْ سِمَاتِ الْمَحْدَثَاتِ .

ثم قال سبحانه — تنزيهاً له عن الشريك والظهير ، وللمعين والنظير :

﴿تَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ
وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْبَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ
إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيلاً غَفُوراً﴾

الأحياء من أهل السموات والأرض يُسَبِّحُونَ لَهُ تَسْبِيحاً ^(١) ، وغير الأحياء يسبح
من حيث البرهان والدلالة . وما من جزء من الأعيان والآثار إلا وهو دليل على الربوبية ،
ولكنهم إذا استمعوا توحيداً للإله تعجبوا — لجليلهم وتَعَسَّرَ إدراكهم — وأنكروا .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَمَلْنَا بَيْنَكَ
وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ .

أى أدخلناك في إيوانٍ حَفِظْنَا ، وضربنا عليك سرادقاتِ عصمتنا ، ومنعنا الأبدى
الخالصة عنك بملفئتنا .

قوله جل ذكره : ﴿وَجَمَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ
فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّهُمْ
فَقَرُوا ^(٢)﴾ .

صَرَّحَ بأنه خالقُ ضلالهم ، وهو المُنْبِتُ في قلوبهم ما استكنَّ فيها من فرط غواينهم ^(٣)
« وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ . . . أَحْبَبُوا أَنْ تَذَكَرَ آلَهُتُهُمْ ، قد ختم الله على
قلوبهم ، فلا حديثَ يُعْجِبُهُمْ إِلَّا مِنْ لَمْ شَكْلٌ وَمِثْلٌ .

(١) وردت (ماله) بالهم والصواب أن تكون (قلله) بمعنى أن تسبح الأحياء بالقول والتطيق .
(٢) يمكن أن تكون (نفورا) مصدراً من تَفَرَّيْتُمْ أى ولَّى ، ويمكن أن تكون جمع نافر
كفاعد وقعود .
(٣) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة يبنى على أصل في مذهب التشيى — نوهنا به سابقاً —
وهو أن الله خالق كل شيء — على الحقيقة — حتى أكساب البعاد ، هي له حكاً ولم ينفلا .

قوله جل ذكره: ﴿فَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْمَعُونَ﴾ إِذْ يَسْتَعِينُونَ

إِلَيْكَ وَإِذْ مَخْرَجُ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ

إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٣٥١﴾

كَلْبَسُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَحْرَاقَهُمْ ، وَأُظْهِرُوا الْوِفَاقَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، فَفَضَّحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَكَشَفَ أَسْرَارَهُمْ ، وَبَيَّنَّ مَقَائِمَهُمْ ، وَهَتَكَ أَسْتَارَهُمْ ، فَاتَنَطَوَّى عَلَيْهِ السَّرِيرَةُ لَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ لِأَهْلِ الْبَصِيرَةِ بِمَا يَبْدُو عَلَى الْأَسْرَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ

فَضَّلُوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

عَابَوْهُ بِمَا لَيْسَ بِنَقِيصَةٍ فِي نَفْسِهِ حَيْثُ قَالُوا : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا » أَيْ ذَا سِحْرِ . وَأَيُّ نَقِيصَةٍ كَانَتْ لَهُ إِذَا كَانَ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — مِنْ جِلَّةِ الْبَشَرِ ؟ وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَتَوَلَّى نَصْرَتِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ تَخْصِيصُهُ بِبَشَرَةٍ ، وَلَا بِصُورَةٍ ، وَلَا بِحِرَافَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ بِسَبَبِهِ وَإِنَّمَا بَانَ شَرَفُهُ لَجِلَّةِ مَا تَمَلَّقَ بِهِ لُطْفُهُ الْقَدِيمَ — سُبْحَانَهُ — وَرَحْمَتَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا أَأَتَيْنَا كُنُوزًا عَظِيمًا وَرَفَاتًا

أَتَيْنَا لَنَجْمِعَنَّوْنَهُ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

أَقْرَبُوا بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ ، ثُمَّ أَنْكَرُوا قُدْرَتَهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ بَعْدَ عَذَابِهِمْ ، وَلَكِنْ . . . كَأَنَّهُمْ جَزَأُوا أَنْ يُوْجِدَهُمْ أَوَّلًا وَهُمْ فِي كَيْفِ الْمَدَامِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَيْنٌ وَلَا أُذُنٌ ، وَلَكِنْهُمْ كَانُوا فِي مَتَانُولِ الْقُدْرَةِ وَمَتَمَلَّقُوا الْإِرَادَةَ ، فَكَيْفَ حَقُّ صَاحِبِ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ أَنْ يَسِيدَ إِلَى الْوُجُودِ مَرَّةً أُخْرَى .. وَهَكَذَا إِذَا رَمَدَتْ عَيْنُ قَلْبٍ لَمْ يَسْتَقْبِرْ صَاحِبُهُ .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا

أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ

فَسَقُولُونَ مَنْ يَغْيِدُنَا قُلْ الْغَى

فَلَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَنْفَضُونَ^(١)
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟
قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١﴾

أخير — سبحانه وتعالى — أنه لا يمتصى عليه مقدور لأنه موصوف بقدره أزلية ، وقدرته عامة التعلق ؛ فلا المشقة تجوز في صفته ولا الرضاية . فالتعلق الأول والإعادة عليه سيان ؛ لأن هذا عائد إليه ولا من ذلك ، لأن قدمه يمنع تأثير الحدوث فيه .

قوله جل ذكره : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِمَحْدُودٍ
وَتَقُولُونَ إِن كُنْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

يدعوكم فتستجيبونه وأنتم حامدون . فالحد بمعنى الشكر ، وإنما يشكر العبدُ على النعمة والآية تدل على أنهم — وهم في قبورهم — في نعمته .

قوله جل ذكره : ﴿وَقُلْ لِمَ أَدْعَى يَقُولُوا أَلَمْ يَكُنْ
أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَرْغُبُ بَيْنَهُمْ ،
إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا
مُبِينًا﴾

القولُ الحسنُ ما يكون لقائل أن يقوله . ويجوز أن يكون الأحسن مبالغة من الحسن ، فعلى هذا الأحسن من القول ما لا يجوز تركه . ويقال الأحسن من القول ما يخاف قائله من العقوبة على تركه . ويقال الأحسن من القول إقرار السُّحْبُ بعبودية محبوبه .

ويقال أحسن قول من المذنبين الإقرار بالجُرم ، وأحسن قول من العارفين الإقرار بالعجز عن المعرفة ، قال صلى الله عليه وسلم : سبحانه لا أحصى ثنائه عليك ، أنت كما أنثيت على نفسك .

(١) ينفضون رؤوسهم أي يركونها تبيها واستهزاء .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمَكُمْ
أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
عليهم وكيلًا ﴾

سدَّ على كلِّ أحدٍ طريقَ معرفته بنفسه لِيَتَمَلَّقَ كُلُّ قَلْبٍ بَرِيءٍ . وَجَعَلَ المَوَاقِبَ على أَرَابِهَا
مُشْتَبِهَةً ، قَالَ « رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ » . ثُمَّ قَدَّمَ حَدِيثَ الرَّحْمَةِ على حَدِيثِ الْعَذَابِ ، قَالَ :
« إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمْ » ، وَفِي ذَلِكَ تَرْجُّحٌ لِلْأَمَلِ أَنَّ يَقْوَى .

وَيُوصَفُ الْعَبْدُ بِالْعِلْمِ وَيُوصَفُ الرَّبُّ بِالْعِلْمِ ، وَلَكِنَّ الْعَبْدَ يَعْلَمُ ظَاهِرَ حَالِهِ ، وَعِلْمُ الرَّبِّ
يَكُونُ بِحَالِهِ وَبِمَا لَهُ ، وَلِهَذَا طَوَّلَ الْجَوَابُ على الْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ : أَنَا مَوْثِقٌ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذَا
مَعْنَى : « إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمَكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبَكُمْ » بِمَعْنَى قَوْلِهِ : « أَعْلَمُ بِكُمْ » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى
بَعْضٍ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾

فَضَّلَ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى بَعْضٍ فِي النَّبُوءَةِ وَالرَّجَاةِ ، وَفِي الرِّسَالَةِ وَالْمَنَافِعِ وَالْإِصْلَاحِ .
وَجَعَلَ نَبِيَّيْنًا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَفْضَلَ مِنْهُمَا ، فَهَمَّ كَالنَّجُومِ وَهُوَ بَيْنَهُمَا بَدْرٌ ، وَهُوَ كَالْبُحُورِ
وَهُوَ بَيْنَهُمَا شَمْسٌ ، وَهُوَ شَمْسٌ وَهُوَ شَمْسُ الشَّمُوسِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ
فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ
وَلَا تَحْيُولًا ﴾

اسْتَمِينُوا فَمَا يَسْتَعِينُكُمْ ^(١) بِالْأَصْنَامِ الَّتِي عِبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ حَتَّى تَتَحَقَّرُوا
أَنَّهُ لَا تَنْفَعُكُمْ عِبَادَةُ شَيْءٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَلَا يَضُرُّكُمْ تَرْكُ ذَلِكَ ، وَلَقَدْ قِيلَ فِي الْخُبَرِ : « مَنْ
حَسَنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكَ مَا لَا يَنْفَعُهُ » ^(٢)

(١) أَيُّ مَا يَسْتَعِينُكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ
(٢) رَوَاهُ أَحَدُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ ، وَاحِدٌ مِنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَالسَّكْرِيِّ
مِنْ عَلِيٍّ ، وَأَوْضَحَهُ الشَّيْخَانِ فِي تَخْرِيجِ الْأَرْبَعَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

يعني الذين يعبدهم ويدعونهم — كالسبيح وعزير والملائكة — لا يمكنون نفعا لأنفسهم ولا ضررا ، وهم يطلبون الوسيلة إلى الله أي يتقربون إلى الله بطاعتهم رجاء إحصان الله ، وطعنا في رحمته ، ويخافون العذاب من الله . . . فكيف يرفعون عنكم البلاد وهم يرجون الله ويخافونه في أحوال أنفسهم ؟

ويقال في المثل : تعلق الخلق بالخلق تعلق مسجون بمسجون .

ويقال : إذا انضم العتير إلى العتير ازدادا فاقة .

ويقال إذا قاد الضرير ضريرا سقطا معا في البئر ، وفي مناه أشدوا :

إذا التقى حدب واحد سبعون أحمى بمقادير

وسيروا بمضهم قائما فكلمهم يسقط في البئر

قوله جل ذكره: ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها

قبل يوم القيامة أو معدنوها عذابا

شديدا ، كان ذلك في الكتاب

مسطورا ﴾

العذاب على أقسام : فالألم الذي يرد على النفوس والظواهر يتصاغر بالإضافة إلى ما يرد على القلوب والسرائر ، فذاب القلوب لأصحاب الحقائق أحد في الشدة مما يصيب أصحاب الفقر والقلّة .

ثم إن الحق سبحانه أجرى سنته بأن من وصلت منه إلى غيره راحة أنسكت الراحة إلى موصلها ، وبخلاف ذلك من وصلت منه إلى غيره وحشة عادت الوحشة إلى موصلها .

ومن سام^(١) الناس ظُلماً وَخُفْئاً فَبَقْدَرِ ظُلْمِهِ يَمْدُهِ اللهُ — سبحانه وتعالى — في الوقت بتفخيص العيش، واستيلاء الغضب من كل أحد عليه، وتترجم ظنونه وتقسيم أسكوه في أحواله وأشغاله. ولو ذاق من راحة الفراغ وحلاوة الخلوة شظية تعلم ما علم الحياة.. ولكن حرموا النعم، وما علموا ما مَنُّوا به من النعم.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾
إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا
نُوحًا النَّاقَةَ مَبْصُورَةً نَظَّلُوا بِهَا^(٢)

أجرى الله سنته أنه إذا أظهر آية اقترحتها أمة من الأمم ثم لم تؤمن بها بعد إظهارها أن يجعل لها العقوبة، وكان المعلوم والمحكوم به ألا يمتنع العذاب القوم الذين كانوا في وقت الرسول — عليه السلام — لأجل من في أصلابهم من الذين علم أنهم يؤمنون؛ فذلك آخرتهم العذاب الذي تسبوه^(٣).

﴿وَمَا رُسُلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا نُفُوزًا﴾
التخويف بالآيات ذلك من مقتضى نجهله؛ فإن لم يخافوا وقع عليهم العذاب. ثم إنه علم أنه لا يفوته شيء بتأخير العقوبة عنهم فأخر العذاب، وله أن يفعل ما يشاء بمقتضى حكمه وعلمه.

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جِئْنَاكَ إِلَّا بُرْهَانًا﴾
لنَّاسٍ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ

(١) وردت (سام) بالصاد وهي غلط في النسخ.

(٢) اختار من الآيات التي اقترحتها الأولون ناقة صالح (عم) لأن آثار هلاكهم قريبة من حدود مصر ما سادهم وواردم.

(٣) من هائشة رضى الله عنها (.. ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك بك، وقد يئس مني إليك لتأمرن بأمرك فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين (جبلين يحيطان بمكة) فقال النبي (ص): بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يمد الله وحده لا يهلك به شيئا).

وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا
كَبِيرًا ﴿١١﴾

الإيمان بما خَصَّصْنَاكَ به امتحان لهم وتكليف ، لتمييز الصادق من المنافق ، والمؤمن من الجاحد ، فالذين تَدَارَكْتَهُمُ الْحَيَاةُ وقنوا وثبتوا ، وصَدَّقُوا بِمَا قِيلَ لَهُمْ وَحَقُّوا . وأما الذين خَامَرَهُمُ الشُّكُّ قُلُوبُهُمْ ، ولم تبشِّرْ خلاصه التوحيد أسرارهم ، فما ازدادوا بما امتحنوا به إلا تَحَرُّرًا وضلالًا وَتَبْهَلًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ﴾

امتنع الشق^١ وقال : لا أسجد لغيرك بوجه سَجَدْتُ لَكَ به ، وكان ذلك جهلاً منه ، ولو كان بالله عارفاً لكان لأمره مؤثراً ، ولحيط نفسه تاركاً .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَرِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لو علقت به ذرة من المعرفة والتوحيد لم يحطب^(٢) على نفسه بالإضلال والإغواء ، لكنه أقامه الحق بذلك المقام ، وأنطقه بما هو لقلوب أهل التحقيق مُتَضَيِّح .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾

(١) الرؤيا المقصودة هي التي سبقت يوم بدر ، وفيها بُشِّرَ بالنصرة وبأنه سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فسفروا منه . وربما كانت رؤيا المراح عند من قال إن المراح كل في التام .

والشجرة المسونة هي الزقوم حيث قالوا كيف يزعم محمد أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول إن بها ثلث شجرة ! لعلهما سخرية .

(٢) حَطَبَ = جَنَى على نفسه لئلا يفقد أمره وكلامه

واستغز من استعلت منهم بصوتك
وأجلب عليهم بحيثك ورجلك
وشاركهم في الأموال والأولاد ،
وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً *

هذا غاية التهديد ، وفيه إشارة وبيان بالأمراء ولا تقويت ، ولو أخر عقوبة قوم فإن
ذلك إهمال لا إهمال ، ومكر واستدراج لا إنعام وإكرام .

« واستغز من استعلت منهم بصوتك » : أى إضل ما أمكنتك ، فلا تأخير لعقوبتك
في أحد ، ، فإن النشوء والمُبدع هو الله . . وهذا غاية التهديد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
وَكُنْ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

السلطان الحجة ، فالآية تدل على العموم ^(١) ، ولا حجة للمتر على أحد ، بل الحجة لله وحده .
ويقال السلطان هو التسلط ، وليس لإبليس على أحد تسلط ، إذ القصور بالقنطرة الحادثة
لا يخرج عن محل القدرة الإلهية ، فالحادثات كلها تحدث بقدرة الله ، فلا لإبليس ولا لقوته
من المخلوقين تسلط من حيث التأثير في أحد ، وعلى هذا أيضاً فالآية للعموم .

ويقال أراد بقوله : « عبادي » الخواص من المؤمنين الذين هم أهل الحفظ والرحمة
والرعاية من قبل الله ، فإن وساوس الشيطان لا تضرهم لالتجأهم إلى الله ، ودوام استجارتهم
بالله ، ولهذا فإن الشيطان إذا قُرب من قلوب أهل المعرفة احترق بضياء ممارفهم .

ويقال إن فرار ^(٢) الشيطان من المؤمنين أشد من فرار المؤمنين من الشيطان .

والخواص من عبادهم الذين لا يكونون في أسر غيره ، وأما من استعبده هواه ،

(١) العموم هنا معناها الكافة أى الخواص وغير الخواص .

(٢) وردت (فرار) بإثبات وهي خطأ في النسخ كما هو واضح من السياق .

واستكننت منه الأملاء ، واسترقته^(١) كل خبيسة وقيصة فلا يكون من جملة خواصه .
وفي الخطب « تيسر عبد الهرم تمس عبد الدينار »^(٢)

ويقال في « عبادي » هم السقيئون في ظلال عنايته ، المتبرون عن حوائجهم وقوتهم ،
المتفردون بالله بحسن التوكل عليه وحوام التعلق به .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبِّكُمْ أَنَّى يُزْجَىٰ لَكُمْ الْفُلْكَ
فِي الْبَحْرِ لِنُبَيِّنُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه
كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

تتروى إلى عبادته بخلقه وإنعامه ، فما من حادث من عين أو أثر أو ظلال أو غير
إلا وهو شاهد على وحدانيته ، دال على ربوبيته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ
مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَاكُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا ﴾

جبل الإنسان على أنه إذا أصابته قمة ، أو مسته حنة فزع^(٣) إلى الله لاستدفاعها ،
وقد يستفد أنهم لن يودوا بعدها إلى ما ليس فيه رضا الله ، فإذا أزال الله تلك
الفتنة^(٤) وكشف تلك الحنة طاعوا إلى ما عنه تابوا ، كأنهم لم يكونوا في ضرر منهم ،
وفي مناه أشدوا :

فكم قد جهلتم ثم عدنا بحيلنا أحياءنا كم تجهلون ! ونحلم !

(١) وردت (ويرمى) ولا حتى لها هنا .

(٢) في رساله القشيري ص ٩٩ جاء هذا الخبر مضافاً إليه (. . . تمس عبد النجمة) .

(٣) وردت (فرغ) بلراء والأفضل أن تكون يراى

(٤) وردت (التهمة) وهي خطأ في النسخ .

قوله جل ذكره: ﴿أَتَأْمُرْتُمْ أَنْ يُخَفَّفَ بِكُمْ حِمْلُ الْبُرِّ أَوْ يَرْسَلَ عَلَيْكُمْ حَامِلاً ثُمَّ لَا تُجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ۖ أَمْ أَمُنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيَرْسَلَ عَلَيْكُمْ تَامِعًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرَقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا نَصِيحًا ۖ﴾

انظروا ترقب العقوبات مع مجارى الأفاضل — كذلك قال الشيوخ (١). وأعرفهم بالله أخوفهم من الله. وصنوف العذاب كثيرة؛ فكم من مسرور أول له أصبح في شدة؛ وكم من مهوم بات يتقلب على فراشه أصبح وقد جلاهته البشرى بكامل النعم؛ وفي مناه قالوا: إن من خاف الليالي لا يأخذه السبات. ووصفوا أهل المعرفة فقالوا:

مستوفزون على رجلي كأنهم يريدون أن يمضوا ويرتحلوا

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الْوُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۖ﴾

للراد من قوله: «بني آدم» هنا المؤمنون لأنه قال في صفة الكفار: «وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَهُوَ مِنْ مُكْرِمٍ» (٢). والتكريم التكثير من الإكرام، فإذا حرم الكافر الإكرام.. فحق يكون له التكريم؟

ويقال إنما قال: «كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» ولم يقل المؤمنين أو المايدين أو أصحاب الاجتهاد

(١) هذه الصبابة الجيدة كما جاء في رسالة التشيرى ص ٦٥ في رواية أبي عبد الله الصولى عن علي بن إبراهيم الكبرى.
(٢) آية ١٨ سورة الحج.

توضيحاً بأن التكريم لا يكون مقابل فعل، أو معللاً بصفة، أو مسبباً باستحقاقٍ يوجب ذلك التكريم.

ومن التكريم أنهم متى شاموا وقضوا معه على بساط المناجاة.

ومن التكريم أنه على أي وصف كان من الطهارة وغيرها إذا أراد أن يخاطبه مخاطبه، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سألته.

ومن التكريم أنه إذا تاب ثم قضى توبته ثم تاب يقبل توبته، فلو تكرر منه جرته ثم توبته يضاهف له قبوله التوبة وعفوه.

ومن التكريم أنه إذا شرع في التوبة أخذ بيده، وإذا قال: لا أعود — يقبل قوله وإن علم أنه ينقض توبته.

ومن التكريم أنه زين ظاهرهم بتوفيق المجاهدة، وحسن باطنهم بتحقيق المشاهدة.

ومن التكريم أنه أعطاهم قبل سؤالهم، وغفر لهم قبل استغفارهم، كنا في الأثر: «أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني».

ومن تكريم جعلهم أنه قال لهم: «فاذكروني أذكركم»^(١) ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن.

وكما خص بنى آدم بالتكريم خص أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — منهم بتكريم مخصوص، فن ذلك قوله تعالى: «يحييهم ويحيونه»^(٢) و«رضى الله عنهم ورضوا عنه»^(٣) وقوله «والذين آمنوا أشد حبا لله»^(٤).

ومن التكريم قوله: «ومن يعمل سوياً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً»^(٥).

(١) آية ١٥٢ سورة البقرة.

(٢) آية ٥٤ سورة المائدة.

(٣) آية ١١٩ سورة المائدة.

(٤) آية ١٦٥ سورة البقرة.

(٥) آية ١١٠ سورة النساء.

ومن التكريم ما ألقى عليهم من عجة المالح حتى أحياه .

ومن التكريم لقوم توفيق صدق القسّم ، ولقوم تحقيق علو الجّم . قوله : « وحلّناهم في البرّ والبحر » : سخر البحر لهم حتى ركبوا في السفن ، وسخر البرّ لهم حتى قال : « لا تسجدوا للشمس ولا القمر » .

ويقال محمول الكرام لا يقع ، فإن وقع وجَدَ مَنْ يأخذ بيده .

وقال الإشارة في حلّهم في البرّ ما أوصل إليهم جهراً^(١) ، والإشارة بحديث البحر ما أفردهم به من لطائف الأحوال سرّاً .

ويقال لما حلّ بنو آدم الأمانة^(٢) حلّناهم في البرّ ، فحلّ هو جزء حلّ ، حلّ هو فعل من لم يكن^(٣) وحلّ هو فُضِّل من لم يزل .

قوله : « ورزقناهم من الطيبات » : الرزق الطيب ما كان على ذكر الرزاق ؛ فمن لم يكن غائباً بقلبه^(٤) ولا غافلاً عن ربه استطاب كلّ رزقي ، وأنشدوا :

يا عاشق إني سَدَدْتُ شرايا لو كان حتى علقاً أو صاباً

قوله : « وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً » : أي الذين فضلناهم على خلق كثير ، وليس يريد أن قوماً بقوا لم يفضلهم عليهم ، ولكن المعنى أنا فضلناهم على كلّ مَنْ خَلَقْنَا ، وذلك التفضيل في الخلقة . ثم فاضل بين بني آدم في شيء آخر هو انطلق الحسن ، فجمعهم في الخلقة — التي يفضلون بها سائر المخلوقات — ومايزّ بينهم في الخلق .

ويقال : « كَرَّمْنَا بني آدم » : هذا اللفظ للمعوم ، والمراد منه الخصوص ، وهم المؤمنون ، وبذلك يفضل قومٌ على الباقين ، فَفَضَّلَ أوليائه على كثير من لم يبلغوا استحقاق الولاية .

(١) وردت (خيراً) والصواب أن تكون (جهراً) لتقابل سرّاً) وبذلك يقوى البياض ويناسب .
(٢) وردت (الأمانة) بلغاء ومن المؤكد أن الميم التبت على التاسخ والمراد (الأمانة) إشارة إلى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة . . . الآية » .
(٣) (من لم يكن) هو الإنسان و (من لم يزل) هو الرب سبحانه وتعالى .
(٤) غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم ينب عن إحساس نفسه وغيره (الرسالة ص ٤٠) .

ويقال فضلهم بالألّ ينظروا إلى نفوسهم بين الاستقرار ، وأن ينظروا إلى أعمالهم
بين الاستمرار .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنْثَىٰ بِإِمامِهِم مَّنْ
أَوْىٰ كِتَابَهُ يَمِينُهُ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ ﴾

إمام كل أحد مَن يَقْتَدِي به ، ولكن .. من إمام يبتدى به مُقْتَدِيه ، ومن إمام
يقرئ به مقتديه .

« فمن أوى كتابه يمينه فأولئك يقرءون كتابهم » : لكل محوم وقادة عقلم ،
والذين لا يؤتون كتابهم يمينهم فهم لخوفهم وترددهم لا يقرأون كتابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أُمَىٰ فَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ أُمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۖ ﴾

في الآخرة أمى عن هدايته ببصيرته .

في الآخرة عذاب الفرق وتضاف إليها الحرقه — لهذا فهو « أضل سبيلًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ إِلَٰهِ
أَوْ حِينَا إِلَيْكَ لِنَفْتِنَ ۚ عَلَيْنَا غَيْرِمَ
وَإِنَّا لَا نُخْلِفُ مَا نُبَيِّنُ ۚ ﴾

ضربنا عليك مرادفت المصصة ، وآويناك في كنف الرعاية ، وحفظناك عن خطر اتباعك
هواك ، فالزلة منك حال (١) ، والافتراء في فتاك لا يجوز . ولو جفحت لحظة إلى الخلاف
لنصاعفت عليك تشديدات البلاد ، لكل قدرك وعلو شأنك فإن من كان أعلى درجة
قدرة — لو حصل — أشد تأثيراً .

(١) وردت (مجال) بالميم وهي خطأ في النسخ ، ومن قول التشبيري يضع أنه يؤيد مصصة الأنبياء
من الزلات .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّاهُ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ
إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ لَأَذِقَنَّاهُ
ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ
لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝﴾

لو وكلناكَ وَنَفْسُكَ ، ورضنا عنكَ ^(١) نِلَّ الصِّمَّةَ لَأَلَمْتَ بِشَيْءٍ مَا لَا يَجُوزُ مِنْ خَالِفَةٍ
أمرنا ، ولكننا أفردناكَ بِالْإِنْفِظ ، فلا تنقص عنكَ آثاره ، ولا تقربُ عن ساحتكَ أنوارهُ .
قوله : ﴿ إِنَّكَ لَأَذِقَنَّاهُ . . . الآية ﴾ هبوطُ الأكابر على حسب صعودهم ، وَحِينَ الْأَجْبَةِ
وإن قُلْتَ جَلَّتْ ، وفي مناه أُنشدوا :

أنت عيني وليس من حق عيني غضُّ أجفاني على الأقدار

قوله جل ذكره : ﴿وإن كادوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ
الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِنَّا
لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾

مَنْ ظَنَّ (أ) أَنَّهُ يَسْتَمْنَعُ بِحَيَاةٍ بَعْدَ مَضَى الْأَعِزَّةِ ^(١) وَالْأَكْبَرِ غَلِطَ فِي حِسَابِهِ ، وَإِنْ
الْحُسُودَ لَا يَسُودُ :

وفي تعبير مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءُهَا (ويجهد أن يأتي لها) ^(٢) بضرب

وَالْأَرْضُ كُلُّهَا مِلْكٌ لَنَا ، وَتَقَلَّبَ أَوْلِيَاءُنَا فِي تَرَدُّدٍ فِي الْبِلَادِ وَتَطَوُّافِهِمْ فِي الْأَقْطَارِ ، تَرَدَّدًا
عَلَى بَسَاطَتِنَا ، وَتَقَلَّبًا فِي دِيَارِنَا ، فَالْبَقَاعُ لَمْ يَسَوَاءَ ، وَأُنشدوا :

(فَإِسْرَؤْ أَوْ أَمْرٌ) ^(٣) وَقَفَّ عَلَيْكَ عَجَبِي مَكَائِكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَعْصُونُ

(١) وودت (عليك) واللائم لسياق أن تكون (عنك) .

(٢) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

(٣) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

(٤) ما بين القوسين مستدرك في الهامش بخط رديء .

قوله جل ذكره: ﴿سُنَّةٌ مَّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ

رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾

الحق أمضى سُنَّتَهُ مع الأولياء بالإتمام ، ومع أعدائه بالإدغام^(١) ، فلا هذه أو هذه تحوِيل .

قوله جل ذكره: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِمُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى

غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ

الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

الصَّلَاةُ قَرُوعُ بَابِ الرِّزْقِ . وَالصَّلَاةُ الْوُقُوفُ فِي عَمَلِ الْمُنَاجَاةِ .

وَالصَّلَاةُ اعْتِكَافُ الْقَلْبِ فِي مَشَاهِدِ التَّقْدِيرِ .

ويقال هي الوقوف على بساط التجوى . وَفَرَّقَ أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ لِيَكُونَ الْعَبْدُ عَوْدًا إِلَى

الْبَسَاطِ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مَرَاتٍ .

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ : تَشْهَدُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ — عَلَى لِسَانِ الْعِلْمِ .

وَأَمَّا عَلَى لِسَانِ الْقَوْمِ فَإِنَّ قُرْآنَ الصَّبْحِ — الَّذِي هُوَ وَقْتُ إِقْبَانِهِ — يُبْعَدُ مِنَ النَّوْمِ وَكَرِّهِ النَّفْسِ فَلَهُ هَذِهِ الْمِزِيَّةُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِكَ

عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾

اللَّيْلِ لِأَحَدِ أَقْوَامٍ : لِطَالِبِي النِّجَاةِ وَهُمْ الْعَاصُونَ مَنْ جَنَعَ^(٢) مِنْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ ، أَوْ لِأَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ وَهُمْ الَّذِينَ يَجِدُّونَ فِي الطَّاعَاتِ ، وَيَسَاعِدُونَ فِي الظُّلُمَاتِ ، أَوْ لِأَصْحَابِ الْمُنَاجَاةِ مَعَ الْمُحِبُّوبِ عِنْدَمَا يَكُونُ النَّاسُ فِيهِمْ مِنَ التَّفَلُّهِ وَالنَّبِيَّةِ .

ويقال اللَّيْلِ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ : لِلطَّيِّعِ وَالْعَاصِي : هَذَا فِي احْتِمَالِ أَعْمَالِهِ ، وَهَذَا فِي اعْتِنَائِهِ مِنْ قَبِيحِ أَعْمَالِهِ .

(١) أدغمه لغة إدغام أي سود وجهه وأذله (الوسيط) .

(٢) وددت (نحيب) وهي غلظة في النسخ .

والمقام المحسود هو المخاطبة في حال الشهود ، ويقال الشهود .

ويقال هو الشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خُصَّ به — صلى الله عليه وسلم ^(١) — بما لا يشاركه فيه أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ
وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي
مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾

أى أدخلني إداخلَ صِدْقٍ وأخرجني إخراجَ صِدْقٍ . والصدق أن يكون دخوله في الأشياء
بالله لا لغيره ، وخروجه عن الأشياء بالله لا لغيره .

« واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً » : فلا ألاحظ دخولي ولا خروجي .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ
الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

أراد بالحق ما هنا الإسلام والدين ، وأراد بالباطل الكفر والشرك ، والحق المطلق هو
الموجود الحق ، والحق المتعبد ما كان حسناً في الاعتقاد والفعل والنطق ، والباطل تقيض الحق .
والله حق : على معنى أنه موجود وأنه ذو الحق وأنه يُحقُّ الحق ^(٢) .

ويقال الحق ما كان لله ، والباطل ما كان لغير الله .

ويقال الحق من الخواطر ما دعا إلى الله ، والباطل ما دعا إلى غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمُنْزَلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ
وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ
إِلَّا خَسَارًا ﴾

القرآن شفاء من داء الجهل للمسلماء ، وشفاء من داء الشرك للمؤمنين ، وشفاء من داء

(١) إضافة من جانبها حتى يتضح السياق .

(٢) قارن ذلك بنظرية « وحدة الوجود » وما تراه في معنى « الوجود » و « الحق » .

النكرة للعارفين ، وشفاء من لواجع الشوق المحبين ، وشفاء من داء الشغلط للريدن
والقاصدين ، وأنشدوا :

وَكُتِبَ لَكَ حَوْلِي لَا تَفَارِقْ مُضْجِي وَفِيهَا شِفَاؤُ الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ

قوله : « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » : الخطاب خطابٌ واحد ، والكتابُ كتابٌ واحد ، ولكنه لقومٍ رحمةً وشفاء ، ولقومٍ سخطٌ وشفاء . قومٌ أنار بصائرهم بنور التوحيد فهو لهم شفاء ، وقومٌ أغشى على بصائرهم بستر الجحود فهو لهم شفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ ، وإذا تمّ الشكرُ كان يؤسّاً .

إذا زعنا عنه موجبات الطوفان ، وأرخينا له حبلَ الإهمال ، وهبنا له أسبابَ الرهابة اعترته مغاليطُ النسيان ، واستولت عليه دواعي المصيان ، فأعرض عن الشكر ، وتباعد عن بساط الوفاق .

ويقال إعراضه في هذا الموضوع لسيئه ، ورؤية الفضل منه لا من الحق ، وتوجهه أن ما به من النعم فياستحقاق طاعةٍ أخلصها أو شدة قساها . . وهذا في التحقيق شرك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ فَمَنْكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

كُلٌّ يترشح بمؤثر باطنه ، فالأيسرُ تدل على السريرة ، وما تكتفه الضائرُ يلوح على السرائر ، فمن صفات الكدوة جوهره لا يفوح منه إلا نشر مناقبه ، ومن طبيعت الكدوة طينته فلا يشم من يحوم حوله إلا ريح مثالبه .

ويقال حركت الظواهر تدل وتخير عن يواطن السرائر .

ويقال حبّ (. . .) (١) لا يُنْجِتُ غَضَّ العود .

(١) معلقة .

وقال من عُجِزَتْ بِمَاءِ الشَّقَرَةِ طَيْبَتُهُ ، وَطُيِبَتْ عَلَى الشُّكْرَةِ جَيْبَتُهُ لَا نَسْجَ بِالتَّوَجُّدِ قَرِيبَتُهُ ، وَلَا تَنْطِقُ بِالتَّوْحِيدِ عِبَارَتُهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

أرادوا أن يجادلوه ويُقْلَبُوهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْطِقَ بِلَفْظٍ يُفْصِحُ عَنْ أَقْسَمِ الرُّوحِ ؛ لِأَنَّهُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ « الرُّوحِ » يَدْخُلُ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾

وقال إن روح العبد لطيفة أودعها الله سبحانه في القالب ، وجعلها محل الأحوال الطليقة والأخلاق المحسوسة ، (وكما يصح أن يكون البَصَرُ محلَ الرُّؤية والأُذُنُ محلَ السَّمْعِ .. إلى آخره ، والبصير والسامع إنما هو الجلّة — وهو الإنسان — فكذلك محل الأوصاف الحميدة الروح ، ومحل الأوصاف للذمومة النفس ، والحكم أو الاسم راجع إلى الجلّة)^(١)

وفي الجلّة الروح مخلوقة ، والمحق أجرى العادة بأن يخلق الحياة للعبد ما دام الروح في جسده .

والروح لطيفة تفررت لكافة طهراتها ولطافتها ، وهي مخلوقة قبل الأجساد بألوف من السنين . وقيل إنه أدركها التكليف ، وإن لها صفاء التسييح ، وصفاء للمواصلات ، والتعريف من الحق .

« وما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » : لِأَنَّهُ أَحَدًا لَمْ يَشَاهِدِ الرُّوحَ بِبَصَرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَكِنْ شِئْنَا كَنَدَهُنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾

(١) ما بين التوسين مضطرب اضطراباً شديداً في النسخ ، وقد عدنا إلى رسالة التشيرى فاعتمدنا عليها في تنظيم السباق بقدر الإمكان . (أنظر الرسالة ص ٤٨) .

سُئِلَ الْحَقُّ - سبحانه - مع أحبائه وخوادم عباده أن يُدِيمَ لهم اقتدارهم إليه ، ليكونوا في جميع الأحوال مُقْتَدِرِينَ لِمَ جِئَانِ حُكْمِهِ ، وألا يتحركَ فيهم عِرْقٌ بخلافِ اختيارِهِ ، وعلى هذه الجملة خاطبَ حبيبَهُ - صلوات الله عليه - بقوله : « ولو شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك » : (فن كن استغلا بالله يقدم)^(١) مراد سيده - في النزول والولاية - على مراد نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كُنَّ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

والمقصودُ (من هذا إدامة تَعَرُّدِ سِرِّهِ)^(٢) صلى الله عليه وسلم به - سبحانه - دون غيره .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لِّئِي اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ هَذَا الْقُرْآنُ لَا يَأْتُونَ بِبَيِّنَةٍ وَلَوْ كَانُ بِمَشْهُمٍ لَبَعْضٌ ظَهِيرًا ﴾

(صائر الأنبياء)^(٣) معجزاتهم باقيةً حُكْمًا ، ونبيُّنا - صلى الله عليه وسلم - معجزته باقيةً حينًا ، وهي القرآن (الذي تنلوه ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه)^(٤) ولا من خلفه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

لا شيء ، أَتَحْفَى عند الأجباب من كتاب الأجباب ، فهو شفاء من داء الضي ، وضياء لأسرارهم عند اشتداد الظلام ، وفي معناه أنشأوا :

وكبك حول لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتم

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) مدونة في أعلى الورقة بعلامات مميزة لمكانتها من النص ، وقد أثبتنا كلا في موضعه .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا
 مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ
 لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ
 الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فُجُورًا * أَوْ تَقَطَّعَ
 السَّيْلُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا
 أَوْ تَأْتِي بِنَاغٍ لَوْلَا كِتَابُكَ قَبِيلًا
 * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذُرُوفٍ
 أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ
 بِرُفُوكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدًا
 فَقَرَّؤْهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ
 إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾

افترضوا الآيات بعد إزاحة اليلة وزوال الحاجة ، فَرَكَّضُوا في مضارع سود الأدب ،
 وُحَرِّمُوا الوصلة والقربة . ولو أُجِيبُوا إلى ما طلبوا ما ازدادوا إلا نُجْحًا ونكرة ،
 وقد قيل :

إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا حَبَاكَ يُوَدُّ سَتَرَ الْقَبِيحَ وَأَظْهَرَ الْإِحْسَانَ
 وَكَدَا الْمَلُولُ إِذَا أَرَادَ قَطِيعَةً مَلَّ الْوَصَالَ وَقَالَ كَانَ وَكَانَا

« قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا » : قل يا محمد : سبحان ربِّي اِئْمِنْ لِي
 الْإِيتِيَانِ بِمَا سَأَلْتُ مِنْ جَنِّي ؟ فَهَلْ وَصَفِي إِلَّا السُّبُودِيَّةُ ؟ وَهَلْ أَنَا إِلَّا بَشَرٌ ؟ قَالَ تَعَالَى :
 « لَنْ يَسْتَكْفِرَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ » (١)

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ
 جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ ظَالُوا أَبْغَتْ
 أَفْئِدَةُ بَشَرًا رَسُولًا﴾

(١) آية ١٧٢ سورة النساء .

تسجّوا^(١) مما ليس بحلٍّ مُشبهة ، ولكن حَلَمَهم على ذلك فَرَطَ سَجْوَلهم ، ثم أَمَرُوا على تكذيبهم وجعلهم -

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمُشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ أَتَوَلَّوْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾

الجنسُ إلى الجنس أميلُ ، والشكلُ بالشكل آتسُ ، قال سبحانه لو كان سكانُ الأرض مَلَائِكَةً لَجَعَلْنَا الرُّسُولَ إِلَيْهِمْ مَلَكَاً ، فَمَا كَانُوا بِشَرًّا فَلَآ يَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَدَ إِرسَالُ الْبَشَرِ إِلَى الْبَشَرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِمَا دِهَ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

الحقُّ — سبحانه — هو الحاكم وهو الشاهد ، ولا يُقاسُ حُكْمُهُ على حُكْمِ الْخَلْقِ ، ولا يجوز في صفةِ الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ الْحَاكِمُ هو الشاهد ، فكَأَلَا تشبه ذاته ذاتَ الْخَلْقِ لا تشبه صفته صفةَ الْخَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِدْهُ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُهْدِيَهُ لِمَ أُولِيَاءِهِ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يَعْصِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجْهِهِمْ عُنْيًا وَيَكْتُمُوا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾

مَنْ أَرَادَهُ بِالسَّعَادَةِ فِي آزَالِهِ اسْتَخْلَصَهُ فِي آبَادِهِ بِأَفْضَالِهِ ، وَمَنْ عَلِمَهُ فِي الْأَزَلِ بِالشَّقَاءِ وَتَمَّهَ فِي أَبَدِهِ بِسِمَةِ الْأَعْدَاءِ . فَلَآ لِحُكْمِهِ مَحْوِيلٌ ، وَلَا لِقَوْلِهِ تَبْدِيلٌ .

(١) وردت (تسجروا) والمعنى يقتضى (تسجّوا) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكْ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
وَقَالُوا إِنَّمَا كُنَّا عِبَادًا مُّرْسَلِينَ
إِنَّمَا يُبْعَثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

لما أصرُّوا على تكذيبهم جزاءهم الحقُّ بإدانة تعذيبهم ، ولو ساعدتهم التوفيقُ لَوَجِدَ منهم التحقُّق ، لكنهم عَدِمُوا التَّنَائِيدَ فَعُزِمُوا التَّوْحِيدَ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ
يَخْلُقَ رِشْقًا وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَالًا لَا رَيْبَ
فِيهِ فَأَنَّى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

مَهَّدَ بِهَذِهِ آيَةِ طَرِيقِ إِثْبَاتِ الْقِيَاسِ ^(١) ، فَلَمْ يَنَافِرْ فِي الْكِتَابِ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ
لَمْ يُؤَيِّدْهُ بِالْأَدِلَّةِ وَالْبَيِّنَاتِ ^(٢) ، فَتَمَلَّكَ الْكُلُّ أَنَّ الرُّكُونَ إِلَى التَّقْلِيدِ عَنِ الْخَطِئِ وَالضَّلَالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّهُمْ تَمَلَّكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ
رَبِّي إِذْنًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ
وَكُنَّ الْإِنْسَانُ قَنُودًا ﴾

إِذَا الْبُخْلُ غَرِيضَةُ الْإِنْسَانِ ، وَالشَّحُّ سَجِيئَتُهُ [(. . .)] ^(٣) الْمَعْرُوفُ لَا يَعْرِفُ الْخَلْقَةَ ^(٤)

(١) مِنْ هَذَا نَرَفُ أَنَّ الْقَشِيرَى مُؤْمِنٌ بِأَهْمِيَّةِ الْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ ضَمَّنَ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ مَصَادِرِ الشَّرِيعَةِ
وَقَدْ هَذَا رَدُّ عَلَى مَنْ يَتَّبِعُ الصُّوفِيَّةَ بِالتَّكْثُرِ لِقَوْلِهِمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ حَرِصُونَ كُلَّ حَرَسٍ عَلَى تَبْصِيحِ الْإِيمَانِ
فِي مَرَاهِلِ الْبِدَايَةِ عَنْ طَرِيقِ الْوَسَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ .

(٢) وَمِمَّا كَانَتْ (الْبِرْهَانُ) بَدَلُ (الْبَيِّنَاتِ) ، فَالْبِرْهَانُ أَقْرَبُ إِلَى (الدَّلِيلِ) وَإِلَى (الْقِيَاسِ) كَمَا أَنَّ
الْبَيَانَ — فِي مَذْهَبِ الْقَشِيرَى الْمَعْرُوفِ — مَرَحَلَةٌ قَلِيلَةٌ وَلَيْسَتْ عَقْلِيَّةً .

وَمَعَ ذَلِكَ فَتَدْرِكُ الْقَصُودَ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَمْ يَنَافِرْ شَيْئًا إِلَّا بِإِيْدِهِ (بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ) وَ (الْبَيِّنَاتِ) النَّاقِيَةِ .

(٣) هَذَا يَبَيِّنُ فِي الْأَسَلِ .

(٤) مَا بَيْنَ التَّوَسُّعِ الْكَبِيرِ وَوَدِّ هَكَذَا وَفِيهِ غَمُوضٌ نَائِجٌ عَنْ سَقُوطِ مَا سَبَقَ .

قوله جل ذكره . ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ

بَيِّنَاتٍ ﴾

هي أمارات كرامته وعلامات محبته .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى

مَسْحُورًا ﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ

إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ

وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾

أنت — يا فرعون — سلكت طريق الاستدلال فقلت أن مثل هذه الأشياء لا يكون أمرها إلا من قِبَلِ اللَّهِ ، ولكنك رَكَنْتَ إِلَى الْفِتْنَةِ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ فَرَأَى مِنْ الْأَرْضِ

فَافْرَقَةٍ وَمِنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾

أراد فرعون إهلاك بني إسرائيل واستتصالحهم ، وأراد الحق — سبحانه — نصرتهم ويقادهم ، فكان ما أراد الحق لا ما كاد العين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

اَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

أورنهم منازل أعدائهم ، ومكنهم من ذخائرهم ومساكنهم ، واسنوصهم بهم شكره ، وعرفهم أنهم إن ملكوا في المصيان مَنَّكَ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ ذَا قُوَّةٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ مثل هتوبتهم .

(١) عن ابن عباس أنها الصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والجحر والبحر والطور الذي تنه على بني إسرائيل . وعن الحسن أنها الطوفان والسنون ونس الثرات مكان الجحر والبحر والطور .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْحَقُّ أَنزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
وقرأنا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ
عَلَى مُكْتَفٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾

القرآن حق ، ونزوله بحق ، ومُنَزَّلُهُ حق ، والمُنَزَّلُ عليه حق ، فالقرآن بحق نزول ومن
حق نزول وعلى حق نزول . وقد فَرَّقَ القرآنَ لِيَهَيَّؤَ عليه — صلوات الله عليه — حِفْظَهُ ،
وليكثر تردد الرسول من ربه عليه ، وليكون نزوله في كل وقت وفي كل حادثة وواقعة دليلاً
على أنه ليس مما أَعَان عليه غيره .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا
يُنْزِلُ عَلَيْهِمْ يُخْبِرُونَ لِلْأَذْقَانِ
سُجْدًا﴾ ويقولون سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ
كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ .

إِنْ آمَنْتُمْ حَصَلَ النَّفْعُ لَكُمْ ، وَإِنْ جَعَلْتُمْ فِي إِيْمَانٍ مَنْ آمَنَ مِنْ أَوْلِيَانَا عَنْكُمْ
خَلَفَ ، وَإِنْ الضَّرَرَ مَالُهُ عَلَيْهِمْ .

وإِنْ مَنْ أَعَانَا عَلَيْهِمْ شُحُوسَ إِيْقَابَانَا لِنُشْرِقَ أُنُورُ سَارِفِهِمْ ؛ فَإِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِمْ
أَيُّنَا سَجَدُوا بِذَلِكَ جَعَلْتُمْ ، وَاسْتَجَابُوا بِدَلْ تَرَدُّمٍ ، وَقَابَلُوا بِالتَّصَدِيقِ مَا يُقَالُ لَهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿وَيُخْبِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بِيَدِهِمْ
خُشُوعًا﴾ .

تأثيره في قلوب قوم يختلف ؛ فتأثير السماع في قلوب العلماء بالتبصر ، وتأثير السماع

في أنوار الموحدين بالتحير^(١)؛ تبصر العلماء بصحة الاستدلال، وتغير الموحدين في شهود
الجمال والجلال .

وبكامل واحد على حسب حاله : فالتائب يبكي غلوف عقوبته لما أسلفه من زكّ
وحوبته ، والمطيع يبكي لتقصيره في طاعته ، ولكيلا يفوته ما يأمله من مثته .

وقوم يبكون لاستنبههم عاقبتهم وسابقتهم عليهم .

وآخرون بكأوم بلا سبب متعين . وآخرون يبيكون نحسراً على ما يفوتهم من الحق .

والبكاء عند الأكابر مألوف^(٢) ، وهو في الجملة يدل على ضعف حال الرجل ، وفي معناه أنشدوا :

خَلُقْنَا رَجُلًا لِلتَّجَلُّدِ وَالْأَمْسِ وَتَكَتِ النَّوَانِي لِلْبُكَاءِ وَالْمَأْسَمِ

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ

أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

من عظيم نعمته — سبحانه — على أوليائه تنزههم بأسرارهم في رياض ذكره بتعداد
أسمائه الحسنى من روضة إلى روضة ، ومن تأتس إلى تأتس .

ويقال الأفتياء ترددم في بسائتهم ، والأولياء تنزههم في مشاهد تسبيحهم ، يستروحون
إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جلاله وجهه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا

وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ .

لا تجهر بجميها ، ولا تخافت بكها ، وارض صوتك في بعضها دون بعض .

ويقال ولا تجهر بها جبراً يسمعه الأعداء ، ولا تخافت بها حيث لا يسمع الأولياء .

« وابتغ بين ذلك سبيلًا » : يكون للأصحاب مسموعاً ، وعن الأجانب ممنوعاً .

(١) ليس (التحير) هنا ناجباً عن الشك ، وإنما ناجم عن شدة الوله وعنف الأخذ .

(٢) لأن الأكابر في حال التمسكين لا للتفوق .

ويقال « ولا تخبر بصلائك » : بالهلو ، « ولا تخافت بها » : بالليل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكُوتِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُلُوٌّ مِنَ الْأَثَلِ وَكُبِّرَهُ تَكْبِيرًا ۝ ﴾ .

أحمدَه يذكر قدسه عن الولد ، وأنه لا شريك له ، ولا ولي له من القل ؛ إما على أنه لم يَنْدَلْ فيحتاج إلى ولي ، أو على أنه لم يرالِ أحداً من أجل منة به فيدفعها بموالاته . ويقال أشكره على نعمته العظيمة حيث عرفك بذلك .

ويقال له الأولياء ولكن لا يعترهم يَدْلُهُمْ ، إذ يصيرون بعبادته أَعِزَّةً .
« وكُبِّرَهُ تَكْبِيرًا » بأن تَعَمَّ أَتَكَ تَصِلُ إليه به لا بتكبيرك .

السورة التي يذكر فيها الكهف

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ﴾

ما سَمِعَتْ القلوبُ إلا بسماع اسم الله ، وما استنارت الأسمارُ إلا بوجود الله ، وما طَوَّيَتْ الأرواح إلا بشهود جلال الله .

سماع « بسم الله » راحة القلوب وضيؤها ، وشفاء الأرواح ودواؤها .

« بسم الله » قُوْتُ المارفين ؛ بها يزول كدُّهم وعناؤهم ، وبها استغلام وبقاؤهم ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝ ﴾

(١) لاحظ الربط بين تفسير البسمة في أول هذه السورة وبين قصة أهل الكهف ، الذين فتوا عن أنفسهم لبغائهم بالله .

إذا حُلَّ « الحمد » هنا على معنى الشكر فإزال الكتاب من أجل نفعه ، وكتاب الحبيب
 لدى الحبيب . أجل موقر وأشرف حل ، وهو من كمال إنعامه عليه ، وإن تم له — عليه
 السلام — عبده فهو من جلال نفعه عليه لأن من سمّاه عبده جعله من جملة خواصه .
 وإذا حُلَّ « الحمد » في هذه الآية على معنى المسح كان الأمر فيه بمعنى التنازل عليه —
 سبحانه ، بأنه الملك القوي له الأمر والنهي والحكم بما يريد ، وأنه أعد الأحكام التي في هذا
 الكتاب للعباد ، وسمّاه صلى الله عليه وسلم عبده لما كان ثانياً من حظوظه ، خالصاً لله
 بقيامه بمحقوقه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ ﴾
 « قَيِّماً » : أي صانه عن التمازض والتناقض ، فهو كتاب عزيز من رب عزيز .
 « والبأس الشديد » : مُعْجَلُ الفراق ، ومُؤْجَلُ الاحتراق .
 ويقال هو البقاء عن الله تعالى ، والابتلاء بغضب الله .
 ومعنى الآية لينذرهم ببأس شديد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ
 الصَّالِحِينَ أَنْ لَّمْ أُجْزَإً حَسَنًا ﴾ .
 والعمل الصالح ما يصلح لقبول ، وهو ما يؤدي على الوجه الذي أمر به . ويقال العمل
 الصالح ما كان بنت الخلوص ، وصاحبه صادق فيه .
 ويقال هو الذي لا يستعمل عليه صاحبه حَقّاً في الدنيا من أخذ عِوَضٍ ، أو قبولِ جِاِءٍ ،
 أو انتقادِ رِيسَةٍ . . وما في هذا المعنى .
 وحصلت البشارة بأن لم أُجْزَإً حَسَنًا ، والأجر الحسن ما لا يجري مع صاحبه استقصاء
 في العمل .

ويقال الأجر الحسن ما يزيد على مقدار العمل .
 ويقال الأجر الحسن ما لا يدرك صاحبه قصيره ، ويستتر عنه عيوب عمله .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كَثِيرٌ فِيهِ أَيْدَا ﴾

البشارة منه أن تلك التَّم على الدوام غير منقطعة ، وأعظم من البشارة بها قوله (١) :

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ ظَالَمُوا اتَّخَذُوا اللَّهَ وَلَدًا •

مَالِم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِبَالِهِمْ كُتِبَتْ

كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ

إِلَّا كَذِبًا •

قَالَهُمُ الصَّيْحَةُ تَبِيعُوا جَهَنَّمَ يَوْحَدَانِيَةِ اللَّهِ ، ولقد توارثوا ذلك الجمل عن أسلافهم ؛
والْحَيَّةُ لَا تَلِدُ إِلَّا حَيَّةً ۝

كُتِبَتْ كُلُّهُمْ فِي الْإِيمَانِ مَا خَسَتْ فِي الْمَقِي . وَمَنْ نَطَقَ بِمَا يَحْصُلُ لَهُ بِهِ إِذِنْ لَحِقَهُ هَذَا
الوصف . وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذَا الشَّأْنِ قَبْلَ أَوَانِهِ قَدْ دَخَلَ فِي غَمَرٍ هَوْلَاءِ (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَ بِأَنفُسِكُمْ عَلَى آثَارِهِمْ

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِمَا الْحَدِيثِ آسَفًا •

مِنْ فَرَطٍ شَفَقْتَهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — دَاخَلَهُ الْحَزَنُ لِامْتِنَاعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ ،
فَهَوَّنَ اللَّهُ — سَبَّحَانَهُ — عَلَيْهِ الْحَالَ ، بِمَا يَشْبَهُ الْعَتَابَ فِي الظَّاهِرِ ؛ كَأَنَّهُ قَالَ لَهُ : لِمَ كَسَلْتَ هَذَا ؟
لَيْسَ فِي امْتِنَاعِهِمْ — فِي عَدَّتِنَا — أَثَرٌ ، وَلَا فِي الَّذِينَ مِنْ فَتْكِ ضَرَرٌ .. فَلَا عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ .
وَيَقَالُ أَشْهَدُ جَرِيانَ التَّنْذِيرِ ، وَعَرَفَهُ أَنَّهُ — وَإِنْ كَانَ كَهْرُومٍ مُنْهِيًا عَنْهُ فِي الشَّرْعِ —
فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُرَادُ الْجَلْقِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا •

(١) للبشارة بالآية التالية أعظم لأن المؤمن يعلم أن الله لا يفر أن يترك به ويفتر ما دون ذلك
لن يشاء .

(٢) في هذه الإشارة غمرة بمن يظنون — يدعوى الحق — بما لا يليق .

ما على الأرض زينة لما تُدْرَكُ بالأبصار ، ومن على الأرض من هو زينة لما يُعْرَفُ
بالأسرار . وإنَّ قِبةَ الأوطانِ لقطائبُها ، وزينةُ المساكنِ في سُكَّانِها .

ويقال العباد بهم زينة الدنيا ، وأهلُ المعرفة بهم زينة الجنة .

ويقال الأولياء زينةُ الأرضِ ومُأمانُ مَنْ في الأرضِ .

ويقال إذا تَلَّاتْ أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرقت جميع الآفاق بضياهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبْلُومُ أَهْلِهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

أحسنهم عملاً أصدقهم رتبةً ، وأخلصهم طويةً .

ويقال أحسنهم عملاً أكثرهم احتساباً ؛ إذ لا ثوابَ لمن لا حسبةَ له ، وأعلى من هذا بل
وأولى من هذا فأحسنهم عملاً أشدهم استنصاراً لفعله ، وأكثرم استحقاقاً لطاعته ؛ لشدة
رؤيته لتقصيره فيما يسره ، ولانتقامه أفضاله في جنب ما يستوجبه الحقُّ بحقِّ أمره .

ويقال أحسنُ أعمال المرءَ نَظَرُهُ إلى أعماله بين الاستحقار والاستنصار ، لقول الشاعر :

وأَكْبَرُ من فِعْله وأعظمه تصغيرُهُ فِعْله الذي فَعَله

معناه : أَكْبَرُ من فِعْله — الذي هو عطاؤه وبدَّله — تقليله واستنصاره لبناً يُعْمَلُ به

ويجود به .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا

جُرُزًا ﴾

كَوْنُ ما على الأرضِ زينةً لما في الحلالِ سُلْبِ قَدَرُهُ بما أخبر أنه سيُفْنِيهِ في المالِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَهْلَ الْكَهْفِ

وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾

أزال الإعجوبةَ عن أوصافهم بما أضافه إلى ربه بقوله : « من آياتنا » ؛ فَتَلَبُّ المائدةِ
من قِبَلِ اللَّهِ غَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ وَلَا مُبْتَدِعٍ .

ويقال مكتوا في الكهف مائة فأضافهم إلى مُسْتَقَرِّم فقال : « أصحاب الكهف » ،
ولفنوس محال ، ولقلوب مقار ، ولهم بحال ، وحينما يتكف يطلبُ أبداً صاحبه^(١) .

ويقال الإشارة فيه ألا تتعجب من قصتهم ، فإلّا أعجب في ذهابك إلينا في شطر من
الليل حتى قلب قوسين أو أدنى^(٢) ، وهم قد بقوا في الكهف سنين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ
فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ ﴾

آرام إلى الكهف بظاهرم ، وفي الباطن فهو مُقِيلُهم في ظلِّ إقباله وعنايته ، ثم أخذهم
عنهم ، وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون عن شواهدهم^(٣) .

وأخير من ابتداء أمرهم بقوله . « ربنا آتانا من لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا » :
أى أنهم أخذوا في التبرّي من حَوْلِهِمْ وَفُوتِهِمْ ، ورجعوا إلى الله بِصِدْقٍ فَأَقِيمَ ، فاستجاب لهم
دموئهم ، ودفع عنهم ضرورتهم^(٤) ، وبوأهم في كنف الإيواء مقبلاً حسناً .

قوله جل ذكره : ﴿ فَفَرَرْنَا عَلَى آثَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ مَعْدَدًا ۝ ﴾

أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم ، واختطفناهم عن شواهدهم بما استفرقناهم فيه من
حقائق ما كشفناهم به من شهود الأحدية ، وأطلعناهم عليه من دوام نبت الصبديّة .

(١) معنى العبارة يطلب صاحب المكان من حيث المكان الذي يتكف فيه .

(٢) يشير التشبُّير بذلك إلى المثرة الزمنية التي وصل إليها المصطفى — صلوات الله عليه — ليلة الإجماع
والمرجع ، وكيف أنه انتهى في ليلة واحدة إلى ما لم يصل إليه أصحاب الكهف في سنين .

(٣) واضح أن التشبُّير بما في قصة أهل الكهف في ضوء حال الفناء وحال البقاء . . وهذا من النماذج
التي يقدمها التصوف لتفسير الظواهر العجيبة التي تغلب فيها العبادة ، ويحار فيها العقل .

(٤) يقصد من الضرورة هنا ما يؤم الإنسان من طعام وشراب ويحتس من بنائها . . . ونحو ذلك .

« وربطنا على قلوبهم » : بزيادة اليقين حتى منع نهار^(١) معارفهم ، واستنضات شعوس^(٢) تقديم ، ولم يبقَ للتردد مجال في خواطرهم ، و (...)^(٣) في التجريد أسرارهم ، وتمت سكينَةُ قلوبهم .

ويقال « ربطنا على قلوبهم » : بأن أفينناهم عن الأغيار ، وأغفينناهم عن التفكير بما أوليناهم من أنوار التبصُّر .

ويقال ربطنا على قلوبهم بما أسكَّنَّا فيها من شواهد الغيب ، فلم نسمح فيها هواجسُ التخمين ولا وساوس الشياطين .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قاموا لله بالله ، ومنَّ قام بالله فَعَدَّ عَمَّا سِوَى اللَّهِ .

ويقال من قام لله لم يقم حتى يصل إلى الله .

ويقال قدمت عنهم الشهوات فصَحَّ قيامهم بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾

من أحوال الشيء على الحوادث فقد أشرك بالله ، ومن قال إنَّ الحوادث من غير الله فقد اتخذ إلهاً من دون الله .

قوله جل ذكره : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ

آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ

بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى

اللَّهِ كَذِبًا ﴾

(١) متوع النهار اصطلاح يأتي في مذهب القشيري بعد الواوَّح والطوَّالغ والقوامع ، وهو يلتقي مع للمنى من حيث اللفظ (يقال متع النهار أى بلغ غاية ارتفاعه) .

(٢) مشتقة وهي قرية في الرسم من (واخضعوا) ومصوبة في الهامش (واتخذوا) لأجل هذا لم نستطع أن نحسم فيها برأى ، وهي على العموم كلمة تفيد خلوس أسرارهم في التجريد وإلا لما حدثت سكينَةُ قلوبهم .

لأنه لم يكن لهم حجة انضج فيها ادموه كذبهم ، فمن اكنفى يتقى القالة دون ما يشهد
قوله من أدلته فهو مطول في محلته .

« قَمْنِ أَظْلَمَ عَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ » فمن ذَكَرَ فِي الدُّنْيَا قَوْلًا لَمْ يُؤَيِّدْ بِهِ هَذَا
عَقْلًا أَوْ قَلْبًا فَهُوَ مُفْتَرٍ ، وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْ نَفْسِهِ حَالًا لَمْ يُوجِبْهُ صِدْقُ مُجَاهِدَتِهِ أَوْ مَنْزِلَتِهِ فَهُوَ
عَلَى اللَّهِ مُفْتَرٍ . والذى يصدق في قوله — في هذه الطريقة — فهو الذى يسمع من الحق
بسرٍّ ، ثم ينطق بلفظه (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا اعْتَرَضْتُمْ وَمَا يُمِيزُونَ إِلَّا
اللَّهُ ، فَأَوْدُوا إِلَى الْكُفْرِ يَنْشُرُ
لَكُمْ رُسُكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَسْخَرْ لَّكُمْ
مِن أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾

المرأة عن غير الله توجب الوصلة بالله . بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد المرأة عن
غير الله .

ويقال لما اعتزلوا ما عُيِدَ من دون الله آواهم الحق إلى كنف رعايته ، ومهد لهم مشى
في كنفِ صنيته .

ويقال من تبرأ من اختياره في أحواله ، وصَدَّقَ رجوعه إلى الله في أحواله ، ولم يستعِز
— بنور الله — من أشكاله وأمثاله آواه إلى كنفِ أفضاله ، وكفاه جميع أشغاله ، وهياً له
مَحَلًّا يَتَغَيَّرُ فِيهِ بِرَدِّ ظِلَالِهِ ، بِكَلِّ إِقْبَالِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَرَى الشَّسَّ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِرُ (٢)
عَنْ كَهَنِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ

(١) هذا رأى على جانب كبير من الخطورة في قضية هامة من قضايا التصوف ، كانت لها في بعض
الأحيان عواقب جسيمة : وهي هل يوضح الصوفي الواله أم يكتم ؟ وتلاحظ أن القشيري ربط القضية بنصر
أساسي هو الصديق . . .

(٢) تراور من الزور وهو الميل ، والزور الميل عن الصديق .

تقرضهم (١) ذات الشال يوم في فجوة
منه ذلك من آيات الله ﷻ

كانوا في مُتَشَعٍ من الكهف ، ولكن كان شعاعُ الشمس لا يَبْسُطُ عليهم مع هبوب
الرياح عليهم .

ويقال أنوار الشمس تنقلص وتنصغر بالإضافة إلى أنوارم (٢) .

إن نورَ الشمس ضياءه يستفوه به الخلقُ ، ونور معارفهم أنوار يُعرَفُ بها الحق ،
فهذا نور يظهر في العمورة ، وهذا نور يلوح في السريّة . وينور الشمس يدرك الخلق وينورم
كانوا يعرفون الحق .

وفي قوله — عز اسمه : « ذلك من آيات الله » فيه دلالة على أن في الأمر شيئاً بخلاف
المادة ، فيكون من جملة كرامات الأولياء ؛ ويحتمل أن يكون شعاعُ الشمس إذا انتهى إليهم
ارورُ عنهم ، ومضى دونهم بخلاف (٣) ما يقول أصحاب الحبة ، ليكونَ فلاّ ناقضاً للعادة
فلا يبعد أن يقال إن نور الشمس يُستَوَلِّكُ في النور القبي عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبُهِدَ اللَّهُ لَهُ فَهُوَ لَئِيمٌ وَمَنْ يَضِلَّ
فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴾

فالله يَهْدِي قوماً بالأدلة والبراهين ، وقوماً يكشف اليقين ؛ فعارفُ الأولين قضية
الاستدلال ، ومعارف الآخرين حقيقة الوصال ، فهؤلاء مع برهان ، وهؤلاء على بيان كأنهم
أصحاب عيان :

« وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ : أَي مَنْ وَسَّهَ رِسْمَةَ الْحَرَمَانِ فَلَا عِرْفَانَ وَلَا عِلْمَ وَلَا إِيمَانَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَمَرْفُودًا تُقَلِّبُهُمْ

ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾

(١) تقرضهم أي تتركهم وتسدل عنهم .

(٢) بالإضافة إلى أنوارم أي إذا قيسه بأنوارم .

(٣) أي هذا على لسان أهل التفسير أما على لسان أهل الإشارة . وهذه أول مرة يطلق التشبيه

(أصحاب الحبة) هذا الوصف عليهم في « لطلّاه » ، لهذا نهى إليه .

هم مسلوبون عنهم ، مُحْتَطَقُونَ منهم ، مُسْتَهْلَكُونَ فيها كوشفوا به من وجود الحق ؛
فظاهرهم — في رأى اَخْلَقَ — أنهم بأنفسهم ، وفي التحقيق : القائمُ عنهم غيرُهم . وهم محوُّ
فيها كوشفوا به من الحقائق .

ثم قال : « وتقبلهم ذات اليمين وذات الشمال » : وهذا إخبارٌ عن حُسن إيوائه لهم ؛
فلا كشفقةِ الأمهات بل أُمِّهم ، ولا كرحمة الآباء بل أَعَزُّهم ... وبالله التوفيق .

ويقال إن أهل التوحيد صحتهم ما قال الحقُّ — سبحانه — في صفة أصحاب الكهف :
« وتصبهم أيقاظاً وهم رقود » فهمُ بشواهد الفرقِ في ظاهرهم ، لكنهم عين الجمع
بما كوشفوا به في سرائرهم ، يُجْرَى عليهم أحوالهم وهم غير منكشفين ، بل هم يثبتون
— وهم خودِ عا م به — أن تصرفاتهم القائمةُ بها عنهم سوام ، وكذلك في نقطتهم (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَلِّمَهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴾

لَوِ اطَّلَمْتَ عَلَيْهِمْ لَوَكَّيْنْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا

وَلَكَّيْنْتَ مِنْهُمْ رُحْبًا ﴿٢﴾

كما ذَكَرْتُمْ ذَكَرَ كَلِمَهُمْ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي حُبِّهِ أَحَدٍ أَحَبُّ مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهِ
وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ .

ويقال كَلْبٌ خَطَا مع أحبائه خطواتٍ فإلى القيامة يقول الصبيان — بل الحق يقول بقوله
العزيز — : « وكلهم باسط . . . » فهل ترى أن سُلَيْمًا يصحب أوليائه من وقت شبابه
إلى وقت مشيبه يرده يوم القيامة خائباً ؟ إنه لا يفعل ذلك .

ويقال في التفسير إنهم قالوا لِرَاعي الذي تبعم والكلب معه : إصرف هذا الكلب
عنا . . . فقال الراعي : لا يمكنني ، فَإِنِّي أَنَا دِينُهُ .

ويقال أنطق الله سبحانه — الكلبَ فقال لهم : لِمَ تَضْرِبُونَنِي ؟

فقالوا : لِنَتَصَرَّفَ عَنَّا .

قال : لا يمكنني أن أنصرف . . . لأنه رِبَائِي .

ويقال كَلْبٌ بَسَطَ يده على وصيد الأولياء فإلى القيامة يقال « وكلهم باسط ذِرَاعِيهِ

(١) تطلق البدو الواله وتصره يكرنان بالله تذكر قصة الحلاج .

بالوصيد . . . فهل إذا رَفَعَهَا مسلّمٌ إليه خمسين سنة ترى يرُدُّها خائبة ؟ هذا لا يكون .

ويقال لما تَجِبَهُمُ الكلبُ لم تضره نجاسةٌ صِفَتِهِ ، ولا خساسةٌ قِيَمَتِهِ .

ويقال قال في صفة أصحاب الكهف إن كانوا « سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم » ، أو خمسة سادسهم كلبهم فقد قال في صفة هذه الأمة : « ما يكون من نبوي ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم » . . .

وشتان ما هما !

ويقال كُلُّ يُعَامَلُ بما يليق به من حالته ودرجته ؛ فالأولياء قال في صفتهم : « وقلوبهم ذات البين وذات الشئال » ، والكلب قال في صفة : « وقلوبهم باسط ذراعيه بالوصيد » .

ويقال كما كَرَّرَ ذِكْرَهُم ، كَرَّرَ ذِكْرَ كَلْبِهِمْ .

وجاء في القصة أن الكلب لما لم ينصرف عنهم قالوا : سيئنا إذا لم ينصرف عنا أن نَحْمِلَهُ حتى لا يُسْتَدَلَّ علينا بأثر قَدَمِهِ لَحْمُوه ، فكانوا في الابتداء (بل إياه)^(١) وصاروا في الانتهاء مطالبين . . . كَفَدْنَا مِنْ أَقْنَى أَثَرِ الْأَحْيَاءِ .

ويقال في النصبة إن الله أنطق الكلب معهم ، وَبِنُطْقِهِ رَبَطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ بَأَنْ ازدادوا يقيناً بسمع نطقه ، فقال : لم تضربوني ؟ فقالوا : لتنصرف ، فقال : أنتم تخافون بلاء يصيبكم في المستقبل وأنتم بلائى في الحال :

ثم إن بلاءكم الذى تخافون أن يصيبكم من الأعداء ، وبلائى منكم وأنتم الأولياء .

ويقال لما أزم الكلبُ عَمَلَهُ ولم يجاوزْ حَدَّهُ فوضع يديه على الوصيد بقى مع الأولياء
كذا أدب الخليفة يوجب بقاء الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ اَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوِيتَ مِنْهُمْ فِرَادًا وَلَمَّا لَمْ تُكَلِّمْتُمْ مِنْهُمْ رُعبًا ﴾

(١) وردت مكثفا ونرجع أنها (بلاءه) بليل ما سيأتى بعد ذلك :
(وأنتم بلائى في الحال) .

الخطاب له - صلى الله عليه وسلم . والمراد منه غيره .

وَقَالَ لَوِ اطَّلَعْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فَرَارًا ، وَلَوْ شَهِدْتَهُمْ مِنْ حَيْثُ شَهِدُوا
تَوَلَّيْتُ الْحَقَّ لَمْ لَبَقِيتْ عَلَى حَالِكَ .

ويقال لو اطاعت عليهم وشاهدتهم لو كنت منهم فراراً من أن تردّ عن على منزلتك إلى منزلهم ؛ والغني إذا ردّ إلى منزلة الفقير فر منه ، ولم تقلّب به نفسه . « ولملت منهم ربعا » بأن يُسلَبَ عظيم ما هو حالك ، ويُقام في مثل حالهم النازلة عن حالك .
ويقال : « لو كنت منهم فراراً » لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا .

ويقال : « لو ليت منهم فراراً » لأنك لا تريد أن تشهد غيرنا .

قوله جل ذكره: ﴿وَكَانَ لَكَ بِشْنَامٍ لِيَتَسَامَوْا بَيْنَهُمْ قَالَ

قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَغْبَا عَنْكُمْ آلِ يُونُسَ لَمَّا إِذْ يَتْلُو آيَاتِهِ لَمَّا هُوَ سَاجِدٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ رَبِّهِ لَمَّا يَنْتَظِرُ رَحْمَتَ رَبِّهِ هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ فِي الْمِثْقَالِ الْعَظِيمِ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لَمْ يَكُن لَهَا فِتْنَةٌ وَلَمْ يَكُن لَهَا كَافِئَةٌ شَاءَ مَا يَحْكُمُ بِالنِّجْمِ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ النَّفْسَ الْكَافِرَةَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ النَّفْسَ الْكَافِرَةَ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ النَّفْسَ الْكَافِرَةَ

استقلوا مدة ليشهم وقد كُتِبُوا (طويلاً)، ولكنهم كانوا مأخوذين عنهم ، ولم يكن لهم علمٌ بتفصيل أحوالهم ، قال قائلهم :

لست أدري أطلال ليلي أم لا ؟ كيف يدري بذلك من يتقل ؟

لو تفرقتُ لاستطالة ليلي ورعبت النجوم كنتُ مُخللاً

ويقال أَيْلُمُ الوصالِ عندهم قليلة — وإن كانت طويلة ، ولو كان الحال بالضد لكان الأمر بالمعكس ، وأنشدوا :

صَبَاحُكَ سُكْرٌ وَالْمَاءُ خُمَارٌ^(١) نَمِيتَ وَأَيَّامُ السَّرُورِ قِصَارُ

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا رَبُّكُمُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُمْ﴾.

لأنه هو الذى خَصَّكُمْ بما به أقامكم .

(١) الخمار = ماخالط الإنسان من سكر الخمر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاٰمِنُوْا اٰحَدَكُمْ بِوَرِكِكُمْ هٰنَا إِلَى

الْمَدِيْنَةِ فَلْيَنْظُرْ اَيُّهَا اَرْكَى طَعَامًا

فَلْيَاْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾

ما داموا مأخوذين عنهم لم يكن لهم طلب لأكل ولا شرب ولا شيء من صفة النفس ،
فلما رُدُّوا إلى التمييز أخذوا في تدبير الأكل أوكل ما أحسوا بحالهم ، وفي هذا دلالة على شدة^(١)
ابتداء الخلق بالأكل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْيَلْطِفْ وَلَا يُعْزِرْ بَكِّ

أَحَدًا ﴾

تواصوا فيما بينهم بحسن التخلق وجعل الترفق ، أى ليتلف مع من يشتري منه شيئاً .
ويقال أوصوا مَنْ يشتري لم الطعام أَنْ يَأْتِيَهُم بِالطَّفِ شَيْءٍ وَأَطْيَبِ ، ومن كان من
أهل المعرفة لا يواقة لشطن من الملبوس ولا المبتل في العلم من المأكول .

ويقال أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات طعامهم انطش ولبسهم كذك^(٢) .

والذى بلغ المعرفة لا يواقة إلاكل لطيف ، ولا يستأنس إلا بكل مليح .

قوله جل ذكره : ﴿ اِنَّهُمْ اِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوْكُمْ

أَوْ يُعَذِّبُوْكُمْ فِىْ مَلِكِهِمْ وَلَنْ تَقْلِحُوا

اِذَا اَبَدًا ﴾

تواصوا فيما بينهم بكتبان الأمرار عن الأجانب^(٣) وأخبر أنهم إن اطلعوا عليهم وعلى
أحوالهم بالنوا في مخالفتهم إما بالقتل وإما بالضرب وبما أمكنهم من وجوه الفعل ، ولا يرضون

(١) شدة هنا معناه ضرورة .

(٢) معنى هذا أن التشرى يميز بين مطعم وملبس أصحاب الرياضات ومطعم وملبس أهل المعرفة ، وربما
كان سبب ذلك أن أهل المعرفة الواجب عليهم ستر أحوالهم عن الخلق ، بدليل قوله فيما بعد : « تواصوا
فيما بينهم بكتبان الأمرار عن الأجانب » .

(٣) من هنا نعلم ضرورة أن يكتف الأرباب الأحوال الأمرار ، وإلا تعرضوا لأذى الذين لا يتركون
حفاقت أحوالهم ، وقد يصل الأذى إلى حد القرب والقتل (تذكر قصة الحلاج وغيره) .

إلا يرُدُّهم إلى ما منه تخلصوا ، فمنَ احترق كسبهُ فلم يَحترق كبسُ غيره لا تطيب نفسه .
ويقال من شأن الأبرار حفظ الأسرار عن الأعيان .

ويقال من أظهر لأعدائه مِرَّةً فقد جلبَ باختياره ضِرَّةً ، وقد ماسرَّه (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا

أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ

لَارِيبَ فِيهَا إِذْ يَنْتَازِعُونَ بَيْنَهُم

أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِم مِمَّنَّ هُمْ أَغْلَبُوا عَلَى

أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّهُمْ عَلَيْكُمْ مَسْجِدًا ﴿١﴾

جل أحوالهم عِبْرَةً لِمَنْ جاءَ بَعْدَهُمْ حينَ كشف لأهل الوقت قصتهم ، فنامين
الناس ، وازداد يقين من كان يؤمن بالله حين شاهدوا بالبيان ما كان نقضاً للعادة
للسيرة .

ثم إن الله تعالى ردَّهم إلى ما كانوا عليه من الحالة ، كانوا مأخوذِينَ عن التمييز ، متقلبين
في القبضة على ما أَرَادَهُ الحق ، مستودعين فيما كوشفوا ، متهلكين عنهم في وجود
الحق — سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْنَاهُمْ كَذِبُهُمْ ،

وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبُهُمْ

وَجَمًّا بَالِغِيبٍ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ

وَأَجْمَتُ هُمْ كَذِبُهُمْ ﴿٢﴾

أخبر أنَّ علومَ الناسِ متناصرةً عن عديم ، فالأحوال التي لا يطلع عليها إلا الله
في أسرارهم وظهورهم .. متى يكون للخلق عليها إشراف ؟

أشكَل عليهم عديم ، وعديم يُسَلَّم بالضرورة ، ولم لا يَدْرُكُونُ بالمشاهدة .

(١) يقول الثبلي واصفاً سبب عنة الملاج : « كنت والحسين بن منصور شيئاً واحداً ولكنه أظهر
وأنا كُنت » .

ويقال سيد الكلب حيث كرّر الحق — سبحانه — ذكرهم وذكر الكلب معهم على وجه التكرار ، ولما ذكرهم عند الكلب في جملتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّ أَعْلَمُ بِعَدِيهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

لما كانوا من أوليائه فلا يعلمهم إلا خواص عباده ، ومن كان قريباً في الحال منهم ؛ فهم في كتم القصة وإيواء السر لا يطلع الأجانب عليهم ؛ ولا يعلمهم إلا قليل ؛ لأن الحق — سبحانه — يستر أوليائه عن الأجانب ، فلا يعلمهم إلا أهل الحقيقة ؛ فالأجانب لا يعرفون الأقارب ، ولا تشكل أحوال الأقارب على الأقارب كذلك قال شيوخ هذه الطائفة : « الصوفية أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

كما لا يعرفهم من كان بمنزلة عن حالتهم ، ولا يتعدى إلى أحكامهم من لا يعرفهم . . . فلا يصح استفتاء من غاب عنهم عنه في حكم . ومن لم يكن قلبه محلاً لهبة الأجانب لا يكون لسانه مقراً بذكرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَقُولْ لِمَنْ إِذْنِي فاعِلْ ذَلِكَ خَذًا ﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

إذا كانت الحوادث صادرة عن مشيئة الله فمن عرف الله لم يعد من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله .

ويقال من عرف الله سقط اختياره عند مشيئته ، واندرجت أحكامه في شهود حكم الله .

ويقال للؤمن يزعم على اعتناق الطاعة في مستقبله بقلبه ، لكنه ينبرأ عن حوله وقوته

(١) هذا القول لجنيد (ص ١٣٩) الرسالة

بِرَّهٖ ، والشرحُ يستدعي منه نهوض قلبه في طاعته ، والحقُّ يقف سره عند شهود ما منه
لهبويه تحت جريان قسمته (١) .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ كُرِّمَتْكَ إِذَا لَسَيْتَ وَقُلْ
عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ
هَذَا مَرَجًا﴾

إِنْ طَرَأَتْ عَلَيْكَ طَوَارِقُ النِّسْيَانِ — لَا تَتَعَدَّكَ — فِجْرُذْ بِذِكْرِكَ قَصْدَكَ عَنْ
أَوْطَانِ غَفْلَتِكَ .

ويقال « واذكر ربك إذا نسيت » : في الحقيقة نفسك تمنحك من استغراقك
في شهود ذكرك .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت ذكر ربك : فإن العبد إذا كان ملاحظاً لذكره كان
ذلك آفة في ذكره (٢) .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت حقائقه .

ويقال واذكر ربك إذا نسيت غير ربك .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَتُوبُوا فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْمَاتٍ مُنَبِّئٍ
وَأَزْدَادُوا تَابًا﴾

كانوا مأخوذين عنهم في إحسابهم بأنفسهم فلم يقفوا على تناول مدتهم ، وفي اللؤلؤ :
« أيلم السرور قصار » ، وأفهور في السرور شهور ، والشهور في المحن دهور ، وفي مناه :

أَعُدُّ اللَّيَالِيَ لَيْلَةً بَدَلِ لَيْلَةٍ وَقَدْ كُنْتُ قَبْلًا لَا أَعُدُّ الْيَالِيَا

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبٌ

(١) معنى هذه الفقرة انه قد يبدو في الظاهر ان قصد إرادة في الاحتال الطاعة ولي إجراء أحكام
الحرمة ، ولكن في الحقيقة أن الحق سبحانه يقول ثبوتته من حوله ولإرادته ، وتبيين سره لتجده عن كل
غير وسوى .

(٢) لأن أهل درجات الذكر أن يثنى الفاعل في المذكور .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُبْعَثُ بِهِ وَأُصْحَى
مَا لَمْ يَنْ دَوَّهْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿١٠﴾

مَنْ لَمْ يَعِدْ آيَةً لَاسْتِغْفَالَهُ بِاللَّهِ أَحْصَى أَفْئَسَهُ الَّتِي لِلَّهِ ، قَالَ تَعَالَى : « أَحْصَى
كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَنَا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ
رَبِّكَ ﴾

سَلَّ — حِينَمَا تَتَنَوَّعُ عَلَيْكَ الْأَحْوَالُ — بِمَا تُظَلِّلُكَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَخْبَارِ ؛ وَإِنْ كُنْتُبَ
الْأَحْيَاءِ فِيهَا شَفَاءٌ لِأَنَّهُمْ يُخَاطَبُونَ الْأَحْيَاءِ لِلْأَحْيَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ
مِنْ دَوَّهٍ مُتَعَدِّدًا ﴾

أَيُّ لَا تَغْيِيرَ لِحُكْمِهِ ؛ فَنَنْ أَقْصَاهُ فَلَا قَبُولَ لَهُ ، وَمَنْ أَذْنَاهُ فَلَا وَصُولَ لَهُ ، وَمَنْ قِيلَهُ
فَلَا رَدَّ لَهُ ، وَمَنْ قَرَّبَهُ فَلَا صَدَّ لَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْفَتَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

قَالَ : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ » وَلَمْ يَقُلْ : « قَلْبَكَ » لِأَنَّ قَلْبَهُ كَانَ مَعَ الْحَقِّ ، فَأَمْرُهُ بِصَبْرِهِ
جَهْرًا بِجَهْرٍ ، وَاسْتِغْلَاصُ قَلْبِهِ لِنَفْسِهِ سِرًّا بِسِرٍّ .

وَيُقَالُ « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » : مِنْهَا مَا يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أَيْ فِي مَعْنَى الْحَالِ ، وَذَلِكَ بِشَبِّهِ
إِلَى دَوَامِ دُعَائِهِمْ رَبَّهُمْ بِالْفَتَاةِ وَالْعَشِيِّ وَكَوْنِ الْإِرَادَةِ عَلَى الدَّوَامِ .

وَيُقَالُ « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » : فَأَوْثَانُهُمْ فِي دُنْيَانَا بِعَظَائِمِنَا ، وَفِي عَقَابِمَا بِكَرَائِمِنَا .

وَيُقَالُ « يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » : فَكَشَفَ قَنَاعَهُمْ ، وَأَنْظَرَهُمْ صَفْهَهُمْ ، وَشَهَّرَهُمْ بِعَدَمِ كَانِ
قَدْ سَتَرَهُمْ ، وَأَنْشَدُوا :

وكشفنا لك القناع وقلنا نعم وهتكنا لك السنورا
ويقال لنا زالت ألهم سَلِّتْ لهم هذه الإِروادة ، وتحرووا عن إِروادة كل مخلوق وعن محبة
كل مخلوق .

ويقال لنا تَقَصَّرَ لسانهم عن سؤال هذه الجملة مراعاة منهم لمهية الرسول صلى الله عليه
وسلم ، وحرمة باب الحق — سبحانه — أمره بقوله : « واصبر نفسك » وقوله :

﴿ وَلَا تَمُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تَرِيدُ زِينَةً ﴾

الحياة الدنيا ﴿

أى لا ترفع بصرَكَ عنهم ، ولا تُفْلِحْ^(١) عنهم نظرك .

ويقال لما نظروا بقولهم إلى الله أمرَ رسوله — عليه السلام — ألا يرفع بصره عنهم ،
وهذا جزاء فى العاجل .

والإشارة فيه كأنه قال : جللنا نظرك اليوم إليهم ذريعة لم إلينا ، وخلفاً عما يؤتمهم اليوم
من نظرم إلينا ، فلا تَقْطَعْ اليوم عنهم نَظْرَكَ فَإِنَّا لَا نَمْنَعُ غداً نظرم عنا^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ﴾

ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ

فُرُطًا ﴿

هم الذين سألوا منه — صلى الله عليه وسلم — أن يُغْفَلَ لهم مجلسه من القراء ، وأن
يُطْرَدَهم يوم حضورهم من مجلسه — صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ومعنى قوله . « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » : أى شغلناهم بما لا ينهم .

ويقال « أغفلنا قلبه عن ذكرنا » أى شغلناهم حتى اشتغلوا بالنسيئة عن شهود المنهم .

ويقال هم الذين طُوحَ قلوبهم فى التفرقة ، فهم فى الغلواط الرديئة مُشْبِتُونَ ، وعن شهود
مولاهم محجوبون .

(١) لا تطلع منهم نظرك أى لا تكف وتبد .

(٢) نهم هذه الإشارة فى تقدير مدى تصور الصوفية لشخصية محمد (ص) .

ويقال أغفلنا عن ذكرنا الذين ابتلوا بنفسان الحقيقة ولا يتأسفون^(١) على ما سئوا به ولا على ما كَانُوا

ويقال الغفلة تزجية الوقت في غير قضاء قرَضٍ أو أداء نَقْلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ قَدْ شَاءَ فَلَئِنْ مِنْكُمْ مَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

قُلْ يا محمد : ما يأتيكم من ربكم فهو حق ، وقوله صِدْقٌ .. فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ .. هذا غاية التهديد ، أى إن آمنتم ففوائد إيمانكم عليكم مقصورة ، وإن أبيتتم فعذاب المحذور موقوف عليكم ، والحق — سبحانه — عزيز لا يهوى إليه بايمان الكافة — إذا وحدوا — زَيْنٌ ، ولا من كُفروا الجحيم — إن جمعدوا — شَيْنٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا آَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ

سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَنِيضُوا يَتَأْوَلُوا بِهَا

كَالْمُهْلِ يَغْوِي الْوُجُوهَ يَنْسَوْنَ

الشَّرَابَ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا ﴾

القوية الكبرى لم أن يشغلهم بالألم حتى لا يتفرغوا عنه إلى الحسرة على ما فاتهم من الحق ، ولو علموا ذلك لعله كان يرحمهم . والحق — سبحانه — أكرم من أن يَنْتَبِ أحداً يُسَمُّ لَاجِلِهِ .

ويقال لو علموا من الذى يقول : « وساعت مرتققا » لعله كان لم تسل ساعة ، ولكمهم لا يعرفون قَدْرَ مَنْ يَقُولُ هذا ، وإلا فهنا شَيْءٌ مرتبة لم ، والبشارة عن هذا تفق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَتِمَّالُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا

لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا •

أُولَئِكَ لَمْ يَجُتْ عَذَابٌ نَهْرِي مِنْ

(١) وردت (ولا يخالسون) والمعنى يرفقها بما يرجع غلط الناسخ لى عليها .

تَحْتَهُمُ الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا
مِنْ سُفْدَسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِينٍ
فِيهَا عَلَى الْأَرَامِكِ نَعِيمُ الثَّوَابِ
وَحَصْنَتُ مَرْثَقًا ۞

أهل الجنة طابت لهم حياتهم ، وأهل النار أحاط بهم سرادقها .
والحق — سبحانه — منزّه عن أن يعود إليه من تمذيب هؤلاء عائلة ولا من تنعيم
هؤلاء عائلة . . . جلّت الأحدى ، وتقدّست السديّة !

وَمَنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِ غَبْرَةٌ فِي طَرِيقِنَا لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ قَتَرَةٌ فَرَأَيْنَا ، وَمَنْ خَطَا خُطْوَةً إِلَيْنَا وَجَدَ
حُظْرَةً لَدَيْنَا ، وَمَنْ نَقَلَ قَدَمَهُ نَحْنُوْنَا غَفْرًا لَهُ مَا قَدَّمَهُ ، وَمَنْ رَفَعَ إِلَيْنَا يَدًا أَجْرُنَا لَهُ رَغَدًا ،
وَمَنْ التَّجَأَ إِلَى سُدَّةٍ ^(١) كَرَمِنَا أَوْنَاهُ فِي ظِلِّ نَيْمِنَا ، وَمَنْ شَكَفْنَا غَلِيلًا ^(٢) مَهَّدْنَا لَهُ — فِي
دَارِ فَضْلِنَا — مَقِيلًا .

« أجز من أحسن عملا » : العمل أحسنه ما كان مضبوطاً بشرائط الإخلاص .

ويقال « من أحسن عملا » بأن غلب عن رؤية إحسانه .

ويقال من جرد قصده عن كل حظ ونصيب .

ويقال الإحسان في العمل ألا ترى قضاء حاجتك إلا في فضله ، فإذا أخلصت في توسلِكَ
إليه بفضله ، وتوسلِكَ إلى ما مولكَ من طولِهِ يَتَبَرِّكَ عَنْ حَوَلِكَ وَقُوَّتِكَ اسْتَوْجِبْتَ
حُسْنَ إِقْبَالِهِ ، وَجَزِيلَ نَوَالِهِ .

قوله « أولئك لم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار » أولئك هم أصحاب الجنان ،
في رَغَدٍ العيش وسعادة الجِدِّ ^(٣) وكال الرُّقْدِ ^(٤) ، يلبسون حُلُلَ الوُصْلَةِ ، وَيُتَوَجَّجون بفجاج القُرْبَةِ ،

(٢) وردت (غيلا) بالعين .

(٤) الرهد = السطاء واللمة .

(١) وردت (سده)

(٣) الجد = الحظ .

وَيُحْمَلُونَ عَلَى اللَّبَاسِطِ ، وَيَسْكَبُونَ عَلَى الْأَرَاثِكِ ، وَيَشْمُونَ رِياحِينَ الْأَنْسِ ، وَيَقْبِمُونَ
 فِي جِجَالِ الزُّهْفَةِ ، وَيُسْقَوْنَ شَرَابَ الْحَبَةِ ، وَيَأْخُذُونَ بِيَدِ الزَّلْفَةِ مَا يَتَحَضَّمُ الْحَقُّ بِهِ مِنْ غَيْرِ
 وَاسِطَةٍ ، وَيَسْقِبُهُمْ شَرَابًا طَهُورًا يُطَهِّرُ قُلُوبَهُمْ عَنْ حَبَّةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ .
 « نِزْمُ الثَّوَابِ وَحَسَنَتُ مَرْتَفَعًا » : نِزْمُ الثَّوَابِ ثَوَابُهُمْ ، وَنِزْمُ الرَّبِّ رَبُّهُمْ ، وَنِزْمُ الْفَارِ
 دَارِهِمْ ، وَنِزْمُ الْجَارِ جَارُهُمْ ، وَنِزْمُ الْحَالِ حَالُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا

لأَحَدِهِمَا جَنَّاتٍ مِّنْ أَغْنَابٍ

وَجَعَلْنَا لَهُمَا بَنَاتٍ يَنْتَبِلُ وَيَجْعَلُنَا بَيْنَهُمَا

زُرْعًا • كَلَّمْنَا الْجَنَّتَيْنِ أَنَّتِ أَكْثَلُهَا

وَلَمْ تَقْطِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا بِهَا خِلَافَهَا

تَهَرَّأَ • وَكَانَ لَهُ تَمَرٌ قَالَ لِمَاحِيهِ

وَهُوَ يَحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا

وَأَهْرُ نَفَرًا • وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ

ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ

هَذِهِ أَبَدًا • وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

وَلَئِنْ وُذِّعْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا

مِنْهَا مُنْقَلَبًا • قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ

يَحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ

تُرَابٍ نَّمِنْ مِنْ نَفْثَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا

• لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ

رَبِّي أَحَدًا • وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ

جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ

إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا

وَوَلَدًا • فَسَىٰ وَبَىٰ أَنْ يُوْرَتَيْنِ خَيْرًا

مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا
 مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَيْدًا زَلْفًا *
 أَوْ يُصْبِحُ مَاوًا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ
 لَهُ عَلَبًا *

أخبر أنه خلق رجلين جعل لهما جنتين على الوصف الذي ذكره ، فشكر أحدهما
 مخالفة وكفر الآخر برازقه ، فأصبح الكافر وجنته أصابتها جائحة ، وندم على ما ضيعه
 من الشكر ، وتوجه عليه اللوم .

وفي الإشارة يخلق عبيدين يطيب لهما الوقت ، ويهد لهما بساط اللطف ، ويمكن لهما من
 البسط . . فيستقيم أحدهما في الترقى إلى النهاية من مقامات البداية بحسن المنازلة وصدق
 المعاملة ، فتميز له المجاهدة ثمرات أحسن الأخلاق فيماليها بحسن الاستقامة ، ثم ينحلق
 بخصائص الأحوال الصافية ، ثم يختلط عنها بما يكثف به من حقائق التوحيد ، ويصبح
 مُتَنَقِّيًا من جلته باستهلاكه في وجود ما بأن له من الحقائق .

والثاني لا يُقدِّرُ قَدْرَ مَا أَهْلَ لَهُ مِنْ حُسْنِ الْبَدَايَةِ فَيَرْجِعُ إِلَى مَالَوَاتِهِ ، فَيُنْكِسُ أَمْرَهُ ،
 بانحطاطه إلى ذميم عاداته ، فيزهد عن سلوك الطريقة ويفرّدها^(١) في ظلمة الغفلة ، فيصير وقته
 ليلاً مظلماً ، وينطوح في أودية التفرقة ، ويوسم الطرد ، ويسقي شراب الإهانة ، وينخرط
 في سلك الهجر . . وذلك جزاء من لم يترحم الحق فوصلته أهلاً ، ولم يعمل لولائهم في التعقيق
 والقبول أصلاً :

تَبَدَّلْتُ وَتَبَدَّلْنَا بِأَحْسَرَةٍ لِمَنْ ابْنَى عَوْضًا لِسُلَى فَلَمْ يَجِدْ
 قَوْلَهُ جَلْ ذَكَرَهُ : * وَأُحْطِ بِتَسْوِيرِهِ فَاصْبِرْ يَغْلِبْ
 كَيْفَهُ عَلَى مَا انْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
 عَلَى عُرُوشِهَا وَقَوْلِ الْيَتَى لَمْ أُشْرِكْ
 بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ رِفْقَةٌ

(١) وردت (ويرتدي) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح من السياق .

يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ
مُتَقَدِّراً ﴿١﴾

إذا ظهرَ خسراً من آثر خطئه على حقِّ الله، قَرَعَ بابَ ندامته، ثم لا ينفعه .
ولو قَرَعَ بابَ كرمه في الدنيا — حينَ وَقَعَتْ له الفِتْنَةُ — لاشكَّ (١) عند ضرورته،
أنجاه من ورطته . . ولكنه ربط بالظنلان، ولَبَسَ عليه الأمرُ بِحُكْمِ الاستدراج .
قوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه » : منَ اشْتَهَرَ أمرُهُ بِسُخْطِ السُّلْطَانِ عليه لم ينظر
إليه أحدٌ من الجنِّ والرحية ، كذلك منَ وَصَّه الحقُّ بِكَيِّْ البَهِرِ لم يرث له ملكٌ ولا نبيٌّ ،
ولم يحبه صديقٌ ولا وليٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ
نَوَابِغًا وَخَيْرٌ عَقِيبًا ﴾ .

هو الحقُّ للفتنةُ بنتُ ملكوته ، لا يشرك في جلال سلطانه من الحداثان أحداً ،
وإذا بدا من سلطان الحقيقة شظية فلا دعوى ولا معنى لبشر ، ولا وزن فيها هاتاك لحداثان
ولا خطر ، كلا . . بل هو الله المطلق الواحد القهار .

هناك الْوَلَايَةُ لِلَّهِ أَى التَّمَوَّة — والواو هنا بالكسر ،

وهناك الْوَلَايَةُ لِلَّهِ أَى النَّمرة — والواو هنا بالفتح (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاضْرِبْ كَمَ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
كَمَلِهَ أَزْلَانِهَ مِنَ السَّمَاءِ فَاتَخَلَطَ بِهِ
نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيبًا تَفزوه
الرياحُ ، وكان الله على كلِّ شيءٍ
مُقْتَدِرًا ﴾ .

(١) أشكاه : أزال سبب شكواه ، وأعانه .

(٢) الْوَلَايَةُ (بالكسر) بمعنى التَّمَوَّة أَى : السُّلْطَانُ والملك كله ، يتولى الله كلَّ مضطر فيكون
قوله : « لم أشرك برى أحدا » كلمة الجوى إليها فقالها جزءاً من شؤم كفره — وتولا ذلك لم يفتلها .
أو على الْوَلَايَةُ (بالفتح) بمعنى النَّمرة تعريفاً لقوله : « ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله »

مَنْ وَطَّنَ النَّفْسَ عَلَى الدُّنْيَا وَهَجَّهَا غَرَّتْهُ بِأَمَانِيهَا ، وَخَدَعَتْهُ بِالْأَطْلَاعِ فِيهَا . ثُمَّ إِنَّمَا تُخْنِي الصَّبَابَ فِي شَرَابِهَا ، وَالْحَنْظَلَ فِي عَسَلِهَا ، وَالسَّرَابَ فِي مَآرِبِهَا ؛ تَعْدُ وَلَا تَقِي بِعِدَائِهَا ، وَتُوْفِي آفَاتِهَا عَلَى خِيَرَاتِهَا . . نَعْمُهَا مَشْوِيَةٌ يَنْقَمُهَا ، وَيُؤْسُهَا مَصْحُوبٌ بِمَأْوِسِهَا ، وَبِلَاؤُهَا فِي ضَمَنِ عَطَائِهَا . الْمُرُورُ مَنْ اغْتَرَّ بِهَا ، وَالْمَقْبُورُ مَنْ انْخَدَعَ فِيهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

مَنْ اعْتَصَدَ بِمَنَادِهِ ، وَاغْتَرَّ بِأَوْلَادِهِ ، وَكَسَى مَوْلَاهُ فِي أَوَانٍ غَفْلَاتِهِ . . خَسِرَ فِي حَالِهِ ، وَتَدَرَّمَ عَلَى مَا غَاتَهُ فِي مَا كَانَهُ .

وَيُقَالُ زِينَةُ أَهْلِ الثَغْلَةِ فِي الدُّنْيَا بِالْمَالِ وَالْبَنِينَ ، وَزِينَةُ أَهْلِ الْوَصْلَةِ بِالْأَعْمَالِ وَالْيَقِينَ . . فِهْؤُلَاءِ رُئُوسُهُمْ لظَوَاهِرِهِمْ . . وَهْؤُلَاءِ زِينَتُهُمْ لِمُبُودِيَّتِهِ ، وَافْتِخَارُهُمْ بِمِرْقَةِ رُبُوبِيَّتِهِ .

وَيُقَالُ مَا كَانَ لِلنَّفْسِ فِيهِ جُطٌّ فَهُوَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْجَاهُ وَقَبُولُ اللَّسَعِ ، وَكَذَلِكَ تَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ الْمَأْوُفَاتِ وَالْمُوهَبَاتِ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَقَاوُصِهَا .

وَيُقَالُ مَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ شِرْبٌ وَنَصِيبٌ فَهُوَ مَعْلُولٌ : إِنْ شَتَّ فِي عَاجِلِهِ وَإِنْ شَتَّ فِي آجَلِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ مِنْ ذَٰلِكُمْ ، تَرْتَّبْنَ عَلَى أَثَرِهَا ﴾

وَهِيَ الْأَعْمَالُ الَّتِي بِشَوَاهِدِ الْإِخْلَاصِ وَالصَّبْقِ .

وَيُقَالُ « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : مَا كَانَ خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى غَيْرَ مُشَوَّبٍ بِطَمَعٍ ، وَلَا مَصْحُوبٍ بِتَرْصُصٍ .

وَيُقَالُ « الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ » : مَا يُلَوِّحُ فِي السَّرَائِرِ مِنْ تَحْلِيَةِ الْعَبْدِ بِالنُّعُوتِ ، وَيَفُوحُ نَشْرُهُ فِي سَمَاءِ الْمُسْكُوتِ .

وَيُقَالُ هِيَ الَّتِي سَقَتْ مِنَ الْغَيْبِ لَمْ يَلْقَ بِهَا قَرِيبٌ وَشَرِيفٌ إِلَّا لَفَةً .

ويقال هي ضياء شمس التوحيد: المستكن (في السرائر مما لا يتعرض لكسوف المحبة) (١)

قوله جل ذكره: ﴿وَيَوْمَ نُبْرِزُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ
بَارِزَةً وَحَشَرْنَا أُمَّةً فَلَمْ تُفَادِرْ مِنْهُمْ
أَحَدًا﴾

كما نُبْرِزُ جبال الأرض (٢) يوم القيامة فإنها تُفْتَلَحُ بموت الأبدال الذين يديم بهم الحق
— اليوم — إمسك الأرض ، فهؤلاء السادة — في الحقيقة — أوتاد العالم .
قوله : « فلن نفاخر منهم أحداً » : الإشارة منه أنه ما من أحد إلا ويُسْقَى كأس المنية ،
ولا يفلح الحق أحداً اليوم على البسيطة إلا وينخرط عن نظامه . وإن شَرَقَهُم في الدرجات في
تَوْقِيهِم عن مساكنة الدنيا .

قوله جل ذكره: ﴿وَعَرَّضُوا إِلَىٰ رَيْبِكَ أَصْفَاءً﴾
يقوم كل واحد يوم العرض في شاهد مخصوص ، ويُبْلِسُ كُلُّ مَا يُؤْمَلُّ له ؛ فَمِنْ لباس
تقوى ، ومن قميص هوى ، ومن صِدَارٍ وَجيد ، ومن صُدْرَةٍ محبة ، ومن رداء شوق ، ومن
حُلَّةٍ وَصلة .

ويقال يجردهم عن كل صفة إلا ما عليه نظرم يوم القيامة . وينادي المنادي هل أجسادهم :
هذا الذي آتَى وَوَجَدَ ، وهذا الذي آتَى وَجَدَ . وهذا الذي خَالَفَ فَأَمَّرَ ، وهذا الذي
أَنَمْنَا عليه فَشَكَرَ ، وهذا الذي أَحْصَا إِلَيْهِ فَذَكَرَ . وهذا الذي أَسْقَيْنَاهُ شَرَابًا ، وروزناه
مَحَابِبًا ، وَشَوَّقْنَاهُ إِلَى لِقَائِنَا ، وَلَقِّنَاهُ خِصَائِنَا رِعَائِنَا (٣) .

وهذا الذي وَتَّخَذَ بِمَحَبَّتِنَا ، وحرمانه وَجُودَ قُرْبِنَا . وألبسناه نطق فراقنا ، ومنمناه ،
توفيق وفائقنا ، وهذا ، وهذا . . .

(١) نسكة في أسفل الصفحة موضحة في المتن بالعلامة X .

(٢) نلاحظ كثيراً أن التشبيه يتحدث عن الأوتاد والأبدال والطلب كما ورد في القرآن ذكر الجبال .
فكما أن الله يمسك بها الأرض ويثبتها كذلك يهزم هؤلاء بحفظ الحق ، وبكرامتهم يندفع البلاد عنهم .

(٣) الرعاة : الرعاية والمحافظة .

وانجلني من وقوف وسط دارهم ١ وقال لي مُنْقِبًا : مَنْ أَنْتَ يَا رَجُلُ ؟
 قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾

جئتمونا بلا شفيع ولا ناصر ، ولا مُعِينٍ ولا مُطَاهِر .
 قوم يُقال لهم : سلامٌ عليكم ... كيف أنتم ؟ وكيف وَجَدْتُمْ مَقِيلَكُمْ ؟ وكَمِ إِلَى لِقَائِنَا أَشَقْتُمْ ؟

وقوم يُقال لهم : ما صَبَّحْتُمْ ، وما أَصْبَحْتُمْ ؟ ما قَدَّمْتُمْ ، وما أَخَّرْتُمْ ؟ ما أَعْلَنْتُمْ ، وما أَسْرَرْتُمْ ؟
 قُلْ لِي بِالسَّيْرِ النَّفْسِ ^(١) كيف أَنْتَ وكيف حَالَكَ ؟

ويقال بحبيب بعضهم عند السؤال يُفَصِّحُونَ عن مكنون قلوبهم ، ويشرحون ما هم به من أحوال مع محبوبيهم ، وآخرون تملِكهم الحيرة وتُسَكِّتُهم الدهشة ، فلا لهم بيان ، ولا ينطق عنهم لسان . وآخرون كما قيل :

قَالَتْ سَكِينَةُ مِنْ هَذَا فَقُلْتُ لَهَا : أَمَا الَّذِي أَنْتَ مِنْ أَعْدَائِهِ زَعَمُوا
 قوله جل ذكره : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابُ قَدَرَى الْمَجْرَمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾

إنما يصيبهم ما كُتِبَ في الكتاب الأول وهو المفوظ ، لا ما في الكتاب الذي هو كِتَابُ أَحْصَاءِ أَعْمَالِهِمْ لِسَخَةِ مَا فِي الْوُجُوحِ الْمَوْضُوعِ .

ويقال إنَّ عَامِلَ عِبَادٍ بِمَا فِي الْكِتَابِ الَّذِي أُثْبِتَ الْمَلَكُ عَلَيْهِ فَكَثِيرٌ مِنْ عِبَادِهِ يَمَامِلُهُمْ بِمَا فِي كِتَابِ الْمَلَكِ — سبحانه ، وفرقٌ بَيْنَ مَنْ يُعَامَلُ بِمَا فِي كِتَابِ الْحَقِّ مِنْ الرَّحَةِ ^(٢) وَالشَّقَةِ وَبَيْنَ مَنْ يُحَاسَبُ بِمَا كُتِبَ عَلَيْهِ الْمَلَكُ مِنَ الزَّلَّةِ ^(٣)

(١) النفس : الاستراحة من الكد والتعب

(٢) يشير بذلك إلى قوله تعالى « كُتِبَ عَلَى نَفْسِ الرَّحَةِ » (آية ١٢ سورة الأنعام) وإلى قوله تعالى : « قُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِ الرَّحَةِ » (آية ٥٤ سورة الأنعام) .

(٣) يعبر بذلك إلى قوله تعالى : « بَلَى وَوَسَّلْنَا لَهُمُ الْيَتِيمَ » (آية ٨٠ سورة الزخرف) .

ويقال إذا حلبيهم في القيامة ينصور لم كأنهم في الحال ما طرقوا الزَّنة ، وإن كانت مباثرة الزَّنة قد مَضَتْ عليها سنون كثيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَنَا مِنَ الْكِتَابِ لَا يَغْدِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاشِرًا وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

يمتلك الحزن قلبه لأنه يعلم أنه يرى في عمله سيئة فهو في موضع اللجل لتقصيره . وإن رأى حسنة فهو في موضع اللجل أيضاً لِثِقَلِ توقيره ؛ فَخَجَلُهُ أَهْلِي الصِّلَةِ عند شهود حسناتهم توفي وتزيد على خجلة أهل الغفلة إذا عثروا على زلَّتهم .

ويقال أصحابُ الطاعة إذا وجدوا ما قدَّموا من العبادات فأكمل السرور والبهجة وحية القلب والراحة ، وأما أصحابُ الخالفات فإِنَّمَا يَجِدُونَ فِيهَا قَدَّمُوا بِمَجَاوِزَةِ الْحَدِّ وَقَصَّ الْعَهْدِ ، وما في هذا الباب من الزَّنة وسوء التصدد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾

أظهرَ للمَلَائِكَةِ شَفِطِيَّةً بما استخلص به آدم فسجدوا بتيسير من الله — سبحانه ، وسَكَرَ بَصَرُ الْعَيْنِ فَمَا شَهِدَ مِنْهُ غَيْرُ الثَّعِينِ ^(١) فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، ولا صدق في قوله : « أنا خير منه » لما فسقَ عن الأمر ، ولكن أدركنه الشقاوة الأصيلة فلم تنزه الوسيلة بالحيلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَتَتَخَنَوْنَ وَذُرِّيَّتَهُ أُولَئِكَ مِنْ

(١) أى نظر إبليس إلى الجسد الفانى لآدم فقال : خلقتني من نار وخلقته من طين ، ولم ينظر إلى الجوهر ، والسبب في ذلك في رأى القسري أن الله أخلق عليه .

دوني وم لكم عدو نفس الظالمين
يَكْفَرُ ﴿١﴾

في الآية إشارة إلى أن مَنْ يُفَرِّدُهُ بِالْوَلَايَةِ فَلَا يَتَقَنَّى غَيْرَهُ وَلَا يَخَافُ غَيْرَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ
الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴾

أ كذب للنسجين والأطباء الذين يتكلمون في الحيات والطباع بقوله : « ما أشهدهم
خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » : وَيَبَيِّنُ أَنَّ مَا يَقُولُونَهُ مِنْ إِيْجَابِ الطَّبَاعِ لِهَذِهِ
السَّكَاتَاتِ لَا أَصْلَ لَهُ فِي التَّحْقِيقِ .

« وما كنت متخذ للضالين عصداً » : أى لم أجعل للذين يُضِلُّونَ النَّاسَ عَنْ دِينِهِمْ
رُشْدَهُمْ فِي الْقَوْلِ بِالطَّبَاعِ حِجَّةً ، وَلَمْ أَعْطِهِمْ لِتَصْحِيحِ مَا يَقُولُونَهُ بِرَهَاتًا .

ويقال إذا تناصرت علومُ الخلقِ عن العلم بأنفسهم فكيف تحيط علومهم بمقائق الصَّديقة ،
واستحقاقه لنوعه إلا بتقدير ما ينصُّهُمُ بِهِ مِنَ التَّعْرِيفِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِرَبِّيَّةِ كُلِّ أَحَدٍ
بِمَا جَعَلَ لَهُ أَهْلًا ؟

ويقال أخيراً أَنَّ عُلُومَهُمْ تَتَقَلَّصُ عَنِ الْإِطَاعَةِ بِجَمِيعِ أَوْصَافِهِمْ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَعَنْ كُلِّ
مَا فِي الْكَوْنِ ، وَلَا مَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ؛ وَلَا حَاجَةَ بِهِمْ إِلَى الْوَقُوفِ عَلَى مَا قَصَّرَتْ عُلُومُهُمْ عَنْهُ .
إِذْ لَا يَتَمَلَّقُ بِذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ . فَالْإِشَارَةُ فِي هَذَا أَنَّ يَصْرَفُوا عَنَّا يَتِيهِمْ إِلَى طَلَبِ
الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْدُ لَهُمْ — بِحُكْمِ الدِّيَانَةِ — مِنَ التَّحْقِيقِ بِهَا ؛ إِذْ الْوَاجِبُ
عَلَى الْعَابِدِ مَعْرِفَةُ مَعْبُودِهِ بِمَا يَزِيلُ التَّرَدُّدَ عَنْ قَلْبِهِ فِي تَفَاصِيلِ مَسَائِلِ الصِّفَاتِ وَالْأَحْكَامِ (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ

(١) في هذا أبلغ رد على من يتهنون الصوفية بمجالاتهم العلوم ، وكيف يجافونها وطلب العلم فرينة
على كل مسلم ومسلمة ؟

وَعَمَّ قَدَحَهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿١٠﴾

على الحق - سبحانه - أن الأصنام لا تقضى ولا تنفع ولا تضر ، ولكن يرفعهم
في العاقبة بما يصير معارفهم ضرورية^(١) حسناً لأوهام القوم ؛ حيث توهوا أن عبادتهم
للأصنام فيها نوع تقرب إلى الله على وجه التعظيم له كما قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى
الله زلفى »^(٢) .

فإذا تحقروا بذلك صدقوا في الندم ، وكان استيلاء الحسرة عليهم ، وذلك من أشد
العقوبات لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم
مواقعوها ولم يحيدوا عنها مصراً ﴾

إذا صارت الأوهام منقطعة ، والمعارف ضرورية ، والنار مآبنة استيقنوا أنهم واقعون
في النار ، فلا يستعظم عذرها ، ولا تنفع لهم حيلة ، ولا تقبل فيهم شفاعة ، ولا يؤخذ منهم
فداء ولا عدل . . . لقد استمكنت الخيبة ، وغلب اليأس ، وحصل التئوط ، وهذا
هو السذاب الأكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس
من كل مثل وكان الإنسان أكثر شئاً
جداً ﴾

أوضح لكافة الجميع ، ولكن لبس على قوم التبع فوهوا في العوج .
« وكان الإنسان أكثر شئاً جدلاً » الجدل في الله محمود مع أعدائه ، والجلل مع الله
ثيرون لأنه صرف إلى مخالفة نوره أن أحداً يمارض التقدير ، وتجويز ذلك اسلاف

(١) المعارف إما ضرورية أو كسبية ، والضرورية من الحق ، والكسبية من الخلق .
(٢) آية ٣ سورة الزمر .

عن الدين . ومن أمارات السعادة للؤمن فتح باب العمل عليه ، وإغلاق باب الجدل دونه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ
الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ
تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

لا تُعَذِّبْهُمْ إِذَا جَاءُوا إِلَى مَا تَعَاطَوْهُ مِنَ الْعَصْيَانِ وَتَرْكِهِ لِلْبَادَةِ إِلَى الْمَأْمُورِ ، ولا توفيق
يساعدكم فيخرجهم عن حوار الناصح إلى عزم الفعل ، فهم — وإن لم يكونوا بنيت الاستطاعة
على ما لبسوا يضلونه — ليسوا عاجزين عن ذلك ؛ ولكنهم بحيث لو أن العبد منهم أراد ما أمر به
كثافي منه ذلك ، وتغدر عليه ، ففي الحال ليس بقادر على ما ليس بفضله ولا هو عاجز عنه ،
وهذا يسميه القوم حال التخلفية وهي واسطة بين القدرة والعجز .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الرُّسُلَ إِلَّا بُشْرِينَ
وَمُنْذِرِينَ وَيَجْعَلُ الْإِنْسَانُ كُفْرًا
بِالْبَاطِلِ لِيُدْخِلَنَّا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا
آيَاتِي وَمَا أَنْذَرْتُهُمْ ﴾

أرسل الرسل — عليهم السلام — تنزيه ، وأيّدتم بالحجج والبراهين ، وأمرهم بالإتيان
والنهي ، والتشريف في عين التكليف ، وتضمين ذلك بالتحقيق ، ولكن سجد قوم
باتباعهم ، وشق آخرون بخلانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ
فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلَمَّا قَدْ جَاءَتْهُ
يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَأَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ
يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

لا أحد أعظم من ذكر ووصف بما لوح له من الآيات ، وبما شاهده وعرفه من أمر
 إصلاح أو شغل كفى أو دعاه أجيب له ، أو سوء أدب حصل منه ، فأدب بما يكون تليها
 له ، أو حصلت منه طاعة وكوفيه في العاجل إما بمعني وجده في قلبه من بسط أو حلاوق
 أو أنس ، وإما بكفاية شغل أو إصلاح أمر . ثم إذا استقبل أمر ليس ما عومل به ، أو أمرض
 عن تذكره ، وليس ما قدمت يداه من خيره وشره ، فوجد في الوقت موجه . .
 ومن كانت هذه صفته جبل على قلبه سترأ وغفلة وقسوة حتى تنقطع عنه بركت ما وحيه .
 ويقال من أعظم من يستقبل أمر بجلازة لما أسلفه من ترك آربه فيستهم دبه ، ويشكو
 بما يلاقيه ، وينسى حرمة الذي يسيه أصابه ما أصابه ! وكما قيل :

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر غاب القدر

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُكُمْ

بِمَا كَسَبُوا لَسَجَلْ لِمَ الْعَذَابُ ،

بل لم يؤخركم لن يؤخركم من دونه

مؤيلاً ﴿

« غفور » : لأنه ذو الرحمة ، ورحمته الأزلية أوجبت المغفرة لهم .

ويقال « الغفور » : الماصين من عباده ، و « ذو الرحمة » بجمعهم فيصالح أحوال كافتهم .

« لو يؤخركم بما كسبوا » : لسجل لم العذاب ؛ أي عاملهم بما استوجبوه من عصيانهم ،

فصجل لهم العقوبة ، لكنه يؤخرها ليقضي حكمته ، ثم في المأقبة يفعل ما يفعل على قضية
 إرادته وحكمه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَمْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا

وَجَعَلْنَا لِمَوْلَاكُم مَّوَدَّةً ﴿

لما لم يشكروا النعم ولم يصبروا في المحن فجعلنا لهم العقوبة .

ويقال لما غفلوا عن شهود التقدير ، وخرموا رزق الرضا وكفناهم إلى ظلمات تدبيرهم ،

فطالحوا في أودية غفلاتهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ
 حَتَّى أَبْلُغَ يَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
 حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا
 نَسِيًا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ
 سَرًى﴾

لما تَحَثَّ صحبة يوشع مع موسى عليهما السلام استحقَّ اسم الفتوة ، ولذا قال :
 « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » وهو اسم كرامة لا اسم علامة .

جعل دخول السلك للقاء علامة لوجود الخضر هناك (١) ، ثم أدخل النسيان عليهما
 ليكون أبلغ في الآية ، وأبعد من اختيار للبشر .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا
 لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾
 كان موسى في هذا السفر مُتَحَمِّلًا ، فقد كان سفر تأديبٍ واحتفالٍ مشقةً ، لأنه
 ذهب لاستكثار العلم . وحال طلب العلم حال تأديبٍ ووقت تحمُّل المشقة ، ولهذا لَحِقَهُ
 الجوع ، فقال : « لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » .

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً ، ولم يلصقه الجوع
 ولا للشقة ، لأن ذهابه في هذا السفر كان إلى الله ، فكان محملاً .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ
 فَأَمْنَى السَّيْتُ الْحَوْتُ وَمَا إِنْسَانِيهِ
 إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ
 سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ فَكُفْ

(١) كان الحوت سمكة مملوكة ، فترلا لية على شاطئه عين الحياة ونام موسى ، فلما أصاب السكة الماء
 عاشت ووقعت في الماء (النس) .

ما كنّا فَنَجَّهْهُمُ عَلَى آلِهِمَ
قَصَصًا ﴿١١﴾

قال عليها السفر لأنهما احتلجا إلى الانصراف إلى مكاتبهما ، ثم قال يوشع :
« وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » : الله — سبحانه — أدخل عليه اللسان ليكون
الصيّد من تكلّبه ، ثم قال : « ذلك ما كنّا نبغ » : يبي دخول السك للماء وكان
مشوياً ؛ فصار ذلك سجرة له ، فلما اتبها إلى للوضع التي دخل السك فيه الماء
لقياً الخضر .

قوله جل ذكره : ﴿ فوجئنا عبداً رقيقاً عبادنا آتيناها
رحمة رقيقاً عندنا ، وعلمناه رقيقاً
فوجئنا عبداً رقيقاً ﴾

إذا سمى الله إنساناً بأنه عبده بجه من جهة الخواص ؛ فإذا قال : « عبدي »
جه من خاص الخواص .

« آتيناها رحمة من عندنا » : أي صار مرحوماً من قبلنا بتلك الرحمة التي خصصناه بها من
عندنا ، فيكون الخضر بتلك الرحمة مرحوماً ، ويكون بها راحماً على عبادنا .

« وعلمناه رقيقاً » : قيل العلم من لسان الله ^(١) ما يتحصل بطريق الإلهام دون
التكليف بالتطلب .

ويقال ما يعرف به الحق — سبحانه — الخواص من عباده .

ويقال ما يعرف به الحق أوليائه فيها فيه صلاح عباده .

(١) قال الزجاج : القصص اتباع الأثر ، فمن قصصاً : اتبع الأثر .

(٢) يضبط الصوفية من قصة الخضر وموسى مصداقاً ثورياً لاستمداد كثير من أصولهم فيما يتصل بالعلم
الذني وعلم الوراثة ، والولاية والنبوة ، والعلاقة بين المريد والشيخ ، وفكرة الظاهر والباطن ، واللامعة
على ظاهر مستشرق ياطه سلم ... ونحو ذلك .
وقد نجد خلال إشارات التفهيم شيئاً من ذلك .

وقيل هو ما لا يود منه نَفْعٌ إلى صاحبه ، بل يكون نفعه لعباده مما فيه حقُّ الله - سبحانه .

ويقال هو ما لا يجدُ صلحُه سبيلاً إلى جحده ، وكان دليلاً على صحة ما يجده قطعاً ، فهو سألته عن برهانه لم يجد عليه دليلاً ؛ فأقوى العلوم أبسدها من الدليل (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَى أَنْ تُغَلِّبَنِي بِمَا خَلَقْتَ وَشَدَّاءُ ﴾

تَلَفَّفَ في الخطاب حيث سَلَّكَ طريق الاستئذان ، ثم صَرَّح بمقصوده من المصيبة بقوله : « على أن تطغى مما علمت رشداً » .

ويقال إن ألقى خُصٌّ به الخضرُ من العلم لم يكن تَعَلَّمَهُ من أستاذ ولا من شخص ، فلم يكن بتعليم أحدٍ لِهَـ . . . متى كان يعلمه غيره ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ وكيف تصبرُ على ما لم تحيط به خُبْرًا ؟ قال مستجديني
﴿ قَالَ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾

سؤال بذلك العطف وجوابُ بهذا العطف ؟

ثم تدارك قلبه بقوله : « وكيف تصبر على ما لم تحيط به خبيراً ؟ » ، فلجابه موسى : « قال مستجديني . . . » وعد من نفس موسى بشيئين : الصبر ، وبأن لا يوصيه فيها يأمر به ، فأما الصبر ففكرته بالاستنشاء بمشيئة الله فقال : « مستجديني إن شاء الله صابراً » فصبر حتى وُجِدَ صابراً ، فلم يقبض على يدَي الخضر فيها كان منه من الفضل ، والثاني قوله : « لا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا »

(١) وسر قوة العلم الذي يمد عن الدليل أنه من الحق ، ويقدر ما تختص الجواب الإنسانية في العلم وتبرز للثلاث الإلهية فيه تكون نضاعة برهانه وقوة بيانه .

لك أمراً : أطلقه ولم يُقرنه بالاستثناء ، فما استثنأ لأجله لم يخالفه فيه ، وما أطلقه وقع فيه الخلف^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

فإنه ليس المرید أن يقول : « لا » لشيخه ، ولا التلميذ لأستاذه ، ولا العاصي للعالم للفق فيأبغى ويحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ .

لماركبوا الفلك خرقها وكان ذلك إلقاء على صاحبها لئلا يرغب في السفينة المخروقة اليك الطامع في السفن .

وقوله : « لتغرق أهلها » أى لتؤذى عاقبة هذا الأمر إلى غرق أهلها ؛ لأنه علم أنه لم يكن قصد إغراق أهل السفينة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ تَبَىٰ صَبْرًا ﴾ .

أى أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم ، وإنا ننجريه من حيث الحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ لَا تَأْتُونَا بِعَذَابٍ مُّثَلٍ وَلَا تَرْهَقُنِي مِنْ أَمْرِ عَصْرًا ﴾ .

طالبه عا هو شرط العلم حيث قال : « لَا تَأْتُونَا بِعَذَابٍ مُّثَلٍ » ؛ لأن الناس لا يدخل تحت التكليف ، وأيد ذلك بما قرئ به قوله : « وَلَا تَرْهَقُنِي مِنْ أَمْرِ عَصْرًا » فالتسكن من حقه

(٢) الخلف = الإخلاف ، فقد خالف موسى الأمر حين كان يفتى ويتساءل عتب كل حادثة في القصة ، وكان الحضر في كل مرة يقول : « أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مِمَّا صَبْرًا » .

التكليف ، ومن لا يصحُّ منه النفلُ والتركُّ لا يتوجه . (١) والناسي (٢) من جهلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاذْلُقْهُ إِذَا كُنِيَ غُلَامًا فَفَتَنَّهُ ،

قَالَ أَفَتُكَلِّمُ نَفْسًا ذَكِيَّةً بِشَيْرِ

نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۝ ﴾

كان يُنْقَلِبُ العلمَ واجباً على موسى — عليه السلام — قَصْرُهُ حيث يرى في الظاهر غُلَامًا ،

ولكن فيما عرف من حال انخفض من حقه للتوقف ريثما يعلم أنه أَلَمٌ بمحطورٍ أو مُبَلِّغٍ ،

ففي ذلك الوقت كان قلب المادة .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ

بَعْدَ صَبْرٍ ۝ ﴾

كُرِّرَ قوله : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ . . . ۝ ﴾ لأنه واقف بشرط العلم ، وأما في عمل الكشف

فَقَسَرَ عَلَيْهِ موسى عليه السلام فقال :

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا

فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي

عَذْرًا ۝ ﴾

بلغ عصيانه ثلاثاً ، والثلاثةُ آخِرُ حَدِّ الْقَلَّةِ وَأَوَّلُ حَدِّ الْكَثْرَةِ ، فلم يجِدِ السَّاعَةَ

بعد ذلك (٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاذْلُقْهُ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ

اسْتَعْطَا أَهْلُهَا فَأَيَّوْا أَنْ يُصَيِّرُوهُمَا

فَوْجًا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ

فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَكُنَّتَ عَلَيْهِ

أَجْرًا ۝ ﴾

(١) يباح في الفسخة ، وترجع أن المقنود (عليه لوم) أو مؤاخفة .

(٢) وردت (والناسي) والسياق يتطلب (والناسي) بإلياء إذ جاء في الآية (. . . بما نسي) .

(٣) قد تكشف هذه العبارة عن تصور الفشيقي لأقصى درجات القنب العاقل للتوبة .

كان واجبا في ملتهم على أهل القرية إسطامها ، ولم يعلم موسى أنه لا جدوى من التذكير عليهم ؛ ولو كان آخفى على ذلك منهم لكان أحسن .

فلما أطمأخض جدارهم ولم يطلب عليه أجراً لم يقل موسى إنك قُمتَ بمحظورة ، ولكنه قال له : « لو شئت لخنفت عليه أجراً » أى إن لم تأخذ بيبك فلو أخذت بسبينا لكان أخذك خيراً لنا من تركك ذلك ، ولئن وجبَ حَتْمُ نَعْمٍ أَخْلَتَ بِحُفَا ؟

ويقال إن سَرَهَ ذلك كان سَفَرُ تَأْدِيبٍ فَرَدُّهُ إِلَى تَحْمِلِ الشَّقَّةِ ، وإلا فهو حين سقى لبنتك شيب فإِنَّ ما أصابه من التَّسْبِ وما كان فيه من الجوع كان أكثر (١) ، ولكنه كان في ذلك الوقت محولاً وفي هذا الوقت مُتَحَمِّلاً . فلما قال موسى هذا قال له الخضر :

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ
سَأَنْبِئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ
عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

أى بعد هذا فلا صعبة بيننا .

ويقال قال الخضر إِنَّكَ نَبِيٌّ . . وإنا أوأخذك بما قُلْتَ ، فأنت شَرَطْتَ هذا الشرط ؛ وقلت : إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ؛ وإنا أعطاك بقولك .

ويقال لَمَّا لم يصبر موسى مِمَّ في تَرْكِهِ السُّؤَالَ لم يصبر الخضرُ أيضاً مِمَّ في إِدَامَةِ الصَّحْبَةِ فاختار الفراق .

ويقال ما دام موسى عليه السلام سأل لأجل النهر — في أمر السفينة التي كانت للسالكين ، وقتل النفس بغير حق — لم يفارقه الخضر ، فلما صار في الثالثة إلى القول فيما كان فيه حَظُّ نفسه من طلب الطعام ابْتُلِيَ بالفرقة ، فقال الخضر : « هذا فراق بيني وبينك » .

ويقال كما أن موسى — عليه السلام — كان يحب صحبة الخضر لما له في ذلك من غرض الاستزادة من العلم فَإِنَّ الخضر كان يحب تَرْكَ صحبة موسى عليه السلام إِنْشَاراً لِلخُلوَةِ بِاللَّهِ عن المخلقين .

(١) ومع ذلك لم يطلب أجراً ، ولم يفكر في ذلك البتة . . لأنه كان يحق الله ؛ ولكنه في هذا الوقت كان متكفلاً ، فهو يفكر بحظ نفسه ، ولذا فكر في الأجر وطلب الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ
يَسْلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْسَلْنَا أَنْ أَعْيَبَهَا
وَكَانَ وِزَارُهُمْ عَلَيْهَا فَاغْرَقْنَا كُلَّ سَفِينَةٍ
غَصَبًا﴾

لما طرقت الخضر موسى عليه السلام لم يرد أن يبق في قلب موسى شبهة اعتراضية ؛
فأزال عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال ؛ وكشف له أن السر في قصده من خرق السفينة
سلامتها ويقاؤها لأهلها حيث لن يطلع فيها الملك الناصب ، فبقاه السفينة لأهلها — وهي
مسيبة — كان خيرا لم من سلاتها وهي منصوبة .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَمَّا النَّارُ فَكَانَ آبَاؤُكُمْ مِنْهَا
لُغِيَّةً أَنْ يَرْحَمَهَا طَائِفَاتٌ مِنْهُمْ أَكْثَرُ
فَارْتَدَّا أَنْ يَبْتَئِذَا بِمَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْهُ
ذِكْرًا وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾

يُبَيِّنُ لَهُ أَنَّ قَتْلَ النَّارِ لَمَّا سَبَقَ بِهِ الْعِلْمُ مِنْ مَعْنَى أَنَّ فِي بَقَائِهِ خَيْرٌ لَوَالِدَيْهِ ،
وَلِي لِمَعَالِ الْخَلْقِ عَنْهُ سَعَادَةٌ لَهُمَا .

قوله جل ذكره : ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِلغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ
فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَالِحًا غَارًا وَهُمْ أَنْ لَا يَمْلِكُوا
أَشَدُّهَا وَيَسْتَخْرِجُهَا كَثْرَتُهَا رَحْمَةً
مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ،
ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
صَبْرًا﴾

أما تسوية الجدار فلاستيقاء كثر الغلامين وترك طلب الرفق من الخلق .

قوله جل ذكره ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا
تَطَلَّعَ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَهْتَفِلْ لَهُمْ مِنْ
دُونِهَا سِرًّا ۚ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا
بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۚ ثُمَّ أَنِيعْ سَبِيلًا ۚ﴾

أقوام هم أهل مطلع الشمس الغالب عليهم طولُ نهارهم ، وآخرون كانوا من أهل
مغرب الشمس الغالب عليهم استتارُ شمسهم .. كذلك الناس في طلوع شمس التوحيد : منهم
الغالب عليهم طلوع شمسهم ، والحضور عنهم والشهود وصفهم والتوحيد حقهم ، وآخرون لم
من شمس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرضي .

قوله جل ذكره : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ
دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَتَّقُونَ
قَوْلًا ۚ تَالَّذِينَ إِذَا الْقُرُونُ بِإِنْ يَأْجُوجَ
وَمَاجُوجَ مُنْغَدُّونَ فِي الْأَرْضِ قُلْ
يَهْبِلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ يَهْبِلَ بَيْنَنَا
وَبَيْنَهُمْ سُدًّا ۚ قُلْ مَا مَكَّنِّي فِيهِ
رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم رَدْمًا ۚ﴾

أى ما كانوا يهتدون إلا إلى لسان أفضيهم ، وما كانوا يقهون قه غيرهم فلعنوا إلى
عبراتهم في شرح قصتهم ، ورفضوا إليه - في باب يلجوج وماجوج - مطلقهم ،
وضمنوا له خراجاً يدفعونه إليه ، فأجابهم إلى سؤالهم ، وحقق لهم بضمتهم ، ولم يأخذ منهم
ما ضمنوا له من الجباية ، ثم رأى أن من الواجب عليه حق الحماية على حسب المكنة .

قوله جل ذكره : ﴿آتَوْنِي زُيْرًا الْحَسْبُ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ
بَيْنَ الصَّدْقَيْنِ قَالَ انْقُضُوا حَتَّىٰ إِذَا

جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه
قطراً ﴿

استعان بهم في الذي احتاج إليه منهم من الإمداد بما قال : « آتوني زبر الحديد » فلما
فلو ما أمرهم به ، وفتحوا فيه النار جعل الحديد بين الصدين أي جانبي الجبل . ثم أخبر أنه إنما
يبقى ذلك إلى أن يأذن الله له في الخروج ، وتدفع عن الناس عادية (....) (١) إلى الوقت
للضروب لم في التقدير .

وبعد ذلك يكون من شأنهم ما يريد الله . وبين - سبحانه - أن خروجهم من وراء
سدهم من أشراف الساعة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أُعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ
عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴾

نظروا بأعين رموسهم لأنهم قدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال ،
ولم يكن لهم سمع الإجابة لِمَا قدوا من التوفيق ، فتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف .
قوله : « وكانوا لا يستطيعون سمعاً » : لأنهم قدوا من قبله - سبحانه - الإسماع ؛
فلم يستطيعوا لهم القبول .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَغَفَرُوا
عِبَادِي مِنْ دُونِ أُولَئِكَ إِنَّهُمْ يُعْتَدْنَا
جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾

أي توهموا أنه ينضم ما فعلوه حسب ظنهم ، واعتقدوا في أصنامهم استحقاق التنظيم ،
وكانوا يقولون : « ما ننبهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٢) ، وهم يحسبون أنهم يحسنون
صنعا ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون .

(١) مثلية .

(٢) آية ٣ سورة الزمر .

قوله جل ذكره: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ

أَعْمَالًا﴾ الذين ضلّ سعيهم في الحياة

الدنيا ﴿

ضلّ سعيهم لأنهم عملوا لغير الله . . وما كان لغير الله فلا ينفع .

ويقال الذين ضلّ سعيهم هم الذين قرئوا أعمالهم بالزيادة ، ووصفوا أحوالهم بالإعجاب ، وأبطالوا إحسانهم بالملاحظات أو بالنقض .

ويقال هم الذين يلاحظون أعمالهم وما يشتم بين الاستكثار (١) .

قوله جل ذكره: ﴿وَمَنْ يَحْسَبَنَّ أَنَّهُمْ يُخْسِنُونَ

صُنْعًا﴾

لم يكونوا أصحاب التحقيق ، فمیلوا من غير علم ، ولم يكونوا على وثيقة (٢)

قوله جل ذكره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

وَلِقَائِهِ فَصَبَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ

لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنَانًا﴾

عوا عن شهود الحقيقة. فبقوا في ظلمة الجحود ، فنقضت بهم الأوهام والظنون ، ولم يكونوا على بصيرة ، ولم تستقر قلوبهم على عقيدة مقطوعة بها ، فليس لهم في الآخرة وزن ولا خطر ، اليوم هم كالأعمال ، وغداً واقفون ساقطون (٣) (٤) الأقدام .

قوله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُومِهِمْ بِمَا كَفَرُوا

وَانْتَحَدُوا آيَاتِي وَرَسُولِي هَزُودًا﴾

(١) ملاحظة الأعمال واستكثارها من أخطر دعاوى النفس ، كثيراً ما حذر منها أهل الملامة في نيسابور — موطن التشيعي .

(٢) الوثيقة ما يضبط به الأمر ويحكم .

(٣) مثلبة ، وقد ضبطنا (الأقدام) بفتح الحزوة مراعاة للانجام مع (الأنعام) على عادة التشيعي في ضبط الموسيقى الداخلية للجمال والفتريات ، ومع ذلك فإن صحة ضبطنا تتوقف على معرفة الكلمة للمثلبة .

هم اليوم في عقوبة الجحد ، وغداً في عقوبة الرد . اليوم هم في ذلّ الفراق ، وغداً في أليم الاحترق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

لم جنات مُعجّلة سرّاً ، ولم جنات موجلة جهراً .
اليوم جنات الوصل وغداً جنات الفضل .
اليوم جنات العرفان وغداً جنات الرضوان .

قوله جل ذكره : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عنها رجلاً ﴾

عرفنا — سبحانه — أن ما يؤوله لم غداً يكون على الدوام ، فهم لا ينفكون عن أفضالهم ، ولا يخرجون عن أحوالهم ، فهم أبداً في الجنة ، ولا إخراج لهم منها . وأبداً لهم الرؤية ، ولا حجاب لهم عنها (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَعَكَ كَلَمًا رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

أي لا تُفدُ مائة كلمات الله لأنه لا نهاية لها ، فإن متعلقات الصفة القديمة لا نهاية لها ، كمعلومات الحق — سبحانه — ومقدوراته وسائر متعلقات صفاته .
والذي هو مخلوق (٢) لا يستوفي ما هو غير متناه — وإن كثّر ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَا إِلَهُكَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾

(١) للشعري من الباحثين الذين يصرحون بالرؤية بالأسفار في الآخرة ، أما في الدنيا يقول : الأقوى فيه أنه لا يجوز ، الرسالة ص ١٧٥ .

(٢) يفيد (البحر) إذا صار مداداً ، فالبحر يتناهي . وكلمات الله لا تتناهي .

أخيراً أفكّر لم من حيث الصورة والجنسية مشاكل، والفرق بينك وبينهم تخصيصُ الله سبحانه — إياك بالرسالة، وتركه إياهم في الجاهلية.

ويقال: قل اختصمى بما لى من (الاصطفاء)^(١)، وإن كنا — أنا وأنت — في الصورة أكفاه.

قوله جل ذكره: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

حُلّ الرجاء في هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء للثبوت حسن، ولكن ترك هذا على ظاهره أولى؛ فالؤمنون قاطبة يرجون لقاء الله.

والموافق بالله — سبحانه — يرجو لقاء الله والنظر إليه والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقاءه هو صبره على أنواع اشتياقه، وأن يُخلص في عمله.

«ولا يشرك بعبادة ربه»: أى لا يلاحظ عمله، ولا يستكثر طاعته، ويتبرأ من حوله وقوته.

ويقال العمل الصالح هنا اعتقاد (وجود الصراط ورويته وانتظار وقته)^(٢)

(١) هنا كلمة متباعدة في الخط، فوضنا كلمة (الاصطفاء) من عندنا هي أليق بالمعنى والسياق.
(٢) هكذا في س وليس واضحاً عودة الضمير في (رويته) هل هي على الصراط أم على الحق. فمن علم أن التشيرى شاملاً من حيث منهجية التقى، ونظم كذلك أن الشافعى يقول: لو علم ابن إدريس أنه لا يرى ربه يوم القيامة ما هبّده.

انتهت سورة الكهف بهذا التذييل في النسخة من.
[ثم هو الله تعالى وحسن توفيقه نصف أوله از تفسير
محقق إمام أبو قاسم التشيرى رحمة الله عليه بتاريخ ١٢ شهر شوال سنة ١١٣٤].

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

سورة مريم عليها السلام

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

بسم الله ، اسم عزيز من عبده وأصل جهاده ، ومن طلبه ودع وساده ، ومن عرفه
أنكر أحبابه . ومن يسر له أوقته على محبته .

من ذكره ليس اسمه ، ومن شهده فقد عقله ولبه (١) .

اسم عزيز جُبِلَتْ القلوبُ على محبته ، وكل قلب ليس يوقته على محبته ، فليس
بجيلة يصل .

اسم ما انصفت أشباح الأبرار إلا بعبادته ، وما انعكفت أرواح الأحرار إلا
بمشاهدته .

اسم عزيز من عرفه اعترف أنه وراه ما وصفه .

قوله جل ذكره : ﴿ كَهَيِّص ﴾

تعريف للأحباب بأسرار معاني الخطاب ، حروف خص الحق للخطاب بها
بفهم معانيها ، وإذا كان للأخبار سماعها وذكرها ، فلرسول — عليه السلام —
فهمها وسرها .

ويقال أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام ، والرفع والوضع على
ما سبق به التفضاء والحكم .

(١) المقصود بقدر العمل والاب هنا هبة التمييز في حال الشهود .

وقال في الكفاف تريف بكونه مع أوليائه ، ونخوف بخفي مكره في بلامه .
وقال في الكفاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نفسه قبل كتابة الملائكة الزلزلة
على عبادهم .

والله ، تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفانه ، وتريف خواصه باستحقاق جلال سلطانه ،
وماله من الحق بحكم إحسانه .

والياء إشارة إلى يسر ربه بعد عسر محبه . وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين
من عبادهم .

والعين تشير إلى علمه بأحوال عبده في سره وجهره ، وقوله وكثره ، وحاله وماله ،
وقدر طاقته وحق فاقته .

وفي الصادق إلى أنه الصادق في وعده .

قوله جل ذكره : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾

تخصيصه لإله بإجابته في سؤال ولده ، وما أراد أن يتصل بأعقابهم من تخصيص القربة له
ولجميع أهله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ خَفِيًّا ﴾

وإنما ذلك لئلا يعلم أحد على سر حاله فأخفى نداءه عن الأجانب وقد أمكنه أن يخفيه
عن نفسه بالتمسك عن شهود محاسنه ، والاعتقاد بالسوء في نفسه ، ثم أخفى ميره عن الخلق لئلا
يبيع لأحد إشراف على حاله ، ولئلا يشتت بمقاتله أعداؤه .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾

واشتغل الرأس شيئا .

أي لقيت بضيق عن خدمتك ما لا أرحبه ؛ فطلعت في السن ، ولا قوة بعد المشيب ؛
فهب لي ولما يتوب عني في هدايتك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَاؤِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾

أي إني أسألك وأتأخر بإجابتك ؛ لئلي بأن لا أشقى بدعائك فأنت نجيب أن تسأل .

ويقال إنك موَدَّتني إجابة الدعاء ، ولم تَرُدِّي في سالف أيامي إذا دعوتُك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي
وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ
لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ يرضى ويرث من آل
يعقوب واجله رب رَضِيًّا .

إِنِّي خِفْتُ أَنْ تَنْهَبَ النُّبُوَّةَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، وَتَنْتَقِلَ إِلَى بَنِي أَعْمَى فَهَبْ لِي وَلَدًا يَبْدُكَ ،
وَيَكُونُ مِنْ نَسْلِي وَمِنْ أَهْلِي .

وهو لم يرْ ذُلَّ الولد بشهوة الدنيا وأخذَ الحظوظ منها ، وإنما طلب الولدَ ليقومَ بحقِّ الله ،
وفي قوله : « يرضى » دليلٌ على أنه كما سأل الولدَ سأل بقاء ولده ؛ قال : وَلَدًا يَكُونُ وَارِثًا لِي ؛
أَيُّ بَيْتِي بَعْدِي ، ويرث من آل يعقوب النُّبُوَّةَ وتبليغُ الرسالة .

واجله رب رَضِيًّا : رَضِيَ فبِئْسَ فِعْلٌ بِمَنْعِي مَفْعُولٌ أَيُّ قَرْضٍ عَنْهُ فَيَكُونُ مَرْضِيًّا لَكَ . ويحتمل
أن يكون مبالغة من الفاعل أَيُّ رَاضِيًّا مَعَكَ ، وراضياً بتقديرِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى
لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ .

أَيُّ اسْتَجَبْنَا لِدَعَائِكَ ، وَنَرَزَّكَ وَلَدًا ذَكَرَّا اسْمُهُ يَحْيَى ؛ يَحْيَا بِهِ عُقْرَةُ أُمِّهِ ، وَيَحْيَا بِهِ
نَسْلُكَ ، وَيَحْيَا بِهِ ذِكْرُكَ ، وَمَا سَأَلْتَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَائِبًا عَنْكَ ؛ فَيَحْيَا بِهِ مَحَلُّ الْعِبَادَةِ وَالنُّبُوَّةِ
فِي بَيْتِكَ .

« لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا » : أَفْرَادُهُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — بِالتَّسْبِيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَفْرَادِهِ بِالْفَضِيلَةِ ؛
أَيُّ لَمْ يَكُنْ لَهُ سَمِيٌّ قَبْلَهُ ؛ فَلَا أَحَدٌ كَقَوْلِهِ فِي اسْتِجَاعِ أَوْصَافِهِ فَضْلُهُ .

ويقال لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ نَظِيرًا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ لَا ذَنْبَ لَهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَلَا بَعْدَهَا
غَيْرُهُ (١)

(١) هذا رأى في مذهب التشيعي السكلاي يتصل بقضية هامة : هل يكون من النبي ذنب ؟

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبُّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ
امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ
عَتِيًّا﴾ .

سأل الولد فلما أُجيب قال أنى يكون لى غلام؟ وسنى ذلك — على ما جاء فى التفسير —
أن بين سؤاله الولد وبين الإجابة مدة طويلة؛ فكَأَنَّهُ سأل الولد فى ابتداء حال سِنِّه ،
واستجيبَ دعوته بعد مائتاتى فى سِنِّه ، فذلك قال : « أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ؟ » .

ويقال أراد أن يعرف ممن يكون هذا الولد . . أمِنْ هذه المرأة وهى عاقرة أم من امرأة
أخرى أتزوج بها مملوكة أسفَرشها ؟ فالسؤال إنما كان لتعيين مَنْ منها يكون الولد . فقال تعالى :
﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾

معناه إجابة الولد لك فيها معجزة ودلالة فى هذا الوقت الذى فيه حسب مستقر العادة
ولادة مثل هذه المرأة دلالة ومعجزة لك على قومك ، فتكون الإجابة بالولد مِنْ وَجْهٍ
معجزة؛ ومن وجهٍ راحةٍ وكرامةٍ .

قوله جل ذكره: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾
دلَّت الآية على أن المدموم ليس بشيء؛ لِأَنَّهُ نَفَى أَنْ يَكُونَ قَبْلَ خَلْقِهِ لَه كُنْ شَيْئًا .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ
أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

أراد علامة على علق المرأة بالولد؛ ولم يُرِدْ علامةً يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى صِدْقِ مَا يُقَالُ لَهُ .
فأخبره تعالى : أَنَّهُ تَكَّ علامةً وقت إجابتك . . إِنَّ لِسَانَكَ لَا يَنْطِقُ مَعَهُم بِالْمُخَاطَبَةِ
— ولو اجتهدت كُلَّ الجهد — ثلاثة أيام ، وعليك أن تخاطبني ، وأن تقرأ الكتب للترتلة
التي كانت فى وقتك . فكَانَ لَا يَنْطِقُ لِسَانُهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يقرأ
الكتبَ أَوْ يَسْمِعَ اللَّهَ أَنْ يَنْطِقَ مَعَ اللَّهِ لِسَانُهُ .

قوله جل ذكره: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى
إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

أى فلما خرج عليهم عرفهم — من طريق الإشارة ^(١) — أن اللسان الذى كان يخاطبهم
 به لس الآن منطلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا بَعْجِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَأْتِنَاهُ
الْحُكْمَ صَبِيحًا ۖ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا
وَرِكَاتًا ۚ وَكَانَ قَبْلُهَا ۖ ۝ ۱۰ ۚ ۝ ۱۱ ۚ ۝ ۱۲ ۚ ۝ ۱۳ ۚ ۝ ۱۴ ۚ ۝ ۱۵ ۚ ۝ ۱۶ ۚ ۝ ۱۷ ۚ ۝ ۱۸ ۚ ۝ ۱۹ ۚ ۝ ۲۰ ۚ ۝ ۲۱ ۚ ۝ ۲۲ ۚ ۝ ۲۳ ۚ ۝ ۲۴ ۚ ۝ ۲۵ ۚ ۝ ۲۶ ۚ ۝ ۲۷ ۚ ۝ ۲۸ ۚ ۝ ۲۹ ۚ ۝ ۳۰ ۚ ۝ ۳۱ ۚ ۝ ۳۲ ۚ ۝ ۳۳ ۚ ۝ ۳۴ ۚ ۝ ۳۵ ۚ ۝ ۳۶ ۚ ۝ ۳۷ ۚ ۝ ۳۸ ۚ ۝ ۳۹ ۚ ۝ ۴۰ ۚ ۝ ۴۱ ۚ ۝ ۴۲ ۚ ۝ ۴۳ ۚ ۝ ۴۴ ۚ ۝ ۴۵ ۚ ۝ ۴۶ ۚ ۝ ۴۷ ۚ ۝ ۴۸ ۚ ۝ ۴۹ ۚ ۝ ۵۰ ۚ ۝ ۵۱ ۚ ۝ ۵۲ ۚ ۝ ۵۳ ۚ ۝ ۵۴ ۚ ۝ ۵۵ ۚ ۝ ۵۶ ۚ ۝ ۵۷ ۚ ۝ ۵۸ ۚ ۝ ۵۹ ۚ ۝ ۶۰ ۚ ۝ ۶۱ ۚ ۝ ۶۲ ۚ ۝ ۶۳ ۚ ۝ ۶۴ ۚ ۝ ۶۵ ۚ ۝ ۶۶ ۚ ۝ ۶۷ ۚ ۝ ۶۸ ۚ ۝ ۶۹ ۚ ۝ ۷۰ ۚ ۝ ۷۱ ۚ ۝ ۷۲ ۚ ۝ ۷۳ ۚ ۝ ۷۴ ۚ ۝ ۷۵ ۚ ۝ ۷۶ ۚ ۝ ۷۷ ۚ ۝ ۷۸ ۚ ۝ ۷۹ ۚ ۝ ۸۰ ۚ ۝ ۸۱ ۚ ۝ ۸۲ ۚ ۝ ۸۳ ۚ ۝ ۸۴ ۚ ۝ ۸۵ ۚ ۝ ۸۶ ۚ ۝ ۸۷ ۚ ۝ ۸۸ ۚ ۝ ۸۹ ۚ ۝ ۹۰ ۚ ۝ ۹۱ ۚ ۝ ۹۲ ۚ ۝ ۹۳ ۚ ۝ ۹۴ ۚ ۝ ۹۵ ۚ ۝ ۹۶ ۚ ۝ ۹۷ ۚ ۝ ۹۸ ۚ ۝ ۹۹ ۚ ۝ ۱۰۰ ۚ ۝ ۱۰۱ ۚ ۝ ۱۰۲ ۚ ۝ ۱۰۳ ۚ ۝ ۱۰۴ ۚ ۝ ۱۰۵ ۚ ۝ ۱۰۶ ۚ ۝ ۱۰۷ ۚ ۝ ۱۰۸ ۚ ۝ ۱۰۹ ۚ ۝ ۱۱۰ ۚ ۝ ۱۱۱ ۚ ۝ ۱۱۲ ۚ ۝ ۱۱۳ ۚ ۝ ۱۱۴ ۚ ۝ ۱۱۵ ۚ ۝ ۱۱۶ ۚ ۝ ۱۱۷ ۚ ۝ ۱۱۸ ۚ ۝ ۱۱۹ ۚ ۝ ۱۲۰ ۚ ۝ ۱۲۱ ۚ ۝ ۱۲۲ ۚ ۝ ۱۲۳ ۚ ۝ ۱۲۴ ۚ ۝ ۱۲۵ ۚ ۝ ۱۲۶ ۚ ۝ ۱۲۷ ۚ ۝ ۱۲۸ ۚ ۝ ۱۲۹ ۚ ۝ ۱۳۰ ۚ ۝ ۱۳۱ ۚ ۝ ۱۳۲ ۚ ۝ ۱۳۳ ۚ ۝ ۱۳۴ ۚ ۝ ۱۳۵ ۚ ۝ ۱۳۶ ۚ ۝ ۱۳۷ ۚ ۝ ۱۳۸ ۚ ۝ ۱۳۹ ۚ ۝ ۱۴۰ ۚ ۝ ۱۴۱ ۚ ۝ ۱۴۲ ۚ ۝ ۱۴۳ ۚ ۝ ۱۴۴ ۚ ۝ ۱۴۵ ۚ ۝ ۱۴۶ ۚ ۝ ۱۴۷ ۚ ۝ ۱۴۸ ۚ ۝ ۱۴۹ ۚ ۝ ۱۵۰ ۚ ۝ ۱۵۱ ۚ ۝ ۱۵۲ ۚ ۝ ۱۵۳ ۚ ۝ ۱۵۴ ۚ ۝ ۱۵۵ ۚ ۝ ۱۵۶ ۚ ۝ ۱۵۷ ۚ ۝ ۱۵۸ ۚ ۝ ۱۵۹ ۚ ۝ ۱۶۰ ۚ ۝ ۱۶۱ ۚ ۝ ۱۶۲ ۚ ۝ ۱۶۳ ۚ ۝ ۱۶۴ ۚ ۝ ۱۶۵ ۚ ۝ ۱۶۶ ۚ ۝ ۱۶۷ ۚ ۝ ۱۶۸ ۚ ۝ ۱۶۹ ۚ ۝ ۱۷۰ ۚ ۝ ۱۷۱ ۚ ۝ ۱۷۲ ۚ ۝ ۱۷۳ ۚ ۝ ۱۷۴ ۝ ۱۷۵ ۝ ۱۷۶ ۝ ۱۷۷ ۝ ۱۷۸ ۝ ۱۷۹ ۝ ۱۸۰ ۝ ۱۸۱ ۝ ۱۸۲ ۝ ۱۸۳ ۝ ۱۸۴ ۝ ۱۸۵ ۝ ۱۸۶ ۝ ۱۸۷ ۝ ۱۸۸ ۝ ۱۸۹ ۝ ۱۹۰ ۝ ۱۹۱ ۝ ۱۹۲ ۝ ۱۹۳ ۝ ۱۹۴ ۝ ۱۹۵ ۝ ۱۹۶ ۝ ۱۹۷ ۝ ۱۹۸ ۝ ۱۹۹ ۝ ۲۰۰ ۝ ۲۰۱ ۝ ۲۰۲ ۝ ۲۰۳ ۝ ۲۰۴ ۝ ۲۰۵ ۝ ۲۰۶ ۝ ۲۰۷ ۝ ۲۰۸ ۝ ۲۰۹ ۝ ۲۱۰ ۝ ۲۱۱ ۝ ۲۱۲ ۝ ۲۱۳ ۝ ۲۱۴ ۝ ۲۱۵ ۝ ۲۱۶ ۝ ۲۱۷ ۝ ۲۱۸ ۝ ۲۱۹ ۝ ۲۲۰ ۝ ۲۲۱ ۝ ۲۲۲ ۝ ۲۲۳ ۝ ۲۲۴ ۝ ۲۲۵ ۝ ۲۲۶ ۝ ۲۲۷ ۝ ۲۲۸ ۝ ۲۲۹ ۝ ۲۳۰ ۝ ۲۳۱ ۝ ۲۳۲ ۝ ۲۳۳ ۝ ۲۳۴ ۝ ۲۳۵ ۝ ۲۳۶ ۝ ۲۳۷ ۝ ۲۳۸ ۝ ۲۳۹ ۝ ۲۴۰ ۝ ۲۴۱ ۝ ۲۴۲ ۝ ۲۴۳ ۝ ۲۴۴ ۝ ۲۴۵ ۝ ۲۴۶ ۝ ۲۴۷ ۝ ۲۴۸ ۝ ۲۴۹ ۝ ۲۵۰ ۝ ۲۵۱ ۝ ۲۵۲ ۝ ۲۵۳ ۝ ۲۵۴ ۝ ۲۵۵ ۝ ۲۵۶ ۝ ۲۵۷ ۝ ۲۵۸ ۝ ۲۵۹ ۝ ۲۶۰ ۝ ۲۶۱ ۝ ۲۶۲ ۝ ۲۶۳ ۝ ۲۶۴ ۝ ۲۶۵ ۝ ۲۶۶ ۝ ۲۶۷ ۝ ۲۶۸ ۝ ۲۶۹ ۝ ۲۷۰ ۝ ۲۷۱ ۝ ۲۷۲ ۝ ۲۷۳ ۝ ۲۷۴ ۝ ۲۷۵ ۝ ۲۷۶ ۝ ۲۷۷ ۝ ۲۷۸ ۝ ۲۷۹ ۝ ۲۸۰ ۝ ۲۸۱ ۝ ۲۸۲ ۝ ۲۸۳ ۝ ۲۸۴ ۝ ۲۸۵ ۝ ۲۸۶ ۝ ۲۸۷ ۝ ۲۸۸ ۝ ۲۸۹ ۝ ۲۹۰ ۝ ۲۹۱ ۝ ۲۹۲ ۝ ۲۹۳ ۝ ۲۹۴ ۝ ۲۹۵ ۝ ۲۹۶ ۝ ۲۹۷ ۝ ۲۹۸ ۝ ۲۹۹ ۝ ۳۰۰ ۝ ۳۰۱ ۝ ۳۰۲ ۝ ۳۰۳ ۝ ۳۰۴ ۝ ۳۰۵ ۝ ۳۰۶ ۝ ۳۰۷ ۝ ۳۰۸ ۝ ۳۰۹ ۝ ۳۱۰ ۝ ۳۱۱ ۝ ۳۱۲ ۝ ۳۱۳ ۝ ۳۱۴ ۝ ۳۱۵ ۝ ۳۱۶ ۝ ۳۱۷ ۝ ۳۱۸ ۝ ۳۱۹ ۝ ۳۲۰ ۝ ۳۲۱ ۝ ۳۲۲ ۝ ۳۲۳ ۝ ۳۲۴ ۝ ۳۲۵ ۝ ۳۲۶ ۝ ۳۲۷ ۝ ۳۲۸ ۝ ۳۲۹ ۝ ۳۳۰ ۝ ۳۳۱ ۝ ۳۳۲ ۝ ۳۳۳ ۝ ۳۳۴ ۝ ۳۳۵ ۝ ۳۳۶ ۝ ۳۳۷ ۝ ۳۳۸ ۝ ۳۳۹ ۝ ۳۴۰ ۝ ۳۴۱ ۝ ۳۴۲ ۝ ۳۴۳ ۝ ۳۴۴ ۝ ۳۴۵ ۝ ۳۴۶ ۝ ۳۴۷ ۝ ۳۴۸ ۝ ۳۴۹ ۝ ۳۵۰ ۝ ۳۵۱ ۝ ۳۵۲ ۝ ۳۵۳ ۝ ۳۵۴ ۝ ۳۵۵ ۝ ۳۵۶ ۝ ۳۵۷ ۝ ۳۵۸ ۝ ۳۵۹ ۝ ۳۶۰ ۝ ۳۶۱ ۝ ۳۶۲ ۝ ۳۶۳ ۝ ۳۶۴ ۝ ۳۶۵ ۝ ۳۶۶ ۝ ۳۶۷ ۝ ۳۶۸ ۝ ۳۶۹ ۝ ۳۷۰ ۝ ۳۷۱ ۝ ۳۷۲ ۝ ۳۷۳ ۝ ۳۷۴ ۝ ۳۷۵ ۝ ۳۷۶ ۝ ۳۷۷ ۝ ۳۷۸ ۝ ۳۷۹

أى قلنا له يا محبي خذ الكتاب بقوة مِنَّا ، حَصَصْنَاكَ بِهَا .. لا قوة يد ولكن قوة قلب ، وذلك خيرٌ حَصَّه اللهُ تعالى به وهو النبوة .

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مِنْ اللَّهِ لَهُ كِتَابٌ .

«وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» أى النبوة، بَعَثَهُ اللَّهُ بِهَا إِلَى قَوْمِهِ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ وَهُوَ صَبِيٌّ .
 وَيُقَالُ الْحُكْمُ بِالصَّوَابِ وَالْحَقِّ بْنِ النَّاسِ .
 وَيُقَالُ الْحُكْمُ هُوَ إِحْكَامُ الْفِعْلِ عَلَى وَجْهِ الْأَمْرِ .

قوله «وحنانا من لدنا...» أي آتيناه رحمة من عندنا ، وطهارة وتوفيقاً لمجاولات
التنقوي وتحقيقاً لموهوباتها ، فإن التنقوي على قسمين : مجموع ومجاوب يتوصل إليه العبد
بِكَلْفِهِ وَتَقْلِهِ ، وموضوع من الله تعالى وموهوب منه يصل إليه العبد بِبَذَلِهِ سبحانه وبفضله.
قوله جل ذكره ﴿وَرَأَى آيَاتِهِ وَلَمْ يُكُنْ جَبَّارًا
عَصِيًّا﴾

«برأ بالذي» كَأَمَرُ اللَّهِ — سبحانه — له بذلك لا لِمُؤَدَّةِ الْبَشَرِ وَمُوجِبِ عَادَةِ الْإِنْسَانِيَةِ .
وَلَمْ يَكُنْ مُتَمَرِّدًا عَنِ الْحَقِّ ، جَاحِدًا لِرَبِّهِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

أى له منّا أمان يوم القيامة ، ويوم ولادته في البداية ، ويوم وفاته في النهاية ، وهو أن يصونه عن الزيف والعيوج في العقيدة بما يشهد على الدوام من حقيقة الإلهية .

(١) كأنما يقصد التشبىء إلى بيان أن الإشارة تنفي عن العبرة وأنها بأمر إلهي .

وكذلك هو في القيامة له منه — سبحانه — الأمان ؛ فهو في الدنيا معصوم عن الزلة .
محفوظٌ عن الآفة . وفي الآخرة معصومٌ عن البلاء والمحنة .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مِرِيمَ إِذْ أَنْتَدِيتِ

مِنْ أَهْلِهَا نَكُاتًا شَرِيقًا * فَانْحَنَتْ

مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا

رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * ﴿

اعتزلت عنهم لتحصيلٍ بطهرها ، فاستترت عن أبصارهم .

فلما أبصرت جبريل في صورة إنسان لم تنوره أحسَّت في نفسها رُعباً ، ولم تكن لها
حيلةٌ إلا تخوفه بالله ، ورجوعها إلى الله .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ

كُنْتَ حَقًّا * ﴿

قالت مريمُ لجبريل — وهي لم تعرفه — إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنت من يجب
أن يُخَافَ وَيُتَّقَى منه ؛ أي إن كنتَ تقصدُ السوء . ومعنى قولها « بالرحمن » ولم تقل :
« بالله » — أي بالذي يرحمني فيحفظني منك .

ويقال بمجمل أن يكون معناه : إن كنت تعرف الله وتسكون متفياً بمخالفة أمره فأني أعوذُ
بالله منك وأحضر عقوبته .

قوله جل ذكره: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ

لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا * ﴿

تعرف جبريلُ إليها بما سكنَ رَوْعُهَا ، وقرَنَ مقالته بالبشير لما يعيسى عليه السلام .

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ

يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ زَانِيًّا * قَالَ

كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَبٍ ﴿

ولنجه آية الناس ورحمة منا وكان
أمراً مفصلاً

قالت أئى يكون لى قلد ولم ألم بركة ولا فاحشة ؟ فقال جبريل — عليه السلام — :
الأمركا كانت لك ؛ فلا يتمعى ذلك على الله تعالى ؛ إذ هو أقدر أن يجعل هذا الولد
دلالة على كمال قدرته ، ويكون هذا الولد رحمة منه — سبحانه — لمن آمن ، وسبب
جبل للآخرين .

قوله جل ذكره : ﴿ فَحَبَلْنَاهُ فَاَنْثَبْنَاهُ بِهٖ مَكَانًا
قَصِيًّا ﴾

لما ظهر بها الحمل ، وعلمت أن الناس يستبشرون ذلك ، ولم يثق بأحد فوثق
إليه سراً . . . مضت إلى مكان بعيد عن الخلق .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَجَاهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ
سَآتِ مَقْصِيًّا ﴾

أجأها وجع الولادة إلى الاعتماد إلى جذع النخلة . ولما أخذها الطلق ، ودأبها
الحمل من قومها تعلقت بلسان الصخر ، وقالت : « يا ليتني مت قبل هذا » .
ويقال يحتمل أنها قالتها إشفافاً من قومها ، لأنها علمت أنهم سيضطرون لسان للامانة
فيها بلسان الفجر ، وينسبونها إلى الفحشاء .

ويقال قالتها شفقة على قومها لتلاصيحهم بسببها عقوبة .

ويقال قالت : « يا ليتني مت قبل هذا » حتى لم أسمع من قال في الله تعالى بسبب إن عسى
ابن الله وابن مريم ، وإن مريم زوجته . . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً !

ويقال « يا ليتني مت قبل هذا » : في الوقت الذى كنت مرفوقاً بى ، ولم تستقبلنى
هذه الخشونة في الحالة التى كُفِّتني .

وقال « باليتى ميت قبل هذا » : فى الوقت الذى لم يكن قلبى متعلقا بسبب .

قوله جل ذكره : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِينَ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ ^(١) ﴾

فى التفسير أن للميت بقوله « من تحتها » : جبريل عليه السلام ، وقيل عيسى عليه السلام .
وللقصود منه تسكين ما كان بها من الوحشة ، والبشارة بعيسى عليه السلام ، أى يرزقك الله ولداً سرىاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ نَسَاطِيطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝ ^(٢) ﴾

وكان جذعاً يابساً أخرج الله تعالى منه فى الوقت الثمرة ، وهى الرطب الجنى ^١ ، وكان فى ذلك آية ودلالة لها ؛ فقللى قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى — عليه السلام — من غير أب .

ويقال عندما كانت جُرْدَةً بلاعلاقة ، قد كان زكريا — عليه السلام — ينجب عندها رزقاً من غير أن أمرت بنكاح ، فلما جاءت علاقة الولد أمرت بهز النخلة اليابسة — وهى فى أضعف حالها ؛ زمان قرب عهدها بوضع الولد ، ليُعلم أن العلاقة توجب العناء وللشفقة .

ويقال بل أمرت بهز النخلة اليابسة ، وكان تمسكها من ذلك أوضح دلالة على صدقها فى حالها .

ويقال لما لم يكن لها فى هذه الحالة من يقوم بتبنيها توأى الله تعالى كفايتها ؛ ليُعلم المألون أنه لا يضيع خواص عباديه فى وقت حاجتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكُلِّي وَاشْرَبِي عَيْنًا ،

(١) - السرى = السيد الكريم ، وقيل هو نهر صحر أو جدول .

فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا ،
 قَهْوِي لِي إِنِّي نَذَرْتُ لِرَبِّهِمْ صَوْمًا
 فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِمَنْ سِوَاكَ

كفاهما أسباب ما احتاج إليه من أكلها وشربها ، وسكن من خوفها ،
 وطيب قلبها .

« فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا » : فلا تخاطبيهم ومرفيهم - بالإشارة - أُنْكَ نَذَرْتُ
 للرحمن الصمت مع الخلق ، وترك الخاطبة معهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنْتَ بِهِ قَوْمُهَا نَحْمَلُهُ قَالُوا :
 يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا *
 يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ
 سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَيْتًا ﴾

بسط قومها فيها لسان اللامة لما رأوها قد ولدت - وظاهر الحال كان معهم -
 فقالوا لها على سبيل اللامة : يا مَنْ كُنَّا نَعُدُّكِ فِي الصَّلَاحِ بِمِثْلَةِ هَارُونَ لِلْعُرُوفِ بِالصَّدَادِ
 والصلاح .. مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذِهِ الْحَالَةُ الشَّيْءُ ؟

ويقال كان أخوها اسمه هارون . ويقال كان هارون رجلاً طساقاً في قومهم ، فقالوا :
 يا شَيْئَهُ فِي الْفَسَادِ .. مَا هَذَا الْوَلَدُ ؟

ويقال كان هارون رجلاً صالحاً فيهم فقالوا : يا أُخْتَ هَارُونَ ، وَبِأَيِّ مَنْ فِي حِسَابِنَا
 وَظَنُّنَا مَا كَانَ أَبُوكَ فِيهِمَا سَوْءٌ وَلَا فَسَادٌ .. كَيْفَ أَتَيْتِ بِهِ هَذِهِ الْكَبِيرَةَ الْعَظِيمَةَ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ
 مَنْ كَانَ مِنَ الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟ ﴾

في الظاهر أشارت إلى الولد ، وفي الباطن أشارت إلى الله ، فأخذهما ما قرب وما بد
 وقالوا : كيف نكلّم مَنْ هُوَ أَهْلُ بَنٍ يَوْمٍ فِي الْمَهْدِ ؟

فـ « كان » هاهنا في اللفظ صلة .. وحلوا ذلك منها على الاستهانة بفعلتها .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ

وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾

لما قالوا ذلك أنطق الله عيسى حتى قال : إني عبد الله ، فظهرت برأه ساحتها بكلام عيسى قبل أن يتكلم منه . وجرى على لسانه حتى قال : إني عبد الله ؛ ليُقَال للنصارى إن صدق عيسى أنه عبد الله بطل قولكم إنه ثالث ثلاثة ، وإن كذب فاقضى يكذب لا يكون ابناً لله ، وإنما يكون عبداً لله ، وإذا لم يكن عبداً هوأه ، ولا في أسر شيء سواه . فمن تحرر من غيره فهو في الحقيقة عبده .

« وآتاني الكتاب » : أي سيؤتيه الكتاب أو آتاني في سابق حكمه .

« وجعلني نبياً » بفضل . وفي الآية ردٌ على من يقول إن النبوة تُسَنَقُ بكثرة الطاعة لأنه قال ذلك في حال ولادته ؛ ولم تكن منه بعدُ عبادةً وأخبر أن الله جعله نبياً^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا كَمَا أَتَيْنَا كُنْتُ

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ

حَيًّا ﴾ ويرأ بوالدني ولم يجعلني

جباراً شقياً .

أي نافعا للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم ، ويمنعهم من ارتكاب الزلّة التي فيها هلاكهم ، ومن استنصاه بنوره نجيا . فهذه بركاته التي كانت تصل إلى الخلق . ومن بركاته إغاثة الملهوف ، وإغاثة الضعيف ، ونصرة للظلم ، ومواساة الفقير ، وإرشاد الضال ، والنصيحة للخلق ، وكف الأذى عنهم وحل الأذى منهم .

« ويرأ بوالدني ولم يجعلني جباراً شقياً » أي لم يجعلني غير قابلي للنصيحة .

(١) في موضع آخر حاول التشبهي ان يوضح ضرورة استغلال عمل الإنسان والنظر إليه بين الاستعصار وغبة منه فيربط كل شيء بالفضل والاجتهاد الإلهيين ، فاستشهد بأن عيسى صار نبياً — وهو بعد لم تكن منه طاعة ولا عمل .

ويقال « شقياً » : أى متكبراً متجبراً . ويقال مخنوماً بكفر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

قال عيسى عليه السلام : « وَالسَّلَامُ عَلَيَّ » ، وقال لبنيينا عليه السلام ليلة للمراج : « السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » .. فثنتان ما هما !

والسلام بمعنى السلامة ، أى سلامة لى يوم الولادة مما نسبوا إلى من قول النصراني في مجاوزة الحد في الدبح ، ومما وصفى به اليهود من القم^(١) ، فقلت كما قالت الطائفتان جميعاً .

وسلام على يوم أموت ، ففي ذلك اليوم تكون لى سلامة حتى تكون بالسعادة وفانى . وسلام على يوم أبعث ، أى سلامة لى في الأحوال مما يُبْتَلَى به غير أهل الوصال .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

أى الذى قال ما أخبر الله عنه هو عيسى ابن مريم . . . أَيْكُون بقول إله ؟ وقد شك فيه أكثر المخلوق قَوْدَهُ قومٌ وَغَيْبَهُ قومٌ ، والفرق بينهما في استحقاقه^(٢) . وقوله : « قول الحق » أى يكون بقوله الحق وهو :

قوله جل ذكره : ﴿ مَا كُنْ اللَّهُ أَنْ يَخْشَفَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

لا يجوز أن يكون له وَلَدٌ على الحقيقة ؛ لأنه واحد ، والوَلَدُ بضم واو .

(١) فقد اتهم اليهود أمه بالزنا .

(٢) أى لى نسبته من الحق الفارق بين الرد والتقبل .

ولأنه لا داعي له إلى محبة زوجة فيكون له ولد على الحقيقة . ولا يجوز عليه التبنى لأجل عدم الجنسية بينهما .

وقوله : « وإذا قضى أمراً ... » إذا أراد إحداث شيء خلقه بقدرته ، وخاطبته بأمر التكوين ^(١) ، ولا يتمنى عليه — في التحقيق — مقدور .

« وإن الله ربي وربكم » أى أمرنى بأن تملوا ذلك ؛ وأمرنى بنيلين رسالتى ، واتباع ما شرع الله من العبادات .

قوله جل ذكره : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم قويلٌ

لذين كفروا من مشركيهم

عظيمٌ

فَمَنْ مَحْنَتْ بِمَا السَّعَادَةِ طَبِئَتْ أَطْلَاعُ فِي عَاجِلِهِ وَمَا ضَاعَ فِي آجَلِهِ ، وَمَنْ أَقْصَتْ الْقِسْطَ السَّابِقَةَ لَمْ تَدْنِهِ الْخِدْمَةُ اللَّاحِقَةُ ، وَسَيَلْقَوْنَ غِيْبَ هَذَا الْأَمْرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَتَجْعَلُ بِهِمْ أَبْصِرَ يَوْمَ يَأْتُوْنَا لَكِنِ

الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

تصير معارفهم ضرورية ، وأحوالهم كلها معكوسة ، والحجة تنأكد عليهم ، والحاجة لا تسع منهم ، والرحمة لا تتعلق بهم ، فلا ترحم شكاهم ، ولا تسع نداءهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْذَرُكُمْ يَوْمَ الْخُسُوفِ إِذْ فَضَى

الْأَمْوَالُ فِي غُفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

تقوم الساعة بنتنة ، وتصادفهم القيامة وهم غير مستعدين لما فيتحسرون على ما فعلهم .

ويقال يوم الحسرة يوم القصة حين سيقت لقوم الشقاوة — وهم في عو العدم ، ولآخرين السعادة — وهم بنت العدم ، ولم يكن من أولئك جرم بعد ، ولا من هؤلاء وقائق بعد .

(١) أى كن فيكون .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
وإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

يريد به إذا قبضَ أرواح بني آدم بجملتهم ، ولم يبقَ على وجه الأرض منهم واحد ،
وليس يريد به استحداث ملكه ، وهو اليوم مالك الأرض ومن عليها ، ومالك الكون
وما فيه .

ويقال إن ذكرها قال — لما سأل الولد : « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقال تعالى
في صفة بني إسرائيل : « كذلك وأوردناها بني إسرائيل »^(١) وقال : « إن الأرض لله
يرثها من يشاء من عباده »^(٢) ، ولما انتهى إلى هذه الآية^(٣) قال : « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ
وَمَنْ عَلَيْهَا » . فشتان بين مَنْ وَاِثْرُهُ والَّذِي وَمِنْ وَاِثْرُهُ الْأَحَدُ .
ويقال هان على العبد للسلم إذا مات إذا كان الحق وَاِثْرُهُ . وهذا مخلوق يقول
في صفة مخلوق :

هَٰذَا يَكُ عِتَابٌ مَضَى لِسَيْلِهِ فَا مَاتَ مِنْ يَبْقَى لَهُ مِثْلُ خَالِدٍ

وقال تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءُ »^(٤) لماذا ؟ لأنَّ
وَاِثْرَهُمُ اللَّهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ
كُنْ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾

الصديق الكثير الصدق ، الذي لا يمازج صِدْقَهُ شوبٌ .

ويقال هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله .

ويقال الصديق لا يناقض سيره عكسه .

(١) آية ٥٩ سورة الشعراء .

(٢) آية ١٢٨ سورة الأعراف .

(٣) يقصد آية المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

(٤) آية ١٦٨ سورة آل عمران .

ويقال هو الذي لا يشهد غيره الله مثبتاً ولا نافيّاً .

ويقال هو المستجيب لما يطالب به جملة وتفصيلاً .

ويقال هو الواقف مع الله في عموم الأوقات على حدّ الصدق .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ

مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي

عَنْكَ شَيْئاً ﴾ .

دلّت الآية على استحقاق المعبود الوصف بالسمع والبصر على السكّال دون نقصان فيه ، وكذلك القول في القدرة على الضر والنفع .

وإذا رجع العبد إلى التحقيق عليم أن كلّ الخلق لا تصلح قدره واحد منهم للإبداع والإحداث ، فمن علّق قلبه بمخلوق ، أو توهم شظية منه من النقي والإثبات فقد ضاعى عبادة الأضنام .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ

مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً

سَوِيّاً ﴾ .

أمره باتباعه لما ترجع عليه جانبُه في كَوْن الحقّ مه — وإن كان أكبر منه شيئاً ، وبين أن الخلاص في اتباع أهل الحقّ ، وأنّ الهلاك في الابتداع والتطويع في مخالفات الطرق .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ

كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً ﴾ .

بين أنّ العلة في منعه من عبادة الشيطان عصيانه للرحمن فبأنّ أنه لا ينبغي أن تكون طاعة لمن يعصى الله بحالٍ .

ويقال أسس الله بن هجران أوليبي الصبيان .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَكِّدَ عَذَابُ

بَنِي الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ .

لم يتأخّر الخليل شيئاً من الشقة على أبيه ، ولم ينمه جيل وعظه ، ولم تنجع فيه كثرة
نصحه ؛ فإنّ مَنْ أَقْصَتْهُ سَوَابِقُ التَّقْدِيرِ لم تَحْلُصْهُ لَوَاحِقُ التَّعْدِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَفْتً مِّنْ أَلْفِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾
منه إبراهيمُ بجِيبِ اللُّغِيِّ ، قَبْلَهُ بِنَوْعِ السُّقُوبَةِ قَالَ :

﴿ لَّيْنٌ لَّمْ تَفْتَحْ لِأَرْجَنِكَ وَاحْبِرْنِي
يَلِيًّا ﴾ .

فَأَجَابَهُ الْخَلِيلُ بِمُتَنَفِّحِ سَكُونِ الْبَصِيرَةِ قَالَ :

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَفِرُّكَ
رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ .

وهذا قيل أن يَأْسَ من إيمانه ، إذْ كَانَتْ لَهُ بِهِ بَدْءُ بَقِيَّةٍ مِنَ الرَّجَاءِ فِي شَأْنِهِ ، فَلَمَّا تَصَقَّقَ
أَنَّهُ غَنُومٌ لَهُ بِالتَّغْلُوفَةِ قَالَ لَهُ :

﴿ وَأَعْتَزِّلُكُمْ وَمَا تَذْهَبُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَأَذْهَبُ رَبِّي عَنِّي إِلَّا
أَكُونَ بِدَعَاؤِ رَبِّي شَفِيعًا ﴾ .

« ما تذهبون » : أي ما تميدون ، « وأذهب ربِّي » : أي أعبد .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَ مَا يَمْعِدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَهَمَّائِلَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلاَ
جَعَلْنَا نَبِيًِّّا ﴾ .

لَمَّا أَيْسَرَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بِمَا أَكْرَمَهُ مِنْ تَسْلِيهِ ، فَأَنْبَتَهُمْ نَبَاتًا حَسَنًا ، وَوَزَعَهُمُ النُّبُوَّةَ ،
وَلِسَانُ الصِّدْقِ بِالذِّكْرِ لَمْ يَلِ الْإِدْوَامُ ^(١) قَالَ :

(١) وما يشبه التشبُّه بذلك إلى : (الصلاة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم) في تشبه كل صلاة .

﴿وَوَعَيْنَا لَمْ تَنْزَحْنِيَا وَجَعَلْنَا
لَمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيَّيَا﴾ .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ
كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾

مُخْلِصًا خَالصًا لَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لِنَبِيٍّ بَوَجْهِ ، فَلَمْ نَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأْتُمْ ، وَلَمْ يَسْتَفْزِهِ طَمَعٌ
نَحْوُ إِثَارِ حَظٍّ ، وَلَمْ يُضْفِرْ فِي اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ .

قوله جل ذكره: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ
وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ .

فَنَجَّوْهُ مَزِيَّةً عَلَى النَّدَاءِ ، فَجَمَعَ لَهُ الْوَصْفَيْنِ : النَّدَاءُ فِي بَدَائِهِ ، وَالسَّيَاحُ وَالنَّجْوَى فِي نَهَائِهِ ؛
فَوَقَّعَهُ الْحَقُّ وَنَادَاهُ ، وَفِي جَمِيعِ الْحَالَيْنِ تَوَلَّاهُ .

« مِنْ جَانِبِ الطُّورِ » : تَرَجَّعَ إِلَى مُوسَى فَهُوَ كَانَ بِجَانِبِ الطُّورِ ^(١) .
قوله جل ذكره: ﴿وَوَعَيْنَا لَهُ مِنْ زَخْمَيْنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ .
مِنْ خِصَالِ مُوسَى أَنَّهُ وَهَبَ لَهُ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ
كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا
نَبِيًّا﴾ . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ .

كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ إِذْ وَعَدَ مِنْ نَفْسِهِ الْعَبْدَ عَلَى ذِمِّهِ أَيْهِ ^(٢) ، وَصَبَرَ عَلَى ذَلِكِ إِلَى أَنْ ظَهَرَ
الْفِدَاءُ . وَصَدَقَ الْوَعْدَ لِأَنَّهُ حَفِظَ الْمَهْدَ . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ — بِأَمْرِ اللَّهِ إِيَّاهُ — وَبِالزَّكَاةِ ،
وَيَشْتَمِلُ هَذَا عَلَى مَا أَمَرَهُ إِبْرَاهِيمَ بِالْعِبَادَةِ الْبَدَنِيَّةِ وَاللَّائِيَةِ حِينًا وَكَيْفًا كَانِ .

(١) بهذا يتجنب للتعبير مزلًا خطراً فلا يكون النداء الإلهي من جهة . وعلى هذا تكون (وقربناه)
تقريب مكانة لا مكان .
(٢) من هذه الإشارة نعرف أن التعبير يرى أن إسماعيل — لا إسحاق — هو مدار قصة
الفتح والقضاء .

« وكان عند ربه مرضيا » ولكن هذا أشرف إخصاله وأجل صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر في الكتاب إدریس إنا
كنا صديقا نبيًا * ورفناه مكانًا
علیًا ﴾ .

الصديق كثير الصديق ، لا يشوب صدقه مدق^(١) ، ويكون قائما بالحق الحق ، ولا يكون
فيه نفس لنير الله .

« ورفناه مكانا عليا » : درجة عظيمة في التربية لم يساوه فيها أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من
النبيين من ذرية آدم ومن حملنا
مع نوح ومن ذرية إيليا
وإسماعيل ومن هدینا واجتبینا
إذا نزل عليهم آيات الرحمن خروا
سجداً وبكياً ﴾

أنعمهم يشاهد الجمع ، وأخير أن منته كرامة في تخصيصهم بأحوالهم ، وتأهيلهم
ليأرقام إليهم من اللال ، وأنه بفضل اختارهم واجتباهم . وما أنعم به عليهم من انحصار
رقة هويهم ؛ فهم إذا نزل عليهم الآيات سجدا ، وسجود غواهم يدل على سجود سراهم
بما حقق لهم من شواهد الجمع ، وأملرة صحته ما وقفهم إليه من عين الفرق ؛ فبوصف التفرقة
قاموا بحق آداب العبودية ، ونمت الجمع تحققتوا بمحقق الربوبية^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ فتخلف من بعدهم خلف أضاعوا

(١) مدقّ الدين والشراب بالاء مدقّا أى متزجّة ومخلطّة ، ومدق الود أى شاب
ولم يخلطه .

(٢) هذا من أشد البراهين نصاعة على تمسك التشيرى بالبرية ؛ فإن صدق البعد في التوجه أملوه ان
يكون مخلوطا — من قبل الحق — كي يؤدي فرائض الشرع .

الصلاة والتبوعا الشهوات فسوف
يَلْقَوْنَ نَجْمًا ﴿١٠﴾

الذين حللوا عن طريقهم ، وضعوا حق الشرع ، ونظروا واجب الأمر ، وزاغوا من
طريق الرشد ، وأخلوا بأداب الشرع ، وانخرطوا في سلك منابه الشهوات — سيلقون عن
قريب ما يستوجبونه ، ويُعَامَلُونَ بما يستحقونه .

قوله جل ذكره : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

شَيْئًا ۖ جَنَّاتٌ عِدْنُ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ

عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا

﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴿١٢﴾

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ تَدَارَكُهُمُ الرَّحْمَةُ الْأَزَلِيَّةُ ، وسيبقون في النعم السرمدية . يستنجز الحق
لم عبادهم ، ويوصلهم إلى درجاتهم ، ويحقق لهم ما وعدهم .

« إنه كان وعده مآتيا » : لأن ما أُتِيِدَتْهُ قَدْ أَتَاكَ أَوْ مَا أَتَاكَ قَدْ أَتَيْتَهُ (١) .

« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا » : فإن أسمعهم مصوّة عن سماع الأغيار ، لَا يَسْمَعُونَ

إِلَّا مِنْ اللَّهِ وَبِاللَّهِ ، فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا الله .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ فِيهَا رِزْقًا ۖ وَعَشِيًّا ﴿١٣﴾

كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عِنْدَهُ طَعَامُ الْبَكْرَةِ وَالْعَشِيَّةِ مِنْ جِلَّةِ الْبَاسِطِ وَالْأَغْنِيَاءِ لِكُونِهِمْ

فُقَرَاءَ ۖ وَإِنْ وَجِدُوا غَدَاءَهُمْ فِي الْغَالِبِ يَعْمَلُونَ عَشَاءَهُمْ ، وَإِنْ وَجِدُوا عَشَاءَهُمْ فَقَلَّمَا كَانُوا

يَجِدُونَ غَدَاءَهُمْ . ويقال في « لم ما يشتهون فيها » : يتناولون الندو والعش من الزمان في الجنة

أى كالوقت . ثم إن الأرزاق تختلف في الجنة ؛ فلأشباع رزق من مطعم وشروب ،

وللأرواح رزق من سماع وشهود ، ولكل — على قدر استحقاقه — رزق مطعم .

قوله جل ذكره : ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا

مَنْ كَانَ نَقِيًّا ﴿١٤﴾

(١) أى أن (مآتيا) إما اسم مفعول ، أو اسم مفعول بمعنى اسم الفاعل مثل مجروح وجريح .

فَالْجَنَّةُ لِلْأَحْيَاءِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُعَدَّةٌ لَهُمْ ، وَالرَّحْمَةُ لِنُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ مُدْخَرَةٌ لَهُمْ ، الْجَنَّةُ لُطْفٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالرَّحْمَةُ وَصْفُ اللَّهِ تَعَالَى . وقوله : « مِنْ عِبَادِنَا » : فَعَبْدُهُ عَلَى الْخُصُوصِيَّةِ مَنْ كَانَ الْيَوْمَ فِي قَيْدِ أَمْرِهِ . وقوله : « مَنْ كَانَ قَتِيًّا » : قَوْمٌ يَتَّقُونَ الْمَلْعُومَ وَالْمُخَالَفَاتِ ، وَقَوْمٌ يَتَّقُونَ الشُّهُوَاتِ ، وَأَخْرُوفٌ يَتَّقُونَ الْغَفْلَاتِ ، وَأَخْرُوفٌ يَتَّقُونَ شُهُودَ كُلِّ غُفْرٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَنْزِيلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا يَنْزِلُ ۚ ﴾

أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝

إِنَّ الْمَلَائِكَةَ — عَلَيْهِمُ السَّلَامُ — أَبَدًا يَتَزَلَّلُونَ بِإِذْنِ الْحَقِّ تَعَالَى ، فَبَعْضُهُمْ بِإِيجَادِ الْمُظْلَمِينَ ، وَبَعْضُهُمْ بِإِغَاةِ الْمَلُوفِينَ ، وَبَعْضُهُمْ بِتَسْمِيرِ الْجَاهِلِينَ ، وَبَعْضُهُمْ بِنَصْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى مَا لَا يَخْصِي مِنْ أُمُورِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ . وَاللَّهُ — صِبْغَانُهُ — لَا يَتْرُكُ جَاهِلًا وَلَا عَابِدًا مِنْ حِفْظِ وَإِسْلَامِهِ ، أَوْ إِمْلَائِهِ وَنُكُلِهِ . . .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادِهِ ۚ هَلْ تُنْظَرُ ۚ ﴾

لَهُ نَسِيًّا ۝

يَحْتَاجُ الْإِظْهَارَ بِحَيْثُ أَنْ يَكُونَ هُوَ رَبُّهَا ، وَيَكُونَ مَالِكُهَا ، وَيَكُونَ قَادِرًا عَلَيْهَا .

وَإِذَا وَجَدَتْ فُتُورَ فَاعِلِهَا ، فَمَتَى كَوْنُ تَمَلُّكِ الشَّيْءِ لِقَاعِهِ أَنَّهُ فِي مَقْدُورِهِ وَجُودِهِ .

وَيَقَالُ إِذَا كَانَ رَبُّ الْأَكْبَرِ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ فَهُوَ أَيْضًا رَبُّ الْأَصَاغِرِ مِنَ الضَّعِيفَةِ ، وَقِيَّةُ التَّعَبُّدِ بِمَالِكِهِ وَقُدْرَةِ (١) ، لَا يَشْنَعُ فِي قَبْضِهِ وَنُظْرِهِ .

قوله : « فَاغْبِطْ » أَيْ قَبْضَ حَيْثُ أَمْرُهُ ، وَدَعْ مَا يَبْقَى لَكَ ، وَخَلِّ رَأْيَكَ وَتَدْبِيرَكَ .

قوله : « وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ » : الْإِصْبَارُ غَايَةُ الصَّبْرِ .

قوله : « هَلْ تُنْظَرُ لَهُ نَسِيًّا » : أَيْ كَفُورًا وَنَظِيرًا . وَيَقَالُ هَلْ تَمُرُّ أَحَدًا يُسَمَّى « اللَّهُ » .

غَيْرُ اللَّهِ ؟ وَيَقَالُ أَيْ بِالْغَيْبِ . . . وَهُوَ بِالْقَدَرِ مُتَوَحِّدٌ ! وَالتَّشْبِيهُ يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَ الْمُتَشَابِهِينَ ، وَلَا مِثْلَ لَهُ . . . لَا مَوْجُودًا وَلَا مَوْهُومًا .

(١) أَيْ قُدْرَةُ هَذَا الْمَلَكِ

قوله جل ذكره: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِنَّا مَالِتٌ لَّسَوْفَ

أُخْرِجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ

أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝

أنكروا حديث البعث غاية الإنكار ، فأظم الحجة عليهم بالنشأة الأولى ؛ قال : إن الذي قدر على خلق الخلق في الابتداء ولم تطفئ صفته ، وقبل كانوا في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ففطرهم ، وعلى ما شاء صورهم ، وفي الوقت الذي أراد — عن (١) بطون أمهاتهم أخرجهم .

قوله : « ولم يك شيئا » فيه دليل على صحة أهل البصائر أن المدموم لم يك شيئا في حال عدمه (٢) .

ويقال أبل لم كل دعوى حيث ذكرهم نسبهم وكوّنهم من العدم .

قوله جل ذكره: ﴿قَدْ زُيِّنَ لَكُمْ جَهَنَّمُ وَالشَّيَاطِينُ

لِتَحْضُرَكُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝

نحضرهم جميعا فيحتمون في العرصة (٣) . ثم يختلف منقلبهم ؛ فيصير قوم إلى النار ثم إلى دار كلت بعضها أسفل من بعض — واسم جهنم يجمع أماكنهم . ويصير قوم إلى الجنة ثم هي درجات بعضها أعلى وثبة ودرجة من بعض — واسم الجنة يشتمل على جميع مساكنهم . ويقال التفاوت في الجنة بين الفوجلت أكثر من التفاوت بين أهل العارين .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبًا أَشَدَّ

عَلَى الرَّحْنِ جِثِيًّا ۝

(١) الأصوب أن تكون (من) كما ورد في الآية ٧٨ سورة النحل : « وَاَقْرَبُ مَوْجِدٍ مِّنْ يَّخْرُجُ مِنْ بَطْنِهَا » .

(٢) وفيه رد على القائلين بأن المادة لا تستحدث .

(٣) العرصة = ساحة الحار أو صفيحة من الحديد توضع في التنوير لينضج عليها الحبوب ويهره (الوسيط) .

مَنْ تَقَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الْإِضْلالِ وَالضَّلالِ ضَوْعَفَ عَلَيْهِ غَدَاةُ الْعَذَابِ وَالْأَغْلالِ .

﴿ ثُمَّ لَنْحَنُّ أَعْمَى بِالَّذِينَ هُمْ أُولَىٰ بِهَا صِلًا ۖ ﴾

ينزل في كل دَرَكَةٍ من دَرَكَاتِها من هو أهل لها ، فمن كانَ عتوه اليوم أشدَّ غلوا كان في النار أبعدَ من الله وأشدَّ عقوبةً وإذلالاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتًّا مَقْضِيًّا ۖ ﴾

كلُّ يَرِدُ النارَ ولكن لا ضَرَّ منها ولا احتباسَ بها لأحدٍ إلا بمقدار ما عليه من (...) (١) والزلل ؛ فأشدُّهم اتهاكاً أشدهم بالنار اشتعالاً واحتراقاً . وقوم يردونها — كما في الظور : « إن النار عند مرورهم عليها إذابة كل ذنوبة آتية ، فيدخلونها ولا يحسون بها ، فإذا عبروها قالوا : أوليس وعدنا جهنم على طريق ؟ فيقال لهم . عبرتم وما شئتم (٢) »

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ تُنْجَى الَّذِينَ آمَنُوا وَنُدْرَ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۖ ﴾

يُنْجَى مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا ، بعضهم قَبْلَ بعض ، وبعضهم بَعْدَ بعض ، ولكن لا يبق من

(١) مثلبة وهي في الرسم هكذا (الالتبات) وربما كانت في الأصل (الالتباس) أي الوقوع في (الليس) والالتباس مناسب (لنزال) .

(٢) الإذابة : أزيد حين يوضع في البرمة ليناب (مقاييس اللغة لابن فارس ج ٢ ص ٢٦٢) . وعن جابر أنه عليه السلام سئل عن ذلك فقال : إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض : أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم قد وردت نحوها وهي خامسة (القاضي البضاوي ط الحيدل مجدة) ص ٤١٠ .

وعن جابر أيضاً ، ورود الدخول لا يبق بـ ولا جابر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم [الجامع لأحكام القرآن لقرطبي ج ١١ ص ١٢٦ سلسلة التراث] . وعن الحسن « ليس الورد الدخول ، إنما يتولى وردت البصرة ولم أدخلها ؛ فلو ورد أن يبروا على الصراط » وقد استند كثير إلى رأى الحسن واحتجوا بقوله تعالى « إن الذين سبقت لهم منا الحس أولئك عنها مبعدون » فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها .

المؤمنين مَنْ لَا يَنْجِيهِمْ . وَيَتْرَكُ الْكُفَّارَ فِيهَا يَنْتَعِ الثَّلْجِيَّةُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنْهَا ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ ، وَتُطَبَّقُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ ، وَيَنْقَطِعُ مِنْهُمْ الرَّجَاءُ وَالْأَمَلُ .

وإِنَّمَا يَنْجُو الْقَوْمُ بِحَسَبِ قَوَامِهِمْ ؛ فِزِيَادَةِ التَّقْوَى تَوْجِبُ لَمْ التَّحْسِيلِ فِي النِّجَاتِ ؛ فَفِي سَابِقٍ . وَمِنْ لَاحِظٍ ، وَمِنْ مُنْقَطِعٍ ، وَمِنْ مُحْتَرَقٍ . . إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْأَوَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا تَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِي

قَالَ الْقَرْنُ كَهَرًا لَّذِينَ آمَنُوا أَيْ

الْفَرِيقَيْنِ حَيْرَ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

بَعْنَى إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِمْ آيَةُ الْقُرْآنِ تَالِيُوهُنَا بِالرُّدِّ وَالْجَلْدِ وَالضَّرْبِ وَالزَّيْغِ ، وَيَدْعُوْنَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ ، وَلَا يَسْتَمِدُّونَ فِي ذَلِكَ إِلَّا عَلَى الْإِطْلَاقِ وَالظَّنِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ مِمَّ

أَحْسَنُ اثْنَانَا وَرَفِئًا ﴾

أَيْ إِنْ هَؤُلَاءِ يَنْخَرِطُونَ فِي سَبِيلِ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ ، كَمَا سَلَكَوا فِي الرَّبِّ مِنْهَا جِهَةً ، وَسَيَلْفُونَ مَا يَسْتَوْجِبُونَهُ عَلَى سُوءِ أَعْمَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ (١) مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَسْتَدِذْ

لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا

مَأْيُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ

فَيَسْأَلُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا

وَأَضَعْتُ جُنْدًا ﴾

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْزِلُ الْكَفَّارَ لِيَرْكَبُوا إِلَى أَهْلِيلِ ظُلُومِهِمْ ، وَيَنْتَرُوا بِسَلَامَةِ أَحْوَالِهِمْ ، فَيَسْأَلُونَ فِي خُفَّةِ الْإِمْهَالِ وَالْإِفْخَارِ بِسَلَامَةِ أَحْوَالِهِمْ ، ثُمَّ يَشْتَامُ التَّقْدِيرَ بِمَا يَسْتَوْجِبُ حِسَابَهُمْ قَوْلُهُ « حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ . . . » أَيْ يَحْمِلُ بِهِمْ مَوْعِدُ الْقُوَّةِ عَاجِلًا أَوْ قَلِيلًا

(١) سَعَطَتْ (قُل) مِنَ النَّاسِخِ فَأَنْجَبَتَاهَا .

الساعة^(١) آجلاً ، فند ذلك يتضح لم ما قاموا عنه من شدة الانشغال ، وسيملكون عند ذلك ما فاتهم وما أصابهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾

أى يُضهِم بنور البدر عن الاستغناء بنور النجم ، ثم يطلع الفجر قبل طلوع الشمس ، فإذا مَتَّحَ نهارُ الرِّمَّانِ فلا ظِلَّةَ ولا هِمةَ .

﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ

عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

« الباقيات الصالحات » : الشهادة بالربوبية خيرٌ من غيرها مما لا يوجد فيه صدق الإخلاص .

ويقال « الباقيات الصالحات » : التى تبقى عند الله مقبولة .

قوله تعالى : « خَيْرٌ » لأن فى استحقاق القبول زيادةً للهدى ؛ فيصور عِلْمُ اليقين عين اليقين ، وعين يقينهم حق اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ

لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

أخبر بقصة ذلك الكافر^(٢) الذى قال يمين — من غير حجة — لأعطين مالا وولداً ، ورأى أن يكون ليمينه تصديق ، فهل هو :

﴿ أَطْلَعَ النَّيْبُ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ

الرَّحْمَنِ هَبْأً ﴾

(١) وردت (السهرة) والصواب أن تكون (الساعة) فهكذا الآية :

(٢) من الحسن : أنها تركت فى الوليد بن المغيرة . والمشهور أنها فى الناس بن وائل فقد روى أن خباب ابن الأوت مبالغ لعمري حلياً فقتضاه الأجر فقال : إنكم ترمعون إنكم تبشون وإن فى الجنة ذهباً وفضة فأنا أفضيكم ثم فإنى أوتى مالا وولداً حبيذاً !

وقد ذكر الواحدى ثلاث روايات تؤيد ذلك من مسروق وعن السكيت وعن مقاتل . (أسباب النزول ط مؤسسة الحلبي) ص ٢٠٤ .

ورواه البخارى عن الحميدى عن سفيان ، ورواه مسلم عن الأعمش .

هل يقول ما يقول بتعريف منا؟ أم هل اتخذ مع الله عهداً؟ ليس الأمر كذلك .
 ودليل المطلب يقتضي أن المؤمن إذا ظن بالله تعالى ظناً جيلاً ، أو أَمَلَّ منه أشياء
 كتبتة فله تعالى بمقتضاها له ، ويصدقُ ظنُّه لأنه على عهد مع الله تعالى ، والله تعالى
 لا يخلف عهده .

قوله جل ذكره : ﴿ كَلَّا سَتَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَدُّ لَهُ
 مِنَ الْعَذَابِ مَذًّا ﴾ وترثه ما يقول
 ويأتينا فرداً ﴿

كلا . . . ليس الأمر على ما يقول ، وليس قولهم تحقيق ، بل سند لهم من العذاب مذباً
 أى سنطيل في العذاب منهم .
 « وترثه ما يقول . . . » لن ننتقمه بأولاده وحشيه وخدمه وقومه ، ويعود إلينا
 منفرداً عنهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا
 لَهُمْ عِزًّا ﴾ كلا سيكفرون بعبادتهم
 ويكونون عليهم ضداً ﴿

حكوا بظلمهم الفاسدين أصنامهم عنهم ، وأن ما عبده من دون الله تعالى نوجبُ عبادتهم
 لهم عند الله تعالى وسيلة .. وهيهات ! هيهات أن تكون لمخاليط حساباتهم تحقيق ، بل إذا
 حشروا وحشرت أصنامهم تيرأت أصنامهم منهم ، وما أملوا فضلاً عليها عداً ضرراً عليهم .
 ويقال طلبوا العز في أماكن اقل ، فأخفقوا في الطلب ، ونفوا عن الراد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّاطِينَ عَلَى
 الْكَافِرِينَ تَؤْزِمُهُمْ ﴾

تؤزم أى تزعمهم ، فخطر الشيطان يكون بإزعاج وحنة ، وخطر الحق يكون بروح
 وسكينة ، وهذه إحدى الدلائل بينهما .

قوله جل ذكره: ﴿فَلَا تَسْجُدْ لَهُمْ إِنَّمَا تَسْجُدُ لِمَنْ عِنْدَ﴾
 الأتقاس في الحكم معدودة؛ فمن لم يستوف فلا اقتضاه لها. وإذا انتهى الأجل فلا تنفع
 بعد ذلك الحيل، وقبل اقتضائه لا يزيد ولا ينقص بالعلل.

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ لِلتَّقِيَّينَ إِلَى الرَّحْمَنِ﴾
 وفتياً

قيل وكانا على نجائب طلائعهم، وهم مختلفون؛ فمن رآكب على صدور طلائعهم، ومن
 رآكب على مراكبهم، ومن رآكب على نجائب أنوارهم. ومن محمول بحمله الحق في عقبه
 كما يحمله اليوم في دنياه. وليس محمول الحق كمحمول الخلق!

قوله جل ذكره: ﴿وَنُفِثَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَافًا﴾
 فأولئك يُساقون بوصف العز، وهؤلاء يُساقون بنمت الذل، فيجمعهم في السوق، ولكن
 يتأخر بينهم في ممانيه.. فشتان ما هما!!

قوله جل ذكره: ﴿لَا يَنْتَلِيكَ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ﴾
 عند الرحمن عهداً

وذلك العهد حفظهم في دنياهم ما أخذ عليهم — يوم لليناق — من القيام بالشهادة
 بوحمانية مولاهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ * لقد حُفَّتْ
 شيئاً إذا * تكادُ السنواتُ
 يَنْقَطِرُونَ منه وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ
 وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا
 للرحمن ولداً

ما أعظم بهائمهم في مقالهم! وما أشدَّ جرأتهم في قبيح حالهم! لكن الصدية متقدِّسة
 عن عائد يعود إليها من زين بتوحيد موحد، أو شين بإلحاد ملحد... فاشاقت لأوجوهم
 بما خلصوا فيه من مقالهم، وما صاروا إليه من ضلالم. كما لم تسجل بما قاله الآخرون إلا القاتل،
 وما عاد إلا على القاتل مقابل من طجلي أو آجل.

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِرَحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا
إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا • لَقَدْ
أَحْصَاكُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا • وَكُلُّهُمْ
أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾

أَنَّى يقول: وهو واحد ١٢ وَأَنَّى يقول: ولا جنس له وجوباً^(١) ولا جوازاً ١٢
«لقد أحصاهم...»: لا يتوَّجَّبُ عن عِلْمِهِ معلومٌ، ولا يَنفَكُّ عن قدرته — مما يصح
أن يقال حيوته — موهوم .
«وكلم آتية يوم القيامة فرداً»: لا خَدَمَ يصحبهم، ولا حَسَمَ يلحقهم، كلُّهُ يَنْفَسِيهِ
مشيئاً، وعن غيره منفرد .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾^(٢)
سيجعل لم الرحمن وُذَّاءً

يجعل في قلوبهم ودأً لله نتيجةً لأعمالهم الخالصة، وفي الخير: «لا يزال العبد يتقرب
إلى بالتواضع حتى يحبب وأحبه»^(٣).

ويقال يجعل لم الرحمن ودأً في قلوب عباده، وفي قلوب الملائكة، فأهل الخير والطاعة
محبوبون من كلِّ أحد من غير استحقاق بفعل^(٤).

(١) وردت (وجوداً) والأدراج أن تكون (وجوباً) لتتلاءم مع (جوازا) أي لا يجب عليه
ولا يجوز له وصفه — لتفسيه وتقرره — أن يكون له جنس .

(٢) (...) فإذا أحببت كنت عنه التي يصر بها، وسمه الذي يسع به، وبه التي يبطئ بها) وهو
حديث غريب، رواه البخاري عن أبي هريرة، واحد عن عائشة، والطيبراني في الكبير عن أبي أمامة،
وابن السني عن ميسون، وقد اخطأ من ذم أن البخاري انقرد بروايته .

(٣) أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة أن النبي (س) قال إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: «إني
قد أحببت فلاناً فأحبه»، فينادي في السماء ثم نزل له الحبة في الأرض... وذلك قوله تعالى: «سيجعل
لم الرحمن ودأً» .

السيوطي في إسناده ص ١٩٩ ج ٢ ط مصطفى الحلبي .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَنبَأْهُمْ ﴾ يَسْرَنَاهُ يَلِيسَاطُكَ لِيُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنْفِذَ بِهِ قَوْلًا لَدَا ۝

الكلام واحد والخطاب واحد ، وهو لقوم تيسير ، ولآخرين تخويف وتحذير . فعلوبى
لِيَنْ يَسْرَ لَمْ وَقَدْ بِهِ ، والويل لمن خُوفَ بل خُدِّلَ فِيهِ . والقومُ بين موقرٍ وخُدُولٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ
يُخَسِّهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسَعُّ
لَهُمْ رَكُوعًا ۝

أَتَيْتَهُمْ وَأَحْيَاهُمْ ، وعلى ما شاء فطرم وأبقام ، ثم بعد ذلك — لما شاء — أَمَاتَهُمْ وَأَفْنَاهُمْ ،
فبادوا بأجسم ، وهلكوا عن آخرهم ، فلا كبير منهم ولا صغير ، ولا جليل ولا حقير ،
وَسَيِّطَالِيُونَ — يوم النشور — بالنفير والقطير .

سورة طه .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بسم الله اسم عزيز مَن تَحَقَّقَ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ تَحَضُّ (٢) فِي خُلُوصِ عِبَادَتِهِ ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَى
ضِيَاءِ صِفَتِهِ نَزَلَ عَنْ سِيَاءِ نَفْسِهِ .

اسم عزيز مَن عَرَفَهُ تَحَتَّ هِمَّتُهُ ، وَإِذَا سَمِعَتْ هِمَّتُهُ سَقَطَتْ عَنِ الْهَادِرِينَ طَلِبَتُهُ .

اسم مَن عَرَفَهُ زَالَ كُرْبُهُ وَطَلَبَ قَلْبُهُ ؛ دَيْتُهُ وَهْ (٣) وَجَنَّتْ حُبُّهُ .

اسم عزيز مَن وَتَّعَهُ بِعِبَادَتِهِ حَرَّهَ مِنْ رِقِّ شَهْوَاهُ ، وَأَعْتَقَهُ مِنْ أَسْرِ مَطَالِبِهِ ؛ فَلَا هُ
لِجُوبٍ طَلَبُ ، وَلَا يَسْتَفْرِهُ لِحُدُودٍ هَرَبُ .

(١) أَخْطَأَ النَّاسُخَ إِذْ جَعَلَهَا (وَأَنبَأْهُمْ)

(٢) الْخُصْ = الْإِنِّ الْخَالِصُ ، وَتَحَضُّ = غَلَسَ مِنَ الشَّوَابِ .

(٣) أَى عِبَادَتِهِ لَرَبِّهِ قَاتَهُ ؛ لَا طَلِبًا لِنَوَابٍ وَلَا خَوْفًا مِنْ مَقَابِكَا هُوَ الشَّأْنُ فِي الْبَادَةِ التَّجْلِيدِ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾

الطام إشارة إلى قلبه — عليه السلام — من غير الله ، والمساء إشارة إلى اعتناء قلبه إلى الله .

وقيل بـأ بمره بساط القربة فأنت لا تهتدى إلى غيرنا .

ويقال طوبينا عن سره ذكر غيرنا ، وهديناك إلينا .

ويقال طوبى لمن اهتدى بك . ويقال طاب ميس من اهتدى بك .

« ما أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » : أى ليس المقصود من إيحائنا إليك تبديدك ، وإنما هذا استفتاح الرخصة ، والتهديد لبساط القربة .

ويقال إنه لما قال له : « ولا تمن عينيكَ إلى ما تمنى به أزواجاً منهم »^(١) وقف يفرد قدم تباعداً وتزهاً عن أن يقرب من الدنيا استمناً بها بوجه قيل له : طأ الأرض بقدميك .. لم كل هذا التلب الذى تتحملة ؟ فزاد فى تبعية ، ووقف ، حتى تقدمت قدماه^(٢) وقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً » أى لما أهلني من التوفيق حتى أعبده .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا تَذَكَّرَ لَعَنَ بَشَرٌ ﴾

فالقرآن تبصرة لذوى العقول ، تذكرة لذوى الوصول ، فهو لاه به يستبصرون فينالون به راحة النفس فى آجلهم ، وهؤلاء به يذكرون فيجدون روح الأنس فى عاجلهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ

الْعُلَى ﴾

(١) آية ٨٨ سورة الحجر .

(٢) رجح أنها (تورعت قدماه) لأن السياق يذكرنا بالحديث :

[أنه كان يصل حتى تورعت قدماه فقيل له : يا رسول الله « أليس قد هضر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً] الشيخان ، والنسائي . والترمذي عن المغيرة بن شعبة . (ويسمى التفسير إلى فكرة « طأ بقدميك الأرض » فى آخر السورة عند تفسير آية : « ولا تمدن عينيكَ . . آية ١٣١) .

جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا لِمَبَادِهِ . وَفُؤُسُ الْمَابِدِينَ أَرْضُ وَ قَرَارُ لَطَائِفِهِمْ ، وَقُلُوبُ الْمَلُوفِينَ قَرَارُ لِمُحَافِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾

استواء عرشه في السماء معلوم ، وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد .

قال تعالى : « وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ثَمَانِيَةَ ^(١) » وعرش القلوب : قال تعالى :

« وَجَلَّ جَلَامُ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ » ^(٢) . أمّا عرش السماء فالرحمن عليه استوى ، وعرش القلوب الرحمن عليه استوى . عرش السماء قبلة قدام الخلق ، وعرش القلب محل نظر الحق .
فشتان بين عرش وعرش !

قوله جل ذكره . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾

له الأشياء على السموم ملكاً ، والأولياء نصيباً وتشريقاً . له ما بين السموات والأرض مما أظهر من العدم ، فالكل له إتياناً وخلقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِاتِّقُولِ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ

السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

النفس لا تقف على ما في القلب ، والقلب لا يقف على أسرار الروح ، والروح لا سميل له إلى خفايا السر . والذى هو أخفى من السر فهو ما لا يطلع عليه إلا الحق ^(٣) .

ويقال الذى هو أخفى من السر لا يسهده الشيطان ، ولا يكتبه التلککان ، ويستأثر به الجبار ، ولا تقف عليه الأغيار .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى ﴾

(١) آية ١٧ سورة الحاقة .

(٢) آية ٧٠ سورة الإسراء .

(٣) يسبحه التسبيح في مواضع أخرى من مصنفاته (سر السر) أو (عين السر) الرسالة ص ٤٨

نفي كل موهوم من المحدثان بأن يكون شيء منه صالحاً للإيمان ، وأثبت كل ما في الوجود له باستحقاق التَّيَمُّن .

« له الأسماء الحسنى » أي صفاته ، على انقسامها إلى صفة ذات وصفة معني ^(١) .
ويقال « له الأسماء الحسنى » : تعريفٌ للخالق بأنَّ استحقاقَ الملو والتقدُّس عن النقائص له على وصف التفرد به .

قوله جل ذكره ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾

سؤال في صيغة الاستفهام وللراد منه التقرير ^(٢) والإثبات . وأجرى — تعالى — صَنتَه في كتابه أن يذكر قصة موسى عليه السلام في أكثر المواقع التي يذكر فيها حديث نبينا صلى الله عليه وسلم ، فيعقبه بذكر موسى عليه السلام .

﴿ إِذْ رَأَى نَارًا قَالِ لِأَهْلِهِ امْكُتُوا
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلَّ آتِيكُمْ مِنْهَا
بِقَبَسٍ أَوْ يُخَذُّ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴾

ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها ، وكان المقصود إخراجهم من بينهم ، فكان موسى عليه السلام يدنو والنار تنأى ، وقال لأهله :

« امْكُتُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا » فقال أهله : كيف تركنا والوادي مسبح ؟
قال : لِأَتِيْلِكُمْ أَطْرَاقَكُمْ ؛ فَلَعَلَّ آتِيَكُمْ مِنْ هَذِهِ النَّارِ بِقَبَسٍ .

وقال استولى على موسى عند رؤيته النار الانزعاج ، فلم يبال حتى خرج . ففي القصة أنه لما أتاها وجدَ شجرةً تشتعل من أولها إلى آخرها ، فجعل موسى — عليه السلام — حشائشَ يأخذ من تلك النار ، فصرف أن هذه النار لا تسمح لنفسها بأن تُعطى إلى أحد شملة :

(١) الأرجح — حسب الذي ذكره الشنبري في كتابه التَّحْقِيقُ فِي التَّذْكِيرِ — أنها (وصفه فعل) .
(٢) وردت (التعدير) والمواب أن تكون (التقرير) فهذا هو المصطلح البلاغي الذي يطلق على مثل هذا الاستفهام .

وَقُلْنَا لَنَا نَحْنُ الْأَهْلَةُ إِنَّمَا نَفَعُ لِمَنْ يَسْرِى لِبَلِيلٍ وَلَا تَقْرَى
يَا مُوسَى هَذِهِ النَّارُ تَقْضَى وَلَكِنْ لَا تَعْلَى لِأَحَدٍ مِنْهَا شُعْلَةٌ . يَا مُوسَى هَذِهِ النَّارُ تَحْرَقُ
الْقُلُوبَ لَا النُّفُوسَ .

وَيَقَالُ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِرَاوِلَةِ قَبَسٍ مِنَ النَّارِ فَكَانَ يَحْتَالُ كَيْفَ يَأْخُذُ مِنْهَا
شَيْئًا ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي حَالِهِ إِذْ سَمِعَ النَّدَاءَ مِنَ الْحَقِّ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَنَا هَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ إِنِّي أَنَا
رَبُّكَ فَاطْلَعُ نَسْلِكَ إِيَّاكَ بِالْوَادِ
الْمُقَدَّسِ طَوًى ﴿

علم موسى أنه كلام الحق — سبحانه — لَمَّا سَمِعَ فِيهِ التَّرْتِيبَ وَالتَّنْظِيمَ وَالتَّرَكِيبَ ، فَعَلِمَ
أَنَّهُ خُطَابُ الْحَقِّ .

وَيَقَالُ إِنَّمَا عَرَفَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ بِتَعْرِيفِ خَصِّهِ الْحَقِّ
— سبحانه — بِهِ مِنْ حَيْثُ الْإِلْهَامُ دُونَ نَوْعٍ مِنَ الْاسْتِدْلَالِ .

« قوله : « فَاخْلَعْ نَسْلِكَ .. » فَإِنْ بِسَاطِ حَضْرَةِ الْمَلُوكِ لَا يُوْطَأُ بِنَعْلِهِ .

وَيَقَالُ أَلْقِ عَصَاكَ يَا مُوسَى ، وَاخْلَعْ نَسْلِكَ ، وَأَقِمْ عِنْدَنَا هَذِهِ الْقِيَّةَ وَلَا تَبْرَحْ .

وَيَقَالُ الْإِشَارَةُ فِي الْأَمْرِ بِخَلْعِ النَّمْلَيْنِ تَفْرِيقُ الْقَلْبِ مِنْ حَدِيثِ الْفَارِسِيِّ ، وَالتَّجَرُّدُ لِلْحَقِّ
بِنَسْتِ الْأَفْرَادِ .

وَيَقَالُ « فَاخْلَعْ نَسْلِكَ » : تَبَرُّأً عَنْ نَوْحِي أَضْلَاكَ ^(١) ، وَامْتَحُ عَنْ الشُّهُودِ جَنْسِي أَحْوَاكَ
مِنْ قَرَبٍ دُبْعِي ، وَوَقْلِي وَقْصَلِي ، وَارْتِيَاكِ وَاجْتِيَاكِ ، وَفَنَاءَ وَبَقَاءَ .. وَكُنْ بِوَصْفِنَا ، فَإِنَّمَا
أَنْتَ بِمِثْلِنَا .

أَنْتَبَهَتْ فِي أَحْوَالِهِ حَتَّى كَانَ كَالْجُرْدِ عَنْ جِلْتِهِ ، الْمُصْطَلَمِ عَنْ شَوَاهِدِهِ .

(١) ربما حدث سقوط ، فالكلام يحتاج إلى توضيح (نومي أضلاك) قياساً على ما ذكر في (جنسي
أحوالك) وتوجب أن نومي القتل ما الأمر والنهي ، أو المأمور به والمزبور عنه .. أو ما في هذا المعنى .

قوله : « إنك بالوادي للنفوس ملوى » : أى إنك بالوادي للنفوس من الأفعال ؛
وساحت الصدبة بمحل من كل شين ، ولإيمان وزين ، عن زين بإحسان وبدين بصيان ؛ لأن
الروية سطات عز تهر كل شيء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْمِيعْ لِمَا يُوْحَىٰ ﴾
وعلى علم من بك اصطنعتك ، وجردتك وتقيتتك عن دس الأوهام وكل
ما يسكد صفوك .

ويقال بعدما اخترتك فأنت لى وبى ، وأنت محو فى فناءك عنك .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾
تقدس من الأفعال فى أزلى ، وتزهت (.....) (١) والأشكال باستحقاق
جلالى وجلالى .

ويقال « لا إله إلا أنا » : الأختار فى وجودى فقد ، والرسوم والأطال عند ثبوت
حقى محو

قوله : « فاعبدنى » : أى تدلل ليحكمى ، وأنفذ أمرى ، واخضع لجبروت سلطانى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾

لإقامتها من غير ملاحظة مجربها ومنشئها يورث الإعجاب . وإذا أقام العبد صلاته على نيت
الشهود والتحقق بأن مجربها غيره (٢) كانت الصلاة بهذا فتحاً لباب اللواصة ، والوقوف على
محل التجوى ، والتحقق بخصائص القرب والزلفة .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾

لتجزئ كل نفس بما تسئى

الفائدة فى تعريف التمييز : رَبِّ السَّاعَةِ أَنْ يستيقنوا من غفلات التفرقة ، فإذا حضروا

(١) حدث هنا طمس أفقدنا بقية الجملة ، وربما كانت (من الأفعال) .

(٢) الضمير لى (هيرة) يمد على السيد المقصود أن يحقق العبد بأن الرب هو الذى يجرى عليه تبهده .

بقلوبهم - ففي حال استدامة الذكر - فما هو موعودٌ في الآجل أكثره للحاضرين موجودٌ في الساجل ؛ والحاضرة لم كالآخرة . وكذلك جعلوا من أملاوات الاستقامة شهوداً الوقتِ قيامة^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾

إذا أكرمه اللهُ بِجُسْرِ التنبيه ، وأحضره بنمت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماه صفاته إلى جحيم أهل النقلة في تطوحيهم في أودية التفرقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا تَكُنَّ بِبَيْمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾
كرَّرَ عليه السؤالَ في غير آية من عصاه لما كان للعلوم له سبحانه فيها من إظهاره فيها عظيم للمعزة .

ويقال إنما قال ذلك لأنه صَحِيحَتُهُ هِيئةٌ للقائم عند قَبْأَةِ سَمَاعِ الخُطْبِ ؛ فَلْيُسَكِّنْ بعضَ ما به من بَوَادِيهِ الإجلال . . رَدُّهُ إلى سَمَاعِ حديثِ العصا ، وأراه ما فيها من الآيات .

ويقال لو تركه على ما كان عليه من غَلَبَاتِ الهيبة لله كان لا يبي ولا يطبق ذلك . .
قال له : وما تلك بيمينك يا موسى ؟

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأُشْفَى
بِهَا عَلَى قَنْصِي وَإِلَى فِيهَا مَأْرَبُ
أُخْرَى ﴾

قال هي عصاى ، وأخذ يُعَدُّ ما له فيها من وجوه الانتفاع فقال له :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾

(١) (فالتيامة - - هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق) و (جهنم الفراق اشد من جهنم الاختراق) . المطالع في مواضع أخرى .

فَأَمَّا تِلْكَ بُنْتُ التَّوْحِيدِ^(١) ، وَاتَّفَقَ عَلَى بَسَاطَةِ التَّنْزِيدِ ، وَمَنْعَى بَصَحَ ذَلِكَ ، وَمَنْعَى يَسْلَمُ لَكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مُعْتَمِدٌ تَوَكُّلاً عَلَيْهِ ، وَمُسْتَدٌّ عَلَيْهِ تَسْتَعِينُ ، وَهَذَا تَنْفَعُ ؟

ثُمَّ قَالَ : « وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى » : أَوَّلُ قَدَمٍ فِي الطَّرِيقِ تَرْكُ كُلِّ سَبَبٍ ، وَالتَّنَقُّيُ عَنْ كُلِّ طَلَبٍ ، فَكَيْفَ كَانَ يَسْلَمُ لَهُ أَنْ يَقُولَ : أَفْعَلُ بِهَا ، وَأَمْتَنُ^(٢) ، وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى .

وَيَقَالُ مَا أَزْدَادُ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — تَفْصِيلاً فِي انْتِفَاعِهِ بِعَصَاهُ إِلَّا كَانَ أَفْوًى وَأَوَّلَى بِأَنْ يُؤْمِنَ بِإِلْقَائِهَا ، وَالتَّنَقُّيُ مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا عَلَى مُوجِبِ التَّنْفَرُّدِ لَهُ .

وَيَقَالُ التَّوْحِيدُ التَّنْجِيدُ ، وَعِلَامَةُ صِحَّتِهِ سَقُوطُ الْإِضَافَاتِ^(٣) بِأَسْمِهَا ؛ فَلَا جَرَمَ لِمَا ذَكَرَ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — ذَلِكَ أَمْرًا بِإِلْقَائِهَا لِيَجْعَلَهَا اللَّهُ حَيَّةً تَسَى ، وَوَلَّى مُوسَى هَارِبًا وَلَمْ يُعَقِّبْ . وَقِيلَ لَهُ يَا مُوسَى هَذِهِ صِفَةُ الْعَلَاةِ ؛ إِذَا كُشِفَ صَاحِبُهَا بَسَرُهَا يَهْرَبُ مِنْهَا .

وَيَقَالُ لَمَّا بَسَطَهُ الْحَقُّ بِسَاحِ كَلَامِهِ أَخَذَهُ أَرْبَعِيَّةُ سَمَاعِ انْطِلَابٍ ، فَأَجْلَبَ عَمَّا يُسْأَلُ وَعَمَّا لَمْ يُسْأَلْ قَالَ : « وَلِي فِيهَا مَأْرَبٌ أُخْرَى » ، وَذَكَرَ وَجُوهًا مِنَ الْإِنْتِفَاعِ مِنْهَا أَنَّهُ قَالَ تَوَنَّى^(٤) فِي حَالِ وَحْدَتِي ، وَتَضَى لِي اللَّيْلُ إِذَا أَنْظَمَ ، وَتَحَمَّلَنِي إِذْ عَصَيْتُ فِي الطَّرِيقِ فَأَرْكَبُهَا ، وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَشْيِي ، وَتَدْفَعُ عَنِّي هَدَوًى . وَأَعْظَمُ مَأْرَبٍ لِي فِيهَا أَلَّا تَقُلْتُ : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ؟ » وَأَيَّةُ نِعْمَةٍ أَوْ مَأْرَبٍ أَوْ مَنْفَعَةٍ تَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَقُولَ لِي : وَمَا تِلْكَ ؟ وَيَقَالُ قَالَ الْحَقُّ — بَعْدَ مَا عُدَّ مُوسَى وَجُوهَ الْآيَاتِ وَصُنُوفِ انْتِفَاعِهَا — هَلْكَ يَا مُوسَى فِيهَا أَشْيَاءُ أُخْرَى أَنْتَ غَافِلٌ عَنْهَا وَهِيَ أَقْبَلُهَا حَيَّةً ، وَفِي ذَلِكَ لَكَ مَعِجَزَةٌ وَبُرْهَانٌ صِدْقِي .

(١) إِذَا صَحَّ تِلْكَ هَذِهِ اللَّبَارَةُ مِنَ الْأَصْلِ فَالتَّشْبِيرُ يُقْصَدُ بِهَا (لِإِنَّكَ مُوَحِّدٌ) ، وَالْمُوَحِّدُ أَهْلِي دَرَجَاتِ الْمَارْفِقِينَ .

(٢) أَيْ تَكُونُ لِي بِهَا مَنَّةٌ وَقُوَّةٌ ، وَبِمَا كُنْتُ (وَأَمْتَنُ) وَكَلَامًا صَحِيحٌ لِي الْمُنَى .

(٣) سَقُوطُ الْإِضَافَاتِ أَيْ لَا يَقُولُ لِي وَلَا بِي وَلَا مَنِي — وَهَذِهِ آيَةُ صَحَّةِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ عَدَمِ (أَنْظَرِ) الرَّسَالَةِ ص ١٤٩) .

(٤) وَرَدَّتْ (تَسَى) ، وَقَدْ وَجَدْنَا (تَوَنَّى) أَقْرَبَ إِلَى الْمُنَى وَلِإِنَّ كَانَتْ بَعِيدَةً مِنَ الرِّسْمِ ، فَأَتَرْنَاهَا وَنَهْنَاهَا إِلَى الْأَصْلِ . أَوْ رَجَعَتْ (مَنِي) بِهَذَا (تَسَى) وَيَكُونُ السِّيَاقُ أَخْبَارًا مُسْتَجِبًا .

ويقال جميع ما عُدَّ من المنافع في العصا كان من قبيل الله . . فكيف له أن ينبتها
ويضيفها إلى نفسه ، ولهذا قالوا :

بِاجْنَةِ الْخُلَيْرِ ، والهدايا إذا هُدِيَ إِلَيْكَ فَمَا مِنْكَ يَهْدِي
ويقال قال موسى لآراما حية تهتز : لقد عَلِمْتُ كُلَّ وصفٍ بهذه العصا ، أما هذه
الواحدة فلم أعرفها .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ . فألقاها فإذا
هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى • قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا
الْأُولَى ﴿

لا عبرة بما يورم ظاهر الأشياء ؛ فقد يورم الظاهر بشيء ثم يبدو خلافه في المستقبل ؛
فصا موسى صارت حية .

ثم قال المقصود بذلك أن تكون لك آيةٌ ومميزةٌ لا بلاه وفتنة^(١) .

قوله : « قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ . . . » : أشهد — بانقلاب العصا من خالٍ إلى حال ؛
مرةً عصا ثم ثعباناً ثم عصا مرةً أخرى — أنه يُبَيِّنُ عِيَادَهُ في حال التلوين مرةً ومرةً ؛
فَمِنْ أَخْذِهِ وَمِنْ رَدِّهِ ، ومن يجمع ومن فرَّق الح^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ
بَيَاضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى •
لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾

كما أراه آيةً من خارجٍ أراه آيةً من نفسه ، وهي قلبُ يده بيضاء ؛ إذ جعلها في جيبه
من غير البرص . قال تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهِمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »^(٣) .

(١) وهذا الكلام ينطبق • ذلك على الكرامة التي تظهر على يدى الولي ، وهذا فرق بين المعجزة
والكرامة من ناحية وبين السحر من ناحية أخرى .

(٢) حتى يصلوا إلى حال (التكمين) .

(٣) آية ٣٠ سورة فصلت .

وإنما قال : «أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ وَلَمْ يَقُلْ كُنْ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رِجَالاً عَلَيْهِ مِنَ الْإِبَاسِ كُنَانٌ .
 قوله : «لَتَرْكَبُنَّ^(١) مِنْ آيَاتِنَا الْكِبْرَى» : الآية الكبرى هي ما كان يمهده في نفسه من
 الشهود والوجود ، وما لا يكون بتسكُّفٍ البعد وتصرفه من فنون الأحوال التي يدركها
 صاحبها فوقاً .

قوله جل ذكره : ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾
 بعدما أحممه كلامه من غير واسطة ، وشرف مقامه ، وأجزل إكرامه أمره بالذهاب
 ليدعو فرعون إلى الله — مع علمه بأنه لا يؤمن ولا يجيب ولا يسمع ولا يعرف — فسق على
 موسى ذهابه إلى فرعون ، وصلاح جُنده منه ، بعد ما سمع من الله كلامه سبحانه ، ولكنه أتر
 أمره بحننه على حراؤه نفسه .

وقال لما أمره بالذهاب إلى فرعون سأل الله أهبة الثقل وما به يتم تبليغ ما حمل من
 الرسالة ، ومن ذلك قوله :

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي
 وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ واحلل عقدة من
 لساني . بقولاً قولي ﴿

لَيْسَ أَنْ مِنْ شَرِّطِ التَّكْلِيفِ التَّمَكُّنُ مِنْ أَهَاءِ الْأُمُورِ بِهِ .
 وقال إن موسى لما أخذ في المخاطبة مع الله كاذلاً يسكت من كثرة ما سأله فظل يدعو :
 «ربِّ اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ...» وهكذا إلى آخر الآيات والأسئلة .
 قوله «قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري» : حتى أطلق أن أسمع كلام غيره
 بعدما سميت منك . «واحلل عقدة من لساني» : حتى ينطلق بمخاطبة غيره ، وقوى حتى
 أراد ما أراد ... بك لا بي

قوله جل ذكره : ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَمْلى ﴾ هارون
 أني . اشدُّ به أزدري ﴿

(١) أعطى النسخ إذ جعلها (تربية) .

سَأَلَ أَنْ يَصْحَبَ أَخَاهُ ، وَلَمْ يَنْجُبْ لِسَاعِ كَلَامِ اللَّهِ حِينَ قَالَ تَعَالَى : « وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً » (١) كَانَ بِمُفْرَمِهِ ، لِأَنَّ الْقَهَابَ إِلَى الْخُلُقِ يَرْجِبُ الْوَحْشَةَ ؛ فَطَلَبَ مِنْ أَخِيهِ الْمَصْحَبَةَ يُخَفِّفُ عَلَيْهِ كَلِمَةَ الْمَشَقَّةِ .

وَقَالَ إِنَّ الْحَبِيَّةَ تَرْجِبُ التَّجَرُّدَ وَالْإِفْرَادَ ، وَأَلَّا يَكُونَ لِلْفَنِيرِ مَعَ الْحَبِّ مَسَاحٌ ؛ فَنَفَى ذَهَابَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ اسْتَصْحَبَ أَخَاهُ ، وَلَمَّا كَانَ الْقَهَابُ إِلَى الْمِيقَاتِ لَمْ يَكُنْ لِلْفَنِيرِ سَبِيلٌ إِلَى مَحَبَّتِهِ ، إِذْ كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذَهَابِهِ أَنْ يَكُونَ مَخْصُومًا بِمَالِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ كِي لُسْبَحُكَ كَثِيرًا • وَتَذَكُّرُكَ

كَثِيرًا • إِنَّكَ كُنْتَ بَنًا بِصِيرًا • ﴾

بَيَّنَّ أَنَّ تَلَبُّهُ مَشَارَكَةَ أَخِيهِ لَهُ بِحَقِّ رِبِّهِ لَا يَحْظُ نَفْسِهِ حَيْثُ قَالَ : « كِي لُسْبَحُكَ كَثِيرًا وَتَذَكُّرُكَ كَثِيرًا » .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى • ﴾

أَعْطَيْنَاكَ مَا سَأَلْتَ ، وَتَنَاسَيْتَ ابْتِدَاءَ حَالِكَ حِينَ حَفَظْنَاكَ فِي الْيَمِّ وَتَجَمَّعْنَا أُمَّكَ مِنْ ذَلِكَ اللَّحْمِ ، وَرَبَّنَاكَ فِي جَبْرِ الْعَدُوِّ . . . فَأَيْنَ — حِينَئِذٍ — كَانَ سُؤْلُكَ وَاخْتِيَارُكَ وَحَدُّوكَ (٢) ؟ وَأَثْبَتْنَا فِي قَلْبِ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ شَفَقَتَكَ ، وَأَلْقَيْنَا عَلَيْكَ الْحَبِيَّةَ حَتَّى أَحْبَبَكَ عَدُوُّكَ ، وَرَبَّانَكَ حَتَّى قَتَلَ بِسَبِّكَ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْوَلَدَانِ ، وَاقْنَى بِدَأْأِكَ بِهِنِ الْيَمْنِ هُوَ الْغَى أَنَاكَ سُؤْلُكَ ، وَحَقَّقْنَا لَكَ مَا مَوَّلَكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى • ﴾

أَنَّ اقْنَدِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْنَدِيهِ

فِي الْيَمِّ ، فَتَلْقِيهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ،

يَأْخُذُهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لِهِ • ﴾

(١) آية ١٤٣ سورة الأعراف .

(٢) أى أن فشل الله دائماً ، وسأيقى للدعاء ، وغير مرتبط بالاختيار الإنسانى ولا بالعمل الإنسانى ، وهذه نظرة في الشمول فلا يظن إليها غير الصوفية . فأين منهم المعتزلة الذين يوجبون على الله ؟! ذلك أحد المراتب البعيدة التي يقصد إليها التشيى .

كان ذلك وحىً إلهاماً ، ألقى الله في قلبها أن تصهله في تابوت ، وتلقيه في الميم يعني نهر النيل ، فَصَعَلَتْ ، فألقاه النهر على الساحل ، فَصَحِلَ إلى فرعون . فَلَمَّا وَقَعَ بَصَرُ أُمِّهِ فرعون عليه بأشرف حبه قلبها ، وكذلك وقعت محبته في قلب فرعون ، ولكنها كانت أضعف قلباً ، فسبقت بقولها « قرّة عين لي ولك لا تقتلوه . . »^(١) ، ولولا أنها علّيت أنه أخذ شعباً من قلب فرعون ما أخذ من قلبها لم تقتل : « قرّة عين لي ولك » .

قوله : « يأخذه عدو لي وعدو له » : وبأه في حجر العدو وكان قد قتل بسببه أروفاً من الولدان . . ولكن من مأخذه يؤتى الخنزير ! وبلاء كل أحد كان بعده إلا بلاء موسى عليه السلام فإنه تقدّم عليه بسنين ، وفي اليوم ألقى أخذ موسى في حجره كان قد أمر بقتل كثير من الولدان ، ثم إنه رباه ليكون إهلاكاً ملكيه على يده . . لِيُسَلِّمَ أَنْ أَسْرَارَ الْأَقْدَارِ لَا يُلْغِيهَا إِلَّا الْجَبَّارُ .

ويقال كان فرعون يُسَيِّئُ وَالِدَ مُوسَى وَأَبَاهُ — ولم يكن . وكان يقال لأنّ موسى ظنّ^(٢) موسى — ولم تكن ؛ فمن حيث الدعوى بالأبوة لم يكن لها تحقيق ، ومن حيث كان للعي والحقيقة لم يكن عند ذلك خبر ولا عند الآخر من ذلك معرفة . . هكذا الحديث والقصّة^(٣) .

ولقد جاء في القصّة أن موسى لما وُضِعَ في حجر فرعون لَعَلَّ وجهه فقال : إن هذا من أولاد الأعداء فيجب أن يُقْتَلَ ، فقالت امرأته : إنه صبي لا يميّز له ، ويشهد لهذا أنه لا يُميّز بين النار وبين غيرها من الجواهر والأشياء ، وأرادت أن يصدق زوجها قائلها ، فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر ، فأراد موسى عليه السلام أن يمدّ يده إلى الجواهر فأخذ جبريل عليه السلام بيده وصرفها إلى النار فأخذت جرة بيده ، وقرّبها من فيه فاحترق لسانه — ويقال إن العقدة التي كانت على لسانه كانت من ذلك الاحتراق — فمذ ذلك قالت امرأة فرعون : ها قد تبين أن هذا لا يميّز له ؛ فقد أخذ الجمرّة إلى فيه . وتخلّص موسى بهذا مما حصل منه من لَعَلَّ فرعون .

(١) آية ٩ سورة القصص . (٢) الظن . المرشدة لغير ولدها .

(٣) يتعمد الحديث والقصّة التصوف وأمله ؛ فقلب البعد مرتبط بقلبه وحقيقة باطنه لا بما يستفاد من ظاهره ورأى الناس فيه ، وهذا أصل من أصول أهل الملامة للتيسيرية .

ويقال إنهم شاهدوا ولم يشعروا أنه لم يمترق من أخذ الجرة وهو ضيق رضيع، ثم احترق لسانه، فلم السك أن هذا الأمر ليس بالقياس. فإنه سبحانه فقال لما يريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْبِيتُ عَلَيْكَ حَبَّةً مِّنِّي ﴾

أى أحبيتك . ويقال في لفظ الناس : فلان ألقى محبته على فلان أى أحبه . ويقال « أقيت عليك حبة مني » : أى مَرَحْتُ في قلوب الناس حبة لك ، فلحق إذا أحب عبداً فسكر من شاهده أحبه . ويقال للملاح في عينيه ؛ فكان لا يراه أحداً إلا أحبه .

ويقال « أقيت عليك حبة مني » : أى أثبت في قلبك محبي ؛ فإن حبة العبد لله لا تكون إلا بأثبت الحق — سبحانه — ذك في قلبه ، وفي معناه أنشوا :
 إِنَّ الْحَبَّةَ أَمْرُهَا عَجَبٌ نُلْقَى عَلَيْكَ وَمَا لَهَا سَبَبٌ

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِيُصْنَعَ عَلَى هَذِهِ ﴾

أى يرى مني . ويقال لا أملك غيري بأن يستعبدك مني .
 ويقال أحفظك من كل غير ، ومن كل حديث سوى حديثنا . ويقال ما وكننا بحفظك إلى أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَنَسَّىٰ اٰخُتَكَ فَتَقُولُ هَلْ اَدُلُّكُمْ

عَلَىٰ مَن يَكْفُرُهُ فَرَجَعْنَاكَ اِلَىٰ اٰمَلِكْ

كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا .. ﴾

البلاء على حسب قوة صاحبه وضعه ، فكما كان للره أقوى كان بلاؤه أوفى ^(١) ، وكما كان أضعف كان بلاؤه أخف . وكانت أم موسى ضعيفة فرد إليها ولداً بعد أيام ، وكان يعقوب أقوى في حاله فلم يعد إليه يوسف إلا بعد سنين طويلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَتَلْتَنِيَ نَفْسًا فَجِئْتَنِيَ مِنَ النَّارِ ﴾

(١) قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » رواه الترمذي . وابن ماجه والمالك عن سعد بن أبي وقاص .

أجرى الله عليه ما هو في صورة كبيرة من قتل النفس بغير حق ، ثم بين الله أنه لا يضره ذلك ، فلبست العبرة بصل العبد في قلة وكثرته إنما العبرة بناية الحق ، بشأن أحد أو عداوته .

ويقال قد لا يموت كثير من المطلق يموتون من العنابر ، ولم من أناس لا يموتون وقد شربوا ألواناً من السياط ، وصاحب موسى عليه السلام ومثوله ملت بوكرة : إيش^(١) الذي أوجب وفاته لولا أنه أراد به فتنة لموسى ؟ وفي بعض الكتب أنه — سبحانه — أعلم موسى كذا وكذا مقاماً ، وأسمه كلامه كل مرة بإسم آخر ، وفي كل مرة كان يقول له : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا » .

« فحيناك من الغم » : أرناك عين الجميع حتى زال هناك ما دخلك من الغم بصفة متقضى التفرقة ، فلما أرناك مير جرين التقدير فحيناك من الغم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفَنَفَاك فُتُونًا ﴾ .

استخلصناك لنا حتى لا تكون لغيرنا . وقال جئنا عليك البلاء ونوئناه حتى جردناك من كل اختيار وإرادة ، ثم حيثنر رقيناك إلى ما استوجبت من السلم الذي أهلناك له .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ .

وكنيت عند الناس أنك أجور لشيب ، ولم يظهر لم ما أودعنا فيك ، ولكن يكنى — عندهم — أن تكون ختاً^(٢) لشيب .

﴿ ثم جئت على قدر ياموسى ﴾ .

أى مددنا أيلم كونك في مدين شبيب ، وكان أهل حضرتنا من الملائكة الذين عرفوا شررك وعجبتك منتظرين لك ، فجئت على قدر .

(١) أى (أى شيء) وفى نسخة تردى مصنفات التفسيرى من حين إلى آخر . وجاء فى الوسيط ج ١

ص ٣٤ أن العرب تكلمت بها .

(٢) أى زوجاً لبلته ، ولما الحديث « سمى بنت رسول الله »

ويقال إنَّ الأجلَ إذا جاء للأشياء فلا تأخيرَ فيه ولا تخديم . وأنشدوا في قريب من هذا المعنى :

بيننا خاطرُ المني بالتلافٍ ساجٍ في فؤاده وفؤادي
جمع اللهُ بيننا فالتقينا هكنا بنته بلا ميعاد
قوله جل ذكره : ﴿ واصطغتك لنفسي ﴾ .

استخلصتُك لي حتى لا تصلحَ لأحدٍ غيري ، ولا يتأتى شيءُ منك غير تبليغ رسالتي ، وما هو مرادى منك .

ويقال أفردتُ سيرك لي ، وجعلتُ إقبالكَ علىَّ دونَ غيري ، وجعلتُ بينك وبين كلِّ أحدٍ من هو دوني .

ويقال « واصطغتك لنفسي » : قطعتهُ بهذا عن كلِّ أحدٍ ، ثم قال له : « اذهب إلى فرعون » .

قوله جل ذكره : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٠﴾ .

تعلَّم موسى عليه السلام لما أُرسله الحقُّ إلى فرعون بوجوده من العِلل مثل قوله : « يضيق صدري ولا ينطق لساني » (١) ، « إني قتلْتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلوني » (٢) .. إلى غير ذلك من الوجوه ، فلم ينفسه ذلك ، وقال الله : « إني ممكماً اسمع وأرى » ، فاستقل (٣) موسى عليه السلام بذلك ، وقال : الآن لا أبالي بعد ما أنت معي .

قوله جل ذكره : ﴿ قَوْلًا لَّيْسًا كَلِمَةً يَنْذِرُ أَوْ نَجِّنِي ﴾ .

(١) آية ١٣ سورة التمسى
(٢) آية ٢٣ سورة التمسى
(٣) الاستقلال منا مناه الاكتفا .

إنما أمرها باللائنة منه في الطلب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْهُ إلى الدين ، وفي حال الدعوة يجب الدين^(١) ؛ فإنه وقت الشهادة ، فلا بد من الإقبال ربنا ينظر^(٢) ؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم : « وجادلهم بالتي هي أحسن^(٣) » : وهو الإقبال حتى ينظروا ويستدلوا ، وكذلك قال : « قل إنما أعظكم بواحدة أن قوموا لله منفى وفرادى ثم تمسكوا ما بصاحبكم من حجة^(٤) » .

ثم إذا ظهر من انطباع التردد والإيهام غيتن فيقال باللفظة والخطف .
ويقال عليها خطاب الأكابر فوى الحشمة ؛ ففرعون — وإن كان كافراً — إلا أنه كان سلطاناً وقته ، والمتسلط على عباد الله .

ويقال إذا كان الأمر في مخاطبة الأعداء بالرفق واللائنة .. فكيف مع المؤمنين في السؤال ؟

ويقال في هنا إشارة إلى سهولة سؤال للكافرين في القبر للمؤمن .

ويقال إذا كان رفقهم بمن جمعده فكيف رفقهم بمن وحدده ؟

ويقال إذا كان رفقهم بالكفار فكيف رفقهم بالأبرار ؟

ويقال إذا كان رفقهم بمن قال : أنا .. فكيف رفقهم بمن قال : أنت ؟

ويقال إنه^(٥) أحسن تربية موسى عليه السلام ؛ فأراد أن يرفق به اليوم في الدنيا على جهة المكافأة .

وقيل تفسير هنا ما قال في آية أخرى « فقل هل لك إلى أن تزكى^(٦) » .

وقوله : « له يتذكر أو ينسى » : أي كونا على رجلاه أن يؤمن . ولم يظهرها أنه لا يؤمن

(١) وردت (التكفين) ومع خطأ في النسخ وقد اتبعه أحد القراء إلى هنا الخطأ فوضع علامة استهزاء صغيرة .

(٢) النظر هنا معناه التصبر في الأمر .

(٣) آية ١٢٥ سورة النحل .

(٤) آية ٤٦ سورة سبأ .

(٥) أي فرعون .

(٦) آية ١٨ سورة التازعات .

لثلاثتها دخلها فترة في تبليغ الرسالة علماً منه^(١) بأنه لا يؤمن ولا يقبل .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَّابًا وَمُنْكَرًا لَا يَعْتَدُ ۚ إِنَّهَا رِجْثٌ نَجَسٌ ۚ ﴾

علينا أو أن يعطينا

في الآية دليل على أن الخوف^(٢) الذي تقتضيه جهة الإنسان غير ملوم صاحبه عليه ، حيث قال مثل موسى ومثل هارون عليهما السلام : « إِنَّا نَخَافُ » .

ثم إنه سبحانه سكن ما بهما من الخوف بوعده النصر لهما .

ويقال لم يخافا على نفسيهما شقةً عليهما ، ولكن قالوا : إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُمَلِّكَنَا مَكِيدُهُ مِنْ جِبْتِهِ ، فلا يحصل فيا تأمرنا به قياماً بأمره ، فكان ذلك الخوف لأجل حق الله لا لأجل حظوظ أنفسهما .

ويقال لم يخافا من فرعون ، ولكن خافا من تسلط الله إياه عليهما ، ولكنهما تأذبا في الخطاب .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَا تَخَافْ إِنْهُ مَعَكُمْ أَسْمَعُ ۚ ﴾

وأرى

تَلَفَّظَ في استجلاب هذا القول من الحق سبحانه ، وهو قوله : « إِنِّي مَعَكُمْ » بقولهما : « إِنَّا نَخَافُ » ، وكان المقصود لهما أن يقول الحق لهما : « إِنِّي مَعَكُمْ » وإلا فأتى بالخوف لمن هو مخصوص بالنبوة ؟ !

ويقال سكن فيهما الخوف بقوله : « إِنِّي مَعَكُمْ » ، فقويا على الذهاب إليه ، إذ من شرط التكليف التحكين .

قوله جل ذكره : ﴿ قَاتِلْهُمْ قَتْلًا مُبِينًا ۚ إِنَّهُمْ يَحِلُّ لَكُمْ إِذَا رَأَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ جُثَّةً مِنَ الْحَدِيدِ ۚ ﴾

فَأَرْسِلْ فِيهِمْ

ولا تعد بهم

(١) ووددت (منهم) وهي خطأ في النسخ لأن المقصود : مع انه سبحانه علم بأنه لن يؤمن ولن يقبل .
(٢) في هذه الإشارة توضيح هام لاصطلاح (الخوف) .

طالَّ البلاء بينَ إسرائيلَ من جنة فرعون ، فندركَهم الحقُّ سبحانه ولو بعد حين ،
بذلك أجرى سُنَّتَهُ أَنَّهُ يُرْخِي عَنْكَ الظَّالِمَ ، ولكن إذا أَخَذَهُ فَإِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾

من شرط التكليف التمسك بالبينّة والآية المرسلِ حتى يَتَضَيِّعَ مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ
فيا يدعو إليه من النبوة . ثم إن تلك الآية وتلك البينّة ما فضّهم ، وإنما تأكدتْ بهما عليهم
الحُجَّةُ ؛ فإذا نَحَى بَصَرَ الْقَلْبِ فَأَنَّى تنفع بصيرة الحجة ؟ وفي منناه قالوا :

وفي نظَرِ الصّادي إلى اللّاه حُسْرَةٌ إذا كلن ممنوعاً سبيل للوارد

قوله جل ذكره : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أُنِيبَ إِلَيْهِ ﴾

إِنَّمَا يَنْبِيعُ الْهُدَى مَنْ كَحَلَ قَلْبَهُ بِنُورِ الْعِرْفَانِ ، فأما من كانت على قلبه غشاوة الجبل ..
ففي يستمع إلى الْهُدَى ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ

عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

ما بعث الله نبيّاً إلا وقد أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْعَذَابِ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ ، وبِشْرَمُ بِالنَّوَابِ
عَلَى حِفْظِ الْأَمْرِ . والعَذَابُ مُعَجَّلٌ وَمُؤَجَّلٌ ؛ فَوُجِّهْهُ لَا يُوقِفْ عَلَى تَفْصِيلِ الْأَعْدَاءِ وَكَتْكَ
مُؤَجَّلِ النَّوَابِ ، قال تعالى : « فَلَا تَلْمِزْ أَنْفُسَ مَا أَخْنَى لِمَنْ مِنْ قَرَةِ أَعْيُنَ » (١) .

وأما مُعَجَّلُ الْعُقُوبَةِ فَأَنْوَاعٌ ، وعلى حسب مقام اللزّ تَوَجُّهُ عَلَيْهِ لِلْعَظَائِكَاتِ ، والزيادة
في العقوبة تدلُّ على زيادة استحقاق الرُّتْبَةِ ؛ كلُّهُ وَالْمَعْيَدُ فِي الْخُلْدِ . وقسوة القلب نوع
عقوبة ، وما يتداخل الطاعة نوع عقوبة ، وخسران نصيب في اللالِ وَالْأَنْفُسُ نَوْعُ عُقُوبَةٍ . .
إلى غير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾

رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ

ثُمَّ هَدَى

« فن ريكاً » على الثانية ، ثم قال : « يا موسى » فأفرده بالطلب بنهما قال : « فمن ريكاً ؟ » . فيحمل أن ذلك لشاككة رموس الآي ، ويحمل أن موسى كان مُقدِّماً على هارون فخصه بالتداء .

ولما أجلب موسى عن هذا السؤال بالاستدلال على ربه — سبحانه — فقال : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه » ليعلم أن الدليل على إثباته — سبحانه — ما دلّت عليه أفضاله .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ قَدْ بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عَلَیْهَا عِنْدَ رَبِّی فِی كِتَابٍ لَا یَضِلُّ رَبِّی وَلَا یَنْسَى ﴾

لا يمكنني أن أخبركم إلا بما أخبرني به ربي ، فأعرفني عرفتك ، وما صدق علي وقفت .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾

جعل الأرض مستقراً لأبدانهم ، وجعل أبدانهم مستقراً لعبادته ، وقلوبهم مستقراً لمعرفته (١) ، وأرواحهم مستقراً لهبته ، وأسرارهم مستقراً لمشاهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُوا وَارْمُوا قُلُوبَكُمْ فِي دَنَاءِكُمْ وَلَا يَتْلُوا فِي الْأُولَى الْقُرْآنَ ﴾

هياً لهم أسباب المعيشة ، وكما نظر إليهم ورزقهم رزق دوابهم التي يتنفعون بها ،

(١) وردت (وأرواحهم مستقراً لعبادته) والصواب أن تكون (وقلوبهم مستقراً لمعرفته) حسبما نعرف من مذهب التشيع في ترتيب الملكات الباطنية (انظر بحثنا في التكتوات عن الإمام التشيعي وتوضيحه) ط مؤسسة الحلبي .

وَأَمْرُهُمْ أَنْ يَنْتَقِرُوا بِأَيْدِيهِمْ ، وَأَنْ يَنْفَعُوا — مَا أَمَكْنَهُمْ — بِأَنْفَعِهِمْ لِيَكُنْ لَهُمْ إِثْمُهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تِلْكَ آخِرُ ﴾

إِذْ خَلَقْنَا آدَمَ مِنَ التُّرَابِ ، وَإِذْ أَخْرَجْنَاكُمْ مِنْ صُلْبِهِ . . . قَدْ خَلَقْنَاكُمْ مِنَ التُّرَابِ أَيْضًا .
وَالْأَجْسَادُ قَوَالِبُ وَالْأَرْوَاحُ وَدَائِعُ ، وَالْقَوَالِبُ نَسَبُهَا التُّرَابُ ^(١) ، وَالْوَدَائِعُ صَفْهَا الْقُرْبُ ^(٢) ،
فَالْقَوَالِبُ يَزِيدُهَا بِأَفْضَالِهِ ، وَالْوَدَائِعُ يَحْيِيهَا بِكُشْفِ جَلَالِهِ وَلُطْفِ جَوَالِهِ . وَلَقَدْ أَلْبَسَ الْيَوْمَ
أَعْيُنَكُمْ عَلَى سِطْرِ عِبَادَتِهِ ، وَلَقَدْ أَصْلَفَ بِدَوَامِ مَعْرِفَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأُنِيَ ﴾

أَمْرُهُ بِجَهَنَّمَ ، وَأَمْرُهُ عَنْ شَهَادَةِ بَيْتِهِ ، فَنَجَّحَ فِيهِ كَلَامُهُ ، وَمَا اسْتَفْعَ بِمَا حَذَرَهُ مِنْ
اتِّعَاقِهِ ، وَبَدَّرَ لَهُ مِنْ إِثْمِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ أَهْبِثْنَا لَنَخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا
بِسِحْرِنَا يَا مُوسَى • فَلَمَّا تَيَسَّنَا
بِسِحْرِنَا فَهَبْ لَنُنَبِّئَنَّكَ وَبَيْنَا
مَوْعِدٌ لَا نَخْلَعُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ
مَكَانًا سُوًى ﴾

دَعَا مُوسَى إِلَى اللَّهِ ، وَخَاطَبَهُمْ فِي حَدِيثِ الْآخِرَةِ مِنْ تَبَشِيرِ شَوَابٍ ، وَإِنْذَارِ بَعْدَابٍ ،
فَلَمْ يُجِيبُوهُ إِلَّا مِنْ حَيْثُ الدُّنْيَا ، وَمَا زَادَهُمْ تَذْكِيرًا إِلَّا إِزْدَادُوا غَفْلَةً وَجَهْلًا .

(١) ، (٢) ووردتا (البرية) و (القوية) ولم تجد الجليلتين معنى على ذلك — في حدود ما نعرف —
بينما لو سارت النسبة إلى (القوية) كما تشير الآية وكما يشير كلام المصنف في بداية الفقرة ، ثم لو جعلنا
(القوية) بدل (القوية) لا نسجم السياق ، ونحن في هذا لا نصدور إلا عن استخدام القسري لهذا الأسلوب
في مواضع مماثلة — واثقة أعلم .

كنتك صفة من وصته الحق بالإباد ، لم يكن له عرفان ، ولا بما يقال إيمان ، ولا يتأسف على ما يفوته ، ولا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده .

قوله : « تأجل بيننا وبينك موعداً لا تخلفه . . » تأهبوا لتأصيصة الحقيقة ؛ وتشرعوا للخلافة ، فقصصهم المشيئة ، وكبستهم القدرة ، وكأ قيل :

استقبلني وسيطه مسلول ولال لي واحدا منلول
قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ فُضًى ﴾

فكان في ذلك اليوم اقتضاهم (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾

كاد فرعون فيكيده له ، وأراد فائزته إليه ، ودعا للاستعداد فأذل وأذيق البأس . ولم يدع موسى شيئا من الوعظ والرفق ، ولم يغادر فرعون شيئا من الجلو والحقن ، ولكن :
﴿ قَالَ لِمَ مَوَسَىٰ ۖ وَيَسْأَلُ لَا تَفْقَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ ۖ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴾

اعلموا أنه لا طاعة لأحد مع الله — سبحانه — إذا عذبه ، فحملوا مقاتله على الإطك ، ورموا مسجزة بالسر فقالوا :

﴿ قَالُوا إِنَّ هَٰنَا لَسَٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمَا ۖ

(١) يشير القصيرى بذلك إلى شاهد شعري يبيق وروده :

من نحلى بغير ما هو فيه فضحته خواهد الامتحان
ويهدف إلى أن يثبت أن تزعم الظاهر لا جدوى منه في الحقيقة .

يَسْحَرُهَا وَيَذْهَبُ بِطَرَفَتِكُمُ الْمُنَى •
فَأَجِئُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُوا صَفَا
وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى •

ها في دعواهما كلذان يقصدان إلى إخراجكم من بلدكم ، والتشويش عليكم
في مُتَعَدِّكُمْ .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكَ
كَوْنْ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾

أظهروا من أنفسهم التجهُّدَ فلما بأنَّ النصرَ لهم ، وإخلاذاً إلى ما كان السحرة يسوِّون
لهم ، فَخَيَّرُوا مُوسَى فِي الْإِبْتِدَاءِ بَنَاهُ عَلَى مَا تَوَهَّمُوا مِنَ الْإِقْدَاءِ ، قَالَ لَهُ مُوسَى :

﴿ قَالِ بَلْ أَتَوْا ، فَإِذَا حِيلَ لَهُمْ
وَعَصَبُهُمْ يَخْشَعُ لَهُمْ • فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ
خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَى • وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ
فَلَاقَ مَا سَمَوْا إِنَّمَا صُنُّوا كَيْدُ
سَاحِرٍ وَلَا خُلُوعُ السَّاحِرِ حَيْثُ
أَتَى • فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا
آتَيْنَا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى • قَالَ
هَاسِمٌ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُمْ الَّذِي عَلَّمَكَ السَّحَرَ
فَلَا تَقْلَمَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
خِلَافٍ وَلَا تَصْلُبْكُمْ فِي جُودِ النَّخْلِ
وَلَتَقْلَمَنَّ أَيْدِيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَلْقَى ﴾

قال لم موسى بل أقوا أتم ، وليس ذلك إذنا لم في السحر ، ولكن أراد الحق إظهار
 نعيمهم ، فلما خيلوا لناس ياتوا الجبال أنها حيا ابتلعت عصا موسى فجعلت ماصعوا ،
 ونطق السحرة أن ذلك أمر سماوي حيث ثلاثي عين ما كان منهم من أوطار^(١) الجبال ،
 وصار الثبان عصا كما كان ، فوجدوا لله مؤمنين ، واقلب فرعون وقومه خائنين ،
 وتوعدهم بالقتل والصلب ، وقنوني من العذاب الصعب ، وبسما كانوا يقسمون بعزة
 فرعون صاروا يخلصون بالله .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ

الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ

قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

أي بالله الذي فطرنا إننا لن نُؤمرَكَ على ما جاءنا من البينات . ولما طلعت في أسرارهم
 شمس الفرقان ، وانبسط عليهم أنوار العناية أبصروا الحق سبحانه بأسرارهم ؛ فطقوا ببيان
 التصديق ، وسجدوا بقلوبهم لشهودهم ، ولم يحتمسوا بما توعدهم به من العقوبة ، ورأوا ذلك
 من الله فاستمعدوا البلاء ، وقصموا اللاواء^(٢) ، فكانوا في الغداة كغفارا سحرة ، وأمسوا
 أخيارا بركة^(٣) .

قوله « قاضٍ ما أنت قاضٍ . . . » علموا أن البلاء في الدنيا ينقضي — وإن تملأ ،
 وينتهي وإن تنهى^(٤)

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا

وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ

خَبِيرٌ وَبَاقٍ ﴾ .

أهم الأشياء — على من عرفة — مغفرته لخطاياه ؛ فهذا آتم — عليه السلام — لا

(١) اللاواء جمع وفر = الخيل .

(٢) اللاواء = شبق المعيشة وشدة المرض (الوسيط) .

(٣) في هذه الإشارة فتح باب الأمل أمام الصابرة نظرا لقصر المسافة بين الكفر والإيمان ، من
 سابين العناية والمساء .

(٤) أي وإن تنهى في الشدة .

استكشف^(١) من حاله، وحلّ به ما حلّ قال: «رب إني ظلمت نفسي ...»^(٢) وقال لنيينا
— صلى الله عليه وسلم — «واستغفر لذنبك»^(٣). وقال صلى الله عليه وسلم: «إنه لينان
على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»^(٤). ومنّ عليه بقوله: «ليغفر لك الله ما تقدم
من ذنبك وما تأخر»^(٥)

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ
بِعِمَادِي فَاصْرِبْ لَمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ
يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَسًا وَلَا تُخْشَى*
فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَمْشِي مَشْيَهُمْ
الْيَمَّ مَا غَشِيَهُمْ* وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ
قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾

لما عبّر موسى ببني إسرائيل البحر، وقرب منه فرعون، ودأى البحر منفلقاً والطريق
فيه يَبَسًا غير قَوْمَهُ بتليسه قال: «إنه يحشني اخلق، فأنار بكم الأعلى» وحصل
— كما في القصة — من دخوله بشكوه البحر حتى دخل آخره، وهم أن يخرج أولهم، فأمر الله
البحر حتى التعلت أمواجه ففرقوا بيملتهم، وآمن فرعون لما ظهر له اليأس^(٦)، ولم ينفعه
إقراره، وكان ينفعه لو لم يكن إصراره، وقد أدركنه الشقاوة التي سبقت له من التقدير.

قوله جل ذكره: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ
عَدُوِّكُمْ وَوَدَّعْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ وَزَنَّا عَلَيْكُمُ الْغَنَاءَ وَالسُّلْوَى﴾

(١) يقصد التشعير حين (بدت لها نواتها وانكشفت) وربما كانت في الأمل (استكشف)
أي خجل مما فعل فهي قريبة في الكتابة وملائمة السياق.

(٢) آية ١٦ سورة القصص

(٣) آية ٥٥ سورة طه

(٤) عن امر مزينة رضى الله عنه قال: قال رسول الله: إنه لينان على قلبي حتى استغفر الله تعالى
في اليوم والمائة مرة. أخرجه مسلم وأبو داود.

(٥) آية ٢ سورة النج

(٦) دعا كانت (اليأس) بالياء فهي ملائمة السياق.

يَذْكُرُهُمُ آلاَهُ ، ويَعُدُّ عَلَيْهِمُ نَمْلَهُ ، وَيَأْمُرُهُمُ بِالْإِتِمَامِ الطَّاعَةِ وَالْإِتِمَامِ بِالشُّكْرِ نَا فَسَبِّحْ عَلَيْهِمُ مِنْ قُنُونِ النَّوْمِ . ثُمَّ يَذْكُرُهُمُ مَمْنً بِهِ عَلَى أَسْلَافِهِمْ مِنْ إِزْإَالِ الْمُنِّ وَالسُّلُوبِ ، وَضُرُوبِ الْيَمَحْنِ وَقُنُونِ الْبُلُوبِ .

• قوله جل ذكره : ﴿ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ .

الطَّيِّبُ مَا كَانَ حَلَالًا . وَيُقَالُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ ، لَا يَمِصُّ اللَّهُ مَكْتَسِبَهُ . وَيُقَالُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَكُونُ عَلَى مِشَاهِدَةِ الرِّزَاقِ . وَيُقَالُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ الشُّكْرُ . وَيُقَالُ الطَّيِّبُ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَأْخُذُهُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ ، فَمَا لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مُؤَجَّلٌ فِي عِقَابِهِمْ جَهْرًا ، مُعَجَّلٌ لِأَصْفِيَائِهِ فِي دُنْيَاهُمْ سِرًّا ، قَالَ تَعَالَى : « آخِذِينَ مَا آتَانَاهُمْ مِنْهُمْ » (١) .

وَالْأَرْزَاقُ مُخْتَلِفَةٌ ، فَلَا قَوَامَ حُطُوطُ النُّفُوسِ وَلَا خَيْرِينَ حُقُوقُ الْقُلُوبِ ، وَلَا قَوَامَ شُهُودِ الْأَسْرَارِ ، فَرَزَقَ النُّفُوسَ التَّوْفِيقَ ، وَرَزَقَ الْقُلُوبَ التَّصَدِيقَ ، وَرَزَقَ الْأَرْوَاحَ التَّحْقِيقَ (٢) .

قوله : « وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ » : بِمَجَاوِزَةِ الْحَلَالِ إِلَى الْحَرَامِ .

وَيُقَالُ « لَا تَطْغَوْا فِيهِ » : بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْكَفَافِ (٣) ، وَمَا لَا يُدُّ مِنْهُ مِمَّا زَادَ عَلَى سَدِّ الرِّمَقِ . وَيُقَالُ « لَا تَطْغَوْا فِيهِ » : بِالْأَكْلِ عَلَى الْغَفْلَةِ وَالنَّسْيَانِ .

• قوله جل ذكره : ﴿ فَيَحْلِلْ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ .

فَيَحْلِلْ عَلَيْكُمْ غَضَبِي بِالْخُلْدَانِ لِمُنَاجَاةِ الرَّؤْفَةِ بَعْدَ الزُّلْمَةِ .

وَيُقَالُ فَيَحْلِلْ عَلَيْكُمْ غَضَبِي لِقَفْدِكِ التَّائِبِ عَلَى مَآثِمِكُمْ .

وَيُقَالُ بِالرَّضَا بِمَا أَثَمَ فِيهِ مِنْ تَقْصَانِ الْحَالِ .

(١) آيَةُ ١٦ سُورَةِ الْفَافِيَّاتِ .

(٢) نَفَعَ ذَكَ فِي عِبَارَاتِنَا عِنْدَ بَحْثِ الْمَسْكَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ ، وَوُضَعَتْهَا وَأَفَاتَهَا ... وَأَرْزَاتَهَا .

(٣) الْكَفَافُ مِنَ الرِّزْقِ مَا كَانَ عَلَى مِقْدَارِ الْحَاجَةِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا تَقْصَانٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ .

النَّفَّارُ كثيرُ المغفرة ؛ فَمَنْكَ التَّوْبَةُ عَنْ زَلَّةٍ وَاحِدَةٍ وَمِنْهُ الْمَغْفَرَةُ لِلذُّنُوبِ كَثِيرَةٍ ، وَمِنْهُ التَّسْرِيَةُ الَّتِي لَا إِعْلَاعَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ عَلَيْهَا وَمَا لِلْمَلَائِكَةِ عَلَيْهَا إِعْلَاعٌ . وَهُوَ يَنْفِرُ لِمَن عَمِلَ مِثْلَ عَمَلِكَ ، وَهُوَ يَنْفِرُ لِمَن قَلْبُكَ مُرِيدٌ لَهُ بِالْخَيْرِ وَالنِّسَةِ ، وَكَأَنَّكَ لَا .

إِنِّي — عَلَى جَفَوَاتِيهَا — فَيَرِيهَا وَبِكُلِّ مُصْعِلٍ فِيهَا مُتَوَسِّلٌ وَأَحِبُّهَا وَأَحِبُّ مَتَرَلَهَا الَّتِي نَزَلَتْ بِهِ وَأَحِبُّ أَهْلَ الْمَنْزِلِ

قوله « وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ » : فَلَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ إِلَّا لِمَن يَكُونُ مُؤْمِنًا .

وقوله هنا : « وَآمَنَ » : أَيْ آمَنَ فِي الْمَالِكِ كَمَا هُوَ مُؤْمِنٌ فِي الْحَالِ .

وَيَقَالُ آمَنَ بِأَنَّهُ لَيْسَتْ نَجَاتُهُ بِتَوْبَتِهِ وَيُؤَيِّمَانَهُ وَطَاعَتِهِ ، إِنَّمَا نَجَاتُهُ بِرَحْمَتِهِ .

وَيَقَالُ « وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لِمَن تَابَ » : مِنْ الزَّلَّةِ « وَآمَنَ » : فَلَمْ يَرَّ أَعْمَالَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَآمَنَ بِأَنَّ جَمِيعَ الْحَوَادِثِ مِنَ الْحَقِّ — سَبْحَانَهُ — « وَعَمِلَ صَالِحًا » : فَلَمْ يُخِلَّ بِالْفَرَائِضِ ثُمَّ اهْتَدَى لِلسُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ^(١) .

وَيَقَالُ « ثُمَّ » : لِاتِّرَافِهِ ؛ أَيْ آمَنَ فِي الْحَالِ « ثُمَّ » اهْتَدَى فِي الْمَالِ .

وَيَقَالُ مَنْ سَمِعَ مِنْهُ « وَإِنِّي » لَا يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ : « إِنِّي » ^(٢) .

وَيَقَالُ مَنْ سَمِعَهُ سَمِعَ قَوْلَهُ : « وَإِنِّي » اسْتَهْلَكَ فِي اسْتِغْلَاةٍ مَا حَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيَاءِ الْقُرْبَةِ ، فَإِذَا جَلَّتْ « لَنَفَّارٌ » صَارَ فِيهِ بَيْنُ الْهَوَى ، وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِذُنُوبِ أَهْلِيهِ وَأَقْرَابِهِ وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِشَأْنِهِ .

وَيَقَالُ « إِنِّي لَنَفَّارٌ » كَثِيرُ الْمَغْفَرَةِ لِمَن تَابَ مَرَّةً ؛ فَيَنْفِرُ لَهُ أَنْوَاعٌ مِنْ ذُنُوبِهِ الَّتِي لَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا رِسْرَسًا وَجَهْرًا ، صَغِيرًا وَكَبِيرًا ، وَمَا يَنْدَكِرُ مِنْهَا وَمَا لَا يَنْدَكِرُ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ :

(١) وَاضِحٌ حَرَسَ الْقَشِيرَى الَّتِي عَلَى التَّمَكِّ بِبَلَدِهِ — وَهَذَا أَسْلُ ثَابِتٍ فِي مَذْهَبِهِ سِوَاهُ فِي عِلْمِ الْكَلَامِ أَوْ فِي عِلْمِ التَّصَوُّفِ .

(٢) فَاتَّوَحَّدَ الصَّادِقُ إِسْقَاطَ الْبَيِّنَاتِ وَنَبَى كُلَّ دَهْوَى لِنَفْسِهِ .

عملت « عملاً صالحاً » : بل يلاحظ عَمَلَهُ بَعَيْنِ الاستصغار ، وحالته بنير الاستقرار .

وقوله « ثم اهتدى » : أى اهتدى إلينا بنا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْلِكَ يَا مُوسَى ﴾

أَخْرَجَهُمْ مَعَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَصْجَبَهُمْ ، ثُمَّ تَقَدَّمَهُمْ (١) بِمَطْلُوتَاتٍ فَتَأَخَّرُوا عَنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ مِرَاعَةٌ لِحَقِّ مَحَبَّتِهِمْ .

ويقال قومُ يُعَاتَبُونَ لتأخيرهم وآخرون لتقدمهم .. فشتان ما هما !

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ هُم أُولَاءُ عَلَى أَثَرِي وَيَجْعَلُ

إِلَيْكَ رَبِّي تَرْجُو ﴾

أَيُ جَعِلْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا إِلَيْكَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْ هَذَا الْخُطَابِ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ اسْتَنْطَقَهُ لَمَّا أَخْبَرَ بِهِ مُوسَى (٢) .

قوله « هم أولاء على أثرى .. » أى ما خَلَقْتُمْ لِنَصِييِي أَيْمَنِي ، وَلَكِنِّي جَعِلْتُ إِلَيْكَ لَتَرْضَى . قَالَ : يَا مُوسَى إِنْ رَضِيتُ فِي أَنْ تَكُونَ مَعَهُمْ وَأَلَّا تَسْبِقَهُمْ ، فَكُنْتُكَ مَعَ الضَّعِيفِ الْقَدِيرِ اسْتَصْجَبَهُمْ — فِي مَعْنَى حُصُولِ رَضَائِي — أَبْلَغَ مِنْ تَقْدِيمِكَ عَلَيْهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾

فَتَنَّا قَوْمَكَ فَضَلُّوا وَعَبَدُوا الْمِجَلَّ ؛ فَأَخْبَرَ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ تَقْدِيرٌ ، وَفِي هَذَا تَكْذِيبٌ لِمَنْ جَعَلَ الْقَوْلَ بِالْقَدَرِ .

وَيَقَالُ تَلَبَّ مُوسَى — عَلَيْهِ السَّلَامُ — رِضَاءَ الْحَقِّ ، وَقَدَّرَ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ — فَتْنَةَ قَوْمِهِ فَقَالَ : « إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ » ، ثُمَّ الْحُكْمُ لِلَّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الرِّضَاءِ بِقَضَاءِ اللَّهِ — فَلَا اعْتِرَاضَ عَلَى اللَّهِ — وَمِنْ الْعِلْمِ بِحَقِّ اللَّهِ فِي أَنْ يُضِلَّ مَا يَشَاءُ ، وَأُنْشِدُوا :

أُرِيدُ وَصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِي فَاتْرُكْ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

(١) حين ذهب لِمَقَاتِ وَه .

(٢) وَالْإِلاَّ كَانَ دَعْوَى مِنَ النَّفْسِ . وَيُظهِرُ هَذَا الرَّأْيَ فِي تَفْسِيرِ الْإِصْحَاحِ وَالْاِكْتِنَانِ .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَضْلَهُمُ السَّامِرِيُّ﴾

بدعائه إياهم إلى عبادة المعبول ، وهو نوع من التفرغ ، وحصل ما حصل ، وظلر ما ظهر من (. . .) (١) .

قوله جل ذكره: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾

ورجع نبينا - صلى الله عليه وسلم - من المراج بمنى البسط ، وجاء بالنجوى (٢) لأصحابه فيها أوجب الله عليهم من الصلاة ، وأكرمهم به من القرية بلزلة . . فشتان ماها !
ورجع موسى إلى قومه بوصف الغضب والأسف ، وخطبهم ببيان الصواب :

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ
وَعَدًا حَسَنًا أَفَطَّلَ عَلَيْكُمْ الْغَدُ؟
أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمْ غَضَبُ
مَنْ رُبِّكُمْ فَأَخْلَقُكُمْ مَوْجِدِينَ﴾

ظنوا بنبئهم ظنَّ السوء في خلقه الوعد ، فَلَحَقَهُمْ شَوْمٌ ذَلِكَ حَتَّى زَاغُوا عَنِ الْعَهْدِ ،
وأشركوا في الغد . . وكذلك يكون الأمر إذا لم يَفِ للرب بعهده ، فإنه ينخرط
في هذا السُّلُوكِ

قوله جل ذكره: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنَا

وَلَكِنَّا نَحْمِلُهُمْ أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ
الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّاكَ فَكُفِّكَ النَّفَى
السَّامِرِيُّ﴾

قَالُوا لَمْ نَكُنْ فِي ابْتِدَاءِ حَالِنَا قاصدين إلى ما حصل مِنَّا ، ولا عالين بما آتَتْ إِلَيْهِ عاقبة

(١) مثلية ، وهي قرية في الخط من (التديية) وربما كانت صحيحة بمعنى التدي ؛ لأنهم تركوا عبادة
الله إلى عبادة المعبول فظنوا أنهم ونجاوزوا حدودهم .

(٢) وربما كانت (بالنجاة) حيث تنفخ المفاة بين أمة عاد إليها نبيها من عند ربه (بالنجاة) وأمة
عاد إليها نبيها متفرداً بالقوة يومع ذلك فقد قبلنا (النجوى) على أساس أنها جوهر الصلاة .

حَالَتًا ، وإن أتى حننا من حُلِيّ القبط صاغَ السامريُّ منه العجلَ . . . وكذلك الحرام من حطام الدنيا لا يخلو من شؤم آثره . فلقد كانت الفنية وأموال المشركين حراماً عليهم ، فاستعاروا الحُلِيّ من القبط ، وآل إليهم ما كان في أيديهم من الملك ، فكان سبب عبادتهم العجل . . كذلك من أنهبك في طلب الدنيا من غير وجهٍ حلالٍ يكون على خطيئ من رِقَّةِ دينه ، قال تعالى : « أفرأيت من أخذ إلهه هواء » (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَخْرَجَ لِمِيعًا جَدًّا لَهُ خَوَارٌ ﴾
فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى
فَنَسِيَ • أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ
قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ سَرًّا وَلَا نَفْعًا •

يقال إنهم لما مروا على قومٍ يعبدون أصناماً لم يفلحوا موسى : اجل لنا إلهنا كما لم أكله ، وكان ذلك العنم على صورة العجل فكان ميلهم إلى عبادته مُسْتَكِينًا في قلوبهم ، فصاغ السامريُّ العجل على تلك الصورة . وفي هذه إشارة إلى أن خاليا الهوى إذا استكنّت في القلب فلم يُقَسَّ ذلك الشرك بمناقش للنازلة يُخَشِّي أن يلقَى صاحبه (. . .) (٢) .

ويقال إن موسى — عليه السلام — خرج من بين أمته أربعين يوماً فَرَضَى قَوْمَهُ بعبادة العجل ، ونيئنا — عليه السلام — خرج من بين أمته وأتت سنون كثيرة ولو ذُكِرَ واحدٌ عند من أخلص من أمته في التوحيد حديثاً في التشبيه لعادوا ذلك منه كبيرةً ليس له منها تخلص (٣) .

كذلك فإنهم استحفظوا كتابهم فبدلوه تبديلاً ، بينما ضَمِنَ الحقُّ — سبحانه — إعراز هذا الكتاب بقوله : « إنا نحن نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (٤) .

(١) آية ٢٣ سورة الجاثية .

(٢) مشتبه ومي في الرسم تقرب من (نبيه) والتميب صوت الغراب . . فهل يقصد التشبهي — ماذكره منذ قليل — أن صاحبه يلق شؤم أثر ذلك أم أن اللفظة في الأصل غير ذلك؟ وما كانت (عجه) أو (نيه) أو (ميت) .

(٣) لأن المشبه يدنوا بتصوراتهم المادية عن الألوهية من عبدة العجل .

(٤) آية • سورة الحير .

وقال : « ليظهره على الذين كَلَّه » (١) .

قوله : « أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا . . . » بَيِّنَ أَنَّ مَنْ لَا قَوْلَ لَهُ لَا يَسْكُنُ ، ومن لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ والنَّعْجَ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ ، وفيه رَدُّ عَلَى مَنْ لَمْ يُثَبِّتْ لَهُ فِي الْأَزَلِّ الْقَوْلَ ، ولم يَصِفْهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لِمَنْ هَارُونَ مِنْ قَبْلُ ياقوم
إِنَّمَا فَتَنَّتُمْ بِهِ إِنَّكُمْ رَبُّكُمْ الرَّحْمَنُ
فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾

إنهم لم يحفظوا أمر موسى وهو فوق هارون ، والإشارة في هذا أن من لم يحفظ أمر مَنْ هو أعلى رتبةً كيف يحفظ أمر من هو أدنى منزلةً ؟ فَمَنْ تَرَكَ أَمْرَ الْحَقِّ . . . كيف يُطْمَعُ فِيهِ أَنْ يَحْتَرَمَ الشَّيْخَ وَأَكَلَ النَّاسُ ؟ لهذا قيل : لَا حُرْمَةَ لِنَاسِكَ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَرَكَ حَقَّ الْحَقِّ فَتَى يَحْفَظُ حَقَّ الْخَلْقِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ
حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾

كان ذلك تَعَلُّكًا مِنْهُمْ بِالْبَاطِلِ ، فقالوا إنهم كانوا عازمين على تَرْكِ عِبَادَةِ الْعَجَلِ ؛ إِذْ بِهِ يَنْتَحِقُونَ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ وَتَرَكَ عِبَادَةَ غَيْرِ اللَّهِ . . . وَلَكِنْ كُلُّ مُتَعَلِّقٍ يَسْتَنْدِ إِلَى مَا يَحْتَجُّ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
صَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ
أَمْرِي ﴾

ضاق قلبُ موسى — عليه السلام — لما شاهد من قومِهِ الْمَمَانَةَ عِبَادَةَ الْعَجَلِ ، ولقد كان مع من الله أَنَّ السَّامِرِيَّ أَصْلَحَهُمْ حِينَ قَالَ : « إِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ » ، وَلَكِنْ قَدِيمًا قِيلَ : لَيْسَ الْخَلِيرُ كَالْعِيَانِ ، فَلَمَّا عَايَنَ ذَلِكَ ضَاقَ قَلْبُهُ ، فَكَانَ يَقُولُ لِأَخِيهِ ذَلِكَ فَظَهَرَ مِنْهُ مَا ظَهَرَ (٢) ،

(١) آية ٢٨ سورة النجاش .

(٢) إشارة إلى أنه أخذ بغير رأسه يمينه ، ولحيته بشماله غضبا ، وغيرة في الله .

وقيل : مَنْ ضاق قلبه اتسع لسانه . ولما ظهر لموسى — عليه السلام — ما ظهر أخذ هارون يقابله بالرفق والطف وحسن للمداواة . . . وكذلك الواجب فى الصعبة لئلا يرتقى الأمر إلى الوحشة ، فاستلطفه فى الخطاب واستعطفه بقوله :

﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمِّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي
وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي ﴾

أَنْتَ أَمَرْتَنِي أَلَّا أَفَارِقَهُمْ . وقد يُقال إن هارون لو قال لموسى فى الوقت الذى احتجبتَ أَنْ تَمْضِيَ إِلَى فِرْعَوْنَ قُلْتَ : « وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا » ، وقُلْتَ : « أَرْسَلَهُ مِنِّي » ، وقُلْتَ حين مضيتَ إِلَى سَمْعَاءَ كَلَامَ الْحَقِّ : « اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي » . . . فَا كَفَيْتَ بِأَنْ لَمْ تَسْتَصَحْبْنِي . . . وَخَلَفْتَنِي ! وقد عَلِمْتَ أَنِّي بِرَأْسِي السَّاحَةِ عَمَّا فَعَلُوا فَأَخَذْتَ بِلِحْيَتِي وَبِرَأْسِي . . . أَلَمْ تَرْضَ بِمَا أَنَا فِيهِ حَتَّى تَزِيدَنِي حَرْبًا عَلَى حَرْبِي ^(١) ١٢ ... لو قال ذلك لكان موضعهُ ، وَلَكِنْ لِحْيَتِي ، وَرَأْسِي — بِأَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ حُكْمٌ دِيْنِي — فَقَدْ قَابَلَ كُلَّ شَيْءٍ بِالرَّضَا .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَاصْلُبْكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾

سَأَلَ مُوسَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِنَوْعٍ آخَرَ ، وَإِنْ مَعَانِيَتُهُ مَعَ قَوْمِهِ ، وَمَطَالَبَتُهُ لِأَخِيهِ ، وَتَغْيِيرُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَاسْتِبْلَاءُ النُّضْبِ عَلَيْهِ — لَمْ يَغَيِّرْ التَّنْقِيذَ ، وَلَمْ يُؤَخِّرِ الْحُكْمَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ
فَقَبِضْتُ قَبْضَةً مِنَ أَثَرِ الرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾

عَلِمْتُ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ بَنُو إِسْرَءِيلَ فَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ ، فَقَبِضْتُ الثَّرَابَ مِنْ مَوْضِعِ حَافِرِ

(١) الحرى = النضب (الوسيط ج ١ ص ١٦٩)

دابته ، وأُلْقِيَ فِي رَوْحِي أَنْ ذَلِكَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَجَلِ فَطَرَحْنَاهَا فِي جَوْفِهِ ... هَكَذَا زَيَّنْتُ لِي
نَفْسِي فَأَتَيْتُتُ هَوَاهَا .

ثم كان هلاكه .. لتلا يأمنَ أحدٌ حَتَّى مَكْرُ التَّقْدِيرِ ، ولا يَرْكَنَ إِلَى مَا فِي الصُّورَةِ
مِنْ رِفْقٍ فَلَعَلَّهُ — فِي الْحَقِيقَةِ — يَكُونُ مَكْرًا ، وَلَقَدْ أَشْعَوْا :

فَأَمِنَتْهُ فَأَتَانَحَ لِي مِنْ مَأْمِنِي مَكْرًا ، كَذَا مِنْ يَأْمِنُ الْأَحْبَابُ

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ

تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا

لَنْ تُخْلَفَهُ ﴾

لم يخفَ على موسى — عليه السلام — تأثيرُ التقديرِ وانفرادُ الحقِّ بالإبداع ، فلقد قال
في خطابه مع الحق : « إِنْ هِيَ إِلَّا فَنَتَكَمَّ » ، ولكنه لم يدع — مع ذلك — بِالْحِلَالِ الْمُقَوَّبَةِ
بِالْإِسْمِ وَالْأَمْرِ فِي بَابِهِ بِمَا يَسْتَوْجِبُهُ ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْحُكْمَ فِي الْإِبْدَاعِ وَالْإِبْجَادِ — وَإِنْ كَانَ اللَّهُ —
فَالْعَالِيَةِ وَالْمُعَالِيَةِ — تَتَوَجَّهَانِ عَلَى اتِّفَاقٍ فِي مَقْصُودِ التَّكْلِيفِ ، وَإِجْرَاءِ الْحَقِّ مَا يُجْبِرُهُ لَيْسَ
حُجَّةً لَعَبْدٍ وَلَا عُدْرَةً لَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ

عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ

نَسْفًا ﴾

كلُّ مَا تَمَلَّقَ بِهِ الْقَلْبُ مِنْ دُونِ اللَّهِ يَنْسِفُهُ الْحَقُّ — سُبْحَانَهُ بِحُجَّتِهِ ^(١) ؛ وَلِهَذَا يُنْقِى
الْأَصْنَامَ غَنًا فِي النَّارِ مَعَ الْكَفَّارِ ، وَلَيْسَ لَهَا جَزَاءٌ ، وَلَا عَلَيْهَا تَكْلِيفٌ ، وَلَا لَهَا عِلْمٌ
وَلَا خَبَرٌ : .. وَإِنَّمَا هِيَ جَعْدَاتٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

إِلَى إِلَهِكُمُ الَّذِي يُحِبُّ عَلَيْكُمْ عِبَادَتَهُ بِحَقِّ أَمْرِهِ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَهُوَ بِوَسْفِ
الْجَلَالِ ، وَالَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ هُوَ اللَّهُ ، وَلَيْسَ مِثْلُ الَّذِي هُوَ جَادٌ لَا يَعْلَمُ

(١) الْبَاءُ مِمَّا مَتَّاهَا (مَعَ) .

ولا يقدِرُ، ولا يجا ولا يسمع ولا يبصر . ويمكنه أن يستحق هذا الجلاء ويحرره .

قوله جل ذكره : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾

نمرُّكَ أحوال الأولين والآخرين لئلا يلتبس عليك شيء من طرقتهم ؛ فتتأدب بأدائهم ونجس فيك متفرقات منافعهم .. ولكن اعلم أنَّا لم نبلغ أحداً مبلغك ، ولم يكن لأحدنا ملكاً ؛ آتيناك من عندنا شرقاً وغرباً لم يشركك فيها أحد ، وذكرناك ما سلف لك من العهد منا ، وجددنا لك بينهم تخصيصنا إياك ، وكريم إقبالنا عليك .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾

المُعرَّضون عنه شركاء يحملون غداً وزراً وثقلًا ، أولئك بعدوا عن محل الخصوصية ، ولم يكن لهم خطر في التحقيق ؛ فغوبتهم لا تزيد على آلام نفوسهم وإحراق أشباحهم ، وأما أهل الخصوصية فلو فعلوا عنه ساعة وسوء لحظة لدار — في الحال — على رؤوسهم البلاء بحيث تتلاشى في جهنم عقوبة كل أحد (بالإضافة إلى هذه العقوبة) (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ يتخافتون بينهم إن ليبتئهم إلا عسراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن ليبتئهم إلا يوماً *

قوم يوم القيامة لم مؤجل ، وهو بعد النفخ في الصور على ما ورد في الكتاب وفي الخبر للأئمة .

(١) ما بين القوسين أضافه من عندنا ليتضح المعنى المطروب حسبما نعرف من مذهب الصوفية أن عذاب النار أشد من عذاب الاحتراق .

وللآخرين قيامة مُجَلَّة^(١) ؛ فيها محاسبة وعليهم فيها مطالبة ، وهوان حاضر وعذاب حاصل ، فسكا تَرَدُّ على ظواهر قويم في الآخرة عقوبات ، تَرَدُّ على سرائر آخرين عقوبات في الحياة الحاضرة ، وللعامة مع كلٍّ أحدي تخالف للعامة مع صاحبه .

قوله « يتخافتون بينهم ... » من تَفَرَّغَ لِدَّةِ الأوقاتِ والتمييز بين اختلاف الحالات فنوع غير مستوفٍ في بلائه ، وأمره مهملٌ . . . ومن كل يرادُ المعنى من حديثه لا يتفرغ إلى نعت الحال ؛ فالأحوال تُخبر عنه وهو لا يُسألُ عن الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا

رَبِّي لَنَفَا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝

لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝

كأنَّ في القيامةِ الموعودةِ تُتَبَرُّ الجبالُ عن أحوالها فهي كالهيئةِ للنفوس فكذلك في الآخرةِ الموجودةِ . . . فلا يُخبرك عنها إلا الأكابر الذين هم كالرواسي ثباتاً ؛ فإنه يُدْخَلُ عليهم من الأحوال ما يحفظهم عن شواهدهم ، ويُأخذهم عن أقرانهم . . . كذا سُئِلَتْ سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ

وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا

تَسْمَعُ إِلَّا هَمًّا ۝

تقطع الأوهام ، وتقف الأفهام ، وتنخس العقول ، وتندرس العلوم ، وتخبئ الممارف ، ويتلاشى ما هو نَمَتْ الخلق ، ويستولى سلطان الحقيقة . . فعند ذلك لا عينٌ ولا أذنٌ ، ولا رسمٌ ولا طلال ولا عَبرٌ ، في الحضور خرسٌ ، وعلى البساط قفازٌ ، والرسوم امتناعٌ ، وإنما الصحة على الثبات .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ

أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا ۝

(١) أي القيامة التي تحمل أبواب القلوب في هذه الحياة الدنيا

(٢) لأنه يكون ظاهرياً عن نفسه ، والظاهر عنه وجهه .

دليل الخطاب أن مَنْ أَذِنَ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ تَنَعُّهُ الشَّفَاعَةُ ، وَإِذَا قُبِلَتْ شَفَاعَةُ أَحَدٍ يَأْذِنُ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَلْهَلَ الْأَقْبِيلَ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَهُوَ أَفْضَلُ الْكَفَالَةِ ، وَشَفَاعَةُ الْأَكْبَرِ مِنْ صَفْوَتِهِ مَقْبُولَةٌ فِي الْأَصَاغِرِ فِي الْمُؤَجَّلِ فِي الْمُجَلِّ . وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يُنْقَعُ الشَّيْخُ فِي مَرِيدِهِمُ الْيَوْمَ^(١)

ويقال شفاعَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ غَدًا لِلْمُطِيعِينَ بِزِيَادَةِ الدَّرَجَةِ ، وَالْمَاصِينَ بِفِرَانِ الرُّؤْيَا ، كَذَلِكَ شَفَاعَةُ الشَّيْخِ — الْيَوْمَ — لِلْمَرِيدِينَ عَلَى قَسَمَيْنِ : الَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ السُّلُوكِ فَبِزِيَادَةِ الْحَقِيقِ وَالْتَوْفِيقِ ، وَالَّذِينَ هُمْ أَصْحَابُ التَّخَيُّطِ وَالْغُرَّةِ فَبِالتَّجَاوُزِ عَنْهُمْ ، وَعَلَى هَذَا يُجْمَلُ قَوْلُ تَالِمِهِمْ :

إِذَا مَوْضِعُ أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُذَنِّبُونَ فَنَاتِيكُمْ وَنَعْتَدِرُكُمْ

وَحِكَايَةُ السَّلَفِ مِنَ الشَّيْخِ مَعَ مَرِيدِهِمْ فِي أَوْقَاتِ فَرَسَتِهِمْ مَعْرُوفَةٌ ، وَهِيَ مَسْكُوتَةٌ لِهَذِهِ الْجَلَّةِ ، وَإِنْ شَفَاعَتُهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا بِتَعْرِيفٍ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ فِي الْبَاطِنِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَجَبًا لَهُمْ فِي ذَلِكَ

قوله جل ذكره : ﴿ يَلْمِزُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ جَلًّا ﴾

لَا يَخْفَى عَلَى الْحَقِّ شَيْءٌ مِمَّا مَضَى مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَلَا مِنْ آتِيَا ، وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ جَلًّا . وَالْكِنَايَةُ^(٢) فِي قَوْلِهِ : « بِهِ » يَحْتَمِلُ أَنْ يَمُودَ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَمُودَ إِلَى الْحَقِّ — سُبْحَانَهُ — ، وَهُوَ طَرِيقَةُ السَّلَفِ ، يَقُولُونَ . يَلْمِزُ الْخَلْقَ وَلَا يُحِيطُ بِهِ الْعِلْمُ ، كَمَا قَالُوا : إِنَّهُ يَرَى وَلَا يُدْرِكُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَشَّتِ الرَّجُوهُ إِلَى الْقِيَوْمِ وَقَدْ خَلَبَ مَنْ حَلَّ ظُلُمًا ﴾

(١) يَبْنِيَا يَنْكُرُ الْمُعْتَرِضُ الشَّفَاعَةَ (أَنْظِرِ الْمَالَ وَالتَّحَلُّ لِلْعَبْرِ سَتَانِ) يَلْبَثُ الْقَشِيرَى الشَّفَاعَةَ لَا رَسُولَ نَقَطَ بِلِ الْأَوَّلِيَا ، فِي الْفَارِسِ ، وَالشَّيْخُ فِي هَذِهِ الْجَبَاةِ الدُّنْيَا .. عَلَى نَحْوِ مَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ إِشَارَتِهِ .
(٢) لِلْكِتَابَةِ فِي تَبْيِيرِ الْقَشِيرَى مِمَّا هَا (الضَّمِيرُ) ، وَهُوَ هَذَا الْهَاءُ فِي (بِهِ) .

ذَلَّتْ لَهُ الرِّقَابُ وَاسْتَسْلِمَ لِحُكْمِهِ انْطَلَقُ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْجَبَابِرَةُ، وَمَنْ اقْتَرَفَ الظُّلْمَ بَقِيَ فِي ظُلُمَاتِهِ، وَعَلَى حَسَبِ ذَلِكَ فِي الزَّادَةِ وَالنَّقْصَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ .

العمل الصالح ما يصلح للقبول ، فاعله هو المتجرّد عن الآفات الواهية لحقيقة الأمر .

ويقال العمل الصالح ما لم يستعمل عليه صاحبه أجراً .

قوله : « وهو مؤمن » : أى فى المال كما هو مؤمن فى الحال .

ويقال هو مؤمن مصدّق لربه أنه لا يسعّى المؤمن لأجل إيمانه شيئاً ، ولكن بفضل ، وإيمانه أمانة فذلك لا موجب له ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ .

فيه من الوعيد لعلمهم يتقون

أو يحدث لهم ذكراً .

أَتَمَمْنَا ذِليلاً بيد دليل ، وبعثنا رسولا بعد رسول ، وحدّدْنا م بوجود من التعريفات ، وإظهار كثير من الآيات

قوله جل ذكره : ﴿ فَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ .

تعالى الله فى كبريائه ؛ وكبريائه : سنائه وعُلاه ومجده ورفقته وعظمته ، كل ذلك بمعنى واحد ، وهو استحقاقه لأوصاف الجلال والتعظيم .

و « الْمَلِكُ » : مبالغة من المالك ، وحقيقة الملك القدرة على الإيجاد ، والافتراق بذلك .

و « الْحَقُّ » : فى وصفه — سبحانه — معنى الموجود ، ومنه قوله عليه السلام :

« المبن حق » ^(٢) أى موجود .

(١) على خلاف قول المعتزلة الذين يوجبون على الله أن يليت من أطاع ويصاقب من أذنب .

(٢) يقول التشيعى فى تحبيره ص ٦٨ « الحق من أسمائه سبحانه بمعنى الموجود الكائن ، وكذا مناه فى اللغة ، ومنه قوله عليه السلام : « السحر حق » أى كائن موجود ، وكذا يقال الجنة حق ، والنار حق .

ويكون الحق بمعنى ذى الحق ، ويكون بمعنى مُحَقِّق الحق . كل ذلك صحيح .
 قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يَقُصَّ إِلَيْكَ وَحْيَهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي
 عِلْمًا ۖ ﴾ .

كأن يتمجل بالتلف من جبريل مخافة النسيان ، فأمره بالتثبت في التلقين ، وأمنه من
 طوارق النسيان ، وعرفه أن الذى يحفظ عليه ذلك هو الله .
 والآية تشير إلى طرف من الاحتياط في القضاء بالظواهر قبل عرضها على الأصول ، ثم إن
 لم يوجد ما يُوجب بالتحقيق أجراه على مقتضى الصوم بحق اللفظ ، بخلاف قول أهل التوقف .
 فالآية تشير إلى التثبت في الأمور وضرورة التمسك واللبث قصداً للاحتياط ^(١) .
 قوله : (وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) : فإذا كان أعلمُ البشر ، وسيدُ العرب والمجم ، ومن
 شهد له الحقُ بخصائص العلم حين قال « وَعَلَيْكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ » ^(٢) يقال له : « وقُلْ رَبِّ
 زِدْنِي عِلْمًا » — عِلْمٌ أَنْ ما يخصُّ به الحقُّ أولياءه من لطائف العلوم لا حصرَ له .

ويقال أحله على نفسه ^(٣) في استزادة العلم . وموسى عليه السلام أحله على انخفض حتى
 قال له : « هل أتبعك على أن تُعَلِّمَنِي بما علمتَ رشداً » فشتان بين عبدٍ أُحيل على عبدٍ في ذلك
 ثم قيل له : « إنك لن تستطيعَ معي صبراً » ثم بعد كل ذلك التلطف قال له في آخر الأمر :
 « هذا فراق بيني وبينك » . . . وبين عبدٍ أمره عند استزادة العلم بأن يطلبه من
 قِبَلِ ربه فقال : قُلْ يَهْدِي : « وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » !

ويقال لما قال عليه السلام : « أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ » ^(٤) ، قال له : « وقُلْ رَبِّ
 زِدْنِي عِلْمًا » لِيُعَلِّمَ أَنْ أَشْرَفَ رِجَالِ الصِّدِّيقِ الْوَقُوفُ فِي حُلِّ الْاِفْتِقَارِ ، والانتصاف بنت
 الدلاء دون الوقوف في معرض الدعوى ^(٥) .

(١) هذا يوضح مدى تحفظ المصنف واحتياجه في تناول التمسك التثلي .

(٢) آية ١١٢ سورة النساء .

(٣) (على نفسه) الضمير هنا يعود على الحق سبحانه كما سيتضح بعد قليل .

(٤) البخاري عن أنس : (وَاثِقَ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لَهُ وَأَتَّقَاهُ) .

والشيخان عن عائشة : (وَاثِقَ إِنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَعْدَكُمْ لَهُ خَشْيَةً) .

(٥) أى أن يكون الصِّدِّيقُ داعياً لادعيا .

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ

فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾

لم نجد له قوةً بالكمال، وانكشافاً في مراعاة الأمر حتى وقت عليه رحمة المصيان بقوله: «وعصى آدم ربه» (١).

وقال «لم نجد له عزماً»: على الإصرار على المخالفة.

وقال لم نجد له عزماً في القصد على الخلاف (٢)، وإن كان.. فذلك يفتضى النسيان، قال تعالى «فَنَسِيَ» ولم نجد له عزماً على خلاف الأمر، وإن كان منه اتباع بعض مطالبات الأمر. ويقال شرح قصة آدم — عليه السلام — لأولاده على حجة التوسيع لتأويلهم حتى لا يتعلوا من رحمة الله، فإن آدم عليه السلام وقع عليه هذا الرق، واستقبلته هذه الخطيئة، وقوله تعالى «فَنَسِيَ» من النسيان، ولم يكن في وقته النسيان مرفوعاً عن الناس.

ويقال عاتبه بقوله: «فَنَسِيَ» ثم أظهر عذره فقال: «ولم نجد له عزماً».

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾

السجود نوع من التواضع وإكبار القدر، ولم تنقسم (٣) من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فخلقه الحق بيده، ورفعه شأنه بعدما علمه، وجعل إلى الجنة، وأمر الملائكة في كل سماء أن يسجدوا له تكريماً له على الابتلاء، واختباراً لهم. فسجدوا بأجمعهم. وامتنع إبليس من بينهم، فلقى من الموان ما سبق له في حكم التقدير. والعجب ممن يخفى عليه أن مثل هذا يجري من دون إرادة الحق ومشيئته وهو عالم بأنه كذلك يجري، واعتبروا الحكمة في أنفُسهم وأحكامه، ويزعمون أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته، وكثرة مخالفات

(١) آية ١٢١ من السورة نفسها.

(٢) الخلاف = المخالفة.

(٣) ابتداء من هذا الموضع وحتى ينتهي الكلام بين القوسين الكبيرين وضحه الناسخ خطأ فبا بين الورقة ٤١٨ والورقة ٤٢٢ عند تفسير سورة الفرقان أي في مكان متأخر كثيراً وقد سمعنا وضحه، وبيننا إذ ذاك في مدخل هذا الكتاب (المجلد الأول)

أولاد آدم ، وكيف أن الشيطان يوسوس لهم . . . ثم يقولون إن الحق سبحانه أراد خلاف ما علم ، وأجرى في سلطانه ما يكرهه وهو عالم ، وكان علما بما سيكون ١ ثم خلق إبليس ومكّنه من هذه المعاصي مع إرادته ألا يكون ذلك ١ ويدّعون حُسن ذلك في الفعل اعتباراً إنما هو الحكمة . . . فسبحان من أعمى بصائرهم ، وعمى حقيقة التوحيد عليهم ١

قوله جل ذكره : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ
وَزَوْجُكَ فَلَا يَخْرُجْكَ مِنَ الْجَنَّةِ
فَتَشْقَى ﴾

وما كان ينفعهم النصّح وقد أراد بهم ما حذرهم ، وعلم أنهم سيلقون ما خوفهم به .
قوله : « فلا يخرجكما من الجنة فتشقى » : علم أنهم سيلقون ذلك الشقاء : وأما إنه
أضاف الشقاء إلى آدم وحده — وكلاهما لحقه شقاء الدنيا — فذلك لمضارعة رموس الآي ، أو لأن
التعب على الرجال دون النساء . ومن أضنى إلى قول عدوه فإنه يتجرّع الندم ثم لا ينفعه .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَمْرَأَ ۖ
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَأُ ۖ ﴾

لا تصديق أتم من تصديق آدم ، ولا وعظ أشدّ رحمة من الله ، ولا يقين أقوى من
يقينه . . ولكن ما قلنى آدم الشقاء قبل ذلك ، فلما استقبل الأمر وذاق ما خوف به من
العناء والكبد ندم وأطال البكاء ، ولكن بعد إبرام التقدير .

« وأنت لا تظمأ فيها ولا تصحأ » أوثر بكل وجه ؛ فلم يعرف قدر العافية والسلامة ،
إلى أن جرى ما هو محكوم به من سابق القصة .

ويقال تنعم آدم في الجنة ولم يعرف قدر ذلك إلى حين استولى في الدنيا عليه الجوع
والعطش ، والبلاء من كل (. . .) (١)

(١) هنا طمس أخفى لفظة في نهاية السطر وهي أقرب إلى أن تكون (فن) ونحن نتنبها ، فالشعير
يستعملها في مواضع مماثلة (أنظر مثلا استعماله) فنون الخفان عند تفسير الآية التي ستأتى بعد قليل : ومن
أعرض عن ذكرى (. . .) ، و (فن) تكون بمعنى (نوع) كما سيأتى في العبارة التالية .

وكان آدم عليه السلام إذا تجدد له نوع من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه السلام يأتي ويقول: «رَبُّكَ يَقْرِيكَ السَّلامَ» ويقول: لِمَ تَبْكِي؟ فكان يُدْكِرُ جبريل عليه السلام وهو يقول: أهذا الذي قُلْتَ: «وَأَنْتَ لَا تَنْظُرُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى»... وغير هذا من وجوه الضمان والأمن؟

قوله جلي ذكره: ﴿فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ غُلْفَةٍ وَأُمْلِكُ لَا يُبْئَلُ﴾

وسوس إليه الشيطان وكان الحق يعلم ذلك ولم يذكر آدم في الحال أن هذا من نزغات من قال له — سبحانه: «إِنْ هَذَا عَدُوْلُكَ».

ويقال: لو عُي على إبليس تلك الشجرة حتى لم يعرفها بعينها، ولو لم يكن (...) (١) حتى دُلَّه على تلك الشجرة (إيش) (٢) الذي كان يمنه منه إلا أن الحكم منه بذلك سبق، والإرادة به تعلقت؟

ويقال إن الشيطان ظهر لآدم عليه السلام بعد ذلك فقال له: يا شقي، فعلت وصنعت... فقال إبليس لآدم: إِنْ كُنْتُ شَيْطَانَكَ فَمَنْ كَانَ شَيْطَانِي (٣)؟

ويقال سُمِّي الشيطان شيطاناً لبعده عن طاعة الله، فكلُّ بعيدٍ عن طاعة الله يُبْعِدُ النَّاسَ عن طاعة الله فهو شيطان، ولذلك يقال: شياطين الإنس، وشياطين الإنس شرٌّ من شياطين الجن.

ويقال لما طمع آدم في البقاء خالفاً وَجَدَ الشيطان سبيلاً إليه يوسوسه. والناسُ تكلموا في الشجرة: ما كانت؟ والصحيح أن يقال إنها كانت شجرة الحنة. ويقال لو لم تُخْلَقْ في الجنة تلك الشجرة لَمَا كَانَ فِي الْجَنَّةِ قَصَصَانٌ فِي رَبِّهَا (٤)

(١) مثلية.

(٢) منها (فأى شيء؟) وهي هنا استهلامية.

(٣) في ذلك تنصل من العيب أساسه المخالطة والتليس.

(٤) أي أن الجنة في عرف هذا التكليم (مخلوقة) و (حادثة).

ويقال لولا أنه أراد لآدم ما كان لطائف تلك الشجرة حتى ما كانت لتصل إليها يده ،
ولكنه — كما في القصة — كانت لا تصل إلى أودانها يده — بعد ما أكل منها — حينما
أراد أن يأخذ منها ليستتر عورته ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهَا سَوْآتُهَا ﴾
لما ارتكبا المنه عن ظهر ما يستحي من ظهوره ، ولكن الله — سبحانه — ألفت
مهما في هذه الحالة بقوله : فَبَدَتْ لَهَا سَوْآتُهَا ، ولم يقل — مطلقاً — فَبَدَتْ سَوْآتُهَا ؛
أي أنه لم يطلع على سورتها غيرها .
ويقال لما تَجَرَّدَا عن رِيس التقوى تنارَ عنهما ليلهما الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ
دَرْيِ الْجَنَّةِ ﴾

أول الجرف والصناعات — على مقتضى هذا — اغطيطة ، وخياطة الرِّقَاع بعضها
على بعض للقراء ميراث من أينا آدم — عليه السلام ^(٢) .

ويقال كان آدم — عليه السلام — قد أصبح وعليه من حُلل الجنة وفنون القبل
ما الله به أعلم ، ثم لم يمر حتى كان يخصف على قفه من ورق الجنة ، وهكذا كان
في الابتداء ما هو موروث في أولاده من هناء يعمه يلاه .

قوله تعالى : « وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ » ^(٣) : عند ذلك وقعت عليهما
الخلجة لما وردَ عليهما خطاب الحق : « أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ ... » ولهذا قيل : كفى لقصص
الحياة يوم اللقاء

قوله تعالى : « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ... » ^(٤) : لم يتكلما بلسان الحجة فقالا : « رَبَّنَا
ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » ، ولم يقلوا : بظلمنا صرنا من الخاسرين ، بل قالوا : « وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

(١) وفي هذا تحذير مبني للاكابر من الوقوع في الزلة ، وكيف أكرامة الولي تتلاشى بذلته .

(٢) لاحظ أهمية ذلك عندما تؤرخ للخرقة والمرقعة عند القصصية .

(٣) آية ٢٢ سورة الأعراف .

(٤) آية ٢٣ سورة الأعراف .

لنكون من الخاسرين ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَارَّ عَلَى حُكْمِ الرَّبِّ لَا هَلْ جُرْمٌ يُتْلَقُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾

لَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ سِمَةُ الْمَصِيانِ — وهو أَوَّلُ الْبَشَرِ — كان في ذكر هذا تنفيس لأولاده ؛ أن تجرى عليهم زَلَّةٌ وهم بوصف النبية في حين الفترة .

ويقال كانت تلك الأكلة شَيْتَانًا واحدًا ، ولكن قصتها يحفظها ويردها الصبيان إلى يوم القيامة .

وعصى آدم ربّه لِيُعْلَمَ أَنَّ عَظَمَ الذُّنُوبِ لِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَعَظَمَ قُدْرِهِ . . لا لكثرة المخالفة في نفسها .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾

أخبر أنه بعدما عصى ، وبعد كلِّ مَا قَعَلَ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ ؛ فَاتَّبَعَ اسْتِغْفَاؤُهُ أَوَّلًا بِلَا عِلَّةَ (١) اجْتِبَاهٍ ثَانِيًا بَعْدَ الزَّلَّةِ ، فَتَابَ عَلَيْهِ ، وَغَفَرَ ذَنْبَهُ ، « هدى » : أى هداه إليه حتى اعتذر واستغفر .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ فَاِذَا مَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ

اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

أوقع المداواة بين آدم وإبليس والحية ، وقد نالت المهن على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة بسمة المصيان ، ومخالفة الجنة ، ودخول الدنيا ، وعداوة الشيطان ، والابتلاء بالشهوات . ثم قال :

« فَنِ اتَّبِعْ هُدَايَ . . . » وَرَكَعَ هَوَا ، وَلَمْ يَعْمَلْ بِوَسوسةِ الشَّيْطَانِ فَلَهُ كُلُّ خَيْرٍ ، وَلَا يُلْحَقُهُ شَرٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ

مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾

الكانفر إذا أعرض عن ذكره بالكليّة فله للمعيشة الضنك في الدنيا ، وفي القبر ،

(١) تنيد هذه العبارة في بيان أهمية الاستغفاء الإلهي ، وأن العمل الإنساني له الفرجة الثانية في الأهمية . ثم تنيد في بيان الفرق في الاصطلاح بين (الاستغفاء) و (الاجتباء) .

وفي النار ، وبالقلب من حيث وحشة الكفر ، وبالوقت من حيث انطلاق الأمور .
 ويقال مَنْ أَعْرَضَ عن الانخراط في قصايا الوفاق آتت عليه فنونُ الخذلان ،
 ومنْ أَعْرَضَ عن استدامة ذكره — سبحانه — بالقلب توالى عليه من تفرقة القلب
 ما يسلب عنه كلَّ رَوْحٍ .

ومنْ أَعْرَضَ عن الاستئناس بذكره افتتحت عليه وساوسُ الشيطان وهواجسُ النفس
 بما يوجب له وحشة الضمير ، وانسدَّ أبواب الراحة والبسط .
 ويقال مَنْ أَعْرَضَ عن ذِكْرِ اللَّهِ في الخلوة قَبِضَ اللَّهُ له في الظاهر من الترينِ السوء
 ما توجبُ رؤيته له قَبْضَ القلوبِ واستيلاء الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَحْسُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ * قال
 ربِّ لِمَ حَسَرْتَنِي أَعْمَى وقد كنتُ
 بصيراً * قال كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا
 فَنَسِيتَهَا وَكَنتَ الْيَوْمَ نَاسِيًا ﴿

في التغير : « مَنْ كَانَ بِحَالِهِ لِقَى اللَّهَ بِهَا » فَمَنْ كَانَ في الدنيا أَعْمَى القلبِ يُحْسَرُ
 على حالته ، وَمَنْ يَعِشْ عَلَى جَهْلٍ يُحْسَرُ عَلَى جَهْلٍ ، ولذا يقولون : « مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْفَدْنَا ۚ » (١)
 إلى أَنْ تَصِيرَ مَعَارِفُهُمْ ضَرُورِيَّةً .

وكَمَا يَتَرَكُونَ — الْيَوْمَ — التَّنْبِيْهُ فِي آيَاتِهِ يُتَرَكُونَ غَدًا فِي الْعَقُوبَةِ مِنْ غَيْرِ رَحْمَةٍ
 عَلَى ضَعْفِ حَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ
 بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
 وَأُنْجَى ﴾

جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يُجَازِيَ كُلَّ مَا يَلِيقُ بِحَالِهِ ، فَا أَسْلَفَهُ لِنَفْسِهِ سَلَقَ غَبَّهُ ، عَلَى انْتِفَاعٍ
 خَيْرًا ، وَعَلَى الشَّرِّ شَرًّا .

(١) آية ٥٢ سورة يس .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ
يَعْمَشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

أى أفلا ينظرون فيفتكرون^(١) ؟ ثم إذا استبصروا أفلا يتنبهون ؟ وإذا اعتبروا
أفلا يزجرون ؟ أم على وجوههم — فى مبادين عقلايهم يركضون ، وعن سوء معاملتهم
لا يرجعون ؟ ألا ساء ما يعملون !

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ

رِزْقًا مَّا وَاجِلٌ مِّنِّي ﴾

لولا أن كلمة الله سبقت بتأخير العقوبة عن هذه الأمة ، وأنه لا يستأصلهم لأن جماعة
من الأولياء فى أصلهم لمعجل عقوبتهم ، ولكن : كما ذكر من الأحوال أمهاتهم مدة
معلومة ، ولكنه لم يهملهم أصلاً .

وإذا كانت الكلمة بالسعادة لقوم والشقاوة لقوم قد سبقت ، والعلم بالمحفوظ بجميع
ما هو كائن قد جرى — فالسئ والجهد ، والانكسار والجهد .. متى تنفع ؟ لكنه
من القصة أيضاً ما ظهر .

قوله جل ذكره : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

غُرُوبِهَا ، وَمِنْ آثَانِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ

وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾

سماع الأذى يوجب للشقة ، فأزال عنه ما كان لحقه من اللشقة عند سماع ما كانوا
يقولون ، وأمره : إِنْ كَانَ سَمَاعٌ مَا يَقُولُونَ يُرْحُكُ فَنَسِيحُنَا — الذى نننى به
علينا — يروحك .

« قبل طلوع الشمس » : أى فى صدر النهار ؛ ليبارك لك فى نهارك ، ويتم صباحك .
« وقبل غروبها » أى عند نقصان النهار ؛ لطيب ليلك ، ويتم روائحك .

(١) (الفاء) هنا حرف عطف لا (فاء) سبب ، ولو اعتبرناها سببية نقول (فيتفكرون) (لوقومها
بعد أسلوب طلي ، ولكننا أثبتنا ما جاء فى النص لتكرار ذلك فيها تلامه .

« ومن اتاه الليل » أى فى ساعات الليل ؛ فإن كمال الصغوة فى ذكر الله فى حال الخلو .
« وأطراف النهار » أى استديم ذكر الله فى جميع أحوالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ
أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

فضل^(١) الرؤية فيما لا يحتاج إليه معلول كفضل الكلام ، واقتضى له عند الله منزل
وقدر فلاح على جميع أحواله غيره ؛ إذ لا يرضى منه أن يفشل شيئاً من حركاته وسكناته
وجميع حالاته فيما ليس لله - سبحانه - فيه رضاء ، وفي مناه أشدوا :

فصلى إذا استحسنْتَ غيرَكَ أَمَرْتُ الموعِظَ بتأديها

ويقال لما أذبه فى ألا ينظر إلى زينة الدنيا بكمال نظره وقَفَّ على وجه الأرض يُعزِّد
قدمه تصاوناً عنها حتى قيل له : « طه » أى طأ الأرض بقدميك . . ولم كل هذه المجاهدة
وكل هذا التبعاد حتى تقف بِفَرْدٍ قَدَمٍ ؟ طأ الأرض بقدميك .

« زهرة الحياة الدنيا . . . » الفتنة ما يُشغل به عن الحق ، ويستولى حُبُّه على القلب ،
ويُجسِّس وجوده على العصيان ، ويحصل الاستمتاع به على البطر والأشر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَرَزَقْ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

التقليل من الحلال - وفيه رضاء الرحمن - خيرٌ من الكثير من الحرام والحطام .
ومنه سُخْطُهُ . ويقال قليل يُشهِدُكَ رَبُّكَ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُنْسِيكَ رَبُّكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾

الصلاة استفتاح لباب الرزق ، وعليها أحال فى تيسير الفتح عند وقوع الحاجة إليه .
ويقال الصلاة رزق القلوب ، وفيها شفاؤها ، وإذا استأخر قُوْتُ النَّفْسِ قُوْتُ الْقُلُوبِ .
وَأْمَرَ - الرسول - عليه السلام - بأن يأمر أهله بالصلاة ، وأن يصطبر عليها .

(١) الفضل هنا معناه الزيادة (وتفضل الرؤية) زيادة التطلم إلى أكثر من المباح .

والاصطبار مزينة على الصبر ؛ وهو ألا يجِدَ صاحبه إلا لم يكن بمحولاً مَرَوَحاً .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَسْأَلْ رِزْقًا ﴾

أى لا نسئلك رزقاً أحدي ؛ فإنَّ الرزاقَ اللهُ — سبحانه — دون تأثير الخلق ، فنحن نرزقك ونرزق الجميع .

قوله جل ذكره : ﴿ نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى ﴾

هما شيان : وجود الأرزاق وشهود الرزاق ؛ فوجود الأرزاق يوجب قوة^(١) النفوس ، وشهود الرزاق يوجب قوة^(٢) القلوب .

ويقال استقلال^(٣) العامة بوجود الأرزاق ، واستقلال الخواص بشهود الرزاق .

ويقال نفي عن وقته الفرق بين أوصاف الرزق حين قال : « نحن نرزقك » ؛ فإنَّ مَنْ شَهِدَ وتحقق بقوله : « نحن » سقط عنه التمييز بين رزق ورزق .

ويقال خفف على القراء مناسبة قلة الرزق وتأخيره عن وقت إلى وقت بقوله : « نحن »^(٤)

قوله : « والعاقبة للمتقوى » : أى العاقبة بالمسعى لأهل التقوى .

ويقال المراد بالتقوى الشَّقِي ، قد سُمي الموصوف بما هو المصدر^(٥)

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَأْتِينَا بآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ

أَوْ كَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ

الأولى ﴾

تَعَيَّتْ بصائرهم وادَّعوا أنه لا برهان معه ، ولم يكن التصور في الأدلة بل كان الخلل في بصائرهم ، ولو جمع الله لهم كل آية اقترحت على رسول لم ير الله أن يؤمنوا كما

(١) ، (٢) ، (٣) وبما كنا (قوت النفوس ، وقوت القلوب) بإتناء المفتوحة ؛ فقد سبغاً هكذا منذ قليل ، وإن كان السياق لا يجمع (قوة النفوس وقوة القلوب) .

(٤) (استقلال) هنا بمعنى اكتفاء .

(٥) لأن من هاش ؛ (نحن) اكتفى بها ولم يستجمل شيئاً .

(٥) كما يقال مثلاً (رجل عدل) ونحو ذلك .

سادوا إلا طغيانا وكفرا وخسرانا ... وتلك سنة أسلافهم في تكذيب أنبيائهم ،
 قال :

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِمُنَادٍ مِنْ
 قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
 رَسُولًا فَنَقِّصَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ
 أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ۚ ﴾ .

إن أرسلنا إليهم الرسل قبلهم بفنون من الجحد ، ووجود من الملل ، مرة يقولون
 يا رب هذا الرسول بشر ؟ هل أرسله ملكاً ؟ ولو أرسلنا ملكاً لقالوا هل أرسل إلينا
 لنا بشر ؟ ولو أظهر عليهم آية لقالوا : هذا سحر مفعول ! ولو أخلصناهم من رسول
 ربهم لكانهم بما استوجبه من نكير لقالوا :

﴿ هَلَا بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولًا حَتَّىٰ كُنَّا نُوْمِنُ ؟ فَلَيْسَتْ تَنْقُطُ أَعْلَانُهُمْ ، وَلَا تَنْفَكُ —
 إِلَّا بِرُضَىٰ — أَحْوَالِهِمْ . وَكَذَلِكَ سَبِيلُ مَنْ لَا يَمْنَحُ إِلَى الْوَصَالِ وَلَا يَرْغَبُ فِي الْوَدَادِ ،
 نَحْنُ عَنْهُ أَشَدُّوا :

وكذا المول إذا أراد قطيعةً مَلَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ مَتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا
 قَسَتْطُونَ مِنَ الْأَصْحَابِ الْأَصْحَابُ
 السَّيِّئُ وَمَنْ أَهْدَىٰ ۚ ﴾ .

الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بوثقة ، ينتظرون ماسيبدو في اللسانف ،
 إلا أن أبواب التفرقة ينتظرون ماسيبدو مما يقتضيه حكم الأفلاك ، وما الذي توجه
 للباحث والتجزم . والمسلمون ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في رَوْح التوحيد ، والباقيون
 في دَلَالَتِ الشُّرْكِ .

السورة التي يذكر فيها الأنبياء

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ﴾

بسم الله اسم عزيز من توسل إليه بطاعته تفضل عليه بجميل نعمته ؛ إن أطاع فضله ، وإن أضاع أمهله ، ثم إن آب وأقر . . ذكره ، وإن عصى وطب سقره ، فإن تنصل رحمه ، وإن تكبر قصمه ^(١) .

اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه ، وما استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه ؛ بتوفيقه وصل المابدون إلى مجاهدتهم ، وبتحقيقه وجد المارقون كمال مشاهدتهم ، وبإمام مجاهدتهم وجدوا أجل متوهمهم ، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربهم .

قوله جل ذكره : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ ﴾

في غفلة معرضون ۝

فالعلميون منهم عظم لدينائهم ، والمعاصون منهم حق من عقابهم .

« في غفلة » يقال الغفلة على قسرين : غافل عن حساب باستغراقه في دنياه وهواه ، وغافل عن حساب استهلاكه في مولاه ؛ فالغفلة الأولى سمّة الهجر والغفلة الثانية صفة الوصل ؛ فالأولون لا يستفيقون من غفلتهم إلا من سكرة اللوث ، وهؤلاء لا يرجعون عن غيبهم أبد الأبد لغنائهم في وجود الحق تعالى ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ۝ ﴾

إلا استمعوه وهم يلعبون ۝

(١) يمكن القول أن هناك نوعاً من الترابط والانجذاب بين إشارات البسملة — على هذا النحو — وبين جزئيات السورة ، حيث انتمس الناس إزاء الأنبياء إلى مصدق ومكذب ، ومؤمن وجاهد . . ونال كل جزاءه .

(٢) تهنأ هذه الإشارة عند دراسة المصطلح الصوفي ؛ فالغفلة نوعان : مذمومة وعمودة ؛ غفلة ناشئة عن الهجر وغفلة ناشئة عن الوصل .

لم يجدد إليهم رسولا إلا ازدادوا نفورا ، ولم يُنزَلْ عليهم خطاباً إلا ردُّوه جحداً
وكفدياً ، وما زدناهم فضلاً إلا عدَّوه هزلاً ، وما جددنا لهم نعمة إلا فلولوا ما استوجبوا
قمة ، فسكن الذي أكرمناهم به غنةً بها بلونام . . وهذه صفة من أساء مع الله خلقه ،
وخسر عند الله حقّه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ وَأَسْرَوْا النَّجْوَى

الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُم

أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

محيّت بصائرهم وغاشت أفهامهم ، فهم في غياوة لا يستبصرون ، وفي أكنة عما أقيم لهم
من البرهان فهم لا يملكون .

قوله : « وأسروا النجوى . . . » لَمَّا عجزوا عن معارضة ، وسقطوا عند التحدى ،
وظهرت عليهم حججته رجحوا فيه النكر ، وقسموا فيه الظن ، فرة نسبوه إلى السحر ، ومرة
وصفوه بقول الشر ، ومرة رمّوه بالجنون وفنون من العيوب . وقبل ذلك كانوا يقولون عنه :
هو محمد الأمين ، كما قيل :

أشاعوا لنا في الحى أشنع قصبة وكانوا لنا سلفاً فصاروا لنا حرباً

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

الأطويل التي يسماها الحق — سبحانه — مختلفة ؛ فمن خطاب بعضهم مع بعض ، ومن
بعضهم مع الحق . والذين يخاطبون الحق : فمن سائل يسأل الدنيا ، ومن داع يطلب كرائم
المتعني ، ومن منن يفي على الله لا يقصد شيئاً من الدنيا والعتي .

ويقال يسمع أنين المذنبين سراً عن اتخلق حذراً أن يقتضحوا ، ويسمع مناجاة
العابدين بنعت التسبيح إذا تهجدوا ، ويسمع شكوى المحبين إذا مسّتهم البرحاء^(١) فضجوا
من شدة الاشتياق .

(١) البرحاء : الشدة .

ويقال يسمع خطاب من ينجيه سراً بسر ، وكذلك نسيح من يمدحه وينثي عليه
بلسان سيرة .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَعْيُنُنَا أَوْ نَسُوا بَلًا أَفْرَءَا
بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ
الْأَوَّلُونَ ﴾

نَوْهُوا ما نسبوا إليه — بعدما نزلنا إليه الأمر — من حيث كانوا ، ولم يشاهدوا
همته على الوصف الذي كانوا يصفونه به من صدق في الحال والمقال ، وكما قيل :
دمتي بدايتها وانسلت .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا آتَيْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قُرْآنٍ أَهْلَكَنَاهُمْ
أَقْبَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

أخبر أن الله تعالى أجرى سنته أن يعذب من كان للعلوم من شأنه أنه لا يؤمن
لا في الحال ولا في الآل . وإن هؤلاء الذين كفروا في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم آمنوا
في الكفران ، وقد حكم الحق لهم بالحرمان والخذلان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي
إِلَيْهِمْ فَاَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

لما قالوا لولا أنزل علينا لللائكة أخبر أنه لم يرسل إلى الناس رسولا فبا سبق من
الآزمان الماضية والقرون الخالية إلا بشراً ، وذكر أن الخصوصية لهم كانت بإرسال
الله إليهم .

ثم قال : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » : الخطاب للسكل وللرادنه الأمة ،
وأهل الذكر العلماء من أكابر هذه الأمة والذين آمنوا بنبينا محمد — صلى الله عليه وسلم .
ويقال هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين في محل الإعلام من الحق — سبحانه — أو من
يُحْسِنُ الْإِنْفَاهُ عن الحق .

ويقال العالم يرجع إلى الله في المعاملات والعبادات ، وإذا اشتكلت الواقعة فيخبر من اجتهاده ، وشرطه ألا يكون مقلداً ، ويكون من أهل الاجتهاد ، فإذا لم يخالف النص وأدى اجتهاده إلى شيء ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه ، وأما الحكم فإذا تكلم في المعاملة فإتباعاً يقبل منه إذا سبقت منه المنازلة لما يُقَيُّ به فإن لم تتقدم له من قبله المنازلة فتواه في هذا الطريق كفتوى للفتوى في مسائل الشرع .

فأما العارف فيجب أن يحكم في هذا الطريق عن وجدّه — إن كان — وإلا فلا تُقبل فتواه ولا تُسمع ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون

الطعام وما كانوا خالدين ﴾

لما عَيَّرُوا الرسولَ — عليه السلام — بقولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ؟ . أخبر أن أكل الطعام ليس بقادر في المعنى الذي يختص به الأكبر ، فلا منافاة بين أكل الطعام وما تكتسبه القلوب والسرائر من وجوه التعريف .

ويقال النفوس لا خبر لها بما به القلوب ، والقلب لا خبر له بما تتحقق به الروح وما فوق الروح وألطف منه وهو السر .

قوله : « وما كانوا خالدين » : أى لاهم على ممرٍ ومعتبرٍ ، ولا سبيل اليوم لخلقٍ إلى الخلد .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم صدقناهم الوعدَ فآتيناهم ومن

نشا وأهلكنا السُّرَّيين ﴾

الحق — سبحانه — يُحقِّق وعده وإن تباطأ بتحقيقه الوقت فيما أخبر أنه يكون . والوجود من نصرة الله لأهل الحق إنما هو بإعلاء كلمة الدين ، وإلزام من تابّد الحق من الجاحدين ، وتحقيق ذلك بالبيان والحجة ، وإيضاح وجه الدلالة ، وبيان خطأ أهل الشبهة .

(١) ثم هذه الإشارة إلى تسمية الشيوخ إذا استفهام الردون ، كأنهم في توضيح ما يمكن أن نسيه « أصول الفتوى عند الصوفية » .

قوله جل ذكره : ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرٌ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

يريد بالكتاب القرآن ، وقوله : « فيه ذِكْرٌ » : أى شرفُكم وعِلمُكم ، فمن استنبه
بما فيه من النور سَعِدَ في دُنياه وآخره .

قوله جل ذكره . ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَوْمٍ كَانَتْ ظُلُمُهُمْ
وَأَنشَأْنَا بَعْدَهُم قَوْماً آخَرِينَ﴾ .

إِنَّ اللَّهَ يُبْهِلُ الظَّالِمَ حِينًا لَكِنَّا لَا نَحْنُ بِمُخَوِّفِينَ . وقد حَكَّمَ اللَّهُ بِخَوَابِ
مَسَاكِينِ الظَّالِمِينَ ، وقد جَاءَ الظَّالِمُ بِنَتَائِجِ الْجَنَّةِ لَسَلَطَ عَلَيْهِ الظُّرَابُ ، فَإِذَا ذَاكَ
الْعَبْدُ نَفَسَ حَرَمَ اللَّهِ أَنْ يَقْطِعَهَا التَّوْفِيقُ وَجَعَلَهَا مَوْطِنَ الْخِذْلَانِ ، فَإِذَا ظَلَمَ قَلْبُهُ الْغَفْلَةَ سَلَّ
عَلَيْهِ الظُّرَابُ الرَّدِيَّةَ الَّتِي هِيَ وَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ وَدَوَاعِي الْفُجُورِ . وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ فِي الْقَدْرِ
وَالْكَفَرَةِ ؛ إِنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرِبَتْ زَالَتْهَا الْحَقَائِقُ وَالْمَهَابُ ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا الْعَلَاقُ
وَالْمَسَاكِنَاتُ .

قوله جل ذكره : ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا
بَرَكُفُوسٌ﴾ .

لَمَّا ذَاقُوا وَبَالَ أَعْمَالِهِمْ اضْطَرُّوا فِي أَحْوَالِهِمْ فَلَمْ يَنْفَعِهِمْ نَدَمُهُمْ ، وَلَمْ تَنْدُ إِلَى عَالَمًا أَقْدَامُهُمْ .
وبعد ظهور الخيالة لا تُقْبَلُ الْأَمَانَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ
فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ يُسْأَلُونَ﴾ .

وَالْخِيَالِيَّةُ سَرَابٌ^(١) ، فَإِذَا حَصَلَتِ الْخِيَالَةُ لَمْ تَقِفِ السَّرَابُ ، وَإِذَا غَرَقَتِ السَّفِينَةُ فَلَيْسَ
بِإِذَا لَمَّا حَرَّ إِلَّا إِظْهَارُ الْأَسْفِ ، وَهَبَّهَا أَنْ يُجَدِّي ذَلِكَ !

قوله جل ذكره : ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ .

(١) مَرَى الْجَرَحِ أَوْ السَّوْدِ سَرَابِيَّةٌ . أَيْ دَامَ الْأَلَمُ مِنْهَا حَتَّى حُدِثَ الْمَوْتُ . وَيُقَالُ مَرَى التَّحَرُّمِ وَبَرَى
الْمَتَى أَيْ نَدَى إِلَى غَيْرِ الْحَرَمِ أَوْ الْمَتَى (الرَّوْضُ الْمُبِينُ) .

للإقرار زمان ؛ فإذا فات وقتُه فكافى المثل : يسبق الفريص الحريرى . ووُضِعَ
القوس بعد إرسال السهم لا قيمة له .

قوله جل ذكره : ﴿فَازَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ
حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾

إِنَّ مِنَ الْبَلَاءِ أَنْ يَشْكُرَ لِلرَّهْ . فَلَا يُسَمَّ ، وَيَبْكِي فَلَا يَنْفَعُ ، وَيَدْنُو فَيَقْصَى ، وَيَمْرُضُ
فَلَا يُعَادُ ، وَيَعْتَرِ وَلَا يُقْبَلُ . . وَغَايَةُ الْبَلَاءِ التَّكَلُّفُ .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
لَاعِبِينَ﴾

الْعَبُّ نَتُّ مِنْ زَالٍ عَنْ حَدِّ الصَّوَابِ ، وَاسْتَجْلِبَ بِفَعْلِهِ الْإِلْتِذَاذُ ، وَانْجَرَّ فِي خَبْلِ
السَّفَرِ . وَحَقُّ الْحَقِّ مُتَقَدِّسٌ عَنْ هَذِهِ الْجَمَلَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُنَاهُ
مِنَّا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

يَخَاطَبُهُمْ عَلَى حَسَبِ أَهْلَانِهِمْ ؛ وَإِلَّا . . فَالْتَّي لَا يَعْتَرِهِ سَهْوٌ لَا يَسْتَفِزُّهُ لَهْوٌ ، وَالْحَقُّ
لَا يَعْتَرِهِ وَلَا يَضَاهِيهِ كُفْرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿بَلْ تَقْتَرِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ﴾

نُدْخِلُ نَهَارَ التَّحْقِيقِ عَلَى لَيَالِ الْأَوْهَامِ فَيَنْقَشُ سَحَابُ النِّيَّةِ ، وَيَنْجَلِي ضَبَابُ الْأَوْهَامِ ،
وَتَنْتَبِهُ شَمْسُ الْيَقِينِ ، وَتَصْهَرُ سَمَاءُ الْخُلَاقِ عَنْ كُلِّ غُبَارِ التُّهْمِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَهُ مِنْ فِي السَّنَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ
عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَلَا يَسْتَحْزِرُونَ﴾

الحادثات له سبحانه ملكاً والكائنات له حكماً ، وتعالى الله عن أن يتجمل برفاقه
أو ينقص بخلاف ، وبالتقدير ظهور الجميع ، وعلى حسب الاختيار ^(١) تنصرف الكلمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾
للطبع المختار يسبحه بالقول الصدق ، والكل من المخلوقات تسببحها بدلالة الخلق ،
وبرهان البينة ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا آلهة ثرى الأرض
هم يُنشدون ﴾

تقرء الحق بالإبداع والإيجاد ، وتقضى عن الأمثال والأنداد ، فالذين يُعبدون من دونه
أموات غير أحياء . وهم ^(٣) بالضرورة يعرفون . . أفلا يعترفون وألا يردجرون ؟
قوله جل ذكره : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا
فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾

أخبر أن كل أمر يُنظم بجماعة لا يجرى على النظام ، إذ ينشأ بينهم النزاع والخلاف .
ولما كانت أمور العالم في الترتيب منسقة فقد دل ذلك على أنها حاصل بتقدير مدبر حكيم ؛
فالسما في علوها تدور على النظام أفلاكها ، وليس لها محمد لإسكانها ، والأرض مستقرة
بأقطارها على ترتيب تماثيلها ونهارها . والشمس والقمر والنجوم السائرة تدور في فروج ،
ورقعة السماء تتسع من غير فروج . . ذلك لتقدير العزيز العليم علامة ، وعلى وحدانيته دلالة .
قوله جل ذكره : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾

لكون الخلق له ، وهم يسألون لزوم حقه عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا
برهانكم ، هذا ذكر من عيسى

(١) الاختيار هنا مقصود به الاختيار الإلهي .

(٢) عبر التثنية عن هذا المعنى موضع سابق حين ذكر أن كل الكائنات شاهدة على وحدانيته ؛
لناطق منها توحيد القاعة ، ولغير الناطق توحيد الدلالة .

(٣) الضير (م) يسود على من يبدون من دون الله آلهة .

وَذَكَرُ مِنْ قَبْلِي بِلْ أَكْثَرِمْ
لَا يَطْلُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾

دلّت الآيةُ على فساد القولِ بالتقليد ، ووجوب إقامة الحجة والدليل .

ودلّت الآية على توحيد المعبود ، ودلّت الآية على إثبات الكسب للعبيد ، إذ هؤلاء لم يوجه عليهم اللوم والعتب ^(١) . وكلُّ مَنْ عَلَّقَ قلبه بمخلوق ، أو توهم من غير الله حصول شيء فقد دَخَلَ في غمار هؤلاء لأنَّ الإلهَ مَنْ يصحُّ منه الإيجاد .

قوله : « هذا ذكر من مَعَى وذكر من قَبْلِي » : الإشارة منه أن الدِّينَ توحيدُ الحقِّ ، وإفرادُ الربِّ على وصف التفرّد ونست الوجدانية .

ثم قال : « بِلْ أَكْثَرِمْ لَا يَطْلُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » إنما عَدِمُوا الْعِلْمَ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّظَرِ ، ولو وضعوا النظرَ موضعه لَوَجَّبَ لَهُمُ الْعِلْمَ لَا مَحَالَةَ ، والأمرُ يَدُلُّ على وجوب النظر ، وأنَّ العلومَ الدينيةَ كُلَّهَا كِسْفِيَّةٌ ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

التوحيدُ في كلِّ شريعةٍ واحدٌ ، والتعبيدُ - على من أُرْسِلَ إِلَيْهِ الرُّسُولُ - واجبٌ ، ولكنَّ الأفعالَ النَّاسِخَ والتَّبدِيلَ مُعَرَّضَةٌ ، أما التوحيدُ وطريقُ الوصولِ إِلَيْهِ فلا يَجُوزُ في ذلك النَّسخُ والتَّبدِيلُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

في الآية رخصةٌ في ذِكْرِ أَقَابِيلِ أَهْلِ الضَّلَالِ والبِدْعِ على وجه الردِّ عليهم ، وكشفِ

(١) هنا رأى على جانب خطير من الأهمية في علم الكلام ، وصدوره من باحث سوى برف أن المريد على الحقيقة - من لا إرادة له يزيد في أهمية الأمر .
(٢) في هذا رد على من يتهمون الصوفية بإنكارهم العلم .

عوداتهم ، والتنبيه على مواضع خطاياهم ، وأنه إنْ وسَّوسَ الشيطانُ إلى أحدٍ بشئٍ منه كان في ذلك حجةً للانفصال عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهٖ يَسْمَعُونَ ﴾

أخبر أن الملائكة معصومون عن مخالفة أمره — سبحانه ، وأنهم لا يقصرون في واجب عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ تَمِنٌ خَشْيَتِهِ مُشْقِقُونَ ﴾

علِّمهُ الْقَدِيمُ — سبحانه — لا يختص بمعلوم دون معلوم ، وإنما هو شامل لجميع المعلومات ، فلا يعزب عن علم الله معلوم .

قوله : « لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ » دلُّ على أنهم يشفعون لقوم ، وأنَّ الله يتنزل شفاعتهم (١) .

قوله : « وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْقِقُونَ » : ليس لهم ذنب ثم هم خائفون ؛ ففي الآية دليل على أنه سبحانه يعذبهم وأن ذلك جائز ، فإذا لم يجوز أن يعذب البريء لساكتوا لا يخافونه لهمهم أنهم لم يرتكبوا ذنبا (٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَنُكْشِفَنَّ عَنْهُ جَهَنَّمَ ۚ كَذٰبٌ كَذٰبٌ ۚ الْظَّالِمِينَ ﴾

أخبر أنهم معرضون عن الزلة بكلِّ وجهٍ . ثم قال : « وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ »

(١) أي أن التشيخي يؤمن بالشفاعة — على عكس معنى فرق المتكلمين الذين يشكرونها .
(٢) هنا رأى آخر له أهميته من الوجهة الكلامية ، حيث يرى المترلة — وقد سوا أنفسهم أهل العدل — أن الله لا يعذب البريء .

وقد علم أنهم لا يقولون ذلك ، ولكن علم لو كان ذلك كيف كان يكون حكمه ، فالحق — سبحانه — يعلم ما لا يكون كيف كان يكون .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَن السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

دَاخَلْنَاهُمُ الشَّجَبَةَ فِي إِعَادَةِ الْمَخْلُوقِ وَالْقِيَامَةِ وَالنَّشْرِ ، فَأَقَامَ اللَّهُ الْحِجَةَ عَلَيْهِمْ بِأَن قَالَ :
أَلْبَسُوا قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؛ سَمَكَ السَّمَاءَ وَبَسَطَ الْأَرْضَ . فَإِذَا قَدَر
عَلَى ذَلِكَ فَكَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِعَادَةِ بَعْدَ الْإِبَادَةِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا
أَفَلَا يَوْمِنُونَ ﴾

كُلُّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ حَتَّى قَمِينَ الْمَاءِ خَلَقَهُ ، فَإِنَّ أَوَّلَ الْحَيَوَانِ الَّذِي حَصَلَ بِالتَّنَاسُلِ النُّطْفَةُ ،
وَهِيَ مِنْ جِلَّةِ الْمَاءِ .

وَحَيَاةُ النَّفْسِ بِمَاءِ السَّمَاءِ مِنْ حَيْثُ الْغَذَاءُ ، وَحَيَاةُ الْقُلُوبِ بِمَاءِ الرَّحْمَةِ ، وَحَيَاةُ الْأَسْرَارِ
بِمَاءِ التَّعْظِيمِ . وَأَقْوَامُ حَيَاتِهِمْ بِمَاءِ الْحَيَاةِ . . . وَعَزِزُّهُمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ
تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

الْأَوَّلِيَاءُ فِي الرُّوَاسِي فِي الْأَرْضِ وَبِهِمْ ^(١) يَرْزُقُونَ ، وَبِهِمْ يُدْفَعُ عَنْهُمْ الْبَلَاءُ ، وَبِهِمْ يُوفَى
عَلَيْهِمُ الْمَطْلُوبُ . وَكَأَنَّهُ لَوْلَا الْجِبَالُ الرُّوَاسِي لَمْ تَكُنْ لِلْأَرْضِ أَوْتَادُ . . . فَكَذَلِكَ الشَّيْخُ
الْقَدِيرُ مِمَّنْ أَوْتَادُ الْأَرْضِ (قَوْلَاهُمْ) لَنَزَلَتْ بِهِمُ الشَّدَةُ .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّلْهِمْ ﴾

يَهْتَدُونَ

كَأَنَّ فِي الْأَرْضِ سُبُلًا يَسْلُكُونَهَا لِيَصِلُوا إِلَى مَقَاصِدِهِمْ كَذَلِكَ جَبَلُ السُّبُلِ إِلَيْهِ

(١) الضمير في (بهم) يعود على الملق ، ولم يكن التفسير بحاجة إلى ذكر (الملق) هنا لكثرة
ما أعاد في هذا الموضوع من قبل ..

مسلوكه بما بين على ألسنتهم من هداية للريدين ، وقيادة السالكين ، كما يسر بهدايم الاقتداء بهم في سيرهم إلى الله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ .

في ظاهر الكون السماء منيرة ، والأرض مسكونة . كذلك للنفوس أراض هي مساكن الطاعات ، وفي سماء القلوب نجوم العقل وأفار العلم وشمس التوحيد والرفان . وكما جُمِلَت النجوم رجوماً للشياطين جُمِلَ من المعارف رجوماً للشياطين . وكما أن الناس عن آياتها معرضون لا يتفكرون فالعوام عن آيات القلوب مما فيها من الأنوار غافلون ، لا يكاد يعرفها إلا الخواص

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

كما أن الحق - سبحانه - في الظاهر يكوّر الليل على النهار ، ويكوّر النهار على الليل فكذلك يُدْخِلُ في نهار البسط ليل القبض . والبسط في الزيادة والنقصان . فكما أن الشمس أبداً في برجها لا تزيد ولا تنقص ، والقمر مرة في الحاق ، ومرة في الإشراف . . . فصاحب التوحيد بنعت التمكن - يرتقي عن حد تأمل البرهان إلى روح البيان ، ثم هو منحقق بما هو كالمليان . وصاحب العلم مرة يرُدُّ إلى تجديد نظره وتذكّره ، ومرة يشاه غير في حال غفلته فهو صاحب تلوين^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَأَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ .

إنك في هذه الدنيا طائر سيملي ، لكننا لم نتركك فرداً في الدنيا ، ولذلك قال عليه السلام لصاحبه في القبر : ما ظنك بأثنين الله ثالثهما ١٢ .

(١) فاعل التمكين كالشمس في ثباتها ، وأهل التلوين كالقمر في تدرجه وتغير أحواله .

قوله جل ذكره : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْغَيْرِ فِتْنَةً﴾ .

الموتُ به آفةُ قومٍ ، وفيه راحة قوم ؛ لقومٍ انتهاء مدة الاشتياق ، ولآخرين افتتاح باب الفراق ، لقوم وقوع فتنهم ولآخرين خلاصٌ من محنتهم ، لقوم بلاد وقيامة ولآخرين شفاء وسلامة .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِذْ أَرْأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخْفَوْكَ مِنَ الْآخِرِينَ أَنَا الَّذِي يُدْكِرُ الْغَكْرَ﴾^(١) وهم يذكرون كافرين .

لو شهدوا بما هو به من أوصاف التخصيص وما رآه إليه من المنزلة لغلوا له خاضعين ، ولكنهم حُبِبُوا عن معانيه وسريته ، وعابنوا منه جسده وصورته .

قوله جل ذكره : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ سَأَرَيْكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْمَعُونَ﴾ .

الْعَلَقَةُ مذمومةٌ وَالسَّارَعَةُ محمودةٌ ؛ فالسَّارَعَةُ الَّيْدَارُ إِلَى الشَّيْءِ فِي أَوَّلِ وَقْتِهِ ، وَالْمَبْطَأَةُ استقباله قبل وقته ، وَالْمَبْطَأَةُ نتيجةٌ وسوسة الشيطان ، وللسَّارَعَةُ قضية التوفيق .

قوله جل ذكره : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

اعتادوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيها وعدوم ، فاستمحلوا حصول ما توعدوهم به . ولو علموا ما ينالهم لكان السكون منهم ، فالْفَرْعُ يُدْلُّ عَلَى اسْتِجْلَالِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وَجْهِهِمْ النَّارَ...﴾ .

... لأمسكوا اليوم عن الانغراط في عذاب^(١) الظنون ، والافتتار بمواعيد الشيطان .

(١) مَبْطَأَتُهَا (عذاب) بكسر الباء لتكون جمع (عذب) فقد حرم ما عبأت لهم الظنون فاستمذبوها .

وزيادةً في العقوبة . والحقُّ كما يعاقبُ بالآلام والأحوال يعاقبُ بالإملاء والإمهال .

وقال : أفلا يرون أنا تأتي الأرض . . . « تنوالى التسوة حتى لا يبقى أثرٌ للصوفة ؛ فيتعاقبُ الخلدانُ حتى يتواتر العصيان ، ويتأذى ذلك إلى الحرمان الذي فيه ذهاب الإيمان .
ويقال تنقص بنهاب الأكاير ويبقى الأراذل ويتمرض الأفضل . وفي هذا أيضاً إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين وتطاول العمر ، فإن آخر الأمر كما قيل : (١)

آخرُ الأمر ما تَرَى القبرُ والحدُّ والثرى

وكما قيل :

طوى المصمران (٢) ما تشرّاه منى وأبلى جدى نشرٌ وطى
أراني كلَّ يومٍ في افتقاصٍ ولا يبق — مع النقصان — شئٌ

قوله جل ذكره : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصمُّ الدعاء إذا ما ينذرون ﴾

أى بأمر الله أعلمكم بموضع المخافة ، ويوحى إلى في بابكم أن أخوفكم بألم عقابه ، ولكن الذى عديم تنفع التوفيق . . . أنى ينفعه تكرار الأمر بالقبول عليه ١٢

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن مسّتهم ففجّةٌ من عذابٍ ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾

أى إنهم لا يصبرون على أقلّ شئ من العقوبة ؛ وإن الحق إذا شاء أن يؤلم أحداً فلا يحتاج إلى مددٍ وعون .

قوله جل ذكره : ﴿ ونضعُ الموازينَ القسطَ ليومِ القيامةِ . . . ﴾

(١) هنا نهاية الجزء الذى أخطأ الناسخ في نقله من أواخر « طه » وأوائل « الأنبياء » إلى مكان آخر من « الفرقان » .
(٢) المصمران : التداة والمعى ، أو الليل والنهار .

فَلَا تُظَلِّمْ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا
وَكُنَّا بِنَاء حَاسِبِينَ ﴿١﴾

توزن الأعمال بميزان الإخلاص فما ليس فيه إخلاص لا يُقْبَل ، وتوزن الأحوال بميزان
الصدق فما يكون فيه الإعجاب لا يُقْبَل ، وتوزن الأنفس بميزان (...) (١) فما فيه حظوظ
ومساكنات لا يُقْبَل .

ويقال ينصفُ المظلومُ من الظالم ، وينتقمُ الضعيفُ من القوى .

ويقال ما كان لغير الله لا يصلحُ لقبول .

ويقال يكافئُ كلاً بما يليقُ بعمله فَمَنْ لم يرحم عباده في دنياه لا يرحمه الله ، ومن لم يحسن
إلى عباده تقاصر عنه إحسانه ، وَمَنْ ظلم غيره كُفِيَ بما يليقُ بسوء فعله .

قوله : « فَلَا تُظَلِّمْ نَفْسٌ شَيْئًا » : أى يُجَازِي المظلومين وينتقم من الظالمين ، وَيُنْصِفُ
المظلومَ من مثقالِ القدرة ومقياسِ الحجة ، وَإِنْ عَمِلَ خَيْرًا بِذَلِكَ المقدار فسيلقى جزاءه ،
ويجيد عوضه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾

وضيه وذكر آ التفتين ﴿ ﴾

مَا آتَاهُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنَ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ ، وَالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ يَشَارِكُهُمُ
الْمُسْتَجِيبُونَ مِنْ أَتَمِّهِمْ فِي الْإِسْتِصْلَاحِ بِهِ ...

فَكَذَلِكَ الْإِكْبَارُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَشَارِكُونَ نَبِيَّنَا — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فِي الْإِسْتِصْلَاحِ
بِنُورِ الْيَقِينِ .

و « الْمُنْتَفَى » هُوَ الْمُجَانِبُ لِمَا يَشْغَلُهُ وَيُصْجِبُهُ عَنْ اللَّهِ ، فَيَنْتَقِي أَسْبَابَ الْحُجَابِ وَمَوْجِبَاتِهَا .

(١) نرى أنه قد حدث سقوط لفظة في هذا المكان ، ولابد أنها بمعنى الخلو من الله والتجرد من
كل اللذات ، وربما كانت أيضاً (الحقوق) أى حقوق الله .

قوله جل ذكره : ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ
السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

صار لهم في استحقاق هذه البصائر والغشيرة بالغييب إطاراً السريرة ، وفي أوان الحضور
استثمار الجُل من جريان سوء الأدب ، والحذر من أن يبدو من الغيب من خفايا التقدير
ما يوجب حجة المبد .

والإشفاق من الساعة على ضربين : خوف قيام الساعة الموعودة للامة ، وخوف قيام
الساعة التي هي قيامة هؤلاء القوم^(١) ؛ فإنَّ ما يستأهل الكفاة في الحشر معجلٌ لم في الوقت
من تقريب ومن تباعد ، ومن تحوُّر ومن إثبات .

قوله جل ذكره : ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَتَأْتِمُرُ
لَهُ مُنْكِرُونَ﴾

وصف القرآن بأنه «مبارك» ، وهو إخبار عن دوامه^(٢) ، من قولهم : برك الطائر
على الماء أى دأَم .

وإنَّ هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وما لا ابتداء له — وهو
كلامه القديم — فلا انتهاء للكتاب الفلَّ عليه .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ
وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ﴾

أراد به ما تعرف إليه من الهداية حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأفول^(٣) ، ولا أنه
خصَّه في الابتداء بالتعرف . . . وإلا متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خلقه فولا ما أضام^(٤)
عليه من أنوار التوحيد قلما حصل منه من النظر في المخلوق ؟
ويقال هو ما كاشف به رُوحه قبل إبداعها من تحيُّل الحقيقة .

(١) أى أرباب الأحوال

(٢) وودت (بيانه) وآثرنا — طيقاً لسياق — أن نجسها (دوامه)

(٣) إشارة إلى أن إبراهيم لما رأى أفول الشمس والقمر والنجم قال : «إني لا أحب الآفلين» .

(٤) (أضام) مقبولة في السياق ولكننا لا نسجد أنها ربما كانت في الأصل (أفاء) أى (أنعم) .

قوله جل ذكره ﴿إِذْ قَالَ لَأَيُّهُ وَقَوْمُهُ مَا هَذَا النَّاطِلُ﴾

التي أتت لها عاكفون ﴿﴾

خاطب قومه وأباه (١) ببيان التنبيه طمعا في استغاثتهم من سكرة الغفلة ، ورجوعهم من ظلمة (٢) الغفلة ، وخروجهم من ضيق الشبهة .

ثم سأل الله إيمانهم بطلب الهداية لهم . فلما تبين له أنهم لا يؤمنون ، وعلى كفرهم يصرون تبرأ منهم أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ قال

لقد كنتم أنتم وأبائكم في ضلال مبين

قالوا أحسننا بالحق أم أنت من

اللاعبين ﴿﴾

ما استدروا في الجواب إلا إلى التقليد ، فكل من جوابه الحكم بالتسوية بينهم وبين آباؤهم في الضلال ، والحجة للتوجه على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم ، فلم يرضوا منه بتخطئة آباؤهم حتى قالوا : « أحسننا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ » فطالبوه بالبرهان إلى مادعاهم إليه من الإيمان فقال :

﴿قَالَ بَلْؤُكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

الذي قَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنِّ

الشاهدين ﴿﴾

فأحلكم على النظر والاستدلال والتعرف (٣) من حيث أحلة القول (٤) لأن إثبات الصانع

(١) وودت (وأتاه) والصواب أن تكون (أبه) كآل الآية .

(٢) وودت لي (غلة) ولي م (ظل) والصواب أن تكون (غلة) فالتشديد يستعمل الظل لعناية وما في منها .

(٣) لي م (والتعرف) ولي م (التعرف) ونحن نرجح هذه .

(٤) لي م (القول) ونحن نرجح (القول) لتلاؤمها مع السياق .

لَا يُعْرَفُ بِالْمُعْجَزَاتِ ، وَإِنَّمَا لِلْمُعْجَزَاتِ عِلْمٌ بِصَاحِقِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَذَلِكَ فِرْعَ
لِعَرَفَةِ الصَّانِعِ .

ثُمَّ بَيَّنَّ لَمْ أَنَّ مَا عِبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ ، ثُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَحْتَمِلْ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ
الْبَلَاءِ قُوَّةً مِنْهُ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ اللَّتَفَرُّدُ بِالْإِبْدَاعِ ، فَلَا أَحَدَ يَمْلِكُ لَهُ (١) ضَرًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَتَسَاءَلُوا
فِيهِ بَيْنَهُمْ وَقَالُوا :

﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ
الظَّالِمِينَ ۖ قَالُوا مِمَّنْ خَلَقْنَا قَوْمِي يَدُ كَرَمٍ
يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۖ ﴾

أَيُّ يَذْكُرُهُمُ بِالسُّوءِ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ فَضْلِهِ . . فَسَأَلُوهُ ، فَسَأَلُوهُ (٢) فَقَالَ : بَلْ
فَعَلَهُ كِبَرُهُمْ .

فَقَالُوا كَيْفَ نَدْرَكَ الْقَذْبَ عَلَيْهِ ؟ وَكَيْفَ نَحْمِلُنَا فِي السُّؤَالِ عَلَيْهِ — وَهُوَ جَاد ؟

فَقَالَ : وَكَيْفَ تَسْتَجِيزُونَ عِبَادَةَ مَا هُوَ جَادٌّ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ السُّوءَ ؟

قَوْلُهُ جَلْ ذِكْرُهُ : ﴿ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ
مَا هَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَ ۖ ﴾

فَقَالَ : شَرُّ وَأَمْرٌ (٣) . . كَيْفَ تَسْتَحِقُّ أَمْثَالَهُمْ هَهُنَا . . الْعِبَادَةَ ؟

فَلَمَّا تَوَجَّهَتْ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ دَاخَلَتْهُمْ الْأَفَنَةُ وَالْحِجَةُ قَالُوا : سَبِيلُنَا أَنْ
نَقْتُلَهُ شَرًّا قِتْلَةً ، وَأَنْ نَعَامِلَهُ بِمَا يَخُوفُنَا بِهِ مِنَ النَّارِ . قَالُوا : « ابْنُوا لَهُ بَنِيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ » ،
فَلَمَّا رَمَوْهُ فِي النَّارِ :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا
عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۖ ﴾

(١) التَّخْمِيرُ لَ (فَسَأَلُوهُ) يَسْأَلُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٢) أَيُّ أَنْ لِيَ السَّلَامِ كَمَا يَقُولُ الْبَلَاغِيُونَ — لِمَجَارِ حَلْفٍ .

(٣) أَيُّ هَذَا عِنْدَ أَتَمِّهِ مِنَ الْقَذْبِ .

لَوْ عَصَيْتُمْ مِنْ نَارٍ (١) تَمُوتُونَ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ رَمِيهِ فِي النَّارِ مِنَ الْمُنْجِنِينَ لَكُنْ - فِي الظَّاهِرِ -
أَقْرَبَ مِنَ النَّصْرَةِ، وَلَكِنْ حَفِظَهُ فِي النَّارِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمَسَّهُ أَكْرَمُ أَمٍّ فِي بَابِ النَّصْرَةِ
وَالْمُعِزَّةِ وَالْكَرَامَةِ .

وَيَقَالُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ : أَوَاهُ مِنَ النَّارِ !

قَالَ تَعَالَى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » (٢)

فَلَمَّا رُئِيَ فِي النَّارِ، وَجَّهَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ بِرَدِّ آ قِيلَ لَهُ : لَا تَقْلُبْ بَعْدَ هَذَا . أَوَاهُ مِنَ النَّارِ !
فَالِاسْتِزَادَةُ بِاللَّهِ مِنَ اللَّهِ . . . لَا يَزِيدُ غَيْرَهُ .

قَوْلُهُ : « وَسَلَامًا » : أَيْ وَسَلَامَةً عَلَيْهِ وَلَهُ ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ لِقَبْدِ السَّلَامَةِ النَّارُ وَالْبَرْدُ
عِنْدَهُ مِثْلَانِ .

وَيَقَالُ إِنَّ الَّذِي يَحْرَقُ فِي النَّارِ لَمْ يَنْ فِي النَّارِ يَقْدِرْ عَلَى حِفْظِهِ فِي النَّارِ .

وَلَمَّا سَلِمَ قَلْبُهُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ بِكُلِّ وَجْهِ فِي الْاسْتِصْلَاحِ (٣) وَالِاسْتِمَاتَةِ وَسَكَمٍ مِنْ طَلَبِ شَيْءٍ
بِكُلِّ وَجْهِ . . . تَعَرَّضَ لَهُ جَبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْمَوَاهِدِ وَقَدْ رَمَى مِنَ الْمُنْجِنِينَ
وَقَالَ لَهُ :

هَلْ مِنْ حَلِيَّةٍ ؟

قَالَ : أَمَّا إِلَيْكَ . . . فَلَا !

فَحَسَلَ اللَّهُ النَّارَ عَلَيْهِ بِرَدِّهَا وَسَلَامًا ؛ إِذْ لَمَّا كَانَ سَلِيمَ التَّلْمِيزِ مِنَ الْأَغْيَارِ وَجَدَ سَلَامَةً
النَّفْسِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْأَعْلَالِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَأَوَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ

الْأَخْسَرِينَ ﴾

مَنْ حَفَرَ لَوَلِيَّاهُ وَقَعَ فِيهَا حَفَرًا، وَمَنْ كَانَ مُشْغُولًا بِاللَّهِ لَمْ يَتَوَلَّ الْإِتِّقَالَ مِنْهُ سِوَى اللَّهِ .

(١) فِي م (يَد) تَمُوتُونَ وَكَلَامًا مَقْبُولٌ فِي السِّيَاقِ .

(٢) آيَةُ ١١٤ سُورَةِ التَّوْبَةِ .

(٣) هَكَذَا فِي م وَهُوَ أَصَحُّ مِنْ (الِاسْتِصْلَاحِ) فِي م لِانْجِمَامِ (الِاسْتِصْلَاحِ) مَعَ (الِاسْتِمَاتَةِ) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنَجِّنَاهُ وَلَوْلاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي

بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾

مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ فِي أَنْبِيَائِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أَنَّهُ إِذَا نَجَّى مِنْهُمْ وَاحِداً أَشْرَكَ مَعَهُ مَنْ كَانَ مُسَاهِماً لَهُ فِي ضُرِّهِ وَمُقَاسَاةٍ مَشَقَّتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً

وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾

مَنْ عَلَيْهِ بَأْسٌ أَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ كَانَ عَابِداً لِلَّهِ ، ذَا كَرَامَةٍ لَهُ ، فَإِنَّ مَنَاقِبَ الْأَبْنَاءِ مَنَاقِبُ لِلْآبَاءِ ، كَمَا أَنَّ مَنَاقِبَ الْآبَاءِ شَرَفٌ لِلْأَبْنَاءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَمًا يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فُضْلَ الْخَبَرَاتِ وَإِقَامَ

الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ، وَكَانُوا لَنَا

عَابِدِينَ ﴾

الْإِمَامُ مُقَدَّمُ الْقَوْمِ ، وَاسْتِحْقَاقُ رُتْبَةِ الْإِمَامَةِ بِاسْتِجَاعِ الْخِلَاصِ الْمُحْصَوْدَةِ الَّتِي فِي الْأُمَّةِ فِيهِ ، فَمَنْ لَمْ تَجْعَلْ فِيهِ مُتَفَرِّقَاتِ الْخِلَاصِ الْمُحْصَوْدَةِ لَمْ يَسْتَحِقْ مَنَزَلَةَ الْإِمَامَةِ .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَوْلاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ

الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْغِيَابَاتِ لَهُمْ

كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ ﴾

أَكَلُ لَهُ الْأَنْعَامُ بِصَمْتِهِ مِنْ مِثْلِ مَا امْتَنَحْنَاهُ بِهِ قَوْمَهُ ، ثُمَّ بَخْلَاصِهِ مِنْهُمْ بِإِخْرَاجِهِ إِيَّاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَفِيهِمْ ظَهَرُهَا وَبَاطِنُهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ

الصَّالِحِينَ ﴾

يَبَيِّنُ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ؛ فَلَا عَجَلَ مَنْ أَدْخَلَهُ فِي رَحْمَتِهِ كَلَنَ صَالِحاً .

وقوله : « وأدخلناه في رحمتنا » إخبار عن عين الجمع ، وقوله : « إنه من الصالحين » : إخبار عن عين الفرق (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

كان نوح - عليه السلام - أطولهم عمراً ، وأكثرهم بلاة . ففي القصة أنه كان يُسَرَّبُ سبعين مرة ، وكان الرجل الهرم يحمل حبيبه إليه ويقول . لا تقبل قول هذا الشيخ وكان يوصيه بمخالفته . وكان نوح - عليه السلام - يصبر على مقاساة الأذى ، ويدعوم إلى الله ، فلما أيس من إيمانهم ، وأوحى إليه : « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » (٢) دعا عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » (٣) فقال تعالى : « ونوحاً إذ نادى من قبل . . . » فأزحق الشررك وأغرق أهلُه .

- سورة الكهف قوله جل ذكره ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخُصَّكُنِ فِي الْأَرْضِ إِذْ نَفَثَتْ فِيهِ غَمِّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمَ آدَمَ حَاكِمًا وَعِلْمًا ﴿
- سورة طه

أشركهم في حكم النبوة وإن كان بين درجتيهما تفاوت . . . ففي مسألة واحدة أثبت سليمان - عليه السلام - بها خصوصية ؛ إذ من عليه بقوله : « فهمنها سليمان » ولم يمن عليه بشيء من الملوك التي أعطاه بمثل مامن عليه بذلك ، وفي هذه المسألة دلالة على تصويب المجتهدين - وإن اختلفوا - . إذا كان اختلافهم في فروع الدين ؛ حيث قال : « وكلاً آتينا

(١) لأن الرحمة من صفات ذاته - سبحانه ، وصلاح التبدية شيء من كسب البد .
(٢) آية ٣٦ سورة هود .
(٣) آية ٢٦ سورة نوح .

حكماً وعلماً» ولن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر فله تعلُّق بقوله : «فنهيناهما سليمان» (١)

قوله جل ذكره : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

وَالطُّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۖ

أَمَرَ الْجِبَالَ وَسَخَّرَهَا لِتُسَاعِدَ دَاوُدَ — عليه السلام — في التسميع ، ففي الأثر : كان داود — عليه السلام — يمرُّ وَصَفَاحَ (٢) الجبالِ تجاوبه ، وكنتك الطيور كانت تساعده عند تأويله .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ

لِنُخَبِّئَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ

شَاكِرُونَ ۖ

سَخَّرَ اللَّهُ — سبحانه — لداود الحديد والآلة في يده ، فكان ينسج الدروع ، قال تعالى : «وَأَلَّمْنَاهُ الْجَدِيدَ» لينصن من السهم في الحروب ، قال تعالى : «وَقَدَّرَ فِي السَّيِّدِ» وَأَخْبَمُ الصَّنْعَةَ وَأَوْثَقَ الْمَسَامِيرَ . . . ولكن لما قصده ته سِهْلُ التقدير ما أصابت إلا حدقته حين نظر إلى امرأة أوريا — من غير قصد — فكان ما كان .

ولقد خلا ذلك اليوم ، وأغلق على نفسه باب البيت ، وأخذ يصلي ساعة ، وقرأ التوراة مرة ، والزبور أخرى ، حتى يغشى وينتهي ذلك اليوم بالسلامة . وكان قد أوحى إليه أنه يوم فتنه ، فأمر الخُجَّابَ والبوابَ ألا يؤذَنَ عليه أحدٌ ، فوقع من كَوَرَةِ البيت طيرٌ لم ير مثله

(١) هنا رأى التشبُّه في (الاجتهاد) ومناه ، ويجوز الاهتمام به إذا شئت أن نبعث في «أصول الفقه عند الصوفية» .

(٢) صفاح جمع صفح ، وصفح التي عرسته (مقاييس اللغة ج ٣ ص ٢٩٣) . ويقول القرطبي (قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسيحاً ، والجبال تجاوبه بالنسج ، وكذلك الطير) وبضيف القرطبي شيئاً هاماً بالنسبة لتفسير الصوفي : (كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت حتى يشبثن ، ولهذا قال : «وسخرنا» أي جعلناها بحيث تطيه) .

«الجامع لأحكام القرآن» ١١ ص ٣١٩
وهذه للناسية نود أن نستدرك شيئاً لم نفر إليه في مدخل الكتاب ، وهو أن القرطبي كثيراً ما يستفيد من آراء الصوفية ، وبصفة خاصة من القشيري ، وهو في معظم الأحيان عبد الرحمن القشيري أحد أبناء المصنف .

في الخس ، فهم أن يأخذ ، فتباعد ولم يطير كالطير له في أخذه ، فلم يزال يستأخر قليلاً قليلاً حتى طار من كوة البيت ، فبعه داود ينظر إليه من السكوة من وراءه ، فوقع بصره على امرأة أوربا ، وكانت قد تحركت من ثيابها تنفس في بستان خلف البيت الذي به داود ، فحصل في قلبه ما حصل ، وأصاب سهم التقدير حدقته ، ولم تنفعه صنعة الجوس التي كان تعلمها لتحصنه من بأسه .

قوله جل ذكره : **ورسلنا الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين** ﴿١﴾

سخر الله له الريح عُدوها شهراً ورواحها شهراً ، ولو أراد أن يزيد في قدر مساقها شهراً لما استطاع ، تمرصاً بأنه موقوف على حكم التقدير ، فشهود التقدير كان بمنه من الإعجاب بما أكرم به من التسخير ، ولقد نبه — سبحانه — من حيث الإشارة أن الذي ملكه سليمان كالريح إذا مرّ وفات ، أو أنه لا يبقى باليد منه شيء (١) .

وفي القصة أنه لاحظ ذلك يوماً فالت الريح ببساطه قليلاً ، فقال سليمان للريح : استمر . فقالت له الريح : استمر أنت . أي إنما مبلى ببساطك ليك بقلبك بملاحظتك ، فإذا استويت أنت استويت أنا (٢) .

قوله جل ذكره : **ومن الشياطين من يتوحدون له ويعملون غلاً دون ذلك وكنا لهم جافلين** ﴿٢﴾

إنما كان ذلك أياماً قلائل في الحقيقة . ثم إنه أراد يوماً أن يعود إلى مكانه فجاءه ملك الموت فطأ به روحه ، فقال : إلى حين أرجع إلى مكاني .

فقال له : لا وجة للتأخير ، وقبضة وهو قائم يسكن على عصاه وبقي بحالته ، ولم تعلم الجن ،

(١) فهو كافي : بطل وقيس الريح .

(٢) في ذلك إشارة إلى أصحاب الأحوال بأنه إذا نصرت أو نفرت الأمور فالسبب كامن في نفوسهم .

إلى أن أَكَلَتْ دَابَّةُ الْأَرْضِ — كما في التبعة — عصاه ، فلما خَرَّ سَلِيَانٌ عَمِلَتْ الشَّيَاطِينُ بِمَوْتِهِ ، وَتَحَقَّقُوا أَنَّ الَّذِي بِالْعَصَا قِيَامُهُ فَقَعْرُ الْمَوْتِ يُلْصِقُهُ .

قوله جل ذكروه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسِيءٌ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

أى واذا ذكر أيوب (١) حين نادى ربه . ونحى أيوب لكثرة إصابته إلى الله في جميع أحواله في السرَّاء والضرَّاء ، والشدة والرخاء .

ولم يقل : ارحمى ، بل حَفِظَ أدب الخطاب فقال : « وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .
ومن علامات الولاية أن يكون العبدُ خفواً عليه وقتُه في أوانِ البلاء .

ويقال لإخباره عنه أنه قال : « مَسَى الضَّرُّ » لم يَسْلُبْهُ اسمُ الصبرِ حيث أخبر عنه سبحانه بقوله : « إنا وجدناه صابراً » لأنَّ الغالبَ كان من أحواله الصبرُ ، فنادرٌ قالته لم يَسْلُبْ عنه الغالبَ من حالته . والإشارة من هذا إلى أنَّ الغالبَ من حال المؤمن المعرفةُ ، أو الإيمانُ بالله فهو الذى يستغرقُ جميعَ أوقاته ، ولا يخلو منه لحظةٌ ؛ ونادرٌ زلاتُه — مع دائمِ إيمانه — لا يَرُوحُ الوصفُ الغالبُ .

ويقال ؛ لما لم يكن قوله : مَسَى الضَّرُّ على وجه الاعتراض على التقدير — بل كان على وجه إظهار العجز — فلم يكن ذلك مُنافياً لصفة الصبر .

ويقال استخرج منه هذا القولَ ليكونَ فيه مُتَنَفِّسٌ للضعفاء في هذه الأمة حتى إذا ضَجُّوا في حالِ البلاء لم يكن ذلك مُنافياً لصفة الصبر .

ويقال لم يكن هذا القولُ منه على جهة الشكوى ، وإنما كان من حيث الشكر ؛ أى مَسَى الضَّرُّ ، أى تَخَصَّصُ به أولئك ، ولولا أنك أرحم الراحمين لما خصصتنى بهذا ، ولكن يرحمتك أهلتنى لهذا .

(١) في تدويرها أن ما كتبه القشيري في هذا الموضع عن أيوب عليه السلام من أجل ما كتب في هذا الموضوع سواء من الناحية الأدبية أو من الناحية الإشافية .

ويقال لم يكن هذا القول من أيوب ولكنه استغاثه البلاء منه ، فلم يُلقِ البلاء صُحبته
فصَحَّ منه البلاء لا أيوبُ صَحَّ من البلاء . . وفي مناه أُنشدوا .

صَابِرَ الصَّبْرِ فَاسْتَفَاتَ بِهِ الصَّبِرُ فَصَاحَ الْمَصْبُ بِالصَّبْرِ صَبْرًا

ويقال همزة الاستفهام فيه مضرة ، ومعناه : أيعسى الضرُّ وأنت أرحم الراحمين ؟ كما قال
« وتلك نعمة تمنها علي » (١) أى أتلك نعمة تمنها علي أن عبست بنى إسرائيل ؟

ويقال إن جبريلَ — عليه السلام — أتى أيوبَ فقال : لمَ تسكت ؟ فقال : ماذا أصنع ؟
فقال : إنَّ اللهَ سيان عنده بلاؤك وشقاؤك . . . فاسألَ اللهَ العافيةَ فقال أيوب : إني
مسنى الضرُّ ، فقال تعالى : « فكشفنا ما به من ضرٍّ » والفاء تقتضى التقييد ، فكأنه قال :
فبإفناءه في الوقت . وكأنه قال : يا أيوب ، لو طلبت العافيةَ قبل هذا لاستجبتَ لك .

ويقال سقطت دودةٌ كانت تأكل من بدنه على الأرض فرفضها أيوبُ ووضعها على
موضعها ، فغفرته عقرةٌ عيِلَ صَبْرُهُ فقال : مسنى الضرُّ ، فقبل له : يا أيوب : أنصبر معنا ؟
لولا أنى ضربتُ تحت كل شجرةٍ من شرائك كذاخيمةٍ من الصبر . . ما صَبَرْتَ ساعة !
ويقال كانت الودواتُ التي تأكل منه أكلت ما علاَ بدنه ، فلم يَبْقَ منه إلا لسانُه
وقلبه ، فصعدت دودة إلى لسانه ، وأخرى إلى قلبه فقال :

« مسنى الضرُّ » . . . فلم يَبْقَ لى إلا لسانٌ به أذكرك ، أو قلبٌ به أعرفك ، وإذا
لم يَبْقَ لى ذلك فلا يمكننى أن أعيشَ وأصبر !

ويقال استنجبت عليه جهةُ البلاء فلم يعلم أنه يصيبه بذلك تطهيراً أو تأديباً أو تنذيراً
أو تقييماً أو تخفيفاً أو تحميصاً . . . وكذلك كانت صحبته (٢) .

ويقال قيل لأيوب عليه السلام سل العافية فقال :

عِشْتُ في النِّمِّ سبعين سنةً فحقى يأتى على سبعون سنةً في البلاء . . وعندئذٍ أسألُ
اللهَ العافيةَ !

(١) آية ٢٢ سورة الشعراء .

(٢) أى وهكذا كانت محبة الحقى لوليه دائماً .

وقيل لَمَّا كَشَفَ اللهُ عَنْهُ الْبَلَاءَ قِيلَ لَهُ : مَا أَشَدُّ مَا لَقِيتَ فِي أَيَّامِ الْبَلَاءِ ؟ قَالِ
ثَمَانَةَ الْأَعْدَاءِ :

وفي القصة أن تلامذة أيوب كسروا أظلامهم ، وحرقوا ما كتبوه عنه وقالوا : لو كان
اللهُ عند الله منزلةً لَمَّا ابْتَلَاكَ بِكُلِّ الْبَلَاءِ !

وقيل لم يبقَ معه إلا زوجته ، وكانت من أولاد يوسف النبي عليه السلام ، فهي التي بقيت
معه وكانت تخدمه وتسهده .

ويقال إنما بقيت تلك للمرأة معه لأنها كانت من أهل البلاء من آل يعقوب —
عليه السلام .

وقيل إنما قال : مسى الضرُّ لَمَّا قال لها الشيطان : إِنْ أُرِدْتِ أَنْ يُشْفِيَ مَرِيضُكَ فَاسْجُدِي
لِي ، ولم تعلم أنه إبليس لأنه ظَهَرَ لها في صورة لسان ، فأخبرت أيوبَ بذلك فقال عندئذٍ :
« سَنِيَّ الضَّرُّ » .

ويقال لَمَّا ظهر به البلاء اجتمع قومه وقالوا لها : أَخْرِجِي هَذَا الْمَرِيضَ مِنْ قَرْيَتِنَا ، فَإِنَّا
نَخَافُ الْمَدَوِيَّ وَأَنْ يَمَسَّ بِلَاؤُهُ ، وَأَنْ نَعْدِيَ إِلَيْهَا عِيْلَتُهُ ، فَأَخْرَجَتْهُ إِلَى بَابِ الْقَرْيَةِ فَقَالُوا :
إِنَّا إِذَا أَصْبَحْنَا وَغَمْتُ أَبْصَارُنَا عَلَيْهِ ، فَتَنَشَّاهُمْ بِهِ ، فَأَبْيَدِيهِ عَنْ أَبْصَارِنَا ، فَغَمَلْتُهُ إِلَى أَرْضِ
فَقْعٍ ، وَكَانَتْ تَسْخُلُ الْبِلَدَ ، وَتُسْتَأْجَرُ لِقَحْظِ الْمَلِكِ فِي الدَّوْرِ ، فَتَأْخُذُ الْأَجْرَ وَتَحْمِلُهَا إِلَيْهِ ،
فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهَا أَمْرَأَةٌ اسْتَفْزَرُوهَا وَلَمْ يَسْتَمِئُوهَا .

ويقال إنها كانت ذات ذوائب وقرون ، وكان أيوب يأخذ بذوائبها عند نهوضه ،
فباعت ذوائبها برغيفٍ أخذته لتحمله إليه ، فوسوس له الشيطان بأنها فعلت الفحشاء ، وأن
شعرها جزٌّ في ذلك فَحَكَّتْ أَيُّوبُ أَنْ يَجْلِدَهَا إِذَا صَحَّ حَدْسُهُ ، وَكَانَتْ الْحَنَةُ عَلَى قَلْبِهِ
تلك المرأة أشدَّ مما على بَدَنِ أَيُّوبَ مِنْ كُلِّ الْحَنِ .

وقيل إن امرأته غَابَتْ وَخَلَّتْ الْبِلَدَ ، فمات اللهُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وعاد شاباً طرياً
كما قال في قصته قوله : « أَرَكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُنْقَلَبُ بَارِدٍ وَشَرَابٍ » ^(١) . فلما رجعت

امرأته ولم تره حبت أنه أكله سَمِيعٌ أو أصابته آفةٌ ، فأخذت نبكي وتولول ، فقال لها أيوب — وهي لم تعرفه لأنه عاد صحيحاً — مَالِكٌ يَا امْرَأَةُ ؟

قالت : كان لي ها هنا مريضُ فَقَفَدْتَهُ . فقال لها أيوب : أنا ذاك الذي تطليينه !
وفي بعض الأخبار المروية أنه بقي في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات .

وقيل تعرَّضَ له إبليسُ فقال : إِنْ ارِدْتَ الْعَافِيَةَ تَسْجُدْ لِي سَجْدَةً ، فقال : « مَسَى الضَّرُّ » .

ويقال إن أيوب — عليه السلام — كان مُكَاشَفًا بِالْحَقِيقَةِ ، مأخوذًا عنه ، فكان لَا يُحِسُّ بِالْبَلَاءِ ، فَسَرَّ عَلَيْهِ مَرَّةً ، وَرَدَّهٗ إِلَيْهِ ، فقال : مَسَى الضَّرُّ (١) .

ويقال أَدْخَلَ عَلَى أَيُوبَ تِلْكَ الْحَالَةَ ، واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية .
ويقال أوحى الله إلى أيوب — عليه السلام — أَنَّ هَذَا الْبَلَاءَ اخْتَارَهُ شَيْطَانٌ نَبِيًّا قَبْلَكَ فَمَا اخْتَرْتَهُ إِلَّا لَكَ ، فلما أراد كَشَفَهُ عَنْهُ قَالَ : مَسَى الضَّرُّ !

وقيل كُشِفَ بِمَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى فَلَمْ يَجِدْ أَلَمَ الْبَلَاءِ فقال : مَسَى الضَّرُّ لِفَقْدِي أَلَمَ الضَّرِّ .
وقال جعفر الصادق : حَبَسَ عَنْهُ الْوَحْيُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فقال : مَسَى الضَّرُّ لِمَا لِحَقَّتْهُ مِنَ الضَّعْفِ بِقِيَامِ الطَّاعَةِ فَاسْتَجَلَبَ إِلَيْهِ بِأَنْ رَدَّ عَلَيْهِ قُوَّتَهُ لِيَقُومَ بِحَقِّ الطَّاعَةِ .

ويقال طلب الزيادة في الرضا طَسْتُجِيبَ لَهُ بِكَشَفِ مَا كَانَ بِهِ مِنْ ضَعْفِ الرِّضَا .
ويقال إن الضَّرَّ الذي شكاه أنه بقيت عليه بَقِيَّةٌ ، وِليَّتُهُ كَانَتْ بِبَقِيَّتِهِ ، فَلَمَّا أُخْبِرَ عَنْهُ بِالْكَلِيَّةِ زَالَ الْبَلَاءُ ، ولهذا قَالَ « فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ » وَكَانَتْ نَفْسُهُ ضُرَّةً ، وَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ وَالْأَمَلَ — فِي الظَّاهِرِ — لَمَّا ضَارَ مَأْخُذًا بِالْكَلِيَّةِ عَنْهُ ، مُنْتَقِيًا عَنْ كُلِّ بَقِيَّةٍ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْتَوِي الْبَلَاءُ وَالْعَافِيَةُ ، وَالْوُجُودُ وَالْفَقْدُ .

(١) أى إن السيد الواله لا يحس بنفسه وهو في حال الجمع ، ويحس بها وهو في حال الفرق . وقد سكت التفسير في الرسالة أن بعضهم قطعت وجهه حيث كانت بها غرغرينة فلم يشعر ، بينما آلمت بعضهم فقه . وهو في حال الفرق .

قوله جل ذكره: ﴿وإسماعيل وإدريس وذا النون﴾

﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

أى واذكر هؤلاء الأنبياء ثم قال : « كل من الصابرين » ، ثم قال :

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

بَيَّنَّ الْحُكْمَ وَالْمَعْنَى ؛ الْحُكْمُ صَبْرُهُمْ وَصَلَاتُهُمْ ، وَالْمَعْنَى إِدْخَالَهُ لِإِيمَانٍ فِي الرَّحْمَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ

أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي

الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

صَبَحَاتِكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

« مغاضباً » : على ملك وقته حيث اختاره للنبوة ، وسأله : لِمَ اخترتني ؟ فقال : لقد أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّ : « أَنْ قُلْ لِلنَّاسِ لِلَّهِ حَقٌّ يَخْتَارُ وَاحِدًا لِيُرْسِلَ إِلَى نَبِيِّهِ بِالرَّسَالَةِ . فَتَقَلُّ عَلَى ذِي النُّونِ لِمَا اخْتَارَهُ لِلرِّسَالَةِ ، لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ التَّبَوُّةَ مَقْرُونَةٌ بِالْبَلَاءِ ، فَكَانَ غَضَبُهُ عَلَيْهِ لذلِكَ (١) .

ويقال مغاضباً على قومه لما امتنعوا عن الإيمان وخرج من بينهم .

ويقال مغاضباً على نفسه أى شديد المخالفة لهواه ، وشديداً على أعداء الدين من مخالفيه .

« فظنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ » أى أَنَّ لَنْ تُضَيَّقَ عَلَيْهِ (٢) بطن الحوت ، من قوله : « وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » (٣) أى ضَيَّقَ .

(١) عن ابن عباس : أراد شعباً التي وللك حرقياً أن يبعثاً يونس إلى ملك ينيرى الذي كان قد هرا بنى إسرائيل وسعى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل ؛ وكان الأنبياء إلى ذلك الزمان يوحى إليهم والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيصل على وحى ذلك النبي ، وقد أوحى لشعياً : ان قل لحرقياً ملك أن يختار نبياً قوماً من بنى إسرائيل إلى أهل نينوى .. فقال يونس لشعياً : هل أمرك الله بإخراجهم ؟ قال : لا ، قال : فهاتوا أنبياء أمناه أقوياء ، فألحوا عليه .. فخرج مغاضباً التي وللك وقومه ، حتى أتى بحر الروم .. وكان من قصته ما كان ، واجتلى بطن الحوت تركه أم شعياً .. قال تعالى « فالتفته الحوت وهو ملج »

(٢) (ان لن تضيق عليه) مقودة في س . وموجودة في م والبيان يقتضى وجودها .
(٣) آية ١٦ سورة النحر

وَيَقَالَ فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنْ جَبِينِهِ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ .

وخرج من بين قومه لَمَّا أَخْبَرَ بِأَنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ قَوْمَهُ ، وخرج بأهله .

وَيَقَالَ إِنَّ السَّيْحَ افْتَرَسَ أَهْلَهُ فِي الطَّرِيقِ ، وَأَخَذَ النَّارُ ابْنَا صَغِيرَا لَهُ كَلَنَ مَعَهُ ، وَجَاءَ مَوْجُ الْبَحْرِ فَأَغْرَقَ ابْنَةَ الْآخَرِ ، وَرَكِبَ السَّفِينَةَ ، وَاضْطَرَبَ الْبَحْرُ ، وَتَلَاطَمَتِ أَمْوَاجُهُ ، وَأَشْرَفَتِ السَّفِينَةُ عَلَى الثَّرَقِ ، وَأَخَذَ النَّاسُ فِي إِقَامَةِ الْأَمْتَةِ فِي الْبَحْرِ تَخْشِيفًا عَنِ السَّفِينَةِ ، وَطَلَبًا لِسَلَامَتِهَا مِنَ الثَّرَقِ ، فَقَالَ لَمْ يَوْسَ : لَا تُلْقُوا أَمْتَكُمْ فِي الْبَحْرِ بَلْ امْرَحُونِي فِيهِ فَأَنَا الْجَرِمُ فِيمَا بَيْنَكُمْ لِتَخْلُسُوا ! فَنظَرُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا : نَرَى عَلَيْكَ سِيَاءَ الصَّلَاحِ ، وَلَيْسَتْ تَسْمَحُ نَفُوسُنَا بِإِقَاتِكَ فِي الْبَحْرِ ، فَقَالَ تَعَالَى خَيْرًا عَنْهُ : « فَسَامَ فَكَانَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ » (١)

أَي قَارَعَهُمْ ، فَاسْتَهَمُوا ، فَفَرَّقَتِ الثَّرْعَةُ عَلَيْهِ .

وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّهُ أَتَى حَرْفَ السَّفِينَةِ ، وَكَانَ الْحَوْتُ فَاقِرًا لَهُ ، فَجَاءَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ فَجَاءَ الْحَوْتُ إِلَيْهِ كَنَفَكْ ، حَتَّى جَازَ كُلَّ جَانِبٍ . ثُمَّ لَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مُرَادٌ بِالْبَلَاءِ أَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ فَابْتَلَمَهُ الْحَوْتُ « وَهُوَ مَلِيمٌ » : أَي أَتَى بِمَا يَلَامُ عَلَيْهِ ، قَالَ تَعَالَى : « فَالْتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ » (٢) .

وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى السَّمَكِ : لَا تَخْدِشْ مِنْهُ لَحْمًا وَلَا تَكْثِرْ مِنْهُ عَظْمًا ، فَهُوَ وَدِيعَةٌ عِنْدَكَ وَلَيْسَ بِطَعْمَةٍ لَكَ . فَبَقِيَ فِي بَطْنِهِ - كَمَا فِي الْقِصَّةِ - أَرْبَعِينَ يَوْمًا .

وَقِيلَ إِنَّ السَّمَكَ الَّذِي ابْتَلَمَهُ أَمِيرًا بَانَ يَطُوفُ فِي الْبَحْرِ ، (وَخَلَقَ اللَّهُ لَهُ إِدْرَاكًا مَا فِي الْبَحْرِ) (٣) ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَى ذَلِكَ .

وَيَقَالَ إِنَّ يَوْسَ عَلَيْهِ السَّلَامَ صَجِبَ الْحَوْتُ أَيَّامًا قَلِيلًا فَأُلِيَ الْقِيَامَةُ يُقَالُ لَهُ : ذَا النَّوْنِ ، وَلَمْ يَبْطَلْ عَنْهُ هَذِهِ النِّسْبَةُ . . . فَاتَّكَتْ بِمَعْيَدِ عَيْدِهِ - سَبْحَاتِهِ - سَبْعِينَ سَنَةً ، وَلَازَمَ قَلْبًا حَبْهَةً وَمَعْرِفَتَهُ طَوْلَ عَمْرِهِ . . . تَرَى أَيْبَطَلَ هَذَا ؟ لَا يُطْنُ بِكَرْمِهِ ذَلِكَ !

« فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ . . . » يَقَالُ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحَوْتِ - هَذَا بَيَانُ

(١) آيَةُ ١٤١ سُورَةِ الصَّافَّاتِ

(٢) آيَةُ ١٤٢ سُورَةِ الصَّافَّاتِ

(٣) مَوْجُودَةٌ فِي مِ وَمَقْفُودَةٌ فِي مِ

قوله جل ذكره: ﴿فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَعَيْنَا لَهُ عِصِيَّ
وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ أَنَّهُمْ كَانُوا
يُسَارِعُونَ فِي الْفَعَالِ وَيَدْعُونَنَا
رَغْبًا وَوَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾

معى يعنى لأنه حى به عقر أمه .

وقوله : « وأصلحنا له زوجه » : تكون الكرامة لم جيمًا بالولد ، ولثلا يسببه
زكريا بفرح الولد دونها مراعاة لحق محبتها . . وهذه مُنَّة الله في باب إكرام أوليائه ،
وفى مناه أُنشدوا :

إِنَّ الْكَرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلَهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشَنَ

ثم قال : « إنهم كانوا يسارعون في الفعالات ويدعوننا . . . » وفي هذا بشارة لجميع
المؤمنين ، لأن المؤمن لا يخلو من حالة من أحوال الرغبة أو الرهبة ؛ إذ لو لم تكن رغبة
لكان قنوطاً والقنوط كفر^(١) ، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر^(٢) .

قوله : « وكانوا لنا خاشعين » الخشوع قشورية القلب عند اطلاع الرب ، وكان لهم
ذلك على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْقَى أَحَصَّتْ فَرْجَهَا فَتَفَعَّنَا فِيهَا
مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِلْعَالَمِينَ﴾

يعنى مريم ، وقد نَفَى عنها رِيحَةَ الْفَحْشَاءِ وَهَجَّةَ الْفَمِ .

ويقال فتفعنا فيها من روحنا ، وكان النفع من جبريل عليه السلام ، ولكن لما كان بأمره —
سبحانه — صَحَّتْ الْإِضَافَةُ إِلَيْهِ ، وفي هذا دليل على تأويل خبر النزول ، فإنه يكون بانزال
ملكٍ فتصيح^١ الإضافة إلى الله إذ كان بأمره . وإضافة الروح إلى نفسه على جهة التخصيص .
كقوله : (نَاقَةُ اللَّهِ ، وَيُنَى) . . ونحو ذلك . (وجعلنا وابنها آية للعالمين) : ولم يقل آيتين

(١) قال تعالى : « ومن ينفط من رحة ربه إلا الضالون » ٥٦ الحجر .

(٢) قال تعالى : « فلا يأمن مكرافة إلا القوم الخاسرون » ٩٩ الأعراف

لأن أمرها كان معجزة ودلالة ، ويصح أن يراد أن كل واحد منها آية — على طريقة العرب في أمثال هذا .

وفيه نفي لهمة من قال إنها حبلت من الله . . . تعالى الله عن قولهم !
 قوله (آية للعالمين) : وإن لم يند بها جميع الناس . . لكنها كانا آية . ومن نظر
 في أمرها ، ووضع للنظر موضعه لاهتدى ، وإذا أعرض ولم ينظر فالآية لا تخرج عن كونها
 حجة ودلالة بتقصير المقصر في بابها .

قوله جل ذكره : ﴿ إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ .

أي كلكم خلقته ، وكلكم اتقتم في الفقر ، وفي الضعف ، وفي الحاجة . « وأنا ربكم » :
 وخالكم على وصف التفرّد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَ بَيْنِهِمْ كُلُّ الْإِنْسَانِ رَاجِعُونَ ﴾ .

اختلفوا وتنازعوا ، واضطربت أمورهم ، وتفرقت أحوالهم ، فاستأصلتهم البلياء .
 قوله : (كلُّ الإنسان راجعون) : وكيف لا . . . وهم ما يتقبلون إلا في قبضة التقدير ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ .

من عَمِلَ لله لم ينس على الله ، ومن تحمّل الله مشقةً وجب حقه (على) (١) الله : قوله : وهو
 مؤمن) بعد قوله : (يعمل من الصالحات) دليل على أن من لا يكون مؤمناً لا يكون عمله صالحاً
 فثابتة قوله هاهنا : (وهو مؤمن) في المال والعاقبة ، فقد يعمل الأعمال الصالحة من لا يؤتم له
 بالسعادة ، فيكون في الحال مؤمناً وعمله يكون على الوجه الذي آمن ثم لا ثواب له ، فإذا
 كانت عاقبته على الإسلام والتوحيد فحينئذ لا يضيع سعيه .

(١) ترجع أنها في الأصل (من) لأن التشديد في مواضع شق عارض أي وجوب (على) الله . .
 وطالما أومئنا ذلك في المواصل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

أى لا نهلك قوماً وإن تعادوا فى المصيان إلا إذا علمنا أنهم لا يؤمنون ، وأنه بالشقاوة نقتلهم أمودهم .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَاجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .

أى يحق القول عليهم ، ويتم الأجل للضروب لم ، فبعد ذلك تظهر أيامهم ، وإلى القدر للمعمر فى التقدير لا تحصل نهاية الناس من شرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

تأخذهم التيامة بقتة ، وتظهر أشراف الساعة فجأة ، ويقر الكاذبون بأن الذنب عليهم ، ولكن فى وقت لا تقبل فيه معذرتهم ، وأوان لا ينفعهم فيه إيمانهم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنَّهُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ .

« وما تعبدون من دون الله » : أى الأصنام التى عبدوها ، ولم تدخل فى الخطاب الملازمة التى عبدوها قوم ، ولا عبس وإن عبده قوم لأنه قال :

« إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ » ولم يقل « إِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ »^(١) . فَيَحْتَرُ الْكَافِرُونَ فى النار ، وَيَحْتَرُ أَصْنَامُهُمْ معهم . والأصنام جادات فلا جرّم لها ، ولا احتراقها عقوبة لها ، ولكنه على جبة براءة ساحتها ، فالذنب للكفار وما الأصنام إلا جادات .

(١) لأن (ما) اسم موصول لتبر المائل و (من) اسم موصول للمائل .

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَ اللَّهِ مَا وَرَدُّوهُا
وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

القوم قالوا : « ما نريدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (١) فَعَلُوا أَنْ الْأَصْنَامَ جَادَاتُ ،
ولكن توهموا أن لما عند الله خطراً ، وَأَنَّ مَنْ عِبَادَهَا يَقْرُبُ سِبَادَهَا مِنْ اللَّهِ ، فَيُبَيِّنُ اللَّهُ
لهم — غداً — بأنّها لو كانت تستحق العبادة ، ولو كان لما عند الله خطراً لَأُتْلِفَتْ في
النار ، وَلَمَّا أُحْرِقَتْ .

قوله جل ذكره : ﴿لَمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾

« لم » : أى لِمَعْدَةِ الْأَصْنَامِ ، « فيها » أى في النار ، « زفير » لحسرتهم على ما قامهم ،
« وهم فيها لا يسمعون » مِنْ نَدَاوِ يَبْشُرُهُمْ بِاقْتِضَاءِ عِقَابِهِمْ .
وبعكس أحوالهم عَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ (٢) في النار فَهَمْ — وَإِنْ عَذَّبُوا حِينًا — فَإِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ
قَوْلَ مَنْ يُبَشِّرُهُمْ يَوْمًا بِاقْتِضَاءِ عَذَابِهِمْ — وَإِنْ كَانَ بَعْدَ مَدَّةٍ مَدِينَةٍ .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ صَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ
أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾

« صبت لهم منا الحسنى » : أى الكلمة بالحسنى ، والمشيئة والإرادة بالحسنى ، لأن الحسنى
فعله ، وقوله : « صبت » إخبار عن قَدَمِهِ ، والذي كان لهم في القدم هو الكلمة التي هي
صفة تعلقت بهم في معنى الإخبار بالسعادة .

ثم قال : « أولئك عنها مبعدون » أى عن النار ، ولم يقل متباعدون لِيَعْلَمَ الْمَالِيُونَ أَنَّ
لِلدَّارِ عَلَى التَّقْدِيرِ ، وَسَابِقِ الْحُكْمِ مِنْ اللَّهِ ، لَا عَلَى تَبَاعُدِ الْعَبْدِ أَوْ بَعْدِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيهَا اشْتِثَ
أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾

(١) آية ٣ سورة (الزمر) .

(٢) تسمى منه في علم الكلام : الفزة بين المزلتين وهي التي بين المؤمن والكافر ، وليست عقوبة هؤلاء .
— كما هو شأن الكفار — على التأييد .. كما يرى الفشيري .

يمل ذلك على أنهم لا يُعَذَّبُونَ فيها بكل وجه . والمراد منه العباد من المؤمنين الذين لا جرم لهم .

« وهم فيها اشتبهت أنفسهم خالدين » : مقبين لا يرحون .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ

الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ

تُوعَدُونَ ﴾

قيل الفزع الأكبر قول الملائكة : « لا بشرى يومئذ للمجرمين » (١)

ويقال إذا قيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » (٢)

ويقال إذا قيل : يا أهل الجنة . . خلوداً لا موت فيه ، ويا أهل النار . خلوداً

لا موت فيه !

وقيل إذا : « قال اخسئوا فيها ولا تكلمون » (٣)

وقيل الفزع الأكبر هو الفراق . وقيل هو اليأس من رحمة الله وتعريفهم ذلك .

قوله « وتلقاهم الملائكة » يقال لم هذا يومكم الذي كنتم وعِدْتُمْ فيه بالنواب ؛ فمنهم من يلقاه الملائكة ، ومنهم من يرُدُّ عليه الخطاب والتعريف من الملائكة (٤) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ

لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ

فَصِيدَهُ وَعَدَّا عِلْمَنَا إِنَّا كُنَّا

فَاعِلِينَ ﴾

إنما كانت السماء سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياء تحتها ، والأرض كانت فراشاً إذ كانوا

عليها ، فإذا ارتحل الأحباب عنها تخرب ديارهم . . على المادة فيها بين الخلق من خراب

الديار بعد مفارقة الأحباب .

(١) آية ٢٢ سورة الفرقان

(٢) آية ٥٩ سورة يس

(٣) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

(٤) أى من الله سبحانه — وهؤلاء هم صفوة الأخيار .

ويقال نظوى السماء التي إليها عرجت دواوينُ المعصاة من المسلمين لئلا تشهد عليهم بالإجرام ، وتبدلُ الأرضُ التي عصوا عليها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم بالإجرام .
أو نظوى السماء لتقربَ قطعَ المسافات على الأحياب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ
الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾

« الذِّكْر » هنا هو التوراة ، و « كَتَبَ » : أى أخبر وحكم ، و « الصَّالِحُونَ »
أمة محمد ... صلى الله عليه وسلم : أن « الأرض » هم الذين يرثونها .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
أَنَا مَنْ أَسْلَمَ فَيْلِكَ يَنْجُونَ ، وَأَنَا مَنْ كَفَرَ فَلَناذِرُهُمْ مَا دُمْتُ فِيهِمْ ؛ فَأَمْتُ رَحْمَةً مِنَّا
على الغلّاق أجمعين .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يَوْحَىٰ إِلَىٰ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهٌ
وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

واحدٌ فى ذاته ، واحدٌ فى صفاته ، واحدٌ فى أفعاله . واحد بلا قسم ، واحد بلا شبيه ،
واحد بلا شريك .

« فهل أنتم مسلمون ؟ » مخلصون فى عقد التوحيد بالنبرى عن كل غير فى حساب
صَلَاحِيَّتِهِ لِلْأُوهَةِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ
وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ
مَا تُوعَدُونَ ﴾

إِنْ أَمْرُضُوا وَلَمْ يَوْمِنَا فَقُلْ : إنا بالالتزام أعلفكم ، ولكن لإكرام ما ألفتكم ،
فَتَوَجَّهَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ وَاسْتَبَهَمَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ .

قوله : « وإن أدرى أقرب أم بعيد .. » إنَّ على متفاسرٍ عن تفصيل أحوالكم في مآلكم ، ووقت ما توعدون به في القيامة من تفصيل أحوالكم ، ولكنَّ حكمَ الله غير مستأخِرٍ إذا أراد شيئاً من تغيير أحوالكم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

لا يخفى عليه سِرُّكم ونهواكم ، وحالكم ومآلكم ، وظاهركم وباطنكم .. فلي قدر استحقاقكم بمجازيكم ، وبموجب أفعالكم بمحاسبكم ويتكافئكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ أَذْرَى كُنَّهٌ فَتَبَّ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

ليس يحيط علماً (إلا) ^(١) بما يُملئني ، وإعلامه إلی ليس باختيارى ، ولا هو مقصود على محض مرادى وإشارى .

قوله جل ذكره ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾

الرحمن كثير الرحمة عامة لكل أحد ، ومنه يوجد المون والنصر حين يوجد وكيف يوجد .

السورة التي يذكر فيها « الحج »

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

مخاطب « بسم الله » يوجب الهيبة والغبية وذلك وقت محوم . ومخاطب « الرحمن الرحيم » يوجب الأُس والقربة ، وذلك وقت محوم .. فمخاطب هذه الآية انتظم لهم المحو والصحو في سلك واحد .

مخاطب « بسم الله » يوجب انزعاج القلوب وعنده يحصل داء جنونهم ^(٢) ، ومخاطب « الرحمن

(١) سقطت (إلا) في ص وموجودة في م .

(٢) ليس الجنون والفتن هنا مرتبطين بفساد العقل كما قد يفادر للذهن إنما يرتبطان بذهاب العقل وإزالة في المحبوب ، وهذه هي المرة الأولى التي تصادف فيها هاتين اللفتتين في مثل هذا السياق ، وقد اعتدنا أن نسمع بدلا من (جنون ومفتون) كلمات أخرى مثل (مهم ومتهم) [انظر التحبير في التذكير ص ٦٧] .

الرجيم » يوجب إتهام القلوب وبه يحصل شفاء فتونهم ، فمودة فتونهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ رَبِّكُمُ أَنْزَلَ إِلَهُكُمُ مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطَةً عَظِيمًا ﴾

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ » نداء علامة ، و « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » نداء كرامة ، وبكل واحد من القسمين يفتتح الحق خطاباً في السور ، وذلك لاتقسام خطاباً إلى صفة التحذير مرة ، وصفة التبصير أخرى .

والتقوى هي التحرز والاعتناء وتجنب المحظورات . وتجنب المحظورات قرص ، وتجنب الفضلات والشواغل - وإن كان من جهة المباحات - قتل ، فتواب الأول أكثر ولكنه مؤجل ، وفتواب النفل أقل ولكنه معتجل (١) .

ويقال خوفهم بقوله : « اتَّقُوا » . ثم سكن ما بينهم من الخوف بقوله : « رَبِّكُمْ » فإن سماع الربوبية يوجب الاستدامة وجعل الكفاية .

قوله : « إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاقِطَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » : ولسمية المدموم « شيئاً » توسع ، بدليل أنه ليس في المدموم زلزلة بالاتفاق وإن كان مُطْلَقُ الْفِعْلِ يقتضيه ، وكذلك القول في تسميته « شيئاً » هو توسع .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْهُلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَنْ آَرْضِهَا وَأَرْضُهَا وَخَصَّ كُلُّ فَرْطٍ حَلِيٍّ حَلِيًّا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَلْيٍ حَلِيًّا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

لكل ذلك اليوم شغل يستوفيه ويستغرقه ، وترى الناس سكارى أي من هول ذلك

== ومن المفيد أن نسوق نصاً لإحدى المجاتين :

مصر الناس ما جعلت ولكن أنا سكرانة وقلبي صاح

أنا مقتسنة بحب جيمر لت أبي من باب من راح

(الروض الغائق ص ٣٦٢) وكتابتها (نقاء التصوف الإسلامي ط المعارف ص ١٧٨ .

(١) هذا أصل يضاهي إلى أصول اللغة الصوفي عند القشيري .

النفس عليهم جواز (بشأن الخلق) ^(١) واستبعدوه غاية الاستبعاد ، فلم ينكر الحق عليهم إلا بإعراضهم عن تأمل البرهان ، واحتج عليهم في ذلك بما قطع حجتهم ، فَنَ تَبَعَ هَذَا رَشِيدٌ ، وَمَنْ أَمَرَ عَلَى غَيْبِهِ تَرَدَّى فِي مَهْوَاةٍ هَلَاكَةٍ .

واحتج عليهم في جواز البعث بما أقرؤا به في الابتداء أَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُمْ وَأَنَّهُ يَنْقُلُهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ أُخْرَى ؛ فَبَدَأَهُمْ مِنْ نَظْفَةٍ إِلَى عِلْقَةٍ وَمِنْهَا وَمِنْهَا . . . إِلَى أَنَّ نَقَلَهُمْ مِنْ حَالٍ شَبَابِهِمْ إِلَى زَمَانٍ شَيْبِهِمْ ، وَمِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَى حِينٍ وَفَاتِهِمْ .

واحتج أيضاً عليهم بما أشهدهم كيف أنه يحيي الأرض — في حال الربيع — بعد موتها ، فتعود إلى ما كانت عليه في الربيع من الخضرة والحياة . والقد يُقَدَّرُ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ بِقَدْرِ عَلَى خَلْقِ الْحَيَاةِ فِي الرِّمَّةِ الْبَالِيَةِ وَالْعِظَامِ النَخْرَةِ .

قوله : « ومنكم من يرد إلى أرذل العمر » : زمان الفترة بعد المجاهدة ، وحال الحجة عقب المشاهدة .

ويقال أرذل العمر السعي للخطوط بعد القيام بالحقوق .

ويقال أرذل العمر إزالة في زمان للشيب .

ويقال أرذل العمر الإقامة في منازل المعصيان .

ويقال أرذل العمر التمرجج في (أوطان) ^(٢) المنة .

ويقال أرذل العمر العشرة مع الأضداد .

ويقال أرذل العمر (عيش) ^(٣) المرء بحيث لا يعرف قدره .

ويقال أرذل العمر بأن يؤكل إلى نفسه .

ويقال أرذل العمر التطوح في أودية الحساب أن شيئاً يغير الله .

ويقال أرذل العمر الإخلال إلى تدبير النفس ، والعنى عن شهود تقدير الحق .

(١) هكذا في أمالي في (بشأن الحق) وترجيح الأولى إذ لا يفتقر استبعادهم أن يمت الله واحداً من الخلق .

(٢) هكذا في م وهي خبر موجودة في م .

(٣) في م (عيش) المرء وفي س (حس) المرء . وقد رجحنا (عيش) على معنى أن الله يمنحه من : المرء ما لا يكون خلاله تقدير من الخلق له .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ

الموتى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝

الله هو الحق ، والحق المطلق الوجود^(١) ، وهو الحق أى ذو الحق .

« وَأَنَّهُ يُخَيِّ الموتى » أى الأرض التى أصابتها وَحْشَةُ الشَّاءِ^(٢) يَحْيِيهَا وَقْتَ الرَّبِيعِ .

ويقال يحيى النفوس بتوفيق المبادات ، ويحيى القلوب بأنوار المشاهدات .

ويقال يحيى أحوال المريدين بحسن إقباله عليهم .

ويقال حياة الأوقات بموافقة الأمر ، ثم يحْيِلُ الرضا وسكون الجأش عند جريان التقدير .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ

عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝

دليل انعطاب يقتضى جواز المجادلة فى الله إذا كان صاحب المجادلة على علم بالدليل والحجة

ليستطيع المناضلة عن دينه ، قال سبحانه لنبيه : « وَجَادِلْهُمْ بَالِغِى هِى أَحْسَنُ » وَمَن لَّمْ يُخَيِّنْ

مَذْهَبَ أَتْلُفْهُمْ وَمَا يَتْلُقُ بِهِ مَنِ الشُّبْهِ لَمْ يَكُنْهُ الْإِنْفَصَالُ عَنْ شُبْهِتِهِ ، وإذا لم تكن له قوة

الانفصال فلا يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يَجَادِلَ الْأَقْوِيَاءَ^(٣) مِنْهُمْ ، وهذا يدل على وجوب تعلم علم

الأصول^(٤) ، وفى هذا ود على مَنْ جَحَدَ ذَلِكَ .

قوله جل ذكره ﴿ ثَانِىَ عَطْفِهِ لِضَلِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١) (الحق المطلق الوجود) هذه عبارة لم نصادفنا من قبل فى أى مصنف للشيرازى ، ونحن نطلبها

أهمية خاصة إذا تذكرنا أن هذا اصطلاح لأرباب وحدة الوجود ، فهم يمتدنون الوجود المطلق للحق وما عدا فوجوده نهى متكرر متعدد ، وهذا لا بأس به ، ولكن النتائج التى رتبوها عليه خطيرة . ونظن أنها (الموجود) بدل (الوجود) بدليل ما سبق ذكره عند تفسير الآية « فَيَقَالُ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ » من سورة طه وكنا قد أيدنا ذلك بما ذكره فى كتابه « التخيير فى التذكير » .

(٢) مكنا فى م ولكتها فى س (الشقاء) بالثقاف ونحن نؤثر الأولى لأن المقصود القالة مبنى الربيع و (الشقاء) .

(٣) هكذا فى م ولكتها فى س (إلا قوماً) .

(٤) فى هذا وفيها بلمه رد على من يتهمون الصوفية بمجانفهم العلم ، وعدم احترامهم لقتل ، كما أن فيه رداً على تقنية أنارها بمنى المتكلمين حول وجوب أو عدم تعلم الملأ أصول التوحيد كى يصح إيمانهم ، ومدى ما يكون عليه إيمان العامة الذين لا تتاح لهم فرصة هذا التعلم .

له في الدنيا خزي ونُدْبُهُ يوم

القيامة عذاب الحريق ﴿

يريد أنه متكبر عن قبول الحق ، زاهياً في التحصيل ، غير واضح نظره موضعه ؛
إذ لو فعل ذلك لكان عليه التخلص من شَيْئِهِ .

ثم قال : « له في الدنيا خزي » أي ماله وهوان ، وفي الآخرة عذاب الحريق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْغِي اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ

فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ

أَصَابَتْهُ فَتَنَةٌ أَعْلَبَ عَلَىٰ وَجْهِ خَيْرٍ

الدنيا والآخرة ذلك هو الغميران

المبين ﴿

يعني يكون على جانب ، غير مخلص . . لاله استجابة توجب الوفاق ، ولا جعداً يبين
الشقاق ؛ فإن أصابه أمنٌ وخير ولينٌ اطمأن به وسكن إليه ، وإن أصابته فتنة أو فاته محنة
ارتد على عقبيه ناكساً ، وصار أباً أنلهم من وفاقه عاكساً . ومن كانت هذه صفة فقد شمر
في الدارين ، وأخفق في المترتين .

قوله جل ذكره : ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُ

وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ

البعيد ﴿ يدعو لمن صرّه أقرب

من نفعه ليس المولى وليس

العشير ﴿

أي يعبد من المصرة في عبادته أكثر من النفع منه ، بل ليس في عبادته النفع بحال ،
فالضر المتيقن في عبادتهم الأصنام هو بيان ركازة عقولهم ، ودوياً للناس خدلاً فيعلمهم .
والنفع الذي يترهونه في هذه العبادة ليس له تحصيل ولا حقيقة .

ثم قال : « لبس المولى ولبس المشير » : أى لبس الناصر الصَّم لم ، ولبس القوم م للصم ، ولم لا ؟ ولأجله وصوا في عقوبة الأبد .

قوله جل ذكره ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

« الذين آمنوا » : أى صدّقوا ثم حقّقوا ؛ فالإيمان ظاهره التصديق وباطنه التحقيق ، ولا يصل للمبدإ إليهما إلا بالتوفيق .

ويقال الإيمان (انقسام)^(١) الحق في السر .

ويقال الإيمان ما يوجب الأمان ، ففي الحال يجب الإيمان وفي المآل يوجب الأمان ، فمَجِبُ الإيمان من (. . .)^(٢) المسلمين ، ومؤجِّلُه اخلاص من محبة السكّارين الفاسقين .

وقوله : « وعملوا الصالحات » : العمل الصالح ما يصلح للقبول ، ويصلح للثواب ، وهو أن يكون على الوجه الذى تملّق به الإيمان .

والجنان التى يدخل المؤمنون فيها مؤجلة وممّجلة ؛ فالؤجلة ثواب وتوبة ، والممّجلة أحوال وقربة ، قال تعالى : « وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ »^(٣) .

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ كَانَ يَتُنَبِّئُ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴾

أى أن الحق — سبحانه — يرغم أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم تطب

(١) فى م (انقسام) وفى م (انقسام) ، ونحن نفضل هذه على أنها صيغة (انفصال) من (تسم) فلان العلم أو الخبر أى تطلق فى التماسه حتى تبيته وتبته .

(٢) فى م (سيف) وفى م (سلف) ونحن نؤثر الأول إذ أن الذى يؤمن بآمن — فى الحال — من بطش المسلمين الذين أمروا بقتال أعدائهم جهاداً فى سبيل إطلاء كلمة الإيمان .

(٣) آية ٤٦ سورة الرحمن .

نفسه يشهد بتخصيص الله سبحانه بما أفرد به فليقتل نفسه من النفيض خنقاً ، ثم لا ينفعه ذلك ، كما قيل :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْضَى بِمَا قَد تَرَى فَدَوِّكَ الْحَبْلُ بِهِ فَاتَّقِ
قوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَلِكَ أَتَيْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ ﴾
الله يهدي من يريد ﴿

« آيات ينات » : أى دلالات وعلامات نصّبها الحق سبحانه لبيده ، فمن الآيات ماهوقضية العقل ، ومنها ماهوقضية الظبر والنقل ، ومنها ماهو تعريفات في أوقات المعاملات (١) فما يجده العبد في حالته من انغلاق ، واشتداد قبض ، وحصول خسران ، ووجوه امتحان . . لا شك ولا مرية إذا أخلّ بواجب أو ألتزم بمحذور (٢) . أو تكون زيادة بسط أو حلاوة طاعة ، أو تيسير عسير من الأمور ، أو تجديد إنعام عند حصول شيء من طاعاته . .
ثم قد يكون آيات في الأسرار ، هي خطاب الحق ومحادثة معه ، كما في الظبر :
« لقد كان في الأمم محدثون فإن يك في أمي عصر » (٣)
ثم يقال الآيات ظاهرة ، والحجج زاهرة ، ولكن الشأن فيمن يستبصر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الدِّينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِئِهِمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

أصناف الناس على اختلاف مراتبهم : الولي والصدوق ، والموحد والجاحد يجتمعون يوم
الحشر ، ثم الحق - سبحانه - يعامل كلّا بما وعدّه ؛ إما بوصالٍ بلامدّى ، أو بأحوالٍ

(١) يمكن القول إن هذه هي المصادر الأساسية لما أطلقنا عليه من قبل (أصول الفقه الصوري)
ومنها يتضح اهتمام التشيرى بالعقل ثم النقل ثم ما يحصل من الرقائ نتيجة المجاهدات .
(٢) فإن الاتم ما حاك في صدوق . - كما قال المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .
(٣) وهي التي يطلق عليها التشيرى (الفراصة) انظر الرسالة ص ١١٥ وما بعدها .

بلا منتهى . الوقت واحد ؛ وكل واحد لما أُعِدَّ له وافد ، وعلى ما خُلِقَ له وارد ..

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّبَابُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شُكْرٍ إِنَّ اللَّهَ فَعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾

أهل العرفان يسجدون له سجود عبادة ، وأرباب الجحود كُلُّ جزءٍ منهم يسجد له سجود دلاله وشهادة .

وفي كل شيء آيةٌ تدلُّ على أنه واحد

قوله جل ذكره : ﴿ هَذَانِ خَصَائِمُ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾

أما الذين كفروا فلهم لليوم لباسُ الشرِّ وطرازُه الحرمان ، ثم صدار الإفك وطرازُه الغدلان . وفي الآخرة لباسهم القطران وطرازُه المجران ، قال تعالى : « اخشوا فيها ولا تكلمون » .

أما أصحابُ الإيمانِ فلباسُهم اليومَ التقوى ، وتنقسم إلى اجتناب الشرِّ ثم مجانبته المخالفة ، ثم ميانة الغفلة . ثم مجانبَةُ السكونِ إلى غير الله والاستبشار إلى ماسوى الله . وفي الآخرة لباسُهم فيها حريرٌ ، وآخرون لباسهم صدار المحبة ، وآخرون لباسهم الانفراد به ، وآخرون هم أصحاب التجريد ؛ فلا حال ولا مقام ولا منزلة ولا محلٍّ وهم الغرباء^(١) ، وهم الطبقة العليا ، وهم أحرار من رِقِّ كل مالحقة السكونين .

(١) يقول ابن الجلاء في تعريف الصوف : مفرج مجرد عن الأسباب ، كلز مع الله بلا سكن ، ولا يمنة الحق — سبحانه — من علم كل مكان (الرسالة ص ١١٠) ويقول الحمصى : « الصوف لا تنله أرس ولا نظله سماء » الرسالة (الصفحة داتها) .

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ يَجْلُونَ فِيهَا مِنْ آسَافٍ مِنْ

ذَهَبٍ وَلَوْ لَوْأَ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾

التحلية نخصين لهم ، وسر لا حوالهم ؛ فهم للجنة زينة ، وليس لهم بالجنة زينة :

وَإِذَا الدَّرُ زَانَ حُسْنٍ وَجُودٍ كَانَ لِلدَّرُ حُسْنٌ وَجِبَتْ زَيْنَتَا

قوله جل ذكره: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ

وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾

الطيب من القول ماصدر عن قلب خالص ، وسير صافي (مما برضى به علم التوحيد ،

فهو الذى لا اعتراض عليه للأصول)^(١)

ويقال الطيب من القول ما يكون وعظاً للمسترشدين ، ويقال الطيب من القول هو

إرشاد المريدين إلى الله .

ويقال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويقال الدعاء للسلمين .

ويقال كله حق عند من يُخَافُ وَيُرْجَى (٢) .

ويقال الشهادتان عن قلب مخلص .

ويقال ما كان قائله فيه مفقوداً (٣) وهو مُسْتَنْطَقٌ .

(١) هكذا في س ولا فرق بين البارة في س ، م إلا أنها جاءت في الأخيرة (مما برضى به ...)
والمقصود أن أقوال أرباب القلوب ينبغي الانتعاض مع أقوال أرباب أصول التوحيد لأن الحقيقة لا تعارض
الفرعية في شيء . قاله (فهو) يعود على الطيب من القول الصادر من القلب الخالص والبر الصالح .

(٢) أى عند صاحب سلطان ، وقد عرف الصوفية بشجاعتهم الرائعة في مواجهة أصحاب الأمر والنهي
من الحكام وغيرهم .

(٣) هكذا في س أما في م فهي (مفقوداً) وعلى الأول يكون المعنى أن قوله مسحوب به — ظاهرياً —
حيث لا يستثنى في الباطن ، وعلى الثانى : أى يكون قائله في حال النقد فهو لا ينطق بنفسه بل باق

ويقال هو بيان الاستغفار والمبدء يرى من الذنوب .

ويقال الإقرار بقوله : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » (١) .

ويقال أَنْ تَدْعُوَ لِلْمُحْسِنِينَ بِمَا لَا يَكُونُ لَكَ فِيهِ نَصِيبٌ .

وأما « صراط الحميد » : فالإضافة فيه كالإضافة عند قولهم : مسجد الجامع (أى للمسجد الجامع) والصراط الحميد : الطريق للرضى وهو ما شهدت له الشريعة بالصحة ، وليس للحقيقة عليه تكبير .

ويقال الصراط الحميد : ما كان طريق الاتباع دون الابتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي

جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ

وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْهَادِ يُظْلَمْ

نُذْرًا مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ » .

الصدء عن المسجد الحرام بإخافة السبل ، ويقصَّب اللال الذى لويقي فى يد صاحبه لوصول به إلى المسجد الحرام .

قوله : « سواء العاكف فيه والبادى » (٢) « وإنما يعتبر فيه سبق والتقدم .

ومشهد الكرام يستوى فيه الإقدام ، فَمَنْ وَصَلَ إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ فَلَا تَرْتِيبَ وَلَا رَدَّ ، وبعد الوصول فلا رَجْعَ وَلَا صَدَّ ، أمَّا فى الطريق فرعاً يعتبر التقدم والتأخر ، قال تعالى : « وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ » (٣) ولكن فى الوصول فلا تفاوت ولا تباین ، ثم إذا اجتمعت النفوس فى الموضع الواحد يجمعهم ، ولكن لكل حال ينفرد بها .

(١) آية ٢٣ سورة الأعراف .

(٢) البادى = غير المقيم .

(٣) آية ٢٤ سورة الحجر .

قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ
أَلَّا تَشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَطَهَّرْهُ بَيْتًا
لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ﴾ .

أهملنا له مكان البيت ومسكنه منه ؛ وأرشدناه له ، وهديناه إليه ، وأعناؤه عليه ،
وذلك أنه رفع البيت إلى السماء الرابعة في زمن طوفان نوح عليه السلام ، ثم أمر إبراهيم
عليه السلام ببناء البيت على أساسه القديم . قوله « أَلَّا تَشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » ، أى لا تلاحظ
البيت ولا يناله له .

« وطهر بيتي . . . » يعنى الكعبة - وذلك على لسان العلم ، وعلى بيان الإشارة فرَّغ
قلبك عن الأشياء كلها سوى ذكره - سبعمائة .

وفى بعض الكتب : « أوحى الله إلى بعض الأنبياء فرَّغ لى بيتاً أسكنه ، فقال ذلك
الرسول : إلى . . . أى بيت تشغل ؟ فأوحى الله إليه : ذلك قلب عبدى المؤمن » . والمراد
منه ذكر الله تعالى ؛ فالإشارة فيه أن يفرَّغ قلبه لذكر الله . وتفرغ القلب على أقسام :
أوله من الفقه ثم من توهم شئ من الحديثان من غير الله .

ويقال قد تكون المطالبة على قوم بصور القلب عن ملاحظة العمل ، وتكون المطالبة
على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال .

ويقال « وطهر بيتي » : أى قلبك عن التطلع والاختيار ؛ ألا يكون لك عند الله حظ
فى الدنيا أو فى الآخرة حتى تكون عبداً له بكمال قيامك بمقتضى العبودية .

« ويقال طهر بيتي » : أى بإخراج كل نصيب لك فى الدنيا والآخرة من تطلع لإكرامه ،
أو تطلب إنعام ، أو لإرادة مقام ، أو سبب من الاختيار والاستقبال .

ويقال طهر قلبك للطائفين فيه من موارد الأحوال على ما يختاره الحق . « والقائمين »
وهى الأشياء الثابتة من مسودعات (١) العرفان فى القلب من الأمور المتغيرة عن البرهان ،

(١) هكذا فى مآلى من فهمي (مستوطنات) .

ويتطلع بما هو حقائق البيان التي هي كالبيان كما في الظهور : « كأنك تراه » (١) .
 « والركب السجود » : هي أركان الأحوال المتوالية من الرغبة والرهبة ، والرجاه والمخافة
 والقبض والبسط ، وفي معناه أنشدوا :

لست من جهة المحيين إن لم أجعل القلب بينه والمقام
 وطواف إجماله السر فيهِ وهو ركني إذا أردتُ استلاما
 قوله : « لا تشرك في شيئاً » : لا تلاحظ البيت ولا يَنهك (٢) البيت .

ويقال هو شهود البيت دون الاستغراق في شهود ربه البيت .

قوله جل ذكره : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً
 وعلى كل ضامر يأتين من كل
 فجٍّ عميق »

أذن إبراهيم - عليه السلام - بالحج ونادى ، وأسمع الله نداءه جميع النرية في أصلاب
 آباؤهم ، فاستجاب من المعلوم من حاله أنه يحج .
 وقدم الرجاء على الركبان لأن الحمل على المركوب أكثر (٣) .

ولذلك الجمال على الجمال خصوصية لأنها مركب الأحباب ، وفي قريب من معناه أنشدوا :
 وإن رجلاً قد علاها جمالكُم — وإن قطعت أكبادنا — لجباب

ويقال « يأتين من كل فج عميق » هذا على وجه المدح وسبيل الشكر منهم ،
 وكَم قَدَرُ مسافة الدنيا بجملتها ؟ ولكن لأجل قَدَرِ أفضالهم وتعظيم صنيعهم يقول ذلك
 إظهاراً لفضله وكرمه .

(١) إشارة إلى الحديث (أبعد الله كأنك تراه وعد نفسك من الموت) .
 الطبراني عن أبي الدرداء ، وحسن السيوطي سننه ، ورواه البيهقي عن ماز . وفي الحلية (أهداه
 كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك . . .) .

(٢) هكذا في م أما في س فقد وردت (ولا تبالي) ونحن نرجح ما جاء في م .

(٣) فتقدم الرجاء فيه تخصيص نظراً لما يذللونه من جهد أكبر .

قوله جل ذكره: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ .

أرباب الأموال منافعهم أموالهم ، وأرباب الأعمال منافعهم خلاوة طاعتهم ، ولزمصاب الأحوال منافعهم صفاء أنفسهم ، وأهل التوحيد منافعهم رضاهم باختيار الحق ما يبدو من الغيب لهم .

قوله جل ذكره: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ^(١)﴾

على ما رزقهم من بركة الأنعام ﴿

لأقوام عند التقرب بقرايتهم وسوق هديهم^(٢) . وآخرون يذكرون اسمه عند ذبحهم أمانيهم واختيارهم بسكاكين اليأس . حتى يقوموا بالله لله يحرموا سوى الله .

قوله جل ذكره: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْبَائِسَ

الفقير﴾ .

شاركوا الفقراء في الأكل من ذبيحتكم - الذي ليس بواجب - لتلحقكم بركات الفقراء . والإشارة فيه أن ينزلوا^(٣) ساحة الخضوع والتواضع ، ومجانبة الزهو والتكبر .

قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ﴾

ليقضوا حوائجهم وليحققوا عهودهم ، وليوفوا نذورهم فيما عهده مع الله بقلوبهم ، فبن كان عهده التوبة فوفاه ألا يرجع إلى المصيان . ومن كان عهده اعتناق الطاعة فشرط وفاه ترك قصيره . ومن كان عهده ألا يرجع إلى طلب مقام وتطلع لإكرام فوفاه استقامته على الجملة في هذا الطريق ألا يرجع إلى استعجال نصيب واقتضاء حظ .

قوله جل ذكره: ﴿وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾

الإشارة في الطواف إلى أنه يطوف بنفسه حول البيت ، وبقلبه في ملكوت السماء ، وبسيره في ساحات الملكوت .

(١) أبو حنيفة : هي هري ذى الحجة وآخر ما يوم النحر . ولا كثر المفسرين : هي أيام النحر .

(٢) الهدى = ما يهدي إلى الحرم من التيم ، قال تعالى : « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله » .

(٣) مكنا في م ، ولي س (يتركوا) وربما كانت في الأصل ألا يتركوا فهكنا يقتضى السياق .

قوله جل ذكره: ﴿ذِكْرُكَ وَمَنْ يَعْظِمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ
فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾

تعظيم الحرمات (١) بتعظيم أمره ؛ وتعظيم أمره بِتَرْكِ مخالفته .
ويقال من طلب الرضا بغير رضى الله لم يبارك له فيما آتاه من هواه على رضى مولاه ،
ولا محالة سيلقى مرماً غيماً (٢) .

ويقال تعظيم حرمة بالغيرة على إيمانه (وما قَبَرَ صاحبُ حُرْمَةٍ قط) (٣) .
ويقال ترك الخدمة يوجب العقوبة ، وترك الحرمة يوجب الفرقة .
ويقال كلُّ شئٍ من المخالفات فلمن فيه مساغ وللأمل إليه طريق ، وتَرْكُ الحرمة على
خَطَرٍ لَا يُفْتَرُ . . . وذلك بأن يؤدى ثبوته بصاحبه إلى أَنْ يَحْتَلَّ دينُهُ وتوحيده .

قوله جل ذكره: ﴿وَأَحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى
عَلَيْكُمْ﴾

فالخنزير من جملة المحرمات ، وكذلك النطيحة والموقودة ، وما يجىء تفصيله
فى نصِّ الشرع .

قوله جل ذكره: ﴿وَجَنَّبُوكُمُ الزُّوَاجَ مِنَ الْأَوْثَانِ
وَجَنَّبُوكُمُ الزُّوْرَ﴾

«من» ها هنا الجنس لا للتبويض ، وهوى كل من اتبعه مبعوده ، وضُمُّ كلِّ أحدٍ نَفْسُهُ .
« واجتنبوا قول الزور » : ومن جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده قول القلب
ونطقه ، ومن عاهد الله بقلبه ثم لا ينفى بذلك فهو من جملة قول الزور .

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْ حَتَفَا اللَّهُ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ

(١) مكنا في م ولى س (الجهات) وزجج الأول حيث وردت فى الآية .

(٢) مكنا في م ولى س (نجبه) وزجج (به) بمعنى عاقبه .

(٣) مكنا في م ولى س (وما قَبَرَ صاحبُ طاعة فظ) والبراءة الأول أقرب إلى المعنى .

يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَيْفَا مَا خَرَّ مِنَ
السَّمَاءِ فَتُخَطِّفُهُ الْطَائِرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ
الريحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١١﴾ .

الحنيف المائلُ إلى الحق عن الباطل في القلبِ والتفسير ، في الجهر وفي السر ،
في الأفعال وفي الأحوال وفي الأقوال

« غير مشركين به » : الشُّركُ جِيلٌ وَخِنٌ ^(١) .

قوله « ومن يشرك بالله فكيفاً ما ... » كيف لا .. وهو هوى في جهنم وتجاذبه ملائكة
العذاب ؟ أو تهوى به الريح من مكان سحيق .. وكذلك غداً في صفة قوم يقول الله تعالى :
« نسوا الله فلينسهم » ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْلَمْ شِعَارُ اللَّهِ فَإِنَّهَا
مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ .

يقف المؤمن على تعيين شِعَارِ اللَّهِ وتفصيلها بشهادة العلم جبراً ، وبخواطر الإلهام سرّاً .
وكما لا يجوز مخالفة شهادة الشرع لا يجوز مخالفة شهادة خواطر الحق فإنَّ خاطر الحق لا يكذب ،
وعزيمته من له عليه وقوف . وكما أنَّ النفسَ لا تصدق فالقلب لا يكذب ، وإذا خولف
القلبُ عَيَّ في المستقبل ، واقتطعت عنه تعريفات الحقيقة ، والعبارة ^(٣) والشرح يتناصران
عن ذكر هذا على التبيين والتفسير . ويقوى القلبُ بتحقيق المنازلة ؛ فإذا خرسَت النفوسُ ،
وزالت هواجسها ، فالقلوبُ تتطابق بما تُكاشفُ به من الأمور .

ومن الفرق بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق أن الذي طريقه العلم يعلم
صاحبه أولاً ثم يعمل مختاراً ، وما كان من الحق يجرى ويحصل ثم بعده يعلم من جرى عليه

(١) الشرك الجلي معروف أما الشرك الخفي فهو أن يتنازعه منازع في قلبك من هوى أو حظ أو علاقة
تنأى بك عنه .

(٢) آية ٦٧ سورة التوبة .

(٣) في م و س (والعبادة) وقد رأينا أن تكون (العبارة) بالراء أي أن التعبير عن ذلك بالكلام
والشرح قاصر

ذلك منه ، ولا يكون الذي يجري عليه ما يجري مضطراً إلى ما يجري . وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار^(١) ، بل يكون مختاراً ولكن سببه عليه مشكل ، والعجب من هذا أن العبارة عنه كالبيد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾^(٢) .
ثم يحيلها إلى البيت العتيق ﴿ .

لكل من تلك الجملة منفعة يقدره وحده^(٣) ؛ فلا قوام بركلت في دفع البلاء عن نفوسهم وعن أموالهم ، ولآخرين في فدايات بسطهم ، ولآخرين في حلاوة طاعتهم ، ولآخرين في أنس أفساسهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا نَسْكَاً لِّيَذْكُرُوا ﴾^(٤) .
اسم الله على ما رزقهم من بيبس الأنعام ﴿ .

الشرائع مختلفة فيها كان من المعاملات ، متفقة فيما كان من جملة المعارف ، ثم هم فيها مختلفون : قوم هم أصحاب التضميف^(٥) ، فيا أوجب عليهم وجعل لهم ، وقوم هم أصحاب التخفيف فيا ألزمو وفيا وعد لهم . قوله « لِيَذْكُرُوا اسم الله على .. » وذكر اسم الله على ما رزقهم على أفساس : منها مرقمهم لإنعام الله بذلك عليهم .. وذلك من حيث الشكر ، ثم يذكرون اسمه على ما رزقهم لمعرفته بأنه هو الذي يتقبل منهم وهو الذي يُثيبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا هُمْ لَكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ﴾^(٦) .
وبشر المؤمنين ﴿ .

أَي اسْتَسْلِمُوا لِحُكْمِهِ لَا تَمَيَّسُوا وَلَا اسْتَكْرَاهُوا مِنْ دَاخِلِ الْقَلْبِ .

(١) هذه وجهة نظر باحث صوفي فيما يشغل المتكلمين من الجبر والاختيار .

(٢) أي بحسب ماله من قدر ومهنة ، وما هو واقف عنده من حدودية .

(٣) أصحاب التضميف أي أصحاب التشدد الذين يأبون اتباع الرخص ، لأن الرخص لا تكون إلا لأرباب اللوائح والأشغال ومزلاء لا حاجة ولا شغل لهم إلا بالحق .

والإسلام^(١) يكون بمعنى الإخلاص ، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات ، ثم تصفية
الأفلاق من الكسورات ، ثم تصفية الأحوال ، ثم تصفية الأنفس . « وبشرُ المحبتين » :
الإخبارات استدامة الطاعة بشرط الاستقامة بقدر الاستطاعة . ومن أملاوات الإخبارات كمالُ
الخصوع بشرط دوام الخشوع ، وذلك بإطراق السريرة .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ ﴾
قلوبهم ﴿ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ﴾ .

الْوَجِلُ الخوفُ من الخافة ، والْوَجِلُ عند الذكر على أقسام : إما لخوف عقوبة متحصل
أو لخافة عاقبة بالسوء تنجم ، أو لخروج من الدنيا على غفلة من غير استعداد للموت ،
أو لإصلاح أُمِّيَّة ، أو حياء من الله سبحانه في أمورٍ إذا ذُكِرَ إطلاعه — سبحانه — عليها
لما بَدَرَتْ منه تلك الأمور التي هي غير محبوبة .

ويقال الوَجِلُ على حسب تعجل الحق للقلب ؛ فإن القلوب في حال المطالعة والتعجل
تكون بوصف الوجيل والهيبة .

ويقال وَجِلٌ له سبب ووجِل بلا سبب ؛ فالأول خافة من تقصير ، والثاني معدودٌ في
جملة الهيبة^(٢) .

ويقال الوَجِلُ خوفُ المكْر والاستدراج ، وأقربهم من الله قلباً أكرمهم من الله
— على هذا الوجه — خوفاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ ﴾ .

أى خالدين تحت جريان الحكم من غير استكراه ولا تنمى خُرْجَةٍ ، ولا رَوْمَ فُرْجَةٍ
بل يَسْتَسَلِمُ طَوْعاً :

(١) مكناً في م ولكتها في م (السلام) والصواب الأولى في الآية (أسلوا) .
(٢) فالخوف إذن أدنى منزلة من الهيبة ، ولترتيب هكذا : الخوف والرجاء ثم التبتن والبسط ثم الهيبة
والأنس (الرسالة م ٣٥ و م ٣٦) .

ويقال الصابرين على ما أصابهم . أى الحافظين معه أسرارهم ، لا يطلبون السوة بالاطلاع الخلق^(١) على أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿والتبى الصلاة﴾ .

أى إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف فى محلّ التجوى :
إذا ما تجي الناس رَوْحاً وَرَاحَةً تَمْنِيْتُ أَنْ أَشْكُو إِلَيْكَ فَتَسْمَأَ
قوله جل ذكره : ﴿وَمَارَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

عند المماثلة من أموالهم ، وفى قضايا المنازلة بالاستسلام ، وتسليم النفس وكل ما منك
وبك لطوارق التقدير ، فينتقون أبدانهم على تحمل مطالبات الشريعة ، وينفقون قلوبهم على
التسليم والحمود تحت جريان الاحكام بمطالبات الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ

اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ
عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِيتُ جَنُوبَهَا
فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَالْمَعْرُ
كَنْظَكُمْ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾

أقسام الظاهر فيها كثيرة بالركوب والجل عليها (وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع
بوبرها ثم الاعتبار بخلقيتها كيف سُخِّرَتْ للناس على قوتها وصورتها ، ثم كيف تنقاد للصبيان
فى البروك عند الحمل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها)^(٢) وصرها على العطش
فى الأسفار ، وعلى قليل العلف ، ثم مافى طبيعتها من لطف الطبع ، وحيث تستريح بالخداء مع
كثافة صورتها إلى غير ذلك .

(١) هكذا فى م ولكنها فى م (بإطلاق الحق) والصواب الأول لأنهم لا يزعون الخلق طلباً للسوة
فما يسببهم من الحق وفى هذا حفظ لأسرارهم .
(٢) ما بين القوسين موجود فى م وساقط من م .

« فَإِذَا وَجِيتَ جَنُوبَهَا » : أى سقطت على وجه الأرض فى حال النحر فاطمءنوا القانع الذى ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره لئلا ، والمُستتر الذى هو فى تحبُّله مُتَحَبِّلٌ ، ولمواضع فاقته كاتم .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

لإعبرة بأعيان الأفعال سواء كانت بدنية محضة ، أو مالية صرفة ، أو بما له تعلق بالوجوبين ، ولكن المبرة باقتنائها بالإخلاص^(١) ، فإذا انضاف إلى أكساب الجوارح إخلاصُ القصد ، وتَجَرَّدَتْ من ملاحظة أخصايها للأغيار صَلَّحَتْ لقبول^(٢) .

ويقال التقوى شهودُ الحق بِنَعْتِ التفرُّد ؛ فلا يُشَابُ تَقَرُّبُكَ بملاحظة أحد ، ولا تأخذ عِوَضًا على عملٍ من بَشَرٍ .

« لتكبروا الله على ما هداكم » : أى هداكم وأرشدكم إلى القيام بحق المبودية على قضية الشرع .

« وبشر المحسنين » : والإحسان كما فى الخبر : « أن تعبد الله كأنك تراه . . . » .

وأما رُوحه صمته ستوط النعب بالقلب عن صاحبه ، فلا يستقل شيئاً ، ولا يتبرم بشيء .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

(١) يقال إن سبب زول هذه الآية أن أهل الجماعة كانوا إذا نَحَرُوا الإبل نَضَعُوا الدماءَ - إل البيت ولَطُخُوهُ بالدم ، فلما حج المسلمون أرادوا مثل ذلك فنزلت الآية .

(٢) يرى القشيري أن هذا جوهر البادات جيداً ، أن تكون خالصة لله ، وقد فصلنا ذلك عند بحثنا .

القشيري المفسر .
انظر كتابنا (الإمام القشيري ومذهبه فى التصوف) ط مؤسسة الحلبي .

يدفع عن صدورهم نزعت الشيطان ، وعن قلوبهم خطرات المعصيات ، وعن أرواحهم طوائف الثنيتين .

والحياة على أقسام : حياة في الأموال تفصيلها في المسائل الشرعية ، وحياة في الأعمال ، وحياة في الأحوال ؛ حياة الأعمال بالرياء والتنصنع ، وحياة الأحوال بالملاحظة والإعجاب والمساكنة ، وشرها الإعجاب ، ثم المساكنة وأخطاها الملاحظة^(١) .

ويقال حياة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا (على) طلب الأعواض ليجدوا في الآخرة حسن المال . . وهذا إخلاص الصالحين . ولكنه عند خواص الزهاد حياة ؛ لأنهم تركوا دنياهم لله ولكن لوجود العوض على تركهم ذلك من قبل الله .

وحياة العابدين أن يذهبوا شهواتهم ثم يرجعون إلى الرخص ، فلو صدقوا في مزاجهم كما انحسروا إلى الرخص بعد تركهم فيها .

وحياة الملوذين جنوحهم إلى وجود مقام ، وتطلعهم لنال منزلة وإكرام من الحق ونوع تقرب .

وحياة المحبين يوم فرحة^(٢) مما يسبغهم من برحمة المواجهين ، وإبتغاء خربة مما يشتد عليهم^(٣) من استيلاء صدم ، أو غلبت شوق ، أو تنادى أليم هجر .

وحياة أولي التوحيد أن يتحرك لهم للاختيار عرق ، ورجوعهم — بعد امتحانهم عنهم — إلى شظية من أحكام الفرق ، اللهم إلا أن يكون ذلك منه : وداً ، وهم عنه معقودون^(٤) .

(١) نلت النظر إلى أهمية ذلك من : دراسة المصطلح الصول ، خاصة وأن التشيرى لم يحكم من ذلك في رسالته .

(٢) (على) طلب الأعواض منها لأجل طلب الأعواض .

(٣) (روم) في م و (روح) في م ، رتل أنيا (فرجة) بالجيم كما سبق منذ قليل حين استعمال التشيرى (مرجة ، وخرجة) في سياق مماثل .

(٤) هكذا في م وهي في م ما (يشق عليهم) وكلاماً مقبول في السياق .

(٥) معنى هذا أن التشيرى يعلم بأنه قد يحدث من اللبد الواله ما يلبي أن ينفذ فيه ، إن صح صدقه في التوجه ، واشتد وقع الحس عليه .

قوله جل ذكره: ﴿أَذِنَ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ .

إذا أصابهم ضرٌّ أو مسَّهم — ماهو في الظاهر — ذُلٌّ من الأعداء يجري عليهم ضَمٌّ ، أو يلحقهم من الأجانب استيلاء وظلمٌ . . فالحقُّ — سبحانه — ينتقمُ من أعدائهم لأجلهم ، فهم بنمت التسليم والسكون في أغلب الأحوال ، وتقاصيلُ الأقدارِ جاريةٌ باستتصالٍ من ينابوهم ، وبإحالة الدائرة على أعدائهم . وفي بعض الأحيان ينصبهم الحقُّ سبحانه بنمت القنبة والتكسين من نزولهم بسلاحات من ينلوهم بحسن الظفر ، وتعلم حصول الدائرة على من نأصبهم ، وأخزاهم بأيديهم ، وكلُّ ذلك يتفق ، وأنواعُ النصرة من الله — سبحانه — حاصلة ، واللهُ — في الجملة — غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ يَنْصِرُ حَقِّي إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾

المظلومُ منصورٌ ولو بعد حين ، ودولة الحق تغلب دولة الباطل ، والمظلومُ جيدُ المقبى ، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلى : « فذلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » (١) . وقد يجري من النفس وهو أجهلها على القلوبِ لبعض الأولياء وأهل القمية — ظلمٌ ، ويحصلُ لسكانِ القلوبِ من الأحوالِ الصافية عنها جلاء ، وتستولى غَاغَةُ النَّفْسِ ، فتعمل في القلوبِ بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تنداعى القلوبُ للخراب من (٢) طوارق الحقائق وشوارق الأحوال ، كما قال قائمهم :

أنى إليك قلباً طالما هطلتْ سحابُ الجودِ فيها أبخرَ الحكمَ

فَيَبْرِزُ الحقُّ — سبحانه — بمجنود الإقبالِ أراذلَ المواجهِ ، وينصرُ عسْكَرَ التحقيقِ بأمدادِ الكشوفات . ويتجدَّدُ دارمُ المهدي ، وتطلُعُ شمسُ السَّعْدِ في لبالِ السَّدرِ ، وتُكسِّنُ القلوبُ وتطهر من آثارِ ظُلْمَةِ النَّفْسِ ، كما قيل :

(١) آية ٥٢ سورة النمل .

(٢) للخراب من طوارق الحقائق (أى بسبب غلورها من طوارق الحقائق

أَطْلَالُ سُدِّي بِاللَّوِي تَتَجَدَّدُ

إِذَا هَبَّتْ عَلَى تِلْكَ الْقُلُوبِ رِيحُ الْعَنَاءِ ، وَزَالَ عَنْهَا وَهْجُ النِّسْيَانِ سَقَاها اللهُ صَوْبَ (١)
التَّجَلَّى ، وَأُنْبِتَ فِيهَا أَزْهَارَ الْبَسْطِ فَيَتَضَحَّى فِيهَا نَهَارُ الْوَصْلِ ، ثُمَّ يَوْجَدُ فِيهَا نَسِيمَ الْقَرَبِ إِلَى
أَنْ تَطْلُعَ شُمُوسُ التَّوْحِيدِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَفُتَّتْ صَوَائِعُ وَيَعٍ وَصَلَاتٌ
وَسَاجِدٌ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا وَلَيُنْصِرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ
إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

يَتَجَاوِزُ مِنَ الْأَصَاغِرِ لِقَدْرِ الْأَكْبَرِ ، وَيَعْفُو عَنِ الْعَوَامِ لِاحْتِرَامِ الْكِرَامِ .. وَتِلْكَ
سُنَّةُ أَجْرَاهَا اللهُ لِمُسْتَقَاءِ (٢) مَنَازِلِ الْعِبَادَةِ ، وَاسْتِصْفَاءِ مَنَاحِلِ الْعِرْطَانِ . وَلَا تَقْوِيلَ لِسُنَّتِهِ ،
وَلَا تَبْدِيلَ لِكَرِيمِ عَادَتِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَامُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

إِذَا طَالَتْ بِهِمُ الْمُدَّةُ ، وَسَاعَدَمَ الْعَمْرُ لَمْ يَسْتَفْرِغُوا أَعْمَالَهُمْ فِي اسْتِجْلَابِ حُظُوظِهِمْ ،
وَلَا فِي اخْتِنَانِ مَحْبُوبِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا أَوْ مَطْلُوبِهِمْ ، وَلَكِنْ قَامُوا بِأَدَاءِ حُقُوقِهَا .
وَقَوْلُهُ : « أَقَامُوا الصَّلَاةَ » : فِي الظَّاهِرِ ، وَاسْتِدَامُوا الْمَوَاصِلَاتِ فِي الْبَاطِنِ .

(١) الصَّوْبُ مِنَ الْمَطَرِ يَقْدُومُ وَلَا يُوْذِي (الْوَسِيطُ) .

(٢) مَكَانًا فِي مَوْلَاكُنَّهَا فِي س (لَا سَلْفَاءَ) . وَقَدْ أَثَرْنَا (اسْتِصْفَاءَ) لِلْمَاءِ مِنْهَا (لَا اسْتِصْفَاءَ) الَّتِي يَهْدَاهَا
وَلَا تَسْجُدُ أَنْهَا قَدْ تَكُونُ (لَا اسْتِصْفَاءَ) فِي الْأَسْلَافِ عَلَى مَعْنَى : وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا لَمْ يَكُنْ
مَنَازِلُ الْعِبَادَةِ ، لِأَنَّ الْكَافِرِينَ إِذَا انْصَرَفُوا لَمْ يَتَرَكُوا مَعَابِدَ .

ويقال إقامة الصلاة الوفاء بأدائها؛ فتعلم — بين يدي الله — مَنْ أَنْتَ ، وَمَنْ تَتْلَحِي ، وَمَنْ الرقيب عليك ، ومن القريب منك .

وقوله : « وَأَتُوا الزَّكَاةَ » : الأغنياء منهم يؤفون بـ زكاة أموالهم ، وقراءم يُؤْتُونَ زكاةَ أحوالهم ؛ فزكاة الأموال من كل مائتين خمسة للقراء والباقي لم ، وزكاة الأحوال أن يكون من مائتي نفس تسعة وتسعون ونصف جزء ومائة لله ، ونصف جزء من نفس — من المائتين — لك . . . وذلك أيضاً علة^(١) .

قوله « وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » : يبتدئون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأنفسهم ثم بأغيارهم ، فإذا أخذوا في ذلك لم يتفرغوا من أنفسهم إلى غيرهم .

ويقال « الأمر بالمعروف » حفظ الحواس عن مخالفة أمره ، ومراعاة الأنفاس معه لإجلال لِقْدَرِهِ .

ويقال الأمر بالمعروف على نفسك ، ثم إذا قَرَعْتَ من ذلك تاخذ في نهيهما عن المنكر ومن وجوه المنكر الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * ٥٥٠ ﴾

في الآيات تسليية للنجي — صلى الله عليه وسلم ، وأمر حَتَمَ عليه بالصبر على مفاسدة ما كان يلقاه من قومه من فنون البلاء وصنوف الأسواء^(٢) .

(١) لأنه ينبغي ألا تكون لك في نفسك بقية على الإلحاق ، ويجب أن تكون بكلبك لائق .

(٢) أسواء = جمع سوء .

قوله جل ذكره : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ .

الظلمُ يُوجبُ خرابَ أوطانِ الظالم ، فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه ، فالوحشة التي هي غالبية على الظلمة من ضيق صدورهم ، وسوء أخلاقهم ، وتقرط فيض من يظلمون عليهم . . كل ذلك من خراب أوطان راحتهم ، وهو في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم .

ويقال خرابُ منازلِ الظلمة ربما يتأخرو ربما يتمجل . وخرابُ نفوسهم في تعطلها عن العبادات لشؤم ظلمهم ، وخرابُ قلوبهم باستيلاء الغفلة عليهم خصوصاً في أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم^(١) فقد غيرمتأخر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَبْرُءُ مُعْطَلَةً وَاقْصِرْ كَبَدٍ ﴾ .

الإشارة في « يبرء معطلة » : إلى العيون المتفجرة التي كانت في بواطنهم ، وكانوا يستقون منها ، وفي ذلك الاستقاء حياة أوقاتهم من غلبت الإرادة وقوة الواجيد ، فإذا انصفوا بظلمهم فكأنهم غلبوا^(٢) واقطع ماؤها بالسداد عيونها .

والإشارة في « قصر مشيد » إلى تعطيل أسرارهم عن ما كنبها من الهية والأنس ، وخلو أرواحهم من أنوار الحب ، وسلطان الاشتياق ، وصنوف الواجيد .

قوله جل ذكره : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْيَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْيَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(١) (نقد) هنا معناها 'مبجل' ، تتأجل (وعد) في المؤجل .

(٢) الفناء = الفناء من الماء ، المتلذذ بفناء الأنبياء من وجه الأرض والرغبة العفدة .

كانت لم قلوب من حيث الخلقة ، فلما زابتها صفاتها المحسودة صارت كأنها لم تكن في الحقيقة . ثم إنه أخيراً أنعم على القلب وكذلك الصم ، وإذا صحَّ وصف القلب بالسمع والبصر صحَّ وصفه بغير صفات الحى من وجوه الإدراكات ؛ فسبحا تبصر القلوب بنور اليقين يدرك لسم الإقبال بِسَمِّ السِّرِّ ، وفي الخبر :

« إني لأجد نفسَ ربكم من قِبَلِ النِّينِ » وقال تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام :
« إني لأجد ريح يوسف »^(١) وما كان ذلك إلا بإدراك السرائر دون اشتباه وبعيد في الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْمَنَاقِبِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

عند تصديقهم حكمهم على استعمال ما توعدهم به ، قال تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها »^(٢) ولو آمنوا لصدقوا ، ولو صدقوا لتسكتوا . « وإن يوماً عند ربك كألف سنة : أى إن الألف سنة تنسأى ، إذ لا استعمال له في الأمور ؛ فسواء عنده يوم واحد وألف سنة ؛ إذ من لا يجرى عليه الزمان وهو يجرى الزمان فسواء عليه وجود الزمان ، وعدم الزمان وقلة الزمان وكثرة الزمان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ :

الإمهال يكون من الله — سبحانه وتعالى ، والإمهال يكون بأن ينزع الظالم في ظلمه حيناً ، ويوسع له الحبل^(٣) ، ويطلق به الحبل ، فيتوهم أنه اغفلت من قبضة التقدير ، وذلك ظنه الذى

(١) آية ٩٤ سورة يوسف .

(٢) آية ١٨ سورة الشورى .

(٣) هكذا في م ولكنها في م (الحبل) بالياء جمع حبة ، وربما تأييد منه بقوله لها بعد (وكيف يستين بالحيلة ما حق في التقدير عدمه) .

أرادهُ ، ثم يأخذهُ من حيث لا يَنتَظِرُ ، فيملؤهُ نَدَمٌ ، ولات حِينَهُ ، وكلفَ يَسْتَقِي بِالْحَبْلَةِ
ما حق في التقدِيرِ عَدَمُهُ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ
نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ :

أَشَابِكُمْ فِي الصُّورَةِ وَلَكِنِّي أَبَايُكُمْ مِنْ حَيْثُ السَّرِيَّةِ ، وَأَنَا لِمُحْسِنِكُمْ بَشِيرٌ ،
وَلِئَلَّيْسَ بَيْنَكُمْ نَذِيرٌ ، وَقَدْ أَتَيْتُ بِإِلَافَةِ الْبَرَاهِينِ مَا حَرَّجَتْكُمْ بِهِ مِنْ وَجْهِهِ وَجْهَ الْأَمْرِ
بِالطَّاعَةِ وَالْإِحْسَانِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

النَّاسُ — فِي الْمَغْفِرَةِ — عَلَى أَقْسَامٍ : فَهُمْ مِنْ يَسْتَرُ^(١) عَلَيْهِ زُلْمَتُهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَرُ
عَلَيْهِ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ صِيَانَةً لَهُ مِنَ الْمَلَاظَمَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَرُ حَالَهُ لثَلَاثُصِيَّةٍ مِنَ الشُّهُورَةِ
فَتَنَةً^(٢) ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا :

لَا تُنْكَرُونَ جُحْدِي هَؤُلَاءِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ الْجَعْدُ عَلَيْكَ سِتْرٌ مُسْبِلٌ
وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَرُهُ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ ، فَتِلْكَ وَرَدَ فِي الْكِتَابِ : « أَوْلِيَائِي فِي قَبَائِي ، لَا يَشْهَدُ
أَوْلِيَائِي غَيْرِي » .

« وَالرِّزْقُ الْكَرِيمُ » مَا يَكُونُ مِنْ وَجْهِ الْخِلَالِ . وَيُقَالُ مَا يَكُونُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَحْتَسِبُ الْعَبْدُ .

وَيُقَالُ هُوَ الَّذِي يَبْدُو — مِنْ غَيْرِ ارْتِقَابٍ — عَلَى رَفْقٍ فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ .

وَيُقَالُ هُوَ مَا يَحْمِلُ الْمَرْزُوقَ عَلَى صَرْفِهِ فِي وَجْهِ الْقَرْبَةِ . وَيُقَالُ مَا فِيهِ الْبَرَكَةُ .

وَيُقَالُ الرِّزْقُ الْكَرِيمُ الَّذِي يُنَالُ مِنْ غَيْرِ تَمَبٍ^(٣) ، وَلَا يَقْتُلُهُ مِنْهُ خَلْقٌ .

(١) لِأَنَّهُ كَسَّرَ مَعْنَاهَا فِي الْفَتْحِ سِتْرٌ .

(٢) وَهَذِهِ إِحْدَى الْأَشْكَارِ الَّتِي لِقَطِ أَصْحَابِ الْمَلَامَةِ فِي الْعَمَلِ بِهَا ، وَحَتَّى أَنْبَاهُمْ عَلَيْهَا .

(٣) (الَّذِي يُنَالُ مِنْ غَيْرِ تَمَبٍ) هُنَا مَعْنَاهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِحْجَالٍ ، وَمِنْ غَيْرِ بَعْرِ عَنْ التَّغْوِيزِ وَالتَّوَكُّلِ ،
وَمِنْ غَيْرِ اعْتِدَادٍ عَلَى خَلْقٍ . وَنَحْوُ ذَلِكَ مَا قَدْ يَهْدِمُ صَرْحَ الْأَسْلَامِ الْكَامِلِ فَرَاذِقُ الْوَهَابِ سَبْعَانَهُ .

قوله جل ذكره: ﴿وَالَّذِينَ سَكُوا فِي آيَاتِنَا مُعَازِينَ﴾
أولئك أصحابُ الجحيمِ .

في الحال في مسجَلِه الروحِ والسادُّ أبوابِ الرشدِ ، ونفصُ الميئشِ ، والابتلاءِ بين
لايمانٍ عليه من لا يخافون الله .

وفي الآخرة ما سيقولون من ألمِ العقوبة على حسب الاجرام ..

قوله جل ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ
وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ
فِي أَمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي
الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

الشياطين ينزعون للأنبيا عليهم السلام ولكن لاسلطان ولا تأثير في أحوالهم منهم ،
ونبيئنا — صلى الله عليه وسلم — أفضل الجماعة .

وإنما من الشيطان تضليلٌ وتسويلٌ (من التضليل) ^(١) . وكان لنبيئنا — صلى الله عليه
وسلم — سكتاتٌ في خلال قراءة القرآن عند اقضاء الآيات ، فينلْقَطُ الشيطانُ ببعض
الألفاظ ^(٢) ، فمن لم يكن له تحصيلُ نَوْحِهِمْ أنه كان من ألفاظِ الرسولِ — عليه الصلاة والسلام
وصار فتنَةً لقومٍ .

(١) هكنا في ص ولكن في م وردت هكنا (وليس به شيء من التضليل) ونحسب ان هنا استز
ملازمة لبقاى حسباً يوضح من المامش التالى .

(٢) قيل كان الرسول صلوات الله عليه وسلامه يقرأ بين قومه سورة النجم حتى إذا وصل إلى (ومناة
الثالثة) لأخرى (جرى على لسانه تلك الفرائق الملى ، وإن شفاعتهن لترجي) فنبه جبريل لما لم يفتن له .
و... لأن النبي معصوم من اجراء الشيطان عليه ، ومعصوم من النطق . ولأنه لا يُشَقَّلُ أن يجرى على
لسانه مدح للأصنام — فقد جاء لتعليقها — فيرى بعض المقرئين أن الشيطان تكلم بهذه الكلمات —
وقد وقع ذلك يوم بدر ويوم أحد — وتداخلت الكلمات في قراءة النبي (ص) أثناء سكتة من سكتاته —
بِأَشْبهَ العَشْرَى .

أما — الذين أيدم بقوة العصمة ، وأدركتهم العناية فقد استنبصوا ولم يُضرم^(١) ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿لَيْجَمَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً

لَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ

قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ

بَعِيدٍ﴾ .

إذا أراد الله بِعَبْدِهِ خيراً أَمَدَهُ بنور استحقاق ، وأَيَّدَهُ بحسن العصمة ، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل ؛ فلا يظلمه غمام الرُيْبِ ، وينجلي عنه غطاء الغفلة ، فلا تأثير لضباب الغدأة في شطاع الشمس عند متوَع النهار ، وهذا معنى قوله :

﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ

لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي يَرِيبَةٍ مِنْهُ حَتَّى

تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ

عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ .

قوله جل ذكره : ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ :

لم يتخصص ملكه — سبحانه — بيوم ، ولم تتحدد له وقته أمر ، ولا لجلاله

قَدْرٌ^(٢) ، ولكنَّ العلوَى في ذلك اليوم تنقطع ، والظنون ترتفع ، والتجوزات تتلاشى^(٣) ؛

فالمؤمنين وأهل الوفاق نعيمٌ ، والكفار وأصحاب الشقاق نعيمٌ .

(١) مضطهما هكنا ولا بأس — من حيث المعنى — أن تضبط (ولم يضرم ذلك) لما حدث من

الفتنة لم يملح بهم خيراً ولا ضرراً ؛ فقد أدركتهم العناية .

(٢) أى أنه يحل عن التحديد بزمان وتقدر فهو المطلق الذى لا يتأخر .

(٣) العماوى والظنون والتجوزات هى تهم النفس والقل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَالَّذِينَ
هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا
أَوْ مَاتُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

هؤلاء لهم عذاب مهين ، وهؤلاء لهم فضل مبین .
« وَالَّذِينَ هَاجَرُوا ... » : قلوب حلاوة العرفان ، والأرواح حلّة الحجاب ، والأسرار
دوام الشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ
لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ .

إدخالاً فوق ما يَتَمَنَوْنَ ، وإبقاء على الوصف الذي يُهَدُونَهُ . . ذلك في أوان مصوم لينالوا
لطائف الأنس على وصف الكمال ، ويتمكنوا من قضايا البسط على أعلى أحوال السرور .
قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ وَمِنْ عَاقِبِ امْتِلَإِ مَا عَوْقِبَ بِهِ
ثُمَّ يُبَيِّنْ عَلَيْهِ لِيُفْصِرَنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ .

نَصْرُهُ — سبحانه — للأولياء نصرٌ عزيز ، وانتقامه بنام ، واستنصاه بكل ، وإزهاقه
أعداءه بتعميق جملتهم ، وألا يحتاج المنصور إلى الاحتيال أو الاعتصاف بأشكال ^(١) .
قوله جل ذكره : ﴿ ذَٰلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ يُرِلُّجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ
وَيُرِلُّجُ النَّهَارِ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

(١) أي لا يحتاج المنصور إلى حيلة أو أي تدبير إنساني من جانبه ، بل يسقط تدبيره ، لأن النصر له من
عند الله ، ولا يحتاج المنصور إلى أن يتعبد بأعماله من الخلق فكأن الله له ناصرًا ومبينًا .

كأنّ أفق المآلَم لَيْلٌ ونهار فكذلك السرائر ليل ونهار ؛ فعند التجلي نهار وعند السر ليل ، والليل السّر ونهاره زيادة وقصان ، فبمقدار القبض ليلٌ وبمقدار البسط نهارٌ ، ويزيد أحدهما على الآخر وينقص . . وهذا للعارفين . فأما المحققون فلمهم الأنسُ والهيبةُ مكانَ قبض قوم وبسطهم ، وذلك في حالي صغوم وجموم ، ويزيد أحدهما وينقص ، ومنهم من يدوم نهاره ولا يستل عليه ليلٌ . . وذلك لأهل الأنس قطع^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

إذا بدا علمٌ من الحقائق حَصَلَتْ بمقداره شظية من الفناء لَيْنَ حَصَلَ له التجلي ، ثم يزيد ظهور ما يبدو وينقلب ، وتتناقص أنوار التفرقة وتلتصق ، قال: صلى الله عليه وسلم : « إذا أقبل النهارُ من هاهنا أدبر الليلُ من هاهنا » فإذا نأى المبدأ بالكلية عن الإحساس بما دون الله فلا يشهد أولاً الأشياء إلا الحق ، ثم لا يشهدا إلا بالحق ، ثم لا يشهد إلا الحق . . فلا إحساس له بفقر الحق ، ومن جملة ما ينساه . . نفسه والكون كله^(٢) .

قوله جل ذكره: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها ، وماء الرحمة يحيي أحوال أهل الزلّة بعد تزيكها ، وماء العناية يحيي أحوال (. . .)^(٣) بعد زوال ريقها ، وماء الوصلة يحيي أهل القرية بعد لصوبها .

(١) كثير من المطلعات الصوفية لا يفهم فهماً دقيقاً إلاّ بطريق الممارسة المتبعة على مظاهر الطبيعة
تأليل والتأهار والجبال والبحار والسحب . . . إلخ .
وقد استل التشيرى — في ظلال القرآن الكريم — هنا الجانب .
(٢) تغيد هذه التفرقة في توضيح مراتب الشهود .
(٣) في م (الناس) وفي م مكتوبة مكثفاً (المتأليس) .

قوله جل ذكره : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

المُلكُ له ، وهو عن الجميع غني ، فهو لا يستغنى بملكه ، بل ملكه بصير موجوداً بخلقه
إياه ؛ إذ المدوم له مقدور والمقدور هو المملوك .

ويقال كما أنه ^(١) غني عن الأجانب ممن أثبتهم في شواهد الأعداء فهو غني عن الأكابر
وجميع الأولياء .

ويقال إذا كان الغني حميداً فعنى ذلك أنه يُعطى حتى يُشكر .

ويقال الغني الحميد للشيخ الحميد : أعطى أو لم يُعط ؛ فإن أعطى استحق الحمد الذي
هو الشكر ، وإن لم يُعط استحق الحمد الذي هو المدح ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم
مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ
بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى
الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

أراد به تسخير الانتفاع بها ؛ فالخلق ^(٣) به انتفاع وميسر له في الاستمتاع به فهو
كالمُسخر له على معنى تمكينه منه ، ثم يُرأى فيه الإذن ؛ فمن استمتع بشيء على وجه الإباحة
والإذن والدعاء إليه والأمر به فنلك إنعلم وإكرام ، ومن كان بالعكس فكرك واستدراج .

وأما السفينة .. فالعلم العبد بصنعها ووجوه الانتفاع بها ؛ بأخل فيها وركوبها فإن أعظم إحسان
الله وإرفاقه بالعبد ، ثم ما يحصل بها من قطع للسافات البعيدة ، والتوصل بها إلى المضارب

(١) هكذا في م وهي في س (أنت) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

(٢) ذيل هذا تقول في صلاتنا : « الحمد لله رب العالمين » أي تشكر في السراء ، ونمدحك في العراء .
فالحمد أهم والشكر أو المدح أخف .

(٣) ووجدت هكذا في م وهي في س (الحق) وهي خطأ في النسخ كما هو واضح .

النائية، والنسكن من وجوه الارتفاع في ذلك أعظم نعمة، وأكمل عافية .

وجعل الأرض للخلق قراراً من غير أن تميد، وجعل السماء بناء من غير وقوع، وجعل فيها من السكاك ما يحصل به الاهتداء في الظلام، ثم هي زينة السماء — وفي ذلك من الأدلة ما يوجب قبح الصدر وبرّد اليقين .

قوله جل ذكره: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَسَكُفُورٌ ﴾

إحياء النفوس وإماتتها مرات محصورة، وإحياء أوقات العباد وإماتتها لا حصر له ولا عدد، وفي معناه ألدوا .

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت

ويقال يحيي الآمال بإشهاد تفضله، ثم يميتها بالاطلاع على تعزّزه .

ويقال هذه صفة العوام منهم، فأما الأفاضل فحياتهم مسرمة وامتثالهم مؤبد . وأتى يحيي غيره وفي وحده — سبحانه — غنية وخلف عن كل قائم (١) ؟

قوله جل ذكره: ﴿ لِكُلِّ أُمَةٍ جُمْلَةٌ مِّنْكُمْ نَوَاسِكُوهُ

فَلَا يَنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى

رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٌ ﴾

يجعل لكل فريق شريعة ثم واردوها، ولكل جماعة طريقة ثم سالكوها .

وجعل لكل مقام سكّاته، ولكل محل قطّاته، وقد ربط كلّ بما هو أهل له، وأوصل كلّ إلى ما جله محلاً له، فبسط التعبد موطوء بأقدام العابدين، ومشاهد الاجتهاد معسورة بأصحاب التكلف من المجتهدين، وبجالس أصحاب المعارف مانوسة بلزوم المعارفين، ومنازل المجيئين مأهولة بحضور الواجدين .

(١) هكذا في اللخطين، ونحن لا نلتجئ أن تكون في الأصل (فان) ؛ فسواء كان الفناء بالمعنى المريد أو بالمعنى الصوري فإنها ملجئة مع السياق . ولأن القشيري يستعمل هذا الأسلوب كثيراً : فكفى به حنفاً لك عند فناءك عنك .

قوله : « فلا ينازعك في الأمر الأمر ... » إشهد تصاريق الأقدار ، واجعل بموجب التكليف ، واثقه دون ما أذنت له من المناهل .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ جَادَلْكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَسْمُونَ ﴾

كَلِمُهُمُ إِلَيْنَا عِنْدَمَا رَامُوا مِنَ الْجِدَالِ ، وَلَا تَسْكُلْ عَلَى مَا تَخْتَارُهُ مِنَ الْإِحْتِيَالِ ، وَاحْذَرِ جَنُوحَ قَلْبِكَ إِلَى الْإِسْتِمَاعَةِ بِالْأَمْثَالِ وَالْأَشْكَالِ ، فَإِنَّهُمْ قَوَالِبُ خَلُوعٍ ، وَأَشْبَاحُ عَنِ الْمَانِي خَالِيَةٍ .
قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

أَمَّا الْأَجَانِبُ فَيَقُولُ لَمْ : « كُنِيَ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِبِيًّا » (١) ، وَأَمَّا الْأَوْلِيَاءُ فَقَوْمٌ مِنْهُمْ بِحَاسِبِهِمْ حَسَابًا يَسِيرًا ، وَأَقْوَامٌ مَخْصُوصُونَ يَقُولُ لَمْ : بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ حَسَبٌ ؛ فَلَا جَبْرِيلَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَلَا مِيكَائِيلَ ، وَلَا نَبِيَّ مُرْسَلٍ ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ .
« اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ » يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَيَسْأَلُ عَنْ أَعْمَالِهِ جَمِيعَ خَصَمَائِهِ ، وَيَأْمُرُ بِإِرْضَاءِ جَمِيعِ غُرَمَائِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يَعْلَمُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى ، وَمَا تَكُونُ حُلُجَّةُ الْمَيْدَلَةِ أَمْسَ وَأَقْوَى ، وَبِكُلِّ وَجْهِ هُوَ بِالْمَبْدِ أَوَّلَى ، وَلَهُ أَنْ يَحْمِلَ لَهُ النُّفُصَى ، وَيَزِيلَ عَنْهُ الْبَلَاوَى ، وَلَا يَسْمَعُ مِنْهُ الشُّكْوَى ، فَلَهُ الْحُكْمُ تِبَارَكَ وَتَعَالَى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾

(١) آية ١٤ سورة الإسراء .

الآية تشير إلى أن من كان من جملة خواصه أفرد — سبحانه — ببرهانه ، وأيدّه ببيان ، وأعزّه بسلطان . ومن لا سلطان له يمتد إليه قهره ، ومن لا برهان له ينسبط عنه — إلى غيره — نوره ، فهو يعزّل من جلته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا مَنَّآ عَلَىٰ آلِنَا بِبَنَاتٍ نَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا النُّكْرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَهَذَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَتَوَلَّوْنَ الْصُّورَ ﴾

لِسَمَاعٍ انطالع في القلوب من الاستبشار والبهجة ، أو الإنكار ^(١) والوحشة . ثم ما تخامره السرائر يوح على الأسمرة في الظاهر ، فكانت الآيات عند نزولها إذا تليت على الكفار يوح على ربهم دُخان ما تنطوى عليه قلوبهم من ظلمات التكذيب ، فما كان يقع عليهم طرف إلا نبأ عن جحودهم ، وعادت إلى القلوب النبوءة عن إقلاهم . ثم أخبر أن الذي هم بصدده في الآخرة من ألم العقوبة شر بكل وجه لهم مما يهود إلى الرائيين لهم عند شهودهم . وإن المناظر الوضيئة للرائيين مُبهجة ، والمناظر النُكْرَة للناظرين إليها موجسة .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ لِمَا تَعْمَلُونَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالطَّلُوبُ ﴾

(١) هكذا في م ولسكنها في م (الانكسار) بالسين وهي خطأ لأن المقصود بيان الغالبة بين أثر القرآن على المؤمنين بالاستبشار والبهجة مع أثر القرآن على الكافرين (بالإنكار) والوحشة وظلمات التكذيب .

تَبَّه الأَفْكَارَ المُتَشَكِّتَةَ ، واغْلُوْطِرَ لِلتَّفَرُّقَةِ عَلَى الِاسْتِجْمَاعِ لِجَمَاعٍ مَا أَرَادَ تَضْمِينَهُ فِيهَا ؛ فَاسْتَحْضَرَهَا فَقَالَ : « ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ... »

ثُمَّ بَيَّنَّ الْمَعْنَى فَقَالَ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَتَدْعُونَهَا آلِهَةً ؛ أَيْ وَتَسْمُونَهَا آلِهَةً (وَأَنَّهَا الْعِبَادَةُ مُسْتَحَقَّةٌ) ^(١) لَنْ يَخْلُقُوا بِأَجْمَعٍ ذَبَابًا ، وَلَا دُونَ ذَلِكَ . وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الدَّبَابُ شَيْئًا بَأَن يَقَعَ عَلَى طَعَامٍ لَمْ فَلَيسَ فِي وَسْمِهِمْ اسْتِنْقَاذُهُمْ ذَلِكَ مِنْهُ ، وَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ قَسَاءَ الْمَثَلِ مَثَلُهُمْ ، وَضَعْفَ وَصْفِهِمْ ، وَقَلَّ خَطَرُهُمْ .

وَيَقَالُ إِنَّ الَّذِي لَا يَقَاوِمُ ذَبَابًا فَيَصِيرُ بِهِ مَطْلُوبًا فَأَهْرُونَ يَقْدِرُهُ !

قوله جل ذكره : ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا وَصَفُوهُ بِجِلَالِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ التَّعْوِثِ . وَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي عَقِيدَتِهِ نَقْصٌ إِلَّا يَسْتَحِيلُ فِي وَصْفِهِ — صِبْحَانَهُ — لَمْ تُبَاشِرْ خِلَاصَةُ التَّوْحِيدِ سِرَّهُ ، وَهُوَ فِي تَرَجُّمِ فِكْرِهِ ، وَتَجْوِيزِ ظَنِّهِ ، وَخَطَرِ تَعَسُّفِهِ ، يَقَعُ فِي كُلِّ وَهْدَةٍ مِنَ الضَّلَالِ .

وَيَقَالُ لِلْعَوَامِّ اجْتِهَادُهُمْ فِي رَفْضِهِمُ الْأَعْمَالَ الْخَلِيشَةَ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ ، وَالْخَوَاصِّ جَهْدُهُمْ فِي نَقْصِ عَقِيدَتِهِمُ لِلْأَوْصَافِ الَّتِي تَجِلُّ عَنْهَا الصِّمْدِيَّةُ ، وَيَبْنِيهَا (...) ^(٢) بِمَعْنَى .

« إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » قَوِيٌّ أَيْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مَنْ هُوَ فَوْقَهُمْ فِي التَّحْصِيلِ وَكِبَالِ الْعُقُولِ . « عَزِيزٌ » : أَيْ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ — إِلَّا بِمَا يَلِيقُ بِصِفَةِ الْبَشَرِ — يَقْدِرُ مِنَ الْعِرْفَانِ .

وَيَقَالُ مَنْ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَيْهِ فَلَيْسَ النَّمْتُ لَهُ إِلَّا بِوَصْفِ الْقُصُورِ ، وَلَكِنْ كُلُّ يَوْجِدِهِ مَرْبُوطٌ ، وَبِحَدِّهِ فِي هِمَّتِهِ مَوْقُوفٌ ، وَالْحَقُّ صِبْحَانَهُ عَزِيزٌ ^(٣) .

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي مِ مَقْشُودٍ فِي مِ

(٢) فِي مِ صِ جَاءَتْ (وَاقٍ) وَلِ مِ جَاءَتْ (فَرَقَانِ) وَالْأَوَّلُ مَرْفُوضَةٌ ، وَلِ مِثْلُ هَذَا الْمَوْضِعِ يَسْتَمَلُّ التَّشْبِيرُ (فَرَقَ) أَوْ (يُونِ) بِمَعْنَى .

(٣) كَلَامُ التَّشْبِيرِ هُنَا فِي (قَوِيٌّ) وَفِي (عَزِيزٌ) هَامٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَرُدَّ فِي مَبْنَاهِ الْمُسْتَقْلَ عَنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي ضَمَّنَهَا كِتَابُ (التَّعْبِيرُ فِي التَّذَكُّرِ) الَّتِي حَقَّقْنَاهُ وَنَشَرْنَاهُ دَارُ السَّكَاةِ الْعَرَبِيَّةِ سَنَةَ ١٩٦٩ .

قوله جل ذكره : ﴿ اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

الاجتناب والاصطفاء من الحق سبحانه بإثبات القدر ، وتخصيص الطول ، وتقديم على أشكلم في المناقب والمواهب .

ثم يعضم فوق بعض درجات ؛ فالفضيلة بحق المرسل ، لا لخصوصية في الخلق في المرسل .

قوله جل ذكره : ﴿ يَتْلُمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

يعلم حاتم ومآلم ، وظاهرهم وباطنهم ، ويومهم وغدهم ، ويعلم تقصصهم عندهم ؛ فإليه متقلّبهم ، وفي قبضته تغلّبهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

الركوع والسجود والعبادة كلها بمعنى الصلاة ؛ لأن الصلاة تشتمل على هذه الأفعال جميعها ، ولكن فرقها في الذكر ^(١) مراعاة لتلك من الخوف عند الأمر بالصلاة ؛ فقسما ليكون مع كل لفظة ومعنى نوع من التخفيف والترفيه ، ولتوحيب أهل المعرفة في كل لفظة راحة جديدة .

ويقال لَوْن عليهم العبادة ، وأمرهم بها ، ثم جميعها عبادة واحدة ، ووعد عليها من الثواب الكثير ما تقصّر عن علمه البصائر .

ويقال علم أن الأحباب يحبون سماع كلامه فطول عليهم القول إلى آخر الآية ؛ ليزدادوا عند سماع ذلك أسأ على أنس ، وروحاً على روح ، ومعاد خطاب الأحباب هو روح روحهم ، وكل راحتهم .

(١) ما على من الكلام في هذه الفقرة مفيد في المباحث البلاغية فائدة كبيرة .

ثم قال بعد هذا : « وافعلوا الخير » فأدخل فيه جميع أنواع القرب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ .

(« حَقَّ جِهَادِهِ » : حق الجهاد ما وافق الأمر في التقدير والوقت والنوع ، فإذا حصلت في شيء منه مخالفة فليس حَقَّ جِهَادِهِ ^(١) .

ويقال المجاهدة على أقسام : مجاهدة بالنفس ، ومجاهدة بالقلب ، ومجاهدة بالمال . فالمجاهدة بالنفس ألا يدخّر العبدُ ميسوراً إلا بذلّه في الطاعة بتحمل المشاق ، ولا يطلب الرخص والإرفاق ^(٢) . والمجاهدة بالقلب صوّته عن الخواطر الرديئة مثل الغفلة ، والعزم على المخالفات ، وتذكر ما سلف أيام الفترة والبطالات . والمجاهدة بالمال بالبدل والسخاء ثم بالجلود والإيثار .

ويقال حق الجهاد الأخذ بالأشق ، وتقديم الأشق على الأسهل — وإن كان في الأخف أيضاً حق .

ويقال حق الجهاد ألا يفتّر العبدُ من مجاهدة النفس لحظة ، قال تأملهم .

يَا رَبُّ إِنِّ جَاهِدِي غَيْرُ مُنْقَطِعٍ فَكُلُّ أَرْضِي لِي تُفَرِّطِ طَرَسُوسُ

قوله جل ذكره : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾

يُحْتَمَلُ أَنَّهُ يَقُولُ مِنْ حَقِّ اجْتَبَاكُمْ لِيَا كَمْ أَنْ تُعْطُوا أَمْرَ مَوْلَاكُمْ

ويحتمل أن يقال هو الذي اجتباكم ، ولولا أنه اجتباكم لما جاهدتم ، فلاجتباكم إياكم وَفَقَّكَ حَتَّى جَاهَدْتُمْ .

ويقال علم ما كنت فعله قبل أن خلقتك ولم يمنعه ذلك من أن يجتنبك ، وكذلك إن رأى ما فعلت فلا يمنعه ذلك أن يتجاوز عنك ولا يساقبك

(١) ما بين قوسين موجود في م وناقص في س .

(٢) إذا كانت (الإرفاق) فشاء التسهيل ، والتشديد لا يرضى به غالباً لأرباب الطريق لأنهم ياشقون . عن الأشق ، وإذا كانت (الأرفاق) فهي جمع رفق وقد نهى الشريفي عن نهاية رسالته عن رفق السواول والصبيان فهم الأتقان والجيب ... إلخ . والسياق هنا بعيد عن ذلك مما يرجح أنها الإرفاق بكسر الهمزة .

قوله جل ذكره : ﴿ وما جئناكم في الدين من

حرج ﴾ .

الشرع مبناه على السبوة ، والذي به تصل إلى رضوانه وتستوجب جزيلَ فضله وإحسانه ، وتخلص به من أليم عقابه وامتناعه — يسير^(١) من الأمر لا يستغرق كُنْه إمكانك ؛ يعني أنك إن أردتَ فعله لَقَدَرْتَ عليه ، وإن لم توصفَ في الحال بأنك مستطيعٌ ما ليس بوجودِ فيك .

قوله جل ذكره : ﴿ ملةً أبينكم إبراهيم ﴾ .

أي اتبعوا والزموا ملةً أبينكم إبراهيم عليه السلام في البذل والسخاء والجلود والنظة والإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ هو نبيكم المسلمين من قبلُ

وفي هذا ليكون الرسول شهيذاً

عليكم ﴾ .

الله هو الذي اجتباكم ، وهو الذي بالإسلام والعرفان نكحكم المسلمين . وقيل إبراهيم هو الذي نكحكم المسلمين بقوله : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك »^(٢) .

قوله : « ليكون الرسول شهيداً عليكم ، نصَّب الرسول بالشهادة علينا ، وأمره بالشفاعة لأمته ، وإعنا يشهد علينا بمقدار ما يبقى للشفاعة موضعاً ومحللاً .

قوله جل ذكره : ﴿ وتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

وتلك الشهادة إنما تؤديها لله ، ومن كانت له شهادة عند أحد — وهو كريم — فلا يجرح شاهده ، بل يسمى بما يعود إلى تزكية شهوده .

قوله جل ذكره : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

واعتصموا بالله هو مولاكم فتعِمَّ

الموتى ونعم النصير ﴾ .

(١) يسير خبر لاسم الموصول (والذي به) (٢) آية ١٢٨ سورة البقرة .

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة بحكم الإيمان، ونمت الاستقامة، وجعل الاستقامة.
والاعتصام بالله التبري من الحول والقوة، والتهوض بعبادة الله بالله الله. ويقال الاعتصام
بالله التمسك بالكتاب والسنة. ويقال الاعتصام بالله حسن الاستقامة بدوام الاستقامة.
« هو مولاكم » : سيديكم وناصركم والذي لا خلف عنه.
« نعم المولى ونعم النصير » : نعم المولى : إخبار عن عظمته، ونعم النصير : إخبار
عن رحمته.

ويقال إن قال لأيوب : « نعم العبد »^(١) ولسليمان « نعم العبد »^(٢) فلهذا قال لنا « نعم
للمولى ونعم النصير » ، ومدحه لنفسه أعز وأجل من مدحه لك .
ويقال « نعم المولى » : بذلك بالحبّة قبل أن أحببته ، وقبل أن عرفته أو طلبته
أو عبّده .

« ونعم النصير » : إذا انصرف عنك جميع من لك فلا يدخل التبر مملك أحد
كان ناصرًا لك ، ولا عند السؤال أو عند الصراط .

السورة التي يذكر فيها المؤمنون

قوله جل ذكره ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الاسم اشتقاقه من السمو ، وللسمى بهذا الاسم استحقاق الملو ، فالاسم اسم لسموه من
القديم ، والحق حق لملوه بحق التديم .

ويقال من عرف « بسم الله » سمع همته عن اللرسومات ، ومن أحب « بسم الله » صفت
حالته عن مساكنة الموهومات ..

اسم من طلبه ليس من البارئين أربّه ، ومن عرفه وجد قلبه مالا يعرف سببه .

(١) « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » آية ٤٤ سورة ص .

(٢) « ووهبنا لقواد سليمان نعم العبد إنه أواب » آية ٣٠ سورة ص .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ لِلْؤُمْنُونَ ﴾ الذين هم

في صلاحهم خاشعون ﴿

تَفَرَّقَ بِالْبُيُوتَةِ وَفَارَ بِالطَّلَبَةِ مِنْ آمَنْ بِاللَّهِ .

و « الْفَلَاحُ » : النُّزُوحُ بِالْمَطْلُوبِ وَالظَّفَرُ بِالْمَقْصُودِ .

والإيمانُ انقسامُ الحقِّ في السَّريَّةِ ، وغامرةُ التصديقِ خلاصةُ القلبِ ، واستمكانُ التحقيقِ من تأمُّورِ البُزْءِ (١) .

والغشوعُ في الصلاةِ إطراقُ السُّرِّ على بِساطِ النُّجَى باستكمالِ نَعْتِ الهَيْبَةِ ، والذَّوْبَانِ نَحْتِ سُلْطَانِ الْكَشْفِ ، والامتحاءُ عندَ غَلَبَاتِ التَّجَلِّيِ .

ويقالُ أَدْرَكَ ثَمَرَاتِ الْقُرْبِ وَفَارَ بِكَيْالِ الْإِنْسِ مَنْ وَقَفَ عَلَى بِسَاطِ النُّجَى بِنَعْتِ الهَيْبَةِ ، ومِراةِ آدَابِ الْحَضَرَةِ . وَلَا يَسْكُنُ الْإِنْسُ بِلِقَاءِ الْحُبُوبِ إِلَّا عِنْدَ فَقْدِ الرَّقِيبِ . وَأَشَدُّ الرِّقَابِ وَأَكْثَرُهُمْ تَنْخِيصًا لِأَوَانِ الْقُرْبِ النَّفْسُ ؛ فَلَا رَاحَةَ لِلْمُصَلِّيِّ مَعَ حُضُورِ نَفْسِهِ ، (فَإِذَا خَسَنَ عَنْ نَفْسِهِ) (٢) وشَاهِدُهُ عَدِيمُ إِحْسَانِهِ بِأَفَاتِ نَفْسِهِ ، وطَابَ لَهُ الْعِيشُ ، وَتَمَّتْ لَهُ النِّعْمُ ، وَمَجَلَّتْ لَهُ الْبُشْرَى ، وَوَجَدَ لَذَّةَ الْحَيَاةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ مَعْزُومُونَ ﴾

مَا يَشْغَلُ عَنْ اللَّهِ فَهُوَ سَهْوٌ ، وَمَا لَيْسَ اللَّهُ فَهُوَ حَشْوٌ ، وَمَا لَيْسَ بِمَسْذُوعٍ مِنْ اللَّهِ أَوْ بِمَقُولٍ مَعَ اللَّهِ فَهُوَ لَوْ ، (وَمَا هُوَ غَيْرُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فَهُوَ كُفْرٌ ، وَالنَّعْرَجُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا بَعْدَ وَهْجَرٍ) (٣) .

ويقالُ مَا لَيْسَ بِتَقْرِيطِ اللَّهِ وَمَذْنَحِهِ مِنْ كَلَامٍ خَلَقَهُ فَسَكَلَ ذَلِكَ لَعْوٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾

(١) يقالُ اجْعَلْ هَذَا الْأَمْرَ فِي تَأْمُورِكَ أَيْ دَاخِلْ تَبْلِكَ (الْوَسِيطُ : مَادَّةُ أَمْرٍ) .

(٢) مَا بَيْنَ الْفَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي مٍ وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي مٍ .

(٣) مَوْجُودٌ فِي مٍ وَغَيْرِ مَوْجُودٌ فِي مٍ .

الزكاة النساء ، ومن عمله للنساء فأما ذلك أن يكون بنقصانه في نفسه عن شواهد
ولا يبلغ العبد إلى كمال الوصف في العبودية إلا بنواياه عن شاهده .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون *
إلا على أزواجهم أو ما ملكت
أيمنهم فإنهم غير ملومين ﴾

لفروجهم حافظون ابتغاء نسلي يقوم بحق الله ، ويقال ذلك إذا كان مقصوده التمتع
والتصاوت عن مخالفتي الإثم .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك
هم العادون ﴾

أي من جاوز قصد إثبات الحقوق ، وجتجح إلى جانب استيفاء المخطوط . . فقد تعدى
محل الأكابر ، وخالف طريقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم لإماناتهم وعهدهم
راعون ﴾

الإمانات مختلفة ، وعند كل أحد أمانة أخرى ، فقوم عندهم الوظائف بطواهرهم ،
وآخرون عندهم اللطائف في سرائرهم ، ولقومهم ماملاتهم ، ولآخرين منازلاتهم ،
ولآخرين مواصلاتهم .

وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم من عاهده ألا يعبد سواه ، ومنهم من عاهده ألا يشهد
في الكونين سواه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾

لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين ، ولا يدقهم الساعات وهم ليسوا بالباب ، فهم
في الصف الأول بطواهرهم ، وكذلك في الصف الأول بسرائرهم

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يرثون
الغروس هم فيها خاللون ﴾

الإرث على حسب النسب ، وفي استحقاق الفردوس بوصف الإرث لِنَسَبِ الإيمان في الأصل ، ثم الطاعات في الفضل .

وكما في استحقاق الإرث تفاوت في مقدار السهمان : بالفرض أو بالتصيب - فكذلك في الطاعات ؛ ففهم من في الفردوس بنفوسهم ، وفي الأحوال العظيمة بقلوبهم ، ثم هم خالدون بنفوسهم وقلوبهم جميعاً لا يرحون عن مثال نفوسهم ولا (...) (١) عن حالات قلوبهم .

قوله جل ذكره ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ

مِنْ طِينٍ ﴾

عرّفهم أصلهم لتلا يعبّجوا بفعلهم .

ويقال لَسَبَبٌ لتلا يفرجوا عن حدّهم ، ولا يغلطوا في نفوسهم .

ويقال خَلَقَهُمْ مِنْ سُلاَلَةٍ سُلَّتْ مِنْ كُلِّ بَقْعَةٍ ؛ ففهم من طينته من جرّدة (٢) أو من سَبْجَةٍ (٣) أو من سَهْلٍ ، أو من وَعْرٍ وذلك اختلفت أخلاقهم .

ويقال بَسَطَ عُدْرَهُمْ عِنْدَ الْكَافَةِ ؛ فَإِنَّ الْخَلْقَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ . . . ما الذي

يُنْتَظَرُ مِنْهُ ١٩

ويقال خلقهم من سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ، والقَدَرُ للتربية لا للتربة .

ويقال خلقهم من سُلاَلَةٍ وَلَكِنْ مَعْدِنٌ لِلْعِرْقَةِ وَمَرْتَعٌ لِلْهَبَةِ وَمَتَلَقٌ الْعِنَاةِ مِنْهُ لَمْ ؛

قال تعالى : « يَجْعَلُكُمْ وَيَجْعَلُكُمْ » .

ويقال خَلَقَهُمْ ، ثم من حالٍ إِلَى حَالٍ تَقَلَّبَهُمْ ، يُتَبَرِّجُ بِهِمْ مَا شَاءَ تَضْيِيرِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي تَرَارٍ مَكِينٍ ﴾

ثم خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ،

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾

(١) مشبهة في ص . م وربما كانت (ولا يفتكون) .

(٢) الأرض الجردة التي لا نبات فيها .

(٣) السَّبْجَةُ التي فيها ملح ونزلة ولا تسكاد تلبث .

قطرة أجزائها متائلة ، ونُطفة أبعاضها متشاكلة ، ثم جعل بعضها لحماً وبعضها عظاماً ، وبعضها شعراً ، وبعضها ظفراً ، وبعضها عصباً ، وبعضها جلداً ، وبعضها متحاً ، وبعضها عرقاً . ثم خصَّ كلَّ عضوٍ بهيئةٍ مخصوصةٍ ، وكلَّ جزءٍ بكيفيةٍ معلومةٍ . ثم الصفات التي للإنسان خلقها متفاوتةٌ ، من السَّمْعِ والبَصَرِ والفِكْرِ والغَضَبِ والقدرةِ والعلمِ والإرادةِ والشجاعةِ والحقدِ والجودِ والأوصافِ التي يتقاصر عنها الحصرُ والمدُّ .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَنَبِّئُكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

في التفسير أنه صورة الوجه ، ويحتمل ما تركب فيه من الحياة ، واختصَّ به من السَّمْعِ والبصرِ والعقلِ والتمييز ، وما تفرَّد به بعضُ منهم بجزايا في الإلهام العام للعقل وسائر الإدراكات .

ويقال « ثم أنشأناه خلقاً آخر » : وهو أن هَيَأَمَ لأحوالٍ عزيزةٍ يُظهرها عليهم بعد بلوغهم ، إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال ؛ فلقومٌ تخصيصٌ بزينة العبودية ، ولقومٌ تفرُّدٌ من رِقِّ البشرية ، ولآخرين تحقُّقٌ بالصفاتِ الصِّديةِ بامتثالهم عن الإحساسِ بعامٍ عليه وبه من الأحوال التي هي أوصاف البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ فَنَبِّئُكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

خلق السموات والأرضين بجملةٍ ، والعرش والكرسى ، مع المخلوقات من الجنة والنار بكليتها — ثم لما أخبر بذلك لم يعقبه بهذا التمدح الذي ذكره بعد نعت خلقه بنى آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً ، وإفراداً لهم من بين المخلوقات .

ونقال إن لم يَقُلْ لَكَ إِنَّكَ أَحْسَنُ الْمَخْلُوقَاتِ في هذه الآية فلقد قال في آيةٍ أخرى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم »^(١) .

(١) الآية ٤ سورة التين .

ويقال إن لم تكن أنت أحسن المخلوقات وأحسن المخلوقين — ولم يُنْزِ عليك بذلك فلقد أتني على نفسه بقوله : « فبارك الله أحسن الخالقين » ، وشأؤه على نفسه وتمسحه بذلك أعزُّ وأجلُّ من أن يفنى عليك .

ويقال لما ذكر نعتك ، وتاراتِ حالكِ في ابتداء خَلْقِكَ ، ولم يكن منك لسانُ شكري ينطق ، ولا بيانٌ مدحٍ ينطلق . . فأب عنك في الثناء على نفسه ، فقال : « فبارك الله أحسن الخالقين » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾

أُشهِدُوا :

آخر الأمر ما ترى للقبر الواحد والثرى

وأُشهِدُوا :

حياتنا عندنا قروض ونحن بعد للوت في التفاضي
لا بدَّ مِنْ رَدٍّ ما اقترضنا كلَّ غريمٍ بذاك راضي

ويقال نالك إلى فضلك بقوله : « ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ » وكلُّ ما هو آتٍ قريب .
ويقال كسر على أهل الفعلة سطوة غفلتهم ، وفلَّ دونهم سيفَ صولتهم بقوله : ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ، وللجاذِ مضاهون ، وعن للسكنة والفقرة والاستطاعة والقوة كُتْمُودُونَ ، وفي عداد ما لا خَطَرَ له من الأمواتِ معدودون .

قوله جل ذكره : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

فصن ذلك يتصل الحسابُ والعتابُ ، والسؤالُ والعتابُ ، ويتبين المقبولُ من المردودِ ، والموسولُ من المهجور .

ويومُ القيامة يومٌ خَوْفٌ به العالمُ حتى لو قيل للقيامة : ممن تخافين ؟ لفالت من القيامة .
وفي القيامة ترى الناسَ سَكَارَى حَيَارَى لا يعرفون أحوالهم ؛ ولا يتحققون بما تؤول إليه أمورهم ، إلى أن يَبْقِيَنَّ لكلٍّ واحدٍ أمرُهُ وخَيْرُهُ وشرُّهُ : فينقل بالظلمات ميزانه ، أو يخف

عن الطاعات أو يخلو ديوانه . وما بين الموت والقيامة : فأما راحات مُتَمِصَة ، أو آلام وأكثت غير منفصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾

الحق — سبحانه — لا يستتر عن رؤيته مدركه ، ولا يخفى عليه — من مخلوقاته — خافية . وإنما الحجب على أبصار الخلق وبصائرهم ، فالمادة جارية بأنه لا يخلق لنا الإدراك لِمَا وراء الحجب . وكذلك إذا حلت الغفلة القلوب استولى عليها الجهول ، واستدّت بصائرهما ، وانتفت فهومها

وفوقنا حجب ظاهرة وباطنة ، ففي الظاهر السموات حجب محول بيننا وبين المنازل العالية ، وعلى القلوب أغشية وأغطية كالنبيق والشهوة ، والإرادات الشاغلة ، والغفلات المتركة . أما المريدون فإذا أظلمت سحاب القفرة ، وسكن هيجان إرادتهم فذلك من الطرائق التي عليهم .

وأما الزاهدون فإذا تحرّك بهم عرق الرغبة أنفَلَتْ^(١) قوة زهدهم ، وضَعُفَتْ دعائهم صبرهم ، فَيَتَرَخَّصُونَ بِالْجَنَاحِ إِلَى بَعْضِ التَّأْوِيلَاتِ ، فتعود رغبتهم قليلاً قليلاً ، وتختل رتبة عزوفهم ، وتنهّد دعائهم زهدهم ، وبداية ذلك من الطرائق التي خلق فوقهم .

وأما المارفون فرمما تظلم في بعض أحيائهم وقفة في تصاعد سرهم إلى ساحات الحقائق . فيصيرون موقفين ريثما يتفضل الحق — سبحانه — عليهم بكفاية ذلك فيجدون نقاداً ، ويرفع عنهم ماعاقهم من الطرائق .

وفي جميع هذا فإن الحق سبحانه غير غافل عن الخلق ، ولا تارك للعباد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾

(١) انفل = انقلبت ، وانقل = انقلبوا .

أُنزل من السماء ماء المطر الذى هو سببُ حياة الأرضين ، وذلك بقدر معلوم . ثم ..
البلادُ مختلفةٌ فى السَّقى : فبعضها خصبٌ ، وبعضها جَدْبٌ ، وسنةٌ يزيد وسنةٌ ينقص ، سنةٌ
فيفيض وسنةٌ يفيض .

كنذك أنزلنا من السماء ماء الرحمة فيحيى القلوب ، وهى مختلفة فى الشَّرب : فمن موسِعٍ
عليه رزقه منه ، ومن مُضَيِّقٍ مُقْتَرٍ عليه . ومن وقتٍ هو وقت سحٍ ، ومن وقتٍ هو
وقت حبسٍ .

ويقال ماء هو صوب الرحمة يزيل به دَرَنُ المُصاةِ وأَثَرُ زَلَّتْهُمْ وَأَوْضَارُ عَثَرَتِهِمْ ، وماء
هو سقى قلوبهم يزيل به عطشَ تَحْيِيرِهِمْ ، ويحيى به موات أحوالهم ؛ فَتَنْبُتُ فى رياض قلوبهم
فنونُ أزهار البسط ، وصنوف أنوار الروح . وماء هو شراب المحبة فيخص به قلوباً بساحات
القرب ، فيزيل عنها به حَشَمَةُ الوصف ، ويسكن به قلوباً فيعطلها عن التَّمييز ، ويحملها على
التجاسرِ ببذلِ الروح ، فإذا شربوا طربوا ، وإذا طربوا لم يُبالوا بما وهَّبوا (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَلْهَمْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَاتٍ مِنْ نَجِيلٍ
وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَائِحٌ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ .

كما يحيى بماء السماء النبايض والرياض ، ويصنّف فيها الأزهار والأنوار ، وتثمر الأشجارُ
وتجري الأنهار .. فكذلك يسقى القلوب بماء العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهى ، وتؤلف
أكلها : من طيب عيش ، وكالٍ بسطٍ ، ثم وفور هيبة ثم رَوْحُ أنسٍ ، وتناجر تجلٍ ، وعوائد
قُرْبٍ .. إلى ما تنقاصر المباراتُ عن شرحه ، ولا تطمع الإشارات فى حصّره .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً
نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بطونها ولكم فيها
منافعٌ كثيرةٌ ومنها تَأْكُلُونَ ﴾ .

الإشارات منه أن السكوراتِ الحاجةَ لِعِبْرَةٍ بها ولا مبالاةً ؛ فَإِنَّ الْإِنِّ الْخَالِصَ السَّائِغَ
يخرجُ من أخلاف الأنعام من بين ما تنطوى حوايلها عليه من الوحشة ، لكنه صافٍ لم يؤثر
(١) حتى لو كان ما وهبوه أرواحهم .

فيه منها بحكم الجوار ، وكذلك الصناد يوجد أكثره من عين الكدورة ؛ إذ الحقيقة لا يتعلق بها حق ولا باطل . ومن أشرف على (سر) ^(١) التوحيد تحقق بأن ظهور جميع الحديثين من التقدير ، فسقط عنه كلمة التمييز ، فالأسرار عند ذلك تصفو ، والوقت لصاحبه لا ينجو .

« ولكم فيها منافع » : لازمة لكم ، وتمتدية منكم إلى كل متصل بكم :
إني — على جفواتها — برها . وبكل متصل بها مؤسل

قوله جل ذكره : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحلون ﴾ .

يحفظهم في السفينة في بمار التطرة ، ويحفظهم في سفينة السلامة والمصمة في بمار القدرة ، وإن بمار القدرة تنلاطم أمواجها ، والناس فيها غرقى إلا من يحفظه الحق — سبحانه — في سفينة النجاة .

وصفة أهل الفلك إذا مستهم شدة خوف الفرقى ما ذكر الله في قوله : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ^(٢) » كذلك من شاهد نفسه على شفا الملاك والفرق ، والتجأ إلى صدى الاستماتة ودوام الاستفانة فعند ذلك يحبه الحق — سبحانه — من مخلوقات التقدير . ويقال إن وجه الأرض بمار الغلة ، وما عليه الناس من أسباب التفرقة بمار مهلكة والناس فيها غرقى ، وكما قال بعضهم :

الناس ببحر عميق والبعء عنهم سفينة
وقد نصحتك فانظر لنفسك للسكينة

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ ألا تتقون ﴾ .

(١) موجودة في م وغير موجودة في س .

(٢) آية ٦٥ سورة النكبات .

كَرَّرَ قِصَّةَ نُوحٍ لِمَا فِيهَا مِنْ عَظِيمِ الْآيَاتِ مِنْ طُولِ مَقَامِهِ فِي قَوْمِهِ ، وَشِدَّةِ مِقَاسَةِ الْبَلَاءِ مِنْهُمْ ، وَتَمَامِ صَبْرِهِ عَلَى مَا اسْتَقْبَلَهُ فِي طُولِ عَمَلِهِ ، ثُمَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ أَصْرَ عَلَى كُفْرَانِهِ ، ثُمَّ إِهْلَاكَ اللَّهِ جَمِيعَ مَنْ أَصْرَ عَلَى كُفْرَانِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَنْدِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَلَمْ يَبَالِ — سَبْحَانَهُ — بِأَنْ أَهْلَكَ جَلَّتْهُمْ . وَلَقَدْ ذَكَرَ فِي الْقِصَصِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ قَوْمِهِ لَمَّا أَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ كَانَتْ لَهَا مَوْلُودٌ ، فَحَبَلَتْهُ وَطَلَّتْ حَامِلَةً لَمْ تَرْضَهُ عَنِ الطُّوفَانِ ، فَلَمَّا بَلَغَ الْمَاءُ إِلَى يَدَيْهَا رَفَعَتْهُ إِلَى مَا فَوْقَ رَأْسِهَا — قَدَرًا مَا أَمَكْنَهَا — إِيْقَاءً عَلَى وَلَدِهَا ، وَإِسْفَاقًا عَلَيْهِ مِنَ الْهَلَاكِ ، إِلَى أَنْ غَلَبَهَا الْمَاءُ وَتَلَيَّنَتْ وَوَلَدَهَا . فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — لَوْ أُنِيَ كُنْتُ أَرْحَمُ وَاحِدًا مِنْهُمْ لَرَحِمْتُ تِلْكَ الْمَرْأَةَ وَوَلَدَهَا .

وَفِي الظَّهِيرِ أَنَّ نُوحًا كَانَ اسْمُهُ بِشَكْرٍ ، وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ يَبْكِي أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : يَا نُوحُ .. إِلَى كَمْ تَنُوحُ ؟ فَاسْمُهُ نُوحًا . وَيُقَالُ إِنَّ ذَنْبَهُ أَنَّهُ مَرَّ يَوْمًا بِكَلْبٍ فَقَالَ : مَا أَوْحَشَهُ ! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : اخْلُقْ أَنْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ، فَكَانَ يَبْكِي مَعْتَذِرًا عَنْ قَاتِلَتِهِ تِلْكَ . وَكَانَ قَوْمُهُ يَبْلَغُونَهُ بَيْنَ الْجَنُونِ ، وَمَا زَادَ لَهُمْ دَعْوَةً إِلَّا أَزْدَادُوا عَنْ إِبَاجَتِهِ نُبُوَّةً ، وَمَا زَادَ لَهُمْ صَفْوَةً إِلَّا أَزْدَادُوا عَلَى طُولِ الْمَلَّةِ قَسْوَةً عَلَى قِسْوَةٍ .

وَلَمَّا عَمِلَ السَّفِينَةَ ظَهَرَ الطُّوفَانُ ، وَأَدْخَلَ فِي السَّفِينَةِ أَهْلَهُ ، تَعَرَّضَ لَهُ إِبْلِيسُ — كَمَا جَاءَ فِي الْقِصَّةِ — وَقَالَ : إِيْحَلِي مَعَكَ فِي السَّفِينَةِ ، فَأَبَى نُوحٌ وَقَالَ : يَا شَقِي . . . تَطْعَمُ فِي حِمْلِي إِيَّاكَ وَأَمْتُ رَأْسُ الْكُفَرَةِ ؟ !

فَقَالَ إِبْلِيسُ : أَمَّا عَلَيَّتُ — يَا نُوحُ — أَبْنَى اللَّهُ أَنْظِرَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَيْسَ يَنْجُو الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا فِي هَذِهِ السَّفِينَةِ ؟

فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ أَنْ أَهْلَهُ فَكَانَ إِبْلِيسُ مَعَ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِابْنِهِ مَعَهُ مَكَانٌ فِي السَّفِينَةِ . (وَفِي هَذَا ظَهَرَ عَيْنُ التَّوْحِيدِ وَأَنَّ الْحُكْمَ مِنَ اللَّهِ غَيْرُ مَطُولٍ) ^(١) لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ اللَّعْنَةُ عَلَى أَنْ ابْنَهُ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ لَمْ يَكُنْ لِكُفْرِهِ فَبِإِبْلِيسُ يُشْكَلُ . . . وَلَكِنَّهَا أَحْكَامٌ غَيْرُ مَطُولَةٍ ، وَجَازٍ لَهُ — سَبْحَانَهُ — أَنْ يَفْعَلَ مَا يَرِيدُ : يَصِلُ ^(٢) مَنْ شَاءَ وَيَرُدُّ مَنْ شَاءَ

(١) مَا بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ مَوْجُودٌ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ مَوْجُودٍ فِي مَوْضِعٍ .

(٢) وَرَدَتْ فِي م (يَصِلُ) بِالْفَتْحِ وَتَحْتِ نَجْدٍ (يَصِلُ) أَكْثَرُ انْجِسَامًا مَعَ اللَّغَى لَتَقَابُلِ (يَرُدُّ)

قوله جل ذكره: ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً
وأنت خير المنزلين﴾ .

الإنزال المبارك أن يكون بالله والله، وعلى شهود الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفاً
لأمر الله

ويقال الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك ، ثم الاستغراق باستيلاء
سلطان القرب عليك ، ثم الاستهلاك بإحاطة أنوار التجلّي حتى لا تبقى عين ولا أثر ،
فإذا تمّ هذا ودام هذا فهو نزولٌ بساحات الحقيقة مبارك ، لأنك بلا أنت . . بكليتك من
غير بقية أو أثر عنك .

قوله جل ذكره ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾

تتابعت القرون على طريقة واحدة في التكذيب ، وغرهم طول الامهال ، وما مكثهم
من رفّة العيش وخفّض الدّعة ، فلم يقيسوا إلا على أنفسهم ، ولم يسمّ لهم طرفٌ إلى مَنْ
فوقهم في الحال والمثالة ، فقالوا : أنؤمن بمن يتردد في الأسواق ، ويتنقّض مثلنا بوجوه الأرفاق؟
ولئن أظننا بشراً مثلنا لسلكنا سبيل النّفى ، وتنكبنا سُنّة الرّشد . فأجرام الله
في الإهانة وإحلال العقوبة بهم مجرى واحداً ، وأذاقهم عذاب الخزي . وأعظم ما دأخلهم
من الشبهة والاستبعاد أمرُ الحشر والنشر ، ولم يرتقوا للعلم بأنّ الإعادة كالأبتداء في الجواز
وعدم الاستحالة ، والله يهدي مَنْ يشاء ويغوي مَنْ يريد .

ثم إن الله في هذه السورة ذكرَ قصة موسى عليه السلام ، ثم بعده قصة عيسى عليه السلام ،
وحصّ كُلُّ واحدٍ منهما بآياته الباهرة ومعجزاته الظاهرة (١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ
وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَصْلَوْنَ عَلَيَّ

كَلِمَاتٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ .

(١) تلاحظ هنا أن التفسير قد اختصر الكلام فنفر إلى الآية ٥٠ دون تحمل أمام كل آية كما نمودنا منه

رُخْصَةُ الشَّرِيعَةِ — بما كان حلالاً في وقتهم، مطلقاً ما ذُكِرَ لهم فيه . وكذلك أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم يفتنون ملاطفتهم في أفعالهم ومعتقداتهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : **ثُمَّ وَإِنْ هُنَّ أُمْتٌكُمْ أُهِنَتْ وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** .

معبودكم واحد ، ونبيكم واحد ، وشرعكم واحد ، فأنتم في الأصول شرعٌ سواء ، فلا تسلكوا ثِنْيَاتِ الطَّرِيقِ ^(١) فتطيحوا في أودية الضلالة . وعليكم باتباع سلفكم ، واحذروا موافقة ابتداع خلفكم .

« وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ » خافوا مخالفة أمرى ، واعرِفُوا عَظِيمَ قُدْرِي ، واحفظوا في جريان التقدير سيرى ، واستدعوا بقلوبكم ذكرى ، تعبدوا في مآلكم غفري ، وتحفظوا بمجيبلي برى .
قوله جل ذكره : **فَلَا تَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرُونَ** .

فستقيم على حقِّه ، وتائه في حقِّه ، ومُعِيرٌ عَلَى عَصِيَاةٍ وَفِسْقِهِ ، ومقيمٌ عَلَى إِحْسَانِهِ وَصِدْقِهِ ، كُلٌّ مَرْبُوطٌ بِحَدِّهِ ، موقوفٌ بِمَا قَسَمَ لَهُ فِي الْبَدَايَةِ مِنْ شَأْنِهِ ، كُلٌّ يَنْتَمِلُ طَرِيقَتَهُ وَيَدْعَى بِحَسَنِ طَرِيقَتِهِ حَقِيقَةً ، وعند محو ساء قلوب أرباب التوحيد لا غبار في الطريق ؛ وهم على يقين معارفهم ؛ فَلَا رَيْبَ يَنْخَالِجُهُمْ وَلَا تُشْبِهُهُ .

وأهل الباطل في عَمَى جَهْلِهِمْ ، وغبارِ جُحْدِهِمْ ، وظلمة تَقْلِيدِهِمْ ، ومحنة شكهم ..

قوله جل ذكره : **فَقَدْ ذَرَأْنَاهُمْ فِي هَمَزٍ مِنْ حِينَ** .

إِنَّ مَدَّةَ أَخْذِهِمْ قَرِيبَةٌ ، والقوبة عليهم — إِذَا أَخَذُوا — لشديدة ، ولسوف يبين لهم خلطهم من صوابهم .

قوله جل ذكره : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ** .

مَالٍ وَبَيْنَ سَارِعٍ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .

(١) ثَلَاثَةُ الطَّرِيقِ = مُصْطَفَى .

هنا في شأن أصحاب الاستدراج من مَكْرِ الحقِّ بهم بتبليس للنهاج ؛ رَأَوْ سَرَابًا فَظَنُّوهُ
سَرَابًا ، وَدَسَّ لَمْ فِي شَهْدِهِمْ صَابِغًا فَتَوَهُمُوهُ عَذَابًا^(١) ، وَحِينَ لَقُوا عَذَابًا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ
يُضِلُّوا صَوَابًا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ
تُشْفِقُونَ ﴾

أَمَارَةُ الْإِشْفَاقِ مِنَ الْخَشْيَةِ إِطْرَاقُ السَّرِيرَةِ فِي حَالِ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ بِشَوَاهِدِ
الْأَدَبِ ، وَخَفَافَةِ بَقَائِ الطَّرْدِ ، لَا يَسْتَقِرُّ بِهِمْ قَرَارٌ لِيَا دَاخِلَهُمْ مِنَ الرَّغْبِ ، وَاسْتَوَلَى
عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانِ الْهَيْبَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمِنُونَ ﴾
تلك الآياتُ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَهِيَ مَا يُسْكَاشِفُونَ بِهِ فِي الْأَقْطَارِ مِنْ اخْتِلَافِ الْأُمُورِ ، وَمَا فِيهِ
النَّاسُ مِنْ فَنُونِ الْحَسَمِ وَصُنُوفِ النُّقَى وَالْإِرَادَاتِ ، فَإِذَا آمَنَ الْعَبْدُ بِهَا ، وَاعْتَبَرَ بِهَا اقْتِنَعَ بِمَا يَرَى
نَفْسَهُ مُطَالِبًا بِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾
يَدْرُونَ جَلَّ الشَّرْكَ وَخَفِيَّهِ ؛ وَالشَّرْكَ الْخَلْقُ مِلَاحَظَةُ الْخَلْقِ فِي أَوَانِ الطَّاعَاتِ ،
وَالِاسْتِشَارِ بِمَدْحِ الْخَلْقِ وَقَبُولِمْ ، وَالْانْكَسَارُ وَالْقَبُولُ عِنْدَ اقْطَاعِ رُؤْيَا الْخَلْقِ .
وَيَقَالُ الشَّرْكَ الْخَلْقُ إِحَالَةُ النَّادِرِ مِنَ الْحَالَاتِ — فِي الْمَسَارِّ وَالْمَصَارِّ — عَلَى الْأَسْبَابِ
كَقَوْلِ الْقَائِلِ : « لَوْلَا دَعَاءُ أَبِيكَ لَمْ يَكُنْ » وَ « لَوْلَا هِمَّةُ فُلَانٍ لَمْ أَفْلَحْتُ » . . . وَأَمْنَالُ
هَذَا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ »^(٢) .
وَكُنْهَكَ تَوْحُّدُ حُصُولِ الشَّفَاءِ مِنْ شُرْبِ الْغَوَاءِ .

فَإِذَا أَتَى الْعَبْدُ بِسِرِّهِ أَلَا شَيْءٌ مِنَ الْحَدِثَانِ ، وَلَمْ يَتَوَمَّضْ ذَلِكَ ، وَأَيُّقِنُ أَلَا شَيْءٌ إِلَّا مِنْ
التَّشْدِيدِ فَسَدَ ذَلِكَ بَيِّنٌ عَنِ الشَّرْكِ^(٣) .

(١) السَّيِّدَاتُ جَمْعُ عَذْبٍ وَهُوَ السَّائِغُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَنَحْوُهُمَا (الْوَسِيطُ) .

(٢) آيَةُ ١٠٦ سُورَةِ يُوسُفَ .

(٣) أَيْ أَنَّ التَّعْبِيرَ لَا يَشْكُرُ الْأَسْبَابَ وَلَكِنْ يَتَوَمَّضُ عَلَى مِنْ يَتَوَمَّضُ أَنَّ مِنَ الْحَدِثَانِ شَيْئًا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ

رَاجِعَةٌ أُنْتُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾

يُخْلِصُونَ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ غَيْرِ الْإِثَامِ بِتَقْصِيرٍ ، أَوْ تَرْجُحٍ فِي أَوْطَانِ الْكُلِّ ، أَوْ جُنُوحٍ إِلَى الْأَسْرَافِ بِالرَّخْصِ . ثُمَّ يَخَافُونَ كَأَنَّهُمْ آتَوْا بِالْفَوَاحِشِ ، وَيُلَاحِظُونَ أَحْوَالَهُمْ بَيْنَ الْأَسْتِصْنَاءِ ، وَالْإِسْتِحْقَارِ ، وَيَخَافُونَ بَغْيَاتِ التَّقْدِيرِ ، وَقَضَايَا السَّخَطِ ، وَكَأَقِيلٍ :

يُتَجَنَّبُ الْإِثَامَ ثُمَّ يَخَافُهَا فَكَأَنَّمَا حَسَّاتُهُ آتَتْهُ

قوله جل ذكره : ﴿ وَأُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ ^(١) فِي الْأَعْرَافِ

وَمِنْ لَهَا سَاقِقُونَ ﴾

مُسَارِعٌ بِقَدَمَيْهِ مِنْ حَيْثُ الطَّاعَاتِ ، وَمُسَارِعٌ بِجَنَاحَيْهِ مِنْ حَيْثُ الْمَوَاصِلَاتِ ، وَمُسَارِعٌ بِجَنَاحَيْهِ مِنْ حَيْثُ فَجْرِ الْحَسَرَاتِ ، وَالْكُلُّ مُعْصِبٌ ، وَالْكُلُّ مِنْ إِقْبَالِهِ — عَلَى مَا يَلِيقُ بِمَحَالِهِ — نَصِيبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا

كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

الْمَطَالِبَاتُ فِي الشَّرِيعَةِ مُصَنَّفَةٌ بِالسَّهُولَةِ ، وَأَمَّا مَطَالِبَاتُ الْحَقِيقَةِ فَكَأَنَّمَا قَالُوا : لَيْسَ إِلَّا بِذَلِّ الرُّوحِ ، وَلِهَذَا فَهَمُّ لَا تُشْغَلُهُمُ التَّرَهَّاتُ ^(٢) . قَالَ لِأَهْلِ الرِّخْصِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ فِي الْحَالِ : « وَمَا جِئْتُ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ^(٣) ، وَأَمَّا أَرْبَابُ الْحَقَائِقِ ؛ فَقَالَ : « وَإِنْ تُبَيِّنُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخْضَعُوا بِحَاسِبِكُمْ إِلَى اللَّهِ » ^(٤) وَقَالَ : « وَنَحْسِبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » ^(٥) ، وَقَالَ : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » ^(٦) .

(١) فِي سِ اسْخَطَ التَّاسِخَ إِذْ زَادَ (لَهُمْ) جِدَّ يُسَارِعُونَ .

(٢) التَّرَهَّاتُ جَمْعُ تَرَمَّةٍ وَهِيَ الْقَوْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا تَنْفَعُ فِيهِ ، أَوِ الطَّرِيقُ الْمَصْفَرُّ الْمُنْتَشِبَةُ عَنْ الطَّرِيقِ الْأَعْلَمِ .

(٣) آيَةُ ٧٨ سُورَةِ الْحَجِّ .

(٤) آيَةُ ٢٨٤ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(٥) آيَةُ ١٥ سُورَةِ النُّورِ .

(٦) آيَةُ ٧٨ سُورَةِ الْحَجِّ .

قوله : « ولدينا كتابٌ ينطق بالحقٍّ وهم لا يظلمون » : لولا غفلتهم عن نواضع الحقيقة لما خوفهم بكتابة التَّكْيِ ، ولكن غفلوا عن شهود الحق خفوتهم باطلاع الملائكة ، وكتاباتهم عليهم أَعْلَمُ .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا ، وَلَمْ أَعْمَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ شَيْئاً ﴾

لا يَصْلُحُ لهذا الشأن^(١) إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال ، لا شغلَ له في الدنيا والآخرة ، فأما مَنْ له شغلٌ بدنيّاه ، أو على قلبه حديثُ عقباه ، فليس له نصيبٌ من حديث مولاه ، وفي الظاهر « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .

ويقال أصحاب الدنيا مشغولون بدنيّام ، وأرباب العُقْبَى مشغولون بعقبام ، وأهل النار مشغولون بما ينالهم من بلوام ؛ وإن أدى له في الدنيا والآخرة غير مولاه — حين الفراغ — عزيز ، قال تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغلٍ مُكْرَمٍ »^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعُنَابِ إِذَا هُمْ يَبْعَثُونَ ﴾

إنه — سبحانه — يُبْعِلُ ولكنه لا يُبْعِلُ ؛ فإذا أَخَذَ فَبَطَشَهُ شديداً ، قال تعالى : « إن بطش ربك لشديد »^(٣) . . . فإذا أَخَذَ أصحابُ الكِبَاكِ — حين يمل بهم الانتقام — في الجوابِ رُدُّوا في الموان ، ويقال لهم :

﴿ لَا تَحْشَرُوا الْيَوْمَ لَكُمْ عَذَابًا ، لَا تَنْصَرُونَ ﴾

فإذا انفصل من العيبِ حُكْمٌ فلا مَرَدَّ لتدبيره .

(١) هذا الشأن يقصد به طريق رباب الأحوال

(٢) آية ٥٥ سورة يس .

(٣) آية ١٢ سورة البروج .

ويقال للجناية سرية ؛ فإذا أمسك الجاني عن الجناية فلا ينفعه ذلك ما لم يحض حكم السرية .

قوله جل ذكره : ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنتَلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَكُفُّوا عَنْ أَعْيُنِكُمْ قَتْلَكُمْ ﴾^(١) مستكبرين به سامراً تهجرون به .

ذَكَرَ هَذَا مِنْ بَابِ إِمْلَاءِ الْمُذْنِبِ ، وَإِلْزَامِ الْحِجَةِ ، وَالْقَطْعِ بِالْإِنْفَعِ - الْآنَ - الْجَزْعُ وَلَا يُسَمَّعُ الْمُذْنِبُ ؛ وَالْمُلُوكُ إِذَا أَمَرُوا حُكْمًا ، فَلَا اسْتِثْنَاءَ غَيْرُ مُؤَثَّرَةٍ فِي الْحَاصِلِ مِنْهُمْ ، قَالَ قَائِلُهُمْ :

إِذَا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكذب إليه بوجه - آخر الدهر - تقبيل
قوله جل ذكره : ﴿ أَقْلَمُ يَدُ بَرِّوَا الْقَوْلِ أَمْ جَاءَهُمْ ثَأْلَمُ بَاتِ آيَاهُمْ الْأُولَىٰ ﴾ .

يعنى أنهم لو أنصموا النظر ، وسلطوا على أحوالهم صائب الفكر لاستبصروا فى الحال ، ولاتقنوا عن قلوبهم الاستعجاب والإشكال ، ولكنهم استوطنوا مركب الكسل ، وعرجوا فى أوطان التغافل ، فتعودوا الحبل ، وأيسوا من الاستبصار .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُفَكِّرُونَ ﴾ .

ذَهَبُوا عَنْ التَّحْقِيقِ فَتَطَوَّعُوا فِي أودية المغاليط ، وَرَجَعَتْ بِهِمُ الظُّلُمُ الْخاطئة ، وَمَلَكَتْهُمْ كَوَاضِبُ التَّغْدِيرَاتِ^(١) ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ (الرَّسُولَ)^(٢) عَنْ أحوالهم ؛ فَرَأَى قَابِلُهُ بِالتَّكْذِيبِ ، وَمَرَّةً رَمَوْهُ بِالسُّحْرِ ، وَمَرَّةً عَابُوهُ بِتَعَاطِيهِ أَعْمَالِ الْعَادَةِ بِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَمَرَّةً قَدَّحُوا فِيهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْفَقْرِ وَقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ ... فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ تَشَقُّقِ أحوالهم ، وَتَقَسُّمِ أَفْكَارِهِمْ .

(١) هكذا فى م أ ما فى م فهى (التدبير) ونحن نرجه الأول حق يقتصر إطلاق (التدبير) بالفرد على اللب الإلهى أما هنا فهى (التدبيرات الإنسانية) أى الفنون .
(٢) السياق يطلب وجود كلمة (الرسول) وهى غير موجودة فى النسخة فى موضعنا ما من عندنا لنسجم الأسلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ أَنِيعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ
بَلْ أَنَيْنَاهُمْ فِيكُمْ فَيَحْكُمُ عَنْ دُكْرِكُمْ
مُبْرَضُونَ ﴾

وذلك لنضاد مناهم وأهوائهم ؛ إذ هم منشأ كسوف السؤال والمراد ، ونحصيل ذلك محال
تقديره في الوجود . فَيَحْكُمُ اللَّهُ — سبحانه — أنه لو أجرى حكمه على وفق مرادهم لاختل
أمر السموات والأرض ، ولخرج عن حد الإحكام والإيمان .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرْجَاهُ بِكُ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

أى إنك لا تطالبهم على تبليغ الرسالة بأجر ، ولا بإعطاء جوائز حتى تكون موضع
التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة . أم لمالك تريد أن يتعدوا لك الرئاسة . ثم قال : والذى لك
من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن اللآب يُفنيك عن التصدى لنيل ما يكون في حصوله
منهم مطمع . وهذا كان سنة الأنبياء والمرسلين ؛ هموا لله ولم يطلبوا أجراً من غير الله .
والطاء وزنة الأنبياء فسيحكم التوفى عن التدنس بالأطعام ، والأكل بالدين فإنه رياء مُفسر
بالإيمان ؛ فإذا كان الصلوة فالأجر مُنتظر من الله ، وهو موعود من قبل الله ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

الصراط المستقيم شهود الرب بنمت الافراد في جميع الأشياء ، وفي الإيجاد ، والاستسلام
لتضاي الإلزام بمواظاة القلب من غير استكراه الحكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ
الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ ﴾ .

(١) التشيرى هنا يميز بالمحرف كثير من الواطن المحترفين الذين احتل بهم عصره ، ومنهم هذا الحسن
البرى — الذى طالما نه إلى خطورة هذا الأمر — ونحن نسع هذه الصيغة ناعية ما آل إليه أمر المحترفين
إلى النهاة والتهاك على أطاع الدنيا الزائلة .

زاعوا عن الحجة المثلى بقلوبهم فوقوا في جحيم الفرقة ، وسندبل ونزل أقدامهم غداً
عن الصراط ، فيقعون في نار الحرقه ، فهم ناكبون في دينهم وعقباهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ
لَلْجَوَا فِي ظُلْمَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

أخبر عن صادق علمه بهم ، وذلك صادر عن سابق حُكْمِهِ فِيهِمْ ، فقال : لو كشفنا عنهم
في الحال لم يخوا بما يمدون من أنفسهم من الإيمان في المال ، ولقد علم أنهم سيكفرون ، وحكم
عليهم بأنهم يكفرون ؛ إذ لا يجوز أن يكون حكمه فيهم بخلاف عليه ^(١) بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا
لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصُرُهُمْ ﴾ .

أذقناهم مقدمات العذاب دون شدائده . . تنبيهاً لهم ، فما اتقوا وما انزعجوا ، ولو أنهم
إذ رأوا العذاب فزعوا إلى التضرع والابتهال لأسرع الله زواله عنهم ، ولكنهم أصروا على
باطلهم ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ
شَدِيدٍ إِذْ أَمَّ فِيهِ مُبِيلُونَ ﴾

لما أوجلناهم أشد العقوبات صَعُفُوا عَنْ تَحَمُّلِهَا ، وَأَخَذُوا بِفِتْنَةٍ ، ولم ينفعهم ما قدموا
من الابتهال ، فَيَكْسِبُوا عَنِ الْإِجَابَةِ ، وَعَرَجُوا فِي أوطان التَّنَوُّطِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا
مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

ذكر عظيم مَنِّهِ عَلَيْهِمْ بَأَن خَلَقَ لَهُمْ هَذِهِ الْأَعْضَاءَ ، وَمَلَائِهِم بِالشَّكْرِ عَلَيْهَا .
وَشَكَرْتُمْ عَلَيْهَا اسْتِمْلَاءً فِي طَاعَتِهِ ؛ فَشَكَرُ السَّمْعِ أَلَّا تَسْمَعُ إِلَّا بِاللَّهِ وَهُوَ ، وَشَكَرُ
الْبَصَرِ أَلَّا تَنْظُرَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَشَكَرُ الْقَلْبِ أَلَّا تَشْهَدَ غَيْرَ اللَّهِ ، وَالْأَفْئِدَةُ بِهِ
غَيْرَ اللَّهِ .

(١) هذا التمييز بين المسك والعلف له أهميته الكبيرة في تقنية التدبر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴾

الابتداء للحادثات من الله بدءاً ، والانتهاه إليه عوداً ، والتوحيد ينتظم هذه المعاني ؛
فصرّف أنّ الحادثات بالله ظهوراً ، والله مَلَكاً ، ومن الله ابتداء ، وإلى الله انتهاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَلَهُ
اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا
تَتَفَكَّرُونَ ﴾

يُحْيِي النفوسَ وَيُمِيتُها والمعنى في ذلك معلوم ، وكذلك يحيى القلوب ويميتها ؛ فموتُ
القلب بالكُفْر واليُجْد ، وحياة القلب بالإيمان والتوحيد ، وكذا أنّ لقلوب حياة وموتاً
فكذلك للأوقات موتٌ وحياةٌ ، لحياة الأوقات بيئتها إقبالها ، وموتُ الأوقات بمحنة
إعراضها ، وفي منهاه أُنشوا :

أَمُوتَ إِذَا ذَكَرْتَكَ ثُمَّ أَحْيَا فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتَ

قوله : « وله اختلاف الليل والنهار » ؛ فليس كلُّ اختلافها في ضيائها وظلمتها ، وطولها
وقصرها ، بل ليالي الهيين تختلف في الطول والقصر ، وفي الروح والنوح ؛ فَمِنْ اللَّيَالِي
ما هو أضوأ من الالآى ، ومن النهار ما هو أشدُّ من لفنداس ، يقول قائلمهم : ليالىُ بَدِ
الظاعنين سُكُولُ .

ويقول قائلمهم :

وَكَمْ لِفَلَاحِ اللَّيْلِ عِنْدِي مِنْ تَحَبُّرٍ أَنْ الْمَاتِيَّةَ تَكْذِبُ

وقريب من هذا أنشى قالوا :

ليالى وصالي قد مَضَيْنَ كَأَنَّهُا لآلَى عَقَوِي فِي نَحْوِ السَّكَوَابِ
وَأَيَّامٌ هَجَرُوْا عَقِبَهَا كَأَنَّهُا بَيَاضٌ مَشْبَبٍ فِي سَوَادِ الدَّوَابِ

قوله جل ذكره: ﴿يَلْخُلَّوْا مِثْلَ مَا ظَلَّ الْأُولُونَ﴾
 ظَلُّوا أَمِذَا مِثْلًا وَكُنَّا نَرَايَا وَعِظَامًا
 أَنَّا لِمَعْمُونُونَ * لقد وَعِدْنَا نَحْنُ
 وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

سلكوا في التكذيب مَسَلَكَ سَلَفِهِمْ ، وأسرفوا في العناد مثل سَرَفِهِمْ ، فأصابهم
 ما أصاب الأولين من هلاكهم وتكليفهم .

قوله : « لقد وعدنا ... » كَلَّ طَال عَلَيْهِمْ وَقْتُ الْحُشْرِ ، وما توعدهم به من
 العذاب بعد البعث والنشور زَادَ ذَلِكَ فِي أَرْتِيَابِهِمْ ، وجعلوا ذَلِكَ حُجَّةً فِي كُذِبِهِمْ واضطرابهم ،
 فقالوا : لقد وَعِدْنَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا ، ثم لم يكن لذلِكَ تحقيق ، فافئنا إِلَّا أَسَاطِيرُ .
 فاحتجَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي جَوَازِ الْحُشْرِ بِمَا أَقْرَأُوا بِهِ مِنْ ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ :

فَقَالَ جَلْ ذِكْرَهُ: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
 قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ
 السَّمَوَاتِ السَّعِيرِ * وَرَبُّ الْعَرْشِ
 الْعَظِيمِ * مَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا
 تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ يَمْلِكُ يَدَهُ مَلَكُوتُ
 كُلِّ شَيْءٍ ، وهو يُحْيِيهِ وَلَا يُمَيِّتُهُ
 عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ
 لِلَّهِ قُلْ قَاتِلِي تَسْحَرُونَ ﴿١١﴾

أَمَرَهُ — عليه السلام — أَنْ يُؤَوِّنَ عَلَيْهِمُ الْأَسْئَلَةَ ، وَعَقَّبَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ
 — مُخْبِرًا عَنْهُمْ — أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ : اللَّهُ ، ثم لم يَكْتَفِ مِنْهُمْ بِقَالَتِهِمْ تِلْكَ ، بل عَاتَبَهُمْ عَلَى

تجوز قولهم عن التذكر والتمهم والعلم ، تنبيها على أن القول — وإن كان في نفسه صدقا — فلم تكن فيه غنية ؛ إذ لم يصدر عن علم و يقين .

ثم تبهمهم على كمال قدرته ، وأن القدرة القديمة إذا تملقت بمقدوره ضد تملقت بضده ، ويتعلق بمثل متعلقه .

والتعجب من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله ، ثم تجوزهم عبادة الأصنام التي هي جمادات لا يحيا ، ولا تضر ولا تنفع .

ويقال أولا قال : « أفلا تذكرون » ، ثم قال بعده : « أفلا تتقون » ، فقدم التذكر على التقوى ؛ لأنهم بتذكركم يصلون إلى المغفرة ، ثم بعد أن يعرفوه فإنهم يجب عليهم اتقاء مخالفته . ثم بعد ذلك قال : « فأني أَسْحَرُون » ؛ أي بعد وضوح الحجة فأشك بقى حتى تنسبوه إلى السحر ؟

قوله جل ذكره : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا قَوْمٌ لَكَآذِبُونَ ﴾

بين أنهم أصرّوا على جحودهم ، وأقاموا على عتوهم وئوهم ، وبعد أن أزيحت العلل فلات حين عنر ، وليس لتجوز المسألة موجب بتأ .

قوله جل ذكره : ﴿ مَا اخْتَدَ اللَّهُ مِنْ وَلَآئٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ

مِنْ إِلَآءٍ ﴾

اختاذ الأولاد لا يصح كاختاذ الشريك ، والأمران جميعا داخلان في حد الاستحالة ، لأن الولد أو الشريك يوجب للسواة في القدر ، والصمديّة تنقدس عن جواز أن يكون له مثل أو جنس .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذَا لَدَّكَ بِشَيْءٍ إِلَىٰ مَا تَخْلَقُ

وَكَلَّمَا بِمَعْصِيَةٍ عَلَىٰ بَعْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ

عَمَّا يُصِفُونَ • عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

كُلُّ أَمْرٍ رِبَاطٌ بَيْنَيْنِ فَقَدْ اتَّفَقَ مِنَ النِّظَامِ وَحُصَّةُ التَّرْتِيبِ ، وَأَدَّةُ التَّمَانُعِ مَذْكُورٌ
فِي مَسَائِلِ الْأَصُولِ .

« سُبْحَانَ اللَّهِ » تَقْدِيسًا لَهُ ، وَتَهْنِئَةً عَمَّا وَصَفُوهُ بِهِ . « عَالَمُ النِّيبِ وَالشَّهَادَةِ » : تَهْنِئَةٌ مِنْ
أَوْهَامِ مَنْ أَشْرَكَ ، وَظَنُّونَ مَنْ أَظْلَمَ .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾
يقول إن جعلت لهم ما تنوعدم به فلا يجعلوني في جنتهم ، ولا توصل إلي سوماً مثلاً
توصل إليهم من عقوبتهم . وفي هذا دليل على أَنَّ الحقَّ أَنَّ فعل ما يريد ، ولو عَذَّبَ الْبَرِيَّةَ
لم يكن ذلك منه ظُلماً ولا قِيحاً^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا عَلَى أَنْ تَرْيَكَ مَا نَعِدُهُمْ
لَقَادِرُونَ ﴾

تدل على صحة قدرته على خلاف ما علم ؛ فإنه أخبر أنه قادر على تسجيل عقوبتهم
ثم لم يفعل ذلك ، فَصَحَّتْ التَّنْذَرَةُ عَلَى خِلَافِ الْمَعْلُومِ^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ اذْفَعْ بِالْقِيَمَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ فَمَنْ
أَعْلَمَ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

الميزة في « أحسن » يجوز ألا تكون للبيان ؛ ويكون المعنى ادفع بالحسن السيئة .
أو أن تكون للبيان ؛ فتكون المكافأة جائزة والعفو عنها — في الحسن — أشدَّ مبالغةً .
ويقال ادفع الجفاء بالوفاء ، وجرم أهل المصيان بحكم الإحسان .
ويقال ادفع ما هو خطأك إذا حصل ما هو حق لك .
ويقال اسلك سلك الكرم ، ولا تنجح إلى طريق المكافأة .

(١) لأن أفعال الله تعالى لا تمل بالأغراض ، إذ لا يعود عليه سبحانه من هذا أو ذاك مصلحة .
(٢) في هذا رده من حق المتأملين للآثار والصفات ، إذ يتضح أن صفة العلم متميزة عن صفة
القدرة . فالأشياء — ومنهم القسري — حين يثبتون الصفات إنما يثبتون المعاني الثلاثة بذاته ، وهي معان
وإن شئتم فليست طواري على الذات ، وإنما الذات قائمة بها .

ويقال الأحسنُ ما أشار إليه القلبُ ، والسيئةُ ما تدعو إليه النفسُ .

ويقال الأحسنُ ما كان بإشارة الحقيقة ، والسيئةُ ما كان بوصاوس الشيطان .

ويقال الأحسنُ نورُ الحقائق ، والسيئةُ ظلمةُ الخلفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَزَاتِ

الشياطين ﴾ وأعوذُ بِكَ رَبُّ أَنْ

يَحْضُرُونِي ﴿

الاستعاذة — على الحقيقة — تكون بالله من الله كما قال صلى الله عليه وسلم :

« أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ »^(١) ، ولكنه — سبحانه — أراد أن تَعْبُدَهُ بالاستعاذة به من الشيطان ،

بل مِنْ كُلِّ ما هو مُسَلِّطٌ علينا ، والحقُّ عندئذٍ يوصل إلينا مضرتنا بجمري العادة .

ولأ... . فلو كان بالشيطان من إغواء الخلق شيء ، لكان يُمَسِّكُ على الهدايةِ قَسَمَةً ! فَمِنْ

صَجَرَ عَنْ أَنْ يَحْفَظَ نَفْسَهُ كَانَ مِنْ إِغْوَاءٍ غَيْرِهِ أَشَدَّ هِزْأً ، وَأَنْشَدُوا :

جُودِي فِيكَ تَلَيْسَ وَعَقْلِي فِيكَ تَهْوِي

تَقِنْ أَكُنْ إِلَّاكُ وَمَنْ فِي (...) (٢) ابليس

قوله جل ذكره : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

رَبِّ ارْجُونِي ﴾ . لَعَلَّ أَهْلَ صَالِحًا

فِيهَا تَوَكَّنْ كَلًّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ

تَأْتِلُهَا وَمِنْ وَدَائِهِمْ يَرْزَخُ إِلَى

يَوْمٍ يُعْكُونُ ﴿

(١) من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمَعَانِكَ مِنْ مَعْرَبِكَ » .
مسلم ، ومالك ، وأبو داود ، والترمذي ، والبيهقي .

(٢) في م (الين) ، وفي س (الين) ، والبيتان فحلاج في الطواصين ص ٤٧ وفي ديوانه (المقطعة الثامنة
والمعروفة) جاءت البين ، والمعنى أن آدم الذي خلقته من طين هو سبب بلاني فسجودي له سجوداً لذكره .
وفي البيتين بعض القوم من الشطح ، ولهذا نمج من استنباط القشيري بهذا . ونحن نلاحظ أنه بينما لم يكتب
القشيري في رسالته شيئاً عن سيرة الحسين بن منصور الحلاج إلا أنه طالما يستشهد بأقواله شعراً ونثراً . .
وقد عشنا لذلك في كتابنا « الإمام القشيري وتصوفه » ط مؤسسة الحلبي .

إذا أخذ البلاء بخناقهم ، واستكن الضرب من أحوالهم ، وعلوا الآحيمص ولا محبة
أخذوا في التضرع والاستكانة ، ودون ما يرومون خراط القتاد ، ويقال لهم هلا كان عشر
عشر هذا قبل هذا ؟ ولقد قيل :

قلتُ لنفسى : إن أردت رجوعاً طرجى قبل أن يبدُ الطريقُ

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَصَابَ
بَيْنَهُمْ يَوْمئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

يومئذٍ لا تنفع الأنسابُ وتنقطع الأسبابُ ، ولا ينفع الندمُ ، وسيلق كلُّ رغبٍ ما اجترم ؛
فَنُفِخَتْ بَطْشُورَاتُ مَوَازِينِهِ لَاحَ عَلَيْهِ تَزِينُهُ . ومنْ ظَهَرَ مَا بَشِنَهُ اللهُ مِنَ الْبَلَاءِ فَتَوَنَّى ،
تَلَفَعَ وَجْهَهُمُ النَّارَ ، وتَلَفَعَ مِنْ شَوَاحِدِمْ الْأَثَرِ ، ويتوجه عليهم الججاج ، فلا جواب لهم
يُسْمَعُ ، ولا عُدْرٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُ ، ولا عذابٌ مِنْهُمْ يُرْفَعُ ، ولا عقابٌ مِنْهُمْ يَقْطَعُ .

قوله جل ذكره : ﴿ طَلَوْا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا
وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ .

نظقوا بالحق . . . ولكن في يومٍ لا ينفع فيه الإقرار ، ولا يقبلُ الاعتذار ،
ثم يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا
فَنَاظِلُّونَ ﴾ .

والحق يقول : لو ردُّوا لمَّا شُهِرُوا عَنْهُ . عَلِمَ أَنَّ رَدِّمْ إِلَى الدُّنْيَا لَا يَكُونُ ، ولكنَّه
عَلِمَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَذَلِكُنَّ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكْسَبُونَ ﴾ .

عند ذلك يتم عليهم البلاء ، ويشتدُّ عليهم العناء ، لأنهم ماداموا يذكرون الله لم يحصل
الفراق بالكلية ، فإذا حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذِكْرِهِ تَمَّ لَهُمُ الْحَنَةُ ، وهو أحدُ ما قيل في قوله .
« لا يميزهم الفزع الأكبر » ^(١) .

(١) آية ١٠٣ - سورة الأنبياء .

وفي الخبر : أنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لم يروا كعواء الذئب . وبعض الناس تنزل من أحوالهم ؛ لأن الحق يقول لم : « اخشوا فيها » ، فيقولون : يا ليتنا يقول لنا : أليس هو يغاطبنا بذلك ؟ وعولاه يقولون : قدسُ الأجبابُ الله من مدح الأجانب ، وينشعرون في هذا المعنى :

أتاني عنك سببك لي .. فسبني أليس جرى بينك اسمي ؟ فحسبي

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِأَفْغُفِرَ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فانخذنوم سخرية حق أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون • إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون • .

الحق سبحانه — ينتقم من أعدائه بما يطيبُ به قلوب أوليائه ، وتلك خصومة الحق ، فيقول : قد كان قومٌ من أوليائي يُفصِحون بحسبي وثباتي ، ويتصفون بحسبي وإطرائي ، فانخذنوم سخرية ... فأنا اليوم أهزيمهم ، وأنتقم من كل ينالونهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدُدَ سِنِينَ ﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم • فاسأل العالدين • قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم تعلمون •

عددُ سنين الأشياء — وإن كانت كثيرة — فقد قصر أو قل بالإضافة إلى ما يورث عليها ، كذلك مدة مقامهم تحت الأرض ؛ إن كانوا في الراحة قد قتل بالإضافة إلى الراحة التي يلقونها في القيامة ، وإن كانت شديدة فتتلاشى في جنب ما يورثه ذلك اليوم من ألم تلك العقوبات المتوالية .

قوله جل ذكره: ﴿ اَتَمْسِكُمْ اَنْتُمْ خَلْقَانَا عِبَادًا وَانْتُمْ اِلَيْنَا تَرْجِعُونَ ﴾ .

العبثُ الهو ، واللَّيْبُ والاشتغالُ بما يُلْهِى عن الحقِّ ، والله لم يأمر العبادَ بذلك ، ولم يَدْعُهُمْ إِلَى ذلِكَ ، ولم يَنْدُبِهِمْ إِلَيْهِ .

والعابثُ في فعله مَنْ فَعَلَهُ عَلَى غَيْرِ حَدِّ الْأَسْتِقَامَةِ ، ويكون هَازِلًا مُسْتَجَلِبًا بِفعله أَحْكَامَ الهَوِّ إِلَى نَفْسِهِ ، مُنَادِيًا فِي سَهْوِهِ ، مُسْتَلِدًّا لِلتَّفْرِيقِ فِي قَصْدِهِ . وكلُّ هذا من صفات ذَوِي البُشْرَةِ ، وَالْحَقُّ — مَبِيعَانُهُ — مُنَزَّهٌ النَّعْتِ عَنْ هَذِهِ الْجِلَّةِ ، فَلَا هُوَ بِفَعْلٍ شَيْءٍ عَابَثَ ، وَلَا بِشَيْءٍ مِنَ الْمَبِثِّ آمِرٌ .

قوله جل ذكره: ﴿ فَنَمَاتِ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ .

الحقُّ — بِنَعْوَتِ جَلَالِهِ — مُتَوَحِّدٌ ، وَفِي عِزِّهِ أَرْزَالُهُ وَعُلُوُّ أَوْصَافِهِ مُتَفَرِّدٌ ، فَذَاتُهُ حَقٌّ ، وَصِفَاتُهُ حَقٌّ ، وَقَوْلُهُ صِدْقٌ ، وَلَا يَتَوَجَّهُ لِمُطْلَقٍ عَلَيْهِ حَقٌّ ، وَمَا يَفْعَلُهُ مِنْ إِحْسَانٍ بِعِبَادِهِ فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا بِمُسْتَعْتَقٍ ^(١) .

« لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » : مَا تَجَمَّلُ بِالْعَرْشِ ، وَلَكِنْ تَعَزَّزَ الْعَرْشُ بِأَنَّهُ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ إِضَافَةً خُصُوصِيَّةً .
وَالْكَرِيمُ الْحَسَنُ ، وَالْكَرَمُ نَفْيُ الدَّنَاءَةِ .

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

حِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ فِي آجِلِهِ . وَعِفَائُهُ مِنْ اللَّهِ لَهُ فِي عَاقِبَتِهِ ، وَهُوَ الْجَهْلُ الَّذِي أَوْدَعَ قَلْبَهُ حَتَّى زَمِنَ بِأَنَّهُ يَعْبُدُهُ مَعَهُ غَيْرُهُ . وَقَوْلُهُمْ : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » كَلَامٌ

(١) معنى هذه العبارة أنه لا يجب على الله شيء في إحسانه لعباده . فهو إذا أحسن إليهم فهذا من فضله ، وليس نتيجة وجوب على الله أو حق للعباد .

حاصل من غير دليل عقل ، ولا شهادة خير أو قتل ، فإما هو إلا إفك وبهتان ، وقول لبس يساعد برهان .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفَلَّحَ رَبُّكَ عِزًّا وَارْحَمَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

اغفر الذنوب ، واستر العيوب ، وأجزل الموهوب ، وارحم حتى لا تستولى علينا هواجس التفرقة ونوازل الخطوب . والرحمة المطالبة بالنعاء من صنوف النعمة ، ويسى الحاصل بالرحمة باسم الرحمة على وجه التوسع وحكم المجاز (١) .

السورة التي يذكر فيها النور

قوله جل ذكره ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

بسم الله اسم نذير الوفاة فرقتة ، اسم بشير الحياة وصلته ، اسم سبب الروح حرافة ، اسم راحة الروح إحسانه ، اسم كمال الأنس إقباله ، اسم فتنة قلوب المهيبين جماله ، اسم من شيعته دامت سلامته ، اسم من وجده قامت قيامته ، اسم لا إليه حظوة ، ولا بدونه سلوة .

قوله جل ذكره : ﴿ سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ .

سورة هي شرف لك — يا محمد — أنزلناها لأن أقل ما ورد به التحدى سورة (٢) ، فكل سورة شرف له عليه السلام لأنها له مميزة ، بينها وشرعنا فيها من الحلال والحرام ، وبيننا (فيها من الأحكام ما) (٣) لكم به اعتناء ، ولقلوب من غمرة الاستعجاب شفاء .

أنزلنا فيها آيات يبينات ، ودلائل واضحة ، وحججاً لأبحاث ، لتذكروا تلك الآيات ، وتنبهوا بما فيها من البراهين والبيّنات .

(١) لأن الرحمة — في الأصل — وصف لفئات ، والصفة من صفات الفعل .
(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة البقرة : « وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ هَذِهِ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ » ، وإلى قوله تعالى في سورة يونس : « قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مِنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ » .
(٣) ما بين القوسين موجود في س وغير موجود في م .

قوله جل ذكره: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ .

والعقوبة على الزنا شديدة أكيدة ، ولكن جعل إثبات أمره وتقرير حكمه والقطع بكونه على أكثر الناس خصلة عسيرة بعيدة ؛ إذ لا تقبل الشهادة عليه حتى يقول : رأيت ذلك منه في ذلك منها ؛ وذلك أمر ليس بالمبين ، فسيحان من أعظم العقوبة على تلك الفعلة الفحشاء ، ثم جعل الأمر في إثباتها بنهاية السكدة والعناء ؛ وحين اعترف واحد له بذلك قال له صلى الله عليه وسلم : لعلك قبلت .. لعلك لا مست ، وقال لبعض أصحابه : «استكبره» (١) وكل ذلك روماً لدرء الحد عنه ، إلى أن ألح وأصر على الاعتراف .

قوله جل ذكره: ﴿ولا تأخذكم بها رافة في دين الله﴾
 إن كنتم تؤمنون بالله واليوم
 الآخر ﴿

ما يأمر به الحق فواجب مقابلته بالسمع والطوع .
 والرحمة من موجب الشرع وهو المأمور ، فأما ما يقتضيه الطبع والمادة والسوء فمأمور
 غير محمود . ونهى عن الرحمة على من خرق الشرع ، وترك الأمر ، وأساء الأدب ، وانتصب
 في مواطن المخالفة .

ويقال ثمانا عن الرحمة بهم ، وهو يرحمهم بحيث لا يمحو عنهم — بذلك الفعل الفحشاء —
 رقم الإيمان ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (٢)
 ولولا رحمته لما استبقى عليه حلة إيمانه مع قبيح جرمه وعصيانته .

(١) وردت الإشارة إلى حادث « مامر » في هامش سبق ، وقوله « استكبره » أى اجتوا حل في فقه ربيع الحز ، وبعدها سأله النبي للمرة الأخيرة « أذيت ؟ فقال نعم . فأمر به فرجم » صحيح مسلم ط أول سنة ١٩٣٠ م المصرية بالأزهر ج ١١ ص ١٩٩ .
 (٢) من أبى سلف بن عبد الرحمن وسيد بن المسيب أنها قال : عن أبي هريرة أن النبي (ص) قال (لا يزني ... ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يترب الخرج حين يتربها وهو مؤمن) صحيح مسلم ج ٢ ص ٤١ .

قوله جل ذكره : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أَي لِيَكُونَ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ ، وَلِيَكُونَ تَخَوُّفًا لِّتَمَاطِي ذَلِكَ الْعَمَلُ ، ثُمَّ مِنْ حَقِّ الدِّينِ يَشْهَدُونَ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ أَن يَتَذَكَّرُوا عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، وَكَيْفَ عَصَمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . وَإِنْ جَرَى مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يَتَذَكَّرُوا عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ كَيْفَ سَتَرَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَفْضَحْهُمْ ، وَلَمْ يُفَيِّهِمْ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَقَامَ فِيهِ هَذَا الْمُتَنَبِّلُ بِهِ . وَسَبِيلُ مَنْ يَشْهَدُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ أَلَّا يُعَيَّرَ صَاحِبَهُ بِذَلِكَ ، وَأَلَّا يَنْسَى حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِقْدَامِهِ عَلَى جُرْأِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً

أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا

إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

النَّاسُ أَشْكَالٌ ؛ فَكُلُّ نَظِيرٍ ^(١) مَعَ شَكْلِهِ ، وَكُلُّ يَأْكُنُ شَكْلَهُ ، وَأَتَشَدُّوا :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَتَسْأَلُ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْقَارَنِ يَتَنَدَّى

فَأَهْلُ الْفَسَادِ الْفَسَادُ يَجْمَعُهُمْ - وَإِنْ تَبَاعَدَ مَزَارِعُهُمْ (وَأَهْلُ السَّادِ السَّادُ يَجْمَعُهُمْ -

وَإِنْ تَنَادَتْ دِيَارُهُمْ) ^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلُبُوا لَهُمْ ثَمَانِينَ

جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا

وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

لِتَلَّا يَسْتَبِيحُوا أَعْرَاضَ لِلْسَّلِينِ ، وَلِتَلَّا يَهْتَكُوا أَسْتَارَ النَّاسِ أَمَرَ بِتَأْدِيبِهِمْ ، وَإِثَامَهُ اخْلَعَهُ عَلَيْهِمْ إِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ .

(١) هَكَذَا فِي س وَصِي فِي م (وَكُلُّ طَيْرٍ ..) وَدَجَا كَانَتْ (وَكُلُّ طَيْرٍ) أَوْ (فَكُلُّ طَيْرٍ) ، وَالْمَثَلُ يَقُولُ : { الطَّيُورُ عَلَى أَشْكَالِهَا تَتَع } .

(٢) مَا بَيْنَ الْقُرُوبَيْنِ مَوْجُودٌ فِي م وَطَيْرٌ مَوْجُودٌ فِي س .

ثم بَالَّغَ في عدد الشهود، وألَّا تُقْبَلَ تلك الشهادة إِلَّا بالتضرع التام ، ثم أكمله بقوله « ولا تُقْبَلُ أَلَمْ شَهَادَةُ أَبَدًا » . وفي الخبر المسند قوله عليه السلام : « مَنْ أَتَى مِنْكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْقِتَابَاتِ فَلَيْسَتْ بِسِتْرٍ لِلَّهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَبْدَى لَنَا صَفْحَتَهُ ، أَفْنَى عَلَيْهِ حُدُّ اللَّهِ » (١)

قوله جل ذكره ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾

جَلَّ من شرط قبول شهادته صِحَّةُ توبته ، وجعل علامة صحة توبته إصلاحه ، فقال : « وَأَصْلَحُوا » ، وهو أن تَأْتِيَ على توبته مدة تنشر فيها بالصلاح صفته ، كما اشتهرت بِهَيْئَتِكَ أمراضُ المسلمين قائله . كلُّ هذا تشديداً لمن يحفظ على المسلمين ظاهر صلاحه .

قوله جل ذكره : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾

لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢﴾

لَمَّا ضَاقَ الْأَمْرُ عَلَى مَنْ رَأَى أَهْلَهُ عَلَى فَاحِشَةٍ ، إِذْ أَنْ فِي ذَلِكَ قَبُولُ نَسْبٍ غَيْرِ صَحِيحٍ — فقد نهى الشرعُ عن استنحافه ولَمَّا مِنْ غَيْرِهِ . وكان أَمْرًا مَعْظُورًا هُنَاكَ عَرَضُ الْمَرْأَةِ وَالشَّهَادَةُ عَلَيْهَا بِالْفَحْشَاءِ ، إِذْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ فِي الْمُغِيبِ ؛ أَيْ بِخِلَافِ مَا يَدَّعِيهِ الزَّوْجُ . وَلَئِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ ذُو خَطَرٍ شَرَعَ اللَّهُ حُكْمَ الْعَمَانِ (٣) لِيَكُونَ لِلْمُخْصُومَةِ قَاطِعًا ، وَلَقَدْ قَدَّمَ عَلَى

(١) رواه البيهقي والمحاكم من ابن مزيه بإسناد جيد يلفظ : « اجْتَبُوا هَذِهِ الْقِتَابَاتِ الَّتِي نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا ، لَنْ أَمَّ بَعْضُهَا فَلَيْسَتْ بِسِتْرٍ لِلَّهِ ، وَلَيْلَبَ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ مَنْ أَبْدَى لَنَا صَفْحَتَهُ نَقِمَ عَلَيْهِ كِتَابُ اللَّهِ » (س ١٥٥ ج ١ فيبين القدير شرح الجامع الصغير للناي الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦ هـ) .

(٢) العمان في القرية أن يقسم الزوج أربع مرات على صدقه في قلب زوجته بآثان ، والمخافة باستحقاق لعنة الله إن كان كاذباً وبهذا يبرأ من حدة التعذب . ثم يتعمد الزوجة أربع مرات على كذبه ، والمخافة باستحقاقها غضب الله إن كان صادقاً فتبرأ من حد الزنا . وقد نزلت آية العمان في خلال بن أمية أو عمر حيث قال وجدت على بطن امرأتى خوة شريك بن سحابة فكذبته ، فلا من التي (س) بينها . فإذا قلب الزوج زوجته بآثان — وما من أهل الكهانة — صح العمان بينها ، واختلف الفقهاء هل تقع الفرقة بينها بالتأمين أم بتفريق القاضي .

الفاحشة زاجراً ، ففي مثل هذه الأحوال عنها خُرْجَةٌ^(١) . ولولا أن الله على كل شيء قدير وإلا ففي عادة الناس . من الذى يهتدى ليشل هذا الحكم لولا تعريف مملو وأمر نبوى ، من الوحي مُتَلَقَاهُ^(٢) ، ومن الله مُبْتَدَاهُ وإليه منتهاه ؟

قوله جل ذكره : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ .

... لبقيتم في هذه الواقعة المعذلة ، ولم تهتدوا للخروج من هذه الحالة المشككة .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ

منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو

خير لكم . لكل أمرى منهم

ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى

كبیره منهم له عذاب عظيم﴾

هذه قصة عائشة رضى الله عنها ، وما كان من حديث الإفك .

بَيَّنَّ اللَّهُ — سبحانه — أنه لا يُغْلِي أحداً من الهنة والبلاء ، في المحبة والولاء ؛ فالامتحان من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه ، كذلك قال صلى الله عليه وسلم « يُمْتَحَنُ الرَّجُلُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ » ، وقال : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ »^(٣) .

ويقال إن الله — سبحانه — غيورٌ على قلوب خواص عباده ، فإذا حصلت مساكنة بعضي إلى بعضٍ يُجْزَى اللَّهُ ما يَرُدُّ كُلُّ واحدٍ منهم عن صاحبه ، ويردُّه إلى نفسه ، وأشدوا :

إِذَا عَزَلْتَ رُوحِي بِشَيْءٍ ، تَعَلَّقْتُ بِهِ غَيْرُ الْأَيْمَنِ كَي تَصْلُبُنِيَا

وإن النبي — صلى الله عليه وسلم — لما قيل له : أى الناس أحب إليك ؟

(١) الخُرْجَةُ هي الخروج والخلاص من أمر شديد .

(٢) هكذا في س و ح في م (مستفاد) وكلاماً صحيح ، ولكن الأولى أقوى مراعاة للموسيقى اللفظية ،

و ربما كانت (مستفاد) .

(٣) رواه الترمذى وقال حسن صحيح ... وقد سبق تخريج هذا الحديث .

قال : عائشة . فساكتها .

وفى بعض الأخبار أن عائشة قالت : « يا رسول الله إني أحبك وأحب قريبي » . . .
فأجبنى الله حديث الإفك حتى ردّ قلب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عنها إلى الله ،
وردّ قلب عائشة عنه إلى الله ، حيث قال — لما ظهرت براءة ساحتها : بحمد الله لا يحمده
كشف الله عنها به تلك المحبة ، وأزال الشك ، وأظهر صديقتها وبراءة ساحتها .

ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور
الله »^(١) ، فإذا كانت الفراسة صفة المؤمن فأولى الناس بالفراسة كل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ثم لم تظهر له بحكم الفراسة براءة ساحتها ، حتى كان يقول : « إني فُكِّلت فتوبى » .
والسبب فيه أنه في أوقات البلاء يمدّ الله على أوليائه حيون الفراسة إكمالاً للبلاء .
وكنذك إبراهيم — عليه السلام — لم يميز ولم يعرف الملائكة حيث قدّم إليهم العجّل
الحنيد ، وتوهمهم أضيافاً . ولو طو عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلى أن أخبروه
أنهم ملائكة .

ويقال إنه كان — صلى الله عليه وسلم — يقول لعائشة : « يا محجّرة » .

فلما كان زمان الإفك ، وأرسلها إلى بيت أبيها ، واستوحش الأبوان معها ، ومريضة
عائشة — رضى الله عنها — من الحزن والوجد ، كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
إذا رأى واحداً من دار أبي بكر يقول :

كيف يينسك ؟ لا عائشة ولا حبراء ! فما كان يطيب بالتفاؤل عنها ، فتعبيره — إن
لم يُعْمَمْ بالتصريح — فيفقه بالتلويح .

ثم إنه — سبحانه — قال : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ
منهم ما اكتسب من الأثم » : فيبفقد جرمهم احتل كل واحد ما يخصه من الوزر .

قوله جل ذكره : ﴿ تَوَلَّوْا إِذْ يَخِمْتُمْوهُ ظَنُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(١) الترمذى والطبرانى ، الترمذى من حديث أبي سعد ، والطبرانى وأبو نعيم بسند حسن عن أنس .

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأْنُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا
هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ .

عائتهم على المبادرة إلى الاعتراضِ وَبَسَطَ أَلْسِنَهُمْ بِالسَّوْءِ ، عنها ، وترَكَّهم الإعراض
عن حُرْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ . ثم قال : وهَلَّا جَامَعُوا عَلَى مَا قَالُوا بِالشَّهَادَةِ ؟ وَإِذَا لَمْ يَجِدُوا ذَلِكَ
فَهَلَّا سَكَتُوا عَنْ بَسْطِ اللِّسَانِ ؟

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَنْفَضْتُمْ
فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

لأنه أخبر أن جرْمهم — وإن كان عظيماً — فإنه في عِلْمِ اللَّهِ عنهم غير مُؤَثَّر ، ولولا
أن الله — سبحانه — يَنْتَقِمُ لأوليائه ما لا يَنْتَقِمُ لنفسه فلمَّا لم يَذْكُرْ هذه المبالغة في أمرهم ؛
فإنَّ الذي يقوله الأجانبُ والكفارُ في وصف الحق — سبحانه — بما يستحيل وجوده
وكونه يوفى وَيُرْفَى على كل سوء — ثم لا يَقْطَعُ عنهم أرزاقهم ، ولا يمنع عنهم أرزاقهم ،
ولكن ما تَمَلَّقَ به حقوقُ أوليائه — لا سيما حق الرسول صلى الله عليه وسلم — فذاك
عظيمٌ عند الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

بَالِغٌ فِي الشَّكَايَةِ مِنْهُمْ لِمَا أَقْسَمُوا عَلَيْهِ بِمَا تَأْذَى بِهِ قَلْبُ الرَّسُولِ - صلى الله عليه
وسلم — وقوبُ جميع المُخلصين من المسلمين .

ثم قال : « وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ » : وسبيلُ اللُّؤْمِ أَلَا يَسْتَصْرِفُ فِي الرِّفْقِ
طَاعَةً ، ولا يَسْتَصْرِفُ فِي الْخِلَافِ زَلَّةً ؛ فَإِنَّ تَعْظِيمَ الْأَمْرِ تَعْظِيمٌ لِلْأَمْرِ . وأهل التحقيق
لا يَنْظُرُونَ ما ذَكَرَ الفعل ولكن يَنْظُرُونَ مَنْ الْأَمْرِ به .

وقال : يَسِيرُ الزَّلَّةُ — يَلَاحِظُهَا الْبَدْءُ بِمَعْنَى الْأَسْتَحْقَارِ — فَتُحِيطُ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْوَالِ ،
وَتَكْثُرُ كَثِيرًا مِنْ صَافِي الشَّوَابِ .

واليسير من الطاعة — ربما يَسْتَقِلُّ العبدُ — ثم فيها نجاتُهُ ونجاتُ عالمٍ معه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ لَا إِذْ مَعْتَمِرُونَ قُلُومٌ مَّا يَكُونُ لَنَا
أَنْ تَشْكُمَ بَيْنَنَا سَعِطًا هَذَا
بِهَتَانٍ عَظِيمٍ ﴾

استماعُ النبية نوعٌ من النبية ، بل مستمعُ النبية شَرٌّ للفنايين ؛ إذ بساعة يَمُتُّ قَصْدُ
صاحبه . وإذا سَمِعَ للؤمن ما هو سوءُ قَالَةٍ في المسلمين — مما لاصحةٌ له في التحقيق —
فالواجبُ الردُّ على قَالَةٍ ، ولا يكفي في ذلك السكوتُ دون النكير ، ويجب ردُّ قَالَةٍ بأحسن
نصيحةٍ ، وأدقِّ موعظةٍ ، ونوعٌ تشاغُلٌ عن إظهارِ الشكرِ له فيها يستطیع من تشرُّه من
إخجالِ قَالَتِهِ موحشي ، فإنَّ أبي إلا أنهما كَأَ فَيَا يَقُولُ فيرد عليه بما أمكن ؛ لأنه إن لم
يَسْتَحِرْ قَالَتَهُ من قوله فلا يَبْنِي أن يستحقَّ للسمع من الردِّ عليه^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يَنْظُرُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

يَعْلَقُ هذا بأنَّ مَنْ بَسَطَ لِسَانَهُ في عائشة — رضى الله عنها — بعد ذلك لم يكن مؤمناً
لظاهر هذه الآية ، (ولمصرى قائلُ ذلك مرتكبٌ كبيرةٌ ولكن لا يخرج عن الإيمان
بذلك)^(٢) ؛ أى يَبْنِي للؤمن ألا يَشْكُمَ في هذا ، وهذا كما يقول القائل : « إِذَا كُنْتُ أَخِي
فَوَاسِي عِنْدَ شَيْئِي ؛ طَبَنٌ لَمْ تَوَاسِي لَمْ يَخْرُجْ عَنِ الْأُخُوَّةِ بِفِكَ » . . ومعنى هذا القول
أنَّه يَبْنِي للأخ أن يوَاسِيَ أخاه في حال عَفْوَتِهِ ، وترك ذلك لا يُبْطِلُ النِّسْبَ .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ
فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(١) في هذه الوصية تتجلى نزعة التشويش فيها يمكن أن نسبه (آداب السلوك) ونزاع بدون الله أن
تتجلى بوضوح عاملاً من « علم الأخلاق عند الصوفية » .

(٢) ما بين المؤمنين موجود في م وغير موجود في م ، والبراءة مامة في توضيح الرأي في مرتكب
الكبيرة ، وود على من يلعنون وصية الكفر — دون حساب — بالكثير من الناس .

الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم

لا تعلمون ﴿

هؤلاء في استحقاق الله أقيح منزلة ، وأشد وزراً حيث أحبوا افتناح للسليين ، ومن أركان الدين مظاهرة السليين ، وإعانة أولى الدين ، وإرادة الخير لسكافة المؤمنين .
والذى يؤد فتنة للسليين فهو شر أخلق ، والله لا يرضى منه بحاله ، ولا يؤمله لنال خلاصة التوحيد .

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن

الله رءوف رحيم ﴾ .

كرر قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . . » ليبيّن للجميع أن حسن الدفع عنهم كان بفضل الله ورحمته وجعل المنع لهم ، وكل يشهد حسن المنع ويشكر عليه ، وعزيز عبد يشهد حسن الدفع عنه فيحمده على ذلك (١) .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات

الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان

فاؤه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾

إذا تنقّى القلب عن الوسوس ، وصفا عن الهواجس بدت فيه أنوار الخواطر ، فإذا سما وقت العبد عن ذلك سقطت الخواطر ، وبدت فيه أحاديث الحق — سبحانه — كما قال في الخير : « لقد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي مُعَصِّر » . وإذا كان الحديث منه فذلك يكون تعريفاً يبيّن مع العبد ، ولا يكون فيه احتمال ولا إشكال ولا إزعاج ، وصاحبه يجب أن يكون أميناً ، غير مُظهِر لِسِرِّ ما كُشِفَ بِهِ (٢)

قوله جل ذكره : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لما زكى

منكم من أحد أبداً ولكن الله

يُزَكِّي من يشاء والله سميع علم ﴾

(١) أى يكثر في الحياة من يفكر على نعمة المنع ويقل من يفكر على نعمة الدفع لأن الأولى تجري بانزاع ملوس ، والثانية تجري ولا يكاد يشر بها المرء .
(٢) هنا مجد القشيري يطالب بالسكتان دون الإنصاح على السكتان حفظ للائمة .

رَدَّم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما من الخلق في قسي النفع والدفع ، وحالتي السر والبسر ، والركي^(١) من الله ، والتعنى من الله ، والآلاء من الله ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَصْفَحُوا ﴾

محرّك في أبي بكر عرق من البشرية في وصف الانتقام من مسطح^(٢) حين شرع وخاص في ذلك الحديث ، وكان في رفق أبي بكر قطع عنه ذلك ، وأخبره الرسول — صلى الله عليه وسلم — وانتظر الأمر من الله في ذلك ، فأزل الله تعالى : « وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ .. » فلم يرض من الصديق رضى الله عنه أن يتحرك فيه عرق من الأحكام النفسية والمطالبات البشرية ، فأعاد أبو بكر له ما كان يفعله في ماضى أيامه . والإحسان إلى الحسن مكافأة ، وإلى من لا يسوء ولا يحسن فضل ، وإلى الجاني فتوة وكرم^(٣) ، وفي معناه أنشدوا :

وما رضوا بالغو عن كل زلة حتى أنلوا كفة وأفادوا

قوله : « وليصفحوا وليصفحوا » : الغفو والصفح بمعنى ، فكرهما تأكيذاً .

ويقال الغفو في الأفعال ، والصفح في جنائيت القلوب^(٤) .

(١) الزكي والركاء = النماء والزينة ، وزكى الشيء = أصلحه وظهره .

(٢) مسطح ابن خثة أبي بكر ، وكان مسكيناً ، يدرأ مهاجراً ، كان ينفق عليه أبو بكر ، فلما قرأ الرسول عليه الآية قال : بلى : أحب أن يفر الله لي ، ورد إلى مسطح نفقة رغم ما خاف في عائنة رضى الله عنها .

(٣) يمكن أن يضاف هذا الشاهد إلى الباب الذى عقده القشيري « للفتوة » في رسالته .

(٤) تعرف من القشيري أنه لا يتحسس كثيراً لقول بأن بالقرآن تكراراً ، لأجل ذلك نراه يبرع إلى التمييز بين الغفو والصفح عقيب ذكره أنهما معنى .

قوله جل ذكره: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

هنا من كمال تعلقه — سبحانه . وفي الخبر : أن الله لما أنزل هذه الآية قال أبو بكر — رضي الله عنه : « بلى ، أحبُّ إليَّ » ، وعفا عن مسطح . وإن الله لا ينادي في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم ، بوأى بالكراهة من الخلق وللتنفُّذ بالإيجاد الله ١٩ وفي مناه أشدوا :

وَبُ رَامٌ لِي بِأَحْجَارِ الْأَذَى لَمْ أَحِبُّ بَدْءًا مِنَ الْعُطْفِ عَلَيْهِ
فَنَسَى أَنْ يُطْلَعَ اللَّهُ عَلَى قَدْحِ الْقَوْمِ قَيْدِي نِي إِلَيْهِ

قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الْفِرِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ

الْعَاقِلَاتِ اللَّوْمَنَاتِ كُفُّوا فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

بالغ في توعده لم حيث ذكر لفظ العنة في شأنهم .

ووصف المحصنات بالفتنة : أي بالفتنة عما يُنْسَنَ إليه ؛ فليس الوصف على جهة الذم ، ولكن ليبان تباعدن عما قيل فيهن .

واستحقاق القَذْفَةِ لِلْمَنَةِ — في الدنيا والآخرة — يدل على أنه لشوم زلهم تنفير عواقبهم ، فيخرجون من الدنيا لا على الإسلام ^(١) .

قوله جل ذكره: ﴿يَوْمَ تُشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ

: وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم ، ثم كما تشهد بعض أعضائهم عليهم تشهد بعض أعضائهم لهم ، فالعين كما تشهد : أنه تَطَرَّبِي ، تشهد بأنه يَكِي .. وكذلك سائر الأعضاء .

(١) عن ابن عباس رضي الله عنه : من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من غاض في أمر عائشة .
وهنا تنظيم ومبالغة في أمر الإفك .

ويقال شهادة الأعضاء في القيامة مُوجَّلةٌ ، وشهادتها في المحبة اليوم مُعجَّلةٌ ؛ من صُفَرَةِ الوجه إذا بدا المحبوب ، وشحوب اللون ، ونحافة الجسم ، والسكاب الدموع ، وخفقان القلب ، وغير ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَسْلُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

يجازيهم على قدر استحقاقهم ؛ فهابدين الجنان والثوبة على توفية أعمالهم ، ولعارفين بالوصلة والقرية على تصفية أحوالهم ؛ فهؤلاء لهم علو الدرجات ، وهؤلاء لهم الأس بعزيز الشهادات ودوام النجاة .

« ويسلون أن الله هو الحق المبين » : تخصير للعرفة ضرورية ؛ فيجسّدون المصافاة من النّظَر وتَدَكُّرِهِ ، ويستريح القلب من وَصَقِ تَرَدُّدِهِ وتَغْيِيرِهِ : (لاستغناؤه ببصائرهِ عن تبصُّره)^(١) .

ويقال لا يشهدون غداً إلا الحق ؛ فهم فاعلون بالحق لحق مع الحق ، يبين لهم أسرار التوحيد وحقائقه ، ويكون القائم عنهم ، والآخذ لهم منهم من غير أن يردّهم إليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ اغْلِيظْ لِّلْخَائِبِينَ الْخِيبَتِ ﴾

« اغْلِيظْ » : من الأعمال وهي المخطوئات « لِّلْخَائِبِينَ » : من الرجال المؤثرين لهاطوعاً ، والذين يمنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها ، كلُّ مربوط بما يليق به ؛ فالغِيْلُ لائقُ بفاعله ، والفاعلُ بِفِعْلِهِ في الطهارة والتقادة ، والنفاسة والطماسة ، والشرف والسرف .

ويقال « اغْلِيظْ » : من الأحوال ؛ وهي المخطوطُ والثَّني والشهوات لأصحابها والسامعين لها . والسامعون لمثلها لها ، غير ممنوع أحدهما من صاحبه ، فالصفة للوصوف ملازمة ، والوصوف لصفة ملازم .

(١) هكذا في السكتين ، ويكون مراد القشيري أنه لم يدبج بالفتنر قد أصبح اليهود ميانا ، ونحتقر لهم الرؤية البصرية التي لم ينالوها في الدنيا ، ونتمم أن القشيري لا يرى الرؤية البانية إلا في الآخرة .

ويقال « الغنيئات » : من الأشياء الغنيثين من الأشخاص ، وهم الراضون بالنازل السحيقة
... وإن طلم السكلاب الحيف .

ويقال « الغنيئات » : من الأموال — وهي التي ليست بحلال — لمن بها رقبته ، وعليها
تسكف مته ، فاطنينون من الرجال لا يملون إلا لمل تلك الأموال ، وتلك الأموال لا تساعد
إلا مثل أولئك الرجال .

قوله جل ذكره : ﴿ والطيبات للطيبين والطيبون »
للطيبات ﴾ .

« الطيبات » : من الأعمال والطاعات والقرب للطيبين ، والطيبون هم المؤثرون لها
والساعون في تحصيلها .

« والطيبات » : من الأحوال — وهي تحقيق للواصلات بما هو حق الحق ، جرداً عن
الخطوط — « للطيبين » من الرجال ، وهم الذين سمكتهم عن كل مبتذل خسيس ، ولم نفوس
نسو إلى المال ، وهي التجمل بالتدلل لمن له العزة .

ويقال الطيبات من الأموال — وهي التي لا تكبر للشرع عليها ، ولا معة مخلوق فيها —
للطيبين من الرجال ، وهم الأحرار الذين تخلصوا من ريق الكون .

ويقال « الطيبات » من الأشخاص وهم النبيرة أت من وهج الخطر، المنتقيات من سفاسف
أخلاق البشرية ، وعن التعريج في أوطان الشهوات — « للطيبين » من الرجال الذين هم قائمون
بحق الحق ؛ لا يصحبون الخلق إلا قنعف ، دون استجلاب الشهوات .

﴿ لم مغيرة ورزق كريم ﴾

لم مغيرة في المال ، ورزق كريم في الحال وهو ما ينالون من غير استشراف ، ولا تطلب
طعم ، ولا فلي مية^(١) ، ولا قديم تصب^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا بيوتاً غير

(١) أي (مية) من غلق .

(٢) (تصب) الذي يفتأ من الاستجال وعدم التغريش ونفس التفة .

يُوتِرْكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا وَتَسْأَلُوا
عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾

الخواص لا يَرَوْنَ لَأَنْفُسِهِمْ مِلْكَاً يَفْرَدُونَ بِهِ ، لَأَمِنْ الْأَمْوَالِ الْتَقْوَةُ وَلَا مِنَ الْمَسَاكِينِ
الَّتِي تَصِلُحُ لِأَنْ تَكُونَ مَدْخُولَةً ، قَمَنْ فَاتَّعَمُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَلَا يَكُونُ مِنْهُمْ مَنَعٌ وَلَا رَجْرُ ،
وَلَا حَجَبٌ لِأَحَدٍ وَلَا حَظَرٌ . . . هَذَا فِيَا نِيْطُ بِهِمْ . أَمَّا فِيَا ارْتَبِطَ بِغَيْرِهِمْ فَلَا يَتَرَعَّضُونَ لِمَنْ هِيَ
فِي أَيْدِيهِمْ ؛ لَا بِاسْتِشْرَافٍ طَلْعٍ ، وَلَا بِطَرِيقِ سَوَالٍ ، وَلَا عَلَى وَجْهِ انْبِطَاسٍ ^(١) . فَإِنْ كَانَ حَكْمُ
الْوَقْتِ يَقْتَضِي شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَالْحَقُّ يُلْجِيهِ مَنْ فِي يَدِهِ الشَّيْءُ لِيُحِيلَهُ إِلَيْهِ بِحَكْمِ التَّوَاضُعِ وَالتَّقَرُّبِ ،
وَالْوَلِيُّ بِأَخْذِ ذَلِكَ بِنَعْتِ التَّمَرُّزِ ، وَلَا يَلِيْقُ مَعَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِأَحْوَالِ تِلْكَ الْقِصَّةِ ^(٢) ، وَأَنْشُدْ بَعْضُهُمْ
فِي هَذَا الْمَعْنَى :

وَلَيْلَى لَأَسْتَحْيَ مِنْ اللَّهِ أَنْ أُرَى أَصِيرَ بِخَيْلِهِ لَيْسَ مِنْهُ بَعِيرُ
وَأَنْ أَسْأَلَ الْمَرْءَ الْقَتِيمَ بَعِيرَهُ وَبِضْرَانِ رَيْ فِي الْبِلَادِ كَثِيرُ

قَوْلُهُ جَلْ ذَكَرَهُ : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا ﴾
فَلَا تَسْخَطُوا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴿١١﴾

فِي هَذَا حِفْظُ أَمْرِ اللَّهِ وَحِفْظُ حُرْمَةِ صَاحِبِ النَّارِ ؛ لِأَنَّ مَنْ دَخَلَهَا بِغَيْرِ إِذْنِ صَاحِبِهَا
رَبِّهَا تَكُونُ فِيهَا هَوْرَةٌ مُنْكَشَفَةٌ ، وَرَبِّهَا يَكُونُ لَصَاحِبِ النَّارِ أَمْرٌ لَا يَرِيدُ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ
غَيْرُهُ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ .

﴿ فَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَأَرْجِعُوا هُوَ
أَرْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الْمُتَّقِينَ ﴾

(١) يَقُولُ السُّرِّي السُّعْفِيُّ فِي مِثْلِ هَذَا الْبَيَاقِ : « أَعْرِفْ طَرِيقَهَا مَخْتَصراً قَصِداً إِلَى الْجَنَّةِ . فَتَقِيلُ لَهُ
مَا هُوَ ؟ فَقَالَ : لَا تَسْأَلُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً . وَلَا تَأْخُذُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً ، وَلَا يَكُنْ مَعَكَ شَيْءٌ تَطْلُبُ مِنْهُ أَحَدًا
» الرَّسَالَةُ ص ١١ «

(٢) أَيْ بِأَرْبَابِ الطَّرِيقِ الصَّوْفِيِّ

إن قيل لكم : ارجعوا .. فارجموا ؛ فقد تكون الأعداء قامة ، وصاحب الملك
عليه أولى .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جناح أن تنخلوا
بيوتاً غير مكشوفة فيها متاع لكم
والله يعلم ما تبدون
وما تكتمون ﴾ .

رَفَعَ اللهُ الجَنَاحَ والخُرُوجَ في الانتفاع بما لا يُستَصْرَبُ به صاحبه بنهر إذنه ؛ كدخول
أرضي الداخل فيها أغراض قضاء حاجته — ولا يجد طريقاً غير ذلك — إذا لم يكن
في دخوله ضررٌ على صاحبها ، ويجرى هذا مجرى الاستغلال بطل حائط إذا لم يكن قاعداً
في ملكه ، وكالنظر في المرأة المنصوبة في جدار غيره .. وكل هذا إنما يُستباح بالشرع دون
قضية القتل — على ما توهّمه قوم .

قوله جل ذكره : ﴿ قل للؤمنين يُغضوا من أبصارهم
ويحفظوا فروجهم ذلك أذكى
لهم إن الله خير بما يصنعون ﴾ :

« يغضوا » : من أبصار الظواهر عن المحرمات ، ومن أبصار القلوب عن الفكر الرديء ،
ومن تصور الغالبات عن المماينة^(١) ، ولقد قالوا : إن العين سبب الخلق ، وفي مناه أُنشوا :
وأنت إذا أرسلت طرفك وانما لتليك — يوماً — أنعمت المناظر
وقالوا : من أرسل طرفه اقتضى حقه .

وإن النظر إلى الأشياء بالبصر يوجب تفرقة القلوب .
وقال إن العدو إبليس يقول : قوسي القديم ونهي الذي لا يخطئ النظر . وأرباب

(١) وما يعقد القسري أن ينهي عن إتمام فكرة النظر بالعين في الأمور الغيبية ، ويعني آخر النبي
من إخضاع كل شيء للحس ، فطبيعة الغيبيات تختلف عن ذلك ؛ ولا كنت كن يحاول هبورا الماء فوق جواد ،
أو يبر البابة وهو في سليفة — على حد تمييز جلال الدين الرومي في سياق مماثل .

المجاهدات إذا أرادوا صَوْنَ قلوبهم من الخواطر الردية لم ينظروا إلى الحِثَّات — وهذا أصلٌ كبيرٌ لهم في المجاهدة في أحوال الرضا^(١).

ويقال قَرَنَ اللهُ النَّهْيَ عن النظر إلى المحارم بذكر حفظ الفَرْجِ فقال : « ويحفظوا فروجهم » تنبيهاً على عِظَمِ خَطَرِ النظر؛ فإنه يدمر إلى الإقدام على الفعل .

ويقال قومٌ لا ينظرون إلى الدنيا وم الزُّهَّاد ، وقومٌ لا ينظرون إلى الكون وم أهل الرفاق ، وقومٌ هم أهل الحفاظ والهنئة كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون قلوبهم أهلاً للشهود، ثم الحق — سبحانه — يكشفهم من غير اختيارٍ منهم أو ترشُّصٍ أو تكلف .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَنْقُصَنَّ مِنْ

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظَنَّ فُرُوجَهُنَّ

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْفَيْنَ عَلَى جُيُوشِهِنَّ ﴾

المطالبةُ عليهن كالمطالبة على الرجال لشمولِ التكليف للعندين ، فالواجبُ عليهن تركُ المحظورات ، والنسبُ والنقلُ لمن صَوَّنَ القلبَ عن الشواغل والخواطر الردية ، ثم إن ارتقَيْنَ عن هذه الحالة فالتماهى بقلوبهن عن غيرِ المعبود ، والله يختص برحمته من يشاء .

قوله : « ولا يبدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا » : ما أباح الله — سبحانه — على بيان مسائل الفقه فمستثنى من الحظر ، وما وراء ذلك فالواجبُ عليهن حفظُ أنفسهن عن العقوبات في الآجل ، والتصاوم عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده . والله سبحانه كما يحفظ أوليائه عما يضرهم في الدِّين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم ، فإن لم يتصل منهم نفعٌ بالخلق فلا تصيبُ أحداً بهم فتنةٌ .

وفي الجملة ما فيه زينة المبد لا يجوز إظهاره ؛ فكما أن قلنسامة عورة ولا يجوز لمن إبداء زينتهن فكذلك من أظهر للخلق ما هو زينة سراره^(٢) من صفاته أحواله ، وزكاه أعماله

(١) سقطت (الرضا) من النسخة من .

(٢) هنا مجرد التسترى رأيه بدقة في قضية الإفصاح والكتان . فالأصل عنده الكتان ، فإذا افصح البعد فلا يكون ذلك إلا لا اضطرار ويكون عندئذ غير مؤاخذ لأنه مهيد عن التستر والتكلف .

اقلب رَيْنَهُ شَيْئًا ، إلا إذا ظهر على أحد شيء — لا بتعمله ولا بتكلفه — فذلك مستثنى لأنه غير مؤاخذ بما لم يكن بتصرفه ، وتكلفه ، فنوات المحارم على تفصيل بيان الشريعة يُستثنى حُكْمُهُنَّ عن الحظر (١).

قوله جل ذكره : ﴿ أَوِ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِزْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَنْظُرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾

ترأى في جميع ذلك آدابُ الشرع في الإباحة والحظر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّةَ الْمُؤْمِنِينَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾

التوبة الرجوعُ عن المنوماتِ من الأفعال إلى أضعافها المحسودة ، وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، فتوبةٌ عن الزَّلةِ وهي توبة السوام ، وتوبة عن الغفلة وهي توبة الخواص .
وتوبةٌ على محاذرة العقوبة ، وتوبةٌ على ملاحظة الأمر .

ويقال أمر الكفافة بالتوبة ؛ الماصين بالرجوع إلى الطاعة من المصيبة ، والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق ، وخاصَّ أنخاص من رؤية التوفيق إلى مشاهدة للوفيق .

ويقال أمر الكل بالتوبة لتلا ينجل الماصي من الرجوع بافراده .

ويقال مساعدة الأقوياء مع الضعفاء — رفقا بهم — من أمارات الكرم .

ويقال في قوله : « لعلكم تفلحون » يبين أنه أمرهم بالتوبة ليتغنواهم بذلك ، لا ليكون للحق — سبحانه — بتوبتهم وطاعتهم ثبيل .

ويقال أحوج الناس إلى التوبة من تَوَّهم أنه ليس يحتاج إلى التوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ ﴾

(١) يصلح هذا نموذجاً (قتيبي) إن أردنا بحث ما استيناه (الفقه العرفي) .

من عبادكم وإيمانكم إن يكونوا
فَقَرَأَ يُنْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾

إذا كان التصدُّق في لنا كحة التأديب بآداب الشرع يكتي الله ببركاته مطالبات النفس والطبع ، وإنما يجب أن يكون التصدُّق إلى المتعفف ثم رجاء لسلو يقوم بحق الله (١) .
قوله : « إن يكونوا قراء يُنْهِمُ اللَّهُ في من فضله : يُنْهِمُهُمُ اللَّهُ في الحال ، أولاً بالنفس ثم غنى القلب ، وعنى القلب غنى عن الشيء ، فالنبي عن الدنيا آتم من الغنى بالدنيا .
ويقال إن يكونوا قراء في الحال يُنْهِمُهُمُ اللَّهُ في المستأنف والمالك .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَيْسَتِ الْآدِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ﴾
حتى يُنْهِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿٢﴾

من تهاور وسعه عن الإفاقي على الميل فليصبر على مقاساة التحمل في الحال ، فمن قريب تقيبه نفسه إلى سقوط الأرب ، أو الحق — سبحانه — يهود عليه بتسهيل السبب من حيث لا يحتسب ، ولا تخطر حال المتعفف عن هذه الوجوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ يَمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوا يَوْمَ إِنْ هَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْمُ مِنْ مِلَّةِ اللَّهِ الَّتِي آتَاكُمْ ﴾

أي إن سمحت قلوبكم بإزالة الرق من المالك — الذين هم في الدين إخوانكم — من غير عزمي تلاحظون منهم فلن تحسروا على الله في صفتكم . وإن أئتم إلا العوض ودعوا إلى الكتابة ، وعلمت بغالب ظنكم صحة الوفاء بمال الكتابة من قِيْلِهِمْ فَكَاتِبُوا يَوْمَ (٢) ،

(١) كنذك هذا الأنبياء وبيهم حين طلبوا القرية .

(٢) الكتابة أن يقول لملوكه : « كاتبتك على ألف درهم » مثلاً ؛ فإن أداها عتق ، ومنماها كتبتك عليك بالوفاء ، وكتبت على بالعتق ، ويجوز أداء المال حالا ومؤجلاً ومنجبا وغير منجم لإطلاق الأمر .

ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجه ؛ من قدر يحط من مال الكتابة ، وإعانة لم من فروض الزكاة^(١) ، وإيهال يقدر ما يحتمل المكاتب ليكون ترفها له .

وإذا كنا في الشرع مأمورين بكل هذا الرقق حتى يصل المملوك المسكين إلى عتقه فبالحرى أن يسمو الرجل إلى الله بجميل الظن أن يُعتق العبد من النار بكثرة تضرعه ، وقديم سعيه — بقنوسه — من عناء قساوه ، وفضل من الله — عن قديم — رجاء^(٢) .

ثم في الخبر : « إن المكاتب عبدٌ ما بقى عليه درهم » : والعبد يسعى بجهد ليصل إلى تحرر قلبه ، وما دام تبقى عليه بقية من قيام الأخطار وبقية من الاختيار وإرادة شيء من الأغيار فهو بكال رقه وليس في الحقيقة بحر^٣ .. فالمكاتب عبدٌ ما بقى عليه درهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَكْرِهُوا قِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِنَاءِ
إِنْ أَرَدْتُمْ نَحْمَسًا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يَكْرِهْهُمْ فَإِنَّ
اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ لَكَارِهِينَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴾ .

حامل العاصي على زنته ، والداعي له إلى عثرته ، والمعين له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة ، وله من الوزر أكثر من غيره ، وبمكة لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ
وَمَثَلَاتٍ لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ
وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(١) إشارة إلى قوله تعالى في أسهم الزكاة : (وفي الرقاب) وعند الشافعي — وجه الله — سطوا من بدل الكتابة وبها .

(٢) فلسف كلام لطيف يصلح لتوضيح مقصد التشريسي يقول : السائد كالسيد هو يشتري نفسه من ربه بنجوم مرتبة ليس في فسك رقبته خوفا من البقاء في رتبة اليهودية وطعنا في فتح باب الحرية ليرح في دأب الجنة ، فله في اليوم والليلة خمس ، وفي المائتي درهم خمسة ، وفي السنة شهر ، وفي المر زورة ؛ إشارة إلى الصلاة والزكاة والصوم والحج على الترتيب .

لم ينادر على وجه الدليل غيرة^(١)، ولم يترك الحق - سبحانه - للإشكال محلاً ؛ بل أوضح المتهاج وأضاء السراج ، وأنار السيل وألاح الدليل ، فمن أراد أن يستبصر فلا يلحقه نصب ، ولا يحسب تعب .

قوله جل ذكره : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾

أى هادى أهل السموات والأرض ، ومنه نورها . والذى منه الشئ يسمى باسمه الشئ . ومنه نور السموات والأرض خلقاً ؛ فنظام السموات والأرض وإحكامها وترتيبها بوصف إتمامها حاصل بالله تعالى .

ويقال نور السلوات والأرض أى منورها وخالق ما فيها من الضياء والزينة ، وهو جبرئيل ما أودعها من الأدلة اللامحة .

ويقال نور الله السبأ بنجومها فقال : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح »^(٢) فكذلك زين القلوب بأنوار هي نور العقل ونور الفهم ونور العلم ونور اليقين ونور المعرفة ونور التوحيد^(٣) ، فلكل شئ من هذه الأنوار مطرح شعاع بقدره فى الزيادة والنقصان .

قوله جل ذكره : ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾

للمصباح فى زجاجة الزجاج كائناً
كوكب دوى يوقه من شجرة
مبلوكة زينة لا شرقية ولا غربية
يكاد زينها يعى ولو لم تنس
نلوه نور على نور يهتدى الله لنورهم
يشاء ويضرب الله الأمثال للناس
والله بكل شئ عليم .

قوله « مثل نوره كمشكاة .. » : أراد بهذا نور قلب المؤمن وهو معرفته ، فشبه صدره

(١) الغيرة = لطم العبار .

(٢) آية ١٢ سورة فصلت .

(٣) نقت النظر إلى أهمية هذا الترتيب فى توضيح مراحل المعرفة عند الصوفية وهى تتدرج فى الضياء من السراج إلى النجم إلى القمر إلى البدر إلى الشمس إلى نيس الشمس .

بالمشكاة ، وشبه قلبه في صدره بالتعديل في المشكاة ، وشبه القنديل — الذي هو قلبه — بالكوكب الدرّي ، وشبه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي الذي يمدّ السراج في الاشتغال . ثم وصف الزيت بأنه على كل إدراك زيتونه من غير نقصان أصابه ، أو خللٍ منه . ثم وصف ذلك الزيت — في صفوته — بأنه بحيث يكاد يضيء عن غير أن تمسّه نار .

ويقال إن ضربَ اللؤلؤ لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ودينه الخفي ، فما كان يهودياً — وهم الذين قبلتهم إلى جانب المغرب ، ولا نصرانياً — وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق .

وقوله : « نور على نور » : نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم ، ونور وجوهه بفضل الله فهو بيان أضافه إلى برعاتهم ، أو عيان أضافه إلى بيانهم ، فهو نور على نور .

ويقال أراد به قلب محمد — صلى الله عليه وسلم — ونور معرفته موقدٌ من شجرة هي إبراهيم عليه السلام ، فهو صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم .

قوله : « لاشرقية » بحيث تصيبه الشمس بالمشى دون القنادة ، ولا غربية بحيث تصيبه الشمس بالقنادة دون المشى ، بل تصيبه الشمس طول النهار لئيم تضيء زيتونه ، ويكمل صفاء زيتيه . والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليأس ، ولا ينفرد رجاءهم عن الخوف فيقرب من الأمن ، بل هما يتبدلان ؛ فلا يقلب أحدهما الآخر ؛ تقابل هينهم أنفسهم ، وقبضهم بسطهم ، ومحوهم محوهم ، وبقاؤهم فناءهم ، وقيامهم بآداب الشريعة تحققهم بمجوامع الحقيقة ^(١) .

ويقال « لاشرقية ولا غربية » : أي أن همّهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً ، ولا علوياً ولا سفلياً ، ولا جنياً ولا إنسياً ، ولا عرشاً ولا كرسياً ، سلطت ^(٢) عن الأكوان ، ولم تجد سبيلاً إلى الحقيقة ؛ لأن الحق منزّه عن الحقوق والدرك ، فبقيت عن الحق منفصلة ، وبالخلق غير

(١) فالقلب بين إسمين من أصابع الرحمن يظله بين طرق الأحوال حتى يصفوه له .

(٢) هكذا في م وهي في س (سلطت) ورجعاً قبلها فالسابق لا يرضها .

متصلة^(١)؛ وهذه صفة الغرباء .. وإن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ .

ويقال نور القلب: ثم موجه هو دوام الانزعاج فلا ينتره يصرّح في أقطار الكسل ، فيصل سَيْرُهُ بِسُرَاهِ في استعمال فكره ، والحق معه : بنور التوفيق حتى لا يصدّه عن عوارض الاجتهاد شيء من حُبِّ رياضة ، أو ميل لسوء ، أو هواة . فإذا أسفر صُبحُ غفلته ، واستمكن النظر من موضعه حصل العلم لا محالة . ثم لا يزال يزاد يقيناً على يقين مما يراه في ماملته من القبح والبسط ، والمكافأة والمجازاة في زيادة للكشف عند زيادة الجهد ، وحصول الوجه عند أداء الورْد .

ثم يبدو نور الماعلة ، ثم نور المنازلة ، ثم متوَعَّع نهار المواصلة . وشموس التوحيد مشرقة ، وليس في سماء أسرارهم سحبٌ ولا في هوائها ضبابٌ ، قال تعالى : « نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء » .

ويقال نور المطالبة يحصل في القلب فيحصل صاحبه على الحاسبة ، فإذا نظر في ديوانه ، وما أسلفه من عصيان يحصل له نور الممانعة ، فيعود على نفسه بالأمعة ، ويتجرّع كاسات نَدَمِهِ ، فيرتقى عن هذا باستنامة قصده ، والتثني عما كان عليه في أولت فقرته . فإذا استقام في ذلك كوشف بنور المراقبة ، فيعلم أنه — سبحانه — مُطْلِعٌ عليه . وبعد هذا نور المحاضرة وهي لوائح تبدو في السرائر . ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلى الصفات . ثم بعده نور المشاهدة فيصير ليّله تباراً ، ونجومه أقداراً ، وأقارؤه بدوراً ، وبدوره شعوساً .. ثم بعد هذا أنوار التوحيد ، وعند ذلك يتحقق التجريد بخصائص التفريد ، ثم مالا تتناوله مبلرة ولا تمزّك إشارة ، فالعبارات — عند ذلك — خرسٌ ، والشواهد طمسٌ ، وشهود الفير عند ذلك محال^(٢) . عند ذلك : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيّرت ، وإذا المشار عطلت »^(٣) ، « وإذا السماء انشقت ، واغطرت .. »

(١) هذا نموذج لتصرف الإسلام الحق الذي لا تقوية شائبة حلول أو اتحاد أو امتزاج ، فالرب رب والبد عبد ، ولا تتداخل بينهما .

(٢) لأنه لا وجود عندئذ للغير والسوى ، فقد فنى البد عن نفسه وعن الغير الله تماماً فناءً ذوقياً شهودياً ، لا فناء طيبياً كما هو الشأن في بعض التصوفات الأخرى .

(٣) سورة التكوير .

فهذه كلها أقسام الكون . وما من العنم لم صار إلى الدم . القائم عنهم غيرهم ، والكائن عنهم سواهم . وجلت الأحديّة وعزت الصديّة ، وتقدّست الديمومة ، وتزهت الإلهية .

قوله جل ذكره : ﴿ فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ

فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ

وَالْأَصَالِ • رَجُلًا لَا تُلْهِيمُ مِجَارَةً

وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالْإِلَهِ .

الصلاة وإنشاء الزكاة ﴿

للساجدُ بيوتُهُ — سبحانه — وإنَّ الله أَذِنَ أَنْ تَرْفَعَ الخَوَاصُّ فِيهَا إِلَيْهِ فَيَقْضِيهَا ، وَرَفَعَ أُنْدَارَ تِلْكَ الْبُيُوتِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْإِنْفِ وَالْأَنْثَارِ . المساجدُ بيوتُ العبادة والقلوبُ بيوتُ الإرادة ؛ فالما يدُ يصلُ بعبادته إلى ثوابِ الله ، والقاصدُ يصلُ بآلادته إلى الله .

ويقال القلوبُ بيوتُ المعرفة ، والأرواحُ مشاهدُ المحبة ، والأسرارُ محالُ المشاهدة .

قوله : « يسبح له فيها بالغدو . . . » لم يقل : لا يتجرون ولا يشقرون ولا يبيعون ، بل قال : لا تُلْهِيمُ مِجَارَةً ولا يبيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، فإنَّ أَسْكَنَ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا فَلَا بَأْسَ — ولكنه كالشعر — إلا على الأكابر الذين يمجرى عليهم الأمور وهم عنها مأخوذون ^(١) .

ويقال هم الذين يُؤْثِرُونَ حَقَّوْقَ الْحَقِّ عَلَى حَظْوِظِ النَّفْسِ .

ويقال إذا سمعوا صوتَ المؤذن : حَيٌّ عَلَى الصَّلَاةِ تَرَكُوا مَا فِيهِ مِنَ التَّجَارَةِ وَالْبَيْعِ ، وَقَامُوا لِأَدَاءِ حَقِّهِ .

ويقال هم الخواص والأكابر الذين لا يشغلهم قوله : « هل أدلكم على مِجَارَةٍ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عَوَضٍ أَوْ مَطَالَعَةٍ سَبَبِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ

وَالْأَبْصَارُ ﴿

(١) هذا رأى حلم في مدى وجوب السعي من أجل الرزق على طوائف أرباب الأحوال وتقدير الموقف من يعجزون عن ذلك .

أفوامُ ذلك اليومُ مُؤَجَّلٌ لَمْ ، وآخرون: ذلك لم مُعَبَّلٌ وهو بحسب ما هم فيمن الوقت ؛
فإن حقيقة الخوفِ رُقْبُ القبولِ مع مجرى الأتلس .

• قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

مَنْ رَفَعَ الْحِسَابَ مِنَ الْوَسْطِ يَرْفَعُ مَعَهُ الْحِسَابَ^(١) ، وَمَنْ هُوَ فِي أَمْرِ مَطَالِبَاتِهِ فَالْوَزْنُ
يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ .

والرزقُ بغير حسابٍ في أرزاق الأرواح ، فأما أرزاقُ الأشباحِ فمحصورةٌ مبدودةٌ ؛
لأن أرزاقَ الأشباحِ حظوظٌ ؛ وهي وجودٌ أفضل وفنونٌ قوالب . وما حصره الوجودُ مِنْ
الحوادثِ فلا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ الْمَدَدُ ، وأما مكاشفةُ الأرواحِ بشهودِ الجلالِ والجلالِ فذلك
على الدوام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ

يَقِيعَةٍ يَمَسُّهُ الْظَلْمَآنُ^(٢) مَاءٌ حَقٌّ

إِذَا جَلَّاهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، وَوَجَدَ

اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاءَ حِسَابِهِ ، وَاللَّهُ

سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صَنِيعًا^(٣) ، وقال : ﴿ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى

شَيْءٍ^(٤) . وَمَنْ أَمَّلَ السَّرَابَ شَرَابًا فَلَا يَلْبِثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَلْمَ أَنَّهُ كَانَ تَخْيِيلًا ؛

فَالظَّنُّ يُزَادُ ، وَالرُّوحُ تَدْعُو فَتَخْرُجُ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ كُظُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَنْشَاءُ

(١) ربما قصد التشبیه من هذه البارة أولئك الذين يسمون الله لثانته دون حساب في العلة لتواب
أو عتاب ، ويتأيد ذلك بقوله في البارة التالية (ومن هو في أمر مطالباته ..) أى من اجتنى العوض ؛
لأن يكون على حد تشبیه رابية كالأجير السوء .

(٢) آية ١٠٤ سورة الكهف .

(٣) آية ١٨ سورة المجادلة .

مَوْجٌ مِنْ فَوْقِ مَوْجٍ مِنْ فَوْقِ
 مَسْحَابٍ ، ظَلَمَاتٌ بِمَضْهَاهَا فَوْقُ
 بَعْضُ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَسْكُدْ
 يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا
 فَآلَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١﴾

ظلماتُ الحسبان ، وغيومُ التفرقة ، وليالي الجحْد ، وحناسُ الشكِّ إذا اجتمعت
 فلا سراجٌ لصاحبها ولا نجوم ، ولا أقار ولا شموس . . ظويل ثم الويل !

قوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » : إذا لم يسبق لبعْدِ نورِ القسمة ،
 ولم يساعده تعلُّقُ فجْهده وكُده ، وسَمِيه وجْده عقيمٌ من ثمراته ، ونُسٌ من نَيْلِ بركاته .
 والبدائياتُ غالبَةٌ للنهايات ؛ فاقْبُولُ لأَهْلِهِ غَيْرُ مُحْتَكَبٍ ، والرَّدُّ لأَهْلِهِ غَيْرُ مَسْكُتَسِبٍ .
 وسَمِدٌ مَنْ سَعِدَ بالسعادة في عِلْمِهِ في آزاله ، وأَرَادَ كُونَ ما عِلْمٌ من أفضاله يكون ، وأخبر
 أن ذلك كذلك يكون ، ثم أجرى ذلك على ما أخبر وأَرَادَ وَعِلْمٌ ^(١) .
 وهكذا القول في الشقاوة ؛ فليس لأفضاله عِلَّةٌ ، ولا تنوُّجٌ عليه لأحدٍ حُجَّةٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالطَّيْرِ
 صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

التسبيح على قسمين : تسبيحُ قولٍ ونطقٍ ، وتسبيحُ دلالةٍ وخلقٍ ؛ فتسبيحُ
 الخلقِ عامٌ من كلِّ مخلوقٍ وعَيْنٍ وأُتْر ، منه تسبيحُ خاصٍ بالحيوانات ، وتسبيحُ خاصٍ
 بالعلاء وهذا منقسم إلى قسمين : تسبيحٌ صادرٌ عن بصيرة ، وتسبيحٌ حاصلٌ من غير
 بصيرة ؛ فالذي قربنهُ البصيرة مقبولٌ ، والذي تجرَّد عن العرفان مردود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَفِيهِ مَثَلُ السَّنَائِدِ وَالْأَرْضِ
 وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

(١) هذا شرح جميل لفكرة التشييء عن : « الله خالق أمثال العباد » التي هي إحدى أصول عقيدته الكلامية .

لِللَّهِ مِثَالَةٌ مِنَ الْمَلِكِ ، وَاللَّهُ الْقَدِيرُ عَلَى الْإِيجَادِ ، فَالْقُدُورَاتُ — قَبْلَ وجودِهَا —
لِلخَالِقِ مَمْلُوكَةٌ ، كَذَلِكَ فِي أَحْوَالِ حُدُوثِهَا بَعْدَ عَدَمِهَا عَائِدَةٌ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، فَتَلْكُهُ
لَا يَمُوتُ وَلَا يَزُولُ وَلَا يَقُولُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَى الْبَطُولِ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ
يُؤْتِي فِيهِ مَاءً ثُمَّ يَجْعَلُ مِنْ تَحْتِهِ سُورًا مِثْلَ
الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيُتْرَكُ مِنَ
السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُخْرِجُ
مِنْهُ مَنْ يَشَاءُ وَيُصْرِفُهُ مَنْ يَشَاءُ
يَكَادُ سَنَآ يَرْتَدِّيهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ *
يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ۝ .

تعرّف إلى قلوب العلماء بدلالات صُنُوهِ فِي بَدِيعِ حِكْمَتِهِ ، وَبِمَا يَدُلُّ مِنْهَا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ ،
وَشُمُولِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَفَوْزِ إِرَادَتِهِ وَمَشِيتِهِ . فَمَنْ أُنِمَّ النَّظَرُ وَصَلَّ إِلَى بَرْدِ الْبَقِيَّةِ ، وَمَنْ
أَعْرَضَ بَقِيَ فِي وَهْدَةِ الْجَلْهِدِ وَظِلْمَاتِ الْجَمَلِ .

تَرَفَعُ بِقُدْرَتِهِ بِخَارَاتُ الْبَحْرِ ، وَتَصْعَدُ بِتَسْيِيرِهِ^(١) وَتَقْدِيرِهِ إِلَى الْهَوَاءِ وَهُوَ السَّحَابُ ،
ثُمَّ يُدِيرُهَا إِلَى سَمْتٍ يَرِيدُ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ الْمَطَرُ ، ثُمَّ يَنْزِلُ مَا فِي السَّحَابِ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ قَطْرَةً
قَطْرَةً ، وَيَكُونُ الْمَاءُ قَبْلَ حُصُولِ بِخَارَاتِ الْبَحْرِ غَيْرَ عَذْبٍ فَيَقْلِبُهُ عَذْبًا ، وَيُسِجُّ السَّحَابُ
سَكْبًا ، فَيُوصِلُ إِلَى كُلِّ مَوْضِعٍ قَدْرًا يَكُونُ لَهُ مُرَادًا مَعْلُومًا ، لَا بِالْجَهْدِ مِنَ الْخُلُقِيِّينَ يُسَكُّ
أَوْ يُتْرَكُ ، وَلَا بِالْجَلْهِدِ يُسْتَنْزَلُ عَلَى الْمَسْكَنِ الْقَدِ لَا يُطِيرُهُ^(٢) .

﴿ يُقْدِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ وَكَذَلِكَ جَعَلَ الْأَفْهَامَ مِنَ الرُّسُومِ وَالْآثَارِ ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
الْمُرِيدِ الْعَلِيمِ .

(١) ربما كانت في الأصل (بتسييره) وكلاما مقبول في السياق .

(٢) نفي الجهد والجملة من أمارات الاعتناء على التقدير وإسقاط التدبير

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَنَهَمُ
مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ يَمْشِي
عَلَى رِجْلَيْنِ وَمَنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى
أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝

يريد خلق كل حيوان من ماء ، يخرج من صلب الأب وتربية (١) الأم . ثم أجزاء الماء
متساوية مماثلة ، ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن ، فيختص كل عضو
وينفرد كل شئ (٢) بنوع من الهيئة والصورة ، وضرب من الشكل والبنية . ثم اختلاف
هياكل الحيوانات في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والخلب ، ثم في القامة والمنظر ،
ثم انقسام ذلك إلى لحم وشعر وجلد وعظم ورس وعص وعروق وشعر .
فالنظر في هذا — مع العبرة به — يوجب سجود البصيرة وقوة التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝

الآيات بيّنة ولكن الله يهدي إليها قوماً ويلبس على آخرين ، والذي سُدَّ بصره أتى
بنفمه طلوع الشمس والنجوم ؟ وكذلك الذي سُدَّتْ بصيرته أتى تنفسه شواهد العلوم
ودلائل الفهم ؟ وقالوا في مناه :

وما انتفع أخى الدنيا بمقلته إذا استوت عند الأنوار والظلم

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا
ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝

(١) وردت (تربة) والصواب أن تكون (تربة) الأم وهي عظمة الصدر مما على الترقوتين والجمع
نرائب .
(٢) الشار = الضو .

يستسلمون في الظاهر ويُقِرُّون بالأسان ، ، ثم الخلف يبقى على صدقه .
والذي قال كثوف سيف المسلمين ، أو ليرض له آخر فاسد يتولى بعد ذلك ، وينحاز
إلى جانب الكفرة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ
بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾
علموا أن افتضاحهم في حكم نيتهم ، فمن علم أنه قاسط في خصومته لم يطب نفساً بحسبه .
وكنك المريب يهرب من الحق ، ويجتهد في الفرار ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لِمَنِ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ
مُدْعِينَ ﴾ .

منقادين يميلون مع الهوى ، ولا يقبلون حكمه إيماناً . وكنك شأن المريض الذي يميل
بين الصحة والسقم ، فأرباب التفات مترددون بين الشك والعلم ، فليس منهم نفع بالقطع
ولا إثبات بالعلم ، فهم متطوِّحون في أودية الشك ، وهذا معنى قوله :

﴿ أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ
يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

فلما انحروا في سلك التجويز ما حصلوا إلا في ظلم الشك ، ولما لم يكن لهم يقين
في القلب لم يكن معهم لأهل القلوب ذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا
إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

(١) ذكر الواحدى في « أسباب النزول » ص ٢٢١ أن هذه الآية نزلت في بحر المناق وخضه
اليهودى حين اختصا في أرض ، بلل اليهودى يجره إلى رسول الله (ص) ليحكم بينهما ، وجبل المناق
يجره إلى كتب بن الأشرف ويقول : إن عمدا يحيف علينا ... إلخ .

الذين إيمانهم حقيقةً بحكم التصديق شأنهم قيامهم بإظهار ماضنوه من التحقيق .
ومن يُقَابِلُ أمر الله بالطاعة ، ويستقبلُ حكمه بالاستخاء .. فأولئك هم الصادقون
في الحقيقة ، السالكون في الطريقة ، الآخذون بالوثيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ
أَمَرَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِدُوا
طَاعَةَ مَرْوَةَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

أقسموا بالله غاية اليمين ، ووعدوا من أنفسهم الطاعة لو أمرهم بالخروج في المستقبل ،
فقال : لا تَمِدُّوا بما هو مملوكٌ منكم ألا تقوا به ؛ فطاعة في الوقت أولى من تسوية بالوعد .
ثم قال : قُلْ يَا مَعْزِلُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُلَ .. فإن أجابوا سَعِدُوا في الدارين ،
وأحسنوا إلى أنفسهم . وإن تَوَلَّوْا عن الإجابة فما أَضْرُّوْا إلا بأنفسهم ويكون الندم في المستقبل
عليهم ، وسوف يَلْقَوْنَ سوء عواقبهم ، وليس على الرُّسُلِ إلا حُسْنُ الْبَلَاغِ . ويومَ الحشر
يُعْطَى كُلُّ أَحَدٍ كِتَابَهُ ، ويُعَامَلُ بِمُقْتَضَى حِسَابِ نَفْسِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَأَاسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيَسْكَنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى
لَهُمْ وَلَيَكُونُنَّ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ،
وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ .

وَعَدَ اللَّهُ حقًا وكلامه صدقٌ ، والآية تدل على صحة الخلفاء الأربعة لأنه — بالإجماع —

لم يتقدمهم في الفضيلة — إلى يومنا — أحد^(١) ، فأولئك مقطوع بإيمانهم ، وصدق وعد الله فيهم ، وهم على الدين للرضى من رِجلِ الله ، ولقد آمنوا بعد خوفهم ، وقاموا بسياسة المسلمين ، والذَّبُّ عن حوزة الإسلام أحسن قيام .

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان المِلة ودعائم الإسلام ، الناصحون لعباده ، الهادون مَنْ يسترشد في الله ، إذ انطلق في أمر المسلمين من الولاة الظلة ضرره مقصور على ما يتعلق بأحكام الدنيا ، فأما حفاظ الدين فهم الأئمة من العلماء وهم أصناف :

قوم هم حفاظ أخبار الرسول عليه السلام وحفاظ القرآن وهم بمنزلة الخطبة ، وقوم هم علماء الأصول الراذون على أهل العناد وأصحاب البدع بواضح الأكلة ، وهم بطارقة الإسلام وشجانه .

وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من المبادئ وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وحكم الجراحات والدييات ، وما في معاني الإيمان والتفوق والدعوى ، وفصل الحكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين في الملك .

وقوم هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدين كنخوص الملك وأعيان مجلس السلطان ، فالدين مسمور بهؤلاء — على اختلافهم إلى يوم القيامة .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ

فِي الْأَرْضِ وَمَا وَاهُم النَّارُ وَلَيْسَ

لِلصَّيْرِ ﴾

إِنَّ الْبَاطِلَ قَدْ تَكُونُ لَهُ دَوْلَةٌ وَلَكِنَّا نَخِيلُ — وما لذلك بقاء — وَأَقْلُ لَيْسًا مِنْ عَارِضٍ

يَنشَأُ عَنِ الْغَيْظِ .

قوله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ أَذِنُكُمْ

الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ

(١) في م بعدها (وما يهدم مختلف فيهم) .

يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ مِنْ
قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ... ﴿١١﴾

ضَبَّقَ الْأَمْرَ مِنْ وَجْهِهِ وَوَسَّمَهُ مِنْ وَجْهِهِ ، وَأَمَرَ بِمِرَاعَاةِ الْإِحْتِيَاظِ وَحَسَنِ السِّيَاسَةِ لِأَحْكَمِ
الْمُهِنِ وَمِرَاعَاةِ أَمْرِ الْحَرَمِ ، وَالتَّحَرُّرِ مِنْ مَخَافِ الْفِتْنَةِ ، وَإِذَا كَانَتِ الْجَوَانِبُ مُحْرَسَةً صَارَتْ
الْمُتَحَفُّونَ مَأْمُورَةً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالتَّوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الْأَلَايِ لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَ جُنَاحٌ أَنْ
يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ
وَأَنْ يَسْتَمْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

بِحَسَبِ تَأْوِيلِهِ بِالْمُفَرَّدَةِ لِبَنَاتِ الصَّدُورِ مِنْ دَوَاعِي الْفِتْنَةِ وَاسْتِيلَاءِ سُلْطَانِ الشَّهْوَةِ ؛ فَإِذَا
سَكَنَتْ تِلْكَ النَّاتِرَةُ سَهْلَ الْبَابِ ، وَأُبْيَعَتِ الرُّخْصُ وَأُمِنَتْ الْفِتْنَةُ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْمَرْبُوعِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمُرِيضِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ .

إِذَا جَاءَتْ الْأَعْدَارُ سَهْلَ الْامْتِحَانِ وَالِاخْتِيَارِ ، وَإِذَا حَصَلَتِ الْقِرَابَةُ صَقَطَتِ الْحَشْمَةُ ،
وَإِذَا صَدَقَتِ الْقِرَابَةُ انْتَفَتِ التَّفَرُّقَةُ وَالْأَجْنِبِيَّةُ ؛ فَبِشَهَادَةِ هَذِهِ الْآيَةِ إِذَا انْتَفَتِ هَذِهِ الشَّرُوطُ
صَحَّتِ الْمُبَاسِطَةُ فِي الْأَرْتِقَاقِ .

(١) ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الرَّسُولَ (ص) وَجَّهَ غُلَامًا مِنَ الْأَنْصَارِ بِقَالِهِ مَدِجُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى عَمْرِو بْنِ
ابْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ ظَهَرَ لِيَدْعُوهُ ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْخُذَ عَمْرٍو بِمِخْلَافِهِ ، فَقَالَ : قَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ وَدِدْتُ أَنْ أُنَاقِلَ إِلَيْكَ أَمْرًا وَنَهَانًا فِي حَالِ الْإِسْتِغْنَاءِ ، فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ .
وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِي أَسْمَاءُ بَلْتُ مَرْتَدَةً حِينَ دَخَلَ عَلَيْهَا غُلَامٌ كَبِيرٌ فِي وَقْتِ كَرَمَتِهِ فَكَلَّمْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ .
فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ .

(٢) بَنَاتُ الصَّدُورِ تَصْبِرُ بِالسَّكْنَانِيَةِ عَنِ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ .

ثم قال : « أو صديقكم » : وعزيزٌ من يصدقُ في الصداقة ؛ فيكون في الباطن كما يرى في الظاهر ، ولا يكون في الوجه كالمراة ومن وراءك كلقراض ، وفي منها ما قلت :

مَنْ لِي يَمُنْ يَثِقُ الْفَوَادُ بَوْدُهُ فَإِذَا تَرَحَّلَ لَمْ يَزِغْ عَنْ عَهْدِهِ
يَا بؤْسَ نَفْسِي مِنْ أَخْرَجَ لِي بِإِذْلِ حَسَنَ الْوَفَاءِ بوعده لَا تَقْدِرُهُ
يُؤَلِّي الصَّفَاءَ يُنْقِطُهُ لَا خُلُقَهُ وَيَسْرُ صَابِغًا فِي حِلَاوَةِ شَهْدِهِ
فَلَسَانُهُ يَبْدِي جَوَاهِرَ عَقْدِهِ وَجَنَاهُ تَقْلِي مَرَاجِلُ حَقْدِهِ
لَا مُمْ إِيَّيْ لَا أُطِيقُ رِمَاسَهُ بِكَ أَسْتَعِيذُ مِنَ الْحُسُودِ وَكَيْدِهِ

(وقوله : « أو صديقكم » مَنْ تُوْمَنُ مِنْهُ هَذِهِ الْخُصَالُ وَأَمْثَالُهَا)^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ

تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

السلامُ الأمانُ ، وسبيلُ المؤمن إذا دخل بيتاً أَنْ يُسَلِّمَ مِنْ اللَّهِ عَلَى نَفْسِهِ ؛ أي يطلب الأمانَ والسلامةَ مِنْ اللَّهِ لِتُسَلِّمَ نَفْسُهُ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ ، إذ لَا يَجِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَنْفَتِرَ لَحْظَةً مِنَ الاسْتِجَارَةِ بِاللَّهِ حَتَّى لَا يَرْفَعَ عَنْهُ — سُبْحَانَهُ — ظِلُّ عَصِيَّتِهِ ؛ بِإِدَامَةِ حِفْظِهِ مِنَ الْإِتْعَافِ بِمَكْرُوهِهِ فِي الشَّرْعِ^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ

لَمْ يَنْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ

يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ

(١) مَا بَيْنَ التَّوَسُّعِينِ مَوْجُودٌ فِي سِ وَغَيْرِهِ مَوْجُودٌ فِي ٢ .

(٢) فِي هَذِهِ الْإِشَارَةِ عَمَرَ بِأَصْحَابِ الْبِدْعِ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ مَا يَخَالِفُ الشَّرْعَ بِدَعْوَى الْوَلَهِ وَالْإِنْعَاءِ

لِيَقْضُوا شَأْنَهُمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ
مَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿١٠﴾

شرطُ الاتِّباعِ موافقةُ المتَّبوعِ ، وألا يَتَفَرَّقُوا فيصيروا أَحْزَاباً كما قال : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » (١) والملاءمةُ الأُنْيَاءُ ، والمريدون لشيوعهم كالأُمَمِ لِنَبِيِّهِمْ ؛ فَشَرَطُ المريدِ أَلَّا يَتَنَفَّسَ بِنَفْسِهِ إِلَّا بِإِذْنِ شَيْخِهِ ، وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ فِي نَفْسٍ — سِرّاً أَوْ جَهْراً — فَإِنَّهُ يَرَى غَيْبَهُ سَرِيحاً فِي غَيْرِ مَا يُحِبُّهُ . وَغَالِئَةُ الشُّيُوخِ فِيهَا يَسْتَسْرُونُهُ (٢) عَنْهُمْ أَشَدُّ مِمَّا يَظْهَرُ بِالْجَهْرِ بِكَثِيرٍ لِأَن هَذَا يَلْتَمِصُ بِالْخِلَائَةِ . وَمَنْ خَالَفَ شَيْخَهُ لَا يُشْمُ رَائِحَةً الصِّدْقِ ، فَإِنْ بَدَأَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ بِسُرْعَةِ الاعتِنَارِ وَالْإِفْصَاحِ عَمَّا حَصَلَ مِنْهُ مِنَ الْخِلَافَةِ وَالْخِلَائَةِ ، لِتَهْدِيَةِ شَيْخِهِ إِلَى مَا فِيهِ كَفَّارَةُ جُرْمِهِ ، وَيَلْتَمِصُ فِي التَّوْبَةِ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِ . وَإِذَا رَجَعَ لِلرَّيْدِ إِلَى شَيْخِهِ بِالصَّبْرِ وَجَبَ عَلَى شَيْخِهِ جِبْرَانٌ تَقْصِيرُهُ بِهِمْ ؛ فَإِنْ الْمُرِيدِينَ عِيَالٌ عَلَى الشُّيُوخِ ؛ فَرُضَ عَلَيْهِمْ أَنْ يُثَبِّتُوا عَلَيْهِمْ مِنْ قُوَّةِ أَحْوَالِهِمْ بِمَا يَكُونُ جِبْرَاناً لِتَقْصِيرِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ مِنْكُمْ إِذَا أَدَّاهُمْ ﴾

أَي عَظَمَوْهُ فِي الْخُطَابِ ، وَاحْتَفَظُوا فِي خِدْمَتِهِ الْأَدَبَ ، وَعَاقَبُوا طَاعَتَهُ عَلَى مَرَاةِ الْحَيَةِ وَالتَّوْقِيرِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ (٣)
أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

(١) آية ١٤ سورة الحشر .

(٢) فِي س (يَسْتَسْرُونُهُ) وَفِي م (يَسْتَسْرُونُهُ) وَنَحْنُ نَزِيدُ مِنْهُ حَتَّى تَتَلَامَعَ (مَا يَظْهَرُ بِالْجَهْرِ) يَنْتَظِمُ الْبَيَاقَ بِهَا .

(٣) يُقَالُ خَالَفَهُ عَنِ الْأَمْرِ إِذَا صَدَّقَهُ دُونَهُ .

سعادة البارين في متابعة السنة ، وشقاوة المزلين في مخالفة السنة . ومن أَيْبَسَ ما يُصِيب مَنْ خَالَفَ سُنَّتَهُ حرمانُ المواقفة ، وَتَعَذُّرُ المتابعة بعده ، وسقوط حشمة البارين عن قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

قَدِيرٌ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُجْزَوْنَ ^(١)

إِلَيْهِ فَيَنْبِتُهُمْ يَاعَالِمُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ^(٢) ﴿

إِنَّ الْيَوْمَ غَمًّا ، وَلَمَّا يَفْعَلُ الْمَبْدُ حَسَابًا ، وَسُبْحَاتُ الْمَكَلِّ بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ ، وَالنَّهْرِ وَالْقَطْرِ .

سورة الفرقان

قوله جل ذكره : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ اسْمٌ جَلِيلٌ شَهِدَتْ بِجَلَالِهِ أَفْئَالُهُ ، وَتَطَلَّعَتْ بِجِهَالِهِ أَفْئَالُهُ . ذَلَّتْ عَلَى إِثْبَاتِهِ آيَاتُهُ ، وَأُخْبِرَتْ عَنْ صِفَاتِهِ مَفْعُولَاتُهُ .

بِسْمِ اللَّهِ اسْمٌ عَزِيزٌ عُرِفَتْ بِفَعْلِهِ قُدْرَتُهُ ، اسْمٌ كَرِيمٌ شَهِدَتْ بِفَضْلِهِ نَصْرَتُهُ .

بِسْمِ اللَّهِ اسْمٌ عَزِيزٌ عُرِفَتْ بِفَعْلِهِ قُدْرَتُهُ ، وَعُرِفَتْ الْأَصْفِيَاءُ بِاسْتِحْقَاقِهِ جَلَالَهُ وَجِهَالَهُ ، فَبَلَطَ جِهَالُهُ عُرِفُوا بِجُودِهِ ، وَبُكِّشَفَ جَلَالُهُ عُرِفُوا بِجُودِهِ .

بِسْمِ اللَّهِ اسْمٌ عَزِيزٌ مَنْ دَعَاهُ لَبَّاهُ ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَمَنْ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ أَكْرَمَهُ وَأَوَّاهُ ، وَمَنْ تَمَسَّلَ إِلَيْهِ ^(٣) رَجَّاهُ وَأَدْنَاهُ ، وَمَنْ شَكَا إِلَيْهِ أَشْكَاهُ ^(٤) ، وَمَنْ سَأَلَهُ خَوَّلَهُ وَأَعْطَاهُ .

(١) وفي قراءة (يَجْزَوْنَ) يفتح الياء . وكسر الجيم .

(٢) يروي أن ابن عباس رضي الله عنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم وفسرها على وجه التوسم الروم به لأُسلت .

(٣) تمسك إليه هنا معناها تبرا من ذنبه وتاب .

(٤) أشكى أي قبل الشكاة وأمان الشاكي .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ
لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

يقال بِرَبِّكَ الطَّيْرُ عَلَى اللَّامِ إِذَا دَامَ وَقُوفُهُ عَلَى ظَهْرِ الْمَاءِ . وَمَبَارُكَ الْإِبِلِ مَوَاضِعُ إِفَاتِهَا
بِاللَّيْلِ . وَتَبَارَكَ عَلَى وَزْنِ تَفَاعُلٍ تَقِيدُ دَوَامَ بَقَائِهِ ، وَاسْتَحْقَاقَهُ لِقَدَمِ ثَبُوتِهِ وَبَقَاءِ وجودِهِ
لَا عَنْ اسْتِفْطَالِهِ وَلَا إِلَى انْقِطَاعِهِ .

وفي التفسير « تبارك » أى تعظم وتكبر . وعند قوم أنه من البركة وهى الزيادة
والنفع ، فهوامه وجوده ، وتكبره ستحقاق ذاته لصفاته العلية ، والبركة أو الزيادة تشير
إلى فضله وإحسانه ولطفه .

فوجوهُ الثناء عليه تنحصر بهذه الأوجه الثلاثة : ثناء عليه بذكر ذاته وحقه ، وثناء بذكر
وصفه وعِزِّه ، وثناء بذكر إحسانه وفضله ؛ فكلمة « تبارك » جمعُ الثناء عليه — سبحانه .
« الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ » وهو القرآن « عَلَى عَبْدِهِ » : فأكرمه بأن نَبَّاهُ وَقَضَّاهُ ،
وإلى انْتَلَقَ أَرْسَلَهُ ، وَبَيَّنَّ مُعْجِزَاتِهِ وَأَمَارَةَ صِدْقِهِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي عَلَيْهِ أَنْزَلَهُ ، وَجَعَلَهُ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ، وَهَرَجًا مَنِيرًا .

قوله جل ذكره : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾
تَفَرَّدَ بِالْمُلْكِ فَلَا شَرِيكَ يَسَامُهُ ، وَتَوَحَّدَ بِالْجَلَالِ فَلَا نَظِيرَ يُقَاسُهُ ؛ فهو الواحد
بلا قسيم فى ذاته ، ولا شريك فى مخلوقاته ، ولا شبيه فى حقه ولا فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ
شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ
لَأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ
مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾

اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَا يَمْلِكُونَ طَعْمِيًّا ، وَلَا يَخْلُقُونَ تَقِيرًا ، وَلَا يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ

كثيراً ولا يسيراً ، ولا ينفعونهم ولا يُسْهِلُون عليهم عسيراً ، ولا يملكون لأحدٍ موتاً^(١)
ولا نُشوراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلاَّ

إفْكٌ أُفْكِرَهُ ، وأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ

قَدْ جَاءُوا غُلًّا زُورًا ﴾ • وقالوا

أساطيرُ الأولين اِكْتَتَبَهَا فهي

كُنَى عليه بُكْرَةٌ وأصيل • قُلْ

أنزله الذي يعلم السرَّ في السمواتِ

والأرضِ إنه كان غفوراً رحيماً ﴿

ظَنُّوه كما كانوا ، ولَمَّا كانوا بأمنائهم قد استعانوا فيها بحزوا عنه من أمورهم ، واستحدثوا
لأمنائهم واستكانوا — فقد ظنوا من غير حُجَّةٍ وَتَقَوُّوا ، ولم يكن قولهم بحصيل ، ولَأَسَاطِيرُ
الْأُولَين رُحَاهُم^(٢) التي لا يُدرَى هل كانت ؟ وإن كانت فلا يُعرف كيف كانت
ومتى كانت ؟

ثم قال : يا محمد ، إن هذا الكتابُ — الذي أنزله الذي يعلم السرَّ في السمواتِ
والأرضِ — لا يُقدِّر أحدٌ على الإتيان بمثله ولو تشاغفوا^(٣) من الوقت الذي أتى به أهدامُ
الدينِ ، وهم على كثرتهم مجتهدون في ممارضته بما يوجب مساواته ، فادَّعوا تكذيبه . واقطعت
الأعصار واقترضت الأعمار ، ولم يأت أحدٌ بسورة مثله ، فاتقوا الرِّيبَ من صدِّقه ، وَرَجَبَ
الإقرارُ بحقِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا ما لَيْدًا الرسولُ يأكلُ الطَّعامَ

(١) هكذا في م وهي في س (حياة ولا نُشورا) والمعنى يتقبلها أيضاً .

(٢) هكذا في م وهي في س (برهانهم الذي ...) ولكننا آثرنا (ترهانهم) بدليل التأنيت في (كانت) مكرراً .

(٣) هكذا في س وهي في س (ولو تشاغفوا) .

وَيَسِّي فِي الْأَسْوَاقِ فَلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا • أَوْ يُلْقَى
إِلَيْهِ كَذِبٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا •
اظْهَرُ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
فَقَضَلُوا فَمَا يَسْتَعْلِمُونَ سَبِيلًا •
تَبَارَكَ الَّذِي (١) الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ
خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝

لما عجزوا عن معارضة أخذوا يعيبونه بكونه بشرًا من جنسهم يمشي في الأسواق، ويأكل الطعام، وعابوه بالفقر وقالوا : هَلَّا رَزَّلَ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ قُرُونًا عِبَادًا ؟ وهَلَّا جُعِلَ لَهُ الْكَنُوزُ فَاسْتَكْبَرَ مَالًا ؟ وهَلَّا خُصَّ بِأَكْبَرِ اقْتِرَاحِهَا — فَتَقَطَّعَ الْمَذْرُوعُ وَتُرِيبَ عَنَّا إِشْكَالًا ؟ وما هذا الرجلُ إِلَّا بشرٌ تَعْتَرِيهِ مِنْ خَوَاصِي الشَّهَوَاتِ مَا يَتَرَى غَيْرُهُ فَأَيُّ خُصُوصِيَّةٍ لَهُ حَقٌّ تَلَزَمَتْهَا مِنْبَعَثُهُ وَلَنْ يَظْهَرَ لَنَا حُجَّةٌ ؟ فَأَجَابَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَقَالَ : إِنْ الْحَقُّ قَادِرٌ عَلَى تَمْلِيكَكَ مَا قَالُوا وَأَضَاعَ ذَلِكَ ، وَفِي قَدْرَتِهِ إِظْهَارُ مَا اقْتَرَحُوهُ وَأَضَاعَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِمِ هَذَا التَّخْيِيرِ (٢) بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْمَذْرُوعُ بِإِظْهَارِ مُعْجَزَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَاقْتِرَاحِ مَا يَهْوُونَ تَحْكُمُ عَلَى التَّقْدِيرِ ، وَلَيْسَ لِمِ ذَلِكَ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ أَظْهَرَ تَفْصِيلَ مَا قَالُوهُ وَأَضَاعَهُ لَمْ يُؤْمِنُوا ؛ لِأَنَّ حُكْمَ اللَّهِ بِالشَّقَاوَةِ سَابِقٌ لِمِ ، وَقَالَ :

(١) يَذْكُرُ إِبْنُ عَبَّاسٍ أَنَّهُ لَمَّا هَبَرَ الْمُشْرِكُونَ مُحَمَّدًا (ص) بِالْعَاقَةِ أَقْبَلَ رِضْوَانُ خَالِدِ بْنِ الْخَلْدِ عَلَيْهِ وَقَالَ : يَا عَبْدُ رَبِّ الْعِزَّةِ يَهْرُوكَ السَّلَامُ وَيَقُولُ لَكَ : هَذِهِ مَطَايِجُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا مَعَ مَا لَا يَلْتَمِسُ لَكَ مِمَّا عِنْدَهُ فِي الْآخِرَةِ مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ فَقَالَ النَّبِيُّ : يَا رِضْوَانُ لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، لِأَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا صَابِرًا شَاكِرًا فَقَالَ رِضْوَانُ : أَصَابَتْ أَصَابَكَ أَهْلٌ . وَوَضَعَ الرَّسُولُ بَعْرَهُ فَإِذَا مَنَازِلُهُ فَوْقَ مَنَازِلِ الْأَنْبِيَاءِ وَخَرَفَهُمْ فِدْعَا النَّبِيِّ : اللَّهُمَّ أَجَلُ مَا أُرَدْتُ أَنْ تَطْلُقَ فِي الدُّنْيَا ذَخِيرَةً عِنْدَكَ فِي الشَّلَاقَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .
(٢) يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ (التَّخْيِيرُ) لِلتَّجَمُّعِ مَعَ (مَا اقْتَرَحُوهُ) وَصَحَّ (مَا يَهْوُونَ) وَلَكِنَّا لَا نَسْتَعِدُّ أَنْ تَكُونَ (التَّخْيِيرُ) لِبُلَاءِ الْكَثْرَةِ فِيهِمْ حَوْلَ مَا يَلْبِسِي — فِي تَعْوِذِهِمْ — قُرْآنًا .

﴿يَلْكَدِبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ
كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ .

فهم في حُكم الله من جهة الكفار ، والله أعدَّ لهم ولأئمنهم من الكفار وعبد الأبد . .
فلا محالة يُمتحنون به .

قوله : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سيلا » : دليل على جواز
التسكيف بما لا يقدر عليه العبد في الحال ؛ لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سيلاً ، وهم
معانيون مكفون .

قوله جل ذكره : ﴿إِنَّا رَأَيْنَاهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَعَوْا
لَهَا تَفِيطًا وَزَفِيرًا﴾ .

فوحشة النار توجد من مسافة بعيدة قبل شهودها والامتحان بها ، وليس الجنة يوجد
قبل شهودها والدخول فيها ، والنار تُسجَّر منذ سنين قبل المحترقين بها ، والجنة تُزَيَّن منذ
سنين قَبْلَ المُستَتمِعِينَ بها . وكذَّبَ مَنْ أَحَالَ^(١) وجودها قبل كون سكانها وقطاعتها من
المتنمين أو المأقنين ، لأن الصادق أخبر عن صفاتها التي لا تكون إلا بوجود حيث قال :

﴿وَإِنَّا أَلْفَوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا
مَقَرَّيْنِ دَعَا هُنَاكَ ثُبُورًا •
لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا
وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ .

راحة الجنة مقرونة بسمنها ، ووحشة النار مقرونة بضيقها ، فيضيق عليهم مكانهم ،
ويضيق عليهم قلوبهم ، ويضيق عليهم أوقاتهم . ولو كانت حياتهم تبطل وكانوا يتخلصون

(١) لهذا الرأي أهمية حيث يرى كثير من المترلة أن الجنة والنار لا يوجدان الآن وإنما
يوجدان في الآخرة عند الجزاء ، وأجبر المترلة — بخلاف فهم وحده — أنها لا تفتيان ولا يفتي
أهلها ، وم في هنا يفتقون مع الأشاعرة . أما مخالفة فهم لذلك فقد ذكرها التهرستاني في (الملل والنحل
ج ١ ص ١١١ ط الحاشية) بدعوى أن تلك أهل الجنة بنبيها وعالم أهل النار بجحيمها حركات تتنامى مع
أن نصوص القرآن صريحة في دواهيها . . والتعصبي الأفعري يصرح بذلك في الآيات التالية .

منها لم يكن البلاء كاملاً، ولكنها آلام لا تنتهي، ونحن لا نتقضى؛ كلما راموا فرجة قبل لهم :
فلن تتركهم إلا عذاباً .

قوله جل ذكره ﴿ قُلْ أَذِيكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي
وَعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جِزَاءً وَمَصِيرًا ﴾

المتقون أبداً في النعيم المقيم ؛ حور وسرور وجبور ، وروحٌ وريحانٌ ، وبهجة وإحسان ،
ولطف جديد وفضل مزيد ، وألفٌ شرابٍ وكسراتُ محبٍّ ، وبسطٌ قلبٍ وطيبٌ حالٍ ، وكال
أنسٍ وحوام طرب وتعام جفكٍ ، لبسهم فيها حرير وفراشهم سندس وإستبرق ؛ والأسماء
أسماء في الدنيا والأعيان بخلاف المهودات فيها^(١) . ثم فيها ما يشاهون ، وهم أبداً مقيمون
لا يبرحون ، ولا هم عنها يخرجون .

قوله جل ذكره : ﴿ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يَشَاهُونَ ﴾ .

ولكن لا يخلق في قلوبهم إلا إرادة ما علم أنه سيفعله ، فما هو المعلوم لله أنه لا يفعله
لا تتعلق به إرادتهم ، ويمنع من قلوبهم مشيئته .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ يَقُولُ أَأَنْتُمْ أَصْلَحْتُمْ عِبَادِي

هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ .

الله يحشر الكفار ويحشر الأصنام التي عبدوها من دون الله ، فيحشيها ويقول لها :
هل أمرتم هؤلاء بعبادتي ؟ فينبرأون . كنه تهويل وتنظيم لشأن ، وإلا فهو عليهم بما كان
وَمَا لَمْ يَكُنْ . فالأصنام تنبرأ منهم ، وتقابلهم بالكذب ، وهم ينادون على أنفسهم بالخطأ
والضلال ، فيلقون في النار ، وييقنون في الوعيد إلى الأبد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

إِلَّا إِيَّاهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُوا

فِي الْأَرْوَاقِ ﴾ :

(١) هنا تلميح هام جداً لتوضيح حقيقة النعم التي في الآخرة .

أخبر أن الذين تقدّموه من الرسل كانوا بشرّاً ، ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهور المعجزات عليهم . وفي الحجة الفضائل بالعاني لا بالصورة ، ثم قال :

« وجعلنا بضمكم ليضم
فتنة أنصرون وكان ربك
بصيراً » .

(فصل بعضاً على بعض ، وأمر المفضول بالصبر والرضا ، والفاضل بالشكر على العطاء) (١)
وخصّ قومًا بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء ، وخصّ قومًا بالبؤس ، وآخرين بالأسقام
والآلام ، فلا لين لعمّة مناقب ، ولا لين لمنحة مآيب . فبحكم لا يفرّجهم ، وبفضله
لا يضلّهم ، وبإرادته لا يبيدّهم ، وباختياره لا يأوثرهم ، وبأقداره لا يأوثرهم ،
وبه لا يجم .

قوله : « أنصرون ؟ » استفهام في معنى الأمر ، فنحن ساعدته التوفيق صبراً وشكراً ،
ومن طرته الخذلان أبى وكفر .

قوله جل ذكره : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا
أنزل علينا الملائكة أو نرى
ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا
عتوا كبيراً » .

« لا يرجون لقاءنا » : لا يؤمنون بالمحشر والنشر والرجوع إلى الله في القيامة من الدنيا .
وكما كانوا لا يخافون العذاب ، ولا ينتظرون المحشر كنهك كانوا لا يؤمنون لقاء الله .
فمنكروا الرؤية من أهل التيقن . من يؤمن بالقيامة والمحشر - مشارك هؤلاء في جحد
ما ورد به الظهور والنقل ، لأن النقل كما ورد بكون المحشر ورد بكون الرؤية لأهل الإيمان (٢) .
فالذين لم يؤمنوا ظفروا على جهة رؤية المقام لأنفسهم ، وأنه مسلم لهم ما اقترحوه من نزول

(١) ما بين القوسين في م وغير موجود في س .
(٢) يورد القميري بعد قليل إلى شرح موضوع الرؤية عند تفسيره الآية : « وكفى بربك ما دايماً ونصيراً » .

الملك عليهم ورؤية ربهم . وذلك وإن كان في القدرة جائزاً — إلا أنه لم يكن واجباً بعد إزاحة عُدْرَمِ بظهور معجزات الرسول عليه السلام ، فلم يكن اقتراح ما قالوه جائزاً لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لهُمْ ۖ سِوَىٰ ذَٰلِكَ ۚ يَقُولُونَ لِمَ كُنَّا كُفَّارًا ۚ وَالْمَلَائِكَةُ لَا يَرَوْنَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُكَذِّبِينَ ۖ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَهُمْ هَامُونَ ۚ ﴾

اقترحوا شئنين : رؤية الملك ورؤية الله ، فأخبر أنهم يرون الملك عند التوفى ، ولكن تقول الملك لهم : « لا بشرى لكم ! » .

« حبراً عجوراً » : أى حراماً ممنوعاً يعنى رؤية الله عنهم ، فهذا يعود إلى ما جرى ذكره ، وحمله على ذلك أولى من حمله على الجنة ، ولم يجر لما هنا ذكر . ثم فيه إشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملك ويشرونهم بالجنة ، قال تعالى : « تنزل عليهم للملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة » (١) فكما لا تكون الكفار بشراً بالجنة وتكون للمؤمنين لا تكون الرؤية الكفار وتكون للمؤمنين .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ النَّاسِ بِالْحَقِّ ۚ لَئِنْ لَمْ يَنْفَعِيهِمْ أَن يُبْعَثُوا ۖ هُمْ لَغَفَّارُونَ ۚ ﴾

هذه آفة الكفار ؛ ضاع سببهم وخاب جهنم ، وضاع عزمهم وخسرت صفتهم واقطع رجائهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ، ويحسبون أنهم يحسنون صنأاً .

وأما أصحاب الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح قلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمال رَوْحِهِمْ ، وتتأذى إلى قلوبهم من الراحة ما يضييق عن وصفه شرحهم ، ويتقاسم عن ثنائهم نطقهم ، حيث يسمعون قوله : « وقد مَنَّنا على ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ولقد ظهرت قبة أعمالهم حيث قال الحق لأجله : « وقد مَنَّنا إلى ... » فهم إذا سمعوا ذلك وجب لهم من الأرمية ما يشغلهم عن الاهتمام بقوله : « فجعلناه هباءً منثوراً » ويقولون : ياليت

(١) آية ٣٠ سورة فصلت .

لنا أعمال أهل النارين ثم لا تُقِيلُ منها ذرةً وهو يقول بسببها : وقد منا إلى ما عملوا من عمل . . . ! لأنهم إذا تخلصوا من مواضع الظلم وموجبات الخجل من أعمالهم عدوا ذلك من أجل ما ينالون من الاحسان إليهم^(١) ، وفي معناه أنشدوا :

سأرجع من حج عابئ مُتَجَبِّلًا لَأَنَّ الْإِلَهِيَّ قَدْ كَانَ لَا يُتَقَبَّلُ^(٢)

قوله جل ذكره : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ .

أصحاب الجنة هم الراضون بها ، الواصلون إليها ، وللكثفون بوجوداتها ، غسنت لهم أوطنهم ، وطلب لهم مستقرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَتُزَلَّزَلُ الْمَلَائِكَةُ تَزِيلًا ﴾ .

يريد يوم القيامة إذا بدت أحوالها ، وظهرت للبعوثين أحوالها علواً وتحقوا — ذلك اليوم — أَنَّ لِلَّهِ لَرَحْنٌ ، ولم يتخصص ملكه بنك اليوم ، وإنما عليهم وقيتهم حصل لهم ذلك الوقت .

ويقال تنقطع دواعي الأفعال ، وتنتفي أوهام الخلق فلا يتجدد له — سبحانه — وصف ولكن تلتشى للخلق أوصاف ، وذلك يوم على الكافرين عسير ، ودليل الخطاب يقتضى أَنَّ ذلك اليوم على المؤمنين يسير وإلا بطل الفرق ؛ فيجب ألا يكون مؤمن إلاً وذلك اليوم يكون عليه هيناً .

قوله جل ذكره : ﴿ وَيَوْمَ يَخْسُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾^(٣)

(١) هذه إشارة دقيقة غاية الدقة ، تأمل أن يظن إليها التاريء ويستبح بها .
(٢) معنى البيت مرتبط بالفكرة الصوفية أن عمل الإنسان لا قيمة له ، والأمل كله معهود على الفضل الإلهي ، فكيف استعمر المايد عباده بما نب هذا الفضل شعر بقصوره وارتقى في التجريد والتفويض منزلة بعد منزلة . . . وفي هذا قول رابعة بعد عبادة ليله كاملة : إن استغفارنا في حاجة إلى استغفار .
(٣) قيل ترك هذه الآية في أبي بن خلف ، وقد قتله الرسول (ص) يوم أحد في مبارزة ، وقيل ترك في محبة بن أبي ميط وكان محالاً لأبي .

يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً • يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا •

يندم الكافر على صحبة الكفار . ودليل الخطاب يقتضى سرور المؤمنين بمصاحبة أعدائهم وأحبائهم في الله ، وأما الكافر فيُضِلُّ صاحبه فيقع منه في التور ، ولكن المؤمن يهدي صاحبه إلى الرشده فيصل به إلى السرور .

قوله جل ذكره : ﴿ وَطَالَ الرَّسُولُ يَلُوبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ .

شكا إلى الله منهم ، وتلك سنة المرسلين ؛ أخبر الله عن يعقوب — عليه السلام — أنه قال : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » فَنُ شَكَامَنَ اللَّهُ فَوَجَدَ ، وَمَن شَكَا إِلَى اللَّهِ فَهُوَ عَارِفٌ وَاحِدٌ .

ثم إنه أخبر أنه لم يُخْلِ نبياً من أُنبيائه صلوات الله عليهم إلا سَلَطَ عليه قَعدُوا في وقته ، إلا أنه لم يَضَاهِرْ من أعدائهم أحداً ، وَأَقَامَهُمْ وَيَالِ مَا اسْتَجِيبُوهُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَغَيْبِهِمْ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَكَانَ يَرْجُو هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ .

كان يربك اليوم هادياً إلى معرفته ، وغداً نصيراً على رؤيته .

ويقال آخر فتنة المؤمنين ماورد في الطير : أن كل أمة ترى في القيامة العظم التي عبدها يتيمونه فيحشرون إلى النار ، فَيَلْقَوْنَ فِيهَا وَبِئْسَ لِلظَّالِمِينَ هَدًى ، فيقال لهم : ملوقكم ؟ فيقولون : إناهم رأوا مبيوعهم قتبوه ونحن لم نر مبيودنا ! فيقال لهم : ولورأيتموه . . فهل تعرفونه ؟ فيقولون : نعم . فيقال لهم : بئس تعرفونه ؟

فيقولون : بيننا وبينه علامة . فيريهم شيئاً في صورة شخص فيقول لهم : أنا مبيودكم فيقولون : معاذ الله .. نعوذ بالله منك ! ما عبادناك . فيتجلى الحق لهم فيسجدون له .

قوله جل ذكره : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ
الْقُرْآنُ جُزْءًا وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ
بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ .

أى إنما أنزلناه متفرقاً ليسهل عليك حفظه ، فإنه كان أمياً لا يقرأ الكتب ، ولأنه
لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل عليه السلام بالرسالة إليه في كل وقت وكل حين ..
وكثرة نزوله كانت أوجباً لسكون قلبه وبكل رَوْحِه ودوام أُنْه^(١) ، لجبريل كان يأتي
في كل وقت بما كان يقتضيه ذلك الوقت من الكوائن والأموال الحادثة ، وذلك أبلغ
في كونه معجزة ، وأبعد عن التهمة من أن يكون من جهة غيره ، أو أن يكون بالاستئمان
بمن سواه حاصل^(٢) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا يَأْتُوكَ يَمَنٌ إِلَّا حَشَاهُ
بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ قَسِيماً ﴾ .

كان الجواب لما يوردونه على جهة الاحتجاج لم منعها ، وفساد ما يقولونه موضحاً ، ولكن
الحق — سبحانه — أجرى الشئ بآته لم يزد ذلك للسليين إلا شفاءً وبسيرة ، ولم
إلا حمى وشية .

ثم أخبر من حلهم في ما لهم فقال :

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاءً وَأَضَلُّ
سَبِيلًا ﴾

يحشرون على وجوههم وذلك أمانة لإهانتهم ، وإن في الخبر : « الذين أشاءهم اليوم »

(١) لأنه كتاب بحمد رسول الحبيب من الحبيب إلى الحبيب .

(٢) أى أن اتصال القرآن الكريم بحياة الناس وواقع أمورهم آية كونه معجزة ، وبمكس ما يتغرس
به المشفون المصدقون الذين يدهون أن عمداً كاتب هذا القرآن ، وأنه أدنى ذكاء خلقاً كان بحمد يكتب
فإناس ما يطى احتياجهم ويحل مشاكلهم .. غرست ألسنتهم إن يقولون إلا زوراً .

على إقدامهم يُعْشِمُ غداً على وجوههم»^(١)، وهو على ذلك نادر، وذلك منه غير مستحيل.

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى السِّكِّينَ﴾

وجعلنا معه أخاه هَارُونَ وزيراً ﴿

قطاً يجرى في القرآن لبيننا - صلى الله عليه وسلم - ذِكْرُ إِلَّا وَيَذْكُرُ اللهُ مُعْقِبِيهِ

موسى عليه السلام. وتكررت قصته في القرآن في غير موضع تنبيهاً على علو شأنه،

لأنه كما أن التخصيص يبالذ كر يدل على شرف المذكور فالتكرير في الذكر يوجب

التفصيل في الوصف؛ لأن النعمة الواحدة إذا أُعيدت مراتب كثيرة كانت في باب البلاغة أمراً

لا سيما إذا كانت في كل مرة فائدة زائدة^(٢).

ثم بين أنه قال لها:

﴿وَقَتَلْنَا ابْنَكُمْ إِدْرِيءَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾

أي فذبحاً فَبَدَحَ الْقَوْمُ فدمرناهم تدميراً^(٣) أي أهلكناهم إهلاكاً، وفي ذلك تسلية

لنبي - صلى الله عليه وسلم - فيما كان يقاسيه من قومه من فتون البلاء، ووعدته بالجميل

في أنه سيهلك أعداءه كلهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُولَ

أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ قَتْلَاسَ آيَةٍ

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾

أَحْلَقْنَا بِهِمُ الْقُرْبَى كَمَا أَحْلَقْنَا بِأَسْهَلِمْ، وعاملناهم بمثل مما ملتنا لقروا بهم. ثم عقب هذه

الآيات بذكر عاد وثمود وأصحاب الرُّسْن، ومن ذكرهم على الجملة من غير تفصيل، وما أحلقت

(١) التسم الأول من الخبر على النحو التالي: «بحر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف

على الصواب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم» قيل يا رسول الله: كيف يحصون على وجوههم

فقال عليه السلام: الذين أمصام

(٢) يضاف هذا إلى ما سبق أن نهنا إليه من موقف التصيرى من التكرار.

(٣) بلغت التصيرى نظرنا إلى ما يبرف في البلاغة بإيجاز الحذف، فقد اكتفى بذكر أول النعمة وأغرها

وقد أحسن التصيرى حين وملاً لذلك بكلام في النعمة الواحدة التي تباد أكثر من مرة.

به قوم لوط حيث علوا النجاث ... كل ذلك تطبيقاً لقلبه صلى الله عليه وسلم ، وتوسكناً لِسِرِّه ، وإعلاماً وتعريضاً بأنه سيهلك مَنْ يُبَادِيه ، ويدسّر مَنْ يُتَاوِيه ، وقد فعلَ من ذلك الكثير في حال حياته ، والباقي بمد مُؤَيَّده — عليه السلام — من الدنيا وذهابه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا

هَزْؤًا أَمَّا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ

رَسُولًا ... ﴾

كانت تكون له سُلُوةٌ لو ذكر حاله وشكا إليه قصته ، فإذا أخبر الله وقصَّ عليه ما كان يلاقيه كان أَوْجِبَ سُلُوةً وَأَقْرَبَ مِنَ الْأُنْسِ ، وغاية سُلُوةِ أربابِ المحن أن يذكرُوا لأحبائهم ما لقوا في أيام امتحانهم كما قال قائِلُهُم :

يُوَدُّ بَأَن يَمْشِيَ سَقِيماً لَمَلَأَ إِذَا سَمِعَتْ مِنْهُ بِشْكَوَى تَرَاثِلَهُ

ويَهْتَرُ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعَلَى لَنَدُّ كَرِّ يَوْمًا عِنْدَ سَلَى شِمَائِلُهُ

وأخبر أنهم كانوا ينظرون إليه — عليه السلام — بين الازدراء والتصفير لشأنه ؛ لأنهم كانوا لا يعرفون قَدْرَهُ ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ ^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ

تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

كانوا يعبدون من الأصنام ما يَهْوَوْنَ ؛ يستبدلون صنماً بصنم ، وكانوا يَجْرُونَ على مقتضى ما يقع لهم . وللَّوْثُ مِنْ يَحْكُمِ اللَّهُ لَا يَحْكُمُ نَفْسَهُ ، وبهذا يتضح الفرقان ^(٢) بين رجل وبين رجل . والذي يبش على ما يقع له فما يَدُّ هَوَاهُ ، ولملتحق بالذين ذكرهم الحقُّ بالسوء في هذه الآية .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ

أَوْ يَتَّقُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا سَكَلَاءُ نَمَامٍ

بَلْ هُمْ أَصْلٌ سَبِيلًا ﴾

(١) آية ١٩٨ سورة الأعراف

(٢) فرقان بين الشيتين فرقاً ورفقانا . والفرقان البرهان والحجة ، وكل ما فرق به بين الحق والباطل .

كلأنعام التي ليس لها همٌ إلا في أَسْكَنَةٍ وَشَرَبَةٍ ، وَمَنْ اسْتَجْلِبَ حَظوظَ نَفْسِهِ
فَسْكَالِبَهُمْ . وَإِنَّ اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ وَعَلَى الْعِلْقِ جَبَلِكُمْ ، وَالْبَهَائِمَ
وَعَلَى الْهَوَى فُطْرَهُمْ ، وَبَنَى آدَمَ وَرَكَّبَ فِيهِمُ الْأُمُورَ ، فَمَنْ غَلَبَ هَوَاهُ عَقَلُهُ فَهُوَ شَرٌّ
مِنَ الْبَهَائِمِ ، وَمَنْ غَلَبَ عَقَلُهُ هَوَاهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ . . كذلك قال المشايخ .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ
وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ * ثم قَبَضْنَاهُ
إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا *

قيل رَزَلَّ الرسول — صلى الله عليه وسلم — في بعض أسفاره وقت التيلولة في ظل شجرة
وكانوا خُلُقًا كثيرًا فَمَدَّ اللَّهُ ظِلَّ تلك الشجرة حتى وسع جميعهم وكانوا كثيرين ، فأزال الله
هذه الآية ، وكان ذلك من جملة معجزاته عليه السلام .

وقيل إن الله في ابتداء النهار قبل طلوع الشمس يجعل الأرض كلها ظلاً ، ثم إذا طلعت
الشمس ، وانبسط على وجه الأرض شعاعها فكل شخص يُبْسِطُ لَهُ ظِلٌّ ، ولا يُعَيِّبُ ذلك
الموضع شعاع الشمس ، ثم يتناقص إلى وقت الزوال ، ثم يأخذ في الزيادة وقت الزوال .
وذلك من أمارات قدرة الله تعالى ؛ لأنه أجرى المادة بخلق الظل والضوء والقيء .

قوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾ : أي دائماً . « ثم قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا » ؛ أي حال
ارتفاع الشمس ونقصان الظل .

أوبال : ألم تر إلى ربك كيف مَدَّ ظل العناية على أحوال أوليائه ؛ فقومٌ هم في ظل الحماية ،
وآخرون في ظل الرعاية ، وآخرون في ظل العناية ، والفقراء في ظل الكفاية ، والأغنياء
في ظل الراحة من الشكاية .

ظلُّ هو ظل العصمة ، وظل هو ظل الرحمة ؛ فالعصمة للأنبياء عليهم السلام ثم للأولياء ،
والرحمة للمؤمنين ، ثم في الدنيا لكافة الخلائق أجمعين . ويقال قوله لَنُبَيِّنَ صلى الله عليه وسلم :
« ألم تر إلى ربك » ثم قوله : « كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » سترًا لما كان كاشفة به أولاً ، لإجراء للشيء

في إخفاء الحلال عن الرقيب. قال لومي عليه السلام : « لَنْ تَرَانِي » . وقال لنبينا عليه السلام :
« أَلَمْ تَر إِلَى رَيْك » وشنان ماها ١

ويقال أحياء قلبه بقوله : « أَلَمْ تَر إِلَى رَيْك » إلى أن قال : « كَيْفَ مَدَّ الظِّل » فجعل
استقلاله بقوله : « أَلَمْ تَر إِلَى رَيْك » إلى أن سمع ذكر الظل . ويقال أحياء بقوله :
« أَلَمْ تَر إِلَى رَيْك » ثم أفناه بقوله : « كَيْفَ مَدَّ الظِّل » وكنا سئلته مع عباده : يُرَدُّدُهُمْ بَيْنَ
إِفْنَاءٍ وَإِقْبَاءٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَسَآءَا
وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ^(١) وَجَعَلَ النَّهَارَ عُسْرًا ﴾
جعل الليل وقتاً لكون قومٍ موقوفاً لاتزعاج الآخرين ؛ فأرطب النفلة يسكنون في ليالهم ،
والمحبون يسهرون في ليالهم إن كانوا في رَوْحِ الوصال ، فلا يأخذهم النوم لكال إِيْسِهِمْ ،
وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكال قلقهم ، فالسهر الإيجاب صفة : إما لكال
السرور أو لهجوم المصوم . ويقال جعل النوم للأحباب وقت التجلّي بما لا سبيل إليه
في اليقظة ، فإذا رأوا ربهم في المنام يؤثرون النوم على السهر ^(٢) ، قال قائمهم :
وإِنِّي لَأَسْتَفْقِي وَمَا بِي تَقَسُّ لَيْلٌ خِيَالاً مِنْكَ بَلَقِي خِيَالِيَا
وقال قائمهم :

رَأَيْتُ سُرُورَ قَلْبِي فِي مَنَامِي فَأَحْبَبْتُ التَّنَاسُّعَ وَالْمَنَامَا
ويقال النوم لأهل النفلة عقوبة ولأهل الاجتهاد رحمة ؛ فإن الحق — سبحانه —
يُدْخِلُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ ضَرُورَةً رَحْمَةً مِنْهُ بِنَفْسِهِمْ لِيَسْتَرْجِعُوا مِنْ كَدِّ الْجَاهِدَةِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً طَهُورًا ﴾

(١) السبت = القطع . والتأمم مسبوته لأنه انقطع عنه وحركته . وتبيل السبات = الموت ، وللسبون
الليت لأنه مقطوع الحياة . وهو كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » ، ويضبطه ذكر النشور
في معانيه .

(٢) ذكر القشيري في باب « رؤيا اليوم » برسااته أمثلة كثيرة لكرامات التي تحققت للأولياء أثناء
نومهم ، وكان بعضها ذا تأثير عظيم في مجرى حياتهم . (الرسالة ص ١٩٢ وما بعدها) .

يُرْسِلُ رِيَّاحَ الْكَوْمِ قَهَبٍ عَلَى قُلُوبِ خَوَى الْحَاجِلَتِ قَتَرِجِهَا إِلَى طَلَبِ مِبَارِءٍ ،
وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْوَلَايَةِ قَهَبٍ عَلَى قُلُوبِ الْخَوَاصِ قَتَطْهَرُهَا مِنْ جَمِيعِ الْإِرَادَاتِ فَتُكْفَى بِاللَّهِ ،
وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْخَوَافِ عَلَى قُلُوبِ الْعَصَاةِ فَتَحْلُمُ عَلَى التَّذَمُّرِ ، وَتَطْهَرُهَا مِنَ الْإِسْرَارِ فَتَرْجِعُ
إِلَى التَّوْبَةِ ، وَيُرْسِلُ رِيَّاحَ الْاِشْتِيَاقِ عَلَى قُلُوبِ الْأَحْبَابِ قَتَزِيحُهَا مِنَ الْمَسَاكِنَاتِ ،
وَتَطْهَرُهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ الْوَاغِيجِ فَلَا تَسْتَفِرُّ إِلَّا بِالْكَشْفِ وَالتَّجَلِّيِ .

وَيَقَالُ إِذَا تَنَسَّمَ الْقَلْبُ لِسِيمَ الْقُرْبِ هَامٌ فِي مَلَكُوتِ الْجَلَالِ ، وَامْتَنَحَى عَنْ كُلِّ
مِرْسُومٍ وَمَعْرُودٍ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾

لِتُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْيَاسًا وَلِتُسْقِيَ
بِمَا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْزَلْنَاهُ كَثِيرًا
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِم مِّنْهُ لِيَذَكَّرُوا
فَإِنِّي أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَافِرًا ۝

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً الْمَطَرَ فَأَحْيَا بِهِ النِّبَاتَ وَالرِّيَاضَ ، وَأَنْبَتَ بِهِ الْأَزْهَارَ وَالْأَنْوَارَ ،
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً الرَّجَّةَ فَفَسَلَ الْعَصَاةُ مَا تَلَطَّخُوا بِهِ مِنَ الْأَوْضَارِ ، وَمَا تَدَبَّسُوا بِهِ
مِنَ الْأَوْزَارِ .

و « الطَّهُّورُ » هُوَ الطَّاهِرُ الْمُطَهَّرُ ، وَمَاءُ الْحَيَاءِ يُطَهِّرُ قُلُوبَ الْمَارْفِقِينَ مِنَ الْجَنُوحِ
إِلَى الْمَسَاكِنَاتِ وَمَا يَتَدَاخَلُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنَ النِّفَالَتِ . وَمَاءُ الرَّعَايَةِ يُحْيِي بِهِ قُلُوبَ
لِلْاِشْتِيَاقِ بِمَا يَتَدَاخَلُهَا مِنْ أَنْوَارِ التَّجَلِّيِ حَتَّى يَزُولَ عَنْهَا عَطَشُ الْاِشْتِيَاقِ وَيَحْصِلُ فِيهَا مِنْ
سَكِينَةِ الْاِسْتِقْلَالِ ، وَيُحْيِي بِهِ قَوْمًا مِثْلَ بَاتِياعٍ^(١) الشَّهَوَاتِ فَيُرْدِيهَا إِلَى الْقِيَامِ بِالْعِبَادَاتِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَظَعَنَّا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ
نَذِيرًا ۝

(١) الْبَاءُ فِي (بَاتِياع) مِثْلُهَا (بَسْبَب) .

إِنَّ اللَّهَ — سبحانه — خَصَّ نَبِيَّنَا صلى الله عليه وسلم بِأَنْ فَضَّلَهُ عَلَى الْكَافَّةِ ، وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْجَمَلَةِ ، وَبِأَلَّا يُنْسَخَ شَرْعُهُ إِلَى الْأَبَدِ . وَبِهَذِهِ الْآيَةِ أَذْبَهُ بِأَدَقِّ إِشَارَةٍ ، حَيْثُ قَالَ : « وَلَوْ شِئْنَا لَظَنَّتُمْ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا » وَهَذَا كَمَا قَالَ : « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » (١) .

وَقَصْدُ الْحَقِّ أَنْ يَكُونَ خَوَاصُّ عِبَادِهِ أَبَدًا مَعْصُومِينَ عَنْ شَوَاهِدِهِمْ .

وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَيَّرَ وَقَتًا بِكَثْرَةِ مَا كَانَ يُسْأَلُ ، فَأَوْحَى اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَى أَلْفِ نَبِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَصْبَحُوا رُسُلًا ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَضَاقَ قَلْبُ مُوسَى وَقَالَ : يَا رَبِّ ، إِنِّي لَا أَطِيقُ ذَلِكَ ! فَخَبَضَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَلَا تَطِيعُ السَّكَافِرِينَ وَجَاهِدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

أَيُّ كُنْ قَائِمًا بِحَقِّنَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مِنْكَ جُنُوحٌ إِلَى غَيْرِنَا أَوْ مِبَالَةٌ بَيْنَ سَوَانَا ، فَإِنَّا نَعَصِيكَ بِكُلِّ وَجْهِ ، وَلَا نَرْفَعُ عَنْكَ ظِلًّا عَنَانَيْنَا بِحَالٍ .

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا يَمْلِحُ أَجَاعٌ وَجَلَّ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ .

الْبَحْرُ الْمِلْحُ لَا عَذْوِيَّةَ فِيهِ ، وَالْمَذْبُ لَا مِلْحَةَ فِيهِ ، وَهَذَا فِي الْجَوْهَرِيَّةِ وَاحِدٌ ، وَلَكِنَّهُ سَبَّحَانَهُ — بِقُدْرَتِهِ — غَايَرَ بَيْنَهُمَا فِي الصِّفَةِ ، كَذَلِكَ خَلَقَ الْقُلُوبَ ؛ بَعْضُهَا مَعْدِنُ الْيَقِينِ وَالْعَرَفَانِ ؛ وَبَعْضُهَا مَحَلُّ الشَّكِّ وَالْكَفْرَانِ .

وَيَقَالُ أَثْبَتَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ الْخُوفَ وَالرَّجَاءَ ، فَلَا الْخُوفَ يَغْلِبُ الرَّجَاءُ ، وَلَا الرَّجَاءَ يَغْلِبُ الْخُوفُ .

(١) آيَةُ ٨٦ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ .

ويقال خَلَقَ القلوبَ على وصفين : قلب المؤمنِ مُضَيَّغًا (مشرقًا^(١)) وقلب الكافرِ أسود مظلماً ، هذا بنور الإيمانِ مُزَيَّنٌ ، وهذا بظلمة الجحودِ مُعَمَّمٌ .

ويقال قلوبُ العوامِ في أسرِ المطالبِ ورغائبِ الحظوظِ ، وقلوبُ الخواصِّ مُعْتَقَةٌ عن المطالبِ ، مُجَرَّدَةٌ عن رِقِّ الحظوظِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا جَعَلَهُ نَبَاً وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

اَلْخَلْقُ منشأ كلون في أصل الخلقة ، متباينون في الجوهرية ، متباينون في الصفة ، مختلفون في الصورة ؛ فنفسُ الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار ، ونفوسُ المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى الجنة . واَلْخَلْقُ بَشَرٌ . . . ولكن ليس كلُّ بَشَرٍ كبشرٍ واحدٍ عدوٌّ لا يَسْتَمِي إلا في مخالفته ، ولا يعيش إلا بنصيبه وحظِّه ، ولا يحتمل الرياضة ولا يرتقي عن حدِّ الوقاحة والفساسة ، وواحدٌ ولئى لا يَفْتَرُّ عن طاعته ، ولا يَنْزِلُ عن هيئته ، فهو في سماء تميزه بمعبوده .

وينهما فناس مناهل ومشارب ؛ فواحدٌ يكون كما قال :

﴿ وَيَعْبُدُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾

يكنى بالنعوتِ من الخشب ، والمصنوع من الصخر ، والمُتَّخَذِ من النحاس ، وكلها جمادات لا تغل ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع .

أما للؤمنُ فإنَّ من صفاته أنه لا يلتفت إلى العرش — وإن علا ، ولا ينقاد بقلبه لخالقي — وإن اتصف بمناقب لا تُحصى

(١) وردت في م ولم ترد في س .

قوله جل ذكره : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ .

رسولاً مبشراً ، مأموراً بالإنذار والتبشير ، واقعاً حيث وقفناك على نمت التبليغ ، غير طالب منهم أجراً ، وغير طامع في أن تعبد منهم حظاً .

قوله جل ذكره : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ

سَبِيلًا﴾ .

«إلا» أداة استثناء منقطع ، إذ ابتناؤم السبيل إلى ربهم ليس بأجر يأخذه منهم ، فهو لين أقبل بشير ، ولين أعرض نذير .

قوله جل ذكره : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت﴾ .

التوكل تفويض الأمور إلى الله . وحقه وأصله علم المبدئ بأن الحادثات كلها حاصلة من الله تعالى ، وأنه لا يقدر أحد على الإيجاد غيره .

فإذا عرف هذا فهو فيما يحتاج إليه — إذا علم أن مرادة لا يرتفع إلا من قبل الله — حصل له أصل التوكل . وهذا القدر قرئ ، وهو من شرائط الإيمان ، فإن الله تعالى يقول : «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين»^(١) وما زاد على هذا القدر — وهو سكون القلب وزوال الازعاج والاضطراب — فهي أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله .

فإن قرئ هذا فالتناس في الاكتفاء والسكون على أقسام ، ولكل درجة من هذه الأقسام اسم : إما من حيث الاشتقاق ، أو من حيث الاصطلاح .

فأول رتبة فيه أن يكتفي بما في يده ، ولا يطلب زيادة عليه ، ويستريح قلبه من طلب الزيادة . وتسمى هذه الحالة القناعة ، وفيها يقف صاحبها حيث وقف ، ويقنع بالحاصل له

(١) آية ٢٣ سورة طه .

والمطلوب منا أن نلاحظ دائماً ظاهرة هامة نهينا إليها في مدخل هذا الكتاب ، وهي أن التبشيري بمحاول أولاً استمداد المصطلح الصوري من كتاب الله ، (فالتوكل) الذي هو ركن هام من أركان الطريق الصوري له أصل في القرآن . ثم تأتي من بعد ذلك مرحلة البحث في تطور هذا الأصل ونموه في بيئة التصوفة .

فلاستزيد . ثم اكفاه كل أحد يختلف في القوة والكثرة وراحة قلب هؤلاء في التخلص من الجرم وزيارة الزيادة .

ثم بعد هذا سكون القلب في حالة عدم وجود الأسباب ، فيكون مجرداً عن الشيء ، ويكون في إرادته متوكلاً على الله . وهؤلاء متباينون في الرتبة ، فواحد يكتفى بوعده لأنه مدته في ضائه ، فيسكن — عند فقد الأسباب — بقلبه ثقةً منه بوعده . . . ويسى هذا توكلاً ، ويقال على هذا : إن التوكل سكون القلب بضمان الرب ، أو سكون الجأش في طلب المعاش ، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نقده ، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد .

والألف من هذا أن يكتفى بعمله أنه يعلم جاله فيشتغل بما أمره الله ، ويسل على طاعته ولا يراعى إنجاز ما وعده ، بل بكل أمره إلى الله . . . وهذا هو التسليم .

وفوق هذا التفويض^(١) ، وهو أن يسكن أمره إلى الله ، ولا يقترح على مولاه بحال ، ولا يختار ، ويستوى عنده وجود الأسباب وعدمها ، فيشتغل بأداء ما أمره الله ، ولا يسكن في حال نفسه ، ويعلم أنه مملوك لمولاه ، والسيد أولى بعبده من العبد بنفسه^(٢) .

فإذا ارتقى عن هذه الحالة وجد راحة في اللزج ، واستمنب ما يستقبله من الرذ . . . وتلك هي مرتبة الرضا^(٣) ، ويحصل له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه ما لا يحصل لمن دونه من الخلاوة في وجود المقصود .

(١) الواقع أن القشيري هنا متأثر بالأراء الكثيرة التي أدلى بها الشيوخ في هذا الموضوع ، وعلى وجه الخصوص شيخه الفائق ، الذي يقول : التوكل ثلاث درجات : التوكل ثم التسليم ثم التفويض ؛ فالتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفى بعهده ، وصاحب التفويض يرضى بحكم . ويقول كذلك : التوكل بداية والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية . ويقول كذلك : التوكل صفات المؤمنين والتسليم صفات الأولياء والتفويض صفات الموحدين . (الرسالة ص ٨٥) .

(٢) يروى في هذا الباب أن جماعة سألوا الجليلي : أين تلعب الرزق ؟

فقال : إن علمت في أي موضع هو فاطلبوه . قالوا : فقلنا الله تعالى ذلك .

فقال : إن علمت أنه يسكنكم فذكروه . فقالوا : فدخل البيت فتوكل ؟

فقال : التجربة تلك قالوا : فله الحيلة ؟

فقال : ترك الحيلة (الرسالة الصفحة ذاتها) .

(٣) كذلك ربط السراج في « ليله » بين التوكل والرضا بوصفها مقامين متباينين في مقامات الطريق

(المص ص ٧٩ من أسفل) .

وبعد هذا المواجهة ، وهي ألا يجد الراحة في المنع ، بل يجد بذلك هنا عند لسم القرب زوائد الأُس بفسيان كلَّ أَرَبٍ ، ونسبان وجود سبب أو عدم وجود سبب ؛ فكأن حلاوة الطاعة تتصاغر عند بَرَدِ الرضا — وأصحاب الرضا يمدون فك حجاباً — فكذلك أهل الأُس بالله ... ينسبان كلَّ فَقْدٍ وَجَدَ ، وبالتناقل من أحوالهم في الوجود والعدم يمدون التزول إلى استقذاذ المنع ، والاستقلال بلطائف الرضا حصاناً في الحل .

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة فيؤخذ المبد عن جهلته بالكلية ، والعبارة عن هذه الحالة أنه يحدث الحود والاستهلاك والوجود والاصطلام والفناء . . . وأمثال هذا ، وذلك هو عين التوحيد ، فبعد ذلك لا أُنْسَ ولا هبة ، ولا لذة ولا راحة ، ولا وحشة ولا آفة .

هنا بيان ترتيبهم ^(١) . فأمّا ما دون ذلك فلظهور عن أحوال المتوكلين — على تباين شَرِيحٍ — يختلف على حسب اختلاف محالهم .

فيقال شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد ؛ لا شيءٌ مِنْ قَبْلِهِ إلا أن يرضعه مَنْ هو في حضنته ^(٢) .

ويقال التوكل زوال الاستشراف ، وسقوط الطمع ، وفراغ القلب من نصب الانتظار .

ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها .

ويقال إذا وثق القلب بجزئ التمس لا يضره الكسب ، ولا يقدح في توكله ^(٣) .

ويقال عوام المتوكلين إذا أُعْطُوا شُكْرُوا ، وإذا مُنِعُوا صَبَرُوا . وخوأمهم إذا أُعْطُوا آثَرُوا ، وإذا مُنِعُوا شُكْرُوا .

(١) هنا الترتيب الذي ذكره القشيري على جانب كبير من الأهمية لأنه أولاً يكشف عن التدرج في مراتب التوكل واحدة بعد الأخرى ، والفاصل النفسية المرتبطة بكل منها ، كما أنه يكشف عن مرحلة الانتقال من الفاعل — التي هي جهود — إلى الأحوال التي هي من عين الجود . وواضح أن (الرضا) يجعل في طياته طبيعة هذه المرحلة الانتقالية ، وقد طالع القشيري هذه الظاهرة في رسالته ص ٩٧ .
(٢) القشيري متأثر بأقوال الشيوخ في ذلك : نحو د للتوكل كالطفل لا يرف شيئاً يأوى إليه إلا ندى أمه (الرسالة ص ٨٥ وقولهم) (الصوفية أطفال في حجر الحق) الرسالة ص ١٣٩ .
(٣) هذه نقطة هامة جداً توضح أن التوكل الصوحي الحق لا يتعارض مع الكسب ، ولا يتعارض معه الكسب . . . وقد كذب من ادعى التواكل وكذب من اتهم الصوفية بالكسال .

ويقال الحق يجود على الأولياء — إذا توكّلوا — بتيسير السبب من حيث يُحْتَسَبُ ولا يُحْتَسَبُ ، ويجود على الأصفياء بسقوط الأرب ... وإذا لم يكن الأربُ فتنى يكون الطلب ؟

ويقال التوكّل في الأسباب الدنيوية إلى حدٍّ ، فأما التوكّل على الله في إصلاحه — سبحانه — أمورٌ أخرى العبد فهذا أشدُّ غوصاً ، وأكثرُ خفاه . فالواجبُ في الأسباب الدنيوية أن يكون الشكُّون عن طلبها غالباً ، والحركة تكون ضرورية . فأما في أمور الآخرة وما يمتلئ بالطاعة فالواجبُ اليَدَارُ واليَدُ والانكماشُ ، والمخرجُ عن أوطان الكسل والجحور إلى الفشل .

والذى يَتَصِفُ بالتواني في المبادات ، ويتباطئ في تلافى ما ضيّعه من إرضاء المصعوم والقيام بحق الواجبات ، ثم يستند في نفسه أنه متوكّل على الله وأنه — سبحانه — يفو عنه فهو مُتَمَهِّمٌ معاولٍ الحال ، محمورٌ مُسْتَدْرَجٌ ، بل يجب أن يبدل جهده ، ويستفرغ وسعه . ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ، ولا يستند إلى سكونه وحركته ، ويبتدأ بِسِرِّهِ من حوله وقوته . ثم يكون حسن الظنِّ بربه ، ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخاف من مخافته ، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله في الحال من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب ؛ فإن ذلك — إذا حصل — فالوقتُ غَالِبٌ ، وهو أحد ما قبل في معاني قولهم : الوقت سيف^(١)

قوله جل ذكره : ﴿ الْفَى خَلَقَ السَّوَاتِ وَالْأَرْضَ

وما بينهما في سنةٍ أَلَمَ ثم استوى

على العرشِ ﴾

انظم به الكونُ — والعرشُ من جملة الكون — ولم يتجمل الحق — سبحانه — بشيء

(١) في هذا المثل يقول القشيري « أي كما أن السيف قاطع بما يحضيه الحق ويجريه غالب ، وكأأن السيف لين معه قاطع حده فن لا يثت سلم ، ومن خاشته اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجاً ، ومن عارضه انتكس وتردى ، ومن ساعده الوقت فالوقت له وقت ، ومن ناكه الوقت فالوقت عليه مقت . رسمت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الوقت مبرد يسطك ولا يمسكك » الرسالة ص ٣٤ .

من إظهار بَرِيَّتِهِ ؛ فلوَّه على العرش بقهره وقهرته ، واستواؤه بفعل خص به العرش بنسوبة أجزائه وصورته^(١) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَإِنَّا قَبْلَ لَمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قُلُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۖ ۞ ﴾ .

أقبل الحق — سبحانه — بلفظه وبفضله على أقوام ففلك وجوده ، وأعرض عن آخرين بتكبره وتمزُّزه ففلك جوده ؛ فطَرَّم على سِمة البُذْر ، وعَجَنَ طينتهم بلاء الشقاوة والصدِّ ، فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجبل والجحد .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَرَأَ نُورًا ۖ ۞ ﴾ .

زَيَّنَ السماء الدنيا بمصابيح ، وخلق فيها البروج ، وبثَّ فيها السكاكب ، وصان من الغطور والنشوش أقطارها ومناكبها ، وأدار بقدرته أفلاكها ، وأدام على ما أراد إساكها . وكما أثبت في السماء بروجاً (أثبت في سماء قلوب أوليائه وأصفيائه بروجاً)^(٢) ؛ فبروج السماء ممدودة ويزوج القلب مشهودة .

وبروجُ السماء (بيوت)^(٣) تشبها وقرها ونجمها ، ويزوجُ القلوب مطالعُ أنوارها ومشارقُ شمسها ونجمها . وتلك النجوم التي هي نجوم القلوب كالقلل والفهم والبصيرة والعلم ، وقرُ القلوب المعرفة .

(١) كانت هذه الآية وأمثالها فرصة لأراء كلامية خطيرة سواء من ناحية استواء الله — سبحانه — على العرش ومساواة تزعمه من للسكانية ، أو من ناحية خلق الله ما بين السموات والأرض وهل للتصود بذلك خلق أفعال الانسان . وقد ناقش الباقلائي في كتابه (التمهيد لأسول الدين) كلا الأمرين ، والزائع أن القشري — تلميذ الباقلائي — متأثر بأراء أستاذه إلى حد كبير . وإن كان الباقلائي أقل تأويلاً لعقائد لطيفية منه .

(٢) غير موجودة في ص وموجودة في م .

(٣) في (بيوت) وفي م (بيوت) وقد رجحنا هذه لأن الراجح (بيت يعني على سواد الدينه ولي أعلاما) كما جاء في للمسام .

قُرُ السَّاءِ لَهُ قَصَانٌ وَعِاقٌ ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ هُوَ يَدْرُ بِوَصْفِ الْكَيْلِ ، وَقُرُ الْمَرْقَةِ
أَبَدًا لَهُ إِشْرَاقٌ وَلَيْسَ لَهُ تَنْصَانٌ أَوْ عِاقٌ ، وَلَنَدَا قَالِ قَائِلُهُمْ :

دَعِ الْأَقَارَ تَغْبِوْ أَوْ تَنْهَرِ لَهَا يَدْرُ تَخْلُ لَهُ الْبِدُورُ

فَأَمَّا شَمْسُ الْقُلُوبِ فِيهِ التَّوْحِيدُ ، وَشَمْسُ السَّمَاءِ تَقْرُبُ وَلَكِنْ شَمْسُ الْقُلُوبِ لَا تَغِيبُ
وَلَا تَقْرُبُ ، وَفِي مَعْنَاهُ قَالُوا :

إِنْ شَمْسُ النَّهَارِ تَقْرُبُ بِاللَّيْلِ وَشَمْسُ الْقُلُوبِ لَيْسَتْ تَغِيبُ

وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إِنْ شَمْسُ النَّهَارِ تَقْرُبُ بِاللَّيْلِ ، وَشَمْسُ الْقُلُوبِ سَلَطَتُهَا فِي النُّوْهِ
وَالْعَالَمِ بِاللَّيْلِ أَيْمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً ﴾

لَيْنَ ارَادَ أَنْ يَدْرُ كَرَّ أَوْ ارَادَ
شُكُورًا .

الْأَوْقَاتُ مُتَجَاوِةٌ ، وَتَنْضِيلُهَا بِمَضَاهَا عَلَى بَعْضٍ عَلَى مَعْنَى أَنَّ الطَّاعَةَ فِي الْبَعْضِ أَفْضَلُ
وَالثَّوَابُ عَلَيْهَا أَكْثَرُ . وَاللَّيْلُ خَلْفَ النَّهَارِ وَالنَّهَارُ خَلْفَ اللَّيْلِ ، فَمَنْ وَقَعَ لَهُ فِي طَاعَةِ الْهَيْلِ
خَلَلَ فَإِذَا حَضَرَ بِالنَّهَارِ فَذَلِكَ وَجُودُ جُيُورَاتِهِ ، وَإِنْ حَصَلَ فِي طَاعَةِ النَّهَارِ خَلَلَ فَإِذَا حَضَرَ
بِاللَّيْلِ فَفِي ذَلِكَ إِتِمَامٌ لِنَقْصَانِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى

الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
قَالُوا سَلَامًا ﴾ .

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ مَ الَّذِينَ وَفَّقُوا لِلطَّاعَاتِ ، فَبَرَحَتِهِ وَصَلُوا إِلَى التَّوْفِيقِ
لِلطَّاعَةِ . وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ غَدَا رَحْمَتِهِ مَ الْقَائِمُونَ بِرَحْمَتِهِ ؛ فَبَرَحَتِهِ وَصَلُوا إِلَى
طَاعَتِهِ . . هَكَذَا بَيَانُ الْحَقِيقَةِ ، وَطَاعَتُهُمْ وَصَلُوا إِلَى جَنَّتِهِ . . هَكَذَا لِسَانُ الشَّرِيعَةِ .

ومعنى « هونا » متواضعين متخاضعين

ويقال شرطُ التواضع وحده ألا يستحسن شيئاً من أحواله ، حتى قالوا^(١) : إذا نظرَ إلى رجله لا يستحسن شيئاً عليه ، وعلى هذا القياس لا يُسارِكُنْ أَعْمَالَهُ ، ولا يلاحظ أحواله .
قوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » : قيل سداد المنطق ؛ ويقال مَنْ خاطَبَهُم بالقدح فهم يجاوبونه بالمدح له .

ويقال إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم ، الطاعنون فيهم ، العائثون لهم قابِلوا ذلك بالزُّفَرِ ، وحَسَنَ الخلقِ ، وللقول الحسن والسكلام الطيب .
ويقال يجيرون مَنْ جنام أُنهم في أمانٍ من الجفافة^(٢)

قوله جل ذكره ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾
يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين ؛ فَوَجَدَ صباحهم ثمراتِ سجودِ أرواحهم ، كذا في الخبر : « مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسَنَ وَجْهِهِ بِالنَّهَارِ » أى عَظُمَ ماء وجهه عند الله ، وأحسنَ الأشياء ظاهِرُ بالسجودِ حُسْنٌ وباطنُ بالوجودِ مُزَيَّنٌ .
ويقال متصفين بالسجود قياماً بأدب الوجود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾
* إِنَّهَا حَادَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *

يجتهدون غاية الاجتهاد ، ويستفرغون نهاية الوسع ، وعند السؤال ينزلون منزلة العصاة ، ويقفون موقف أهل الاعتذار ، ويخاطبون بلسان التَّنَصُّلِ^(٣) كما قيل :

وما رُمْتُ النخولَ عليه حتى حَلَّتْ محلة المبد القليل

(١) هذا القول منه القشيري من شيخه الفائق (الرسالة ص ٧٤) .

(٢) وودت (المسكافة) والصواب أن تكون (الجفافة) بمعنى أنهم لا يقابلون الجفاء بالجفاء ، فمن عَادَمَ أَمِنْ مِنْ انتقامهم أو على معنى أن جفافة الأعداء لا تمصيم بأذى إذ ليس في مقدور أحد أن يؤذي أولياء الله .

(٣) وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله عليه : « الذين يؤثرون ما آتوا وظهورهم وجه » . رواه أحمد عن عائشة ، والترمذي وابن أبي حاتم ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَفْقُوا لَمْ يَمُوتُوا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوْتٌ مُبِينٌ ﴾ .

الإسرافُ أن تنفق في الموى وفي نصيب النفس ، فأما ما كان لله فليس فيه إسراف ، والإقتارُ ما كان ادخاراً عن الله . فأما التضيقُ على النفسِ منعاً لها عن اتباع الشهوات ولتعود الاجتزاء باليسير فليس بالإقتار المذموم .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ ^(١)

﴿ إِلَهًا آخَرَ ﴾ : في الظاهر عبادة الأصنام الممولةة من الأحجار ، المنحوتة من الأشجار . وكما تنصف بهذا النفوسُ والأبشارُ فكذلك توهم المبار والمضار من الأغيار شريكاً .
﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ... ﴾ من النفوس المحرم قتلها على العبد نفسه المسكنة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ ^(٢) . وقتل النفس من غير حق تمكينك لها من اتباع ما فيه هلاكها في الآخرة ؛ فإن العبد إذا لم يته مأموراً .

(١) (عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً عليه الصلاة والسلام فقالوا : إن الذي نقول وتدعو إليه لمن لو تخبرنا أن لما علمنا كفاية فترك الآية : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... ﴾ إلى قوله تعالى : غفوراً رحيماً » رواه مسلم عن إبراهيم بن دينار عن حجاج .) (عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل نداً وهو خلقك . قال : قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم منك . قال قلت ثم أي ؟

قال : أن تزاني حيلة جارك . فأنزل الله هذه الآية وما بعدها تصديقاً لذلك) رواه البخاري ومسلم عن عثمان بن أبي شيبة ، عن جرير .

(عن ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشي إلى النبي (ص) فقال : يا عبد الله أنت مجتبر فأجرتني حتى أسمع كلام الله ، فقال الرسول : قد كنت أحب أن أراك على خير جوار ، فأما إذا أتيتني مستجيراً فأنت لي جوارى حتى أسمع كلام الله . قال : فأتى أشرك بالله وقتل النفس التي حرم الله وزنت ، فهل يقبل الله من توبة ؟ فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلت الآية . . وأسلم وحشي) .
(٢) آية ٢٩ سورة النساء .

ثم دليلُ انطباعِ أذَنَتَها بالحقِّ^(١) ، وذلك بِذُبْحِها بِسَكِينِ المَخالِفاتِ ، فإِذَا فَلاحَتْ
إِلَّا بِقَتْلِ نَفْسِكَ الَّتِي بَيْنَ جَنِيحِكَ .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ ذِكْرًا أَتَمًّا ﴾ .

يُضَاعَفُ لَمْ العَذابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَصْرَاتِ الفِرْقَةِ وَزَفَرَاتِ الحِرْقَةِ . وآخرون يضاعف لَمْ
العَذابُ اليَوْمَ بِقِرَامِ الخِلْدَانِ وَوَشَكِ المِجْرَانِ وَدَوَامِ الحِرْمَانِ . بل مَنْ كَانَ مُضَاعَفَ العَذَابِ
فِي عِقَابِهِ فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ مُضَاعَفَ العَذَابِ فِي دُنْيَاهُ ؛ جَاهُ فِي الخَلْبِ : مَنْ كَانَ بِجَالِئِهِ لِقَى
اللهِ بِهَا .

قوله جل ذكره : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾

فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

إِلَّا مَنْ تَلَبَّ مِنَ الذَّنْبِ فِي الحَالِ ؛ وَآمَنَ فِي المَالِ .

ويقال « وآمن » أن نجاته بفضل الله لا بتوبته ، « وعمل صالحًا » لا ينقض توبته .

ويقال إنَّ نَقْضَ تَوْبَتِهِ عَمَلٌ صَالِحًا أَى جَدَّدَ تَوْبَتَهُ ؛ « فهو لاء يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ
حَسَنَاتٍ » . ويخلق لَمْ التوفيق بدلًا مِنْ الخِلْدَانِ^(٢) .

ويقال يبدل الله سيئاتهم حسنات فينفر لم ويثيبهم على توبتهم .

ويقال يحو ذلَّةَ زَلَّاتِهِمْ ، وَيُثَبِّتُ بَدَلَهَا الخَيْرَاتِ والحَسَنَاتِ ، وَفِي معناه أَنشَدُوا :

وَلَمَّا رَضُوا بِالْغُفْرِ مِنْ ذِي زَلَّةٍ حَتَّى أَنَالُوا كَنَّهُ وَأَغْدُوا

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا

مُرُوا بِالْفِتْنِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ وَالَّذِينَ

(١) تذكر كيف يفرق القشيمى بين حظ النفس وحق الله ، ولاحظ كيف أحسن استغلال الاستثناء
منا (قتل النفس إلا بالحق) أى ذُبْحِها بِسَكِينِ المِجْرَانِ فِي سَبِيلِ حَقِّ اللهِ .

(٢) وامنح من هذا الزاى مدى اتساع صدور الصوابية للأمل في الأخذ بيد المصاة ، فرحة الله
— في نظرم — أكثر وجابة من أن تضيق في وجه من عثرت أقدامه .

إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا
عليها صُماً وَعُمِيَاناً ﴿١﴾ .

يستمكنون في مواطن الصدق لا يرحون عنها ليلاً ونهاراً ، وقولاً وفعلًا . وإذا مروا
بأصحاب الزلات ومساكن المخالفات مروا متمكنين مُعْرِضِينَ لَا يَسْكُنُونَ أَهْلَ تِلْكَ الْحَالَةِ .
ويقال نزلت الآية في أقوام مرثوا — لما دخلوا مكة بأبواب البيوت التي كانوا يمدون
فيها الأصنام مرة — منكرين دون أن يلاحظوها أو يلتفتوا إليها فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ .
ثم قال في صفتهم : « والذين إذا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمِيَاناً » :
بل تأملوها بالتفكير والتأمل ، واستعمل النظر .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ
أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
وَاجْعَلْنَا لِلْعَالَمِينَ إِمَامًا ﴾ .

قرة العين مَنْ به حياة الروح ، وإنما يكون كذلك إذا كان بحقُّ الله تَعَالَى .
ويقال قرة العين مَنْ كان طاعة ربه مآقماً ، ومخالفة أمره مفارقاً .
« واجعلنا للعالمين إماماً » الإمام مَنْ يُعْتَدَى بِهِ وَلَا يَسْتَدْعَى .
ويقال إن الله مسح أقواماً ذكروا رتبة الإمامة فسألوها بنوع تضرع ، ولم يدعوا فيها
اختيارهم ؛ فالإمامة بالعدل لا بالدعوى ، فقالوا : « واجعلنا للعالمين إماماً » .

قوله جل ذكره : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا
وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ .

يعطى — سبحانه — الكثير من عطائه ويسده قليلاً ، ويتقبل اليسير من طاعة العبد
ويسده كثيراً عظمياً ، يطمئنه الجنة قصوراً وحوراً ثم يقول : « أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ » ،
ويتقبل اليسير من العبد فيقول : « فجاء بسجل سمين » ^(١) .

(١) آية ٢٢ سورة النازيات .

قوله : « ويلقون فيها تحية وسلاماً » : يسمعون سلامه عليهم بلا واسطة ، ويتجلى لهم لبرؤءه من غير تكلف قل ، ولا تحمل قطع مسافة^(١)

ويقال « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان »^(٢) : اليوم يحضر المبدء بيته لأداء العبادة ، وينقل أقدامه إلى المساجد ، وغداً يجازيهم بأن يكفيهم قطع المسافة ، فهم على أرائكمهم — في مستقر عزيم — يسمعون كلام الله ، وينظرون إلى الله .

قوله : « يا صبروا » أى صبروا عما نهوا عنه ، وصبروا على الأحكام التى أوجراها عليهم بترك اختيارهم ، وحسن الرضا بقتديره .

قوله جل ذكره : « خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً »

مقيمين لا يرحلون منازلهم^(٣) ، وفى أحوالهم حسن مستقرهم مستقراً ، وحسن مقامهم مقاماً .

قوله جل ذكره : « قل ما يعمى بكم ربى لولا دعاؤكم

قد كذبتم فسوف يكون لزاماً » .

لولا عبادتكم الأصنام ودعاؤكم لإياها باستحقاق العبادة وتسبينكم لها آلهة .. متى كان يخلدكم فى النار ؟ .

ويقال لولا نضر عكم ودعاؤكم بوصف الانبهاال لأدام بكم البلاء ، ولكن لا أخذتم فى الاستكانة والدعاء ، ونضر عكم رحمتكم وكشف الضر عنكم .

(١) يضاف هنا الكلام إلى رأى التشيى فى موضوع الرؤية فى الآخرة

(٢) آية : ٦٠ سورة الرحمن .

(٣) يضاف هنا الكلام إلى رأى التشيى فى تأييد نعم أهل الجنة .

مجلد الثاني ويليءه المجلد الثالث
وأوله سورة الشعراء

فهرس

الصفحة

● سورة التوبة	٥
● سورة يونس	٢٦
● سورة هود	١٢٠
● سورة يوسف	١٦٤
● سورة الزعد	٢١٥
● سورة إبراهيم	٢٣٨
● سورة الحجر	٢٦٢
● سورة النحل	٢٨٤
● سورة بني إسرائيل	٣٣٣
● سورة الكهف	٣٧٥
● سورة مريم	٤١٨
● سورة طه	٤٤٤
● سورة الأنبياء	٤٩١
● سورة الحج	٥٢٧
● سورة المؤمنون	٥٦٦
● سورة النور	٥٩٢
● سورة الفرقان	٦٢٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٢٦٩ / ٢٠٠٠

I . S . B . N 977 - 01 - 6599 - 9

هذا هو المجلد الثاني من (لطائف الإشارات) للإمام القشيري رحمه الله الذي اعتمد فيه على إبراز الجانب الإلهي في تجليه على أصفياه من خلقه وفي ذلك يقول: «أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسرارِه وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفى رموزه، بما لوَّخ لأسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم، والحق - سبحانه وتعالى - يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مخبرون، وإليه يشيرون، وعنه يقصِّحون، والحكم إليه في جميع ما يأتون به ويدرون». فانظر عزيزي القارئ كيف خلص الله خلص عباده وأصفياه من خلقه - وإلى الجزء الثالث.